دكتور سيد أحمد علي الناصري
أستاذ ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة القاهرة



الناس والحياة في مصر زمن الرومان

دار النهضة العربية
القاهرة

أ.د. سيد أحمد على الناصرى
أستاذ ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الناس والحياة فى مصر

زمن الرومان في ضوء الوثائق والآثار

٣٠ ق.م - ٦٤١ م

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعى
١٩٩٥

الذين يزرعون بالدموع
يحصدون بالسرور

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

تقديم الطبعة الأولى

بسم الله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ونصلى ونسلم على رسوله الكريم الذى حثنا على البحث عن العلم ولو فى الصين وبعد .

فأنه لمن دواعى السرور أن يرسو قارب البحث بعد رحلة شاقة وطويلة في مياه النيل ، مدنه وقراه ، زمن الرومان ، لنقدم هذا العمل الذى الذى نفخر أن نقول أنه فريد فى نوعه ومنهجه بالنسبة للمؤلفات العربية الأخرى فى ذلك الموضوع ، إذ جعلنا تاريخ مصر السياسى تحت حكم الرومان فصلا من فصول الكتاب وليس كل الكتاب ، لأن اهتمامنا تركز على الجوانب الإجتماعية والإقتصادية ، كما أننا جعلنا الوثائق التى كتبها عامة الناس هي التي تتكلم عن نفسها بنفسها ، ونعيد أصوات الفلاحين لكى تدلى بشهادتها ومن خلالها نصوغ تصورنا عن المجتمع الذى عاشت فيه .

لقد ظل تاريخ مصر أسيراً لتاريخ الأمبراطورية الرومانية ردحاً من الزمن ، فقد كتب تاريخ مصر من جهة نظر المؤرخين الأغريق والرومان بعضهم لم تخطو قدماه تراب مصر فقد كان يحكم هؤلاء المؤلفين الأغريق والرومان قيود فكرية متوارثة ، بل أيضا قيود عنصرية متحيزة من خلالها صاغوا التاريخ . ولقد ورث المؤرخون الأوربيون فى العصور الحديثة تراث الأغريق والرومان فرددوا نفس الآراء القديمة خاصة أن مصر كانت قد انتقلت من مستعمرة رومانية إلى مستعمرة بريطانية وورث الإنجليز دور الرومان ، ومما يساعد علي ذلك أنه لم يكن هناك أمام المؤرخين أى مصدر آخر غير مؤلفات المؤرخين الرومان والأغريق ليستقوا منها معلوماتهم ، فمنذ عصر النهضة الأوروبية ظلت مؤلفات الكتاب الأغريق

والرومان هى المصدر الأوحد حتى كادت أن تصبح نصوصا مقدسة وظلت كذلك طوال مدة خمسة قرون تقريبا .

غير أن حادثاً هاماً زلزل حقل الدراسات التاريخية عامة وتاريخ مصر تحت حكم البطالمة والرومان خاصة ، وهو العثور على عشرات الالاف من الأوراق البردية بواسطة المنقبين الأوربيين فى أطلال مدن وقرى مصر القديمة ، وبفضل هذه الوثائق أصبح المؤرخون على إتصال مباشر لأول مرة مع عامة الناس فى مصر تماما مثلما مع سلطة الحكم الرومانى فيها . وبالتالى فمنذ القرن التاسع عشر أصبح علم البردى Papyrology وعلم النقوش Epigraphy أهم مصدرين يقوم عليهما كتابة التاريخ ، وتوارت كتابات المؤرخين القدامى لتشغل مكانة ثانوية ، بل تعرضت للنقد والتصحيح فى ضوء وثائق البردى .

لقد انتشر استخدام البردى كمادة للكتابة ليس فى مصر وحدها بل فى كافة ولايات الأمبراطورية الشرقية غير أن الظروف المناخية فيها لم تحفظها ، أما فى مصر فقد حفظت رمالها الدافئة هذا الكنز الكبير من الوثائق ، وتلك الأعداد التى لا تعد ولا تحصى من الأوستراكا أو الشقف المكتوب والتى تغطى فترة زمنية تمتد منذ إبتكار الكتابة حتى العصور الإسلامية أى لما يقرب من أربعة آلاف سنة (من ٣٠٠٠ ق م إلى ١٠٠٠ بعد الميلاد)

ومنذ عام ١٧٧٠ بدأ الرحالة الأوربيون يعودون من رحلاتهم إلى مصر والشرق الأدنى بأشياء تذكارية مثل قطع الآثار أو بعض الوثائق البردية المكتوبة بالهيروغليفية أو الديموطيقية أو الأغريقية . ومنذ عام ١٨٧٩ بدأت حمى شراء الوثائق البردية من أسواق العاديات فى القاهرة والمدونة بعدة لغات قديمة والتى كان الفلاحون يعثرون عليها أثناء بحثهم عن السباخ فى أكوام النفايات القديمة حيث اعتاد أهل القرى أن يلقوا بقماماتهم وأوراقهم المستخدمة ، وكانو يبيعونها لتجار العاديات ، كما تنافس قناصل الدول الأوروبية خاصة قناصل بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا وايطاليا فى جمع وشراء هذه الوثائق لحساب حكوماتهم خاصة أن هذه البلدان كانت فى مرحلة بناء المتاحف الحضارية الكبرى فى عواصم بلدانهم . وكانت النمسا من أنشط البلدان الأوروبية فى

جمع هذه الوثائق حتى وصلت مجموعتها قرب نهاية القرن التاسع عشر الى مايقرب من مائة الف وثيقة ، سبعون فى المائة منها مدون باللغه الأغريقية العامية (Koine) التى أنتشرت فى ولايات الأمبراطورية الرومانية في شرق البحر المتوسط ، وأغلب هذه المجموعة لايزال محفوظا فى المتحف الوطنى بفينا .

وفى عام ١٨٨٢ تأسس فى لندن هيئة صندوق التنقيب فى مصر The Egyptian Exploratin Fund ، وبفضل هذه الهيئه العلمية انتشرت أعمال التنقيب عن الآثار المصرية والتى كانت تقوم بها الجامعات والمتاحف البريطانية وعلى رأسها جامعتا اكسفورد ولندن . التى جابت بعثاتها مصر طولا وعرضا بحثا عن الاثار وفى عام ١٨٩٥ بدأت مجموعة من العلماء المتخصصين في الدراسات الأغريقية والرومانية تنقب عن الوثائق والآثار الخاصة بهذا الجانب في مصر وعلى رأسهم برنارد .ب . جرنفل .Bernard. B. Grenfell من كلية الملكة جامعة أكسفورد وزميلة بنفس الكلية آرثر . س . هنت Arthur. S. Hunt ونتيجة لمجهوداتهما وأعمال التنقيب التى قاما بها فى عدد من المواقع الأثرية فى مصر الوسطي والفيوم وبأدوات بسيطة ، أميط اللثام عن الاف من الوثائق التى شحنوها على الفور فى صناديق الى متحف جامعة أكسفورد .

وقد كان أول تنقيب لهما فى موقع مدينة أوكسيرينخوس (البهنسا محافظة بنى سويف) ، اذ قاما بالتنقيب اولا فى جبانة المدينة التى كانت عاصمة لإقليم عرف بإسمها ، غير أن النتائج الأولى كانت مخيبة للأمال ، فتركا موقع جبانة المدينة وإتجها للبحث فى أطلال المدينة ذاتها ، وعلى غير ماكانا يتوقعان ، فقد تم العثور على ارشيفات كاملة ألقى بها أصحابها فى مراحل متتالية ، وكان أهم وأغنى ما عثرا عليه مجموعة الوثائق التى ترجع الي العصر البيزنطى والتى اعلنا عن اكتشافها يومى ١٨ و١٩ مارس عام ١٨٩٧ ، بعضها كان يحوى لفافات بردية كاملة ، ويظهر تاثير ذلك فى لهجة التقرير العلمى الأولي الذى بعثا به إلى ادارة الصندوق فى لندن ونشر عام ١٨٩٦ - ١٨٩٧ وذكرا فيه أن كميات اوراق البردى كانت كثيرة لدرجة أنهما لم يجدا صناديق كافيه لملئها بهذه الأوراق البردية فاستعانا ببعض صناع السلال من الفلاحين .

لقد كانت تلال نفايات القرى والمدن التى توجد خارج المناطق السكنية هي أغنى مواقع العثور على الوثائق البردية وقطع الأوستراكا. فقد كان الناس في العصور القديمة يلقون بمخلفات بيوتهم التى يريدون التخلص منها خاصة الاوراق والوثائق التى تتراوح من الوثائق الشخصية والخطابات الأسرية الي العقود وصكوك الضرائب والكتب الأدبية. كما عثر على بعض من هذه الوثائق داخل حطام المنازل القديمة محفوظة فى جرار حفظ الأوراق، فقد كانت بعض الأسر تحتفظ ببعض الوثائق التى تهمها مثل عقود الزواج والطلاق ووثائق الملكية للاراضي الزراعية ووثائق البيع والشراء وبعض الخطابات التى يرسلها بعض أفراد الأسرة الذين اقتضت ظروفهم التواجد بعيداً عن أسرهم. كما عثر أيضا على بعض الوثائق فى المقابر، فقد كان من عادة الناس فى ذلك الوقت أن يدفنوا مع الموتى بعض النصوص الأدبية الكلاسيكية وأعمال الشعراء والخطباء الأغريق التى كانوا يقرأونها فى حياتهم اليومية لتصحبهم فى رحلتهم الى العالم الآخر.

وفى يناير عام ١٩٠٠ حدث حادث لم يكن فى الحسبان، إذ كان إدجار وهنت ينقبان في موقع مدينة تبتونس القديمة «كوم أم البريقات جنوب الفيوم» وحدث أن كان الموقع الذى ينقبان فيه هو جبانة للتماسيح المحنطة ولم يعثرا فيه على أى وثيقة بردية مما أحدث خيبة أمل بالنسبة لهما ولعمال التنقيب الذين تعودوا على تلقى «بقشيشا» كلما تم العثور على وثائق بردى، وفى نهاية الأسبوع رفض العالمان البريطانيان منح العمال البقشيش الأسبوعى، عندئذ إنهال كبير العمال بمعوله يحطم هذه الموميات وهو يلعن الحظ العسر، وفجاء انبثقت الوثائق من هذه الموميات إذ تبين أنها كانت تكفن باوراق البردى المستعملة بدلا من نسيج الكتان. ومنذ ذلك الوقت أصبحت التماسيح المحنطة مصدراً آخر لمصادر الوثائق البردية القديمة.

وقد تلى مرحلة التنقيب عن هذه الوثائق مرحلة الأنكفاء على قراءتها وفك طلاسم خطوط كتابتها السريعة المتشابكة وتصحيح الأخطاء الأملائية والنحوية لأن أغلب الذين كتبوا هذه الوثائق كانوا من عامة الناس الذين نالوا قسطا بسيطا من التعليم، ومن ثم إدى ذلك الى ظهور علم تاريخ

الخطوط Palaeography وبفضل مجهودات العلماء من أمثال ف . ج . كينيون F . G. Kenyon من المتحف البريطانى بلندن ، وأولريش ڤيلكن Ulrich Wilcken من متحف برلين وغيرهم ظهر علم الوثائق البردية Papyrology كفرع مستقل عن سائر فروع الدراسات القديمة الأخرى ، وحتى الآن ثم نشر مايقرب من ٢٥,٠٠٠ وثيقة بردية يرجع معظمها الى عصر الحكم الرومانى ، ولايزال ضعفا هذا الرقم علي الأقل ينتظر القراءة والنشر .

إن مدن الصعيد الأثرية هى المصدر الأول لأغلب الوثائق البردية سواء فى البهنسا (اوكسيرينخوس) أو أنطينوبوليس (الشيخ عبادة محافظة المنيا) أو الاشمونين (هرموبوليس ماجنا) ، بالاضافة الى مدن الفيوم خاصة كرانيس (كوم أوشيم) ، وباكخياس (أم الأثل) وتبتونس (كوم أم البريقات) وفيلادلفيا (خرابة جرزة شرق الفيوم) وغيرها ، وكان أغلب هذه الوثائق مكتوبة باللغة اليونانية العامية التى أنتشرت في ولايات الأمبراطورية الرومانية شرق البحر المتوسط ، ولم يستطع الرومان محوها وفرض لغتهم اللاتينية التى ظلت لغة القيادة العسكرية للقوات الرومانية . ولذلك فأن العثور على أوراق البردى المدونة باللغة اللاتينية كان قليلاً جداً ، وأغلبها كان يتعلق بشئون الحاميات الرومانية التى أنتشرت على طول الوادى من الأسكندرية حتي النوبة ، أما الوثائق البردية المدونة باللاتينية الأخرى فأن أغلبها كان يرجع الي القرن الثالث الميلادى بعد صدور قرار كاراكالا الشهير عام ٢١٢ م الذى منح فيه حقوق المواطنة لكافة شعوب الأمبراطورية فيما عدا الثوار المستسلمين ، وكان من نتيجة ذلك أن تنامي إستخدام اللغة اللاتينية جنبا إلى جنب مع اللغة الأغريقية ،مما أدى الى ظهور فن القواميس اليونانية اللاتينية لمساعدة المتحدثين باللغة اليونانية على فهم الوثائق اللاتينية خاصة بعد أن الغى دقلديانوس عزل مصر نهائيا عن الأمبراطورية وأدمجها دمجاً كاملاً فيها فى نهاية القرن الثالث الميلادى .

لقد أحدث نشر هذه الوثائق غير السياسية إنقلابا فى علم التاريخ ، فمنذ القرن التاسع عشر احتكر التاريخ السياسي حقل الدراسات التاريخية وأصبح محط أهتمام المؤرخين وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن علم التاريخ ليس سوى علم السياسة فى الماضى ، كما أن أغلب الوثائق المتاحة وقتذاك

كانت وثائق سياسية بالدرجة الأولى، لكن لما نشرت هذه الوثائق البردية والتى كان أغلبها يدور حول الحياة اليومية للناس، وتعبر عن وجهة نظر الطبقات الدنيا من المجتمع، بدأ المؤرخون يهتمون لأول مرة بالتاريخ الإجتماعي والإقتصادى وينتقدون أن يحتكر التاريخ السياسى حقل الدراسات التاريخية، خاصة بالنسبة لتاريخ مصر تحت حكم الرومان إذ لم يزد تاريخها عن تاريخ الأمبراطورية الرومانية وليس فيه جديد بالنسبة لمصر، وفى ضوء ذلك كتب ميخائيل روستوفتزف تاريخ العالم الهللبنستى الإجتماعى والإقتصادى وكذلك تاريخ الأمبراطورية الرومانية معتمدا على وثائق البردى المصرية. وسرعان ما امتد التأثير الى مؤرخى المناطق الأخرى، اذ خرج تريفليان Tryelyan (١٨٧٦ - ١٩٦٢) على الناس بعمله العظيم: «التاريخ الإجتماعي للشعب الإنجليزى» معلنا أنه يكتب تاريخ هذا الشعب لأول مرة بعد أن سلخ منه الجانب السياسى، وسرعان ما لفتت مدرسه التاريخ الإجتماعى والسياسى إهتمام سائر المؤرخين، وجذبت اليها الأضواء، وبدأ الهجوم على التاريخ السياسى ومدرسته، وبدأ الأهتمام يحظى بالأنسان العادى الذى هو القوة الدافعة والخلاقة للأحداث التاريخية، ووصفوا هذه الوثائق الإجتماعية والإقتصادية بأنها المادة الحقيقية لكتابة التاريخ الذى يهم كل الناس، وليس التاريخ السياسي الذى يدور حول خاصة الناس، ويختص بدائرة مغلقة من الرجال المشهورين، وتدور أحداثه حول الملوك والقياصرة، والقصور والتيجان والبرلمانات والجيوش والأساطيل، والدبلوماسية والا عيب السياسيين، والمؤامرات والحروب، وتعالت الأصوات تنادى أن يكون التاريخ مرآة لكل جوانب النشاط البشرى، ويتوجب أن يشمل كل ما يتعلق بالأنسان وقضاياه الإجتماعيه والإقتصادية والنفسية والفكرية، ولا يكون وقفا على التاريخ السياسي الذى هو تاريخ الزعماء والقادة الذين اغتصبوا السلطة بالقوة أو بالتحايل، وفرضوا أنفسهم على الناس بالقوة الجبرية والقهرية، ومن ثم فهو تاريخ الرهبة والخوف من السلطة أو تاريخ التزلف والنفاق لها. وبالرغم من ذلك فاننا لم نذهب الى حد ابعاد التاريخ السياسي جملة وتفصيلا، إذ أن أغلب القرارات السياسية كانت تنبع من مسببات إجتماعية أو إقتصادية، كما أن بعض القرارات السياسية كانت تؤدى إلى تحول كبير فى الميادين الإجتماعية

والإقتصادية ، ولذلك فقد خصصنا الفصل الأول لعرض التاريخ السياسى لمصر والأمبراطورية الرومانية منذ أواخر حكم البطالمة وتنامى نفوذ الرومان وحتى فتح العرب لمصر . أما الفصول الثمانية الأخرى فقد خصصناها للجوانب الأخرى مثل الإقتصادية والإجتماعية ، بل إننا أنهينا الفصل الأخير من الكتاب بعلاقة الناس بالسلطة الرومانية ، أى أننا بدأنا هذا الكتاب بفصل سياسى وأنهيناه بفصل سياسى ، أما غالبية الفصول فقد تركنا الوثائق تتحدث عن نفسها لتميط اللثام عن اراء الغالبية الصامتة التى ولدت وشقيت وماتت دون أن يهتم بها أحد .

ولقد كتب الدكتور عبد اللطيف أحمد على مؤلفه القيم : مصر والأمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية عام ١٩٦٠ . وكان بداية لمنهج جديد يقوم على جمع وتصنيف وترجمة الوثائق البردية الخاصة بعلاقة مصر بلامبراطورية الرومانية وكان أغلبها بالطبع يتعلق بالجانب السياسى ونحن نكمل المسيرة بأن نحاول تغطية الجوانب الأخرى غير السياسية حتى نضع بين يدى القارئ تاريخا شاملا للناس والحياة فى مصر زمن الرومان .

والله نسأل الهداية والرشاد

سبتمبر ١٩٩٥

المؤلف

الفصل الأول

معالم تاريخ مصر السياسي تحت حكم الرومان

(٣٠ ق.م - ٦٤١ م)

نهاية الأسرة البطلمية :-

في عام ٥٢ ق.م مات بطليموس الثاني عشر الملقب بالزمار Auletes بعد أن ترك وصيته لدى الرومان اوصى فيها بأن يؤول عرش مصر من بعده الى إبنته الكبرى كليوباترا السابعة الملقبة بأسم فيلوباتور - أي حبيبة ابيها . وكانت وقتذاك في الثامنة عشرة من عمرها - تتفجر شبابا وحيوية وثقافة راقية ، وإشترطت الوصية عليها أن تتزوج من أخيها الذى يليها في الترتيب وهو بطليموس الثالث عشر ، والذى كان وقتذاك في التاسعة أو العاشرة من عمره ، وأن يحكما معاً تحت وصاية الرومان ، ولم يمض عامان على توليهما حتى انطلقت الحرب الأهلية عام ٤٨ ق.م بين يوليوس قيصر - زعيم الحزب الشعبي (Populares) وبين بومبيوس الكبير - زعيم الحزب الجمهوري Optimates والتي انتهت بهزيمة بومبيوس وهروبه الى مصر حيث لقي مصرعه على يد احد الجنود الرومان المأجورين ، سواء بإيعاز من القصر البطلمي الذى اراد ان يتخلص من هذا المأزق ، أو لأسباب سياسية أو شخصية . وبعد أيام قليلة من مصرعه ، وصل يوليوس قيصر في أثره ، فلما علم بنبأ موت غريمه بومبيوس حزن عليه ورثاه ، وامر بدفن رأسه التي جيء بها إليه في ضريح خاص يقام في الأسكندرية وأعدم القاتل الخائن . ولقد حاول يوليوس قيصر - بصفته دكتاتورا على الشعب الروماني - أن يتدخل لفض النزاع بين كليوباترا السابعة وأخيها بطليموس الثالث عشر ، فقد كان هذا الملك الصغير بمساعدة رجال البلاط - قد طرد أخته من الأسكندرية ، فلجأت الى صحراء سيناء لتجنيد جيش من البدو كي يعيدها الى عرشها بالقوة ، ولما طلب قيصر مثولها وأخيها بين يديه ، تسللت الى الأسكندرية حيث لفتت بذكائها ولباقتها قيصر ، فمال الى جانبها ، عندئذ أعلن شقيقها وقواته الحرب على هذا الدكتاتور الروماني ، ودارت معركة الأسكندرية التي روعت قيصر وكاد أن يفقد حياته فيها

لولا وصول النجدة إليه من ملك الانباط ومن الملك هيرودس - ملك ربع اورشليم ، بل أنه اضطر إلى حرق سفنه ليبعد عنه حشود السكندريين الذين طوقوه ، وقد إمتدت النيران الى مكتبة الأسكندرية فأحرقت جزءاً كبيراً منها ، ومات بطليموس الثالث عشر غريقا في البحر ، عندئذ اعلن قيصر زواج كليوباترا من شقيقها الثاني . وكان في الثامنة من عمره ، على أن يصبح شريكا لها في الحكم بأسم بطليموس الرابع عشر . وأقيمت الأفراح والأحتفالات لمدة شهرين ابتهاجا بهذه المناسبة .

وخلال فترة استراحة يوليوس قيصر في القصر الملكي ، نشأت علاقة عاطفية بينه وبين كليوباترا ، ولم تكن هذه العلاقة علاقة عاطفية فقط ، بل كانت علاقة منفعة متبادلة ، فقد كان قيصر يتوق لأنجاب ولد ذكر ، إذا أن زوجته كورنيليا لم تنجب له سوى ابنة وحيدة هي جوليا ، بينما كانت كليوباترا تحلم بأنجاب ابن من دكتاتور الشعب الروماني يحكم مصر وروما معاً ، وربما تصبح هي وصية عليه ومتحكمة في الأمبراطورية ، كما انها كانت تملك الثراء والابهة ، ولها ملك مصر التي يجري فيها النيل . وفي شتاء عام ٤٧ ق . م اصطحبت كليوباترا يوليوس قيصر في رحلة نيلية الى صعيد مصر على يختها الخاص للتفرج على آثار الفراعنة الغابرين ، وربما لأفتتاح معبد حورس - كرنك البطالمة - في إدفو ، والذي استمر بناؤه مائة وثمانين عاما ، وكان ذلك بمثابة اغراء لقيصر لكي يظهر بمظهر الفرعون او اوزوريس في صحبة أيزيس . وبعد عودته من هذه الرحلة الأسطورية ، غادر قيصر مصر تاركا في أحشاء الملكة جنينا ، وفي صيف العام نفسه وضعت كليوباترا ولداً لقبته باسم قيصرون باليونانية (وباللاتينية قيصاريو Caesario) . وفي عام ٤٦ ق . م وصلت كليوباترا إلى روما في صحبة زوجها واخيها الصبي ، ووليدها قيصرون ، والذي مهدت لوراثته لعرش مصر بأن أطلقت عليه إسم بطليموس الخامس عشر .

وأقام الوفد الملكي المصري الزائر في ضيعة يوليوس قيصر على الضفة الشرقية لنهر التيبر فوق تل يانيكولوم في مواجهة الساحة المركزية للعاصمة الرومانية ، ولقد أثار سلوك الملكة وتماثيلها - حفيظة الرومان فقد حرصت على ان يتقدم موكبها تماثيل الالهة المصرية الفرعونية وعلى راسها أنوبيس (إبن آوى) وتماثيل ابى الهول ، واعتبر الرومان ذلك غزواً

تقوم به آلهة مصر غريبة المظهر ، وتحديا لآلهة الرومان ، رمز قوتهم وسطوتهم . وفى منتصف شهر مارس عام ٤٤ ق . م اغتيل يوليوس قيصر . وبعد شهر من إغتياله احست الملكة انها شخصية غير مرغوب فيها وادركت انه من الخير لها أن تعود الى الأسكندرية وقد تم ذلك بمساعدة نائب قيصر وهو ماركوس أنطونيوس .

وبعد إنتهاء الحرب الأهلية بين ورثة قيصر بقيادة إبنه المتبنى جايوس يوليوس اوكتافيانوس ، وقائد فرسانه ماركوس انطونيوس وإقتسامهما الأمبراطورية حيث حصل هذا الأخير على الشطر الشرقى ، بينما حصل الأول على الشطر الغربي . وسافرت كليوباترا في شتاء عام ٤٢ ق . م لمقابلة ماركوس انطونيوس - بناء على طلبه - فى مقره فى أنطاكية ، وسرعان مانشبت علاقة أشد ارتباطاً واطول عمراً من علاقتها مع قيصر ، فقد استمرت هذا العلاقة إثنا عشر عاماً (من عام ٤٢ ق م الى ٣٠ ق . م) وذهبت في التاريخ كقصة غرام ملكى تناولها الشعراء والأدباء كمادة لمسرحياتهم العاطفية ، غير أنها كانت علاقة مصلحة وعمل واحلام مشتركة . وفي تحد سافر أعلن انطونيوس طلاقه من اكتافيا شقيقة اكتافيانوس وزواجه رسميا من الملكة كليوباترا . وكان من ثمرة هذا الزواج أن انجبت كليوباترا لأنطونيوس ولدين توامين وابنة واحدة ،كما كفل أنطونيوس الصبى قيصرون ورعاه . وبينما عاشت هذه الأسرة الصغيرة ترتع فى الحب والحلم كانت سحب الخلافات تتفاقم فى الغرب مع شريكة وغريمة اكتافيانوس . فقد كانا يدركان ان معركة فاصلة ستقع بينهما للسيطرة على الأمبراطورية . ولقد ظن انطونيوس أنه بأختياره مصر ومصادرها - التي لاتنضب ومعها مصادر النصف الشرقى الثرية ، بالأضافة الى زوجة مصرية امر كاف لتحقيق الغلبة والسيادة له على كل اجزاء الأمبراطورية[١] . فلديه الخبرة والسمعة الطيبة كجندى شجاع ، ولديه القوى البشرية في الشرق ، ولديه الثراء ، وقبل كل شيء لديه قيصرون الأبن الذى انجبه يوليوس قيصر من صلبه كورقة رابحة يلعب بها فى الوقت المناسب .

وقبل عشر سنوات من وقوع المعركة الفاصلة بين اكتافيوس وانطونيوس تغنى فرجيل فى الأكلوج العاشر : الحب يقهر كل شىء .. دعونا أيضاً نستسلم للحب: Omnia vincit Amor, et nos cedamus Amori ، غير أن سهام كيوبيد كانت أضعف من أن تواجه حراب جيوش اكتافيانوس . وفى خريف عام ٣١ ق.م- ونتيجة لحساباتهم الخاطئة- لقى انطونيوس وكليوباترا هزيمة ساحقة فى معركة اكتيوم البحرية عند الساحل الغربي لبلاد اليونان . عندئذ أيقن اكتافيانوس- الواثق من نفسه- أن عدوته قد وقعت في شباكه ، فقد انتحر سندها وزوجها انطونيوس ، وتشتت قواتها . ولأول مرة في التاريخ حسمتْ معركة بحرية وقعت على بعد آلاف الكيلومترات مصير امه ، وانهت أسرة حاكمة ، ولهذا لم يستعجل السيرّ الى مصر ، انما اثر العودة الى روما ليساوم علي إنتصاره فى أكتيوم للحصول على المزيد من السلطات من مجلس السناتو .

وبعد مرور عام على هذا الانتصار زحف اكتافيانوس بقواته على مصر قادماً اليها من سوريا ، فدخلها في اليوم الثامن من شهر مسرى الموافق الأول من الشهر الثامن من السنة الرومانية . ودخلت قواته الأسكندرية ، وضربت الحصار حول قصر الملكة ، وعلى مدى إسبوعين كاملين ، جرت مفاوضات سرية معها قادها تاجر رومانى من طبقة الفرسان إسمه كورنيليوس جاللوس (والذى أصبح فيما بعد أول والى رومانى على مصر) غير ان هذه المفاوضات انتهت بالفشل ، فقد أبت الملكة بأباء وشمم ان تساق اسيرة في موكب اكتافيانوس عندما يعود الى روما . وفى اليوم الثانى والعشرين من شهر مسرى الموافق الخامس عشر(٣) . من الشهر الثامن عام ٣٠ ق . م تمكن أعوان الملكة ـ بناء على طلبها ـ من تسريب سلة مليئة بالتين يقبع فى أسفلها زوجان(٤) . من حيات الكوبرا السامة حتى تتمكن الملكة من اخذ حياتها بيدها ، وكانت حية الكوبرا ـ رمز الخلود عند المصريين ـ تزين عصابة الرأس (uraeus) فى التاج الفرعونى . ويقال أن اللدغة القاتلة هى التى وجهتها الحيه الى ذراعها الأيسر . المتصل بشرايين الدم ، وليست تلك ـ كما شاع فى الروايات ـ التى وجهتها الحية الأخرى الى ثديها الأيسر . وايا كان الأمر ، فقد سرى السم الزعاف فى جسدها ، فلفظت أنفاسها ، وبذلك ماتت آخر

سلالة البيت البطلمي . ولقد حملق القاهر الروماني في جسد الملكة المسجى في ذهول واحباط ، فقد ضيعت عليه فرصة عاش يحلم بها ، ولذلك أمر برسم صورة طبق الأصل لها لتحمل كأسيرة في موكب نصره. اما بالنسبة لأبنائها فقد أمر على الفور بقتل قيصرون بن يوليوس قيصر ، وقيل في تبرير ذلك أن أحد فلاسفة الاسكندرية ذكر اكتافيانوس (مع انه لم يكن في حاجة الى من يذكره) بأن وجود اكثر من قيصر في وقت واحد فيه خطر عليه . اما بالنسبة لأبنائها من انطونيوس فقد أبقى عليهم . وبعث بهم الى روما لترعاهما اخته اكتافيا مطلقة انطونيوس .

تنظيم اغسطس لولاية مصر الرومانية

وإحتفاء بفتح مصر . أمر اكتافيانوس بسك عملة تذكارية عليها رسم التمساح - رمز النيل - وتحته عبارة موجزه هي : «لقد أسرت مصر Aegypto capta ، وقبل أن ينصرم الشهر المذكور أعلن في عبارة أخرى مقتضبة لا تزيد عن خمس كلمات وردت في سجل اعماله السياسية التى نشرها قرب نهاية حكمه : «لقد أضيفت مصر الى ممتلكات الشعب الروماني » Aegyptum imperio populi Romani adieci(٥) إستطاع بها أن يوجد سببا مقنعا برر به الحرب الأهلية من أجل الصراع على السلطة بينه وبين غريمه انطونيوس ، كما أن هذه العبارة اغلقت ملفاً من العلاقات البطلمية الرومانية التى بدأها البطليموس الثاني فيلاد لفوس بالصداقة على أساس «الند للند» مروراً بمرحلة التجميد ، وزيادة النفوذ ، وفرض الحماية ، وسلب الممتلكات الخارجية ، والتدخل في صراعات العرش ، وتزوير الوصايا لأبتزاز الملوك ، وفرض الهيمنة وانتهاء بالاحتلال .

وهكذا بدت مصر كجثة هامدة ملقاه تحت قدميه ، فقد إنتهت سلالة الأسرة البطلمية ، ولم يعد هناك أى مطالب بالعرش ، وإنفرط عقد الأدارة ولم تعد هناك أي حكومة ولا جيش ، عندئذ شمر اكتافيانوس عن ساعديه لأعادة تنظيم مصر كما لو كانت ضيعته الخاصة . بادئا بأقامة حكومة إحتلال على رأسها حاكم روماني من طبقة الفرسان يكون بمثابة نائب له لحكم مصر ، يعاونه جهاز من كبار الموظفين يقيمون فى الأسكندرية . كما ترك في مصر جيش احتلال يتكون من ثلاث فرق : عسكرية واحدة في نيقوبوليس شرق الأسكندرية ، والثانية في بابليون (الى الشمال قليلا من



منف وعلى الضفة الشرقية للنيل) والثالثة في طيبة العاصمة الدينية ومركز القلاقل ، الى جانب عدد من الوية الفرسان والقوات المساعدة التى كانت تتعاقب على حراسة الأماكن الأساسية والحيوية مثل الحدود ، ومدخل الفيوم ، وعند ملتقى الطرق الهامة ، ومراكز تجميع القمح ، وعند المناجم والمحاجر فى الصحراء الشرقية . وبلغ مجموع عدد القوات الرومانية فى مصر ٢٢.٨٠٠ جندى تقريبا ، وهو رقم يزيد كثيرا عن حاجة بلد صغير مثل مصر ، وهذا يعكس عقده الخوف من فقدان مصر فى السياسة الرومانية وذلك لأهميتها بالنسبة لأمن الأمبراطورية الاستراتيجي وأمنها الغذائي . وقد سار خلفاؤه على هذه السياسة .

وفى عام ٢٧ ق . م قام بطل روما بعملية تغير شامل تحت إدعاء احياء الجمهورية[٦] ولكنه في الحقيقة أماتها ليعطي فرصة لمولد النظام الأمبراطورى الجديد ليحل محلها . وخلال ذلك اسقط عن نفسه اسم اكتافيانوس ، ونهض يحمل إسماً جديدا هو اغسطس وهو لقب يجمع بين المهابة الدنيوية والدينية ، منحه السناتو إياه تكريما لفتح مصر ، بل زيادة فى هذا التكريم اطلق هذا اللقب على الشهر الثامن الذي فتحت فيه مصر ، فأصبح يعرف بأسم شهر اغسطس ، واطلق على الشهر الذى يسبقه اسم ابيه بالتبنى يوليوس قيصر ، فأصبح يعرف بأسم شهر يوليوس ، كما احتفظ بلقب القائد الأعلى للجيوش Imperator والذى أصبح ملتصقا بلقبه ، والذى تحول الى مصطلح سياسي جديد هو « الأمبراطور »[٧] . وبذلك كان أول سلسلة من الحكام الذين نطلق عليهم إسم اباطرة . بالرغم من أن إسم المنصب الذى اختاره لنفسه - والذى تبعه فيه خلفاؤه - هو اسم الرئيس او المواطن الأول princeps . ولقد حكم اكتافيوس اغسطس واحد وأربعين عاماً ، احدث خلالها تغييرات جذرية فى جهاز الحكم وفي تركيبة المجتمع الرومانى القانونية والإجتماعية ، وأعاد تشكيله بشكل لفت الأنظار الى تمسكه بالعرف والتقاليد والأصول .

أما بالنسبة لمصر فقد شهدت تنظيماً ادارياً ومالياً جديداً علي المستويين المحلي والمركزي جعل منها بحق ولاية رومانية ذات طراز فريد . فقد لعبت مصر دوراً حيوياً فى التنظيم الجديد للأمبراطورية وهو أمداد مدينه روما بثلث ما تحتاجه سنوياً من القمح لأطعام شعبها . وخوفاً

عليها من حدوث اي قلاقل او اضطرابات قد تؤدي الي قطع «حبل السرة» بين مصر وروما ، فقد اعتبرها اكتافيوس كما لو كانت ضيعة خاصة به غير أن خيرها كان يشتغل لصالح الشعب الروماني ، فعلى الخلاف من الولايات الأخرى التى كان يحكمها ولاة من طبقة السناتو تدرجوا فى سلك الوظائف العليا حتى وصلوا الى منصب البرو قنصل pro- consul(اى قنصل سابق او فى مقام القنصل) ، كان الوالي في مصر من طبقة الفرسان أو من الطبقة الوسطى ، وكان يحمل لقباً متواضعاً هو «نقيب الاسكندرية ومصر praefectus Alexandriae et Aegypti ولما كان هذا الحاكم من طبقة الفرسان وليس من طبقة السناتو ، فقد كان محرماً عليه التمتع بسلطة الأمبريوم Imperium وهى السلطة المؤهلة للحكم وقيادة الجيوش ، فقد تحايل اغسطس علي هذه المشكلة بجعل الأمبريوم الذى يتمتع به والى مصر امبريوم مؤقت أو إمبريوم بالنيابة عن الامبراطور ، بحيث يحق للأمبراطور نزعة فى أى وقت بتعيين حاكم آخر ،أو القاء القبض عليه ومحاكمته ، كما يزول هذا الأمبريوم المؤقت اذا حضر الأمبراطور بنفسه الى مصر ، او اذا غادرها الوالي . ومن ثم فأن منصب البرايفكتوس يعادل منصب القائم بأعمال الامبراطور ، الذى كان يعينه ويعزله ويحاكمه ويحاسبه (٨) . وجعل هذا المنصب محرماً على رجال السناتو ، ووقفا علي رجال طبقة الفرسان ، تلك الطبقة التي كان ينتمى اليها اكتافيوس اغسطس نفسه اصلاً والتى وثق فيها ووثقت فيه ، والتى كانت حصنه العتيد الذى يلقي منه التأييد . غير أنه من وثائق البردى نجد الوالى يظهر خبرة ملفته للنظر فى شئون القضاء والتشريع وسن القوانين .فقد كان يقوم كل عام بجولة تفتيشية على الاقاليم حيث يترأس محكمة تعقد فى منف أو ارسينوى عاصمة اقليم الفيوم . وخوفاً على مصر أصدر اكتافيوس قراراً اسماه «اسرار الامبراطورية» arcana imperii وهو اصطلاح قانوني يعفيه من اعطاء أى تفسير لما يفعل بأعتباره مسألة أمنية عليا » . ويتمثل هذا القرار فى تحريم دخول مصر على أفراد الأسرة الأمبراطورية ، ورجال طبقة السناتو ، والمشاهير من رجال طبقة الفرسان ، ومن الشخصيات العامة ، دون الحصول علي إذن مسبق من الامبراطور شخصيا ، وقيل فى تفسير ذلك القانون أن الامبراطور أدرك أن تتابع وصول كبار الشخصيات

سواء من آل البيت الامبراطورى او من رجال السناتو على مصر سوف يحدث حرجاً للقائم بأعمال الامبراطور لأنه فى نظر هؤلاء الأكابر ادنى درجة اجتماعية منهم مما يترتب عليه مشاكل بالنسبة للأصول والقواعد التمثيلية «أو ما يعرف فى العصر الحاضر» بالاتيكيت»، وليجنب الامبراطور القائم بأعماله من هذا الحرج من جانب هؤلاء الكبار - الذين قد ينظرون اليه بأزدراء عندما يكونون فى ضيافته (وقد يرفضون تنفيذ الاوامر الصادرة من جانبه او جانب مساعديه) أصدر هذا الخطر، غير أن السبب الرئيسى لصدور هذا الخطر هو حرصه على الا يعطى أى فرصة للعناصر المناهضة لحكمه من بقايا الجمهوريين، وذوى النفوذ، والطموحين، من اتخاذ مصر قاعدة للمعارضة السياسية القائمة على التأييد العسكري كما كان بومبيوس يريد أن يفعل وكما فعل ماركوس أنطونيوس. وكان يساعد هذا القائم بالأعمال ثلاثة من كبار الموظفين الذين ينتمون أيضا الى طبقة الفرسان ويقيمون أيضا فى الأسكندرية وهم: مدير ديوان القضاء Dikaiodotes (وباللاتينية (Iuridicius)، ومدير ديوان المالية (Dioiketes) وباللاتينية (Dicecetas) ومدير ادارة المحاسبات الطارئة والأوقاف الطارئة والأوقاف ldios log.

وعندما كان اكتافيوس اغسطس فى الأسكندرية، ورغم النفاق الذى أظهره. له اهلها بأصطحابة لزيارة ضريح الأسكندر مثله الأعلى (فى حين أنه بذكاء رفض زيارة قبور البطالمة كنوع من عدم الاعتراف بحكمهم لمصر وانه ورثها مباشرة عن الاسكندر)، ورغم أنه منح أهلها الأمان ومنع جنوده من نهبها، إلا أنه عندما طلبوا منه إعادة مجلس الشورى الخاص بمدينتهم، رفض ذلك متعللا بأنه لا يدرى أن كان بالمدينة مثل ذلك المجلس، وانه سوف يبحث الأمر: لقد كان يعرف أنه كان بالاسكندرية مثل هذا المجلس مفخرة أجهزة المدينة اليونانية (Polis) الا أنه أدرك أن هناك خطورة على الوجود الرومانى من احيائه، لانه بؤرة الكبرياء الوطنى، ومنبع الثورة. فى حين أنه وافق على الفور على طلب الجالية اليهودية بمنحهم الحق فى تأسيس مجلس طائفى gerousia لأدارة شئونهم الخاصة يترأسه شيخ الطائفة Ethnarchos بحجة أن ذلك المجلس كان موجوداً منذ عصور البطالمة، وكان السبب الذى لم يفصح عنه هو أنه اراد أن يستميل اليهود الى جانبه ليكونوا عونا للرومان لمراقبة مسلك

السكندريين ، الذين لم يكن يثق فيهم . كما انه كان يعلم أن اليهود أقلية وانهم لن يجرأوا على رفع السلاح على الأمبراطورية، غير أن ذلك ثبت عدم صحته فيما بعد ، أما بالنسبة للوظائف الشرفية المدنية وعلى رأسها منصب مدير دار التربية الرياضية والاجتماعية « الجمنازيارخوس » Gymnasiarcnos ، فقد ابقى عليها مادام شاغلو هذه المناصب ينفقون عليها من جيوبهم الخاصة من أجل الخدمة العامة .

أما بالنسبة للتقسيم الادارى العتيق لمصر ، فقد أبقى اغسطس عليه تماماً مثلما فعل البطالمة من قبل ، أى أن مصر ظلت مقسمة الى ثلاثين إقليما أو « نومة » (nomes) يحكم كل منها « الإستراتيجوس » الذى كان أيام البطالمة يملك السلطتين العسكرية والمدنية كما يتضح من أصل التسمية اليونانية ، أما في النظام الروماني الجديد فقد نزعت السلطة العسكرية منه ليتحول الي مجرد موظف تنفيذى مدنى ، وبذلك تصبح السلطة العسكرية في يد الرومان فقط ، لأنه كان يرى انه من غير اللائق أن تتلقى القوات الرومانية المعسكرة في مصر أوامرها من حكام الأقاليم المحليين الذين لم يكونوا من العنصر الروماني ، بل كانوا عادة من الأغريق المتمصرين . أما التجديد الآخر الذى ادخله هو تقسيم مصر اداريا الى ثلاثة قطاعات عسكرية وادارية كبرى أطلق عليها إسم الأبستراتيجيات Epistrategeiae يحكم كل منها حاكم قطاع « ابستراتيجوس » ، ويكون التعيين فيها وقفا على الرومان فقط ، وبالطبع كان حكام الأقاليم مسئولين أمام حكام القطاعات الثلاث وهذه القطاعات هى : إيستراتيجية الدلتا ، وإيستراتيجية مصر الوسطى ، وإبستراتجية مصر العليا . وبذلك يسهل الدفاع عن مصر ، وقمع الثورات فيها في حينه ، بالأضافة الى فرض الرقابة على حكام الاقاليم ، ومراقبة سلوكهم ، ونقض أحكامهم إذا ما شابها قصور أو خطأ .

وعلى طول البلاد وزعت القوات الرومانية بمعسكراتها وقلاعها توزيعاً استراتيجياً دقيقا .. وكانت القوات الرومانية قوات محترفة متفرغة للعسكرية (وإن لم يخل الأمر من قيام بعض الجنود ببعض الأعمال المدرة للربح دون علم الأدارة أو بعلمها) ولم تكن مثلما كانت القوات على عهد البطالمة : جنوداً مزارعين مستوطنين يعيشون مع اسرهم ويقطعون

حيازات عسكرية يتعيشون من زراعتها أو تأجيرها ، فقد كان من المحظور على الجندى الزواج وتكوين اسرة اثناء الخدمة التى كانت تتراوح ما بين اثنين وعشرين وستة وعشرين عاماً(٩) . وكانت الخدمة العسكرية فى الفرق Legiones ، وقفا على العنصر الرومانى ، بينما سمح للعناصر غير الرومانية بالخدمة فى القوات المساعدة auxilia لنفس المدة ونفس الشروط ، فإذا ما سرح منها الجندى بعد انقضاء المدة بشرف حصل على حقوق المواطنة الرومانية المكتسبة .

لقد حرص اكتافيوس اغسطس على ان تكون قيادات السلطة العليا فى يد الرومان ، يعاونهم الطبقات المحلية من العناصر المتأغرقة ، والذين اداروا شئون الولاية باللغة اليونانية التى استمرت اللغة الرسمية للبلاد (وظلت كذلك حتى بعد الفتح العربى لمصر عندما قام عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين) . ولم تكن اللاتينية تستخدم إلا فيما يتعلق بالقوات الرومانية أو المراسلات بين الأمبراطور فى روما وقيادات السلطة العليا فى مصر . وفى ديوان الوالى بالأسكندرية كان هناك ضباط إتصال ومترجمين يجيدون اللغتين اليونانية واللاتينية (وربما المصرية) ، وهؤلاء كانوا يقومون باعداد الترجمات للقرارات والمراسلات والأوامر التى يبعث بها الأمبراطور باللغة اللاتينية لكي تنشر وتوزع فى كافة أقاليم مصر المختلفة . ولقد ابقى اغسطس على المناصب والألقاب الوظيفية البطلمية في الأقاليم (مع إحداث التغيير فى مهامها اذا لزم الأمر) مثلما فعل فى الأسكندرية التى اعتبرت عاصمة الولاية رغم انها وصفت فى الوثائق بأنها متاخمة لمصر Ad Aegyptum كما لو كانت منفصلة عنها ، وقد منح مواطنوها . وكذلك مواطنو المدينتين الأغريقتين الأخريين : نقراطيس (كوم جعيف مركز ايتاى البارود محافظة البحيرة) وبطلمية (المنشأة مركز البلينا محافظة سوهاج) إمتيازات كالأعفاء من ضريبة الراس ، والخدمات الألزامية ، وحق التمتع بالأدارة الذاتية ، وحق تكوين مجلس شورى (فيما عدا الأسكندرية التى حرمت من هذا الحق للأسباب السابق ذكرها) . وكانت يد الأدارة الرومانية مطلقة فى خلق مناصب جديدة والقاب جديد كلما تطلب الامر .

اما بالنسبة للمصريين الخالصين فقد كانت مشاكله معهم مثلما كانت مشاكلهم مع البطالمة من قبل ، وهو تأجج العواطف القومية والتاريخية والكراهية الدفينة للمحتل المتوارثة منذ أيام الهكسوس . وكان ملاذهم في أول الأمر المعابد العتيقة التي اعتبرت في نظرهم مصر «التي لم يدنسها الغرباء»[٢٠] خاصة في الصعيد معقل المقاومة . ولقد حاول المصريون في مطلع الحكم الروماني اختبار نوعية هذا الحكم ، فقاموا ببعض الثورات مثل ثورة هيرونوبوليس (تل المسخوطة قرب السويس وهي بيثوم الفرعونية) ، وثورة طيبة اللتين قام الوالي الروماني الأول كورنيلوس جاللوس بقمعهما بلا رحمة ، وتقدم الوالي جنوبا الي مصدر التحريض على الثورات منذ أيام البطالمة وهو مملكة النوبة فسار اليها في حملة تهديد ، ولم تمض سنوات حتي عاود النوبيون الثورة على الرومان ، وهنا تقدم الوالي الثالث بترونيوس ليغزو النوبة حتي وصل الى عاصمتهم نباتا (جبل البرقل) ودمرها حتى رضخ النوبيون لشروط الرومان بعدم التدخل في شئون مصر ، وأوجد منطقة عازلة بينهما تبدأ من جنوب الشلال الأول وحتى حدود النوبة وأسماها منطقة الثلاثين اسخونيوس Traiakontaschonios[١١] . (ومساحتها ٣٣٣ كليومترا) وإرضاءً للنوبيين تصالح اغسطس مع ملكتهم الكنداكة أما ينشختي[١٢] ، كذلك قام بترميم معابدهم المصرية الديانة في دبود ، ودندور ، ودكة ، كما حاول الفصل الديني بين المصريين والنوبيين بأن أحيا عبادة رب نوبي قومي إسمه ميرول او أوميلول (المناظر لأوزوريس المصرى) وبنى له معبدا في طالميس (كلابشة وهو المعبد الذى نقل حاليا الى جنوب السد العالى) . وبذلك قضى على اي أمل للمصريين في الثورة على الرومان .

* * *

ادرك المصريون أن قبضة الرومان الفولاذية لاتعرف الرحمة ، فأستداروا الى عالمهم الخاص في الريف البعيد ، يمارسون حياتهم في الزراعة كما كانوا يمارسونها منذ آلاف السنين دون أى تغيير يذكر ، اللهم إلا أن حمل الضرائب بدأ أكثر ثقلا على كواهلهم . فقد كان الرومان أكثر كفاءة وحزماً من البطالمة الضعفاء المتأخرين في حصر وتحصيل الضرائب والمكوس ، فيما عدا ذلك سارت الحياة في قراهم النائية تجرى

فى رتابة على النهج العتيق مثل جرى النيل الرتيب ، الذى كان يفيض بأنتظام كل عام جالبا معه الطمي والخير ، وكانت هناك سنوات كان فيها الفيضان عاليا ، وأخرى كان فيها منخفضا ، وثالثة يكون فيها متوسطا . وبقدر ما يجود الفيضان بالمياه والطمي بقدر ما تجود الأرض بالمحصول الوفير .

لقد نظر الفلاحون الى سادتهم الجدد ، القاطنين بعيداً عنهم ، نظرة تقليدية هى نفس النظرة التى نظروا بها الى ملوك الفرس والملوك المقدونيين من قبل ، فقد اعتبروا اكتافيوس اغسطس وخلفاءه مؤسس اسرة جديد فى مسلسل حكم الفراعنة الأجانب الذين حلوا محل الفراعنة المصريين ، وان الفرعون هو الفرعون سواء كان مصريا أو فارسيا أو مقدونيا أو رومانيا : ولهذا كتبوا إسمه بالهيروغليفية ومنحوه الألقاب الفرعونية المؤلهة مثل «ابن رع» ، «محبوب بتاح وايزيس» وسيد الأرضيين ... الخ ، وصوروه على جدران معابدهم فى الزى والهيئة والملامح المصرية الملكية الفرعونية ، ويعلو رأسه تاج الوجهين ، وأصبح وارثا لحقوق وواجبات الفرعون ، فهو المسئول عن تعمير وترميم المعابد التي استمر بناؤها وزخرفتها بالأسلوب الفرعوني التقليدى ، وإن لوحظ بعض التجديد المميز لها عن العهود السابقة[١٣] بالرغم من أن أغسطس لم يخف غطرسته الرومانية إزاء الآلهة المصرية ذات الأشكال الغريبة ،فقد رفض أثناء تواجده فى مصر زيارة عجل أبيس فى منف معلقا بأنه لا يعبد الحيوانات[١٤] ، غير أن فئة من كبار الكهنة التفت حول الأباطرة الرومان وكانت على استعداد للتوفيق بين الفكر اللاهوتى المصري والفكر السياسى الرومانى مما أدى إلي انفضاض عامة الناس من حول المعابد الكبرى ولجوئهم الى العبادات المحلية الشعبية الأقرب اليهم فى تلبية متطلباتهم النفسية ، والأبعد عن السيطرة والنفوذ الروماني . فقد سيطر التنظيم الجديد على المعابد ، ووضعها تحت ادارة مراقب الحسابات الطارئة والأوقاف ، ونزعت منها إقطاعياتها الزراعية ، كما حرمت من حق تقليدى مقدس وهو حق منح اللجوء والحماية asylum لمن يلجأ اليها . وفرض عليها وضع تماثيل الأباطرة كآلهة جديدة الى جانب تماثيل الآلهة العتيقة ، والاحتفال بأعياد الأباطرة واسرهم ، كما أن حق الأعفاء من ضريبة الرأس والخدمات الالزامية اقتصر على عدد محدود من كبار الكهنة ،

وتولت إدارة الحسابات الخاصة والأوقاف الانفاق على المعابد ومراجعة حساباتها ، واخضاع سلطتها للسلطة المدنية .

لقد كانت السياسة الرومانية تدرك أهمية مصر ومشاكلها السكانية والحضارية المتنوعة ، ولهذا عزلتها عن سائر الولايات الأخرى ، إذ لم تحاول «رومنتها» بنشر اللاتينية والعمران الروماني فيها ، فبقيت تتحدث اليونانية على المستوى الرسمي بينما ظل الفلاحون في الريف يتحدثون المصرية ويكتبون بالديموطيقية ، وبين هذا وذاك وجدت طبقة من المترجمين بين اللغتين يستعان بهم في الادارات وفي المحاكم . بل لوحظ أن حجم اوراق البردى والشقافات المكتوبة بالديموطيقية يفوق حجم مثيلتها المدونة بالاغريقية(١٥) . وبينما ظل الفلاحون فى القرى النائية يفضلون التعامل بنظام المقايضة التقليدى ، لكن كان عليهم التعامل مع الضرائب بالعملة السكندرية التى عزلت عن النقد الروماني السائد في كافة انحاء الأمبراطورية منعاً لأى محاولة للنهب من جانب المرابين والباحثين عن الثروة من الرومان ، وفي نفس الوقت عودل الدينار الروماني بالعملة ذات الدراخمات الأربعة السكندرية tetradrachm تسهيلا لنقل الثروة والتجارة الدولية . وقد ظل هذا النقد السكندرى معزولاً حتى قام دقلديانوس بالغاء عزل مصر وادماجها ادماجاً كاملاً فى الامبراطورية الرومانية عام ٢٩٧ ق . م .

هكذا ارسى اكتافيوس أغسطس قواعد وقوانين حكمت مصر بمقتضاها ، وسار خلفاؤه على هداها حتى جاء دقلديانوس والغاها .

ولمدة تزيد عن ثلاثة قرون ونصف القرن ، حكم الرومان مصر قبل أن تنقسم امبراطورتهم الى امبراطورية رومانية شرقية عاصمتها القسطنطينية ، وأخرى غربية عاصمتها ميلان أو رافنا ، ثم سقوط الأمبراطورية الغربية عام ٤٧٦ م في حين إستمرت الأمبراطورية الرومانية الشرقية فى الصمود وهي التى ذكرت في المصادر الشرقية والغربية بأسم دولة الروم ، بينما أطلق عليها الأوربيون الغربيون إسم الدولة البيزنطية لعدم اعترافهم بأنها رومانية ، ولقد ظلت مصر تابعة للشطر الشرقى حتى أتم العرب فتحها عام ٦٤٢ م .

ولكى نستعرض بأيجاز الملامح السياسية لحكم الرومان لمصر طوال هذه الفترة لابد من تقسيم هذه المرحلة الى عصور ترتبط بالاحداث والاسر الحاكمة التى توالت على عرش الأمبراطورية.

اولاً: عصر خلفاء اغسطس أو أباطرة الاسرة اليوليوكلاودية ١٤ - ٦٨م.

مات اكتافيوس اغسطس عام ١٤م بعد أن إختار ابن زوجته الشهيرة ليفيا وكانت من اسرة كلاوديوس الارستقراطية، وطبقا لتقاليد المصاهرة عند الرومان اقترنت أسرة يوليوس التى إنتمى اليها اغسطس بحكم تبنى يوليوس قيصر له، باسرة كلاوديوس التى أنتمى اليها بحكم المصاهرة، ومن ثم أصبح خلفاؤه يعرفون بمصطلح الاسرة اليوليوكلاودية التى تبدأ بحكم تيبريوس (١٤ - ٣٧م) وتنتهى بانتحار نيرون ٦٨م.

(١) - تيبريوس (١٤ - ٣٧)

كان تيبريوس فى الخامسة والخمسين من عمره عندما آل اليه عرش الأمبراطورية، ولذلك لم يكن متلهفا على حب الحكم، بل على العكس كان زاهداً فيه. كما كان حازما فى الأدارة وشحيحا فى الأنفاق، حريصا على الأنصاف والعدل. ولذا ساد مصر فى عهده هدوء وسلام مما أدى الى سحب واحدة من الفرق الثلاث التى كانت تعسكر فى مصر. ومن أهم ما نتذكره عن حكمه لومه العلنى لواليه ايمليوس ركتوس Aemelius Rectus لأنه أرسل جزية تزيد عن الحد المقرر قائلا له «اريدك أن تجز غنمى لا أن تسلخها»(١٦)، وتطبيقا لسياسة الاستغلال العاقل، الغى نظام جمع الضرائب عن طريق بيع خراج مصر لشركات المال الرومانية لتجمع منها ما تشاء، وأحل محله محصلين حكومين معتمدين من السلطة Practores، وفى عهده طورت السلطة الرومانية نظام الخدمات الإلزامية المدنية بمزج نظام تكليف الأثرياء بتنفيذ بعض مستلزمات المدينة كل عام وهو نظام ابتدعته آثينا فى القرن الخامس ويعرف بمصطلح الليتورجيا Leitourgia، بنظام السخرة الذى كان يفرضه الفرعون على الفلاحين الفقراء لتنفيذ بعض المشروعات الضرورية، ومن خلال تحليل وثائق البردى والمكتشفات الأثرية تلحظ وجود دلائل لحالة من الازدهار والرخاء الأقتصادى نتيجة للاصلاحات التى تمت فى عصر اكتافيوس إغسطس.

وابتداء من السنة السابعة من حكم تيبريوس بدات دار سك النقود بالاسكندرية اصدار عملات خاصة من الفضة من فئة الاربعة دراخمات وقد عودلت هذه الرباعية بالدينار الروماني ، كما سكت عملات برونزية تستخدم في الريف عودلت بعدد من بالدراخمات الفضية السكندرية لتسهيل جمع الضرائب مما استلزم الأمر اقامة بنوك مالية فى عواصم الأقاليم والقرى الكبيرة . ومن أهم الأحداث التى شهدها حكمه زيارة ابن أخيه (وابنه في نفس الوقت بالتبنى) وولي عهده جرما نيكوس لمصر (عام ١٨ - ١٩ م) دون استئذان عمه الأمبراطور ، وماتلا ذلك من المبالغة فى الترحيب به ، مما ادى الى غضب تيبريوس من ابن اخيه وإتهامه علنا فى السناتو بأنه خرق القاعدة التى إستنها المؤله أغسطس ،مما أدى الى مغادرته مصر على عجل الى سوريا ، وهناك سقط فريسة لمرض قاتل وإتهمت أرملته عمه الأمبراطور بتدبير دس السم له ،مما أدي الي رد عنيف من جانبه بالتخلص من هذه الأرملة ومن كل ابنائها ما عدا واحدا احتفظ به وهو جايوس .

ولم نلحظ أى معارضة لهذا الأمبراطور من جانب المصريين ، بل على العكس ظهر مصوراً على معبد ايزيس في جزيرة فيله بأسوان فى الهيئة المصرية وهو يقدم الأضاحى لأيزيس وأوزوريس ، أما بالنسبة للسكندريين . فقد حاولوا استغلال مناخ السلام في الاستعداد للانقضاض على اليهود بتجميع السلاح وتخزينه . ويدعى المؤرخ اليهودى فيلون أن الوالى ايمليوس ركتوس أحس بذلك ، فأصدر قراراً يحرم فيه حمل السلاح وتخزينه ، وجعل الأعدام عقوبة لمن يخالف هذا القرار . غير أن أعمال العنف ضد اليهود لم تندلع الا بعد موت تيبريوس ، ربما خوفا منه أو إحتراما له ، وفى عهده أيضا ظهر السيد المسيح وبشر بدعوته لتصحيح الديانة اليهودية وما تلا ذلك من محاكمة اليهود له . ومات تيبربوس عام ٣٧ م .

٢ - الأمبراطور جايوس كاليجولا (٣٧ - ٤١ م) :

بالرغم من إزدهار الأسكندرية بعد الفتح الرومانى بسبب تحويل طرق التجارة الشرقية الى موانئ البحر الأحمر المصرية وقيام القوافل بنقلها الى موانى النيل ، حيث تحملها السفن الى الأسكندرية ، وبسبب ذلك تحولت الاسكندرية الى بورصة وسوقا دولية ، إلا أن ذلك الثراء لم يطفىء نار

الوطنية والكبرياء عند السكندريين ، وبدأوا بتصفية حساباتهم مع اليهود الذين لم يكفوا عن السعى للحصول على الأمتيازات أملا في الحصول على حقوق المواطنة في الأسكندرية والتى كانت تؤهلهم للحصول على حقوق المواطنة الرومانية. ولقد ساعد على إندلاع القتال إدعاء الأمبراطور الجديد الالوهية في حياته ، وكان الاباطرة الرومان عادة يؤلهون بعد مماتهم ، كما أن إنحراف كاليجولا الى حكم الأرهاب ، وإعتماده على جماعة من المخبرين الذين راحوا يلفقون التهم للأغنياء أملاً في الحصول على نسبة من الأموال المصادرة ، سقط من الجع ، أوجد المناخ الملائم للعنف وكان جايوس صديق طفولة للأمير اليهودى أجريبا حفيد الملك هيردوس الكبير ملك ربع يهودية فى فلسطين ، ويبدو أن يهود الأسكندرية جمعوا اموالاً فيما بينهم ليقدموها الى جايوس عن طريق أجريبا للموافقة على عودة مملكة يهودية فى فلسطين ، وتعيين اجريبا ملكا عليها ، وكذلك للتوسط لديه لكى يحصل اليهود على المزيد من الامتيازات فى الأسكندرية. وقد تم بالفعل صدور قرار من الامبراطور بذلك. وبينما كان أجريبا فى طريقه لتولي العرش ، أراد أن يمر على الأسكندرية ليلتقى بالطائفة اليهودية ليبلغهم بالأنباء السعيدة ، ولما علم السكندريون بذلك انتظروا وصوله عند الميناء فى مطلع شهر اغسطس عام ٣٨ م ، وأقاموا له موكبا ساخرا هزأوا به منه ومن اليهود ، وسرعان ما تحول الأمر إشتباك قتال بالأيدى بين الطرفين ، وانتشار أعمال الشغب ، وقد برر السكندريون فعلتهم بأن اليهود يرفضون عبادة الأمبراطور ، ويرفضون ادخال تماثيله فى معابدهم مما أحرج والى مصر أنداك وهو آفيليوس فلاكوس Avilus Flaccus فأصدر منشورا إتهم فيه اليهود بعدم الولاء ، وهدد بأسقاط كل الأمتيازات عنهم. وقد ساعد ذلك على إشتعال أعمال العنف والتخريب والقتل ضد اليهود ، وجلد زعمائهم ، واجبار نسائهم على أكل لحم الخنزير علناً وسط الجمهور المبتهج. وتم ذلك فى أغسطس عام ٣٨ م. وقد إتهم اليهود السكندريين بأنهم أهانوا قرار الأمبراطور بتعيين اجريبا ملكا ، كما اتهموا الوالى فلاكوس بأنه جلد شيوخهم يوم عيد مولد الأمبراطور يوم ٣١ أغسطس. وإستجابة لأستعطافهم أرسل جايوس قوة خاصة بقيادة ضابط كبير برتبة «قائد مائه centurion» ألقت القبض على الوالى ليلاً وسحبته الى الميناء ليرسل إلى روما ، حيث حوكم ، وصودرت أمواله ،

ونفي الى جزيزة نائية في بحر إيجه، بقى فيها حتى موته. وسارع الطرفان المتنازعان إلى ارسال الوفود لعرض شكاواهم على الأمبراطور فى روما، وقد أرسل اليهود وفدين: وفد اليهود المتحررين يرأسه فيلون الكاتب السكندرى الشهير، ووفداً آخر لليهود المتزمتين، مما لفت نظر الأمبراطور، أما السكندريون فقد أرسلوا وفدا بقيادة أبيون. وبينما كان الأمبراطور يستمع الى الطرفين جاءت الأنباء بأن اليهود رفضوا تنصيب تمثال للأمبراطور فى أحد معابدهم في سوريا، مما اشعل غضبه، ولم ينقذهم من بطشه إلا إغتياله فى ٢٤ يناير عام ٤١ ميلادية.

٣- الأمبراطور كلاوديوس: (٤١ - ٥٤ م):-

هتفت الجنود الثائرة بعم الأمبراطور القتيل كلاوديوس إمبراطوراً. وكان إختياراً موفقاً، فقد كان رجلاًمتزناً دارساً للفلسفة والتاريخ، ولهذا حاول العودة الى سياسة السلام الروماني والعمل على نشر الأمن والمصالحة وتشجيع التجارة العالمية، وقد توالت الوفود السكندرية واليهودية كل يحاول استمالة الامبراطور الى جانبه. ولكنه ظل معتدلاً محايداً، ويظهر ذلك من الوثيقة الموجودة فى المتحف البريطانى والتى نشرها الأستاذ بيل عام ١٩١٢(١٧). وهى عبارة عن مسودة ترجمة خطاب موجه من كلاوديوس الى السكندريين عثر عليها فى قرية فيلادلفيا (خرابة جرزة بشرق الفيوم) والتى فيها يتفهم مطالب السكندريين ويوافق عليها مادامت لاتعكر صفو السلام الرومانى، لكنه ينهاهم عن التعرض لليهود، وتركهم وشأنهم، وفى نفس الوقت يحذر اليهود بالكف عن السعى المتواصل للحصول على إمتيازات أكثر ماحصلوا. وعادت الوفود إلى روما مرة أخرى عام ٥٣م، ولما شعر السكندريون أن الامبراطور لم ينحاز لهم كلية، اتهموه سراً بالتحيز لليهود. وبدأوا يتداولون أدباً سرياً شعبياً أطلق عليه الأستاذ موميليانو مصطلح «ثقافة المقاومة التحتيه» underground culture.(١٨) وهو أدب خيالي يعرض القضية بنوع من العاطفة الممزوجة بالهلوسة الدينية والهسيتريا الوطنية، واظهار الأمبراطور بأنه العوبة فى أيدى اليهودي، واظهار زعماء السكندريين بمظهر الشجعان الذين يردون الأهانة بالأهانة حتى يفقد الأمبراطور

صوابه ، ويحكم عليهم بالموت ، ويساقون الى ساحة الأعدام يهتفون بسقوط الأمبراطور وحياة الأسكندرية ، ومن ثم لا يمكن الأعتماد على هذا النوع من الأدب كحقائق تاريخية . واستمر هذا الأدب المعادي للرومان متداولاً حتى أواخر القرن الثاني الميلادى عندما فتكت الأمبراطورية باليهود بعد ثوراتهم عليها ولم يعودوا ذوى قيمة لأحد .

اما فيما يختص بالحياة فى الريف المصرى فقد سارت الحياة هادئة ، ولذا تمت إعادة نشر القوات الرومانية ، إذ لم يعد الأمر بحاجة اليها في بعض المناطق لأنشغال الناس بالكسب والرخاء ، ولم تعد مشكلة الرومان سوى في الأسكندرية ، فنقلت اليها الفرقة القورينائية الثالثة التى كانت تعسكر على مابيدو عند طيبه لتنضم الى الفرقة الثانية والعشرين ، التى كانت ترابط من قبل فى المعسكر الرومانى بضاحية النصر (مصطفى كامل حاليا) . ولقد تمثلت فترة حكم كلاوديوس بالأزدهار التجاري بين مصر والهند ، وتحول البحر الأحمر الى بحيرة نشطة ، وراح التجار السكندريون ينافسون التجار العرب وأحياناً يتعاونون معهم ، ومن قاعدتهم فى عدن امن الرومان هذا البحر وطهروة من القراصنة ، ونتيجة لذلك تدفق الثراء على الاسكندرية والموانىء المصرية على البحر الأحمر وعلى النيل ، ومع الأزدهار الاقتصادى إنتعشت الثقافة والعمران وأصبحت الأسكندرية جوهرة البحر المتوسط وعروسه .

٤ - الأمبراطور نيرون (٥٤ - ٦٨ م) : -

وفى ١٣ اكتوبر عام ٥٤ م مات كلاوديوس ، وتولى من بعده نيرون ابن إحدى زوجاته[١٩] .وكان قد تبناه في حياته . كما ضمن له تعليماً راقياً على يد إثنين من أعظم الكتاب الرومان وهما بلينيوس الكبير - مؤلف كتاب التاريخ الطبيعى ، وسينيكا الأديب والفيلسوف والذى كان يتردد على مصر كثيرا حيث كانت له ضيعة في الفيوم . وبالرغم من أن الصورة التى رسمتها المصادر اللاتينية لهذا الأمبراطور قاتمة كريهة ، إلا أنها فى المصادر المصرية الشعبية مشرقة يملأوها التفاؤل ، كما تقرأ فى قصاصة اوكسيرينخوس (البهنسا مركز بنى مزار محافظة[٢٠] بني سويف) ، وفي نقش أبوصير Busiris بالقرب من سقارة[٢١] ، كما ظهر على نقود الأسكندرية مصوراً كمنقذ للحضارة والعمران[٢٢] ، وذلك لشدة ولعه

بالثقافة الأغريقية والشرق الهللنستي عامة ، والحضارة المصرية خاصة . فوصفوه بأنه « الروح المباركة وجالب الخيرات معه(٢٣) » . كما أبدى عقب توليه إهتماما خاصاً بإعادة تنظيم قبائل وأحياء الأسكندرية ، وإطلاق أسماء جديدة عليها ، وإضافة قبائل أخرى إليها لأستيعاب كافة مواطنيها غير المسجلين . وكان يخطط لزيارة الأسكندرية ومصر والتفرج على عجائبها وآثارها ، وإصلاح وترميم ما يحتاج منها إلي ترميم وإصلاح . كما كان يتوق - على طريقة الفراعنة الأولين - للقيام بحملة كبرى لاكتشاف مجاهل النوبة ومنابع النيل ، وقد مهد لذلك بارسال بعثة كشافة عام ٦١م وصلت حتي منابع النيل الأبيض ، ورفعت إليه تقريراً عن المنطقة ومناخها وتضاريسها ومصادرها الطبيعية ، ولفتت الأنظار إلى تدهور مملكة مروى الصديقة وتعرضها لعدوان مملكة افريقية إسمها اكسوم ، واوصت بأعداد حملة كمظاهرة عسكرية لأنذار دولة اكسوم التى قد تهدد المصالح التجارية للأمبراطورية فى جنوب الجزيرة العربية وحول باب المندب . وربما كان بلينيوس الكبير من المشجعين لأرسال هذه البعثة والحملة المقترحة لحاجته لمادة علمية عن جغرافية وحيوانات ونباتات افريقية . وبالفعل بدأت القوات الرومانية تتجمع من أرمينيا والراين وجهات أخرى فى الأسكندرية خلال عامى ٦٦ و ٦٧ م ، غير أن إندلاع اليهود فى ثورة عارمة ضد الأمبراطور عام ٦٦ م أحبط آمال نيرون ، فاضطر الى تأجيل مشروعه الذى عاش يحلم به ، وانشغل فى قمع ثورة اليهود التى تردد صداها فى الأسكندرية لولا وجود أحد أصدقاء الأمبراطور المخلصين الذى كان واليا على مصر وهو يوليوس تيبريوس الكسندر أبن شقيق الكاتب اليهودى فيلون ، والذى تحول إلى الوثنية وحصل على حقوق المواطنة الرومانية ، إذ قام بقمع يهود الأسكندرية مستعينا بالقوات الرومانية . أما بالنسبة لليهود فى فلسطين فقد عين قائدا صارما وخبيثا هو فسباسيانوس يساعده ولده تيتوس ، وكلفهما بقمع ثورة هناك بلا رحمة . وعاودة فى أواخر عام ٦٧ حلم الرحلة الى مصر ، فظهرت نقود الأسكندرية فى ذلك العام وعليها صورة المدينة تستقبل الأمبراطور مرحبة وهو قادم يمخر عباب البحر ، غير أنه سمع بأن الراين قد نادت بسقوطه وهتفت بقائدها « جالبا » امبراطوراً فانتابه

شعور بالأحباط واليأس ، وقيل انه عرض تنازله عن العرش مقابل ان يترك حاكما على مصر ، غير أن طلبه رفض ، فأخذ حياته بيده . وبموته ينتهى حكم خلفاء اكتافيوس اغسطس من الأسرة اليوليوكلاودية .

المرحلة الثانية : حكم الأسرة الفلافية :(٦٩-٩٦) :

كان عام ٦٩ عام ثورات الجيوش الرومانية الأربعة ، والتى نادت كل منها بقائدها إمبراطورا ، ولحسن حظ مصر أن كان واليها رجلاً حكيماً هو تيبريوس يوليوس الأسكندر الذى كان له خبرة طويلة فى العمل بمصر منذ أن كان حاكما لقطاع طيبة فى عصر كلاوديوس ، ثم إصبح واليا عليها منذ عصر نيرون ، وإستمر فى عمله طوال عام ثورات الجيوش الاربعة ، وكلما سمع بتولى قائد جيش ، أعلن مبايعتة ، وضع على النقود القابة ورسمه ودون الوثائق بأسمه ، وصوره على المعابد الفرعونية فى الهيئة المصرية متبوعا بالألقاب التقليدية داخل الخرطوش ، فعل ذلك مع جالبا (من أواخر عام ٦٨ حتى ١٥ يناير عام ٦٩) ، ثم مع اوتو Otho (من ١٥ يناير حتى ١٦ ابريل) ، ثم مع فيتيللوس (من ١٦ أبريل حتى أول يوليو) ، ثم اخيراً مع فسباسيانوس - قائد المعارك ضد اليهود - الذى كسب الصراع ضد منافسيه لأنه كان يلقى التأييد من قوات الشرق ومن شعب الأسكندرية الذين هددوا بقطع القمح عن روما . وما أن اعلنت مصر تأييدها له حتى تقدم بفسباسيانوس بقواته الى الأسكندرية حيث استقبل بالترحاب ، لأنه كان أول إمبراطور رومانى يدخل مصر منذ اكتافيوس اغسطس ، ولكن سرعان ما اكتشف السكندريون انه يتلهف على زيادة الضرائب ، والمطالبة بالضرائب المتأخرة ،فسخروا منه بأطلاق النكات عليه مثل لقب « الفسخانى » Kubiosaktes لأنه كان ينوى فرض ضريبة على صناعة تجفيف السمك وتمليحه ، ومثل لقب « أبو ست اوبولات » إشارة الى الشائعة التى اثيرت حول مطالبته أحد اصدقائه بهذا المبلغ التافة . ولكى يرد الأهانة بالأهانة قرر فرض ضريبة راس على السكندريين قدرها ستة اوبولات ، وكاد الأمر يصل الى مجابهة معهم لولا تدخل إبنة العاقل تيتوس الذى اقنع إباه بالغاء هذه الضريبة .

ومن أهم الأحداث فى عهدة نجاج تيتوس فى سحق ثورة اليهود فى فلسطين وتدمير هيكل سليمان فى أورشليم عام ٧٠ م ، ولما حاول بعض اليهود الهاربين إحداث شغب فى الأسكندرية ، قبض عليهم اليهود المعتدلون واعدموهم ، وامرت الحكومة الرومانية بتدمير معبد « هونياس » الذى كان بطليموس السادس قد أقامه فى تل المقدام (مركز ميت غمر دقهلية) كمنافس لهيكل سليمان(٢٤) وعلى الفور قام الوالى الأسكندر بتنفيذ الأمر ، وقد كسب تيتوس شعبة كبيرة بين السكندريين عندما دخلها منتصرا فى صحبة الفرقتين اللتين كانتا معسكرتين بالأسكندرية وإشتركتا فى قمع ثورة اليهود ، كما زار منف - وعلى العكس من أغسطس - قبل الدعوة لحضور حفل إنتقاء عجل آبيس الجديد ، وحضر الحفل مرتديا زيه الرسمى ، وواضعا على رأسه الأكليل والعصابة طبقا للتقاليد الرومانية اعلانا عن إحترام الديانات الوطنية لرعايا الأمبراطورية ، وهذا تطور كبير فى نظرة الأمبراطورية الى رعاياها(٢٥) فقد كانت هذه الأسرة إيطالية ، ولم تكن من روما ، ومن المعروف أن الأيطاليين عانوا هم أيضا من إستعلاء أهل روما عليهم قبل الحصول على المساواة معهم .

٢ - تيتوس (٧٩ - ٨١ م)

حكم تيتوس عامين فقط (٧٩ - ٨١) قبل أن يخطفه الموت ، نفذت فى عهده بعض المشروعات الهامة : مثل تطهير فرع النيل الكانوبى من الطمى المترسب ، كما سمح ببناء معبد فى مدينة بطلمية لعبادة بطليموس الأول وزوجته بيرينيكى باعتبارهما الربين المنقذين ، وبصفتهما مؤسسا هذه الحاضرة الأغريقية ، وهذا تطور كبير منذ أن امر اكتافيوس أغسطس بمحو إسم البطالمة من على الأثار ، وكأنه ورث مصر مباشرة عن الأسكندر الاكبر .

٣ - دوميتيانوس ٨١ - ٩٦ م

كان دوميتيانوس الشقيق الأصغر للأمبراطور تيتوس . وبالرغم من أنه وصف فى المصادر الرومانية بصورة المستبد الغاشم إلا أنه كان محبوبا فى مصر ، حيث ظهر مصورا على الآثار المصرية ، فقد كان عهده

عهد إزدهار العبادات والمعبودات الشعبية المصرية التى كان الرومان يستهجنون عبادتها ، وبقيت في الخفاء ، بل ظهرت صور الآلهة المصرية على النقود السكندرية ، فبدأت الأقاليم المصرية تحيي عباداتها الخاصة من جديد التي كانت موجودة فيها قبل أن يوجد الفرعون مينا المقاطعات ، ويفرض ثالوثه الوحدوى الملكي إيزيس وأوزوريس وحورس - على كل الأقاليم . وقد أدت سياسة إطلاق سراح هذه العبادات الصغرى الى إندلاع المعارك بين الإقاليم بسبب اختلاف نظرة كل إقليم الى معبود الأقليم المجاور ، فقد روى لنا بلوتارخوس عن نزاع قام بين سكان أوكسيرينخوس (البهنسا) الذين كانوا يعبدون سمك القنومة (الذى اشتق منه إسم المدينة) ، وبين سكان مدينة كينوبوليس المجاورة (الشيخ فضل) الذين كانوا يتعبدون الى نوع من الكلاب. ووصل الأمر الى حد إستدعاء جنود القوات الرومانية لفض هذا الشجار(٢٦). ولقد وصف الهجاء الرومانى جوفيناليس - الذى عاش في عصر دوميتيانوس - وجاء الى مصر كضابط فى الحامية الرومانية التى عسكرت قرب أدفو - معركة حامية الوطيس دارت رحاها بين أهل دندرة Tentyra الذين كانوا يأكلون لحم التمساح ، وبين أهل قرية امبوس (نبط طوخ قبالة قوص الى الشمال من نقادة محافظة قنا)(٢٧) الذين كانوا يعبدون التمساح ، وإدعى هذاالهجاء أن القتال وصل الى حد التهام لحم القتلى ، وسواء شاهد جوفينال الحادثة أم سمع عنها أو تخيلها ، فقد بالغ في الهجاء والقذف فى حق الآلهة المصرية لحقده الشخصى على أحد المصريين الناجحين فى روما كما سنرى في الفصول القادمة ، لكن ذلك لاينفى ظاهرة إنبعاث العقائد المحلية خلال حكم هذه الأسرة . ولعل سؤالا يطرح نفسه هل كان تشجيع اباطرة هذه الأسرة للديانات الشعبية في الأقاليم نوعا من التسامح والتخفيف من قبضة اليد ونبذ الأستعلاء الرومانى ؟ أم أن هذا التشجيع كان لخدمة الحكم الرومانى بأتباع سياسة فرق تسد ومنعاً لأنبعاث القومية المصرية التى كانت دائما تتخذ من الدين باعثا لتوحيد الأمة من أجل طرد الغاضبين كما حدث أيام طرد الهكسوس ؟ وربما كانت سياسة هذه الأسرة تهدف إلى الأمرين معاً . غير أنه سمح بتشييد معابد للآلهة المصرية المتأغرقة مثل إيزيس وسيرابيس فى روما نفسها حيث وجدت لها عباداً

ومريدين من الرومان ، وانتشر فى هذه المعابد كهنة ايزيس النوبيون الذين إرتبط لون بشرتهم بالتربة السمراء التى تمثلها هذه الربة المصرية . كما يظهر ذلك من الصور المرسومة على حوائط مدينتى هركولانيوم وبومبيى .

المرحلة الثالثة : عصر الأباطرة الصالحين (٩٦ - ١٩٢ م) :

١ - نرفا (٩٦ - ٩٨) :

إغتيل دوميتيانوس عام ٩٦ م ، ووقع اختيار الثوار على فقيه فى القانون طاعن فى السن اسمه ماركوس كوكيوس نرفا ، ولذا اتصف حكمه بالأتزان والتعقل رغم أنه كان ضعيفا أمام زعماء الجيش وقادة الحرس البرايتورى (الأمبراطورى) ، لكنه قدم اعظم خدمة للأمبراطورية : وهو حظر توريث العرش للأبناء تلبية لمطلب الفلاسفة الرواقيين والكلبيين ، كما وضع تقليدا - ربما نقله من التجربة المصرية فى الدولة الحديثة - بأختيار ولى العهد اثناء حياته بعد تدقيق ودراسة ليتولى العرش من بعده فى هدوء ، وكان ذلك بداية لتولى سلسلة من الأباطرة الأمناء العقلاء ، ولهذا أطلق عليهم مصطلح « الأباطرة الصالحين » والذين وصلوا بالأمبراطورية الى أوج عظمتها وازدهارها .(٢٩)

أما فى مصر فلم يحدث فيها ما عكر صفو السلام ، فقد إستمرت سياسة التسامح إزاء الديانات والعقائد المحلية فى الأقاليم المختلفة ، وخففت قبضة السلطة ، وطبق العدل والأنصاف دون العبث بمصالح الأمبراطورية ، وقلت نزعة التعصب بين الرومان ورعاياهم من غير الرومان ، إذ أن هؤلاء الاباطرة كانوا فى الأصل من رعايا الولايات ولكن الولايات الأوروبية ، وفى معبد إسنا (Latopolis) ظهر نرفا مصوراً فى هيئة الفرعون يرتدى تاج الوجهين ويرفع يديه فى خشوع أمام محراب الآلهة المصرية ، وفى أعلى الرسم ظهرت الالقاب الفرعونية المعتادة داخل الخرطوش .

٢ - الأمبراطور تراجانوس (٩٨ - ١١٧ م)

اختار نرفا خليقته تراجانوس ، وكان ينتمى الى أصول أسبانية ، لهذا كان متعاطفا مع شعوب الولايات المقهورين . ومن أهم الوثائق التى وصلت

إلينا من عهده وثيقة[٣٠] إدعاء قضائي ضد مسئول كبير إسمه فيبيوس ماكسيموس الذى يقال أنه كان واليا فى الفترة مابين ١٠٣ - ١٠٧ م والذى تمت محاكمته بتهمة الفساد وإستغلال السلطة والأنحلال الأخلاقى، وأدين وطرد من منصبه، ومحى اسمه من على النقوش. وهذه أول مره يحاكم فيها والى رومانى بناء على شكاوى الناس. ويروى لنا بلينيوس الأكبر كيف ان تراجانوس اعاد الى مصر اسطولاً محملاً بالقمح كان فى طريقه الى روما ليخفف من حدة مجاعة أصابت البلاد[٣١] بسبب انخفاض الفيضان. ومن أهم أعماله فى مصر اعادة حفر القناة التى كانت تربط بين فرع النيل الشرقى وخليج السويس، واطلق عليها إسم قناة كالوسما Kalysma وهى الكلمة التى اشتق منها لفظ القلزم الذى اطلق فيما بعد على البحر الأحمر، كما انه اقام حصن بابليون (قصر الشمع بمصر القديمة) على الضفة الشرقية للنيل بدلاً من المعسكرات القديمة التى كانت مقامة فى غربة، وقد اصبح هذا الحصن الذى شبهت اسواره باسوار بابل الأسطورية الحصن الأول والأخير للرومان حتى استولى عليه العرب عام ٦٤١ م وفى عهده ايضا بنى معبد كبير فى دندرة للربة حتحور المصرية المعادلة لافروديت، كما بنى كشكا فى أسوان أطلق عليه «كشك تراجان»، وبنى معبداً لأمنحتب - رب الطب والشفاء عند المصريين والذى عرف باسمه الأغريقى اسكلبيوس وزوجته هيجيا Hygeia ربه العافية والصحة وذلك فى بطلمية (المنشأة). كما نسمع عن تشبه زوجته الأمبراطورة أفلوطينا بالربة المصرية إيزيس.

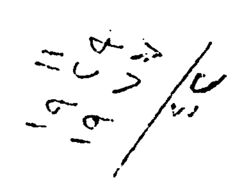
ولقد قام تراجانوس بفتوحات فى الشرق الأدنى حتى وصل الى مياة الخليج العربى، كما ضم فى عام ١٠٤ م مملكة الأنباط مؤسسا بذلك ولاية بلاد العرب البترائية، غير أن إنشغاله بالحرب ضد البارثيين شجع اليهود على القيام بثورتهم الكبرى عام ١١٣ - ١١٤ م، والتى إمتد لهيبها فى عام ١١٥ الى الأسكندرية، ومنها الى قورينى، ومن الأسكندرية إنتشرت الحروب الطائفية الى كافة إنحاء الوادى، واضطرت السلطة الرومانية الى تجنيد الفلاحين المصريين وتسليحهم لتكوين «ميليشيا» مسلحة تعمل تحت قيادة حكام الأقاليم لقمع هذه الثورات التى إستمرت حتى نهاية عصر

تراجانوس . وقد تسبب هذا الصراع فى خسائر إقتصادية كبيرة المت بالريف ، وتركت ذكريات مريرة في نفوس الناس حتي أن أهل أوكسيرينخوس ظلوا يحتفلون سنويا بأنتصارهم علي اليهود حتي عصر كومودرس اى بعد ثمانين عاما من انتهائها . وبالرغم من ذلك ظل الأدب الشعبي يتحدث عن موقف الأمبراطور تراجانوس المتحيز ضد السكندريين والمحابي لليهود ، كما نقرأ فى بردية هرمايسكوس عن الوفود التى ارسلها السكندريون واليهود الي روما ، وإدعت البردية تحيز الامبراطورة أفلوطينا لليهود وتحريض زوجها ضد السكندريين مما أدى الى حدوث معجزة وهى أن تمثال سيرابيس الذى كان الوفد السكندرى قد حملة معة راح يتصبب عرقا وشاع الخبر فى روما ، وأحدث ذعراً ، وليس هناك دليل واحد يؤكد زعم هذه البردية .

هادريانوس : (١١٧ - ١٣٨ م) :

وقع العبيء الأكبر فى قمع ثورة اليهود الكبرى على عاتق هادريانوس ، وقضي عليها بعنف في فلسطين ، وطرد اليهود من أورشليم التى اعاد تسميتها على اسمه الأول إيليوس فأصبحت تسمى « ايلياء » وظلت تحمل هذا الأسم حتى الفتح العربى لها . وفى مصر بذل مجهوداً كبيرا فى ترميم ماخربته هذه الثورة . وتخفيفاً لآثارها الاقتصادية على الفلاحين أصدر في عام ١١٨ قراراً خفض فيه أسعار ايجار الأراضى الزراعية التابعة للدولة . وفى عام ١٢٢ - ١٢٣ م إندلع إشتباك بين اليهود والمصريين فى منف أثناء الاحتفال بعجل آبيس الجديد ، ووصلت أنباء ذلك الى الأمبراطور هادريانوس وهو في بلاد الغال يستعد لرحلته الكبرى الى الشرق ولكنه لم يتدخل لأن الأشتباك كان محدوداً ولم يكن يريد حدوث شيء يثنيه من عزمه على القيام برحلته الكبرى .

لقد كانت رحلة هادريانوس الي مصر فى خريف عام ١٣٠ م من أهم أحداث عصره ، فقد سكت الأسكندرية عملتها في العام الخامس عشر من حكمه تحمل رسمه وهو فى عربته ممسكاً بصولجان الحكم ويرفع يده بالتحية لمدينة الأسكندريه التى ترفع بدورها يدها رداً على تحيته ، كما ظهر على عملة أخرى وهو جالس علي عرش مصر ، والأسكندرية



تنحني لتقبل يده . ولقد بقي هادريانوس فى مصر حتي انحسار مياه الفيضان لأنه كفرعون كان محرماً عليه ركوب النيل أثناء الفيضان وكان فى صحبة الامبراطور زوجته سابينا ووصيفتها جوليا بالبيللا وغلامة وساقيه انطينوس، وركب الامبراطور وحاشيته اليخت الامبراطورى قاصدين طيبة للتفرج على آثارها خاصة تمثالي ممنون اللذين يبكيان عند الفجر . وقام بعض الحاشية بنقش أسماءهم فوق هذا التمثال، بل نقشت الوصية جوليا بالبيللا نقراً شعراً ركيكا باليونانية . بينما تذكرت وصيفة أخري شقيقها الذى كان يشغل مناصب كبرى فى عصرى تراجانوس وهادريانوس واسمه جنتيانوس Gentianus وذرفت الدمع لأنها شاهدت الأهرامات بدونه وسجلت ذلك شعراً(٣٢) .غير أن هذه الرحلة الرومانسية عكر صفوها حادث غرق غلام الأمبراطور وهو يملأ لمولاه كأساً من مياه النيل ليسقيه . وحزن الأمبراطور عليه وقرارة ببناء مدينه تحمل إسمه تكون نموذجاًللمدينة الأغريقية من ناحية التنظيم والعمران والسكان . ومن ثم وضع اساس مدينه انطينوبوليس (الشيخ عبادة محافظة المنيا) غير ان هناك من يرى ان الأمبراطور جاء وفي ذهنه بناء حاضره رابعة فى مصر ، وأن اختيارها كان مسبقاً ودقيقاً ولم يكن وليد الصدفة(٣٣) خاصة وأنه قام ببناء مدينة اخرى فى آسيا الصغرى قبل مجيئه الى مصر أسماها مدينة هادريانوسHadrianoplis وقد احتفل بوضع اساس هذه المدينة فى الثالث من شهر هاتور الموافق الثلاثين من شهر أكتوبر عام ١٣٠ م وأطلق عليها اسم أنطينوبوليس .

كما قام هادريانوس بأعمال عمرانية وتعميرية اخرى مثل بناء دار حفظ الوثائق والسجلات بالقرب من معبد السيرابيوم (بكوم الشقافة بالأسكندرية) . وظهرت عملة الأسكندرية عام ١٣٤ م تظهره وهو يصلى فى محراب سيرابيس إشارة الى إفتتاح هذه الدار التى أهداها الى هذا الرب بصفته الرب الكاتم للأسرار . كما التقى بأعضاء الموسيون من الفلاسفة وتحاور معهم، ووافق على زيادة عددهم . وفى الأسكندرية ايضاً قام بترميم معبد سيرابيس وأهدى المعبد تمثالاً لعجل ابيس فى شكل سيرابيس يحمل بين قرنيه قرص الشمس المجنح وهو معروض الآن فى المتحف اليونانى الرومانى بالأسكندرية . كما ارتبط عصره فى مصر بنهضة فى

الفنون الهللينستية الممثلة في لوحات الشمع الخشبية التى كانت توضع كاقنعة فى المومياوات وتصور صوراً واقعية للموتى والمعروفة فى العالم باسم صور الفيوم(٣٤).

٤ - انطونينوس بيوس (١٣٨ - ١٦١ ميلادية):

كان عصر انطونينوس بيوس عصراًهادئاً، وقد تصادف إكتمال دورة الدهر طبقاً للتقويم المصرى الزراعى قبل ضبطة على يد البطالمة، حيث كان الفرق يزداد بين التقويم المصرى وبين دورة الأرض حول الشمس ولايتطابقان معاً الا كل ١٤٦٠ سنه ويعرف ذلك باليونانية بأسم دورة سوثيسSathis حيث سرت شائعة بأن طائر العنقاء (البن بن) شوهد قادما من بلاد العرب ،ولذلك نظر المصريون اليه على أنه رجل مبارك ومن ثم لذلك أطلقوا عليه بالمصرية مصطلح شاي - ام كيمت « أى بركة مصر » وقد ترجم هذا المصطلح المصرى الى اليونانية وهو Αγαθοδαιμων، ففى عهده ظل النيل يفيض فيضاً كافياً جالباً الخير. أما فى الأسكندرية فقد حدثت أعمال شغب ضد الطائفة اليهودية، فقد استغل السكندريون وداعة الامبراطور، وقد سقط والى مصر لوكيوس موتاتيوس السعيد صريحاً أثناء قمعها، كما تعرض شطر كبير من المدينة للخراب والدمار، مما أغضب الامبراطور وراحوا يفتكون باليهود من السكندريين لتعكيرهم صفو السلام الرومانى. وقد جاء الى المدينة ليتفقد ما لحق بها من دمار، ويصلح المرافق المخربة، فبنى ملعبا لسباق الخيول (عند الاستاد الحالى فى الاسكندرية)، كما جدد بوابتي المدينة الشرقية التى كانت تعرف بباب الشمس، والغربية التى كانت تعرف بباب القمر.

٥ - حكم الأمبراطورين ماركوس اوريليوس دلوكيوس فيروس (١٦١ - ١٨٠م)

ولقد ادرك الأمبراطور مدى إتساع الامبراطورية، واستحالة حكمها عن طريق امبراطور واحد، ولذا أوصى بأن يخلفه ماركوس اوريليوس على أن يشاركه أحد أصفيائه وهو لوكيوس فيروس، غير أن هذا الأخير مات عام ١٦٩ م فأنفرد ماركوس أوريليوس بالحكم، وكان فيلسوفاً مثالياً مثل الفرعون اخناتون، عكف على تأليف عمل فلسفى عبارة عن

« حوار مع الذات » ربما مقلداً فى ذلك الأدب المصرى القديم الذى عرف هذا الحوار الداخلي بيين الانسان وقرينه (الكا) ، وبالرغم من ذلك لاندرى ما الذى جعل الفلاحين فى الدلتا يهبون في ثورة يقودهم كاهن مصرى إسمه إيسودوروس (أى هبة إيزيس) عرفت بثورة الرعاة أو ثورة البوكوليا ، ومن الواضح أن الثوار استغلوا سحب القوات الرومانية للأشتراك في حروب الأمبراطورية على جبهة الدانوب ، وربما كان السبب هو ثقل وطأة الضرائب بسبب تكاليف حروب الأمبراطورية على حدودها الشمالية في أوروبا ، وقد عجزت القوات الرومانية المتبقية في القضاء على هذه الثورة التي شملت كل أنحاء دلتا النيل ، وأصبحت الأسكندرية مهددة بالسقوط فى أيديهم لولا إرسال الأمبراطور تعزيزات عسكرية من سوريابقيادة القائد الشهير افيديوس كاسيوس ، غير انه وقف عاجزاً أمام هذه الانتفاضة المصرية ، لولا لجوئه الى سلاح الوقيعة بين الثوار حتى عزلهم عن بعضهم البعض ، ثم صفاهم وعاد الى سوريا منتصراً تاركاً نائبه موكيانوس فى الأسكندرية . وقيل أن نشوة النصر اغرت أفيديوس كاسيوس أن يتحدى الأمبراطور ، ويعلن نفسه امبراطورا في ربيع عام ١٧٥ م وقد شجعه على ذلك السكندريون الذين كانوا على استعداد لتأييد أى منشق عن الامبراطورية أملاً فى الأستقلال واسقاط التبعية ، وقيل انه فعل ذلك بعد اشاعة كاذبة إدعت مقتل الأمبراطور في الحرب ، وقيل أن ذلك قد تم بعلم الأمبراطورة فاوستينا . وسرعان ما تدفقت على افيديوس كاسيوس المبايعة من كافة أقاليم مصر وولاية الشام وأفريقيا . وازاء ذلك الخطر اوقف ماركوس اوريليوس القتال على جبهة الدانوب وساغر بقواته على عجل الى مصر ، وقبل أن يصل كان افيدوس كاسيوس قد لقى مصرعه أو اخذ حياته بيده ، ولم يكن قد مر على تمتعه بلقب امبراطور سوى مائة يوم فقط ، ولتفادى غضب الامبراطور قامت القوات الرومانية الثائرة بقتل موكيانوس نائب افيديوس كاسيوس للقضاء على جيوب الثوار المتبقية .

وفى الأسكندرية أعلن الأمبراطور الفيلسوف عفوه عن الثوار بما فى ذلك الوالى ستاتيانوس الذى كان قد انضم اليهم ، واستراح بعض الوقت حيث وجد الفرصة مواتية لتفقد مكتباتها باحثا عن مؤلفات فى الفلسفة ،

والتحاور مع فلاسفتها ، ويقال انهم رسموه فيلسوفاً ، ومنحوه عضوية مجمعهم ، ولكى يهدء المصريين شرع فى ترميم بعض معابدهم مثل معبد انطايوبوليس (قاو الكبير الغتمانية محافظة سوهاج) الذى يعود لعهد بطليموس الرابع[٣٥] .

٦ـ الأمبراطور كومودوس ١٨٠ ـ ١٩٢ م

لا ندرى ما الذى جعل الأمبراطور الفيلسوف يخرج عن تقاليد سابقية من أباطرة هذه الأسرة ويعود الى نظرية توريث العرش للأبناء ، فقد إختار إبنه كومودوس ليخلفه من بعده ولهذا يسمى المؤرخون الرومان ذلك اليوم الذى اختار فيه ابنه وليا للعهد باليوم الأسود(dies negra) ، فلقد خيب كومودوس آمال ابيه فى جعله حاكما صالحا عادلاً إذ عاد الى سياسة سفك الدماء والانتقام الذى لا يرحم من أعدائه ، وعلى رأسهم اسرة افيديوس كاسيوس عملاً بمبدأ الابناء يدفعون حساب الآباء ، وبالمثل فعل بزعماء الأسكندرية الذين استدعاهم الى روما وحاكمهم ، وتشير أحدى القصاصات البردية الى محاكمة رئيس الجمنازيوم ابيانوس الذى قابل حكم الموت عليه بشجاعة مشيرا الى هيلودوروس أحد ابناء افيديوس كاسيوس الذين قتلهم كومودوس ، وأنه يلحق بالشهداء السكندريين الذين سبقوه من أمثال ايسودوروس ولامبون ، الذين رفعهم الخيال الشعبى الى مصاف شهداء الظلم الرومانى ، وجعلهم رمزاً للمقاومة ضد استعمارهم للبلاد كما تضمنت هذه البردية إتهامات الى الولاة والتجار الرومان بالغش والتربح من تجارة القمح عن طريق شرائه بثمن بخس ، وبيعه بثمن باهظ . كما أشارت أيضا الى الذكرى الطيبة التى تركها ماركوس أوريليوس فى نفوس الناس . وقد لوحظ أن اليهود لم يعودا الضحية المعتادة للسكندريين كبديل لمقاومة الرومان بعد أن تضاءل عددهم ، وقلمت أظافرهم بعد قمع ثوراتهم ضد الامبراطورية ، وأصبح عداء السكندريين موجهاً علنا ضد الرومان . فى ليلة الأول من يناير عام ١٩٣ م لقى كومودوس مصرعه على حلبة المصارعة بايعاز من قائد الحرس البريتورى وعشيقه الأمبراطور ، وعندما شاع نبأ مقتله تنفس الناس الصعداء وخرجوا هاتفين يهنىء بعضهم بعضا .

المرحلة الرابعة : حكم الأسرة السفيرية ١٩٣ - ٢٣٥ م :

عادت الجيوش الرومانية إلى الثورة ، ونادت كل منها بقائدها إمبراطوراً ، وفي نفس الوقت نافستها قوات الحرس الجمهوري قائلة الأباطرة - مطالبة بأن قادتها هم الأجدر بهذا المنصب فقد شهد عام ١٩٢ صراعاً على العرش بين ثلاثة من القواد هم :

١ - برتيناكس (من يناير ١٩٣ - حتى مارس ١٩٣ م)

رغم توليه العرش في اليوم الأول من يناير عام ١٩٢ إلا أن نبأ توليه لم يصل الى الأسكندرية إلا في السادس من شهر مارس من نفس العام عندما اصدر والي مصر سابينوس امراً بأقامة الأفراح لمدة خمسة عشر يوماً احتفالاً بتولي برتيناكس ، واغلب الظن أن الوالي لم يكن في الأسكندرية عند وصول النبأ ، بل كان في جولته التفقدية السنوية ، ولعقد المحكمة العليا في منف . وفي الثامن والعشرين من مارس أغتيل برتيناكس ، غير أن الخبر لم ينشر في مصر إلا في منتصف شهر مايو ، فقد نشرت وثيقة مؤرخة بحكمة ومحررة في الفيوم في اليوم التاسع عشر من مايو رغم انه كان قد مر على مقتله شهر وسبع وعشرون يوما(٣٦).

٢ - بسكنيوس نيجر : (يناير ١٩٣ - نوفمبر ١٩٣ م) :

وفي مواجهة برتيناكس قائد الحرس الجمهوري - هتفت القوات الرومانية في سوريا بقائدها نيجر إمبراطوراً بعد إسبوعين فقط من تولي برتيناكس ، كما أعلن شعب مصر تأييده لنيجر لأنه على ما يبدو كان من أصل أفريقي ، ولأنهم عرفوه عندما طرد قبائل البلميين من جنوب أسوان ، كما طارد قبائل البدو المغيرة على مصر من الصحراء الشرقية بالأضافة الى أن مسلكه المهذب ، وسيطرته على قواته آنذاك اكسبته شعبيه بين الناس . وعلى الفور قام الوالي سابينوس بسك إسمه وصورته والقابه على عملة الأسكندرية ، كما آرخت وثيقة من حكمه حررت في الرابع عشر من يناير عام ١٩٣ م . ولم يهنأ نيجر طويلا بهذا التاييد إذ ظهر في الأفق سبتميوس سيفيروس قائد قوات الراين ، القوى الشكيمة ، الفينيقي الأصل متحديا ودارت المعارك بين قوات الشرق وقوات الراين العتيدة طوال عام ١٩٣ لتحسم المعركة لصالح سبتميوس سيفيروس .

٣ - سبتميوس سيفيروس إمبراطورا (نوفمبر ١٩٣ الى ٢١١ م)

حسم سبتميوس سيفيروس المعركة عندما سارع بأحتلال شمال افريقيا، فقد كان ينتمى لأسرة هاجرت من حمص فى الشام لتستوطن مدينة لبدة الكبرى Léptis Magna بالقرب من طرابلس بليبيا، وتدرج فى سلك الجيش الرومانى حتى أصبح قائدا لقوات الراين، وبعد تأمين شمال افريقية، دخل مصر من الغرب وبذلك امن اهم مصدرين للغلال يطعمان الأمبراطورية الرومانية، وكان هذا كاف لحسم المعركة لصالحة. وأول وثيقة ظهرت تحمل إسمه يرجع تاريخها الى السادس والعشرين من نوفمبر عام ١٩٣ م جاءت من اوكسيرينخوس[٣٧]، رغم ذلك ظلت الوثائق فى قرى مصر النائية تؤرخ بحكم نيجر حتى بعد مقتله وحتى ديسمبر عام ١٩٣ م. مما يكشف عن التخبط فى الأنباء[٣٨]. فلم يعد أحد يدرى من يحكم، ومن قتل من؟، فقد سارت الأمور فى الريف فى مسارها الروتينى، إذ اصبح إرتباط الناس بالوالى الحاضر اكثر من إرتباطهم بالأمبراطور الغائب، خاصة انه كان يحكم مصر وال ذكى وحصيف شهد عصور كل من برتيناكس، ونيجر وسيفيروس وتعامل معهم وهذا الوالى هو مانتنيوس سابينوس Mantennius Sabinus.

وفى اواخر عام ١٩٩ م اى بعد سبع سنوات من تغلب سيفيروس على منافسه ظهرت عملة الأسكندرية[٣٩] تعلن عن زيارة الأمبراطور لمصر بنفس الطريقة التى ظهرت بها عندما اعتزم نيرون زيارتها منذ مائة واثنين وثلاثين عاما سبقت، فقد ظهرت الأسكندرية فى شكل فتاة تصافح الأمبراطور مرحبة. وفى هذه المرة دخل الأمبراطور مصر من الشرق، وبعد أن إستراح فى الأسكندرية، ركب النيل قاصدا طيبة للتفرج على آثارها خاصة تمثالى ممنون مثلما فعل هادريانوس، ويقال أنه أمر بترميم الشقوق الموجودة أعلاها إلا أن هذا الترميم شابه الخطأ، فلم يعد التمثالان يحدثان صوت النحيب المعتاد، وكان الأمبراطور يتحرق شوقا ليزور المنطقة العازلة بين مصر والنوبة، غير أن مرض النقرس أعاقة عن القيام بهذه الرحلة، بالرغم من ذلك شيد معبد بأسمه فى مدينة بريميس النوبية (قصر ابريم) حيث كانت تعسكر قوات الحدود الرومانية فى منطقة الهيراسيكا مينوس Hierasykaminos (الجميزة المقدسة وهى المحرقة الآن)

كما قام ببناء معبد للربة الأسيوية كوبيلى ، ومجمع لكل الهة الأمبراطورية وجمنازيوم فى الأسكندرية(٤٠).

اما اهم قراراته فهو إعادة مجالس الشورى ليس للأسكندرية فحسب بل لكافة عواصم المدن فى مصر(٤١)ولم يسعد ذلك السكندريين كثيراً لأنه ساوى مدينتهم بعواصم الأقاليم الأخرى ، ولعل السبب فى ذلك رغبته فى تحميل الأقاليم مسئولية الحكم الذاتى نيابة عن الأمبراطورية وتخفيفا عنها ، خاصة أن مجالس الشورى اصبحت محددة السلطات ، واشبه بالبلديات الرومانيةMunicipia ، ولاخوف من عودتها ، وبالتالى فربما هدف الى توحيد نظم الأدارة بين ايطاليا والولايات ، والمساواة بين الولايات الشرقية وسائر الولايات الغربية لأنه نفسه كان من اصول شرقية . ولقد احدث حكمه تطورا فى النظم القانونية والأدارية . إذ يتضح من براءات الضرائب التى صدرت فى عهدة أن تغيرا ملحوظا قد ادخل على المصطلحات القانونية فى هذه الوثائق(٤٢).

وقبل أن يغادر مصر أصدر اوامره الى الوالى ساباتيانوس اكويلا Sabatianus Aquila بالقضاء على عصابات قطاع الطرق التى كانت تهدد الأمن الداخلى ، وكانت تتكون من الفلاحين الهاربين من الضرائب ، ومن الجنود الهائمين على وجوهم نتيجة لصراع القادة ، وتكرر هذا الأمر عندما اصدر الوالى بايبيوس اوريليوس جونكينوس الذى تولى فى عهد ابنه كاراكالا اوامر مشددة إلى حكام الأقاليم بمطاردة هؤلاء الخارجين على القانون .

وعلى جدران معبد اسنا (Latopolis) يظهر سبتميوس سيفيروس فى هيئته وزيه المصرى وهو يؤدى فرائض الصلوات للآلهة المصرية ، كما ظهر مرة أخرى فى صحبة زوجته السورية جوليا دومنا وهو يؤدى شعائر السد اى اعطاء القوة الربانية للفرعون(٤٣).

٤ـ حكم كاراكالا (٢١١ ـ ٢١٧ م)

وفى شتاء عام ٢١١ م مات سبتميوس سيفيروس موصياً ولديه كاراكالا وجيتا ان يحكما معاً ، وبالفعل حكما معا طوال عام ٢١١ ـ

٢١٢ ، ولكن لم يمض عام واحد على ذلك حتى دب الصراع بين الشقيقين ، وانتهى بقيام كاراكالا بأغتيال اخية مدعيا انه كان يدافع عن نفسه ، وكان هذا التفسير مدعاة للسخرية خاصة من جانب السكندريين الذين لقبوه بقاتل أخيه adelphoktonos ، غير ان كاراكالا ذهب ابعد من أبيه فى سياسته الهادفة إلى مساواة سكان الولايات بالمواطنين الرومان من أجل خلق إمبراطورية متحدة ، فأصدر عام ٢١٢م قرارا اسماه بالدستور الأنطونيني منح فيه حقوق المواطنة الرومانية لجميع شعوب الأمبراطورية فيما عدا المستسلمين الذين رفعوا السلاح عليها ، ثم إستسلموا لها أو عفت عنهم . وقيل أن الهدف من صدور هذا القانون هو حل مشاكل الجنود وابنائهم الذين ولدوا اثناء الخدمة(٤٤) عملاً بنصيحة ابيه له ولأخيه بأن لايباليا بشيء سوى بالجيش ومطالبة ، فضلا عن حبة للمغامرات العسكرية وتشبهة بالأسكندر الأكبر . ونتيجة لمنح الجنسية الرومانية لجميع شعوب الأمبراطورية ، إنتشرت الأسماء الرومانية الثلاثية بين الحاصلين عليها فى كافة انحاء مصر بل أضاف كل واحد إلى إسمه اسم أوريليوس وكل واحدة إسم أوريلياتيمنا بأسم أسرة الأمبراطور ، لكن يبدو أن الحصول على حقوق المواطنة كان أمراً إختيارياً . ولقد زار كاراكالا الأسكندرية للمرة الثانية حوالى عام ٢١٥م ، غير انه قوبل بالسخرية من جانب السكندريين لمحاولته التشبه بالقادة العظام الأسطوريين والتاريخيين ، مما ادى الى انفجار غضبه فقبض على أعيان المدينة الذين كانوا فى استقباله ، وأعمل جنوده فيهم القتل ، كما أطلق لقواته العنان تنهب المدينة عدة أيام حتى حل الخراب بشطر كبير منها ، وهلك نفر كثير من أهلها ، وعقابا لها أمر بالغاء المهرجانات والحفلات والأحتفالات ، وحظر إقامة المآدب الجماعية ، ووضع قوات لمراقبة سلوك السكندريين وإرهابهم ومنعهم من التجمهر ، كما أصدر قراراً بطرد العاطلين والفلاحين الهاربين من الريف والذين يتسكعون في شوارع المدينة بحثاً عن عمل ، وإستثنى في ذلك القرار بعض العاملين في خدمات ضرورية او أصحاب المصالح والزوار المؤقتين(٤٥) . ويقال أن ارتفاع نسبة الجريمة في شوارع الأسكندرية ، وانتشار عصابات قطاع الطرق فى الريف والتى نقلت نشاطها الى المدينة هو الدافع الحقيقي وراء هذا القرار .

٥ - الأمبراطور ماكرينوس وولده ديادومنيانوس ٢١٧ - ٢١٨ م.

دبر ماكرينوس قائد الحرس البريتورى مقتل كاراكالا عندما احس بأنه ينوى عزله وعين نفسه امبراطوراً بدلاً منه، وصدق السناتو على ذلك التعيين، كما أشرك معه إبنه ديادومنيانوس في الحكم. وكان ماكرينوس من أصل موريتاني، ولم يكن عضوا فى السناتو وليس له خبرة بالجيش، بل كان رجلاً فقيها في القانون، وكان يفضل المسالمة على مغامرات الحروب، ولذا خفض النفقات العسكرية مما آثار عليه قوات الحرس البرايتورى والجيوش. وفى نفس الوقت كانت جوليا مايسا (شقيقة جوليا دومنا أرملة سبتميوس سيفيروس ووالدة كاراكالا) تسعى لعودة الحكم لأسرة سيفيروس، فحرضت القوات ضد ماكرينوس ورشحت للعرش ابن ابنتها الكبرى وكان يسمى باسيانوس، وكان فى الرابعة عشرة من عمره، وكان كاهنا لرب الشمس الفينيقى إيلاجبالوس أو رب الشمس الذى لا يقهر (Sol Invictus). وقد سحرت طيبته ووسامته الجنود، فهتفوا به امبراطورا عام ٢١٨ واجبروا السناتوعلى الموافقة على قرارهم. وإندلع الصراع بين قوات الحرس البرايتورى المؤيد لماكرينوس وقوات الجيش المؤيدة لباسيانوس، واستغل السكندريون هذا الأنقسام للقيام بأعمال الشغب فى الأسكندرية. وكان ماكرينوس قد عين من جانبه واليا على مصر إسمه يوليوس باسيليانوس، ولكى يرضى السناتو، عين نائبا لهذا الوالي وإسمه ماريوس سيكوندوس، وهو احد أعضاء السناتو وبذلك يكون ماكرينوس أول من خرق قرار الحظر الذى فرضه اكتافيوس على تولى رجال السناتو الوظا÷ف العليا فى ولاية مصر، وهذا يبين أن مصر لم تعد البلد الهام الذى تخاف عليه الأمبراطورية. وخلال هذا الصراع أيد السكندريون ماكرينوس قاتل عدوهم كاراكالا - ضد باسيانوس الذى إدعت جدته جوليا مايسا زوراً أنه إبن غير شرعى لكاراكالا. ودارت المعارك فى الأسكندرية وعلى غير ما يشتهون، انتهت بهزيمة ماكرينوس وانتصار جنود باسيانوس، وقتل نائب الوالى السيناتورسيكوندوس أما الوالى نفسه فقد هرب الى ايطاليا.

٦ـ ماركوس اوريليوس انطونينوس (باسيانوس) ٢١٨ـ ٢٢٢م:

كان باسيانوس كاهنا متبتلا لعبادة رب الشمس الذى لايقهر .Sol Invictus ، وبعد جلوسه على العرش أعطي لقب نفسه ماركوس أوريليوس انطونينوس تمسحا بهذه الأسرة طيبة الذكر غير انه إنصرف عن الحكم داعيا للتبشير يجعل رب الشمس ربا واحداً لكل شعوب الأمبراطورية على طريقه الفرعون إخناتون، ونقل حجره الأسود المقدس من الشام الى روما، وزوج هذا الرب بالربه القرطاجية تانيت، واطلق على نفسه لقب كاهن رب الشمس المبجل إيلاجبالوس، وقد إستاء الرومان للأستعراضات الدينية الشرقية الغريبة في عاصمة بلدهم، وساد التنمر بينهم، عندئذ قررت جدته جوليا مايسا إستخدام اموالها ونفوذها لدى كبار ضباط الجيش لخلعه، وتنصيب ابن إبنتها الثانية جوليا ماميا وكان يدعى الكسيانوس، وثم لها ما أرادت إذ قتلت القوات باسيانوس وأمه فى ربيع عام ٢٢٢م واعادت تمثال ربه الى وطنه.

٧ـ سيفيروس الكسندر آخر سلالة الأسرة السفيرية ٢٢٢ـ ٢٣٥م

وبعد توليه العرش حمل الكسيانوس لقب الكسندر سيفيروس، وهو آخر اباطرة الأسرة السيفيرية، وكان ضعيفا متخاذلاً، فترك الحكم فى يد أمه جوليا ماميا وجدته جوليا مايسا، ولقد تدهورت خلال حكمه حالة مصر الأقتصادية، ولم تعد البلد الثري الذى تعتمد عليه روما لاطعام شعبها وتخاف عليها ،بل أصبحت مصر منفى للمغضوب عليهم من رجال البلاط، وربما زار الكسندر سيفيروس فى صحبة امه جوليا ماميا ـ مصر إذ ظهرت عملة المدينة عام ٢٢٨م تصور جوليا ماميا وهى تمسك بالصولجان(٤٦). ولقد سخر منه اهل الأسكندرية ووصفوه «بالكاهن السورى الأعظم»، وربما كان يتمني ان يقدم للمصريين مكرمة مثل الغاء متأخرات الضرائب لكن الجيش لم يكن يدعه يفعل ذلك، لأنه كان العوبه في يدة، فضلا عن حاجة الجيش الى المكافأت وزيادة الرواتب، بل أنه لم يستطع حتى حماية إثنين من رجاله من غضب قادة الجيش: وهما

الفقيه أولبيانوس والمؤرخ ديوكاسيوس . وفى عهده ساء وضع القوات الرومانية في مصر ، وتدهورت قدرتها ولياقتها العسكرية ، وانتشرت بينهم اللامبالاة ، وعدم الأنضباط ، والهرب من الخدمة والتحول الى النهب والسلب ، وما تبقي تحول الى مجرد رجال شرطة ، مهمتهم جمع الضرائب وتنفيذ أوامر السلطة . وأخير سقط الأسكندر سيفيروس قتيلاً فى مؤامرة دبرها له الجيش وبذلك إنتهى حكم هذه الأسرة .

المرحلة الخامسة : اباطرة الشرق المنتسبون إلى السيڤيريين ٢٣٥ - ٢٦٨ م :-

تمثل فترة الخمسين عاماً التى تفصل بين سقوط الأسرة السيفيرية ومجئ ديوقلديانوس حاله من الفوضى والأضمحلال السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، فقد توالى على عرش الأمبراطورية سلسلة من قادة الحرس البرايتورى الذين إغتصبوا العرش بالقوة بلغ عددهم عشرون امبراطوراً ، تروح بقاء كل منهم على العرش ما بين بضعة شهور وست سنوات ، وهذا الصعود والسقوط السريع جعلنا لانعرف عنهم إلا النذر القليل ، بل أن بعضهم لانعرف عنه شيئاً ، ولولا ان الوثائق كانت تؤرخ بحكمهم ، واسماؤهم تسك على النقود لأسقطنا ذكرهم تماماً . ففى الفترة ما بين ٢٣٥ و ٢٣٨ م توالى على العرش ماكسيمينوس التراقى ، ثم الأمبراطور جورديانوس الأول ، وبوبيينوس Pupienus ثم جورديانوس الثانى إلى ان إستقر الحكم قليلاً عندما تولى جورديانوس الثالث العرش وحكم ست سنوات (٢٣٨ - ٢٤٤ م) بالرغم من ان الوثائق بدأت تتضارب فى ذكر الأباطرة دون الاهتمام بمن سقط ومن صعد إذ اصبح الوالى فى مصر أهم من الأمبراطور .

١ - فيليب العربى : ٢٤٤ - ٢٤٩ م :-

إستطاعت إمراة عربية ثرية «مترومنة» من نساء الشام ، اسمها الرومانى أوتاكيليا سيڤيرا أن تدعى نسبها إلى سبتميوس سيفيروس خاصة إلى جوليا دومنا زوجتة ، وعن طريق رشوة الجنود تمكنت أوتاكيليا سيڤيرا من وضع ولدها فيليب على عرش الأمبراطورية شكلاً بينما تحكم هى من ورائة ، فقد ظهرت فى إحدى وثائق البردى تحمل القاب الشرف والسلطة ، وتفاخرت بأنها أم الأغسطس وأم الجنود Mater Augusti

et Castrum ، وكانت سياسة الأم والأبن هو البقاء في السلطة عن طريق رشوة قادة الجيش ، بل عن طريق شراء السلام مع أعداء الأمبراطورية كما حدث مع القوط في وادي الدانوب ، وفي عصر هذا الأمبراطور إزداد إقبال الناس على اعتناق المسيحية هروباً من الظلم واليأس ، وانتظاراً للخلاص ، ولهذا تعاطف فيليب وامه مع المسيحية حتى إتهما باعتناقها . بل قيل أن ذلك كان سبباً في انقلاب الجنود الرومان عليهما .

وفي مصر شهد حكمها توسع دولة اكسوم في الحبشة على حساب دولة مروى في النوبة دافعة أمامها القبائل النوبية إلى حدود مصر ، فهاجموا في عام ٢٤٧ - ٢٤٨ م جنوب اسوان لأول مرة منذ اخضاعها على يد أغسطس ، رغم ذلك بقيت الحامية الرومانية في جزيرة فيلة صامدة تحرس المنطقة العازلة . بل تمكنت من ابعاد هذة القبائل النوبية إلى أصقاع الجنوب مرة أخرى .

٢ - ديقيوس ٢٤٩ - ٢٥١ م وخلفاؤه :

كان جايوس ديقيوس في الأصل قائداً للجيش في عصر فيليب العربي ، حارب القوط بشجاعة ، وإزاء ميل الأمبراطور وامه إلى التساهل مع القوط إدعى الجيش انهما ضيعا عليه نصراً كانوا على وشك من تحقيقة ، فهتفوا بقائدهم ديقيوس امبراطوراً ، وفي حين أن الكتاب الوثنين الرومان أشادوا بشجاعة ديقيوس وحرصة على التشاور مع السناتو ، أكال له الكتاب المسيحيون الأتهامات والتسباب ، وذلك لأنه حاول وقف تقدم الديانة المسيحية بالعودة إلى ديانة الآباء والأجداد ، والنظر إلى الأمبراطور - وليس إلى المسيح بانه الأنسان الرب . ولذلك أصدر قراراً بأن يتوجب على رعايا الأمبراطورية إثبات ولائهم لها بالأقرار علناً بألوهية الأمبراطور ، وذلك بتقديم الشعائر والقرابين لصنمه ، وتذوق هذه القرابين والحصول على براءة موقعة من مسئولين عينوا خصيصاً لهذه المهمة ، وتعرف هذة البراءات باسم Libelli . وقد عثر في مصر على عدد منها ، ويعتقد علماء النقوش أن هذا القرار صدر ما بين يوم ١٤ و ٢١ يونيو عام ٢٥٠ م ، ومن كان يمتنع عن تنفيذ ما جاء فيه كان يعاقب بتهمة الخيانة العظمى . ومن ثم ظهر مصوراً على معبد إسنا يؤدي الطقوس للآلهة الوثنية(٤٧)

وفى صيف عام ٢٥١م نادت القوات بقائدها جاللوس إمبراطوراً، غير أن ذكره فى فى الوثائق لم يظهر قبل بداية السنة المصرية فى أول توت (٢٩ أغسطس) عام ٢٥٢م. وظل إسمه يتردد فى الوثائق حتى بعد مقتله بأسابيع، اى حتى شهر اغسطس عام ٢٥٣م، كما لاحظ علماء النوميات ان عملة الأسكندرية حجبت عام ٢٥٢م وهى ظاهرة نادرة لم تتكرر. وفى الثامن والعشرين من اغسطس عام ٢٥٣م تولى إيمليانوس العرش لعام واحد، غير أن الادارة الرومانية لمصر لم تعلم بتولية العرش الا بعد مقتلة. وفى عام ٢٥٣م تولى فاليريانوس العرش غير أنه ورط نفسه فى حروب لا طائل منها مع الفرس انتهت بأسرة وهو اول امبراطور رومانى يقع فى الأسر فى تاريخ الامبراطورية، وعلى الفور تولى نائبه جاللينوس الذى حكم حتى عام ٢٦٠م وكان هذا العام عام الكوارث بالنسبة للأمبراطورية، فقد اوقع القوط والجرمان هزائم فادحة بجيوش الأمبراطورية، كما قطع القراصنة الطرق البحرية، وعصابات اللصوص قطعت الطرق البرية، كما وقعت سلسلة من البراكين والزلازل فى ايطاليا واسيا الصغرى، وظهر وباء قاتل فى مصر امتد إلى باقى انحاء الأمبراطورية. ويقال أن الاسكندرية فقدت ثلثى سكانها من جراء هذا الوباء مما احدث نقصاً فى الأيدى العاملة، وفى الشرق الأدنى إجتاح الملك شابور الأول بلاد الرافدين وسوريا وآسيا الصغرى، فضلاً عن ظهور ما لا يقل عن ثمان عشره مطالب بالعرش، فقد أعلن ماكرينوس قائد حرس الأمبراطور الأسير فاليريانوس نفسه إمبراطورا عام ٢٦٠م، متحديا بذلك جاللينوس، كما أعلن فى نفس الوقت ماكريانوس القائد وأخوه كويتوس نفسيهما أباطرة، وساراً لملاقاة جاللينوس، وفى تراقيا التقت الجيوش، ودارت رحى المعارك التى انتهت بمقتل ماكريانوس وأخيه كويتوس، وهزمت قوات الشرق التى كانت تؤازرهما.

المرحلة السادسة: حكم الأباطرة الألليريين (اباطرة البلقان) ٢٦٨ ـ ٣٣٧م:

كادت الأمبراطورية أن تتفكك وتندثر لولا ظهور سلسلة من الاباطرة الأشداء العتاة الذين جاءوا من الليريا (بوغوسلافيا سابقاً)، والذين بذلوا جهوداً عسكرية فوق الطاقة للم شتات الأمبراطورية وهم: كلاوديوس

القوطى، واوريليانوس، وبروبوس و ديوقلديانوس، وقنسطنطين الكبير. وكان أول تحدى واجهوه في الشرق الأدني هو إستقلال مصر عن الأمبراطورية. وقبل أن نتعرض لهم نرى ماذا حدث في مصر.

استقلال الوالي ايمليانوس بمصر ٢٦٢ - ٢٦٨ م :

ونظراً لكثرة صعود وسقوط الأباطرة وبعدهم عن مصر، إزدادت العلاقة بين الوالي والشعب المصرى الذى اصبح بمثابة الأمبراطور بالنسبة لهم لأنهم يرونة ويتعاملون معه حتى ولو كان على الورق. بالأضافة إلى ان السكندريين كانوا على إستعداد لتأييد اى منشق عن الأمبراطورية الرومانية خاصة اذا كان هذا المنشق طموحاً، او قام بأعمال ترفع من أسهمه بين الناس. ففى أواخر عصر جاللينوس أعلن والى مصر ايمليانوس تحدية للأمبراطور، واعلن نفسه امبراطوراً مثلما فعل أفيديوس كاسيوس بالنسبة للأمبراطور ماركوس أوريليوس. واقبل ايمليانوس على العمل والأصلاح بكفاءة طوال السنوات الست التى استقل فيها بمصر، فقد طرد القبائل البليمية المغيرة على حدودها الجنوبية، وكان يخطط للقيام بحملة ضد مصدر القلاقل - دولة أكسوم الحبشية - وعندما وصل القائد ثيودوتوس مبعوثاً من الأمبراطور الرومانى للقبض على الوالي المتمرد وإعادة مصر إلى حظيرة الأمبراطورية مرة أخرى، تجمع السكندريون حول ايمليانوس وحثوه على التصدى والصمود، ودارت معركة شرسة في الأسكندرية دمرت واحرقت فيها احياؤها ومبانيها، غير أن المعركة لم تكن بين طرفين متكافئين إذ هزم ايمليانوس وقبض عليه، وارسل إلى روما ليحاكم ويعدم، وترك ثيودوتوس الأسكندرية خرائب وأطلال بعد أن فقدت شطراً كبيراً من سكانها، وانتشر وباء الطاعون بين الناجين من الموت بسبب تعفن الجثث التى تركت فى الطرقات. ومن الجدير بالذكر أننا لم نعثر على أى وثائق او نقود تحمل اسم هذا الوالى الثائر.

١ - الأمبراطور كلاوديوس قاهر القوط ٢٦٨ - ٢٧٠ م :

إكتسب القائد كلاوديوس شهرته من إنتصاراته على القوط حتى اشتهر بانه قاهر القوط Gothicus، وكان أول إمبراطور يعطى إهتمامه للولايات الغربية بعد سلسلة الأباطرة الشرقيين الذين أولوا اهتماماتهم للدفاع عن

الحدود الدفاعية فى الشرق، غير أن أهمال الشرق الأدنى أعطى الفرصة لقوى محلية جديدة للظهور فيه، فقد توسعت إمارة تدمر (بالمورا) لتتحدى الوجود الروماني ذاته، ولم يكن الأمبراطور كلاوديوس قادراً على أن يفعل شيئاً مغلولتان بسبب الحرب مع القوط وحماية العرش من المطالبين به. وفى عام ٢٧٠ م سقط كلاوديوس صريع وباء الطاعون. وخلفه نائبه كونتللوس الذى لم يستمر فى العرش سوى بضعة شهور سك خلالها إسمه علي عملة الاسكندرية، ونظراً لأدائه السئ فى الحرب، هتف الجنود بقائد أكفأ اسمه اوريليانوس امبراطوراً، وكان رجلاً صارماً يؤمن بالقوة الغاشمة، وأعلن عقب تولية عزمه على استعادة الأمبراطورية الرومانية وجمع شملها مهما كان الثمن.

٢ - الأمبراطور اوريليانوس ٢٧٠ - ٢٧٥ م:

بدأ أوريليانوس مشروعه لأستعادة الأمبراطورية بتأمين جبهتها الشمالية بعد أن هزم القوط، والوندال، والصرب، والجرمان، وأبعدهم إلي ماوراء الدانوب كما أنه سحب قواته من داكيا (رومانيا الحالية) لعدم جدوى البقاء هناك، ولكى يستخدمها فى جبهة أكثر الحاحا وهو إستعادة الشرق الأدني من خطر إمارة تدمر وملكتها زنوبيا التى هددت الوجود الرومانى فى الشرق الأدني بأكمله.

الملكة زنوبيا تغزو مصر: ٢٧٠م - ٢٧١ م:

كانت تدمر Tadmyra - كما يتضح من إسمها الآرامي - واحة نخيل (ولذلك ترجم الى اليونانية بأسم بالمورا Palmyra) تقع علي طريق القوافل التجارية القادمة من قلب آسيا والمتجهة إلي موانى البحر المتوسط مارة بالخليج والشام. ولذلك فقد كانت ملتقى لمنتجات الشرق الأقصى من الصين والهند وبلاد فارس وبلاد العرب وأفريقيا. وقد إزدهرت فى القرن الثانى الميلادى فى عصر تراجانوس لأنها كانت مركزا لتجنيد الراغبين من البدو فى الانضمام الي الخدمة في جيوش الشرق الرومانية. ولما جاء سبتميوس سيفيروس. الذى عرف عنه محاباة شعوب الشرق الأدنى رفعها إلي وضع المستعمرة الرومانية Colonia ذات الحقوق اللاتينية. ومن ثم كان لها أعضاء ممثلون عنها في مجلس السناتو الرومانى. وتكونت

فرقة عسكرية من بدوها عسكرت في الشام ، وقد ثبت كفاءة هذه الفرقة عندما سحقت جيش الملك الفارسي شابور وإنتقمت للأهانة التي لحقت بالأمبراطور الروماني فاليريانوس على يديه . وكان ذلك في عصر أميرها أوذنينه الذي عرف إسمه في اللاتينية بأسم « أوديناثوس » وإعترافا بذلك الفضل رفع الأمبراطور رتبته بتعيينه قائدا اعلى لقوات عموم الشرق ، وكان اوذينة ينوى فتح آسيا الصغرى وأرمينيا لحساب الرومان لولا سقوطه قتيلا ، وتولت زوجته القادرة الساحرة « بات زباى » Bat Zabbac (أو بنت الزباء) والتي كانت تحمل إسماً رومانيا هو سبتميا زنوبيا Septimia Zenobia ، وعرفت في الأساطير العربية في العصر الجاهلي بأسم الزباء (أو زينب) وأعلنت - على طريقة نساء آل سيفيروس - ولدها المدلل والذي كان في العاشرة من عمره ويدعى وهب اللات Vaballathus ملكا مكان أبيه على أن تكون هي وصية عليه . وقد عملت بكفاءة منقطعة النظير ، فقد إدعت أنها تنحدر من سلالة مقدونية ، وأنها سليلة الملكة البطلمية كليوباترا ، وأن القدر ساقها للانتقام لها من الرومان ، وتحقيق احلامها في إقامة إمبراطورية كبرى في الشرق الأدنى تكون نواتها الأسكندرية ، ولذلك إنتهزت إنشغال أوريليانوس في الحرب على جبهة الدانوب ، وتوسعت غرباً نحو وادي النيل ، وإدعت أن نداء من المعجبين بهاوجه اليها لتتقدم نحو الأسكندرية بزعامة رجل إسمه ثيماجينيس Timagenes ، فبعثت بقوة يقودها وزيرها الأول زابداس Zabdas ، ونجحت هذه القوة في دحر القوات الرومانية المدافعة عن مصر ، وقد حاول والى مصر إنذاك واسمه بروبوس إعاقة هذا الزحف التدمري ، ولكنه هزم ، فأخذ حياته بيدة ، وتقدمت القوات من نفس الطريق الذي حاول فيه كل من أنطيوخوس الثالث والرابع إحتلال مصر في القرن الثاني ق . م ، أى عن طريق محور بيلوزيوم - منف ، فمصر الوسطى ، ثم التقدم إلى الدلتا في حركة دائرية أو ما يعرف بخطة التفاف الثعابين حتى أطبقت على الأسكندرية ودخلتها وسط ترحيب السكندريين ، وظهرت عملة الأسكندرية عام ٢٧٠ م تحمل على أحد وجهيها صورة الأمبراطور كلاوديوس القوطي على وجه ، وعلى الوجه الآخر صورة وهب اللات كمحاولة منها لتهدئه الأمبراطورية الرومانية أو التلويح بالتشكيك أو التشكيك في شرعية حكم

اوريليابوس الذى كان قد إغتصب العرش من كلاوديوس القوطى . وقد عثر على وثيقة بردية عبارة عن مسودة خطاب القاه وهب اللات بعد دخول الاسكندرية عبر فيه عن شكره لشعبها ، ووصفها بأنها المدينة الأم موطن أجداده البطالمة ، لأن أمه تنتمى إلى سلالة كليوبترا السابعة اخر هذه السلالة . وإنه جاء للمطالبة والانتقام من الرومان.

وما أن فرغ اوريليانوس من حروبه فى جبهة الدانوب حتى بدأ يتفرغ لجبهة الشرق الأدنى ، وفى البداية حاول إستخدام سلاح الدبلوماسية حتى يحقق أهدافة ، ولهذا اصدر إعترافاً بأن وهب اللات شريك له فى حكم ولايات الشرق ، بينما يحكم هو الغرب ، وتمت المصالحة بينهما ، وظهرت عملة الأسكندرية تحمل صورة أوريليانوس على الوجه الأول مصحوبا بألقاب الأمبراطور المعتادة ، بينما ظهر على الوجه الأخر صورة وهب اللات وتحتها عبارة «الأمبراطور القائد للرومان» وهو ما يعادل درجة نائب الأمبراطور ، لكنه أعطى تاريخ تولية إلى ايام كلاوديوس القوطى ، أى انه اقدم من اوريليانوس فى الحكم بثلاث سنوات وهى - فى راينا - دعاية ذكية ومقصودة.

غير انه لم يمض عام واحد على الحكم المشترك بينهما حتى دب النزاع بين زنوبيا وأوريليانوس لدرجة أن عملة عام ٢٧١ صدرت بدون صورة أوريليانوس ، إذ حملت صورة وهب اللات على الوجه الأول وهو يحمل اللقب التقليدى للاباطرة الرومان كاملاً ، بينما احتلت صورة امه زنوبيا ظهر العملة ، ربما مدعياً ايضاً إنتمائه إلى اباطرة الأسرة السيفيرية الشرقيين ، اى أن ذلك يمثل الصراع بين سلالة سيفيروس وأباطرة البلقان المغتصبين للعرش ، ومحاولته الحصول على تأييد قوات الشرق التى تحن إلى أيام سبتميوس سيفيروس . وفى صيف عام ٢٧١ م إندفع اوريليانوس بقواته الأللبرية المتعطشة لسفك الدماء نحو الأسكندرية فاستولى عليها ، واصدر عمله تحمل صورته وحده مع القابه ، ثم كلف نائبه بروبوس ليتولى مهمة طرد فلول التدمريين من مصر الوسطى ، بينما سار هو على راس قواته لأحتلال تدمر ذاتها ، وإنسحبت القوات التدمرية للدفاع عن وطنها الأصلى فى الشام.

وإذا كانت زنوبيا قد تخيلت نفسها كليوبترا ، فقد تخيل اوريليانوس نفسه اكتافيوس ولذلك حرص على القبض عليها حية حيث ساقها مقيدة

بسلاسل من الذهب فى موكب نصره في روما . غير أن شعب تدمر عاود الثورة على الرومان وامتدت هذه الثورة الي الأسكندرية .

ثورة الأسكندرية عام ٢٧٢ م .

ثبت من النقوش التى نشرها ريناخ(٤٨) ان جالية كبيرة من تجار تدمر ، كانت تقيم في قفط ويتعاونون مع تجار الأسكندرية في احتكار تجارة الشرق الأقصى ، ولهذا كان هناك مصالح تجارية بين تدمر والأسكندرية ، لذلك تعاطف شعبها ، وهب مؤيدا ثورة شعب تدمر ، وقد تزعم الثورة تاجر سورى من سليوقية السورية اسمه ورموس ، والذى كان له صلات بالنوبة حيث يجلب منها بضائع أفريقية ، لهذا نسق ثورة الأسكندرية مع هجوم البليميين على جنوب مصر . وعلى الفور تولى بروبوس والى مصر طرد البليميين بينما توجه أورليانوس راساً إلى تدمر فحاصرها حتى دخلها ودمرها ، وحول طريق القوافل ، عنها مما أدى إلى بداية تضاؤلها وتحولها الى واحة فقيرة ، كما كانت قبل تحويل الرومان طريق القوافل اليها ، ثم غادر أورليانوس تدمر متوجها الى الأسكندرية فدمرها بعد أن حاصر ورموس وانصاره فى أغنى أحياء الأسكندرية وهو حى البروخيوم (مكان القصر الملكى ودار الفنون وضريح الاسكندر بالقرب من منطقة الرمل الحالية) .

٣ - بروبوس ٢٧٦ - ٢٨٢ م

مات أورليانوس عام ٢٧٥ م وتولى نائبه تاكيتوس الذى حكم عاماً واحداً وليس له ذكر فى مصر سوى على عملة عام ٢٧٦ م التى تحمل صورته واسمه ، وبعد موته إنتقل الحكم إلى اخيه فلوريانوس وكان ضعيفاً متخاذلاً ، بينما كان القائد بروبوس يحقق نجاحا ملفتاً للنظر في مصر ، فقد تمكن بنجاح عام ٢٧٦ م من طرد آخر فلول البليميين من أسوان ، ومن ثم نادت قواته به إمبراطوراً في مصر والشام . ولقد عمل بروبوس بجد وإجتهاد فى إصلاح الأحوال المتردية وإنعاش الحياة الاقتصادية ويدل على ذلك ، كثرة سك النقود في عهده(٤٩) والتى حملت شعارات الأمل والنصر ، وخلال السنوات الست التى حكم فيها ، ساد الأستقرار نسبيا وإنحسرت عصابات الطرق ، ولهذا كان موته خسارة

كبيرة للأمبراطورية، وخلال السنوات الثلاث التي تلت موته خلفة على العرش ثلاثة أخوة هم كاروس (٢٨٢-٢٨٣)م ثم اخوه نومريانوس ٢٨٣ - ٢٨٤ م الذى لبث فى الحكم بضع اسابيع، ثم انتقل الحكم الى الشقيق الثالث كارينوس، الذى اكمل عام حكم اخيه ٢٨٣ - ٢٨٤ ولا نعرف شيئا عنهم سوى اسماءهم وصورهم التي ظهرت على نقود الأسكندرية(٥٠).

٤ - ديوقلديانوس ٢٨٤ - ٣٠٥ م:

يتميز ديوقلديانوس عن سائر الأباطرة الألليريين بأنه نجح فى تشخيص المرض الذى كانت تعانى منه الأمبراطورية ووضع له العلاج الشافي. فقد ادرك انه من الصعب الدفاع عن كل شبر من أرضها الشاسعة، ولذلك ابتكر نظاما دفاعيا جديداً وهو الأنسحاب إلى حدود أقصر ولكن أقوى، فقد نقل خطة الدفاعي من النوبة الى اسوان، ثم وطن بعض قبائل صحراء مصر الشرقية المتجولة مكان المناطق التى إنسحبت منها القوات الرومانية في الجنوب مقابل التعهد بالدفاع عنها ضد غارات البليميين علي أن تدفع لهم الأمبراطورية سنويا معونة مالية، وفي نفس الوقت دعم خطة الدفاعي الأول جنوب اسوان بالقلاع والحصون، وشق الطرق العسكرية وحفر الخنادق بحيث لا يمكن لأى قوة التسلل منها.

اما بالنسبة لأصلاحاته الأدارية فقد إتخذ قرارا ثوريا، قسم بمقتضاه الأمبراطورية إلى شطر شرقى جعل عاصمته نيقوميديا فى آسيا الصغرى، وشطر غربي جعل عاصمته ميلانو، وجعل على كل شطر امبراطوراً بدرجة اغسطس، يساعده نائب بدرجة «قيصر» وبذلك اصبح حكم الأمبراطورية رباعيا وقد عرف بحكم التترارخيا Tetrarchia. فقد جعل نفسه «اغسطسا» علي الشرق، بينما إختار «اغسطسا» آخر لحكم الغرب وكان ايضا من الليريا وإسمه ماكسيميانوس، واختار دقلديانوس لنفسه نائبا الليريا إسمه جايوس جاليريوس، اما شريكه ماكسيميانوس فقد اختار نائبه الشهيرقسطنطيوس(٥١)خلوروس (والد قنسطنطين الكبير)، كما حدد مدة شغل منصب الأمبراطور بعشرين عاماً فقط طبقها علي نفسه وشريكه عندما أعلنا تنازلهما عن العرش عام ٣٠٥م.

اما بالنسبة للولايات فقد اعاد تنظيمها ، فقد الغى حدودها السياسية القديمة وقسمها الى مقاطعات إقليمية كبيرة تعرف بالدوقيات Dioceses ، جعل على راس كل منها موظف إدارى كبير بلا سلطة عسكرية لقبه نائب الحاكم Vicarius ، أما السلطة العسكرية فقد جعلها فى يد قائد عسكرى أسماه القائد Dux ، بشرط أن يخضع لسلطة نائب الحاكم ، وكان قصده هو فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية وفي نفس الوقت جعل كل منها تعتمد على الأخرى . وبهذا التقسيم فتت الأمبراطورية والسلطة بحيث لم تعد هناك فرصة لحدوث الثورات ، غير أن ذلك التقسيم خلق أجهزة بيروقراطية مقلدة للأستبداد الشرقي ، وإضاف عبئا ماليا جديدا على إقتصاد الأمبراطورية المرهق ، وزاد من تكاليف الجيوش والقوات التى زادت فى عهده زيادة كبيرة

ولقد اصبحت مصر بمقتضى ذلك إحدى الدوقيات التابعة لحاكم الشرق ، اما من ناحية التقسيم الداخلى لمصر فقد قسمها الى ثلاثة أقاليم هى :

١ - إقليم شرق الدلتا ٢ - إقليم غرب الدلتا ٣ - إقليم الأسكندرية .

وجعل على رأس الأقليمين الأولين حاكما بدرجة رقيب Praeses ، أما بالنسبة للأقليم الثالث وهو الأسكندرية فقد ظل حاكمه يحتفظ باللقب الرومانى القديم وهو والى الأسكندرية ومصر Praefectus Alexandriae et Aegypti وكان له السيادة على الحاكمين الآخرين وسلطاتهم جميعا مدنية لأن السلطة العسكرية كانت فى يد قائد مركزى واحد يتولى مهمة الدفاع وهو قائد مصر Dux Aegypti .

اما بالنسبة للأصلاح الأقتصادى فقد وضع لائحة تسعيرة جبرية للسلع والخدمات والمواد الغذائية ، وحرم تخزينها بهدف رفع أسعارها للاتجار فيها ، وجعل عقوبة الموت لكل من يخرج على هذه اللائحة التى صدرت عام ٣٠١ م . كما قام بأعادة النظر فى نظام الضرائب بعد إجراء إحصاء دقيق للمتطلبات حتى تأتى الضرائب عادلة ومناسبة ، كما توسع فى فرض الضرائب العينية بدلا من المالية مثل المحاصيل الزراعية ومنتجاتها كالزيوت والنبيذ والجعة وذلك لتدهور قيمة العملة .

ثورة دوميتيوس دوميتيانوس في مصر ٢٩٦ م

كانت مدينة الأسكندرية دائما مدينة الشغب والتمرد ، وملتقى الأفكار والديانات الشرقية الداعية للثورة والعدل الأجتماعي . فقد إندلعت ثورة بقيادة ضابط رومانى إسمه لوكيوس دوميتيوس دوميتيانوس والمعروف عند السكندريين بأسم أخيليوس ، وسواء كان دوميتيانوس هو أخيليوس أم ان الأخر كان بطلا شعبيا من ابطال السكندريين المكافحين ضد الرومان ، فقد تجمع شعب الأسكندرية حول هذا الضابط الطموح ؛ الذى أعلن نفسه إمبراطوراً من الأسكندرية ، وكان هذا تحديا خطيرا لمشروعات دقلديانوس ، ولهذا إندفع نحو الأسكندرية بقوات كبيرة لقمع الثورة وتلقين السكندريين درسا لاينسوه ، فضرب الحصار حول المدينة عدة أشهر حتى جاع سكانها ، ثم هجم عليها هجمة واحدة ، وإستولى عليها مدمراً شطرا كبيرا منها حتى انه شعر بالندم على هذه القسوة التى عامل بها مدينة ذات تاريخ حضارى عريق . وحاول التكفير عن فعلته ، فاصدر قرارا بتخصيص نسبة من حيازة القمح لأطعام شعب الأسكندرية الجائع وإعترافا بهذه المكرمة الأمبراطورية ، اقام والى مصر بوستوموس عموداً من الحجر الجرانيتى الأسوانى يبلغ ارتفاعه (بما فى ذلك القاعدة والتاج) ٢٦,٨٥ متراوربما كان هناك تمثال لدقلديانوس فوق التاج ،دمر عام ٣٩٥ م عندما اعلن ثيودوسيوس الغاء الوثنية . وعلى قاعدة التمثال ، كتب الوالى نقشا تذكاريا يسجل مناسبة اقامة هذا الأثر ، ولايزال هذا العمود قائما فى مكانه بالقرب من موقع معبد سيرابيس. فوق اكروبول المدينة فى حي كوم الشقافة ، وكان الرحالة الأوروبيون فى العصور الوسطى يطلقون عليها إسم «عمود بومبى لأنهم اعتقدوا ان رأس بومبى كان موضوعة فى جرة جنائزية أعلى العمود» ، بينما أطلق عليه السكندريون آنذاك عمود السوارى لأن كافة السفن كانت تشاهده من البحر فتضبط سواريها نحوه وذلك بعد تهدم فنار الأسكندرية الشهير وسقوطه فى البحر .

دقلديانوس ينهى وضع مصر الفريد ٢٩٤ م

وبعد حضور دقلديانوس الى مصر ، راعه سوء حالتها وانها لم تعد بالولاية الهامة التى نظر اليها اكتافيوس اغسطس ، فقرر الغاء عزلها

وإدماجها ادماجاً كاملاً لتصبح مثل غيرها من مدن الأمبراطورية الأقليمية . فأمر بوقف دار السكة عن ضرب أى نقود خاصة بها ، وإدماج النقد المصرى مع النقد الرومانى بحيث يتعامل الناس فى كافة إنحاء الأمبراطورية بعملة واحدة هى الدينار الرومانى ، ولا يتحدثون الا بلغة واحد هى اللاتينية . ومنذ عام ٢٩٤ م أصبح الدينار الروماني بنقوشه اللاتينية هو وحدة التعامل فى مصر ، غير أن هذا القرار لم يقض نهائيا على اللغة اليونانية الضاربة الجذور فى تاريخ مصر ، إنما حدث من سطوتها بظهور منافس جديد لها يتمثل فى اللاتينية التى أصبحت لغة الجيش والأدارة العليا والنقوش الرسمية فقط . بينما بدأ ظهور لغة مهجنة من المصرية العامية واليونانية العامية من تلقاء نفسها في الريف ، وبلهجات مختلفة ، واطلق عليها إسم اللغة القبطية نسبة الى اللفظ « إيجبتوس Aigyptos » أى « اللغة المصرية » .

الأضطهاد الدينى للمسيحية : ٢٩٩ - ٣٠٣ :

كان الرومان ينظرون بعين الشك الي تصرفات المسيحيين وإنعزالهم ، ورفضهم التعاون مع الأمبراطورية أو الخدمة العسكرية في جيوشها ، حتى ولو في أوقات الازمة . كما كان الوثنيون ينظرون الي المسيحية علي أنها ديانة شرقية جاءت لتهدم تراثهم الهللينى الثقافي الذى يقوم على الوثنية . وفى البداية لم يكن دقلديانوس يعادى المسيحية ، غير أنه لما حاول إعادة الهيبة والقداسة إلي منصب الأمبراطور بأضفاء صفة الأمبراطور - الرب عليه ، وأن جوبتر رب الرومان قد ظهر فى جسدة ، عارضة المسيحيون بشدة ، وقد وجه المفكر المسيحي لاكتانتيوس إلى دقلديانوس تهمة العمل على إستئصال المسيحية والمسيحيين ، وكذلك إلى جاليريانوس نائبة لحكم الشرق ، وإلى حاكم ولاية بيثينيا هيروقليس صاحب الدعوة لأحياء الأفلاطونية الجديدة ، ولقد بدأت أول عمليات الأضطهاد عام ٢٩٩ م أثناء قيام الكهنة الوثنيين قراءة مستقبل الأمبراطور عن طريق مراقبة حركة أمعاء إحدى الأضاحى ، عندما اعلنوا أن وجود عناصر مسيحية بين الحاضرين قد أبطل سر القداسة ، وهنا أصدر دقلديانوس قراره الأول بأن يقسم كل من يعيش في قصرة فى نيقوميديا له يمين الولاء ، ويقدمون الاضاحي لصنمة ومن يرفض ذلك يجلد بالسياط ، وبسرعة استغل

جاليريوس الذى كان يكرة المسيحية هذا القرار وطبقة فى الجيش ، ثم بعد ذلك اصدر قرارة الثاني بتدمير الكنيسة المواجهة للقصر الأمبراطورى وجمع الأناجيل وحرقها علناً وحظر قيام المسيحيين بأى شعائر او صلوات ، وحرمانهم من حقهم في الدفاع عن أنفسهم في المحاكم ، أو اللجوء إلى القانون الرومانى . وفى مطلع عام ٣٠٤ م - أثناء مرضة - أصدر القرار الثالث على إثر إحتجاج بعض المسيحيين بأشعال بعض الحرائق ، بوجوب تقديم الأضاحي إلى الألهة الوثنية الأمبراطورية وله بصفتة رباً ، وان يذوق الشخص القرابين فى حضور موظفين مسئولين عن ذلك ، ويحصل إذا ما قام بذلك على براءة ، Libellus كدليل على أنه تقى مخلص غير معاد للأمبراطورية ، ومن يرفض ذلك يكون خائنا وينزل به أشد العقاب . ولما كانت مصر من أشد المناطق التي أنتشرت فيها المسيحية ، فقد كانت هدفاً من أهداف حركة إضطهاد المسيحيين ، الذين قابلوا ذلك بالتحدى ، وسرت فيهم شهوة الأستشهاد ، ولذلك فأن مصر من اكثر البلدان التى عثر فيها على براءات تقديم الاضاحي للألهة الوثنية وعبادة الأمبراطور ، والتى يطلق عليها المصطلح اللاتينى Iibelli ، أما الذين رفضوا ذلك فقد تعرضوا لكل أنواع التعذيب والموت ، حتى أن الكنيسة المصرية عندما إختارت لنفسها تقويماً جعلتة يبدأ من تاريخ تولى دقلديانوس العرش عام ٢٨٤م ، وليس من تاريخ بداية الأضطهاد عام ٢٩٩م او من تاريخ مجيء مرقس للاسكندرية عام ٦٥ م

قنسطنطين الكبير(٣٠٦ - ٣٣٧ م) :

وفى الأول من مايو عام ٣٠٥ م تنازل كل من دقلديانوس وشريكة مكسيميانوس عن العرش ، وغرقت الأمبراطورية فى بحر من الأنقلابات والمؤامرات والمخالفات ، وكل ذلك ودقلديانوس على قيد الحياة لأنه مات عام ٣١٢م وهو العام الذى انتصر فيه قنسطنطين بن قسطنطيوس خلوروس على الجرمان عند جسر ميلفيا فى روما مدعياً أنه شاهد رسم الصليب فى السماء وحولة عبارة : بهذا الرمز ستنتصر « In hoc vinces » وكان ذلك دعاية مقصودة كسب بها للمسيحيين إلى صفة فى حربة التى كان ينتوبها ضد شريكة ليكينيوس للتخلص منه والأنفراد بحكم الأمبراطورية ، وقد تم له ذلك عام ٣٢٣ م .

وبعد توحيد الأمبراطورية شرع قنسطنطين فى إكمال الأصلاحات التى بداها دقلديانوس إلا أنه أضاف إليها إشياء جديدة مثل توريث العرش للأبناء، وفتح الباب امام الجرمان للتطوع فى صفوف الجيش الأمبراطورى، حتى غلبوا على العنصر الرومانى. وكذلك جعل الحرف والمهن وراثية، وربط الفلاح بأرضة وقريته حتى تحول الفلاحون إلى اقنان للأرض Coloni، كما أبطل سك الدينار وأصدر مكانه عملة ذهبية أطلق عليها إسم السوليدوس Solidus.

وبالنسبة للمسيحيين فقد حاول إرضاءهم، واستقطبهم ليقفوا معه فى معاركة ضد خصومه ولهذا أصدر مرسوماً عام ٣١٣م اعترف فيه بالمسيحية كديانة من بين الديانات الأخرى فى الأمبراطورية ويعرف بمرسوم ميلان.

بناء القسطنطينية :-

وفى أثناء مطاردته لغريمة ليكينيوس شرقاً، مر قنسطنطين على مستوطنة بوزانطيا الأغريقية القديمة وراعة جمالها وموقعها الأستراتيجى التى يجعلها تتحكم فى مدخل البسفور والدردنيل والبحر الأسود، وتسيطر على طرق التجارة بين الشرق والغرب، فقرر أن يبنى بجوارها عاصمة متحدة لشطرى الأمبراطورية بدلاً من ميلان وراقنا فى الغرب، ونيقية (العاصمة التى اختارها دقلديانوس) فى الشرق، إذ ادرك - كما ادرك دقلديانوس مَن قبل - أن مركز الثقل قد انتقل من الغرب إلى الشرق مصدر الثروة والقوى البشرية، ولأن روما لم تعد الحصن المنيع للأمبراطورية بعد أن تكرر هجوم القوط والفرنجة والجرمان عليها، كما انه رأى بنظره الثاقب أن المستقبل للمسيحية لأنها ديانة عالمية تجمع بين شعوب الشرق والغرب، وأن الوثنية ترتبط بالعنصرية والشعوبية، وأن دورها قد إنتهى. ولما كانت روما معقل ألهة الرومان الوثنية، قرر أن يبنى عاصمة جديدة سماها على إسمه: «القسطنطينية»، وتقوم من تأسيسها على المسيحية. ولهذا خطط بحيث يكون فى قلبها كنيسة كبرى تكون حديث العالم فى هندستها وزخرفتها، وهى كنيسة الحكمة المقدسة هاجيا صوفيا Hagia Sophia. وقد قام الأمبراطور قنسطنطين بأفتتاحها رسمياً فى الحادى

عشر من مايو عام ٣٣٠ م. وكلما تدهور الحال فى الغرب الأوروبى ازدادت هذه العاصمة ازدهاراً خاصة بعد سقوط روما عام ٤٧٦ م على يد الجرمان. ولقد أصبحت القسطنطينية عاصمة الأمبراطورية الرومانية الشرقية حتى سقوطها على يد العثمانيين عام ١٤٥٣ م. وكان من نتائج نقل العاصمة ان اللغة اللاتينية بدأت تتلاشى أمام اللغة والثقافة اليونانية الشرقية، كما ان الوثنية بدأت تتلاشى أمام المسيحية. وبدأت ملامح العصور الوسطى الحضارية تتشكل.

إندلاع الخلاف بين الملل والنحل فى الكنيسة :-

خيب الأمبراطور قنسطنطين أمال السكندريين وكنيستهم عندما إختار عاصمة غير مدينتهم ومقراً لأم الكنائس- غير كنيستهم- التى كانوا يتفاخرون بأنها أم الكنائس وأقدمها، إذ نسبوا بناءها إلى مرقس تلميذ المسيح. فقد كانوا يتوقعون أن يزور قنسطنطين الأسكندرية عام ٣٢٥م ليعلنها عاصمة للدولة والكنيسة، إذ صدر فى مدينة او كسيرينخوس بيان موقع فى ١٦ طوبة الموافق ١٢ من يناير عام ٣٢٥م يطالب شعب هذة المدينة بالمساهمة بالمال والمؤن لاستقبال قنسطنطين، وأول بوءونة الموافق السادس والعشرين من مايو من نفس العام بعث أهل هذه المدينة ذاتها بعدد كبير من الماشية والأغنام إلى مقر الحامية الرومانية فى حصن بابليون لتنحر عند[٥٢] قدوم الأمبراطور املا فى إختيار الأسكندرية عاصمة للأمبراطورية الجديدة، وهو امل قديم كان يداعب أحلام السكندريين منذ عصر كليوباترا، غير ان الأمبراطور الذى كان يدرك أن عليه أن يدفع ثمن هذا النفاق، تدارك الأمر وتفادى المرور على الأسكندرية، واتجة راساً إلى مستوطنة بوزانطيا، بالأضافة إلى ذلك، تفجر فى الأسكندرية خلاف عقائدى بات يهدد وحدة الكنيسة حول طبيعة المسيح، فقد دعا الأسقف آريوسْ الى وجوب الفصل بين الاب والأبن، لأنه لايمكن أن يكون الأبن هو الاب فى نفس الوقت، بل يجب أن يليه، ومن ثم فهو شبيه به وليس هو ذاته، ومن ذلك توصل الى ان للمسيح طبيعتان: واحدة بشرية، والأخرى ربانية، بينما عارض الأسقف آثاناسيوس مبدأ الفصل بشدة، وتمسك بوحدة الاب والابن والروح القدس كرب واحد، وهو ما يعرف بالمونوفستية وفيما بعد أصبح يعرف بالمذهب اليعقوبى.

ولقد وجد آريوس له انصاراً فى كنيسة القسطنطنية التى كاد الأنشقاق يودى بوحدتها مما ادى الى تدخل الأمبراطور قنسطنطين ، الذى دعا الى عقدْ اول مجمع مسكونى عقد فى نيقية عام ٣٢٥ م ، وإتخذ قراراً أعتبر فيه اريوس مهرطقا ، واقر طرده من رحمة الكنيسة ، ونفيه من البلاد : غير ان اريوس تظلم من قرار المجمع ، وشرح للأمبراطور وجهة نظره فأقتنع بها ، وامر أثاناسيوس ان يعيده إلى الكنيسة إلا أنه هذا الأخير رفض الأنصياع لأمر الأمبراطور ، فقدمه إلى مجلس تأديب كنسى عقد فى فينيقيا عام ٣٣٥ م وإنتهى إلى عزل أثاناسيوس ونفيه من البلاد . ولقد أثار تدخل الأمبراطور جدلاً حول من يجب ان يتبع الأخر : الكنيسة تتبع الأمبراطور ؟ أم الأمبراطور يتبع الكنيسة ؟ إذ أن نظرة قسطنطنين الموروثة من التراث الرومانى بأن المعبد كان إحدى مؤسسات الدوله ، ويخضع لأشرافها وسياستها ، وبما أن الكنيسة قد حلت محل المعبد فينطبق عليها نفس الشرط ، بينما كانت الكنيسة ترى أن الأمبراطور مسيحى قبل أن يكون امبراطوراً ، وأنه لا يصبح كذلك إلا إذا باركته الكنيسة فى شعائر خاصة ، ومن ثم فأن الأمبراطور هو الذى يتبع الكنيسة ، كما أن كنيسة الأسكندرية مارست نوعاً من الأستقلال عندما بدات تجمع الزكاة والتبرعات من الأهالى خاصة المنسوجات الكتانية لصناعة ثياب الكهنة والشمامسة دون إستئذان الأمبراطور ، وإعتبر ذلك تجاوزاً عن حدود الكنيسة ، وتدخلا فى شئون الدولة ، فقد وجهت هذه التهمة إلى أثاناسيوس ضمن التهم التى أدت إلى عزله ونفيه .

عودة الكفاح ضد الرومان بزعامة الكنيسة :ـ

وبتأزم العلاقة بين كنيسة الأسكندرية والأمبراطور ، خاصة وأن كنيسة الأسكندرية رفضت أن تكون تابعة لكنيسة القسطنطينية ، عادت روح الوطنية ضد الرومان فى هذه المرة بزعامة الكنيسة ، وبذلك ورث الأسقف دور مدير الجمنازيوم الوثنى . وفى عام ٣٣٦ م اكتشف قنسطنطين مؤامرة لأنفصال مصر عن الأمبراطورية يقودها رجل دين إسمه فيلوميتوس ، الا أن العقل المدبر الحقيقى لها كان الأسقف اثاناسيوس ، ومنذ هذه اللحظة لم يتوقف أساقفة الكنيسة المرقسية عن

تزعم الثورات المطالبة بأستقلال مصر تحت زعامة الكنيسة ، وقابلت الأمبراطورية عناد الكنيسة المنشقة بمحاولة فرض آراء كنيسة القسطنطينية الأريوسية بالقوة واضطهاد المذهب المونوفيسي في مصر والشام . كما نلاحظ أيضاً أن الأدارة الأمبراطورية بدات تتجاهل مدينة الأسكندرية ، وبدأت تتعامل مع مقر الحامية الرومانية في بابليون كمقر لأدارة ولاية مصر . ففي عام ٣٣٥ م حققت هذه الحامية في شكوى تقدم بها أحد أساقفة مدينة ميليتوس ضد اثاناسيوس بأنه قام وأعوانه بالقبض على عدد من المنشقين عليه ، وأنه وأعوانه حاولوا اعتقال أحد اساقفة ميليتوس في معقل لهم في ضاحية نيقوبوليس - المقر السابق للادارة والقوات الرومانية في الاسكندرية(٥٣) .

خلفاء قنسطنطين حتى مجيء ثيودوسيوس الثاني :

بعد موت قنسطنطين ، تولى إبنه الأريوسي العقيدة قنسطنطيوس ، الذي اضطهد أثاناسيوس واتباعه من المونوفيسيين ، فهربوا الى الأديرة ، وعين الأمبراطور أسقفا اريوسياً على رأس الكنيسه اسمه جيورجيوس القبادوقي ، الذي قاد حركة اضطهاد ضد الوثنيين ، ودمر معابدهم ، وكذلك ضد المونوفيسيبين . وفي عام ٣٦١ م تولى العرش يوليانوس وكان متعاطفاً مع الوثنيين - ضحايا الأضطهاد المسيحي ، وما أن علم الوثنيون بتولي يوليانوس ، حتى هبوا في حملة انتقام مضاد ضد المسيحيين ، فقتلوا الأسقف جيورجيوس ومساعدية ، ورغم إدانة الأمبراطور لهذه الجريمة ، إلا أنه أمر بمصادرة مكتبة جيورجيوس ونقلها الى القسطنطينية ، كما استدعى اليه قائد القوات الرومانية في مصر ارتيميوس لمحاكمته بتهمة تدمير معبد سيرابيس ونهب نفائسه ، وقضى بإعدامه . وبعد مقتل الاسقف الأريوسي جزجيورجيوس ، عاد آثاناسيوس الى الظهور معلناً انه الأسقف الوحيد ، فأثار ذلك غضب الأمبراطور الذي أمر بنفيه لا من الأسكندرية فحسب بل من مصر كلها . فهرب الى احد اديرة طيبه في الصعيد . وقد أطلق المسيحيون فيما بعد على الأمبراطور يوليانوس اسم العاصي أو المرتد . ولما لقي يوليانوس مصرعه على جبهة الشرق نعاة الكتاب الوثنيون كأحد الأباطرة (٥٤) .العظام ، وتولى من بعده يوفيانوس لمدة عام واحد (٣٦٣ - ٣٦٤ م ، وكان مونوفيسياًمما ادى الى

ترحيب السكندريين به، وخرج اثاناسيوس من مخبئه، وتولى رئاسة كنيسة الأسكندرية، غير ان هذا الهدوء بين السكندريين والأمبراطورية لم يطل، اذ مات يوفيانوس بعد عام واحد من تولية، وخلفه الامبراطور فالنس (٣٦٤ - ٣٧٨م)، الذى اقتسم الأمبراطورية مع أخيه فالنتيانوس، واوكل اليه الأشراف على مصر. وكان هذا الأخير اريوسياً، ولهذا عاد الخلاف بينه وبين السكندريين، وبالرغم من ذلك ظل اثاناسيوس فى منصبه بسبب شعبيته العارمة، وظل يشغل كرسى الكنيسة حتى وفاته، ثم خلفه بطرس، الذى امر الأمبراطور بسجنه واقامة الاسقف الأريوسى لوكيوس مكانه، وكان هذا الأخير معينا منذ أيام يوليانوس ولكنه كان معزولا لايمارس عمله. غير أنه اعتمد على تاييد قوات الجيش الرومانى، ولذا اتخذ قراراً بالغاء اعفاء الرهبان من الخدمة العسكرية، وعارض الرهبان ذلك مفضلين الموت فى القتال ضد الرومان بدلاً من الموت دفاعاً عنهم.

ولقد شهدت هذه الفترة إستقرارا فى الإقتصاد نتيجة لأصلاحات دقلديانوس خاصة فى مجال التجارة الشرقية مع كل من الأحباش والحميريين فى جنوب البحر الأحمر، الا أن أحوال الزراعة تدهورت الى الأسوا بسبب عبء الضرائب واهمال تطوير وسائل الرى، فقد ثبت من وثائق ثيادلفيا (بطن إحريت) بالفيوم هروب بعض الفلاحين من قرى بأكملها (٥٥). أما البعض الآخر فقد فضل تسليم اراضيه طواعية لشخصيات قوية قادرة على الوقوف فى وجه جامعى الضرائب، وتحول الفلاحون الملاك الى إجراء ورقيق للأرض. وكان قسطنطيوس قد اصدر قراراً بوقف هذه الظاهرة، كما أصدر فالنس قرارا آخر بمنع أعيان الريف من الهجرة الى المدن أو الى الاديرة فى الصحراء هروباً من مسئولياتهم فى تولى المناصب الالزامية واعادتهم بالقوة الى مواطنهم ونتيجة لذلك تدنت قيمة الدينار الرومانى الذى حل محل الدراخما السكندرية، وتفاديا لذلك أصدر فالنس قراراً بأن تسدد الضرائب عينا وليس نقداً (٥٦).

ثيودوسيوس الأول وخلفاؤه (٣٧٩ - ٥٢٧م):-

اتخذ ثيودوسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥) خطوات هامة لسحق بقايا الوثنية وتنصير كافة شعوب الأمبراطورية. وفى الأسكندرية قامت القوات

الرومانية بمساعدة الأسقف كونيجيوس ورهبانه بتخريب معبد أوزوريس - ديونيسوس والقاء مقدساته فى عرض الطريق ، ودافع الوثنيون عن آخر معقل لهم وهو معبد سيرابيس حيث دارت معارك شرسة إنتهت باستيلاء المسيحيين على المعبد ، وهروب زعماء وفلاسفة الوثنية الى الصعيد ، حيث تحصنت الوثنية حول معاقلها الدينية هناك ، كما ان المكلفين بتطبيق قوانين الامبراطور فى الصعيد رأوا أنه من الحكمة عدم إجبار الناس على ترك دين ابائهم وفرض ديانة جديدة عليهم بالقوة . أما المعابد التى إستولى عليها الرهبان فقد حولوها الى كنائس . ومنذ عصر الأمبراطور اركاديوس (٣٩٥ - ٤٠٨ م) أصبح تاريخ مصر السياسى هو تاريخ الكنيسة وبطاركتها ، واصبحت سياسة الأمبراطورية تتسم إما بتنصير الوثنيين بالقوة او قمع حركات التمرد التى كان يقوم بها المونوفيسيون فى الأسكندرية ضد كنيسة القسطنطينية الميسحيون .

وإتسم عصر ثيودوسيوس الثانى ٤٠٨ - ٤٥٠ م بالصراع بين الكنيسة بزعامة كيرلس وبين الدولة الممثلة فى والى مصر ، فقد فشل الوالى وقوات الحامية فى إنجاح مرشح موال لهم لكرسى الكنيسة أمام الأسقف كيرلس ، الذى إلتف حوله السكندريون المسيحيون كزعيم شعبى منافس للوالى . ولقد قاد كيرلس جماعة من الرهبان والاتباع الذين أطلق عليهم اسم البارابالانى(parabalanoi اى الأخوة فى الدين). فى الهجوم على الحى اليهودى بالأسكندرية ونهبه ، وكذلك بالهجوم على آخر معاقل الوثنية المتمثلة فى المدرسة الفلسفية التى كانت تتزعمها هيباتياHypatia - صديقة الوالى - الذى فشل فى حمايتها ، حيث القى القبض عليها ومثل بها فى ساحة كنيسة القيصريوم فى الأسكندرية . ولقد استغل النوبيون - الذين كان ديوقلديانوس قد وطنهم فى المنطقة العازلة للدفاع عنها ضد عدوان قبائل البليميين - هذه الفوضى بالإتحاد معهم ، وهاجموا حدود مصر الجنوبية ، إذ نجد اسقف أسوان يوجه نداء الى الأمبراطور بأرسال قوة عسكرية لحماية الكنائس فى الجنوب[٥٧]. فقد هاجمت قبائل النوبيين بالتعاون مع البليميين الواحة الكبرى ، واسروا عدداً من الأهالى من بينهم راهب إسمه نسطوريوس كان منفياً فيها بتهمة الهرطقة . غير انهم عادوا وسلموا الأسرى الى السلطات الرومانية ، وازاء ذلك العدوان

قرر ثيودوسيوس الخروج على القواعد التى كان دقلديانوس قد وضعها (وهى فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية) وذلك بتقسيم اقليم طيبة الى قسمين وعين على القسم الجنوبى حاكما يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية، ولقد ثبتت جدوى هذا التنظيم فى عصر مارقيان (٤٥٠-٤٥٧ م) عندما تمكن ماكسيمينوس قائد عسكر الشرق بالتعاون مع فلوروس حاكم جنوب طيبة من طرد النوبيين وحلفاءهم البليميين، وإجبارهم على تسليم الاسرى والرهائن مقابل السماح لهم بزيارة معبد ايزيس فى جزيرة فيلة لأداء الطقوس والحج، كما سمح لهم بإستعارة تمثال إيزيس المقدس فى أوقات معينة وحملة الى بلادهم لجلب البركة. وهذا دليل على صمود الوثنية فى وجه التنصير، بل على اعتراف الأمبراطورية بوجودها واستخدامها كبند من بنود الصلح مع قبائل النوبيين. ونظرا لنجاحه فقد كوفىء حاكم الجنوب فلوروس بتعينه والياً على مصر مع السماح له- إستثناءً- بالجمع بين السلطة المدنية والعسكرية. أما عن علاقة الأسكندرية بالقسطنطينية فقد ظلت متوترة بسبب الصراع بين مذهبى الكنيستين، ولما حاول الأمبراطور أبعاد نسطوريوس- اسقف الكنيسة وزعيم السكندريين- وذلك بالحصول على قرار مجمع عقد فى خلقدونية بحرمانه من رحمة الكنيسة، وعين بدلاً منه اسقفاً آريوسيا اسمه بروتيريوس، ثار شعب الأسكندرية؛ غير أن القوات التى صاحبت هذا الأسقف حاصرت الغوغاء وزعماءهم فى أطلال معبد سيرابيس وأضرموا فيهم النيران. أما الجمهور فقد عوقب بوقف اجراء المباريات الرياضية واغلاق الحمامات العامة ووقف تقديم القمح المدعوم من الدولة للناس.

وفى عصر ليون الأول (٤٥٧- ٤٧٤ م) عاود السكندريون الثورة، وإختاروا راهباً إسمه تيموثيوس الوروس اسقفاً على كنيستهم، وقبل أن يعود الوالى من حملاته فى الجنوب قاموا باغتيال الأسقف الأمبراطورى بروتيريوس، غير أن الأمبراطور ليون الأول رفض اعتماد تعيين الووروس وعين اسقفاً أخر إسمه تيموثيوس سالوفا كيولوس. وفى ذلك الوقت استخدمت الأمبراطورية مصر كقاعدة عسكرية لعملياتها ضد مملكة الوندال التى أقاموها فى شمال افريقيا، وجندت قوات من مصر تحت

قيادة قائد عسكرى قدير إسمه هرقل، واستطاع بفضلها إسترداد مدينة طرابلس وعدد من المدن فى ليبيا، ولما تلكأ قائد الأسطول الأمبراطورى باسيليكوس فى دعم هرقل، اضطر إلى الأنسحاب مع قواته المصرية بسلام. وبعد موت ليون الأول عام ٤٧٤م تولى ليون الثانى والذى مات فجأة فى نفس العام، وعين زينون إمبراطوراً (٤٧٤ ـ ٤٩١م) وغير ان صراعاً على العرش نشب بينه وبين قائد الأسطول باسيليكوس الذى نجح فى طرد الأمبراطور، وحاول كسب السكندريين إلى جانبة باعادة اسقفهم المطرود تيموثيوس الوروس الذى وظل يراس الكنيسة حتى موته فى عام ٤٤٧م وقبيل ان يتمكن زينون من إستعادة عرشة. وقد قام السكندريون بأنتخاب اسقفاً أخر اسمه بطرس مونجوس، غير أن زينون رفض الموافقة عليه، وامر بأعادة الأسقف الذى كان ليون الأول قد عينه وهو تيموثيوس سالوفاكيوس لكنه مات بعد تعينة بوقت قصير. وانتخب السكندريون اسقفا آخر إسمه يوحنا طابنة غير أن الأمبراطور زينون كان يعرف مسبقا بخطورة هذا الرجل فسارع بأعادة بطرس مونجوس مرشح السكندريين السابق لتهدئه الموقف؛ ولكن عندما أصدر مجمع خالقدونيه عام ٤٨٢م قراراته المكفرة لأراء كنيسة الأسكندرية، رفض بطرس قبولها، وامر بطرد كافة الرهبان الذين تمسكوا بقراراتها. ورد الأمبراطور زينون على ذلك بدعم الحامية العسكرية فى مصر والقبض على زعماء المعارضة وإرسالهم مقبوضاً عليهم إلى القسطنطينية، وكاد الأمر يتطور إلى صراع لولا وفاة بطرس مونجوس وانتخاب الأسقفا آخر إسمه أثاناسيوس الذى اثر تهدئه الأحوال وعدم إثارة المشاكل حتى موت زينون وتولى اناسطاسيوس العرش (٤٩١ ـ ٥١٨م). ولعل خطر توغل الفرس وإجتياجهم لحدود الأمبراطوريه، ووصولهم إلى دلتا النيل هو الذى أجبر الطرفين على دفن صراعاتهم. فقد حاصر الفرس الأسكندرية، وكادت المدينة تسقط لولا إنسحابهم المفاجيء وغير المفهوم الفرس. وفى نفس الوقت توغل البليميون فى مصر من الجنوب حتى وصلوا إلى مدينة انطايوبوليس (قاو الكبير مركز العتمانية محافظة سوهاج) وخربوها كما تذكر إحدى البرديات فى مطلع القرن الخامس الميلادى[٥٨]. ولمقاومة الفرس حاول الأمبراطور اناسطاسيوس الأتصال بالحارث شيخ قبيلة السراسنة العرب على الجانب الآخر من البحر الأحمر لعقد تحالف

معه وهى نفس السياسة التى اتبعها الأمبراطور الذى خلفه على العرش وهو يوستينوس الأول (٥١٨ - ٥٢٧ م)، بالأضافة الى التحالف مع مملكة الأكسوميين الأحباش الذين كانوا قد غزوا اليمن عام ٥٢٥ م وحولوها الى مملكة تابعة لهم . إن ندرة الوثائق البردية فى القرن الخامس تجعل من الصعب رسم صورة دقيقة للأحوال فى مصر ، لكننا نعرف من القليل منها مدى تضاؤل الحيازات الصغيرة وظهور الأقطاعيات الكبرى بعد أن فشلت الأمبراطورية فى وقف نمو خطر الأقطاع ، واعترفت بسطوة الأقطاعيين فى مناطقهم ومنحتهم استقلالا وسلطة حتى أن بعضهم أقام جيشا من الاتباع ، وانشأ السجون الخاصة . ولقد نافست الأديرة هؤلاء الاقطاعيين فى امتلاك المساحات الشاسعة من الأراضى ، التى كان يقوم بزراعتها الرهبان ، إذ نعرف من سيرة الراهب شنودة الأتربى[٥٩] مؤسس الدير الأبيض بالقرب من أخميم والذى كان أول من جعل اللغة القبطية - وليس اليونانية - لغة التعبد والصلوات - أن هذا الدير كان يطعم الأسرى الذين اطلق سراحهم من جانب قبائل البليميين لمدة ثلاثة أشهر بتكاليف قدرها ٢٦٥ ألف دراخما ، وتشمل ٨٥ ألف أردب يونانى (حوالى ٢٨ ألف أردب مصرى) من القمح ، ومائتى أردب زيتون (حوالى ٦٧ أردب مصرى) يعطينا فكرة عن حجم انتاج الأديرة من اقطاعياتها . كما كان سكان كل منطقة يحصلون على عضوية الدير يتمتعون بمزايا الحماية الجسدية وضمان الغذاء وهذا يذكرنا بوضع المعابد المصرية تحت حكم البطالمة ، بل وصلت سطوة الأديرة إلى حد تحريم قبول اليهود المتحولين إلى المسيحية ، أو منحهم حق اللجوء والحماية هربا من سداد الديون أو من عقوبة صدرت بحقهم ، وأصبحت الأديرة دويلات داخل الدولة ، ونتيجة لذلك أهملت التجارة الخارجية ، وعاد الأقتصاد المصرى الى حيث بدأ وهو نظام المقايضة مما أدى الى أختفاء النقود خاصة بعد تضاؤل قيمتها الشرائية ، وبالتالى فقدت الأسكندرية أهميتها كنقطة عبور للتجارة الدولية ، خاصة بعد القضاء على الجالية اليهودية فيها والتى كانت تدير بمهارة هذه المهنة ، والتى كانت تجلب الثراء حتى أن الأسكندرية أصبحت لاتستطيع العيش بدون معونات القمح من الخارج بالرغم من تضاؤل عدد سكانها . وبذلك انتقلت الأهمية من المدن الى الريف ، بعكس الحال أيام

العصر الرومانى المبكر . وفى نهاية حكمة أشرك يوستينوس إبن اخيه يوستنيانوس معه فى الحكم .

المرحلة الأخيرة للحكم الرومانى لمصر : ٥٢٧ ـ ٦٤٢ م :

تبدأ المرحلة الأخيرة بتولى يوستنيانوس الحكم (جيستنيانوس ٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) ولقد حرص يوستنيانوس على توثيق علاقاته مع الحبشة واليمن بارسال مبعوث إسمه نونوسوسNonnosus لعقد اتفاقيات صداقة مع الأحباش والحميريين ونجح فى ذلك إلا أنه فشل فى فرض اسقف من القسطنطينية على السكندريين حيث قام هذا الشعب المتمرد مرتين بطرد اسقفين عينهما الأمبراطور ومعهما جميع الأساقفة المصريين من غير المونوفيسين ومما ساعد على عدم حسم الخلاف ذلك التنافس بين الأمبراطور يوستنيانوس والأمبراطورة ثيودورا التى كانت تؤيد المونوفيسيين بينما كان الأمبراطور يؤيد الأريوسيين . وفى عام ٥٣٨ـ ٥٣٩ م اصدر يوستنيانوس قانونا عرف بالقانون رقم ١٣ ، أعاد فيه تقسيم مصر الى خمس دوقيات هى[1] : مصر (وتشمل غرب الدلتا والأسكندرية)[2] ، دوقية أوغسطامينيكا (تشمل شرق الدلتا حتى الفرما والعريش) ودوقية اركاديا (التى سميت على إسم الأمبراطور اركاديوس وتشمل مصر الوسطى من راس الدلتا حتى كينوبوليس الشيخ فضل) ، ودوقية طيبة (وتمتد من الأشمونين حتى فيلة)[5] دوقية ليبيا وعاصمتها بارايتونيوم مرسى مطروح) . ثم قسم كل دوقية (فيما عدا دوقية اركاديا ودوقية ليبيا) إلى ابروشيتين ، ثم قسم كل أبروشية الى عدد من المراكز الصغرى أو الباجرخيات Pagarchia على رأس كل منها باجرخوس ، وتنقسم كل باجرخية الى عدد من القرى والضياع والبنادر) . وفى نفس الوقت اعاد مصر مرة أخرى لأشراف كونت الشرق ، واصبح الوالى الأوغسطالى مجرد حاكم إدارى عليه أن يرجع الى والى الشرق قبل إتخاذ أى قرار ، وإذا كانت هذه التقسيمات قد قضت على المقاومة الوطنية ، وأعادت الهيبة الى الأمبراطورية إلا أنها أدت الى تفتيت وضعف البلاد ، بالأضافة الى ضعف السلطة المركزية ذاتها ، فبينما اصدر يوستنيانوس

---

(١) دوقية مصر وتشمل غرب الدلتا والاسكندرية) .

(٢) دوقية اوغسطامينيكا .. الخ .

اوامره الى الوالى « رودون » بأن يدعم الأسقف الذى عينه ضد معارضيه من السكندريين ، أصدرت الأمبراطورية ثيودورا أوامرها بأستدعائه الى القسطنطينية واعدامه ، ولم يشفع له انه كان ينفذ أوامر الأمبراطور ، ومرة أخرى ، عندما عزل الأمبراطور الوالى ليبريوس الذى خلف رودون فى ولاية مصر ، رفض هذا الولى تنفيذ الأوامر ، وعندما وصل الوالى الجديد يونس لاكساريون » تصدى له ليبريوس بقواته وقتله ، وأصبح كل موظف يقاتل من اجل الأحتفاظ بمنصبه . ولذلك عين يوستنيانوس اسقفا ثالثا اسمه ابوللوناريوس معطيا اياه سلطة الوالى فى نفس الوقت ، وأصبح بذلك اول اسقف والى يحكم مصر ، وقد استخدم الوالى - الأسقف القوات فى إحداث مذبحة فى الأسكندرية لمعارضيه من المونوفيسيين الذين رجموه بالطوب وهو يعظ فى الكنيسة ، ومنذ ذلك الوقت رفضت الكنائس المصرية الاعتراف بسلطة الاسقف الأريوسى (أى الملكانى) ، وانتخبت فيما بينها اسقفا مصريا مونوفيسيا (أى يعقوبيا) أصبح هو الزعيم الروحى الحقيقى للمصريين . وبالرغم من ذلك حاول يوستنيانوس توظيف المشاعر الدينية وتعبئتها ضد الفرس الوثنيين عندما امر ببناء مجموعة من الأديرة تكون فى نفس الوقت مجموعة من القلاع الحربية تتحكم فى الممر الحيوى عند جبل الطور ، كما بنى كنيسة عند سفح جبل موسى وسماها كنيسة التجلى (إيبيفانيا) وضرب حولهما الأسوار ، وكانت حجته فى ذلك حماية الرهبان من غارات البدو . وهذا الدير هو الذى أطلق عليه فيما بعد إسم دير « سانت كاترين » نسبة الى كاترينا أحدى شهيدات الأضطهاد الدينى فى عصر الأمبراطور الوثنى مكيسميانوس (٣٠٥ - ٣١١)، ومرة أخرى إستخدم يوستنيانوس المشاعر الدينية لخدمة الأهداف السياسية والعسكرية عندما عمل على نشر المسيحية بين النوبيين ، إذ دخل فى سباق مع زوجته اليعقوبية (المونوفيسية) ثيودورا فى ارسال البعثات التبشيريه الى هناك ، غير أن بعثات الأمبراطورة اليعقوبية تغلبت على بعثات زوجها الأمبراطور الملكانية ، ونجحت فى نشر المذهب المونوفيسى بين النوبيين ، والذين بعد دخولهم الى المسيحية تعاون ملكهم مع جيوش الروم لدحر قبائل البجة الوثنية ، واجبارهم على قبول العقيدة المسيحية ، فقد أرسل قائده الارمينى - الفارسى نرسيس فى حملة إلى جزيرة فيلة لتحطيم معابد إيزيس وتشويه الصور الوثنية ،

والقبض على كهنة المعابد ومحاكمتهم . كما قام أيضا بهدم معبد زيوس آمون الاسكندر فى واحة العجيلة ، وبنى مكانه كنيسة كرست لمريم بأسم كنيسة أم الرب (مير دى دييه). وفى الأسكندرية قام واليه الجبار ميفابستوس بقمع ثورات السكندريين بلا رحمة . وأصدر قراراً حرم فيه تدريس الفلسفة لأنها تقوم على الفكر الوثنى ، وطرد أساتذتها ، عندئذ هربوا للأحتماء بالفرس. ولكى يعاقب شعب الأسكندرية قام الوالى بأحتكار تجارة المواد الغذائية حتى يتحكم فى لقمة العيش بهدف إذلال السكندريين ، كما أوقف توزيع القمح بسعر رمزى للسكان ، والذى كان دقلديانوس قد أمر به بعد تخريبه للاسكندرية . وقد خلف يوستنيانوس على العرش يوستينوس الثانى (٥٦٥ - ٥٧٨ م) الذى حاول وقف توسع الفرس فى الشرق الأدنى ، فقد كان الفرس قد زحفوا على الخليج ، وقطعوا طرق التجارة مع القسطنطينية ، ومن ثم حاول تعويض الخسارة بأحكام السيطرة على جنوب البحر الأحمر ، لذلك سعى إلى عقد الصداقة مع عرب وسط الجزيرة ومع الحميريين فى اليمن ومع الأحباش ، إذ شجع ملكهم ابرهة على غزو اليمن والحجاز والأستيلاء على مكة وتحطيم الكعبة وما بها من الأصنام بأعتبارها اهم مراكز الوثنية فى الشرق الأدنى. ولنشر المسيحية بين العرب ، قام ابرهة بحملته الشهيرة على مكة عام ٥٧٠ م والتى لقيت فشلا ذريعا . وإزاء هذه السياسة إدرك يوستينوس الثانى - كما ادرك الفرس - مدى الأهمية الاستراتيجية التى تمثلها مصر فى السيطرة على تجارة البحر الأحمر ، فزاد من دعم نفوذ الأمبراطورية فيها ، وفى نفس الوقت تطلع الفرس لأحتلالها . وخلف يوستينوس الثانى على العرش تيبريوس الثانى الذى يعرف فى المصادر العربية بأسم طيباريوس (٥٧٨ - ٥٨٢ م) الذى ارسل قائده ارسطوماخوس لوقف زحف قبائل البليميين ، وحقق هذا القائد إنتصارات باهرة إلا ان حالة من الفوضى سادت مصر بسبب الصراع المذهبى بين الملكانية واليعقوبية ، وبسبب فوضى الأدارة فى القصر الأمبراطورى بالقسطنطينية ، فمثلا بالرغم من نجاحه دس اعداء ارسطوماخوس له عند الأمبراطور بأنه قائد طموح يسعى لأغتصاب العرش، فألقى القبض عليه واودع السجن فى القسطنطينية ، وبعد سنوات قليلة صدر العفو عنه ، وإحتفى به كقائد مظفر فى معاركه مع البليميين. وتلا طيباريوس على العرش موريكيوس

(٥٨٢ - ٦٠٢ م) المعروف فى المصادر العربية بأسم موريق وفى عهده سادت الفوضى حتى أن جماعة من الجند أغارت على قريتى كينوبوليس (الشيخ فضل) وبوسيريس (بالقرب من مدخل الفيوم من عند بنى سويف) «فخربتها[٦٠] دون إذن من الدوق أو الوالى»، وعندما وجه اليهم الوالى انذاراً إستخفوا به، بل تحدوا السلطة بأن قطعوا إمدادات القمح المتجهة الى الأسكندرية لأحداث أزمة فى القسطنطينية، بالأضافة إلى ذلك إستمر التخبط والتناقض والغموض فى القرارات مما ساعد على انتشار حركات التمرد والعصيان ضد سلطة القسطنطينية مما إستدعى إرسال قوات لسحق هذا التمرد، وبلغ الأستخفاف بسلطة الأمبراطورية أن قام قطاع الطرق بفرض نفوذهم علنا على بعض المناطق وجمع الأوتاوات من سكانها ومن اشهر هؤلاء عزاريا Azarias فى اخميم (Panopolis)، وفى عام ٦٠٢ م تولى العرش فوقاس Phocas. وخلال السنوات الثمان التى حكمها إندلع الصراع بينه وبين قائد شهير هو هرقل[٦١] إذ ارسل هذا الأخير قائده نيكيتاس للأستيلاء على مصر، ووسط ترحيب السكندريين وغالبية شعب مصر تقدمت قوات هرقل حتى دخلت الأسكندرية، غير أن فوقاس أمر قائد قواته فى سوريا ويدعى بونوسوس Bonosus بالسير الى مصر، فدخلها من ناحية الصحراء الشرقية حيث إنضم اليه قائد حاميه أثريبيس Athribis (بنها العسل) وقائد حاميه سيبونوتوس Sebennytos (سمنود) ونجحوا فى هزيمة بوناكيس قائد جيوش هرقل ودحر باقى قواته لتحتمى بقلاع الأسكندرية، غير ان نيكيتاس تصدى له وانزل به هزيمة مريرة، ثم تتبعه حتى هرب عائدا الى القسطنطينية. وفى عام ٦١٠ م تولى هرقل عرش القسطنطينية، وعرفانا بمواقف المصريين المؤيدة له، إتبع سياسة المصالحة معهم، فعين اسقفا ملكانيا معتدلاً قبرصى المولد إسمه يوحنا المتصدق Almoner بدلاً من الأسقف الملكانى المتطرف ثيودورس، الذى لقى حتفه أثناء القتال، واتبع الأسقف الجديد وكذلك نيكتياس الذى عين واليا - سياسة المصالحة. ورغبة من الأمبراطور هرقل فى رأب الصدع بين اليعاقبة والملكانيين وضع صيغة دينية توفيقية أطلق عليها إسم المونوثيليتية التى تعترف بوحدانية مشيئة المسيح مع التمسك بثنائية طبيعته، وكلف الوالى نيكيتاس بأقناع المصريين بهذه النظرية التوفيقية، غير انه عزل من منصبه بسبب فشله فى صد هجوم الفرس على مصر.

غزو الفرس للشام ومصر : ٦١٦ - ٦١٩ م :

وخلال الصراع بين فوقاس وهرقل إجتاح الفرس الشام . وفى خريف عام ٦١٦ م شرعوا فى السير بقواتهم نحو مصر فدخلوها من الطريق المعتاد حتى وصلوا الى منف وحاصروا حصن بابيليون ، ولما فشلوا فى الأستيلاء عليه اتجهوا الى الأسكندرية يصاحبهم أسطول من السفن ابحر فى الفرع الكانوبى ، وظلوا يحاصرونها ، وينهبون المناطق المحيطة بها ، خاصة الأديرة الثرية ، حتى دخلوها عن طريق خيانة رجل إسمه بطرس ، وليس هناك ما يدل على أن الفرس عاملوا أهلها بقسوة كما يدعى ساويرس ابن المقفع الذى كان يكره الفرس بسبب محاباتهم لليهود . وفر الوالى نيكيتاس ومعه الأسقف يوحنا المتصدق ، وإستولى الفرس على ثروات وكنوز الموظفين الروم التى كانوا يزمعون نقلها بحرا الى القسطنطينية ، وبعد أن عينوا آسقفا يعقوبيا للأسكندرية ، تابع الفرس سيرهم نحو الصعيد دون مقاومة حتى فتحوه . وهكذا عاد الفرس الى مصر بعد غياب دام تسعة قرون ونصف منذ أن طردهم الأسكندر المقدونى منها . ولقد أحدث سقوط الأسكندرية دويا هائلاً لانها كانت الميناء الأول والمركز الحضارى الأوحد فى شرق البحر المتوسط ، كما أن قطع القمح المصرى عن القسطنطينية أحدث فيها أزمة اقتصادية حادة .

استعادة الروم لمصر على يد هرقل :-

دام حكم الفرس لمصر نحو عشر سنين ، لم يتوقف خلالها سرجيوس بطريرك القسطنطينية من الدعوة لطرد الفرس من بلاد الرافدين والشام ومصر معلنا حربا صليبية ضد الفرس المجوس ، واضعاً كنوز الكنيسة تحت تصرف هرقل كقرض منها للدولة ، وبالفعل صهرت تحف الكنيسة النادرة ، وحولت الى دنانير ذهبية أولهما صدر ما بين أعوام ٦١٩ - ٦٢٠ م ، كما اتخذ هرقل عدة قرارات للتقشف وضغط النفقات ، وفرض الضرائب لتدبير رواتب الجنود . وبعد اعداد القوات المدربة ، خرج هرقل فى رحلة النصر أو الموت وبعد أداء قداس عيد الفصح فى الرابع من أبريل عام ٦٢٢ م ، إتجه الى آسيا الصغرى محاولاً ضرب الامبراطورية الساسانية فى عقر دارها ، وبعد قتال عنيف استمر بضع سنوات تمكن من

هزيمة الفرس عند نينوى عام ٦٢٧ م وبذلك أصبح الطريق الى عاصمة الفرس فى طيسفون (Ctesiphon) مفتوحاً ، ولحسن حظ هرقل أن عزل كسرى عن عرشه وعين إبنه شيرويه مكانه فى ٢٥ فبراير عام ٦٢٨ م ، والذى قبل على الفور شروط الروم بالجلاء عن كافة الأراضى التى احتلوها واطلاق سراح الأسرى .

السنوات الأخيرة للروم فى مصر :

لعب النصر براس هرقل فراح يحلم بتوحيد شطرى الأمبراطورية ، ضارباً عرض الحائط بالولاء الذى أظهره سكان مصر والشام للروم أثناء حربهم مع الفرس الى سياسة القبضة الحديدية بأرسال المزيد القوات ، بل انه دمج منصب الاسقف بمنصب الوالى ، كما فعل يوستنيانوس من قبل ، وعين لذلك أسقفا ملكانيا بغيضا الى نفوس المصريين إسمه كيروس - المكنى بأسم يوحنا المقوقس - (لأنه كان قوقازى الأصل) فاتبع سياسة القهر مع اليعاقبة المصريين ، بأجبارهم على قبول المونوثيليتية بالقوة ، واحاط نفسه بمعاونين ملكانيين شديدى الكراهية للكنيسة المصرية ، ونكل برجالها وكهنتها أشد تنكيل ، فهربوا الى الكهوف والصحارى ، والتف الشعب المصرى مسيحيوه ووثنيوه حول الكنيسة كقلعة المقاومة ضد المحتل كما فعل أجدادهم بالمعبد ، وانتخب رجال الأكليروس المصرى سراً أسقفا اسمه بنيامين كان دائم التنقل فى كهوف مصر الوسطى ، وبذلك اصبح الروم فى واد ، والشعب المصرى وكنيستة فى واد آخر . وفى الوقت الذى كان فيه هرقل مشغولا بقتال الفرس ، كان محمد بن عبد الله يدعو الى الإسلام حيث هاجر من مكه - قلعة الوثنية إلى يثرب - قلعة اليهودية العربية - ، وهناك وضع أساس الدولة العربية الاسلامية . وما أن فرغ هرقل من معاركة مع الفرس عام ٦٢٨ م حتى جاءه دحية بن خليفة الكلبى مبعوثاً من محمد ، يدعوه فيها الى الإسلام بدلا من المونوثيليتية ، فى نفس الوقت تسلم كيروس المقوقس رسالة أخرى حملها اليه مبعوث آخر من محمد اسمه حاطب بن أبى بلتعة ، تحمل نفس المطلب . وبالرغم من المعاملة الطيبة التى لقيها المبعوثان الا انهما لم يدركا حقيقة ما يحدث فى الجزيرة العربية ، اذ حاول هرقل أن يؤجل النظر فى الرد حتى يستفسر

عن محمد ودعوته، من عملائه فى قريش، واعتبر الاسلام حركة دينية جاءت لتصحيح مسار المسيحية وغير بعيدة عن الأريوسية .

الفتح العربى الأسلامى لمصر :-

اوصى محمد قبل وفاته بفتح مصر لأنه بدونها لن تثبت اقدام الإسلام فى افريقيا والشرق الأدنى، ولأنها مصدر ثراء ، وجنودها خير أجنار الأرض، غير أن هذه الوصية لم تتحقق الا فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، الذى فتحت فى عهده الشام وفلسطين، وتحت الحاح قائده المظفر عمرو بن العاص، اقتنع بعد تردد فى إرساله قوات لفتح مصر لأهميتها الاستراتيجية والبحرية، ولحماية ظهر قوات المسلمين الموجودة فى الشام . ففى أواخر ذى العقدة وأوائل ذى الحجة الموافق ديسمبر عام ٦٣٩ م انطلق عمرو فى صحبة جيش لايزيد تعداده عن أربعة آلاف مقاتل، فأستولى على العريش دون مقاومة ومنها اتجه الى بيلوزيوم (الفرما) فى ينايرعام ٦٤٠ م وحاصرها لمدة شهر حتى استسلمت ، وهدم أسوارها وحصونها حتى لا ينتفع بها الفرس إذا ما عادوا اليها، ومن الفرس اتجه الى بلبيس فى محافظة الشرقية فأستولى عليها، بعد هزيمة قائد حاميتها الذى لقبه العرب بالأرطبون، وكان فى الأصل قائداً لحامية بيت المقدس قبل سقوطها فى يد عمرو، وربما جاء للانتقام منه لهزيمته، ومن بلبيس اتجه عمرو الى قرية كانت تسمى «بأم دنين»(عند بحيرة الأزبكية القديمة والتى مكانها حديقة الأزبكية الآن)، وبعد قتال عدة اسابيع استولى عليها، وفى نفس الوقت شعر بتجمع الروم، فأرسل الى الخليفة يطلب مدداً، وفى اثناء ذلك عبر النيل متجها الى الفيوم ليجند عدداً من البدو العرب الذين كانوا يعيشون فيها، وليبقى قواته فى حالة لياقة بدنية، وليدمر ما استطاع من حصون الروم. واخيرا وصل المدد من الخليفة، وكان جيشاً تعداده اربعة آلاف مقاتل على رأسهم عدد من الصحابة منهم : عبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود والزبير بن العوام، ومسلمة بن مخلد، وإلتقى الجيشان عند عين شمس (هليوبوليس بالقرب من المطرية) وبعد أن طهرّ الروم منها، ثم اتجه الى حصن بابليون المنيع وحاصره لمدة شهر اثناء فيضان عام ٦٤٠ م وفشلت المفاوضات مع الروم، واخيرا سقط الحصن فى شتاء عام ٦٤١ م. وخرج منه الروم. بعدها اتجه عمرو

الى الدلتا . ثم الأسكندرية وفتحها بسهولة . وتعبيرا عن شكره لمساعدة اليعاقبة المصريين له اعاد بنيامين مكرما لكرسى الأسقفية بالأسكندرية .. وبهذا ينتهى فصل طويل من حكم الروم وحيث بدأت مصر عهداً جديداً وحضارة جديدة دوراً جديداً فى عالم المشرق العربى الذى وحده الإسلام والعروبة .

هوامش الفصل الأول

(١) Agyptum virisque Orientis et Ultima Secum
Bactra vehit Sequiturque (nefas) Aegyptia coniunx:
و (اتى) إلى مصر بقوات الشرق ومعها قوات باكترا النائية ، وتتبعه ـ
بالعار ـ زوجته المصرية :

Vergil, Aeneid, Book 8, verse 687 -- 688

انظر ترجمة عبد اللطيف احمد على فى كتابه الشيق والمثير : مصر والأمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٢ ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٢) Omnia vincit Amor, et nos cedamus Amori

الحب يقهر كل شيء .. دعونا نستسلم للحب .

Vergil Eclogue X, verse 69.

(٣) - T.C Skeat in the Journal of Roman Studies, 43 (1953), P 98 -- 100

إذ يقول الأستاذ سكيت أن اكثر الأحتمالات هو أن كليوباترا قد إنتحرت فى العاشر من اغسطس عام ٣٠ ق . م بالنسبة للتقويم الرومانى ، وبأضافة اليومين اللذين هما الفارق بين التقويم الرومانى والتقويم الجريجورى الحديث يكون المقترح هو الثانى عشر من اغسطس انظر :

Naphtali Lewis: Life in Egypt under Roman Rule, Clarendon Press. Oxford 1983. P 9 note 1.

كذلك انظر : عبد الطيف أحمد على . المرجع السابق ص ٢٩ هامش رقم ٢ .

(٤) Vergil, Aeneid, Book 8, verse 697; Horace, Odes, Book 1, M 37;
Propertius, Odes, Book 3, no 11. Ovid, Metam, XV, 826-828.

وقد ترجم اغلب هذا الهجاء عبد اللطيف احمد علي ، المرجع السابق : ص ٣٢ (فرجيل) ، و ص ٣٢ ـ ٣٦ (اوفيد) . و ص ٣٤ ـ ٣٦ ((بروبرتيوس) و ص ٣٦ ـ ٤٠ (هوراتيوس) .

(٥) وردت فى الفقرة السابعة والعشرين من النقش الشهير الذى اطلق عليه علماء النقوش إسم Res Gestae Divi Augusti اى منجزات المؤله اغسطس ، والذى كان فى الأصل منقوشا على لوحة عند مدخل ضريح اغسطس فى روما ، وعمل منه نسخ كثيرة علقت فى مناطق مختلفة من الأمبراطورية ، غير أن أغلب هذه النقوش بما فى ذلك نقش

روما قد اختفى او دمر ، الا ان نسخة شبة كاملة عثر عليها فى أنقرة عاصمة ولاية جالاتيا فى آسيا الصغرى ، كما عثر على فقرات متفرقة من نسخ الولايات الأخرى.

(٦) انظر كتابى تاريخ الأمبراطورية الرومانية السياسى والحضارى دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٧٥ .ص ٢٢ - ٢٤ .

(٧) ترجم هذا اللقب إلى اليونانية بلفظ autokrator ويعنى «الحاكم بأمره» وهذا يفسر محتوى الأسم اكثر مما يظهر من اللفظ اللاتينى.

(٨) هذا اشبه بعلاقة خديوى مصر بالسلطان العثمانى عندما كانت مصر ولاية عثمانية.

(٩) عن ازمة زواج الجنود والقانون الرومانى انظر مقالى: «تطور التشريع القانونى بين الأمبراطورية الرومانية والعسكر حول مسألة الزواج أثناء الخدمة العسكرية»: الكتاب التذكارى المقدم إلى سعيد عاشور مركز النشر بجامعة القاهرة ١٩٩٢ من ص ٢٣ - ٤٥ .

(١٠) انظر ايضاً مقالى: «التأثير الرومانسى للحضارة المصرية على تفكير شعوب البحر المتوسط- من الغزو الفارسى حتى العصر القبطى- مصر وعالم البحر المتوسط. اشراف ا. د. رؤوف عباس (القاهرة ١٩٨٦) (من ص ١١ - ٣٨) ص ١٤ - ١٥ .

(١١) عن هذه الفترة ومصادرها انظر عبد اللطيف أحمد على المرجع السابق من ص ٤٧ - ٧٠ .

(١٢) انظر كتابى: حضارة وتاريخ وآثار مصر تحت حكم الأغريق والرومان- من الفتح المقدونى حتى الفتح الإسلامى دار النهضة العربية ١٩٨٩ ص ١٢٧ - ١٢٩ .

(١٣) مثل ظهور بيت ولادة الرب (ماميدسى) جوار بوابة المعبد ، والكشك أعلى السقف والذى يصل اليه عن طريق درجات سلالم جانبية.

(١٤) Dio Cassius, Roman History, Book 15, chapter 16.

(١٥) cf. Alan Samuel: From Athens to Alexandria, Hellenism and Social Goals in Ptolemaic Egypt, Leuvain, 1983, P45:

انظر: «المورخ المصرى»، الفنى العدد الثانى عشر يناير اثناء ١٩٩٤ ، ص ٣٠٩ - ٣١١ .

(١٦) Dio Cassius, ibid, Book 57, chapter 10: Nephtali Lewis, op cit p88.

وعبد اللطيف احمد على المرجع السابق ص ٦٩ هامش ٣ .

(١٧) P. Lond. 1912= Select Papyri 212= Corpus Papyrorum Juduicarum 153, N. Lewis and M Rheinhold: Romen Civilization. vol. II, New York, 1951-pp 366-9.

وللترجمة العربية انظر عبد اللطيف أحمد على المرجع السابق ـ ص ١٠٣ ـ ١١٠ مع التعليق عليها .

(١٨) A. Momigliano: Alien Wisdom, p4: N Lewis: op. cit. p198 and p 206-207, note 11 (p228).

(١٩) انظر كتابى تاريخ الأمبراطورية الرومانية . دار النهضة العربية ١٩٧٨ ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

(20) P. Oxy. 1021 (A.D54)= B.G.U. 64 ī= Select Papyri no 235.

عبد اللطيف أحمد على ـ المرجع السابق ص ١٣٠ .

(٢ P. Oxy. 1021 (A.D54) P B.G.U. =Selet Papyri no 235.

(٢١) O.G.I.S, 11, 666,2 = عبد اللطيف أحمد على ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

(٢٢) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ص ١٣١ .

(٢٣) وهو المصطلح الدينى المصرى شاى ـ ام ـ كيميت الذى ترجم إلى اليونانية

(٢٤) عن تاريخ بناء هذا الهيكل : انظر كتابى : تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى فى العصر الهلينستى ، دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٩٢ ص ٢٦ ـ ٢٦١ .

(٢٥) تاريخ الأمبراطورية الرومانية ، المرجع السابق ص ١٨٢ .

(٢٦) Plutarchus. De iside et Osiride, 72

«وكانت كل جماعة من الناس تذود عن حيواناتها الخاصة وتحتد إذا ما أسيء اليها ، فساقتها عداوة الحيوانات دون فطنة إلى أن تتناصب العداء وتتخاصم ، وبذلك يكون اهل مدينة الذئب لوكوبوليس (اسيوط الحالية) حتى اليوم هم الذين ياكلون من دون المصريين الشاة ، إذ أن الذئب الذى يعدونه رباً ياكلها ايضا ، ولما كان اهل مدينة الكلب كونوبوليس (الشيخ فضل ببنى سويف) ياكلون سمك الأوكسيرينخوس (اى القنوم) فان اهل مدينة اوكسيرينخوس يصيدون الى يومنا هذا كلبا ويعترونه ويلتهمونه كانه لحم قربان ، ثم تحارب اهل هاتين المدينتين وتخاصموا ، فاقتص الرومان واعادوهم الى النظام : ترجمة حسن صبحى البكرى ومراجعة محمد صقر خفاجة لرسالة بلوتارخوس عن إيزيس واوزوريس ، سلسلة الألف كتاب رقم ٢٣٥ ، دار القلم القاهرة ١٩٥٨ .

(٢٧) Juvenalis, 15 and 76.

وقد ترجم هذا الهجاء عبد اللطيف أحمد على المرجع السابق ص ١٦٥ - ١٦٧ حيث يؤيد راى وهيب كامل (يوفينا ليس فى مصر المجلة التاريخية المصرية المجلد السادس (١٩٥٧) ص ٣٢ بأن المعركة التى نكرها يوفيناليس بين تنتورا وامبوس ليست سوى تمثيلية دينية تجرى كل عام أثناء الأحتفالات غير اننا نجد من الصعب قبول هذا التبرير لأنه لايتماشى مع ماورد على لسان بلوتارخوس فى الرسالة السابقة

(٢٨) الناصرى تاريخ الأمبراطوية الرومانية ص ١٧٢ - ١٧٤ .

(٢٩) Edward Gibbon The Decline and Fali of the Roman Empire, chap 3.

(٣٠) CF Musurillo, The Acts of the Pagan Martyrs (1954) pp 30-38 and p 150-60.

(٣١) (عبد اللطيف احمد على، المرجع السابق ص ١٨٥ Pliny, Panegyric 31-32.

(٣٢) J.G. Winter: life and letters in the Papyri Univerusity of Michigan Press, An Arbor 1933, p18.

(٣٣) الوصف التفصيلى لآثار المدينة . انظر : الناصرى تاريخ وحضارة وآثار مصر ص ١٩٥ - ٢٠٣ .

(٣٤) نفس المرجع ص ٢٠٦ .

(٣٥) سليم حسن مصر القديمة ، الجزء الخامس عشر ص ٤٨٥ .

(٣٦) (36) J.G. Milne: A. *History of Egypt under Roman. Rule, Methuen* 3rd edition 1924, p58.

(٣٧) J.E.A, IV, pl. 65 *J. Milne ibid, p61à(é. Fig. Ibid p.60-61.*

(٣٨) ibid p. 61

(٣٩) J.E.A, Iv, pl. *65 J.Milne ibid,p61 fig 50.*

(٤٠) J.Milne, ibid, p61.

(٤١) Dio Cassius lxxxv, 13.

(٤٢) J.Hasebroek. Unterschungen Zur Geschichte des kaiserptimius. حيث جمع الأستاذ هيزبريك هذه الوثائق

(٤٣) Milne, op. cit, p 60, Figs 48 and 49

(٤٤) انظر مقالى : تطور التشريع القانونى من ص ٢٣ - ٤٥ .

(٤٥) كذلك انظر ص J. Winter, op. cit, p 21

(٤٦) Milne, op cit fig 55.

Milne, op cit, p 70 fig 56

(٤٧) Theodore Reinach Fouilles en Coptos Paris 1965 .

(٤٨) S. A. EL- Nassery-- G Wagner: A New Roman Hoard From Karanis

(٤٩) Bulletin de l'Institut Francaise d, Archeologie Orientale au Caire, vol 75 (1976)

EL. Nassèry Ioc. cit

(٥٠)

(٥١) هذه الكنية كان يتسمى بها سكستوس بومبى انظر: Cicero, verr, 2,2,8
ربما نسبة إلى نهر كيليكيا فى اسيا ، غير أن بعض المراجع الأوربية والمراجع العربية
الناقلة عنها ترجمتها إلى لفظ الأشحب ، نسبة إلى لفظ وهو
طائر مغرد ذو ريش أصفر .

(٥٢) P. Oxy 1261, 1626 (53)

(٥٣) P. Lond no 1914,

(٥٤) انظر كتابى الروم والمشرق العربى - دار النشر لجامعة القاهرة ١٩٩١ ص ٥٥ - ٥٦ .

(٥٥) P. Theadelphia, 16, 17 and 20.

(٥٦) J. R. S, X, p 184; W. M. F Petrie: ''Rise of Prices in Roman Egypt.
Ancient Egypt, 1922, p 108. (57)

(٥٧) Uirch Wilcken, Chŕestomathie, Leipzig 314, 1919, 6.

(٥٨) P. Cairo 67009, cf U. Wilcken: Grünzndzugé und Chrestomathie der
Papyruskunde, Leipzig 1912, p 69.

(٥٩) عن حياة شنودة الأتربى بالفرنسية انظر .
Memoiro de be mission Archeoloogque Francaise, IV, fol, 53.

وبالعربية انظر نفس المرجع ص ٣٩٦ .

وكذلك انظر : J. Kawil, Coptic Egypt, American University in Cairo Press,
1993, p. 29, and p. 143.

(٦٠) يوحنا النقيوسى ٩٧ .

(٦١) من هنا يبدأ إعتمادنا على كتاب بتلر :
A.J. Butler: The Arab Conquest of Egypt, Oxford. 1902.

انظر ترجمة هذا الكتاب محمد فريد أبو حديد : فتح العرب لمصر ، القاهرة ١٩٤٨ .

١. مدة شغله المنصب
٢- نائب للامبراطور
٣- كان يتلقى الشكاوى.
٤- كان يعقد مجلس القضاة ثلاث مرات في السنة
٥. كانت سلطته مستمدة من سلطة الامبراطور
٦- أهمية منصب والي مصر
٧- كان يتمتع بجولات تفتيش.
٨- كان عليه وحده حق اصدار تصريح دخول مصر او الخروج منها
٩- تم اختيار الولاة من طبقة الفرسان
١٠- كان اسقاط الوالي وتعيينه مرهونا بمشيئة الامبراطور.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصـل الثانـى

العناصر السكانية والتمايز بين الطبقات

وعندما عبر الشاعر أحمد شوقى عن أساه لحال مصر تحت نير الأحتلال البريطانى قائلاً :

احرام على بلابله الدوح ... حلال للطير من كل جنس

لم يكن وصفة ببعيد عن حالها تحت الأحتلال الروماني ، ففي الوقت الذى نظم فيه شوقي شعره كتب عالم الآثار برتشيا مندهشا لتنوع العناصر السكانية فى مجتمع الأسكندرية يقول : «اما عن العناصر والقوميات التي يتكون منها ، فانه من الصحة ان نقول انه هو ذاته بعد التغيير mutatis mutandis إذ ان حالة العصر اليوناني الروماني موازية له بدقة . ومرة اخرى نستطيع ان نصف الأسكندرية بانها مدينة عالمية» ، ثم راح يعدد العناصر والقوميات التى سكنتها في العصر الحديث حوالي سبع عشرة جنسية ، وكل قومية لها ممثل ومعبد خاص ، ولهذا فهي كرسى الديانات ويقول : «قد يجد الأنسان نفسه ميالاً إلى الاعتقاد بان مثل ذلك التباين فى الأجناس واللغات والديانات والسلوك لايمكن ان يصنع مدينة من اهم صفاتها التسامح والأحترام المتبادل ، غير ان الاسكندرية دليل على ان تزايد حدة التعصب والعنصرية ، وتزايد نبرة الشوفانية ، وتزايد شدة التعصب الدينى يمكن ان يهدا ويستكين ، بل ربما حتى يختفى عندما يتاح لكل عنصر او قومية ان يمارس حياة يومية يكون لها إتصال مع الأجناس والقوميات الأخرى ، ويستطيع ان يدرك ان لكل واحدة منها خصائص لا يمكن للأخرين إستساغتها ، واخطاءً يمكن التغاضي عنها ، وعندما تتجمع عناصر واجناس واعراف متنوعة فى مكان واحد ، فان رد الفعل النفسي هو خلق جيوب سكانية متنوعة كل لها عنصرها بحيث يتم التمايز بينها .[1]» . ولم يكن هذا التمايز في مصر في عصر الرومان يقوم على أساس لون البشرة كما هو في العصر الحديث إنما كان يقوم على أساس التفاوت في درجة الثقافة الأغريقية Hellenism .

وفى خطابه إلى الأمبراطور ترايانوس (تراجانوس) كتب الأديب الثرى، إبن الطبقة الراقية بلينيوس الأصغر عام ١٠٠م رسالة إلى الأمبراطور تراجانوس يقول فيها :

« اشكرك - يا سيدى - لأنعامك بحقوق المواطنة الرومانية فى غير ابطاء لمدلكى، هاربوكراس، غير ان بعض الناس الذين هم اكثر علماً منى فى القانون لفتوا نظرى بانه مادام الرجل مصرياً، فكان ينبغى على اولاً ان اسعى له للحصول على حقوق المواطنة السكندرية ولهذا اتوسل إليك ان تنعم عليه ايضاً بحقوق المواطنة السكندرية حتى اتمتع بمكرمتك وبما يتفق والقانون».

وقد رد الأمبراطور على رسالته بما يلى :

« جريا على عادة الأباطرة الراسخة، فليس من سياستى منح حقوق المواطنة السكندرية بسهولة. لكن مادمت قد حصلت من قبل على حقوق المواطنة الرومانية لطبيبك المدلك هاربوكراس فليس فى وسعى أن أتجاهل طلبك الأضافى عليك ان تخطرنى من اى إقليم هو حتى اكتب بذلك إلى صديقى بومبيوس بلانتا والى مصر[2] .

هذا الخطاب والرد عليه يوجزان سياسة الرومان إزاء هذا التنوع السكانى فى مصر، والتى تقوم على هرم إجتماعى، على قمته تجلس الأقلية الرومانية المقيمة فى مصر، يليها قطاع كبير من سكانها، أقل درجة فى التميز الأجتماعى وهم مواطنو المدن الأغريقية، يليهم الجالية اليهودية قبل أن يجردهم الرومان من الأمتيازات. وفى القاعدة يأتى المصريون من طبقة التجار وأصحاب الحيازات الزراعية المحدودة. ثم الفلاحون الأجراء، وأصحاب المهن والحرف، قليل منهم ميسورى الحال وأكثرهم فقراء معدمون. وفى حين أن سكان عواصم الأقاليم المصرية فى الوادى كانوا يتمتعون ببعض المزايا، نجد الفلاحين من سكان القرى محرومين من اى مزية على الأطلاق بالرغم من انهم غالبية السكان وأصحاب الأرض والتاريخ التليد، لكن الأدارة الرومانية لمصر نظرت إليهم نظرة دونية تحت مصطلح « المصريين » ويتضح ذلك من خطاب كتبه اغريقى متطرف، إذ وردت فى أحدى فقراته قوله :

« ولعلكم - يا إخوتى - تعتبروننى همجيا او مصريا فظا[3] .

التنوع السكانى فى مصر يقوم على هرم اجتماعى

اتخاذ الرومان الحواجز التي تمنع اصحاب الطبقة الأدنى من الانتقال الى الطبقة الأعلى

وفى بنائهم لسياسة الهندسة الطبقية الأجتماعية أقام الرومان الحواجز والضمانات التى تمنع أصحاب الطبقة الأدنى من الانتقال إلى الطبقة الأعلى إلا بقرار خاص يصدر من جانب الأمبراطور الرومانى شخصيا كما فعل ترايانوس بالنسبة لحالة الطبيب المصري هاربوكراس. كما كان بعض أثرياء السكندريين، ذوى المكانة البارزة يكافئون في كثير من الأحيان من قبل الأمبراطورية بالأنعام عليهم بحقوق المواطنة الرومانية، وكما يتضح من خطاب بلينيوس، فقد كان شرطا كي يحصل الفرد على حقوق المواطنة الرومانية أن يكون متمتعا بحقوق المواطنة السكندرية، فقد كان الأثرياء وكبار الملاك فى الولايات المختلفة للأمبراطورية عادة ينحازون إلى جانب الرومان، كما أن الرومان كانوا يحابونهم ويستمعون لنصحهم، أما بالنسبة لطبقة المصريين، فلم تكن الأدارة الرومانية غير متحمسة لانتقال بعضهم من الحيز المخصص لهم فى قاعدة الهرم الأجتماعي إلى طبقة أعلى، بل على العكس حرصت دائماً على ثبات وإستقرار هذا الهرم ومنع أي حراك إجتماعي. وظل هذا الألتزام قائماً حتى أصدر الأمبراطور كاراكالا عام ٢١٢م بجرة قلم- قراره الشهير الذى منح بمقتضاه حقوق المواطنة الرومانية لكافة الشعوب القاطنة داخل «الحدود السياسية للأمبراطورية، فقبل صدور هذا القرار لم يكن مسموحاً بانتقال الفلاحين من طبقتهم الدنيا إلى طبقة مواطن فى عاصمة اقليم مصرية (metropolites)، أو من وضع مواطن إقليم إلى وضع مواطن سكندري، أو من وضع مواطن سكندرى إلى مواطن رومانى إلا فى حالات إستثنائية بقرار من الأمبراطور ذاته وبعد تزكية قوية. هذا هو الهيكل العام للسياسة الرومانية ولنلقى نظرة تفصيلية على أوضاع الطبقات الثلاث التي ذكرناها :

أولاً : طبقة المواطنين الرومان والحاصلين على حقوق المواطنة الرومانية بالأكتساب :-

الوالى وسلطاته :

كان على رأس هذه الطبقة جهاز السلطة الرومانية فى مصر، والذى كان يتراسة القائم بأعمال الأمبراطور فى هذه الولاية- والذى نطلق عليه تجاوزاً فى اللغة العربية لفظ «والي الاسكندرية ومصر» et Aegypti

Praefectus Alexandriae ، وكان هذا « البرايفكتوس » يمثل الأمبراطور يبعث به من روما لينفذ سياسته وتعليماته ، وكان مدة شغله لهذا المنصب يتراوح من عام واحد الى ثلاثة أعوام ، وقلما تجاوز هذه المدة الى أربعة او خمسة أعوام . وكان هذا الوالي ومساعدوه من الرومان يقيمون اقامة دائمة فى الأسكندرية ويباشرون أعمالهم منها . وكان الوالي يقوم كل عام بجولة تفقدية epidemiai فى صحبة مساعدية تستغرق أربعة او خمسة شهور يزور فيها مدينتين مصريتين : واحدة في مصر السفلى ، والأخرى فى الصعيد ليترأس محكمة الوالى « conventus » ولتلقي الشكاوى من الأهالي ، ويراجع دفاتر حسابات الأقاليم ، ويراقب أداء الموظفين المحليين ، ويفحص كشوف الضرائب المقدمة منهم ، فالكلمة اليونانية التى تشير الى مجلس الوالي هى dialogismos وهى تعنى فى قاموس اللغة « مراجعة الحساب[٤] او الموازنة العامة . وبما أن الأمبراطور الرومانى كان فرعوناً علي المصريين[٥]) وبما أن الوالي هو نائب الأمبراطور فى غيابه ، فقد كان الوالي يتمتع بمركز الفرعون أو الملك على المصريين ، وقد ورد ذلك فى ثلاثة إشارات : واحدة عند والأخرى عند [٦] استرابون ، والثانية عند تاكيتوس[٧] والثالثة عند اميانوس ماركيلليونوس[٨] . ولهذا كان يقع عليه واجبات الفرعون ومسئولياته الدينية إزاء المعابد المصرية ، لكن لم تعثر على رسم واحد لأى والي روماني على المعابد المصرية ، انما الذى كان يصور كفرعون هو الأمبراطور وحده ، اذ كان لايسمح للوالي أن يزيد عن حدة ، فعندما لعب خمر النصر براس كورنيليوس جاللوس- أول وال علي مصر - بعد قمعة فى وقت وجيز عدة ثورات قامت في الصعيد عقب الفتح الرومانى بسبب الضرائب ، وسجل انتصاراته مفاخرا على نقش عثر عليه فى جزيرة فيلة (انس الوجود) مكتوب بالمصرية واللاتينية واليونانية ومؤرخ فى ٢٠ برمودة من السنة الأولى لحكم الرومان (١٥ ابريل عام ٢٩ ق.م) ، كما سجل ايضا اخبار انتصاراته - على الهرم الأكبر وفى جهات كثيرة من الوادى عندئذ لعب الشك برأس الأمبراطور فاستدعاة وقدمه للمحاكمة بتهم ملفقة وادين بتهمة الخيانة العظمى وصودرت أمواله ونفى من البلاد[٩] . ونفهم ايضا من وثيقة محاكمة الوالى ماكسيميانوس انه يجوز محاكمة الوالى ، وعزله والقبض عليه كما رأينا فى حادثة الوالى فلاكوس . وكان الوالى يقيم فى قصر praetorium

في الأسكندرية ، وفي كل صباح يتجمع الأتباع عند بابه ليلقوا عليه تحية الصباح Aspasmos ، كما كان له حاجب يقف عند باب حجرة نومه . وكان من واجباته تلقي الشكاوى وتوقيع العقوبات ، ومصادرة الممتلكات ، وتخفيض احكام الأشغال الشاقة فى المناجم والمحاجر وفى معسكرات الجيش بل واسقاطها . وعندما يزور الوادى يقابل بالحفاوة ، ويقوم الأهالى بالمساهمة في هذه الحفلات والمواكب ، ويتولون نفقات إقامته . ويذكر تاكيتوس أن اكتافيوس اغسطس جعل الأحكام التي يصدرها الفرسان الذين يحكمون مصر معادلة للأحكام التى يصدرها القضاة الرومان الذين يملكون سلطة الأمبريوم سواء كانوا قناصل أو من فى حكمهم pro consules من حكام الولايات الولايات(١٠) . ويضيف الفقيه اولبيانوس Ulpianus أنه لم يكن مسموحاً لوالي مصر أن يتنحي عن ولايته قبل وصول من يخلفه الي الأسكندرية(١١) ذاتها ، كما أن وصول الأمبراطور بنفسه الي مصر كان يجعل سلطة الوالي مجمدة لحين مغادرته مصر . كذلك فأن خروج الوالي من مصر يبطل سلطته . وفي كل الحالات كما سبق أن ذكرنا ـ فأن سلطة الوالى مستمدة من سلطة الأمبراطور ، ومن ثم فقد كان يملك السلطة العسكرية ، والقضائية ، والادارية ، لكنه كان ملزما بتطبيق مايرد في رسائل الأمبراطور epistulae أو تعليماته mandata ، أو فتاويه rescripta ، بل كان هناك مسائل لا يستطيع فيها الوالي إتخاذ القرار قبل الرجوع الي الأمبراطور شخصياً مثل تحديد حجم الضرائب ، أو اسقاط المتأخرات الضريبية عن الفلاحين ، والأعفاء من الخدمات الالزامية . وفي المقابل كان لايجوز للرعايا في مصر رفع شكاواهم الي الأمبراطور مباشرة ، بل كان لابد من أن يكون ذلك عن طريق الوالي الذى كان في مقدورة عرقلة وصولها الي الأمبراطورية كما كان من سلطته وحده منح الاذن بدخول مصر او مغادرتها سواء للرومان أو غير الرومان وبفرض غرامات على من يخالف ذلك .

الجيش الرومانى فى مصر

اما فيما عدا ذلك فقد ظل الوالي ومساعدوة وبطانته في عزلة عن الناس ، ويمثلون الجانب الخفى للسلطة الرومانية المتوارية في أنفة وكبرياء وترفع ، أما ما لمسه الناس من هذه السلطة أو الجانب الظاهر

منها ، فقد كان يتمثل فى الجنود الرومان المنتشرون فى كل مكان ، ويقومون بعدة مهام : فهم الذى يحرسون حدود البلاد ومرافقها ، ويطبقون الأمن ويجمعون الضرائب . وفى أغلب عصور السيادة الرومانية كان يعسكر فى مصر فرقتان رومانيتان Legiones بالاضافة إلى عدد من وحدات الخيالة equites والهجانة dromedarii ، وكتائب القوات المساعدة auxiliarii المجلوبين من سكان الولايات (ونادراً ما يكون من بينهم جنود رومان) ، ويقودهم ضباط رومان ، وتشمل قوات المشاة pedites والخيالة equites ووحدات بحرية مقرها الاسكندرية socii navales سواء مجدفون remiges أو بحارة nautae ، سواء للعمل فى أعالي البحار أو فى النيل . كما ورد فى اوراق البردى أسماء وعدد الوحدات المرابطة في أماكن إستراتيجية مختلفة في الصعيد ، بعضها كان عبارة عن نقاط خراسة أو قوات ترسل فى مهمات خاصة ، فمثلا نعرف أن وحدة عسكرية كانت تعسكر قبالة إدفو الكبرى Contrapollonopolis maior[١٢] عام ١٣١ م ، ثم نعود وتسمع عنها مرة أخرى عام ١٥٦ م فى أمر تسجيل جندى في أحدى الوحدات Cohortis والتى كانت تتكون من ست ضباط من رتبة قائد المائة Centuriones ، وثلاثة من رتبة قائد العشرة decuriones ، ومائه وأربعة عشرة من الخيالة equites ، وتسع عشرة من الهجانة (أى راكبى الجمال) dromedarii ، وثلاثمائة وثلاث وستين من المشاة pedites ، وتعدادها جميعا خمسمائه وخمسة أفراد[١٣] .

الموطنون الرومان والحاصلون على حقوق المواطنة بالأكتساب :

كان المواطنون الرومان وحدهم هم الذين لهم حق الألتحاق بالفرق الرومانية Legiones ، والتى كانوا يخدمون فيها خمسة وعشرين عاماً قبل أن يسرحوا ، اما القوات المساعدة فقد ظلت حتى نهاية القرن الثاني الميلادى تجند فقط من طبقة مواطني عواصم الأقاليم المصرية والمدن الأغريقية الخالصة الثلاث وكان مواطنو عواصم الأقاليم يشكلون الطبقات المتأغرقة التي تدعى- حقا أو زورا- أنها تنتسب إلى سلالة المهاجرين الأغريق الذين إستوطنوا مصر منذ فتح الأسكندر الأكبر لها أو خلال حكم ملوك البطالمة ، وهؤلاء كانوا يخدمون ستة وعشرين عاماً فى الجيش ، وعندما يسرحون يمنحون حقوق المواطنة الرومانية ويتمتعون بمزاياها .

اما أبناء الطبقة الثالثة وهم سكان القرى والدساكر من المصريين الخالصين ، أو الأجانب المتمصرين ، وغيرهم من سلالة الأغريق والمهاجرين من كل مكان ، والتى إستوطنت الريف ، وتمصرت تماما ، فقد سدت فى وجوهها كل الطرق المؤدية إلى الصعود الاجتماعي ، وظل الحال كذلك حتى نهاية القرن الثانى الميلادى .

وبمرور الزمن تزايد عدد « المترومنين » الذين منحوا حقوق المواطنة بالأكتساب وليس بالمولد . وهؤلاء كانوا يقيمون فى مصر إقامة دائمة ويتخذونها وطنا لهم . بعضهم كان ينتمى إلى عائلات عريقة من الأسكندرية أنعمت الأمبراطورية عليها بحقوق المواطنة الرومانية ، لكن غالبية المترومنين كانوا من الجنود المسرحين Veterani الذين حصلوا على حقوق المواطنة مكافأة لهم . وحتى القرن الثانى تقريبا إتبع الاباطرة قاعدة ثابتة وهى تفادى عسكرة المجندين فى الوحدات القريبة من مواطنهم الأصلية منعا لتعاطفهم مع ذويهم فى حالة التعامل معهم عسكريا ، ولذا كان المجندون من الولايات الأخرى هم الذين يعسكرون فى المناطق والأقاليم المختلفة فى مصر . وعندما يسرح هؤلاء تكون مصر قد أصبحت وطنهم الذي لا يعرفون غيره ، كما أنهم استنوا عادة تغاضت عنها الأمبراطورية وهى إتخاذ زوجات من المناطق التى كانوا يعسكرون حولها أو بالقرب منها ، وينجبون أبناء منهن ، وحيث أنه كان محرما على الجندى الزواج أثناء الخدمة فان هذه العلاقة اعتبرت حقا مكتسبا بحكم العادة concessa consuetudine وليست زواجا شرعيا « conubiun iustum » ومن ثم فان الابناء كانوا فى نظر القانون « أبناء فراش » وليسوا أبناء شرعيين ، وذلك طوال فترة تجنيد الجندى إلى أن يتم قضاء الخدمة العسكرية ويسرح بشرف ، عندئذ تتحول معاشرته لخليلته إلى زواج شرعي كامل الأركان ويحصل الأبناء علي حقهم الشرعى ، ولم يسمح قانونا للجنود بالزواج أثناء الخدمة إلا منذ القرن الثالث الميلادى[١٤] . وبدءاً من حكم هادريانوس (١١٧ - ١٣٨م) ساد الأتجاه نحو تفضيل أبناء الولايات عند تجنيد القوات التى تحرس هذه الولايات ، بحيث يكون المجند من نفس البلد الذي يقوم بحراسته ، وبناء عليه أصبح أغلب الجنود المسرحين المقيمين فى مصر أبناء مدن أقاليمها الذين شقوا طريقهم إلى عالم الترقى الاجتماعى والطبقى من خلال الالتحاق بالخدمة العسكرية[١٥] .

الثروة التي يكونها الجندي

وعند تسريحه من الخدمة يكون الجندي عادة قد كون لنفسه ثروة لا بأس بها تجعله يستقر في موطنه الجديد ويصبح من الأعيان (مالم يكن سفيها أو مسرفا خلال تجنيدة). فقد كان جندي الفرقة يحصل على مكافأة نهاية الخدمة وقدرها أثنا عشرة الفامن الدراخمات، أما جندي القوات المساعدة فكان يحصل علي مبلغ يقل قليلا عن هذه المكافأة، بالأضافة إلى ذلك، كان يتسلم من بنك الفرقة مبلغا أخر أدخر له في بنك الوحدة عن طريق خصم جزء من راتبه طوال مدة خدمته، وكثير من الجنود كانوا يجدون الفرصة متاحة لأستثمار ما لديهم من أموال بسيطة في نشاطات مضمونة الربح مثل شراء وبيع الرقيق، والمساهمة في التجارة والأعمال المختلفة، وإقراض الأموال بنسبة فائدة مرتفعة لوحظ أنها تزيد قليلا عن ال ١٪ شهريا وهي النسبة المقررة للفائدة عامة، مستخدما في ذلك الحصانة التي يتمتع بها.

وقبيل إنتهاء فترة خدمته بشهور يبدأ المجند في تجهيز الأوراق التي تسهل له التعامل في حياته المدنية، فيحصل على لوحة برونزية منقوش عليها باللاتينية بأنه مسرح بشرف وإذا لم يكن يحمل الجنسية الرومانية عند التحاقة بالجيش فأنه يحصل عليها تلقائيا. وبمقتضى لوحة إتمام الخدمة العسكرية. يحصل علي حقوق المواطنة بالأكتساب، ويتمتع بكافة مزاياها. وكان اغلب الجنود المسرحين يقبلون علي شراء الأراضي الزراعية خاصة في المناطق الخصبة وتلك التي تتوافر فيها مصادر الري، ففي قرية فيلادلفيا في إقليم أرسينوي (جرزة شرق الفيوم) كان حوالي ١٢,٥٪ من سكانها جنوداً مسرحين، بينما مثلا في قرية أخري في نفس الأقليم ولكن على حافة الصحراء وبعيدة عن مصادر المياة وهي قرية سكنوبايونيسوس (دمي السباع) لانكاد نعثر على دليل واحد لوجود ملاك رومان فيها[١٦] وفي خطاب مؤرخ في عام ١٣٦ م كتبه جندي تبقي على موعد تسريحه عام أو عامين بعث به إلي شقيقه الذي سبقه في إنهاء الخدمة وإستقر في موطنه الجديد في قرية كرانيس (كوم أوشيم بالفيوم) قال فيه:

«اوصيك باستقبال حامل هذا الخطاب تيرنتيوس، جندي مسرح بشرف. وبان تعرفة بطباع اهل قريتنا حتى لا يتعرض للأهانة. فهو رجل مقتدر ويرغب

فى ان يستقر فيها . لقد شجعته على إستئجار بيتى لهذا العام والعام الذى يليه مقابل ستون دراخما ، وان يستاجر حقلى مقابل ستون دراخما (اخرى) واطلب منك ان تشترى لي من صديقنا تاجر التيل الذى يقطن بجوار المعبد[١٧] ....

[باقى الخطاب مفقود] .

ولحسن الحظ كشفت لنا أعمال التنقيب التى قامت بها بعثه جامعة ميشيجان خلال أعوال ١٩٢٤ - ١٩٣٤ عن وثيقة عرفنا منها أن والد تيرنتيوس كان أيضا جنديا مسرحا خدم فى قاعدة الأسطول الرومانى بالاسكندرية . لكننا لو أمعنا النظر في عبارات الخطاب السابق وقرأنا ما بين السطور نفهم أن أهل القري لم يكن يسعدهم أن يحل بينهم « مستثمر » مسرح من الجيش ، بل على العكس كانوا يتوجسون منه خيفه ، ولهذا أراد كاتب الخطاب أن يتأكد أن صديقة الغريب لن يلقى معاملة سيئة من أهل القرية عندما يأتى ليقيم بين ظهرانيهم ، فقد كان أهل القرى دائما يتخوفون من الجنود سواء كانوا في الخدمة أم سرحوا منها . فيكفى عندما تمر بالقرية وحدة عسكرية رومانية أو فريق من الضباط الرومان ، فقد كان أهل القرية ملزمين قانونا بدفع الأتاوات لهم وتزويدهم بالمؤن والأموال اللازمة ، وإذا اقامت هذه الوحدة العسكرية بضعة أيام في القرية فكان على سكانها أن يتكفلوا بأعالتهم يوميا ، إذ لم يكن فى قدرة الفلاحين المذعورين من السلطة سوى الأذعان لمطالبها ممثلة فى الجنود وجباة الضرائب . ولقد كان بعض الجنود المسرحين يدركون ذلك ، ولهذا حاول بعضهم تحسين صورته بين أهل القرية التى يقيمون فيها بأظهار كرمه وعطائه ، أو القيام ببناء أو تنفيذ مشروع على نفقته يستفيد منه أهل القرية ، وان لم يفعل ذلك فسوف يلفظ من مجتمع القرية المغلق ، لأنهم يشعرون بالحنق والحسد لوضعه المتميز عنهم ، فهو لا يدفع ضرائب ولا تفرض عليه خدمات إلزامية مثلهم ، بل كان عليهم أن يتحملوا دفع المبالغ التى كان يتوجب عليه أن يدفعها لو لم يكن رومانيا ، ممايزيد من حصة الضرائب المقررة علي كل واحد منهم[١٨] . بالأضافة إلى ذلك فان هؤلاء الوافدين الغرباء كانوا كثيراً ما يصرون على ممارسة إمتيازاتهم التى كفلها لهم القانون لآخر مدى ، وبالتالى كانوا يتعالون على الفلاحين المصريين أو الأغريق المتمصرين ، ويأنفون من مخالطتهم كطبقة أدنى ،

بينما هم طبقة رومانية مميزة ، لكن عندما يفيض الكيل لا يجد بعض المتعاملين معهم بدأ من تأديبهم ولو بالضرب ، ففي بردية محررة في ١٧ أمشير(١٩) [أول فبراير] عام ١٥٣ م شهد سبعة [اسم الشاهد السابع مفقود] كلهم من الحاصلين على الجنسية على حادثة تعدي على جندي مسرح ، وهذه نص الشهادة :

«يقسم المبصممون باختامهم ادناه بعزة الأمبراطور القيصر تيتوس إيليوس هادريانوس انطونينوس بيوس انهم يدلون بالشهادة التالية بامانة وصدق : بينما كنا في قرية فيلادلفيا في إقليم ارسينوى في معبد القياصرة تصادف وان شاهدنا جايوس ما يقيوس ابيلليس جندى مسرح من وحدة ابر (ala apriana) وهو يضرب بالعصى والسياط على يدى حارسين تنفيذاً لأمر حاكم الأقليم هيراكس ، وعلى ذلك نشهد بامانة وصدق اننا شاهدناه وهو يجلد في قرية فيلادلفيا . العام السادس عشر من حكم انطونينوس قيصر مولانا . السابع عشر من امشير (تذييل) انا .... ديودوروس قد ختمت . انا بوبليوس كورنيليوس ام .... قد ختمت ، انا ماكفيوس قد ختمت . انا ماركوس انطونيوس ديوجينيس قد ختمت ، انا ماركوس انطونيوس قد ختمت ، انا كورنيليوس.... قد ختمت .... » .

ونلاحظ أن هناك إسماً سابعاً سقط ربما سهواً فطبقاً للقانون الروماني لا تعتبر الشهادة كاملة الاركان الا إذا وقع عليها سبعة شهود . ومن الواضح أن التهمة الموجهة إلى حاكم الأقليم هي أنه لا يجوز شرعاً جلد المواطن الروماني خاصة إذا إستغاث بأسم الحاكم الروماني وذلك بنص أول قانون صدر في عصر الجمهورية الرومانية بعد طرد أخر ملوك الأتروسكيين ، فقد ورد في كتاب شيشيرون عن الجمهورية(٢٠) De Republica أنه «لا يجوز لأى مسئول ان يعدم او يجلد بالسوط مواطناً رومانياً له حق الإستئناف» ، فأذا كان ذلك مخظوراً على حامل الأمبريوم الروماني فكيف يتأتى لحاكم أقليم صغير وهو رجل مدني وغير روماني أن يأمر بجلد رجل يحمل الجنسية الرومانية ؟ كما إننا لا ندري هل إستغاث الجندى السابق بأسم الأمبراطور أم لا ، بالطبع لابد وأنه فعل ذلك وهذه مخالفة أخرى .

وبعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً من الوثيقة السابقة يصل إلى أيدينا جزء من بلاغ مؤرخ عام ١٦٢ م ومقدم من جندى مسرح إسمه جايوس يوليوس نيجر يقول فيه :

«وبناء عليه فما دامت الأصابات التى الحقت بى على يد مصرى واضحة للعيان فانى اطالب ....(٢١) [الباقى مفقود ....].

لقد كان الجنود المسرحون يشكلون مركز قوة مؤثر فى حياة القرية، فالى جانب الأمتيازات المادية والمعنوية التي يجلبها لهم حصولهم على حقوق المواطنة الرومانية، كانوا أثرياء يعيشون بين فلاحين فقراء، كما أنهم استغلوا ثرواتهم وإمتيازاتهم الأجتماعية ليوسعوا نشاطهم في قطاع التجارة والزراعة وإدارة الأعمال. وبعضهم تضخمت ثروتة بشكل ملفت للنظر وفي وقت قصير. وهناك مجموعة من الوثائق البردية تشير بوضوح إلى أحد هؤلاء «الحيتان» واسمه لوكيوس بللينوس جميللوس، الذى إستوطن الفيوم بعد أن سرح من الخدمة عام ٨٠ ميلادية، وعاش فيها ثلاثين عاماً، وبعد وفاته وهو فى سن السابعة والسبعين أو يزيد، ترك ضياعاً عديدة في قرى متفرقة منها قريتي بوهميريا (قصر البنات) وديونيسياس. وكان له وكلاء يساعدونه فى إدارة هذه الضياع، غير أنه كان يتدخل في كل كبيرة وصغيرة. ففى أحد مواسم الحصاد إستأجر سبعة وعشرين عاملاً زراعياً من أجل جمع محصول واحدة من ضياعه فقط. كما كان يمتلك معصرة زيوت. وكانت له علاقات إجتماعية قوية مع رجال السلطة، إذ لم ينس أن يبعث بالهدايا إلي حاكم الأقليم كلما حل عيد إيزيس. وفى عيد الساتورناليا(٢٢) أمر بذبح عشر دجاجات لتقدم فى وليمة هذا العيد، وفى عيد أخر ذبح عجلاً. أما أسرتة فكانت زوجة وابنة وثلاثة إبناء(٢٣) وهذا نموذج لأحدى الأسر الأرستقراطية فى الريف المصرى فى عصر الرومان.

أما بخصوص الجندى المسرح جايوس يوليوس نيجر صاحب البلاغ السابق فقد كان يبلغ السابعة والأربعين عندما سرح من الخدمة العسكرية عام ١٥٤ م، وأقام في كرانيس. وفيها اشترى بيتاً دفع فيه ثمانمائه دراخما وهو مبلغ كبير بالنسبة لأسعار ذلك العصر مما يدل على أنه كان بيتاً فاخراً واسعاً، وعاش فيه نيجر حتى بلغ الواحدة والثمانين. ولدهشتنا أنه نجا من وباء الطاعون الذى عصف بالسكان خلال السبعينيات من القرن الثاني الميلادى. وخلال حياته كون جايوس جميللوس نيجر لنفسه ثروة كبيرة ومساحات شاسعة من الحقول موزعة

على عدد من القرى المحيطة بكرانيس . وعند موته ورثه ولداه، مات أحدهما دون أن ينجب ، ومات الأخر قبل أن يتزوج ، وبالتالى إنتقلت هذه الثروة الطائلة إلى إرملة إبنة الأكبر .(٢٤)

ثانياً :ـ طبقة مواطنى المدن الأغريقية الخالصة :

عندما إستولى الرومان على مصر ، وجدوا فيها ثلاثة مدن إغريقية تمتعت بالأستقلال الذاتى والحكم المحلى وبعض الأمتيازات المحدودة، وهذه المدن طبقاً لأقدميتها هى :

(أ) نقراطيس (كوم جعيف ـ مركز إيتاى البارود ـ محافظة البحيرة) وتقع فى غرب الدلتا بين الصحراء والوادى وبالقرب من فرع النيل الكانوبى ، وكان فراعنة الأسرة السادسة والعشرين قد خصصوها للتجار والبحارة والجنود المرتزقة الأغريق ، خاصة إغريق أسيا الصغرى ـ إعترافاً بالخدمات التى أدوها لفراعنة هذه الأسرة فى تحديث مصر(٢٥).

(ب) الأسكندرية : مقر حكم الأسرة المقدونية البطلمية التى حكمت مصر عقب موت الأسكندر الذى وضع أساسها فى شهر طوبة (يناير) عام ٣٣١ ق م ، وقد نمت هذه المدينة خلال حكم هذه الأسرة حتى أصبحت مدينة المدائن ، وعروس البحر المتوسط وأكبر موانية ونقطة العبور والتجارة بين الشرق والغرب

(جـ) بطلمية (المنشاة ـ مركز البلينا ـ محافظة سوهاج) وقد بناها بطليموس الأول الملقب بأسم سوتر ـ أى المنقذ ـ قبالة مدينة أبيدوس ـ المزار الدينى المصرى حيث يوجد معبد سيتى الأول وتقع على بعد ١٢٠ كيلو متر إلى الشمال من طيبة (الأقصر) عاصمة الفراعنة الدينية ، وقد سماها مؤسسها على إسمه فعرفت بأسم بطلمية Ptolemaiis Hermiou وقد أضاف الرومان مدينة اغريقية رابعة اثناء زيارة الأمبراطور هادريانوس الشهيرة إلى مصر عام ١٣٠م واسماها انطينوبوليس(٢٦) Antinoupolis (الشيخ عبادة محافظة المنيا) تخليداً لذكرى ساقية الفتى أنطينووس الذى مات غريقاً فى النيل اثناء رحلة الأمبراطور هادريانوس النيلية ، وهى تقع فى مصر الوسطى قبالة المدينة المصرية الشهيرة هرموبوليس ماجنا (الأشمونين مركز ملوى محافظة أسيوط) . ولقد حرص هادريانوس على

منح هذه المدينة كافة المزايا التي تتمتع بها سائر المدن الأغريقية العريقة بالأضافة إلى بعض مزايا البلديات الرومانية municipia ، فقد منح مواطنيها حق تنظيم انفسهم في هيئة مغلقة عليهم وتحت تأثير هذه المزايا هاجر اليها عدد كبير من مواطني بطلمية والمدن الأغريقية الأخرى ، وربما اختيروا إختيار دقيقاً ، كما اختير لها دستور مدينة نقراطيس العتيق مع التجاوز عن شرط الا يكون المهاجر متزوجاً من مصرية وهذا يدل على أن سلالة الأغريق لم تعد نقية خالصة بل اختلطت بالدماء المصرية .

وعلى راس هذه المدن بالطبع تربعت الأسكندرية كعاصمة لمصر خلال عصري البطالمة والرومان ، وقد ساعد موقعها كملتقى لطرق التجارة وتيارات الثقافة بين عالم البحر المتوسط وبلاد الشرق وافريقيا ، ولهذا فقد كانت مدينة عالمية يتردد عليها العرب والأفارقة ، والهنود والفينيقيون ، وغيرهم من القوميات والأجناس ، ومن ثم شغلت امورها حيزاً كبيراً فى كتابات الأغريق والرومان . وبالرغم من ذلك لم يتبق لنا الكثير من آثار هذه المدينة العامرة غير بعض النقوش وشواهد القبور ، وذلك لأن مناخها الرطب الممطر شتاءً بغزارة لم يساعد على بقاء اوراق البردى ، وأما الأثار فقد نجا القليل منها من فعل الدمار على يد الأنسان ، والتآكل بفعل عوامل التعرية والزمن . فعندما شرع فى بناء الأسكندرية الحديثة فى عصر محمد على باشا[٢٧] واسماعيل لم يكن هناك بد ـ نظراً لأن مكانها محدود ومحصور بين بحيرة مريوط والبحر المتوسط ـ من البناء فوق المدينة القديمة ، ولا تزال عمليات البناء مستمرة فوق المواقع القديمة مما عطل عمليات التنقيب العلمى المنظم . ومن المصادر المكتوبة نعرف وصفاً لفنارها الشهير الذى كان ارتفاعة يقارب ارتفاع الهرم الأكبر ، ولذلك أعتبر أحد عجائب الدنيا السبع فى العالم القديم .كما نعرف القليل عن مينائيها على البحر المتوسط : الميناء الشرقى والميناء الغربى ، وميناءها النيلى على بحيرة مريوط . وبفضل اعمال التنقيب التى قام بها محمود باشا الفلكى فى نهاية القرن التاسع عشر إتضحت لنا ملامحها القديمة ، فقد اكتشف هذا العالم والأثرى أنه كان بها أحد عشرة شارعاً تتقاطع رأسياً ، اذ كان هناك سبعة شوارع عرضية اوسطها هو الشارع

الكبير المسمى شارع كانوب وكان عرضه ثلاثين متراً واربعة
راسيه يتراوح عرضها ما بين سته إلى سبعة أمتار أهمها شارع
(النبى دانيال حالياً) . وكانت هذه الشوارع مبلطة بقطع من البازلت
الصوان الأسود أو الرمادي[٢٨] . وكان لها أسوار تحيط بها
ببوابه الشرق وتعرف بباب الشمس ، واخرى فى الغرب تعرف بباب
وطبقاً لما كتبه ديودوروس الصقلى ، بلغ عدد سكانها ٣٠٠,٠٠٠
حراً ، وهذا يعني أن عدد قاطنيها جاوز أو قارب نصف المليون نسمة
مطلع القرن الأول الميلادى .

اما معلوماتنا عن نقراطيس وبطلمية فى عصر الأمبراطورية
الرومانية فهى قليلة وتكاد أن تكون معدومة بعكس الحال فى
انطينوبوليس التى بفضل اكتشافات أوراق البردى خلال القرن المنصرم
أمكن لنا الحصول على كنز من المعلومات خاصة حول مؤسسات المدينة
التنظيمية ، والأدارية وأسماء شوارعها ، وأحيائها ، ومرافقها ، وحقوق
مواطنيها ، وحيازاتها الزراعية ، مما ألقى الضوء عليها وعلى المدن
الثلاث الأخرى لأنها رغم تباعدها في المواقع إلا أنها كانت تتشابه فى
التنظيم والمؤسسات .

فمن أهم السمات المشتركة بين هذه المدن الأربع هو تقسيم مواطنيها
الى قبائل (phylai) وأحياء (demes) على طريقة المدن الأغريقية الكلاسيكية
فى بلاد اليونان ، فقد حافظت عليه كميراث من العصر الكلاسيكى . ومن
أهم السمات المشتركة أيضا وجود مؤسسة الجمنازيوم التى كانت تقوم
بدور ملعب الرياضة ، والنادى الأجتماعى ، والمعهد التعليمى والمعبد فى
وقت واحد ، وكان رمزاً من رموز المدينة اليونانية تمسكت به كل مدينة
بحرص شديد ، وكان أعيانها يتناوبون على رئاسته ، وكان رئيس
الجمنازيوم يحظي بأحترام وتبجيل ، فقد كان ينفق عليه من أمواله
الخاصة لشراء الزيوت لزوم تدليك أجسام الرياضيين ولزوم إضاءة
المسارح ليلا ، وكذلك لشراء الوقود لزوم تشغيل تنور الحمام . كما تناوبوا
على وظيفة الكوسميت Kosmetes وهو المعلم الذى يشرف على تدريب
الفتيان أعضاء الشبيبة Ephebes كما كانوا يسمون فى ذلك الوقت . كما أن
كل مدينة كان بها مسرح مدرج amphitheater تقام فيه المباريات الرياضة

للألعاب المحببة إلى نفوس الناس مثل المصارعة والملاكمة وسباق الجرى . فقد انتشرت ملاعب الرياضة ذات شكل حدوة الحصان ، وذات المدرجات والممرات ، فى كافة عواصم بلدان شرق البحر المتوسط ابان عصر الأمبراطورية الرومانية ، كما اهتمت كل مدينة بالسوق العامة agora حيث مركز الحياة الاجتماعية والتجارية والثقافية ، بل أن بعض العواصم كان بها ساحتان واحدة للسوق والأخري للأغراض الثقافية والأجتماعية والسياسية . أما عن الألعاب الرياضة التقليدية الكبرى فقد أصبح لها لاعبون محترفون ذوى سمعة وشهرة وتقدير ، لأن الفرد العادى شغلته دوامة الحياة عن ممارسة الألعاب الرياضة التى تحتاج إلى اعداد وتمرين يومي وتحول على طريقة الرومان إلى الجلوس فى صفوف المشجعين والمتفرجين على نحو مانراه بالنسبة لكرة القدم فى العصر الحديث .

ومن أهم مؤسسات المدينة اليونانية ، أيضا مجلس الشورى Boule الذى ينتخبه شعب المدينة سنويا ، فقد كان يمثل كبرياءها وإستقلالها الذاتي . ولقد حرمت مدينة الأسكندرية على مدى قرنين من التمتع بمجلس الشوري ، وهى سياسة ذات مغزى إستنها اكتاڤيوس أغسطس وسار على نهجها الأباطرة . وقبل أن اكتاڤيوس قصد أن يكون ذلك جزءاً وفاقا للسكندريين لمقاومتهم أولا لأبيه بالتبني يوليوس قيصر ، ثم لوقوفهم إلى جانب كليوباترا ضده ، غير أن هناك سببا ثالثا لم يفصح الزعيم الرومانى عنه ، وهو الخوف من أن يتحول مجلس الشورى إلى بؤرة للأفصاح عن المشاعر الوطنية الدفينة والتى قد تطالب بطرد الرومان . ولقد ظل هذا الحرمان سارى المفعول حتى عام ٢٠٠ م عندما أصدر الأمبراطور سبتميوس سيڤيروس قراره الشهير بمنح كافة عواصم الأقاليم بما فى ذلك الأسكندرية حق تأسيس مجالس شورى . وبالطبع لم يبتهج السكندريون لهذا القرار الذى ساواهم بكافة مدن الأقاليم الذين كانوا ينظرون إليها على أنها أدنى منهم فى المرتبة الأجتماعية ، لأن مجالس الشورى كانت قد فقدت بريقها ، وأصبحت مطية لتنفيذ سياسة الرومان ، وتتولي جمع الضرائب والمكوس لهم . أما بالنسبة لكل من نقراطيس وبطلمية فيبدو أن اكتاڤيوس سمح لهما بالأحتفاظ بمجالس الشورى الخاصة بهما أما

انطينوبوليس التى بنيت بعد قرن من دخول اكتافيوس مصر ، يقين من وجود مجلس شورى بها كاحد قرارات تاسيسها .

اما عن المزايا الأقتصادية لمواطنى هذه المدن الأربعة كثيرة ، فالبرغم من أن الفرص التجارية كانت متاحة فى لمواطنيها وقاطنيها على السواء ، إلا أن مواطنى الاسكندرية - الرومان - كانوا معفون من دفع ضريبة الرأس ، والتى كانت السكان وزراً ماليا ورمزاً للخضوع والخنوع ، بالاضافة إلى ذلك ، حظر الرومان على المصريين أبان القرن الأول من الحكم الرومانى فى المزادات التى كانت الدولة تقيمها لبيع بعض الأراضى العامة ، شراء هذه الأراضى قاصراً على مواطنى المدن الأغريقية الخالصة . ثم ففى خلال عصور الحكم الرومانى إمتلك كثير من مواطنى الاسكندرية وانطينوبوليس (وربما نقراطيس وبطلمية بالمثل) قطعا من الأراضى الزراعية ، بعضها كان ضياعاً شاسعة فى مختلف أنحاء الوادى ، مسافات بعيدة عن أماكن أقامتهم . وبالطبع كانت الأراضى الواقعة حول كردون الأسكندرية معفاة من دفع الضرائب . كما أن السكندريين أينما كانوا يذهبون كانوا هم وأسرهم معفون من اداء الخدمات الألزامية بكافة أنواعها ، والتى كانت تكلف من تفرض عليه الكثير من الجهد والمال والوقت ، فى حين أن سكان الأقاليم كانوا ملزمين بالقيام بها . بالأضافة إلى ذلك فقد كان لمواطنى هذه المدن الأغريقية الاربع . حق الألتحاق بالفرق الرومانية Legiones ويحصلون بمجرد تسجيل أسمائهم - على حقوق المواطنة ، فى حين كان على سائر سكان الأقاليم فى الوادى أن يخدموا فى القوات المساعدة خمسة وعشرين عاماً لكى يحصلوا على حقوق المواطنة . وأخيرا يجب أن يكون فى الحسبان أنه لم يكن كل سكان هذه المدن الأربع مواطنين فيها ، يحق لهم التمتع بالمزايا السابقة ، لأنها كانت تموج بغير المواطنين الذين كانوا يعرفون بأسم القاطنين ، وهؤلاء يمثلون الغرباء من أصحاب المصالح ورجال الأعمال على المستويين المحلى والأجنبى ، كما أن هذه المدن الأربع كانت مليئه بالرقيق ورجال الطبقة الدنيا ، وفى قاع المجتمع يأتى المصريون الذين كانوا يمثلون الطبقة العاملة التى تكدح لتوفر الغذاء والخدمات لطبقة مواطنى هذه المدن المرفهة .

ثالثا اليهـود :

ومن بين سكان المدن- وعلى الأخص مدينة الأسكندرية- يأتى اليهود ، وفى الحقيقة لانسمع عن اليهود منذ هجرتهم الجماعية من مصر بزعامة موسى فى عهد رمسيس الثانى (١٣٠٤- ١٢٣٧ قدم) أو عهد ابنه وخليفته مرنبتاح ١٢٣٦- ١٢٢٣ ق.م)(٢٩) إلا بعد احتلال الفرس لمصر عام ٥٢٥ ق.م ، عندما عادوا إليها فى ركاب جيوشهم ، وربما تطوعوا فيها كجنود مرتزقة ، لأننا نسمع عن حامية يهودية عسكرت فى جزيرة فيلة (أنس الوجود) عند الشلال الأول لحراسة الحدود الجنوبية لمصر من غارات الكوشيين ولقد وضحت الصورة عن هذه الحامية العسكرية بفضل العثور على مئات البرديات والعديد من قطع الأوستراكا المدونة باللغة الآرامية(٣٠) والتى ترجع إلى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد وتشمل موضوعات متنوعة مثل عقود الزواج والطلاق ، شراء وعتق الرقيق ، إمداد الحامية بالمؤن الغذائية وغيرها من شئون حياتهم اليومية مثل : الشكاوى والقضايا ذات الموضوعات المختلفة ، ونقل ملكية العقارات بين اليهود هناك سواء عن طريق البيع أو الهبة ، وعمليات إقراض مالى بفائدة باهظة تصل إلى ٦٠٪ سنوياً مالاً أو عينا (بعضها ضعف القدر إذا كان القرض لمدة عشرين يوماً(٣١)) ، كما كان لهم معبدهم الخاص بعبادة ربهم يهوة فى جزيرة الفانتين والذى أعيد بناؤه بعد تهدمه أو هدمه(٣٢) كما نعرف أنهم عبدوا الهه(٣٣) وثنية أخرى كنوع من الأمتزاج والتعايش ، أو كبداية لاتباع سياسة التحرز الدينى التى اتبعها فريق من اليهود والتى وصلت إلى ذروتها فى العصرين الهللينستى والرومانى .

وخلال حكم البطالمة انتشر اليهود فى شكل جاليات فى كل أنحاء مصر(٣٤) ، وسمح لهم ملوك البطالمة أن يمارسوا حياتهم طبقا لتقاليدهم وشريعتهم التوحيدية ، وبناء معابدهم فى الاسكندرية وغيرها من عواصم الأقاليم . وبالرغم من تمسكهم بمبادىء وشعائر دينهم ، لم يمانع بعضهم ممن يقيمون فى المراكز الحضارية كالاسكندرية وغيرها من أن ينخرطوا فى الحياة الثقافية الوثنية الأغريقية ، بل ووقعوا تحت تأثيرها . فقد ترجمت أسفار التوراه الخمسة الأولى (التكوين ، الخروج ، اللاويين ،

العدد ، التثنية) إلى اليونانية العامة فى القرن الثالث ق.م فى الأسكندرية لكي يقرأها اليهود الذين لا يعرفون الأرامية أو العبرية القديمة . وفى القرن الأول الميلادي نجد فيلون وهو مثقف يهودي من أثرياء الأسكندرية يدرس بتعمق الفلسفة اليونانية تاركاً وراءه مؤلفات ضخمة كتبها باليونانية لا تزال نقرأها حتي الآن ، وفيها شرح بأستفاضة ما ورد فى التوراة ليقرأها غير اليهود مستخدماً المنطق والمصطلحات اليونانية . ويدعى فيلون فى احدى مؤلفاته أنه كان يعيش فى الاسكندرية على أيامه نحو مليون يهودي . ولا شك إن هذا الرقم مبالغ فيه أو من باب التهويل البلاغى الرمزى ، وذلك لأن عدد سكان الأسكندرية بكل طوائفها لم يتجاوز نصف المليون(٣٥) ومن المعروف أن الأسكندرية كانت مقسمة إلى خمسة أحياء كان اليهود يسكنون الحى الرابع (حى الدلتا) . ونظراً لانغلاقهم على أنفسهم وتعاملهم بالربا الفاحش ، وتدخلهم فى صراعات البيت الحاكم البطلمي ، فقد بدأ السكندريون يضيقون ذرعاً باليهود ، خاصة بعد تواطىء حاميتهم عند بيلوزيون لمرور قوات جابينيوس التى إعادت الزمار بالقوة إلى عرش مصر رغم أنف السكندريين ، كما أن أشتراكهم إلى جانب يوليوس قيصر فى حرب الاسكندرية والتى بدونها لهزم قيصر فى حرب الأسكندرية ، تركت ذكرى مريرة فى نفوس السكندريين . ولقد وقف اليهود وقفه معادية من الملكة كليوباترا ، ونظروا بعين الشك إلى مشروعاتها فى السيطرة على فلسطين ، كما أن الملكة بادلت ملكهم هيرودس نفس مشاعر الكراهية(٣٦) ولهذا وقفوا إلى جانب اكتافيوس وقدموا له المساعدات عند دخولة مصر.

ولقد كان من الطبيعى أن يرد أكتافيوس الجميل لليهود بعد دخوله الأسكندرية ، فقد أكد لهم بقاء الحقوق التى حصلوا عليها فى عهد البطالمة وعهد يوليوس قيصر ، والتى شملت حقهم فى تأسيس مجلس ملى او طائفى بزعامة شيوخ اليهود gerousia ويترأسة رئيس الطائفة Ethnarchos ، وربما فعل ذلك من أجل خلق قوة من أصدقاء الرومان لتراقب مسلك السكندريين ، الذين كان الرومان ينظرون إليهم بعين الشك . ولقد استغل اليهود علاقتهم الطيبة مع الرومان للحصول على المزيد من الأمتيازات لكى يصبحوا متساويين فى الحقوق مع السكندريين ، فقد سعوا

للألتحاق بالجمنازيون ، كل هذا أدى إلى رد فعل معاد للجالية اليهودية ، خاصة أن عقدة كراهية الأجانب Xenophoebia لدى المصريين عامة والسكندريين خاصة كانت عاملاً مساعداً فى تغذية هذا العداء الطائفى ، بالاضافة إلى أن السكندريين كانوا يرون فى الانتقام من اليهود انتقاما من الرومان .

ولقد إنفجرت أعمال العداء ضد اليهود فجأة عام ٣٨ م[٣٧] والتى بدأت فى شكل فتنة (stasis) ثم تحولت إلى أحداث عنف شديدة tarachos شملت القتل والنهب وحرق المنازل والحوانيت ، وتلى ذلك إرسال الوفود من جانب الأطراف المتنازعة لعرض قضيتهم أمام الأمبراطور جايوس كاليجولا في روما ، وقد نجح السكندريون فى الوقيعة بين هذا الأمبراطور الذي إعتقد أنه رب يجب أن يعبد فوق كل آلهة رعايا الأمبراطورية ، وبين اليهود الرافضين لعبادة بشر ، أو أى رب آخر غير ربهم يهوة . وعندما تولى الأمبراطور كلاوديوس العرش فى يناير عام ٤١ م ، مثل أمامه وفود الطائفتين المتنازعتين . ولقد حفظت لنا وثيقة بردية عثر عليها عام ١٩٢١ فى فيلادلفيا (خرابة جرزة شرق الفيوم) لاتزال محفوظة حتى الآن فى المتحف البريطانى[٤٨] ، وهى عبارة عن خطاب شديد اللهجة بعث به الأمبراطور إلى الطرفين المتنازعين يأمرهم فيه بضبط النفس ومحذرا إياهم من عواقب تعكير صفو السلام الرومانى . وفى رسالة شخصية بعث بها رجل سكندرى إسمة سارابيون إلى صديقة ويدعى هيراقليديس ومؤرخة فى الحادى عشر من شهر قيصاريوس Caesareus (١١ من شهر مسرى الموافق الرابع من أغسطس) من العام الأول لتولى كلاوديوس العرش (عام ٤١ م) أى قبل وصول رسالة كلاوديوس إلى السكندريين بنحو ثلاثة شهور وثلاثة أيام (رسالة كلاوديوس نشرت على الناس فى مصر فى ١٤ هاتور الموافق ١٠ نوفمبر) يحذره فيها من الأقتراض من اليهود وورد فيها ما يلى :

« لقد بعت لك أدواتى مقابل تالنت ، ليس كثيراً . لا أدرى ماذا سيفعل بى رئيسى فلدينا كثير من الدائنين أرجوك لا تحطمنا . استعطفه كل يوم عسى أن يلين لك فاذا فشلت فكن ايضا حذراً مثل الجميع من اليهود . بصبرك عليه قد تستطيع مصادقته[٤٩] ... »

غير أن محاباة الرومان لليهود ذهبت أدراج الرياح عندما عاقبهم الرومان على ثوراتهم عليهم فى القرنين الأول والثانى . وخلال ثورة اليهود الأولى عام (٦٩ - ٧٠م) والتى أنتهت بتدمير هيكل سليمان على يد تيتوس ، ظل فريق من اليهود على ولائهم للرومان ، فعندما حاول بعض الفارين من الثوار اليهود إحداث أعمال شغب في الاسكندرية بعد سقوط أورشليم تصدى لهم يهود الاسكندرية والقوا القبض عليهم ، ورد الرومان على ذلك بتدمير معبد أونياس (هونياس فى تل المقدام مركز ميت غمر) ، ونهبت أمواله ونفائسه خوفا من أن يتحول إلى مركز للمقاومة اليهودية بدلاً من هيكل سليمان في أورشليم ، وكان اليهود قديما يفرضون ضريبة سنوية على كل بالغ راشد منهم قدرها نصف شيقل أو ما يعادل دراخمتين (الشيقل يساوى أربعة دراخمات) من أجل إدارة وتسير شئون معبد أورشليم ، فرفعها الرومان إلى شيقلين (ثمانية دراخمات) وفرضوها على كل افراد الأسرة اليهودية بما فى ذلك خدمهم وعبيدهم بدءاً من سن الثالثة ، وخصصوها لأعادة بناء معبد جوبتر الكابيتولينى - رب الرومان الأكبر - بعد أن أحرق الثوار اليهود هذا المعبد أثناء الثورة ، ثم تحولت هذه العقوبة إلى ضريبة ثابتة على اليهود ظلت تجبى منهم حتى القرن الثانى الميلادى ، وحتى بعد الأنتهاء من إعادة بناء معبد جوبتر بأكثر من قرن ، وأصبحت ضريبة ثابتة تعرف بضريبة اليهود ، فيما عدا ذلك لم يتعرض الرومان من قريب أو بعيد لحقهم فى ممارسة حياتهم طبقا لسنة ابائهم الأولين[٤٠] . وكان هذا بداية انتهاء مرحلة الوئام والصداقة بين اليهود والأمبراطورية الرومانية وبداية لمرحلة اتباع سياسة عنيفة نحوهم .

أما عن ثورة اليهود الثانية فلم تندلع هذه المرة من فلسطين ، إنما إندلعت من الاسكندرية ، وإمتد لهيبها إلى فلسطين بعكس الحال فى الثورة الأولى ، كان من أسبابها إستمرار حاله العداء والتوتر والأحتكاك بين اليهود والسكندريين ، أو لعل اليهود استغلوا سحب الرومان لبعض وحدات قواتهم من الأسكندرية للاشتراك فى حملة الأمبراطور ترايانوس على مملكة البارثيين للثأر منهم فقد إندلعت ثورة اليهود الثانية عام ١١٥ م من الأسكندرية إلى سائر انحاء مصر[٤١] ثم إلى برقة حيث كانت تقيم جالية

يهودية كبيرة ، وسرعان ما إمتد لهيبها إلى قبرص وفلسطين وبلاد الهلال الخصيب ، وقد قامت القوات الرومانية في مصر بالتعاون مع المصريين في قمع هذه الثورة ، وظهرت عملة تذكارية في الأسكندرية احتفاء بأنتصار ترايانوس عثرنا على احداها خلال التنقيب في كرانيس. وتتحدث وثائق البردى عن الخراب الذى حاق بالريف المصرى من جراء هذه الثورة في منف ، وأثريبس (تل أتريب قرب بنها)، وحول بيلوزيون (الفرما شمال شرق الدلتا) وفى أرسينوي (الفيوم) وحول هيراقليوبوليس (إهناسياالخضراء قرب بنى سويف) وفى كينوبوليس (الشيخ فضل) كما ، عانت اوكسيرينخوس أيضا من جراء هذه الثورة ، وكذلك هرموبوليس (الأشمونين- مركز ملوى- محافظة أسيوط) ولقد تركت أعمال التخريب بصماتها على الحياة الاجتماعية والأقتصادية فى الريف المصرى ، إذ تسببت في ندرة الأيدى العاملة ، وإرتفعت الأجور وأسعار السلع ، ودفع الضيق الأقتصادى العمال إلى التظاهر من أجل رفع الأجور وهو أمر نادر الحدوث في مصر زمن الرومان ، يعبر عن ذلك رسالة مؤثرة بعثت بها أمراة مقيمة في أوكسيرينخوس اسمها يودايمونيس إلى ابنتها الينى المقيمة فى إدفو ومؤرخة فى ٢٢ أبيب (الموافق ١٦ يوليو من عام ١١٧ ؟) وفيها تشتكي الأم لأبنتها عن معاناتها فى البحث عن عاملات يساعدنها في إدارة شئونها ، وتعبر عن قلقها على مصير إبنها الغائب الذى ربما كان يقاتل اليهود مع الرومان ، ولقد ترجم استاذنا د . عبد اللطيف أحمد على هذه الرسالة وننقل الترجمة عنه حرفيا[٤٢] وتقول الرسالة : من يودايمونيس إلى ابنتها الينى تحية . إنى ادعو قبل كل شيء ان تكونى قد وضعت حملك فى موعدك . وأرجو أن اتلقى خبراً بانه ولد . فبعد سفرك إلى الجنوب [تقصد ابوللوبونوبوليس إدفو] يوم ٢٩ إنتهيت من نسج الصوف فى اليوم التالى . ولم اتسلم [الثوب] من عند الصباغ إلا بصعوبة فى يوم ١٠ ابيب اننى أعمل مع امائك بقدر المستطاع ، ولا أجد خادمات إماء يستطعن مساعدتنا فى العمل لأنهن جميعا يعملن لدى سيداتهن . لقد طاف رجالنا طرقات المدينة كلها مطالبين بزيادة الأجور . اختك سويروس وضعت ، وتيوس كتبت الىّ تشكركم . وهكذا علمت - ياقرة عينى ، ان تعليماتى ما تزال نافذة . فقد تركت جميع اهلها ورحلت معك . [إبنتك] الصغيرة تبعث إليك بتحياتها وهى مثابرة فى دروسها ، اعلمى أننى لن اهتم بأى رب مالم استرد (؟) ابنى اولاً . لماذا ارسلت لى العشرين دراخما (؟). هل لأننى أمر

بوقت عصيب؟ إنه ليتمثل امام عيني من الآن أنني سانتظر الشتاء عارية (اى مفلسة) والسلام ٢٢ ابيب.

«زوجة يودايموس معي لاتفارقني واني لشاكرة لها.»

وهناك مثال أخر لما أصاب ممتلكات الناس من خراب نتيجة لحرب العصابات بسبب ذلك القتال الطائفي ،فقد تقدم مدير إقليم القرى السبعة (هبنا كوميا - كوم اسفحت - مركز صدفا محافظة أسيوط) وأسمه ابوللونيوس إلى والي مصر راميوس مارتياليس يطلب استعجال الموافقة على طلب سبق أن تقدم به للحصول على أجازة لمدة ستين يوما ليعيد خلالها تنظيم شئونه والطلب مؤرخ فى الثاني من شهر كيهك الموافق الثامن والعشرين من شهر نوفمبر عام ١١٧ م ، وقد وردت فيه الفقرة التالية التي يبرر فيها طلب الأجازة :

«لأن شئوني لم يحق بها الأهمال بسبب غيابي الطويل فحسب ، بل ايضا بسبب هجوم اليهود - عديمي الذمة ، فكل شيء امتلكه في قرى اقليم هرموبوليس (الأشمونين) وكذلك مصالحي في عاصمة الأقليم تتطلب قيامي باصلاحها ، فاذا ما وافقتم على طلبي، فسوف استطيع - بعد ترتيب شؤني بقدر ما استطيع القيام باداء مهام وظيفتي بهمة افضل(٤٣).

لقد تركت أعمال العنف ذكرى مريرة في نفوس الناس ، كما أن قمع وتاديب اليهود ظل عالقا في اذهانهم ، فبعد قرن كامل تقريبا من حدوث هذه الكارثة ، ظل أهل مدينة اكسيرينخوس يتذكرون مناسبة قمع اليهود ، ففي فقرة من رسالة تأييد وموازرة للرومان (ربما من أثرياء المدينة وهم الحزب المؤيد للرومان) وردت العبارة التالية : الرضا والأخلاص والصداقة للرومان اظهرها شعبنا وهو يحارب جنبا إلى جنب معهم في الحرب ضد اليهود. وحتى يومنا هذا نظل نحتفل كل عام بيوم الأنتصار.(٤٤)

هكذا قمعت ثورة اليهود في مصر ، أما في باقي أنحاء الشرق الأدنى ، فقد ظلت مستعرة حتى قضى عليها هادريانوس بعد عدة سنوات من توليه ، غير ان الثورة عادت إلى الأندلاع مرة ثالثة بعد سبعة عشر عاماً بشكل اكثر شراسة ، وفي هذه المرة اندلعت من فلسطين عندما ظهر كاهن يهودي اسمه باركوخبا (اى ابن النجمة وربما يقصد نجمة داوود) مدعيا أنه المسيح المخلص الذى ينتظر اليهود قدومه ليؤسس لهم دولة الأحلام ،ولقد استغل باركوخبا مشروعات هادريانوس لبناء مدينة

رومانية فوق أطلال أورشليم والتى كان تيتوس قد دمرها عام ٧٠م ، ويسميها على اسمه ايليا كابيتولينا ، وأن يتوسطها معبد لجوبيتر الرب الأكبر عند الرومان يقام مكان هيكل سليمان . كما استغل بار كوخبا قرار هادريانوس بحظر عملية الختان بالنسبة لليهود (رغم انها استمرت بالنسبة للكهنة المصريين بعد استئذان السلطات)(٤٥) لأنه رأى فى ممارستها عملية بربرية غير إنسانية ، دون أن يدرى انها أمر مقدس بالنسبة للشريعة اليهودية ، وقد استمرت هذه الثورة عامين ١٣٤-١٣٥م ، وسحق الرومان فيها اليهود بلا رحمة حتى كاد عددهم أن ينقرض من فلسطين ، إذ إتجهوا إلى الشتات (الدياسبورا) وأغلبهم اتجه إلى جنوب الجزيرة العربية ومدن الحجاز ، وسيطر الرومان تماما على أورشليم ، ولم يعد اليهود يشكلون أي خطورة على الرومان ، أما ما تبقى من اليهود في مصر فقد تعلموا درسا قاسيا ، ولذلك لم يعيروا نبوءات إبن النجمة أى إهتمام ، وقد كان لتقليص إعدادهم تأثير على التجارة الخارجية لمصر ، والتي كانوا يديرونها بمهارة ، مما أدى إلى بداية ظهور المصاعب الاقتصادية خاصة فى مدينة الاسكندرية لأنهم نقلوا معهم ثرواتهم الباهظة إلى حيث ذهبوا .

رابعاً : المصريون :

وفيما عدا المواطنون الرومان والحاصلون على حقوق المواطنة بالأكتساب ، ومواطنو الحواضر الأغريقية الخالصة واليهود ، أطلق الرومان على البقية الباقية من سكان الوادى مصطلح « مصريين » بالرغم من إدعاء شطر من سكان عواصم الأقاليم المصرية انهم ينتمون إلى سلالة الجنود الأغريق الذين وطنهم البطالمة فى اجزاء متفرقة من البلاد لأسباب اقتصادية وحضارية ، وبمرور القرون انقطع « حبل السرة » الذى كان يربط هذه العناصر المستوطنة بأوطانها الأصلية فى عالم البحر المتوسط ، كما أن اغلب الجنود جاءوا بلا زوجات او اسر ، كما أن احضار الزوجات من العالم الهللينستي كان باهظا ومكلفاً ، فكان من الطبيعي أن يتخذوا زوجات مصريات ، وبمرور الزمن اختلطت هذه العناصر القادمة من بلاد اليونان العالم الهللينستى بالعناصر الوطنية المصرية ، غير أن الرومان لم يعترفوا بأن هذه العناصر « المهجنة » تنتمي إلى طبقة الأغريق المميزة

كما في حال المدن الاربع السابقة الذكر ، بل أدرجوهم تحت «المصريين» ، ومن ثم فرضت عليهم ضريبة الرأس laographia متفاوته ، ولقد كتب المؤرخ تيتوس ليفيوس في عصر أغسطس على مصير المقدونيين في الاسكندرية الذي انحدر مستواهم إلى المصريين(٤٦).

وعندما تتجمع عناصر وأجناس وأعراف متنوعة ومتباينة في واحد فإن رد الفعل النفسي هو وجود عقدة الخوف من الأجانب Xenophoebia والتي كانت متأصلة في نفوس المصريين منذ عصر انهيار امبراطوريتهم ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أدى ذلك إلى خلق دوائر عنصرية مغلقة تميز بين هذه العناصر والأجناس المختلفة الوافدة. ولم يكن التمييز بين هذه العناصر يقوم على اساس لون البشرة أو ملامح الوجه وغيرها من الصفات الجسمانية الظاهرة كما هو في عالمنا الحديث ، بل كان التمايز يقوم على أساس التفاوت في درجة الأغرقة Hellenism كما هو الحال بالنسبة للحضارة العربية الأسلامية . ولما كان من طبيعة السلوك البشري أن الناس كلما تقابلوا تزاوجوا بصرف النظر عن اجناسهم او لغاتهم فقد نشأت طبقة من أبناء هذا الزواج المختلط تجمع بين الثقافتين المصرية والأغريقية ، ويحملون إسمين في وقت واحد : إسم مصري وآخر اغريقي ، وبالتالي كانت هناك مشكلة نسبهم إلى أى من العنصرين ، ومن ثم وضع الرومان حلا لذلك هو إذا سجل في سجلات المواليد الأسم المصري فأنه يعتبر مصريا ، ولا يحق له تغيير إسمه إلى اسم اغريقي إلا في اضيق الحدود ، وبعد استئذان السلطات المختصة ، والتي تتاكد اولاً من ان تغيير الأسم لن يؤثر على مصلحة الدولة ولا يخرج على النظم التي وضعتها ، فقد تقدم واحد من هؤلاء إلى مراقب الحسابات الخاصة *Idios logos* بطلب مؤرخ في اليوم الرابع من ايام النسىء لعام ١٩٤ م الموافق السابع والعشرين من شهر اغسطس يطلب فيه الأذن بأستبدال اسمه المصري بأسم اغريقي وهذا نصه :

إلى صاحب السعادة مراقب الحسابات الخاصة كلاوديوس ابوللونيوس من يودايمون ابن بسويس و تي- اثريس من (بلدة كذا) في اقليم نيسون [اقليم في شمال شرق الدلتا] ارغب باسيدي في الحصول على الأذن بان يصبح إسمي

من الأن فصاعداً هو يودايمون بن هيرون بدلاً من إبن بسويس، وإبن ديديمى بدلاً من ابن تى - اثريس . ولن يترتب على ذلك اى ضرر سواء بالنسبة للمصلحة العامة او الخاصة حتى احظى بعطفكم . وداعاً .

،انا يودايمون قدمت هذا الألتماس . العام الثانى من حكم الأمبراطور القيصر لوكيوس سبتميوس سيفيروس برتيناكس اغسطس . اليوم الرابع من ايام النسىء لشهر مسرى [التاشيرة بخط مختلف] :

مادام ذلك لن يؤثر على المصلحة العامة او الخاصة اسمح بذلك وينفذ(٤٧) . فلقد كان مراقب الحسابات الخاصة هو الذى ينظر فى تنازع هذه العناصر المختلفة، ويطبق اللوائح والقوانين الموضوعة للتمييز بين الطبقات، بينها، ويوقع الغرامات على من يخرج عنها . فقد نشرت لفافة بردي بعد انتهاء الحرب العالمية بقليل كانت محفوظة بمتحف المصريات ببرلين ووجد بعد نشرها أنها تحتوى على مائه مادة قانونية من قوانين التمايز العنصرى بين السكان، نسب وضعها إلى الامبراطور اكتاقيوس، ثم اضاف إليها الاباطرة الآخرون . ومن تحليلها يتبين لنا انها لأئحة قانونية وضعت لتجميد الأوضاع الأجتماعية في مصر طبقا لسياسة الهندسة الطبقية، وهى فلسفة الحكم التى وضع أساسها اكتاقيوس نفسه، بحيث لاتسمح لأى محاولة للحراك الأجتماعى أو حدوث تيارات حمل اجتماعية من الطبقات الدنيا إلى الطبقات العليا وتطبيقا لمبدأ فتتت ثم إحكم Divide et Impera ، وقد قام بترجمة بعض موادها الأستاذ جون ونتر إلى الانجليزية، ونحن نختار بعضها الذى يتعلق بموضوعنا ونترجمة بدورنا إلى اللغة العربية . وهذه اللائحة عرفت بأسم لأئحة الأديوس لوجوس (وهو المصطلح الوظيفى لمراقب الحسابات الطارئة والخاصة) Gnomon of the Idios logos وهى نص اغريقي نشره فى الأصل عالم البرديات فلهلم شوبارت فى برلين عام ١٩١٩(٤٨) تتبين أن النص الأغريقي كتب حوالى عام ١٥٠م وهو ترجمة اصلى كان مكتوبا باللاتينية واليك ترجمة لبعض مواد هذه اللائحة التى تخص القضية العنصرية فى مصر الرومانية .

(مادة ٨) لو تضمنت وصية الرومانى عبارة ،ليكن ما قضيت به على الألواح الأغريقية ملزما، فلن تقبل مادام محظوراً على الرومانى أن يكتب وصية يونانية .

لائحة اديوس لوجوس وضعت لتجميد الاوضاع الاجتماعية فى مصر طبقا لسياسة الهندسة الطبقية

(مادة ٢٣) ليس مسموحاً للرومان ان يتزوجوا اخواتهم ولا عماتهم، ولكن يسمح لهم فى حالة زواجهم من بنات اخوتهم . وكيفما كان الأمر صادر بارادة الاس الممتلكات عند اقتران الأخوة بالأخوات .

(مادة ٣٤) مسموح للجنود سواء كانوا مشتركين فى حملة فعلية او لا ان يهبوا طبقا لوصايا الرومانية او اليونانية ، وان يستخدموا اللغة التى يريدونها بشرط الايهبوا إلا لشخص من نفس جنسيتهم كما هو مجاز .

(مادة ٣٨) ابناء المراة التى هى من مواطنى الاسكندرية (astn) من رجل مصرى يبقون مصريين لكنهم يرثون من الأبوين .

(مادة ٣٩) إذا تزوج الرجل الرومانى أو المراة الرومانية بدون تبين (الوضع الحقيقى) مواطنة (او مواطن) سكندرية او مصرية يتبع الأبناء الطبقة الأدنى (لأحد الابويين)

(مادة ٤١) لو قام مصرى بانقاذ وليد من كوم النفايات وإتخذه ابنا له يغرم الولد الرابع بعد موت ابيه .

(مادة ٤٢) ويصادر من المصريين الذين - بعد وفاة ابائهم - يجلون اباءهم على انهم رومان مقدار الربع .

(مادة ٤٦) وللرومان ومواطنى الأسكندرية الذين تزوجوا من نساء مصريات (دون تبين وضعهن الحقيقى) حق الأعفاء من المسئولية بالاضافة ايضا إلى ان يتبع الأبناء وضع ابيهم .

(مادة ٥٢) يسمح للرجال الرومان الاقتران بنساء مصريات .

(مادة ٥٣) النساء المصريات المتزوجات من جنود سابقين يدرجن تحت بند سوء التصرف إذا شخصن انفسهم فى صفقات العمل كنساء رومانيات .

(مادة ٥٤) لم يسمح اوروسوس لأبنة جندى سابق اصبحت رومانية ان ترث امها إذا كانت هذه الأخيرة مصرية .

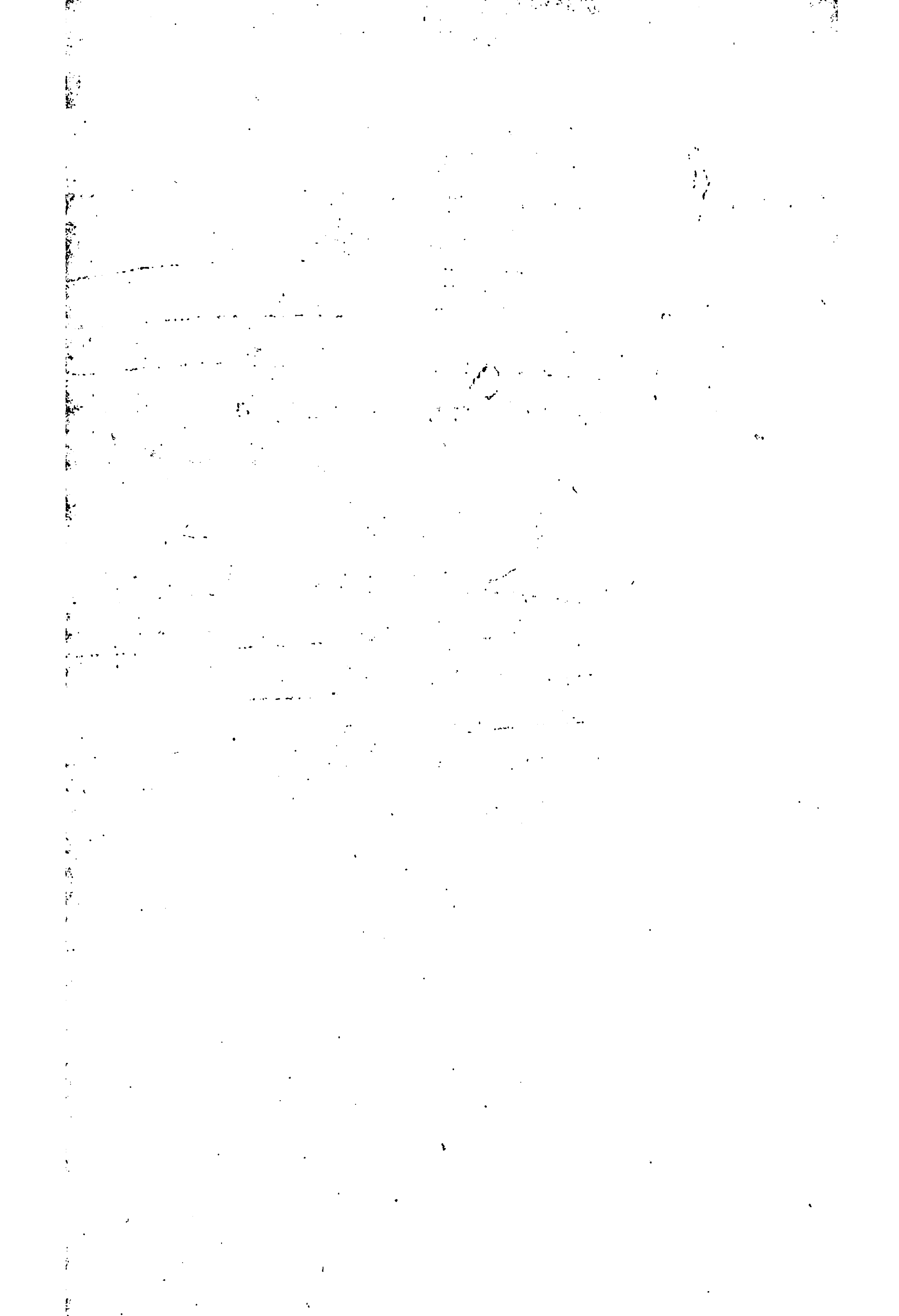
(مادة ٥٥) إذا خدم مصرى فى فرقة (رومانية) دون ان يكتشف امره يعاد إلى وضعه المصرى بعد انقضاء مدة خدمته . وبالمثل ايضا هؤلاء الذين سرحوا من طواقم المجدفين يعودون إلى وضعهم السابق ، ويستثنى من ذلك فقط اولئك الذين سرحوا من الأسطول فى (قاعدة) ميسينوم .

(مادة ٥٦) الذين خدموا فى الجيش واعتبروا انفسهم رومانا دون ان يسرحوا رسمياً يعاقبون (بمصادرة ربع (ممتلكاتهم)[٤٩] .

(مادة ٥٧) الرومان والسكندريون الذين يتخلفون عن تسجيل هؤلاء الذين يتوجب عليهم (تسجيلهم) سواء كانوا فرداً أو جماعة يعاقبون بمصادرة ربع (ممتلكاتهم).

ولقد اختلفت آراء المؤرخين حول الدوافع التي جعلت اكتافيوس اغسطس يضع هذه اللائحة القاسية للتميز والفصل بين العناصر السكانية، وتكليف الأديوس لوجوس بتطبيقها، فبعضهم يرى أنه قصد بذلك معاقبة المصريين لمقاومتهم الرومان، والبعض الآخر يرجع ذلك إلى عقدة الكراهية والخوف من الأجانب التي ظغت على السياسة الرومانية عقب ضم ممالك الشرق الأدنى الهلليذستيه وهذا يظهر جليا من الدعاية الرومانية ضد الملكة كليوباترا(٥٠).

وفى عام ٢١٢م أصدر الأمبراطور كارا كالا قراره الشهير المسمى بالدستور الانطونينيانى الذى منح فيه الجنسبة الرومانية لجميع شعوب الأمبراطورية فيما عدا المستسلمين، غير أنه بفحص الوثائق البردية التى صدرت بعد صدور ذلك القرار ثبت أنه مجرد فرقعة دعائية أو ربما لخدمة قضايا الجنود فقط(٥١) إذ لم تزال المواقع والحوافر بين الشعوب والاجناس وعلى حد المثل + الفرنسى القائل «كلما حدث التغير كلما بقى الوضع على ما هو عليه» plus ca change, plus ca rest la rest chose.



هوامش الفصل الثانى

(١) E. Breccia: Alexandrea Ad Aegyptum, Istituto Ltliano d.Arte Grafiche, Bergamo 1922, p 1-2.

(٢) Pling, letters, X, 6-7

(٣) p. Oxy. Xiv, 1681. cf J. G. Winter: Life and letters in the Papyri, University of Michigan Press, An Arbor 1933, p 21.

(٤) عبد اللطيف أحمد على : مصر والأمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، دار النهضة العربية . بيروت ١٩٧٢ ص ١٧٠ - ١٧٥ .

(٥) مثلا كان محرما على الوالى ركوب الفيل وقت الفيضان مثلما كان الحال بالنسبة للفرعون كما كان محرما عليه تناول بعض أنواع الأسماك خلال بعض أيام النسىء

(٦) Strabo Xvii, 1,12

(٧) Tacitus, Historiae 1,11

(٨) Ammianus Marcellinus, xx, 16,6

(٩) Dio Cassius L11, 23; Ammianus Marcellinus Xvll,4. Suetonius Divus Augustus Lxvi,2; Ovid, Amores. III 9,63.
عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ص ٦٢ - ٦٣ .

(١٠) عبد اللطيف أحمد على المرجع السابق ١٧٢ - ١٧٤ =Tacitus, Ammales, xii, 60

(١١) عبد اللطيف أحمد على ، ففى المرجع ص ١٧٦ - ١٧٧ = Uipianus, Digesta, I, 17, I,

(١٢) Roger. S. Bagnall: The Florida Ostraka: Documents From the Roman Army in Upper Egypt, Duke University 1976.

(١٣) BGU 696 = Select Papyri, vol II no 401 (p521); N Lewic: up ct p 20.

(١٤) انظر الامبراطورية والعسكر ، ص ٢٣ - ٤٥

(١٥) N. Lewis Ibid,

(١٦) Samuel: Proceeding of the xvl th International Congress of papgrology, American Studies in Popyrology. 23 (1981) p 389-403. N. Lewis P 21.

(١٧) S.B no 9636; N. lewis, op cit, P 22.

(١٨) N. lewis, op. ct, P 23.

(١٩) Select Papyri, vol II, no 254 (pp 186-189)

(٢٠) Cicero, De Republica, Book. chapter 52

(٢١) S.B. nà 1114 = n. Lewis, op. cit, P 23.

(٢٢) عيد دينى كان يقام احتفاء بأحد أرباب الرومان واسمه ساتورنوس وكان يقام فى السابع عشر من ديسمبر من كل عام لبضعة ايام.

(٢٣) N. Lewis ibid p 24

(٢٤) ibid p 25.

(٢٥) عن وصف نفراطيس وظروف بنائها انظر كتابى: الأغريق تاريخهم وحضارتهم، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٦ ص ١٥٨ - ١٦٥ أو طبعة ١٩٩٤ ص ١٧٤ - ١٨١.

(٢٦) عن وصف مدينة انطينوبوليس وآثارها انظر كتابى تاريخ وحضارة وآثار مصر تحت حكم الأغريق والرومان، القاهرة ص ١٩٦ - ٢٠٣

(٢٧) Breccia op cit pp 17-20.

(٢٨) Breccia, p 72. P.M. Frazer Ptole,aic Alexandria, Clarendon Press, Oxford (1972) pp 39-93. حيث قدم وصفا دقيقا لآثار الاسكندرية

(٢٩) وكذلك انظر: محمد أحمد محمود حسن: مصر فى العهد القديم - رسالة ماجستير غير منشورة - قسم اللغات الشرقية وآدابها - فرع اللغات السامية - كلية الآداب - جامعة القاهرة بدون تاريخ وكذلك W. F. Albright, Egypt in the Bidi.

(٣٠) مصطفى كمال عبد العليم اليهود فى مصر فى عهد البطالمة والرومان مع مقدمه عن اليهود فى العصر الفرعونى مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٨.

(٣١) N. Lewis, op.cit, P 28

(٣٢) انظر كتابى مصر والشرق الأدنى فى العصر الهللينستى القاهرة ١٩٩٢ ص ٢٥.

(٣٣) H.I.Bell: Cults and Creeds in Gracco. Roman Egypt, Liverpool 1935, P

(٣٤) مصطفى عبد العليم الرجع السابق.

(٣٥) N. Lewis, op cit, P 29.

(٣٦) انظر حضارة فى آثار مصر ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٣٧) انظر عبد اللطيف أحمد على. المرجع السابق ص ٨٢ - ١٠١

(٣٨) عبد اللطيف نفس المرجع ص ١٠١ - ١٠٩ حيث ترجم خطاب كلاوديوس وعلق عليه بالتفصيل

(٣٩) B.G.U. 1079 = Select Papyri, vol. 1, no 107 (PP 296--299)

(٤٠) N. Lewis, ibid, P 30

(٤١) انظر عبد اللطيف نفس المرجع ص ١٩٦ - ١٩٨

(٤٢) نفس المرجع ص ١٩٩

(٤٣) P. Gissen, 41. = W. Chrest. 18 = Select Papyri, vol, II, no 298 (PP 306=309) also of. Aegytus, 23 (1953), P 150 f = ترجمها أيضا عبد اللطيف أحمد على، المرجع نفسه ص ٢٠٣

(٤٤) P.Oxy. 705, Coll. 11,11,31-35 = W. chrest. 153 = Corpus Papyrorum ludai carum, 435-450; Lewis. ibid, P 31 =
(ولقد أشار إليها عبد اللطيف أشارة عابرة نفس المرجع ص ١٩٨)

(٤٥) انظر تاريخ الأمبراطورية الرومانية ص ٢١٢.

(٤٦) Titus Livius, xxxviii, 17,11 المقدونيون الذين إمتلكوا الأسكندرية فى مصر، وإمتلكوا سيلوقية وبابيلوينا والمستعمرات الأخرى، التى انتشرت عبر العالم، تضاءل شأنهم ليصبحوا سوريين وبارثيين ومصريين.

(٤٧) W.chrest. 52 = select Papgri , vol .II, no 301: Lewis, op.cit, P 32.

(٤٨) W.Schubart, B.G.U, Heft, I, cf J.Winter, op. cit, PP. 29-32. Lewis ibid. P 33.

(٤٩) B.G.U. 1210; Lewis and Rheinhold, op.cit, PP 380-3

(٥٠) Horac, Odes, Book 1 no 37. Ronald Syme: The Roman Revolution, Oxford Clarendon Press (1939). P 215; T. Rice Holmes: The Architect of the Roman Empire, Vol.II (1931) P 16

(٥١) وهذا ما توصلت إليه فى مقالى : الأمبراطورية الرومانية والعسكر ص ٤٥.

الفصل الثالث

أوضاع السكان الأقتصادية والأجتماعية والثقافية
في عواصم الأقاليم المصرية

لو ألقينا نظرة فاحصة على خريطة مصر الجغرافية ، يتبين لنا من الوهلة الأولى أنها تتكون من جزئين (أ) الدلتا : ذلك المثلث من الأرض الخصبة قاعدته في الشمال على البحر المتوسط ، ورأسه في الجنوب عند بداية الصعيد ، وفي العصر القديم كانت تجرى فيه فروع النيل السبعة أكبرها الفرع الكانوني في الغرب (فرع رشيد) والفرع البيلوزى في الشرق (فرع دمياط) . (ب) الوادي والذى كان يبدأ من منف (ميت رهينة مركز البدرشين محافظة الجيزة) ويمتد جنوبا حتى الشلال الثانى وهى آخر حدود مصر .

وبأتحاد هذين الجزئين قامت مملكة ذات حكومة مركزية يتولاها فرعون صارم ومؤله ويتمثل فى إدعائه أنه من سلالة حورس (الصقر) ابن أوزوريس (النيل) من زوجته وأخته إيزيس (التربة الزراعية السوداء) ويعرف المؤرخون تاريخ قيام هذه الوحدة المستقرة إلى عام ٣٢٠٠ ق . م .

غير أن إتحاد الجنوب والشمال فى مملكة واحدة وتحت تاج واحد لم يتم فجأة بل سبقته عدة إرهاصات ومحاولات للوحدة كما أن إتحاد كل من الجنوب والشمال فى مملكة مستقلة إستغرق زمنا طويلا . فمنذ إكتشاف الزراعة فى الألف الخامس ق . م ظهرت القرية كوحدة سكانية إقتصادية وكيان إجتماعى متماسك ، وكانت كل قرية تمثل قبيله من القبائل التى إستوطنت البلاد ، وكان لكل قبيلة شيخ أو كبير اعتبر حاكمها المطلق ، كما اتخذت كل منها رباً يتجسد في شكل حيوان أو طائر أو نبات أو في قوي الطبيعة الظاهرة أو الخفية ، وبمرور القرون إتحدت عدة قرى في أقليم أو مقاطعة واحدة أصبح لها عاصمة ، ومعبود إرتضت به كافة القرى وحاكم قوى ذى نفوذ . ولقد تراوح عدد هذه الأقاليم (التى عرف كل منها بمصطلح حسبو Hespu) ما بين اثنين وأربعين واثنين وثلاثين إقليما . ولقد

إندلعت الحروب بين هذه الأقاليم بسبب النزاع على الحدود (إذ لم تكن هناك حدود طبيعية فاصلة) أو بسبب الخلاف الدينى بين المعبودات، ففى مقاطعة كان هناك حيوان يعبد فى حين أنه كان يذبح ويؤكل أو ينبذ فى مقاطعة أخرى. وكان الحل هو أن تتولى مقاطعة قوية فرض هيمنتها على باقى المقاطعات وتفرض عليها معبودها بالقوة وتخضعها لسلطة ملكها القوى الذى يحكم من عاصمة إتحادية إقليمية، وهكذا ظهرت مملكة الجنوب وإتخذت لها عاصمة واحدة وهى نخن (وهى الكاب الحالية قرب إدفو) ورب واحدة هى انثى النسر ورمزا نباتيا هو زهرة اللوتس، بينما اتخذ الشمال عاصمة إتحادية هى بوتو (تل الفراعين غرب الدلتا) وربه واحدة هى واجت (الأفعى) ورمزا نباتيا هو نبات البردى، وبينما إتخذ ملك الجنوب تاجاً ابيض، إتخذ ملك الشمال تاجا أحمر.

غير أن الحروب لم تتوقف إنما تحولت الى الصراع بين مملكة الجنوب ومملكة الشمال، وقد حسم هذا الصراع حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م عندما نجح مينا أو نارمر فى توحيد المملكتين فى مملكة واحدة والتاجين فى تاج واحد عرف بأسم تاج الوجهين، وأسس عاصمة إتحادية عند التقاء الوجهين هى «من نفر» أى الجدار الجميل والتى حول الأغريق إسمها الى منفيس أو ممفيس، وعرفت فى العربية بأسم منف. كما فرض مينا على الأتحاد الجديد ثالوثا دينيا جديدا يتمثل فى ثالوثه هو اوزوريس (الأب) وإيزيس (الأم) وحورس الأبن، والذى اليه نسب سلالته وكذلك فعل الفراعنة الذين حكموا من بعده، غير أن هذه الوحدة كانت تقوم على سطوة الفرعون ونفوذه فأذا ما ضعف، ظهر بوادر حركة الانفصال من جانب حكام الأقاليم، خاصة أن الذى شجعهم على ذلك أن مصر كانت بلداً له طول وليس له عرض، وهذا الطول الذى يزيد على الألف كيلو، شجع بعض حكام الأقاليم النائية على الأستقلال عن الحكومة المركزية فى الشمال، كما أن الآلهة المحلية لم تمت تماما إنما ظلت مطمورة تطل براسها من أن لآخر فى أوقات ضعف الفرعون وحكومته المركزية، وهكذا ظل تاريخ مصر عبارة عن فترات قوة، وفترات إنهيار خلال حكم الثلاثين أسرة التى حكمت مصر، بدءاً من مينا - موحد القطرين - وحتى نختانبو الثانى آخر ملوك الأسرة الثلاثين.

وعندما اقام بطليموس الأول مملكة وراثية فى مصر على غرار حكم الفراعنة الغى تنظيمات الأسكندر وعاد الى التقسيم الفرعونى القديم الذى كان يقسم البلاد الى مقاطعات ولكل مقاطعة عاصمة يحكمها حاكم محلى ، إلا انه غير مصطلح المقاطعة من الاسم المصرى حسيبو الى مصطلح اغريقى هو نوموس nomos (وجمعها نومات nomoi) أى وحدات قانونية او الوية قضائية واصبح حاكم الأقليم يعرف بأسم النومارخوس nomarchos' وكان فى العادة مصريا ، لكن أصبح له نائب يختار من طبقه اغريق الأقاليم هو كاتب الأقليم nomgrammateus وفيما بعد أوجد البطالمة منصبا جديدا هو الاستراتيجوس strategos الذى كانت سلطة عسكرية وهي الأشراف على الجنود المستوطنين المزارعين وقيادتهم عند الضرورة . وتدريجيا تضاءل منصب النومارخوس المدنى بينما إزدادت أهمية منصب الأستراتيجوس حتى اختفى منصب النومارخوس تماما ، وأصبح الأستراتيجوس هو حاكم الأقليم ، وله كافة السلطات الأدارية والقضائية والعسكرية ، أما الناحية المالية فقد بقيت فى يد الكاتب الملكى للأقليم الذى أصبح بمثابة نائب الأستراتيجوس . وبعد اخضاع ثورة طيبة فى عهد بطليموس الخامس ، ومنعاً لتكرار حدوثها ، وتوكيدا لسلطة الملك البطلمى على الجنوب أوجد بطليموس الخامس حاكما عسكريا أعلى بدرجة نائب للملك وهو الأبيستراتيجوس Epistrategos ويرى البعض أن منصب نائب الملك لحكم الجنوب أوجده الفراعنة فى عصر الدولة الحديثة لنفس الأسباب .

وعندما ضم أكتافيوس مصر إلى حوزة الأمبراطورية الرومانية أبقى على التقسيم الأدارى البطلمي إلا انه أجرى عليه تغييراً طفيفا بما يتماشى وخطته العامة فى تأمين مصر من الثورات الداخلية والحركات الوطنية ضد الرومان ، إذ أبقى على منصب الأستراتيجوس لكنه نزع منه السلطة العسكرية ، وبذلك تحول الى مجرد موظف مدنى يعينه ويعزله والى مصر ، ويخضع لمراقبته ومحاسبته . كما أبقى على منصب الكاتب الملكى للأقليم والذى أصبح يعرف باسم مسجل الأقليم أن nomographos وكان يمسك الدفاتر ويشرف على دار السجلات فى عاصمة الأقاليم وعلى فروعها فى قراة ، وكانت عاصمة الأقليم metropolis مركز النشاط الأقتصادى ومقر

جهاز الحكم المحلى، ويتبعها عدد من المراكز والقرى، وكان يقوم بتصريف شئون القرية مجلس من كبارها، ويمسك دفاترها كاتبها Komogrammatus الذى كان مسئولا أمام الكاتب الملكى للأقليم والذى كان يعتبر بمثابة نائب حاكم الأقليم (الاستراتيجوس).

كانت عواصم الأقاليم تختلف حسب أهميتها وحجمها وعدد قاطنيها وحسب أهمية الأقليم ودرجة ثرائه. ومن أبرز عواصم الأقاليم إقليم منف[1] أقدم عاصمة لمصر، وتشغل مساحتها كيلو متراً مربعاً وتمتد مبانيها فى شكل شبه بيضاوى، يليها فى الأهمية هرموبوليس (الأشمونين مركز ملوى محافظة أسيوط)[2]، وكانت ذات شكل مربع ومساحتها كليو متر ونصف الكيلو متر، ومن وثائق التعداد السكانى عرفنا أن عدد منازلها كان يقدر بسبعة الألف منزل، وكانت محاطة بسور سميك من الطوب اللبن وكان بها سلسلة من المعابد الكبرى اقيمت لتحوت (هرميس) حاميه عسكرية، ثم تأتى بعد ذلك كوركوديلوبوليس (كيمان فارس بالقرب من مدينة الفيوم) وكانت عاصمة إقليم أرسينوي[3] (إقليم الفيوم) وكشفت الحفائر القليلة التى إجريت فيها عن بقايا مسرح ومعبد لرب التمساح سوخوس، كما استخرج منها عدد من النقوش لكنها لم تنقب بعد التنقيب العلمي الكامل، أما أكبر عواصم الأقاليم وأشهرها فهى أوكسيريتحوس (البهنسا مركز بنى مزار محافظة المنيا) وذلك بفضل ما أستخرج منها من كميات وفيرة من أوراق البردي[4]، كما أن حظها من التنقيب العلمي كان طيباً، إذ كشفت هذه الأعمال عن مسرح كبير وجمنازيوم وعدد من الحمامات العامة، وما لايقل عن واحد وعشرين معبداً أكبرها معبد سيرابيس والذى كان يلحق به بنك الأقليم. كما كان بها دار لحفظ الوثائق والسجلات العامة، وهناك عدد آخر من عواصم الأقليم تردد ذكره فى الأحداث مثل كينوبوليس (الشيخ فضل) وهيرا كليوبوليس (اهناسيا بمحافظة بنى سويف) وأبوللوبونوبوليس (إدفو) وليكوبوليس (أسيوط) وطيبه (الأقصر).

وبالرغم من أن سكان عواصم الأقاليم كانوا يدعون أنهم من سلالة المستوطنين الأغريق الذين هاجروا إلى مصر عقب فتح الأسكندر لها

وخلال عصور البطالمة الأول ، حرص هؤلاء على نقاء دمائهم وتمسكوا بتقاليد الحضارة الاغريقية وبتاهوا بها ، بل حاولوا تقليد المدن الاغريقية الخالصة الأربع - خاصة الاسكندرية - فى مؤسساتهم ومرافقهم وفى نشاطاتهم الثقافية والرياضية ، وفي الأنفاق على مدينتهم ببذخ حتى خلال عصور الإنكماش الأقتصادى فى منتصف القرن الثالث الميلادى - إلا ان التقسيم الرومانى لسكان مصر إعتبرهم مصريين . ولم يعترف هؤلاء بذلك المصطلح ، بل كانوا ينظرون بتعال إلي اليهود والمصريين الخالصين ، وكل ماهو غير إغريقي وقد سبق أن أشرنا إلى ماورد فى خطاب أحد مواطنى أوكسيريتحوس معاتباً أهله بأنه ليس أجنبياً أو مصرياً فظاً .

ومن المعروف أن الأغريق فى بلادهم قبل هجرتهم إلى مصر كانوا يعشقون حياة المدن Polis التى تغلغلت فى تفكيرهم وثقافتهم وعواطفهم ، وبالفعل تدفقوا على المدن الأغريقية الثلاث ، ولما كانت هذا العدد القليل لا يكفى لأستيعاب الأعداد الكبيرة من المهاجرين ، فقد تدفقوا على المدن المصرية فى عواصم الأقاليم وأطلقوا عليها أسماء أغريقية فمثلاً مدينة شمون (مركز عبادة الرب المصرى تحوتى رب العلم والمعرفة والتقويم والذى عودل بربهم هرميس) أصبحت تعرف بأسم هرموبوليس ، وكذلك إدفو (مركز عبادة حورس الذى عادلوه بربهم أبو للون) أصبحت تعرف بأسم أبو للو بونوبوليس ، وبالمثل لسائر عواصم الأقاليم الأخرى مثل أوكسيرينخوس وكينوبوليس وغيرها وبالطبع شغل المهاجرون الأغريق حيزاً خاصاً بهم مثل قبل أن يتوغلوا فى باقى أجزاء المدينة المصرية ويعيدوا تخطيطها وتوسيعها وإقامة مرافقهم التى هى معالم مدنهم مثل السوق (agora) والمسرح (theatron) والجمنازيوم والحمامات وملاعب الرياضة وسباق الخيول (Hipppodromos) وغيرها ، وحاولوا إقامة مجتمع اغريقي خالص وسط السكان المصريين حفاظاً على هويتهم الثقافية والعنصرية وإدعوا - سواء كان ذلك وهماً أم حقيقة - أنهم حافظوا على هويتهم - وعنصرهم طوال القرون . ولما وقع بعضهم تحت تأثير الأمتزاج العنصرى والحضارى المصرى ، قام المتطرفون منهم بتأسيس دوائر أضيق داخل طبقتهم جعلوها مغلقة تماماً على العناصر إغريقية السلالة ،

ولم يسمحوا بانضمام أحد إليها إلا بعد التقصي والتحرى صحة وإثبات الأصول الأغريقية للأعضاء ، وهذه الدوائر المغلقة يتمثل فى طبقة أبناء الجمنازيوم فى كل من هرموبوليس ماجنا وأوكسيرينخوس ومثل أبناء طبقة الـ ٦٤٧٥ فى أرسينوى ، أن الظن أن مؤسسى هذه الهيئة الأخيرة كان يمثلون هذا العدد ، ثم احتفظوا به رغم مرور الزمن وتزايد اعداد أعضائها .

غير أن الرومان لم يعترفوا بالوضع الأغريقى المتميز إلا للمدن الأغريقية الثلاث . خالصة التأسيس قبل أن يضيفوا إليها مدينة رابعة فى عصر هادريانوس ، ومن ثم أدرجوهم فى قائمة المصريين الذين يتوجب عليهم دفع ضريبة الرأس واداء الخدمات الإلزامية . وكانت ضريبة الرأس Lsographia - ومعناها باليونانية ضريبة تسجيل السكان - تفرض على المصريين بدءاً من سن الرابعة عشرة وحتى سن الستين . وبالرغم من وصفهم قانوناً بالمصريين إلا أن الرومان توصلوا إلى حل وسط وهو إعتبارهم طبقة أدنى من الأغريق أو الطبقة الثانية التي تفصل بين الطبقة الرومانية والسكندرية المتميزة ، وبين الطبقة الثالثة وهم المصريون الخالصون أو الأغريق الذين تمصروا تماماً بعد ذوبانهم فى خضم الحضارة المصرية . وقد أطلق الرومان على هذه الطبقة الوسط أسم « طبقة سكان عواصم الأقاليم metropolites » . وبالتالى فرضوا عليهم ضريبة الرأس ولكن بنسبة مخفضة سواء بالنسبة لهم أو لأولادهم وللرقيق الذين يمتلكونهم . ولما كانت ضريبة الرأس تختلف من إقليم لآخر ، فقد اختلفت أيضاً هذه النسبة المخفضة لطبقة مواطنى عواصم الأقاليم ، ففى مدينتى هيراقليوبوليس (إهناسيا) وهرموبوليس كانت ضريبة الرأس المخفضة بواقع ثمانية دراخمات لكل فرد ، أما فى مدينة أوكسيرينخوس فقد كانت إثنا عشرة دراخما ، بينما كانت فى أرسينوى بواقع عشرين دراخما . ولعل هذا التفاوت فى قيمة هذه الضريبة يرجع إلى تفاوت الحالة الإقتصادية ودرجة الثراء فى كل مدينة ، فقد كان إقليم أرسينوى أغنى أقاليم الوادى ويفوق إنتاجه إنتاج أى إقليم آخر .

ولكى يحظى الفرد من هذه الجماعة بمزية ضريبة الرأس المخفضة عندما يبلغ الرابعة عشرة من عمره ـ كان على ولى أمره أن يتقدم بطلب رسمي لأثبات إنتمائه الطبقي ، وللتأكد من درجته الإجتماعية ، حتى يدرج أسمه في كشوف طبقة مواطني عواصم الأقاليم ، موضحاً فيه الخلفية الإجتماعية والطبقية للصبي المراد تسجيله ، مثل تاريخ تسجيل أبيه وكذلك جده لأمه في سجلات هذه الطبقة . أما في إقليم الفيوم فكان يكفى أن يثبت والد الصبى أنه ووالد امه ينتميان إلى طبقة ٦٤٧٥ مستوطن والذى إعتبر رقماً مغلقاً numerus clausus أما في مدينتي أوكسيرينخوس وهرموبوليس فقد كانت الأجراءات تشترط أن يثبت مقدم الطلب أن الصبي وأجداده لأبيه وأمه ينتمون إلى طبقة مواطني عواصم الأقاليم .

ويعتقد المؤرخون أن هذه القوائم الخاصة وضعت مابين عامي ٤ ـ ٥م في عصر اغسطس ، ثم أجرى عليها مراجعة نهائية فيما بين عامي ٧٢ ـ ٧٣م في عصر فسباسيانوس ، بعدها اغلقت تماماً في وجه أي اضافات جديدة(٥) ولقد عثر على العديد من طلبات الفحص التي كانت في الغالب توجه إلى رئيس لجنة الفحص الذى كان عادة رئيس الجمنازيوم القائم أو السابق وإلى أعضاء لجنة الفحص epikrisis ، ويذكر فيه أن أهلة وأسرته وأجداده مسجلون في أحياء المدينة ، معدداً التعدادات المختلفة التي تؤكد تسجيله وأسرته وأجداده من الأبوين وأسماء الأحياء التي سجلوا فيها وعما إذا كان أحد أفراد الأسرة سبق وأن تولى منصباً شرفياً مثل منصب رئيس الجمنازيوم . ثم يذكر التاريخ الذى بلغ فيه الصبي سن الرابعة عشرة . كما كان الطلب يشفع بالأدلة والمسوغات الدالة على ذلك ، ويذكر أسماء أجداده لأبيه وأمه على مدى أجيال ، وأسماء الأحياء التي كانوا مسجلين فيها ، كما كان يرفق بالطلب بيان بالممتلكات طبقاً لكشوف التعداد الذى كان يجرى من بيت إلى بيت وبعد ذلك تدون الموافقة على الطلب مشفوعة بالتاريخ(٦) . كما عثر على العديد من طلبات الفحص التي قدمها أولياء الأمور لإلحاق أبنائهم في جماعة ، الشبيبة ephibeia ، ففى طلب عثر عليه فى أوكسيرينخوس ومؤرخ في اليوم الخامس من أيام النسيء عام ٢٦٠ ميلادية الموافق ٢٨ أغسطس يفاخر مقدمة بأن إبنه يتمرن على رياضة الجرى ، ويتحرى تاريخ أسرته حتى إحصاء المؤله أغسطس (٤ ـ ٥ ميلادية) أي لأكثر من قرنين ونصف على مدى سبعة أجيال سبقت ، وفي نهاية الطلب يقسم مقدمة بعزه الأمبراطور على صحة ما جاء فيه وأن الأبن المذكور ابنه من زواج شرعى وليس ابنا متبنى أو مزيف ، وأنه لم يقدم طلبا آخر بنفس المسوغات وإلا تعرض لعقوبة حنث اليمين ، وينتهى الطلب بتوقيعات الشهود(٧) . ولقد عثر على الكثير من طلبات الفحص إذ بلغ حصر ماقدم عن عام واحد في مدينة أوكسيرينخوس وحدها وهو عام ١٤٩م مائه طلب ، أن تقدم هذا العدد الكبير يؤكد أن حجم طبقة الجمنازيوم في هذه المدينة كان أكبر مما كان مقدراً من قبل(٨).

اج الأشقاء :

ولكى تحافظ هذه الفئة على دمائها نقية فقد حرصت على أن تتزاوج فيما بينها ،
الزواج من خارج طبقتها قد يعرض أبناءها للحرمان من التمتع بالوضع الإجتماعي
، ولذلك ضيق الزواج في حدود الأسرة الواحدة بما في ذلك زواج الأخوة من
هم ، ويظهر ذلك جلياً في كافة وثائق الزواج والطلاق ، وفي دعوات حفلات

الزفاف أو في كشوف الحصر والتعداد، وفي الخطابات الخاصة. وتأكد لنا من الوثائق أن زواج الأخوة بالأخوات كان يمارس لأجيال طويلة، وان بعض الأسر كانت تتفاخر بذلك.

وفي تحليلهم لهذه الظاهرة يرى بعض علماء التاريخ الإجتماعي انها عادة متوارثة من عصور ما قبل التاريخ، اما في العصور التاريخية فقد مورست هذه العادة داخل ابناء الأسر الملكية التي أدعت لنفسها نسباً ربانياً مثل ملوك الشرق الأدنى القديم فقد مارسها ملوك الفراعنة في مصر وكذلك البطالمة. اما في زمن الرومان فقد إنتشرت هذه العادة على نطاق واسع لتشمل كافة الطبقات الإجتماعية وربما قلد ابناء طبقة سكان عواصم الأقاليم ملوك البطالمة وملوك الشرق الهلينيسي أكثر من تقليدهم للمصريين وذلك بدافع عقدة الاستعلاء العنصري التي كانوا يشعرون بها نحوهم.

ولقد حاول بعض علماء الأنثروبولوجيا القاء ظلال من الشك على ظاهرة زواج الأخوة والأخوات عندما ظهرت في أوراق البردي، ولم يكونوا ميالين إلى الأقرار بأن اي مجتمع من المجتمعات البشري قد حطم ذلك التابو الذي ساد كل المجتمعات البشرية القديمة. وحاولوا التشكيك في اطلاق لفظ الأخت على الزوجة بأنه استخدام مجازي مثلما نطلق على الصديق لفظ الأخ، أي أن عقد المعاشرة هو نوع من المؤاخاة بين الذكر والأنثى، غير أن هذه التفسيرات الذكية انهارت عندما أكدت الوثائق وعقود الزواج بأن العروس بالنسبة لعريسها هي: اخته من ابيه وأمه كما أكد وجود هذه الظاهرة ديودوروس الصقلي[٩]، ولقد سبق أن ترجمنا المادة ٢٣ من لائحة الأديوس لوجوس والتى نصت صراحة على حظر زواج الروماني من اخته وربما وضعت هذه المادة خصيصاً للمصريين الذين حصلوا على حقوق المواطنة الرومانية بعد انتهاء خدمتهم من الجيش للفت نظرهم بضرورة الإلتزام بالاخلاقيات الرومانية، وعلى العموم ظلت هذه العادة شائعة في المجتمع المصري زمن الرومان، حتى الغيت رسميا بقرار من الأمبراطور دقلديانوس عام ٢٩٥م[١٠]. ولقد حاول اثنان من علماء التاريخ الاجتماعي تحليل وجود هذه الظاهرة في المجتمع المصري في عصر الرومان أولهما هلموت تيرفيلدر Helmut Thierfelder الذي قدم رسالة دكتوراه حول هذا الموضوع عام ١٩٦٠ الى جامعة مينستر Münster لكنه لم يستطع أن يثبت سوى أن ظاهرة زواج الشقيق بشقيقته حقيقة ثابته لايمكن التشكيك فيها في ضوء الأدلة والوثائق والبراهين. اما ثانيهما فهو[١١] هوبكنز Hopkins الذي نشر مقالاً مطولاً حول بواعث هذه الظاهرة وانتهى من دراسته الى ترجيح الدافع الديني على الدافع الأقتصادي لهذا النوع من الزواج بالرغم من عدم إنكاره أن الآباء مارسوها من أجل الحفاظ على الممتلكات داخل نطاق الأسرة الواحدة وحتى لا تذهب للغرباء[١٢]، مما يؤدي الى تفتيت الثروة، ودعا علماء الاجتماع القيام بدراسة تشريحية اجتماعية أعمق للمجتمع المصري ككل لأنه سمح لقيام هذه الظاهرة[١٣]. وسواء كان الباعث دينيا أو اقتصادياً أو عنصرياً، فقد كانت هذه الظاهرة شائعة في ذلك العصر.

والذى يدفعنا إلى الميل للأخذ بأن الدافع لأنتشار هذه الظاهرة هو الحرص على بقاء الثروة داخل الأسرة هو نظام المهور، فقد كانت الزوجة تدفع مهراً باهظاً لعريسها في مجتمع كان عدد الأناث فيه يفوق عدد الذكور حتى ان الأسرة الفقيرة كانت تقوم بالتخلص من الأناث في المهد بالقائهن في العراء، أو في اكوام قمامة المدن والقرى، وهذه هي

النصيحة التى قدمها هيلاريون فى خطابه التالى الي زوجته وفى نفس الوقت أخته اليس وهذا نصه :-

«من هيلاريون الى إخته آليس سلاماً كثيراً وايضاً لمولاتى بيروس وابو للوناريون اعلمي اننا مازلنا حتى الآن في الأسكندرية . لا تقلقي اذا رجع الجميع وبقيت انا في الأسكندرية . ارجوك واتوسل اليك ان تعتنى بطفلنا ، وما ان نتسلم اجورنا سوف ارسله لك ، ولو حدث انك وضعت طفلاً دعيه يعيش اذا كان ولداً ، اما اذا كان بنتاً فالق بها في العراء . لقد قلت لأفروديسياس : « لاتنسانى » كيف يتاتى لى أن انساك . ارجوك الا تقلقى . العام التاسع والعشرين من حكم قيصر الثالث والعشرين من بؤونه [١٧ يونيو العام الأول ق .م فى عصر اكتافيوس أغسطس)(١٤) .

لقد ترك هذا الخطاب العاطفي لدى علماء البردى مزيجاً من الشجن والرثاء ، فالرجل عامل فقير مغترب يبحث عن لقمة العيش والزوجة ولهانه محبة قلقه على غيابه ، لكن رغم عاطفته الجياشه نحو زوجته المتلهفة على سماع أخباره فأنه ينسى عاطفة الأبوة اذا ما علم أنها انجبت انثى ، بالقائها فى العراء خوفا من وزر مهرها الذى عليه أن يدفع به لمن يتزوجها . ومن الظريف أن هذه العادة اللانسانية لاتزال تمارس حتى يومنا هذا فى الهند . لقد خاطب زوجته باللفظ الأقرب لاوامر القربى وهى أنها أخته ويؤكد وجود ظاهرة زواج الأخ بأخته والتى لاتزال بقاياها فى مخلفات لغتنا عندما تنادى الزوجة زوجها بلفظ أخى « والزوج يناديها بلفظ أختى » .

الملكية الزراعية والعقارية :-

ومن ثم فإن هذا الأمر يقودنا الى مناقشة موضوع الملكية الزراعية والعقارية وعلاقتها بالدرجة الاجتماعية ، فلقد سبق وأن أشرنا الى أنه عند تقديم طلبات الفحص للتسجيل فى قوائم مواطنى عواصم الأقاليم ، كان يلحق بالطلب بيان بالمتلكات التى لدى أسرة الصبى من واقع سجلات التعداد . وهذا يوضح أن الوضع الاجتماعي كان مرتبطا بالملكية الزراعية والعقارية . فقد كان سكان عواصم الأقاليم يمتلكون مساحات شاسعة من الأرض ومن العقارات ورؤس الأموال الموظفة فى مشروعات أو عمليات اقراض بالفائدة . ففى قرية واحدة بلغ ما دفعه أحد سكان عواصم الأقاليم

ما قيمته ١٥٪ من قيمة الضرائب المفروضة على كل أراضي القرية(١٥) ويتبين من قوائم توزيع التقاوى في قرية أخرى أن الفلاحين ذوى الحيازات الصغيرة أو المستأجرين يبذرون ما بين اردباً واحداً الى اثنا عشرة اردباً من التقاوى ، بينما فى ضياع كبار الملاك الغائبين وأحدهم كان رومانياً - وباقى مواطني عواصم الأقاليم ، فأن الكمية المطلوبة لأراضيهم كانت تتراوح ما بين واحد وعشرين وأربعة وثلاثين إردباً من التقاوى ، وفى حالة مجموعة من الأخوة احتاجت أراضيهم ، الى مائة واربعة وثلاثين أردباً من التقاوى في نفس القرية (١٦) .

كما نعرف من قوائم النفقات المالية الشهرية علي متطلبات الارض وأجور العمال الخاصة بضياع أحد أبناء طبقة مواطنى عواصم الأقاليم أنها كانت تبلغ ما يزيد على ٢٢٠ دراخما ، وأن له دخلاً شهريا منها يزيد على ٢٧٠٠ دراخما ، وبقسمة دخل الفدان الواحد على دخله العام يتضح لنا أنه امتلك ضياعاً مساحتها تزيد على المائة فدان ، ومن توزيع العمل ندرك أنها كانت موزعة على ثمانية عشرة ضيعة بمتوسط ما يزيد على خمسة أفدنه ونصف للضيعة الواحدة (١٧) .

والى جانب إمتلاك الضياع الشاسعة عمل أبناء طبقة مواطني عواصم الأقاليم في اقراض الأموال مقابل فائدة متوسطها ١٢٪ سنويا أو ١٪ شهريا . وكانت مهنة اقراض الأموال لقاء فائدة عملا مربحاً حيث يزداد الطلب عليه كلما كان هناك طلب على رأس المال بسبب ازدهار التجارة وارتفاع قيمة العملة ، كما كان لدى الأغنياء وفرة من رءوس الأموال السائلة الراكدة والتى رأوا أنه من الأجدى لهم توظيفهما فى مجال الأقراض بدلاً من خزنها في البيوت مما يجعلها عرضه للسرقة . ومن خلال الوثائق يتبين لنا أن مبالغ كبيرة كانت معروضة للأقراض ، وأن صكوك الدين تراوحت ما بين مبالغ صغيرة ومبالغ كبيرة وصلت الى اثنا عشرة الف دراخما فى قرض واحد . وبالنسبة لأصحاب المشروعات أو المكلفين بأداء خدمات الزامية ، كان هناك بنك الأقليم الذى يقدم لهم القروض لقاء فائدة معقولة . وعموما كان أبناء طبقة مواطنى عواصم الأقاليم أثرياء ، فأحدى الوثائق تخبرنا بأن واحدا منهم كان يمتلك مصنع نسيج يعمل به ستة وثلاثون نساجاً(١٨) .

كان أثرياء عواصم الأقاليم يحيون في رغد من العيش والرفاهية مقلدين في ذلك نمط حياة الأثرياء في الأسكندرية ، كما كانوا يقومون بالتبرع لأقامة مرافق عامة مثل الحمامات ، والأروقة ، وساحات الأسواق ، والمسارح ، والنافورات ، للحصول على سمعة طيبة كرجال إحسان وفاعلي خير ، كما كانت بعض المدن تحتفي بهؤلاء المحسنين فتقيم لهم التماثيل والتي تنقش اسماؤهم على قاعدتها مع عبارات التكريم والتبجيل عرفاً لما قدموه لمدينتهم على نحو ما كان يفعل الأغريق في مدنهم في بلاد اليونان ، فأذا ما حقق هذا المحسن سمعة طيبة فأن طريقه الى المناصب العليا يصبح مفتوحاً وميسراً ، واذا كانت سياسة الأمبراطورية الرومانية ، هى محاباة الاثرياء ، فأنها كانت ايضاً تشجعهم على القيام بمشروعات عامة من أجل خدمة مواطنيهم في المدن الاقليمية التي تقع داخل نطاقها .

الوظائف الشرفية :

وباستثناء مدينة الأسكندرية والمدن الأغريقية المتميزة الثلاث الأخرى ، لم تكن عواصم الأقاليم تتمتع بأى حكم ذاتي قبل القرن الثالث ، غير أن مواطنيها كانوا يختارون ممثليهم لأدارة أجهزة ومرافق مدينتهم ، وكانوا يطلقون عليهم لقب **رجال السلطة أو الادارة** ، وهذا يدل على أنهم تمتعوا بقدر محدود من الحكم الذاتي ، وكان هؤلاء الموظفون يكونون مجلساً محلياً لتصريف أمور المدينة أشبه بمجالس البلديات في الأدارة المحلية في العصر الحديث ، بالرغم من أن هذا المجلس لم يكن ابداً جزءاً من السلطة الرسمية لجهاز الحكم الروماني فى مصر ، بل كانوا يتصرفون بصفتهم مشرفين أهليين على النشاط الثقافي والاجتماعى والأقتصادى فى مدنهم الأقليمية » أى أنهم لم يكونوا مسئولين رسمياً ، كما لم تكن مدنهم الأقليمية مدناً بالمفهوم السياسى والمتعارف عليه للمدن الأغريقية المستقلة فى العصر الكلاسيكى .. رغم ذلك كانوا يشعرون بالفخر والاعتزاز لتوليهم هذه المناصب الشرفية ، وقبل أن يصدر سبتميوس سيفيروس عام ٢٠٠ م قراره الشهير الذى منح فيه كافة عواصم الأقاليم الحق فى إقامة مجالس شورى (على غرار مجالس البلديات فى إيطاليا) لم يكن لهؤلاء الممثلين أى صفة قانونية أو رسمية ، إنما كانت السلطة رسمياً فى يد حاكم الاقليم (الأستراتيجوس) الذى كان يعينه ويقيله والى مصر

الرومانى ، والذى منه كان يستمد سلطته ونفوذه ، وظل الحال كذلك طوال القرنين الأول والثانى الميلاديين .

وبالرغم من أن مواطنى عواصم الأقاليم كانوا فئة خاصة تتميز عن باقى سكان المدن من المصريين والعناصر الأخرى ، إلا أنه داخل هذه الفئة المميزة ظهرت فئه أكثر تميزاً - أى خاصة الخاصه - وهؤلاء هم أولئك الذين يتولون هذه المناصب الشرفية لأنهم كانوا يكونون شويحة الطبقة اللاندوقراطية الأقطاعية المتشبثة بالثقافة والتراث الاغريقى الكلاسيكى ، فقد كان هؤلاء الأثرياء الأقطاعيون يسجلون في قوائم خاصة كأعيان المدن الأقليمية ووجهائها ، فقد كان المرشح لهذه المناصب الشرفية الأقليمية يدفع رسوماً باهظة عند ترشيحه ، ويتبرع بمبلغ آخر عند تسلم مهام عمله وحمله لقب المنصب ، بالاضافة إلى ذلك لم يكن من يتولى أيا من هذه المناصب يتقاضى أي راتب أو أجر نظير عمله ، بل على العكس كان ينفق من ماله الخاص عليه ، وكانت هذه المناصب مكلفة لما تتطلب من ولائم ومواكب وحفلات تلقى فيها خطب التزلف والنفاق ، مثلاً تمسك أصحاب هذه المناصب بالألقاب الشرفية الكلاسيكية التي تعود الى مدينة آتينا فى القرن الخامس ، فمثلا قلدوا الأثينيين القدماء في إقامة حفلات التتويج التى يوضع خلالها إكليل السلطة على رأس المرشح كاعلان عن بداية سريان مفعولها ، وقد عثر على عدد من الدعوات لحضور مثل هذه الحفلات ونسوق مثالاً على ذلك من دعوة يرجع تاريخها إلى مطلع القرن الثالث الميلادى(١٩) هذا نصها :

- « يود إيمون يدعوك للغذاء فى (مقر) الجمنازيوم بمناسبة تتويج ابنه نيلوس فى اليوم الأول من الشهر الساعة الثامنة [الثانية مساء وبخط آخر] الثانى » .

وكلمة الثانى أما تعنى تعديل فى تاريخ الحفل أو أرقام الدعوات . وكما يلاحظ أن توقيت الدعوة يواكب أول السنة المصرية التى تبدأ أول شهر توت (٢٩ أغسطس) وهو التاريخ الذى كان الفراعنة وخلفاؤهم البطالمة والأباطرة الرومان يتولون فيه الحكم طبقاً للتقويم المصرى وبعد إنقضاء مدة سريان المنصب يظل صاحبه يتفاخر بأنه مثلاً رئيس جمنازيوم سابق γεγυμνασιαρχος (٢٠) أو كوسميت سابق κεκοσμητης على شاكلة مايحدث فى العصور الحديثة .

كان عدد أصحاب هذه المناصب المرموقة ستة : خمسة منهم حملوا القاباً متوارثة من العصر البطلمي بالرغم من التعديل الذى أحدثته الأدارة الرومانية عليها لتساير روح العصر وفلسفة التنظيم ، أما السادسة وهى منصب اليوثينارخوس Euthenarchos وتعني مدير التموين فقد أستحدثت فى القرن الأول أو مطلع القرن الثانى ، وهذه المناصب حسب أهميتها هى :

١ - رئيس الجمنازيوم Γυμνασιαρχος=Gymnasiarchos

كانت مسؤلياته وخدماته تغطي على سلطاته، والتي كانت بالطبع سلطات معنوية وأدبية ، فقد كان مسئولاً عن سير العمل اليومي في الجمنازيوم ، وتزويده بما يحتاجه من مستلزمات مثل الوقود لتسخين مياه الحمامات ، والزيوت لتدليك أجسام الرياضيين ، ولأضاءه المسارج والقناديل ليلاً في قاعات الجمنازيوم ، ومن وثائق البردى يتبين أن مهامه تعدت مهمة الأشراف علي دور الجمنازيوم فى عاصمة الأقليم والريف التابع لها إلى كافة أنواع الخدمات العامة ، وبذلك تحول من منصب إختياري تطوعى إلى منصب إلزامى شرفى عندما أدرج فى قائمة الخدمات الإلزامية الشرفية وفى البداية كانت مدة شغل هذا المنصب عاماً واحداً وخلال عصور الكساد والتدهور الإقتصادى لم يستطع الفرد الواحد تحمل بهاظة نفقات المنصب ، فأصبح إثنان يشغلان هذا المنصب في نفس الوقت لتقاسم النفقات ، وفى القرن الثالث شغل عدة أفراد هنا المنصب في وقت واحد أو كل لبضعه شهور من السنة تخفيفاً لهم من العبىء المالى ، ولقد تدهور هذا المنصب ذاته فى القرن الثالث حتى أننا نسمع عن صبيه صغار يشغلونه . وكان زى رئيس الجمنازيوم المميز هو عصابة الرأس القرمزية والنعل الأبيض . وتعبيراً عن أهمية منصبه كان يحاط إينما ذهب يحرس شرف عددهم أربعة يختارون من فتيان الشبيبة . وكان المثل الأعلي لرئيس الجمنازيوم الأقليمى رئيس جمنازيوم مدينة الاسكندرية الذى تحول منذ منتصف القرن الأول إلى زعيم الكفاح الوطنى ضد الرومان كما يظهر من أدب المقاومة المعروف بأسم أعمال الشهداء الوثنيين(٢١) .

٢ - الكوسميت (Kosmetes)

وتعنى التسمية مراقب النظام . وكان يشرف على سير العمل وكافة الإجراءات الروتينية واللوائح التنظيمية داخل الجمنازيوم خاصة التدريبات

الرياضية والأعداد المعنوي والثقافي للشبيبة ephibeia وهى مهمة تنفيذية وكان يصاحبه إثنان من فتيان الشبيبه كحرس شرف.

٣ - الأكسيجيت Exegetes = (Ετξτυς) :

وهى فى التراث الأثيني وظيفة دينية للأشراف على الشعائر والطقوس، والرجوع لحاملها عند طلب المشورة والأفتاء في أمور الأعياد والقرابين والعبادات. وفى بعض الحالات فى مصر يظهر كمسؤل عن تعيين الأوصياء على اليتامي والأرامل، ولهذا كان يترأس المجلس المكون من أصحاب المناصب الست بما له من هيبة دينية، وينسق بينها ويزيل أى خلاف ينشأ من تداخل مهامهم بعضها ببعض، وهو أشبه بالمرشد الديني المدني للمجلس وللناس، وكان يصاحبه أثنان من حرس الشرف من فتيان الشبيبة.

٤ - اليوثينارخوس Euthenarchos (Ευϑευαϱχος):

وهو مدير التموين ومهامة كانت محددة بضمان توافر المواد الغذائية والمياة الصالحة للشرب، والوقود للمرافق العامة وللبيوت، كما كان من إختصاصاته الأشراف على إدارة طاحونة المدينة وسير العمل فى مخبزها، وضمان توافر رغيف الخبز في الأسواق، ومراقبة جودتة وحجمة ووزنه، كما كان يشرف على معاصر الزيوت والنبيذ، ومن مسؤلياته فض الإعتصامات والأضرابات التي يقوم بها العاملون فى هذه المرافق الحيوية لكنه لم يكن له سلطة جبرية أو مايعرف بحق الضبطية، إنما كان سلاحه فى ذلك هو الأغراء الخطابي، والكلام المعسول والمحايلة، وأحياناً دفع الأموال من جيبه الخاص، وإذا حدث نقص فى إحدى المواد التموينية يتولى شراءها من ماله الخاص. وكان يصاحبه إثنان من حرس الشرف من أفراد الشبيبة.

٥ - الاجورانوموس Agoranomos

ومعناها مشرف السوق، وهى وظيفة كانت موجودة فى أغلب دويلات المدن في بلاد اليونان في العصرين الكلاسيكي والهللينستي. وكانت مهمته أقرب إلى وظيفة المحتسب فى العصور الأسلامية. وهى

مراقبه الموازين والمكاييل والمعايير ، ومنع الغش والتدليس . كما كان يقوم بتحصيل الرسوم فى الأسواق ، وكذلك الأشراف على مبانى السوق وتطبيق النظام فيه ، كما ظهر فى احدى الوثائق البردية وهو يتولى تأجير بعض الحوانيت العامة الموجودة فى السوق نيابة عن مجلس المدينة . وكان له سلطة توقيع الغرامات على المخالفين للقوانين والمدلسين والغشاشين ، أما الجرائم الأخرى فكان من حقه إقامة الدعوى بشأنها فى المحاكم ، والأشتراك مع المحلفين فى توقيع الأحكام المناسبة . وكان يرافقه حارس واحد من فتيان الشبيبة رغم خطورة مهمته .

٦ - الكاهن الأكبر Archiereus = (Αρχιερευς):

وهو يعادل اللفظ اللاتينى Ποντιφεχ Μαχιμυς . ويبدو أنها وظيفة رومانية ترجمت إلى اليونانية ، وفرضت من قبل الرومان من أجل عبادة أباطرتهم ، لأنه لم يكن له أى علاقة أو سلطة على مسلك كهنة الديانات الأخرى سواء المصرية أو الأغريقية ، وكل مهامة إنحصرت فى إقامة الصلوات من أجل عبادة الأباطرة الرومان وأعضاء أسرهم المقدسين ، والاحتفال بأعياد ميلادهم وكافة المناسبات الخاصة بهم ، وكان يأمر بتزيين تماثيلهم بأكاليل الغار خلال هذه المناسبات .

وفى كل عام كانت تجرى الأنتخابات لشغل منصب او اكثر لهذه المناصب لمدة عام واحد فقط ، وذلك لأعطاء الفرصة لأكبر عدد من الأثرياء المتهافتين عليها ، وكذلك لتحميل عبئها المالى على اكبر عدد ممكن ، وبالرغم من بهاظة تكاليف منصب الجمنازيارخوس نجد عدداً من الأثرياء يحرصون على تولى ذلك المنصب لأكثر من مرة ، وفى البداية - كما قلنا - كانت هذه المناصب مغلقة على خاصة الخاصة ، لكن هذه الدائرة أصبحت أكثر إتساعاً كلما زادت الضائقة الأقتصادية ، وكلما زادت المغالاة فى تكاليف هذه المناصب خاصة منذ النصف الثانى من القرن الثانى الميلادى التى تمثل عصر الرخاء فى الأمبراطورية الرومانية ، لكن منذ القرن الثالث الميلادى بدأت بوادر الأنكماش الإقتصادى تظهر بينما زادت بهاظة تكاليف هذه المناصب ، ومن ثم بدأ ظهور بوادر الأعراض عنها ، والتهرب من توليها بأعذار ملفقة ومتنوعة ، وبالتالى بدأت السلطة

تفرضها فرضاً ، وخلال ذلك أجريت بعض التعديلات عليها للتماشي مع حقائق العصر ، فقد زيد عدد شاغريها بحيث يتحمل كل واحد منهم نفقاتها لبضعة شهور . وفي حالات أخرى تنازع المرشحون على تولي المناصب الأقل تكلفة ورفض تلك الأكثر تكلفة ، وفي حين آخر إعترض أحد المرشحين بأنه سبق له أن تولي هذا النصب وتسبب في إفقاره ، ويطلب تخفيف الألزام بترشيحه لمنصب أقل تكلفة . وفي حالات أخرى كان يتم المصالحة والأتفاق والتفاهم بين المرشحين على تبادل توليها .

وعندما أصدر سبتيميوس سيفيروس قراره الشهير عام ٢٠٠ ميلادية بمنح جميع المدن حق تأسيس مجالس بلدية أو ما كان يعرف تقليداً بمجالس الشوري ، خضع البناء الإداري والتنفيذي في كافة مدن أقاليم مصر لتغير جذري . وكما سبق أن أشرنا في المدخل التاريخي للموضوع أن هذا القرار كان ظاهره تحقيق المساواة بين رعايا الأمبراطورية وسادتها الرومان ، وذلك بمساواة مجالس المدن بالبلديات الإيطالية ، وهي خطوة لم تتم بشكل كامل إلا على يد دقلديانوس وفي القرن الرابع الميلادي ، وباطنه تحميل ما تبقي من أعيان الأقاليم وزر المشاركة في الحكم وجمع الضرائب المطلوبة والقاء المسئولية عليهم وما على الأمبراطورية سوى جني الثمار بدون تكاليف كصاحب الضيعة الغائب ، ولذلك في البداية هلل سكان العواصم لذلك القرار ، لكنهم سرعان ما أكتشفوا النوايا الذكية الكامنة من ورائه ، ولمسوا عيوبه أكثر مما لمسوا مزاياه . ولقد دافع بعض المؤرخين عن قرار سبتميوس سيفيروس بأنه قرار نابع من أصوله الشرقية ،ومن منشأه في شمال أفريقيا فقد أدرك في قرارة نفسه أن الوقت قد حان لأنصاف الولايات الشرقية من إذلال الأمبراطورية ، وأن رسالته هي إكمال لسياسة الأباطرة الصالحين الذين انصفوا الولايات الغربية وساووها بايطاليا ، وأن قرار منح مدن الأقاليم رسمياً حق تأسيس مجالس شورى ليس سوى تشريف لها ولأعيانها الذين أصبحوا لأول مرة أعضاء في مجلس شورى معتمد من قبل الامبرطورية ، وقراراته ملزمة ، على الرغم من أن سلطاته كانت محدودة ولا نتعدى أختصاصاته شئون إعداد الميزانية والأشراف على المرافق العامة ، والبلدية والخدمات العامة مثل الحراسة الليلية ، والإشراف على الخفراء

وقبل كل شيء تولى مسئولية جمع الضرائب ليس من داخل المدينة فقط بل من الإقليم وكله . هكذا أصبح إلى جانب مجلس المناصب الشرفية القديم مجلساً اخر للشورى، وكلاهما يتوليان معاً مسئولية إدارة المدينة والأقاليم.

وخلال القرنين الأول والثاني كان سكان المدن ينظرون إلى سكان الريف على أنهم أدنى منهم ثقافة ورقياً وثراءً على نحو ماينظر أهل الحضر إلى أهل الريف، ولكن منذ القرن الثالث عندما أستنزفت هذه المناصب الشرفية ثروات الأعيان في المدن، بدأت الدعوة من قبل أهل المدن بدعوة أثرياء الريف لتولى هذه المناصب التي كانت من قبل مغلقة عليهم وحدهم. إذ كشفت وثيقة مهلهلة محفوظة في المكتبة البريطانية(٢٢) يعود تاريخها إلى منتصف القرن الثالث أن بعض المرشحين فى مدينة أرسينوى وجهوا الدعوة إلى أعيان الريف وأثريائه في الإقليم لمشاركتهم في تولى هذه المناصب الشرفية وبالطبع نظر أعيان الريف إلى هذا التوجه الجديد نظرة الشك، واعتبروها محاولة من جانب أهل الحضر لإستنزاف ثرواتهم، واحتد الخلاف لدرجة أن الأمر عرض على الوالي للتحكيم، ومن خلال محاميهم تمسك الريفيون بقرار الأمبراطور سبتيميوس سيفيروس الخاص بحظر ترشيح القرويين لمناصب المدينة، وأن كافة ولاة مصر إلتزموا بهذا القرار، بينما رد دفاع أهل المدينه بأن القوانين تجل وتحترم، لكن بالنسبة لهذه القضية فهى مسألة مطلب عام تماماً مثلما كان تمسك الولاة السابقين بقرار سبتميوس سيفيروس مطلباً عاماً من جانب أهل المدن، ثم يستطرد فيشرح مبررات دعواهم بأن مدينة أرسينوى كانت فى الأيام الخوالي حاضرة عامرة ومزدهرة، تعج بالأثرياء والوجهاء، لكن الحال قد تغير إلى العكس، حتى أن تولى هذه المناصب الشرفية ولو ليومين فقط سيكون نكبة عليهم ثم يستطرد فيقول أن قرار سيفيروس صدر عندما كانت المدينة غنية مزدهرة والريف فقير ومتخلف، ولكن الحال قد تبدل الآن بعد أن بدأ الإتجاه نحو هجرة بعض الأثرياء من المدن إلى الريف هروباً من تولى هذه المناصب التى أفقرت أصحابها وهنا يتدخل الوالي فيذكر أن الإزدهار حدث للقرية وللمدينة سواء بسواء، ورغم تهلهل الجزء الباقي من الوثيقة الا أنه يفهم منه أن

الريفيين قد كسبوا القضية لأن الوالى ينهى الجلسة بقوله « إن قوة القانون يجب أن تزداد رسوخاً كلما مر الزمن » .

يتردد فى الوثائق أسماء بعض أعضاء مجلس الشورى Bouleutai فى المدن حتى أن بعضهم يصبح إسمه مألوفا لدينا ، فلقد كان مسموحاً للفرد أن يرشح نفسه أكثر من مرة ، كما أن الذى لا يرشح نفسه مرة ثانية يظل يحمل لقب عضو مجلس الشورى السابق طوال حياته كنوع من التكريم. وفى البداية كان أعضاء المجلس يختارون من بين خيرة الخيرة من أعيان المدينه ومن أبناء الطبقة الراقية العريقة الأصول التى تنفق بسعة ، ثم إتسعت الدائرة لتشمل الأغنياء الجدد القادرين على دفع « رسوم التشريفة » عندما يباشرون مهامهم ، ولقد كشفت وثيقة بردية من أوكسيرينخوس تعود الى عام ٢٣٣ ميلادية أن رسوم الترشيح التى كان يدفعها عضو المجلس bouleutes للتقدم لشغل هذه الوظيفة بلغت عشرة الآف دراخما أو يزيد وهو مبلغ له قوة شرائية كبيرة فى ذلك الوقت لاقتناء ست بيوت متواضعة فى المدينة ، أو ما يعادل الأجر السنوى لعشرين عاملاً زراعياً وهذا يعنى أن ذوى اليسار فقط هم الذين كانوا يتقدمون لعضوية مجلس الشورى (٢٤) .

المنازل والأثاث :-

وكما كشفت وثائق البردى عن حب أغنياء المدن للابهة والمظاهر ، واتصافهم بالغرور والخيلاء ، وتهافتهم على المناصب الشرفية المكلفة ، واقامة حفلات النفاق الباهظة التكاليف ، فقد كشفت معاول الأثريين عن منازلهم ، وعن حياة الترف والرغد وحب الحياة . فكما كانوا يتباهون بمناصبهم الرفيعة كانوا يتباهون ببيوتهم الواسعة ، والتى كانت تعلو أكثر من طابق ، بل ذكرت بعض الوثائق أن بيوتاً وصلت الى ثلاثة طوابق وكانت تشتمل على صحن كبير وأجنحة مستقلة للرجال واخرى للنساء ، ولها بوابات ذات أعمدة أشبه بمداخل المعابد ، وشرفات منفتحة للأستمتاع بنسيم الليل صيفاً وشمس النهار شتاءً ، وبعض البيوت كان يلحق بها حمام خاص وبها بئر مياه ومخازن للتموين ، كما أنها كانت جيدة التهوية ، ومصممه بحيث تسمح بالتحكم فى تيار الهواء عن طريق فتحات فوق الاسطح تعرف أحيانا بمصايد الهواء وتستخدم لتبريد المياه

والطعام . كمت كان لها درجات من السلالم تصعد بها الى الطوابق العليا ، وبعضها له ابراج للحمام ، وسقائف أمامية مصممة لتحقيق أكبر قدر من الراحة وجمال المنظر ، بل أن بعضها كان له حدائق خاصة خلفية ملحقة به . وبعض المنازل التي كانت تنفتح على شارع أو أكثر كانت تقتطع بعض حجرات الدور الأرضي لتحويلها الى حوانيت للايجار على نفس النسق الذى نراه فى بيوت مدن الأمبراطورية الرومانية فى كل من بومبيى Pompeii وهركولانيوم بايطاليا ، كما أنها تركت آثارها ومظاهرها على بيوت الأثرياء فى العصر العثماني(٢٥) .

غير انه لم يكن كل سكان المدن أثرياء ، اذ كان يحيط أحياناً بالبيوت الفارهة منازل متوسطة أو فقيرة ، وبعض بيوت الفقراء كانت محشورة متلاصقة ذات مساحات ضيقة حتى أننا نتعجب كيف كان يعيش فيها أصحابها ، ففى مدينة اوكسيرينجوس تذكر الوثائق بيتا مساحته خمس عشر متراً مربعاً فقط يقابله منازل مساحتها تتعدى المائة متر . أما حوائط البيوت من الخارج فقد كانت سميكة وتتكون من عدة مداميك من الطوب اللبن ، وهو أقدم المواد المستخدمة في البناء في مصر منذ عصور ضاربة فى القدم ، ويرى بعض المعماريين أن الطوب اللبن كان يرطب الجو الحار فى مصر صيفاً ، خاصة أن سقوط الأمطار كان قليلاً أو نادراً بحيث لا يوثر عليها ، أما الحوائط الداخلية الفاصلة فقد كانت عادة تتكون من مدماكين فقط من الطوب ، وحوائط الحجرات الداخلية كانت مكسوة بطبقة من الجص المزخرف بالرسومات والألوان الزاهية ، بعضها يصور كرمة العنب تنشر اوراقها معطية إحساساً بأن صاحبها يستظل بها ، وكانه جالس فى حديقة ، والبعض الأخر يصور مناظر من الأساطير الدينية المفضلة لديهم ، ففى المتحف المصرى بالقاهرة هناك منظر وجد على احدى الحوائط يمثل فصلاً من مسرحية أوديب تجمع بين المناظر الطبيعية والأنفعال الحسي للأسطورة بحيث تغرى الناظر اليها للتأمل فيها دون أن يمل . وفى خطب كل من ديون ذى الفم الذهبى(٢٦) والقديس كلمنت السكندرى عبارات اللوم لمسلك السكندريين لما يرسمونة على حوائط حجرات النوام من مناظر - اعتبراها خليعة مختارة من حياة افروديت ربه الجمال والعشق والجسد الفتان . وكانت حجرات النوم عادة فى الدور الأرضي ، بينما كانت المقتنيات وحجرات الخزين فى الطابق العلوى ، ولقد

كان استخدام الحجر فى بناء البيوت نادراً لأنه كان مكلفاً ، حيث يحتاج الأمر الى جلبه من المحاجز وتشبيبة ، وإذا استخدم فأنه كان يستخدم في واجهة المنازل وفي عتاباتها ، وعندما يتفاخر أحد أثرياء أوكسرينخوس بأن بيته مبنى من الحجر انما كان يعنى أن حوائطها الطينية الخارجية يغطيها كساء من الحجر على نحو مانجد فى العمارة الرومانية[١٧] .

اما عن الأثاث المستخدم داخل المنازل ، فنظراً لأنه لم يصمد لفعل الزمن أو لأن المنازل عندما هجرت تركت خاوية ، أو لأنها احترقت بما فيها قبل أن تهجر ، ومن ثم فأن معاول الأثريين لاتسعفنا كثيراً إللهم إلا ببعض الأوانى الزجاجية والفخارية ، وأدوات الزينة الخاصة بالسيدات كالحلى والأمشاط وقنينات العطور ، والمساريج المزخرفة بكافة الأنواع ، غير أن شواهد القبور التى تصور جزءاً من حياة المتوفى تصورهم مضجعين على اسرة مرفوعة وأرائك عليها فرش وثيرة ، وايديهم تتكىء على وسادة ، ومن خلف ظهورهم وسادة أخرى وأمامهم موائد عليها أطباق وآنية ، وأخرى مرصوصة أسفل الأسرة ، وتجويفات في الحوائط توضع فيها المساريج أو المحفوظات ، وصور على الحوائط معلقة . ومن وثيقة جرد أثاث منزل ترجع الى حوالى عام ٢٠٠م نجد أن من بين أثاث المنزل : الأحواض ، وخزانات من الصفيح ، وأكواب ، ومساريج ، وكؤوس ، وآنية للأغتسال ، والحفه ، وأسرة ، ومراتب ، وأباريق من النحاس ، وصناديق لحفظ الأشياء ، ومقاعد وأدوات زينة بالأضافة الى الأوانى الفخارية[٢٨] .

الملابس والأزياء :

كان مواطنو مدن الأقاليم في العصر الرومانى دائما يفضلون ارتداء الملابس والأزياء ذات الألوان المبهرجة فاقعة الألوان خاصة ذات اللونين الأخضر والأحمر ، وأكثر الألوان تفضيلاً عندهم كان الأزرق بكل درجاته . ويلاحظ فى ملابس النساء عند الاغريق عموماً أنه لم يكن هناك فرق كبير بين ثياب النساء وثياب الرجال ، فعلى العكس من ملابستنا العصرية ، لم تكن ملابس الجنسين تكشف عن تقاطيع أو تفاصيل البدن ، بل كانت تكسوه بحيث لايظهر منه اى تفاصيل . وكانت الثياب تتكون من قطعتين : القميص أو الجلباب القصير الايوانى الطراز المعروف بأسم الخيتون

(xitwv)ذى الأكمام القصيرة والمثبت بحزام أو أكثر عند الوسط، ويلبس بحيث يكون فضفاضنا حول الصدر، بينما يتدلى بأستقامة الى أسفل الركبتين، ويثبت عند الكتف، أما القطعة الثانتة فكانت العباءة himation وهى عبارة عن قطعة واسعة مربعة من الصوف أو الكتان تلف حول الجسم من الخارج، وتتدلى من على الكتف لتلف حول الذراع وكان يرتديها الرجال والنساء على السواءكل بطريقته الخاصة، وفى حالات قليلة أستخدم القطن فى صناعة الثياب. وفى حالات نادرة أستخدم الحرير المستورد من الصين والهند وفارس، ولكن، لأنه كان باهظ التكاليف، فقد كان يستخدم فقط لتزيين بعض أجزاء الثياب مثل الأكمام والياقات والأطراف كدليل على مظاهر الثراء والترف، وفى حالات قليلة كانت هناك القمصان المزركشة والمشغولة بخيوط الذهب التى تلبس فى الأعياد. والمناسبات الخاصة.

أما النعال فأكثرها شيوعا كانت الصنادل المثبتة بسيور لأصبع القدمين (لا يزال هذا النوع مستخدما فى بعض بلاد العرب)،وكانت تصنع إما على طريقة المصريين التقليدية من ورق البردى المقوى أو الجلد. وكان بعضها يزخرف بالألوان وحبات الخرز والعقيق.

الأسرة والأبناء :

بفضل الوصايا وتوزيع الممتلكات بين الأبناء الأحياء Inter vivos وكذلك بفضل قوائم التعداد والأحصاء الذى كان يجرى من بيت الى بيت Katoikian أمكن التعرف على متوسط حجم الأسرة، وعدد الأبناء فيها، فقد كان يتوجب على كل صاحب عقار أن يقدم كل أربعة عشر عاما دوريا كشفا بأسماء المقيمين فيه، ومن خلالها عرفنا أن متوسط عدد الابناء فى الأسرة الواحدة كان يتراوح ما بين ثلاثة الى خمسة بالنسبة لاسر المدن. ومن المؤكد أن نسبة المواليد كانت عالية، لكن كان يقابلها إرتفاع فى نسبة الوفيات سواء عند الولادة، أو فى مرحلة الرضاعة والطفولة، بالأضافة الى إنتشار الأمراض المستوطنة فى المجتمعات الزراعية، وكذلك حدوث موجات من الأوبئة الفتاكة وقد رصدنا ذلك أيضا من دراسة شواهد القبور حيث يسجل عليها تواريخ الوفاة، فعندما تموت أسرة بكاملها أو أغلب أفرادها وكذلك عدد من الأسر فى تواريخ متقاربة نستطيع أن نرصد حدوث الوباء الذى كان يهاجم البلاد من آن لآخر خاصة فى أعوام

إستبحار النيل أو الشدة أى نقص الفيضان . كذلك كانت تمارس عادة التخلص من الأطفال الرضع الزائدين عن الحد بالقائهم فى أكوام نفايات المدينة ، حيث تخصص بعض المصريين - الذين تحرم ديانتهم قتل الأطفال - فى التقاط هؤلاء الرضع وتربيتهم ، بعضهم كانوا يتبنونه والبعض الآخر كانوا يبيعونه كرقيق . كل هذا جعل حجم الأسرة محدوداً ، غير أن كشوف التعداد والأحصاء لم تكن تشمل عدد الأبناء الغائبين او أولئك الذين كبروا وإنفصلوا عن أسرهم . هناك أسر كانت كبيرة العدد ، وتشمل الى جانب الأبناء زوجاتهم ، واولادهم ، واحفادهم ، بل وفى بعض الاحيان والدي الزوجات وبعض العمات والأقارب والأصهار يعيشون فى بيت واحد كما كان كل رب أسرة يمتلك واحداً أو أثنين من الرقيق ، وأحياناً أكثر ، ولنأخذ نموذجا لأحدى هذه الأسر الكبيرة التي ينطبق عليها مصطلح جمال حمدان « مجتمع النمل » : نجد الزوج يبلغ الخمسين من عمره ، بينما أخته وزوجته فى نفس الوقت تبلغ الرابعة والخمسين ، ولهم أربعة أبناء تتراوح أعمارهم ما بين التاسعة وبين العشرين ، وإبنة واحدة عمرها سبع سنوات ،ثم زوجه الابن الأكبر ، ولها توأمان عمرهما عام واحد ، وزوجة الابن الثانى ، ولها ولدان صغيران ، وثلاثة أشقاء لرب الأسرة أعمارهم تتراوح ما بين ١٩ و ٣٤ عاماً ، وزوجة ابن الشقيق الأكبر ولها ابنه عمرها عام واحد ، وجد هذه الرضيعة لأمها وعمرها ٤٤ عاما وزوجته التى هي في نفس الوقت أخته البالغة من العمر ٥٢ عاماً ، ولهما إبن عمره ثمانية أعوام ، وأشقاء زوجة الابن الثانى وعددهم ثلاثة تتراوح أعمارهم ما بين ٢٦ و ٥٢ عاماً ، وأصغرهم متزوج من أخته وعمرها ٢٣ عاماً . ودون في الأخطار التعدادى أن جميع أفراد هذه الاسرة التى تتكون من سبع عشرة بالغا وسبعة أطفال كانوا يعيشون فى بيت من بيوت المدينة[٢٩] .

وإذا استعرنا أيضا قول جمال حمدان « بأن لا شيء كان يبز خصوبة التربة سوى خصوبة المرأة » فقد ظلت سن الأنجاب للمرأة تتراوح ما بين ٢٥ الى ٣٠ عاما ، وكانت ولوداً ، غير أن إرتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال الرضع حد من زيادة السكان وهنا تنطبق نظرية آرنولد تونيبى فى التحدي والاستجابة Challenge and response : كما كشفت الحسابات

والأحصائيات أن عدد الذكور البالغين كان يتناقص بنسبة النصف كل عشر سنوات ، وأن من بين من يتبقي منهم ليصل الى سن الخامسة عشر نصفهم فقط هو الذى يعيش ليصل الى سن الخامسة والثلاثين ، هذه الاستنتاجات الأحصائية تفسر السبب فى وجود حالات إجتماعية متنوعة في مصر مثل كثرة عدد الأرامل ، وتعدد حالات الزواج الثانى ، وانصاف الأخوة من الأب وغير ذلك كما سبق أن أشرنا الى ارتفاع نسبة وفيات الأمهات أثناء حالات الوضع(٣٠) .

عادة التخلص من الأطفال :

كان المستوطنون الأغريق يمارسون عملية غريبة وغير إنسانية فى تنظيم الاسرة وهى تقليل عدد الأثاث بحيث لايزدن عن واحدة أو اثنين فى الأسرة الا فى حالات نادرة وربما كان ذلك لاسباب إقتصادية ، فالقدرة الأنتاجية للمرأة فى العصور القديمة أدنى بكثير من قدرة الرجل الذى هو عصب الحياة فى المجتمعات الزراعية كما أن الأبنة كانت مكلفة في تربيتها وأكثر تكلفة عند تزويجها عندما تدفع الدوطة (أو المهر) لعريسها ، كما كانت طوال حياتها فى حاجة الي من يعولها ويدافع عنها ، ومن ثم وجدوا الحل الذى يتمثل فى التخلص من الأناث أو حتى الذكور الزائدين عن الطلب بالقائهم فى أكوام القمامة خارج المدن حتى يلاقوا حتفهم أو تأكلهم الضوارى . هذه العادة لم تكن تمارس عند الأغريق المستوطنين فى مصر فقط، بل نجدها عند شعوب أخرى مثل وأد البنات عند العرب فى الجاهلية ، وعند بعض المناطق الفقيرة فى الهند في الوقت الحاضر ، فى حين أن كانت الديانة المصرية القديمة تنظر الي هذا التصرف بأنه مخالف لها . ففى الترانيم التى كانت تنشد الى إيزيس ، كانت تذكر أنها لم تمنع اللبن قط عن فم رضيع ، كما أن صورها المتعدده التي تظهر علي الأثار كانت تصورها وهى تمد ثديها الملىء باللبن لفم ابنها الصبى حورس (يصور حورس صبيا يرضع وليس طفلا) وهذا مبالغة فى الأمومة.

ونتيجة لذلك كان المصريون يلتقطون هولاء الأطفال المنبوذين من أكوام النفايات لتربيتهم واتخاذهم أبناء لهم أو يبيعونهم كرقيق ، ولعلنا نذكر ما ورد في سورة يوسف في القرآن الكريم : «وقال الذى إشتراه من مصر لأمراته اكرمى مثواه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولداً » وكانت ظاهرة التقاط

الرضع من أكوام القمامة « εx κοπϱιας αvελειν » تسبب مشاكل ومتاعب قضائية ، وسبق أن أشرنا الى المادة ٤٣ من لائحة الاديوس لوجوس التى أنذرت أن أى مصرى يلتقط ولدا من أكوام النفايات ويتخذه ولداً تصادر ربع ممتلكاته بعد موته . ومن أشهر القضايا التى أثارها ذلك الأمر النزاع القضائى الذى تورده إحدى الوثائق البردية[٣١] المؤرخة فى عام ٤٩م حول أحد هؤلاء الملتقطين . فقد إلتقط رجل مصرى إسمه بسوريس من أحد الكوام نفايات مدينة أو كسيرينخوس طفلا ، أطلق عليه إسم هيراكلاس ، وعهد به الى مرضعة تدعى سارايوس بعقد لمدة عامين . وبعد مرور عام إدعى بيسوريس أن المرضعة أهملت الرضيع فأخذه منها ، غير أن المربية انتهزت فرصة غياب بسوريس عن دارة فتسللت اليه واستعادت الرضيع ، فأقام بسوريس دعوى ضدها أمام حاكم الأقليم ، وإدعت فى المحكمة أن هيراكلاس اللقيط قد مات ، وأن ذلك الذى أخذه منها بسوريس ليس هيراكلاس ولكن ابنها من بطنها . ووقع حاكم الأقليم فى حيرة وأصبح فى موقف أشبه بموقف سليمان عليه السلام ، لكنه أتخذ قرارا حكيما يحمل روح التعقل فى الأدارة الرومانية ، إذ ذكر أن الطفل فعلاً يشبه المرضعه سارايوس وأن سوف يصبح ابنها إذا ما قدمت مايثبت موت هيراكلاس ، وفى نفس الوقت تدفع غرامة الأهمال طبقا للشرط الجزائى المتضمن في العقد المبرم بينهما[٣٢] .

وفى عقد آخر مؤرخ فى الاسكندرية فى العام الثامن ق . م تقر امرأة « تروملت » بعد زواج دام عاماً ونصف العام انها تسلمت من أم زوجها المهر الذى كانت قد دفعته لزوجها الراحل وتتنازل مقابل ذلك عن أى مطالبة لها بحقها فى الأرث في أرضه حيث ترد هذه العبارة : « وبالرغم من انها تحمل فى احشائها جنيناً لكنها لن تطالب باى حق بخصوص حضانته ، لأنها إكتفت [بما اخذت] . لكنها تحتفظ بحقها فى إلقاء الجنين فى العراء وان تقترن بزوج اخر »[٣٣] .

الزواج والطلاق

الزواج والطلاق وما يتبعه من مشاكل إجتماعية كان المحور الذى دارت حوله شئون الأسرة والتى هى فى الأساس الخلية الأولى للمجتمع فى كل عصور التاريخ ، اذ نجد فكرة الزواج تلقي بظلالها ليس فى العقود

الرسمية ، بل حتى فى الخطابات الشخصية والمناسبات الأجتماعية ففى خطاب شخصى كتبت إمرأه تسمى بلوتوجينيا Ploutogenia الى أمها قائلة « اكتبى لي عما إذا كانت إبنتك ستتزوج وانا سوف اجيء »(٣٤) ، كما أن دعوات الحضور الى ولائم الزفاف كثيرة ومتعدده ، وهي عادة توزع قبل الموعد المحدد لهذه المناسبة بيوم واحد لأنها كلها تكرر عبارة غداً ενΤηαυπτοθ aupiov مثل الدعوة التى ترجع الى القرن الرابع الميلادى والتى صدرت فى اوكيسرينخوس وهذا نصها : « يدعوك ثيون بن اوريجينيس لزواج اخته غداً الموافق التاسع من شهر طوبة الساعة الثامنه(٣٥) [الثانية بعد الظهر] » أو « ديونيسوس يدعوك للغداء بمناسبة زواج أولاده فى بيت اسخوريون غداً الموافق الثالث عشر من شهر هاتور الساعة التاسعة(٣٥) [الثالثة بعد الظهر] » أو : « هيرائيس تدعوك للغداء بمناسبة زواج ابنائها فى بيتها غداً الموافق الخامس [من هذا الشهر] فى الساعة التاسعة [الثالثة مساءً] » .

ارسال دعوات الزواج قبل موعد الزواج بيوم واحد

ومن ثم يتضح من هذه الدعوات أن الزواج كان إحدى المناسبات السارة التى يتجمع فيها الأصدقاء والأحبه على مائده وليمة ، والتي كانت على ما يبدو جزءاً من عملية إشهار الزواج وكان الوقت المفضل هو الساعة الثالثة بعد الظهر ، وقلما كان فى الساعة الثانية ظهراً . وبالرغم من أن الدعوات كانت توزع قبل موعد الحفل بيوم واحد إلا أن الأصدقاء كانوا يعلمون مسبقاً بموعدها وتاريخها ، اى أن هذه الدعوات كانت تقليداً وطقساً إجتماعياً من طقوس الزواج . وكان الزواج يدبر بين افراد الأسرة ، وفي بعض الحالات كان الزوج يطلب مشورة رب معين قبل الأقدام على الزواج كما فعل المدعو ميناندر : « إلى زيوس هليوس إلى سيرابيس العظيم وإلى الأرباب المرتبطين بهما ميناندر يسأل هل سمح لى بالزواج أجبنى عن ذلك »(٣٦) .

أما عن عقود الزواج فقد كانت كثيرة . وكانت الصيغة المتبعة في عقود العصر الروماني متأثرة بروح القانون الروماني والضمانات الحافظة لحقوق الزوجة خاصة فيما يتعلق بمهرها (Φερνη) ومتعلقاتها الشخصية الثمينه (παρα Φερνα) كالحلى وادوات الزينه والثياب والتى يحق

كانت العقود متأثرة بروح القانون الروماني والضمانات التى تحفظ حقوق الزوجة

لها استعادتها إذا حدث الأنفصال لكى يعينها على الحياة ، ولهذا فهو عقد قانوني اكثر منه اتفاق زواج بعكس ما كان في العصر البطلمي ، وعادة كان والد العريس أو الوصي عليه هو الشاهد على العقد والضامن لأرجاع المهر في حالة الطلاق .

ولقد كانت الأسر تحدد عدد البنات فيها بواحدة أو اثنتين على الأكثر خوفاً من المهور العالية التى كانت تكلف والد العروس الشيء الكثير ، فقد كانت الأسر تتباهي بدفع المهر الباهظ Φερνη لمن يتزوج ابنتها وتشتري لها مستلزماتها الخاصة παραΦερνα وكلما زادت التكاليف كلما كان ذلك إعلاناً عن درجة الأسرة العالية في السلم الأجتماعي . ففي إحدى وثائق البردي التي ترجع الي عام ١٢٧ ميلادية حملت عروس معها الي بيت زوجها مهراً نقدياً قدره ١٨٠٠ دراخما بالأضافة الي متعلقات شخصية خاصة بها من حلي وأساور وملابس وأدوات زينة ، وبلغ جملة تكاليف المهر والمتاع حوالى ٤١٠٠ دراخما(٣٧) .

ولقد كان هناك نوعان من الزواج : الزواج الموثق εγγραΦος γαμος عن طريق عقد مكتوب من نسختين يحتفظ كل طرف بنسخة ، يقر فيه الزوج تسلم المهر φερνα ومتاع العروس παρα φερνα ويعترف بحقها في إستعادته في حالة فشل الزواج ، ويقر بأن وضعها هو وضع زوجة وليس خليلة . أما النوع الثاني من الزواج وهو مستوحى من تقاليد المجتمع المصرى ، وهو الزواج العرفي أى غير الموثق αγραΦος γαμος وهو يتم أيضاً عن طريق تعاقد شخصي بين طرفين لكن غير مسجل رسمياً بالرغم من الأعتراف بشرعيته كتعاقد وليس عقداً ، أى أنه اشبه بأتفاق بين رجل وإمرأه أن يعيشا تحت سقف واحد كرجل وإمرأة ανηρ kal γυνη ولكن بشرط أن يمكن إنهاء هذا الأتفاق بناء على رغبة أحد الطرفين دون التزامات أو جزاءات ، وفي كثير من الاحيان كان هذا الزواج زواج تجربة يمكن أن يتحول الي زواج كامل الشرعية εγγραΦος γαμος(٣٨) .

ولقد اختلفت عقود الزواج في مصر زمن الرومان عنها زمن البطالمة ، ففي العصر الروماني تأثرت العقود بروح القوانين والأجراءات واللوائح التي ادخلها الرومان ،اذا بدأت العقود تتضمن عبارات قانونية وشروط

جزائية ، وحق التقاضي والأقرار بتسلم مهر الزوجة ووجود الضامن ، والتأكد من سماع اجابة الزوجين على السؤال التقليدي عما اذا كانا يقبلان الدخول في علاقة زوجية . وكان أغلب الفتيان يتزوجون فيما بين الثامنة عشرة وسن العشرين . وكانت الزوجات عادة يصغرن ازواجهن ببضع سنوات ، ونقابل فتيات أصبحن أمهات في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة . ومن بين الشروط التي كان يتضمنها عقد الزواج بعض الصيغ المكررة مثل : «ان يعيش الزوجان معاً بلا مناغصات ، ملتزمين بواجبات الزواج ، وأن يمد الزوج زوجته بكل مطالب الحياة في ضوء امكانياته[٣٩] وفي عقد زواج إحدي بنات مواطني عواصم الأقاليم كان العقد يشمل شروطاً متبادلة بين العريس والعروس مثل : «ويتعهد الا يسيء معاملتها او يطردها او يسبها او يحضر امراة اخرى الى بيته والا كان عليه أن يرد المهر المدفوع مضافاً اليه نصفه . وعليها أن تؤدي واجبها كاملاً نحو زوجها ونحو حياتهما المشتركة ، ولاتقضي يوما او ليلة بعيداً عن البيت دون استئذان ، او تدنس شرفه او تسيء الى بيتهما المشترك ، أو أن يكون لها غراميات مع رجل آخر ، واذا ثبت ادانتها عند محاكمتها لأي من هذه المخالفات . تحرم من استرداد قيمة المهر . بالأضافة إلى ذلك فان الطرف المخالف يكون ملزماً بدفع الغرامة المدونة[٤٠] .

أما عن ظاهرة الطلاق فقد كانت شائعة وغير معقدة ، غير أننا نلاحظ انه نادراً ما كان يتم برضى الطرفين ، وعندما يحدث كان على الزوج أن يرد المهر الذى تسلمه والمتاع الذى أحضرته الزوجة أو ما يقابله ثمنا إذا كان قد تصرف فيه . وهذا خطاب زوج ولهان بزوجته التى تركته وهربت مع عشيقها :

«من سيرينوس الى إيسيدورا شقيقته وزوجته . كثير التحيات . وقبل كل شيء اصلي من اجل صحتك . وكل صباح ومساء اقدم فروض الخشوع باسمك امام ثويثريس thoeris (تاورت بالمصرية وهى إنثى فرس النهر) التى تحبك . اريدك ان تعلمي انه منذ أن تركتني وانا فى حزن ابكى ليلاً واندب نهاراً فمنذ ان استحممت معك فى ١٢ بابه [اكتوبر] ، لم استحم ولا وضعت على جسمى زيتاً حتى ١٢ هاتور [نوفمبر] عندما تلقيت خطابك الذى يحرك الحجر فلقد اثارتنى كلماتك كثيراً . وفى الحال كتبت رداً اليك وسلمته فى الثانى عشر (أى فى نفس اليوم) مغلقاً مع خطاباتك . وبصرف النظر عما تقولينه وتكتبيه : «كولوبوس جعلنى محظيه» ، غير انه قال لى : «زوجتك ارسلت تقول لى : «أنه نفسه باع القلادة وهو نفسه الذى وضعنى فى القارب» هل تقولين ذلك حتى لايوثق بى بخصوص ما وضعته فى المركب . انظرى كم من مرة ارسلت فى طلبك

اعلمينى عما إذا كنت ستاتين ام لا (العنوان): يسلم إلى إيسيدورا عن طرف سيرينوس(٤١).

من رساله الزوج المكلوم يتبين أن الزوجة هى التى تريد فسخ عقد الزواج بالهروب من البيت والاقامة مع العشيق كولوبوس. غير أنه فى حالات أخرى نجد والد الزوجة هو الذى يقوم بفسخ عقد الزواج، اذ لم تكن العصمة فى يد الزوج أو الزوجة بل فى يد والد الزوجة، وذلك طبقا لقانون عتيق متوارث من قوانين مدينه أثينا فى العصر الكلاسيكى الذى يعطى لوالد الفتاه الحق في التفريق بينها وبين وزوجها - حتى ولو كان ذلك ضد رغبتها - لكى يزوجها لرجل آخر، وتظهر قسوة هذا القانون، وسوء استخدام هذا الحق من خلال نظر دعوى أقامتها فتاة ضد أبيها الذى حاول التفريق بينها وبين زوجها العاشقة له. وبعد أخذ ورد ومنازعات قضائية استمرت عامين، تم الفصل فى هذه القضية عام ١٨٦ م، اذ أن الادارة القضائية الرومانية لم تستسغ مسلك الأب، وحاولت الالتفاف حول ذلك القانون الأثينى. فقد قدم محامى الزوجة مبرراته بأن هناك سابقة قانونية وضعها والى مصر عام ١٢٨م بأن الفيصل فى هذا الأمر هو مع من تريد الزوجة أن تعيش(٤٢).

وفى قضية أخرى عرضت أمام الأستراتيجوس الأعلى Epistrategos أو نائب الوالى لحكم القطاع الأقليمى عام ١٩١ م أوصى فيها بأن تطبق فتوى لأحد الولاه السابقين بأن تسال الزوجة عن رغبتها، فسئلت وكان ردها أن تبقى مع زوجها ومن ثم تم الحكم فى القضية حسب رغبتها، ولقد ظل القانون الرومانى لايستيغ هذا الحق الأبوى. ولذلك بعد عام أو عامين من هذه القضية الأخيرة افتى أحد فقهاء القانون فى رأى استشارى قدم لمحكمة محلية حيث قال فى صراحة ووضوح، ما دام الأب قد اعطى ابنته فى زواج فانها لاتصبح منذ ذلك الوقت تحت سلطة ابيها وهذه احدى مواد القانون الرومانى(٤٣).

ويبرر الاستاذ ونتر عدم وجود خطابات غرام تكشف عن العاطفة المشبوبة بين المحبين بأن ذلك ليس يعنى غياب العاطفة الجياشة، انما خطابات الغرام من خلق المجتمع الحديث بكل تعقيداته ووضعه العوائق والشروط الدينية والقانونية، لكن فى مدن مصر وقراها لم تكن هناك

مشكلة الحرمان الجنسى، اذ كان الفتيان والفتيات يتزوجون فى سن مبكرة، كما أن خطابات الغرام ابداع ادبى، وخلق صورة مثالية للحبيب يساعد عليه سعة الاطلاع ووقت الفراغ ولم يكن ذلك متاحاً فى المجتمع المصرى فى عصر الرومان[٤٤]، لكن العاطفة المشبوبة كانت قائمة ولكن بين الزوجة والزوج الغائب ، فتقرأ فى احدى الوثائق قلق زوجة اسمها الينى على زوجها أبو للونيوس حاكم الأقليم الذى انهمك فى القتال الى جانب الرومان فى اخماد فتنة اليهود عام ١١٧ م[٤٥].

كذلك فقد عثر على العديد من شهادات الوفاة مما يظهر دقة دفاتر وسجلات الأحصاء، فقد كانت أسماء المتوفين تسقط أولا بأول من سجلات الضرائب والتعداد، فعندما تحدث حالة وفاة فى الأسرة كان يتوجب على أقرب الأقربين أن يخطر الكاتب الملكى فى المدينة أو القرية وكانت اخطارات الوفاة تكاد تتبع صيغا ثابته مثل ذلك الأخطار الذى يرجع الى عام ١١٢م الذى عثر عليه ونشره بوك[٤٦] Boak . عام ١٩٢٩. وهذا نصه .

«الى بطليموس كاتب قرية كرانيس من سامباس بن باكيسيس بن باتيوس وامه تكوتيس، من سكان قرية كرانيس المشار اليها اعلاه ان ابى المذكور اعلاه - باكيسيس - بن بيتاوس من تيوس وامه سامباث (وس) والمعفى من ضريبة الراس بسبب تعديه السن المحدد، توفى فى القرية المذكورة فى شهر هاتور من السنة الخامسة عشرة (لحكم) الامبراطور القيصر نرفا تراجان اغسطس جرماينكوس داكيكوس. وعلى ذلك فانى اقدم هذا الأخطار حتى يدرج إسمه فى قوائم الموتى»[٤٧].

وهناك اخطار آخر مؤرخ فى عام ٤٨ م هذا نصه :

«الى هرمايوس، الكاتب الملكى من تابابيس ابنة باسيس ومعها الوصى عليها وقريبها ادراستوس ابن ديوجنيس : توفى زوجى أبيس ابن حورس، الذى يسدد ضريبة الراس فى قرية فيلادلفيا - فى شهر ابيب (يونيو - يوليو) من السنة الحالية السابعة من حكم تيبريوس كلاوديوس قيصر اغسطس جرمانيكوبس القائد الأعلى. وعلى ذلك فانى اطلب ان يدرج اسمه بين المتوفين.

تابابيس - حوالى ٤٥ عاما بندبة على قدمها الأيمن. وأدراستوس حوالى خمسين عاماً بندبة على احد اصابع يده اليمنى. انا تابابيس السابق ذكرها

ومعي الوصى على ادراستوس السابق ذكره نقسم بتيبريوس كلاوديوس قيصر اغسطس جرمانيكوس القائد الأعلى أن ما كتب جميعة صحيح(٤٧).

أما في حالة الموت بسبب حادث وقع ، فقد كان كاتب القرية يخطر حيث يستدعي طبيب عام لتوقيع الكشف الطبي وتحديد سبب الوفاة وكتابة تقرير بذلك على هذا النحو :

« الى كلاوديانوس ، الأستراتيجوس ، من ديونيسيوس من أبو للودوروس بن ديونيسيوس من مدينة اوكسيرينخوس طبيب عام . لقد امرتني اليوم من خلال هيراقليديس مساعدكم لفحص جثه هيراكس الذى وجد مشنوقاً ، وأن ارفع اليكم وجهة نظرى فيها . وبعد أن قمت بفحص الجثة في حضور المساعد السابق ذكره في بيت اباجاثوس ابن .... ميروس بن سارابيون في حي الشارع العريض ، تبين لى انها قد شنقت بواسطة حبل . وهذا تقريرى(٤٨).

وهناك نموذج آخر لأمر بتوقيع الكشف على طفل لقي مصرعه فى حادث سقوط من أعلى منزل وتقرير الطبيب حول هذا الحادث :

« من هيراكس - إستراتيجوس إقليم اوكسيرينخوس ، الى كلاوديوس سيرينوس مساعده (هذه) نسخة من الطلب الذى قدمه لى ليونيداس المسمى ايضاً سيرنيوس مرسل اليك طيه حتى يمكنك ان تاخذ طبيباً عاماً وتقوم بتفحص جثه الميت المشار اليه وبعد تسليمها للدفن قدم تقريرا مكتوباً ، موقع بواسطتى . العام الثالث والعشرين من حكم ماركوس اوريليوس كومودوس انطونينوس قيصر مولانا السابع من شهر هاتور [٤ نوفمبر عام ١٨٣ م يليه نص البلاغ الأصلى بخط مختلف].

إلى هيراكس الأستراتيجوس من ليونيداس المسمى ايضاً سيرنيوس امه تدعى تاوريس من سنبتا فى ساعة متاخرة من امس السادس [من هاتور] اثناء حدوث فرح فى سنبتا حيث كانت راقصة الصاجات تقوم بعرضها المعتاد فى بيت بلوتيون - زوج ابنتي - رغب عبده (المسمى) ابا فروديتوس - البالغ من العمر ثمانية اعوام ان يطل بانحناء من سطح البيت المذكور لكى يرى راقصة الصاجات ... فسقط ولقى حتفه . وعلى ذلك اقدم هذا الطلب واطلب منكم لو تكرمتم ان تعين واحدا من مساعديك للحضور الى سنبتا حتى يمكن لجسد ابافروديتوس ان يلقى التسجيه اللازمة والدفن - العام الثالث والعشرين من حكم الأمبراطور القيصر ماركوس اوريليوس كومودوس انطونينوس اغسطس بطل ارمينيا وميديا وبارثيا وصرماتيا والمانيا الأعظم . السابع من هاتور. قدم لى - انا - ليونيداس المسمى ايضاً باسم سيرنيوس(٤٩).

لقد كان الموت ملمة قاسية للأسرة لاعلاج لها سوى الصبر . ولذلك فخطابات العزاء في العصر الوثني عموماً قليلة . وهذا نموذج لرسالة عزاء ترجع الى القرن الثانى الميلادى :

« ايريني الى تاءونو فريس وفيلون تشجعا جيدا . لقد حزنت وبكيت بحرقه على ذلك المبارك مثلما بكيت على ديديماس وقمت بعمل كل ما يتوجب عمله وكل من فى معيتي : ابافروديتوس وثرموثيون وفيليون وابو للونيوس وبلانتاس . لكن ليس هناك فى الواقع شىء يمكن لأحد ان يفعله فى مواجهة هذه الأشياء . فليواسى بعضنا البعض ودائماً . الأول من هاتور(٥٠) .

وهذا العزاء يرجع الى القرن السادس كتبه مسيحى متأثر بروح التوراة :

« مثل امنا حواء ومثل مريم وكما ان الله موجود ياسيدى لم يكابد ابدا احد ما كابدت سواء كان تقيا او شقياً . ومع ذلك فذنوبك معدومة . دعنا نقدس الرب لأنه هو الذى اعطى وهو الذى اخذ فلنصلى حتى يطيب المولى ثراهم ويهبك ان تتغنى بينهم فى الفردوس عندما تحاكم ارواح الرجال لأنهم ذهبوا الى احضان ابراهيم واسحق ويعقوب ، وإني لاتوسل اليك يامولاى لاتعبىء روحك بالحزن وتدمر شئونك . ولكن صلى ان ينزل عليك الرب بركاته . لأن للرب اشياء كثيرة طيبة ويجعل من الكلوبين منشرحى الصدور لو طلبوا بركته ونأمل فى الرب ان يبعث لك بالفرح خلال هذا الحزن(٥١) .

الرقيق :-

لم تخل اسرة من وجود واحد أو اثنين من الرقيق وكذلك بعض الجوارى والأماء وبعض الأسر امتلكت أكثر من ذلك . فمن إحدى الوثائق(٥٢) التى ترجع الى عام ١١١ م عرفنا أن احدى الأسر العريقة فى الأسكندرية والتى حصلت على حقوق المواطنة الرومانية ، وتتكون من والد وثلاثة أبناء ، كان فى حوزتها مائة من الرقيق . وبالرغم من ذلك فأن ظاهرة الرقيق فى مصر فى عصر الرومان كانت أقل بكثير من أى ولاية أخرى من ولايات الامبراطورية الرومانية وذلك لوفرة الأيدى العاملة ورخص أجورها . وبالرغم من ذلك يرد ذكرها فى كثير من وثائق ذلك العصر ، ومنها نعرف أنهم كانوا يخدمون فى المنازل والحقول والحوانيت(٥٣) ، كما أن بعضهم كان يدرب على بعض الحرف والمهارات التى كانت تدر دخلاً كبيراً على ملاكهم ، ففى المجتمعات الزراعية يقل

وجود الرقيق، بعكس الحال فى المجتمعات الرعوية والتجارية والصناعية، وذلك لأن وفرة الأيدى الرخيصة كانت تغني عن اقتناء الرقيق، لأنها لا تكلف ما يكلفه الرقيق من اعانة وتسديد ضريبة الرأس عنه وعن أبنائه اذا كان العبد منجبا وله أبناء بلغوا سن الرابعة عشرة، فضلاً عن ركود رأس المال المستثمر في شراء الرقيق. كما أن طبيعة مصر كانت تختلف عن طبيعة ايطاليا وشمال أفريقيا حيث يوجد فيهما الضياع الشاسعة Latifundia ومناطق الرعى التى تحتاج الى الرقيق للعمل فيها، أما فى مصر التى هى عبارة عن شريط ضيق من الأرض الزراعية المزدحمة بالسكان مما قلل من ظهور المزارع الشاسعة التى يملكها أفراد قلائل، انما كان نظام الملكية الزراعية السائدة في مصر هو الحيازات الصغيرة التى تقوم على زراعتها أصحابها بأنفسهم أو بمساعدة الأجراء والعمال الموسميين.(٥٤) صحيح كان فى مصر بعض الضياع الكبيرة بخلاف ضياع الأباطرة وأسرهم - والتى تكونت لأسباب اقتصادية منذ القرن الثالث الميلادي وما يليه، والتى حولت المزارعين ذوى الملكيات الصغيرة الى أرقاء فى الأرض Coloni، وهؤلاء كانوا أتعس حالا من الرقيق المملوك. ومن الأسباب التى لم تشجع على رواج سوق الرقيق فى مصر قيام السلام الروماني Pax Romana بعد فتح مصر، حيث توقفت الحروب مما أدى الى نضوب مصادر الرقيق وارتفاع أسعارها، بالأضافة الى ذلك فأن إرتفاع نسبة الوفيات بين أبناء الرقيق قبل سن العمل قلل من الاستفادة من تشجيعهم على الانجاب وبيع هؤلاء الأبناء كنوع من الأستثمار لرأس مال المالك. فضلا عن أن الرقيق كلما تقدم بهم العمر قلت أثمانهم وهذا يعني تآكل رأس المال المستثمر فى شرائهم، كذلك لم يكن إستيراد الرقيق من الخارج مغريا للمستثمرين، وذلك لاختلاف البيئات التي كان الرقيق يجلبون منها، وعدم تأقلمهم بسهولة مع البيئة المصرية، بالإضافة إلى إختلاف لغاتهم وطباعهم. ولهذا السبب كان الرقيق المولودون فى مصر أغلى ثمنا من أمثالهم الذين جلبوا من مناطق مختلفة من الخارج، ومن ثم ظهرت مصطلحات فى وثائق بيع الرقيق مثل «مولود بالأسرة» أو «رقيق بلدى» كرمز لجودة النوع، كما نجد مادة من بين مواد لائحة الأديوس لوجوس تحظر تصدير الرقيق الى خارج مصر. وبالرغم من ذلك فأن نسبة ضئيلة من الرقيق كانت تستورد من بعض المناطق التى

أشتهرت بتصدير الرقيق مثل إثيوبيا وموريتانيا ، وآسيا الصغرى وبلاد الشام ، وفلسطين ، وبلاد الرافدين . كما أن التقاط الرضع المنبوذين من أكوام النفايات كانت مهنة مربحة يقوم بها بعض المصريين حيث يربون هؤلاء الأطفال ثم يعرضونهم للبيع كرقيق ، وكانوا يباعون بأثمان باهظة ، ومن ثم حظرت لأئحة الأديوس لوجوس تبنى هؤلاء اللقطاء كأبناء أو بنات أحرار وجعلت عقوبة ذلك مصادرة ربع ممتلكات من يفعل ذلك .

وعلى العكس من معاملة الرومان للرقيق ، كان الرقيق فى مصر يعاملون معاملة انسانية ، كما لو كانوا أفراداً من الأسرة ، إذ نعرف من وثائق البردى أن بعض الرقيق أعطوا الفرصة لتعلم القراءة والكتابة والأختزال ، وأصول الحساب ، كما تردد فى الوثائق أن بعضهم أصبحوا معلمين خصوصيين يتقاضون رواتب ، كل ذلك كان يدر دخلاً طيبا على مالكيهم ، كما أن المعاشرة والألفة بين الرقيق وسادتهم والتى كانت تمتد الى أجيال متعاقبة ، أوجدت نوعاًمن العلاقات الأنسانية والوفاء الذى يصل إلى قيام عاطفة مشبوبة بين الرقيق واسيادهم ، ويظهر ذلك من هلع جارية اسمها تاوروس على سيدهاالغائب في ساحة الوغي يحارب اليهود الثائرين جنبا الى جنب مع الرومان ، هذه الرسالة بما تضمنته من عبارات الحب والأخلاص أثارت شجن واعجاب علماءالبردى ان تصل العواطف إلى هذه الدرجة من الشعور الجياش ، تقول الرسالة :

«من تاوروس الى مولاها ابو للونيوس . تحيات كثيرة جداً . احييك ياسيدى قبل كل شيء وابتهل دائما من اجل صحتك . لقد قلقت عليك يامولاى قلقاً شديداً عندما سمعت انك معتل الصحة . لكن الشكر لكل الآلهة لأنها تحفظك من كل سوء اتوسل اليك يامولاى - إذا ان اطير لآتى اليك واحييك لأنى فى هم وضيق لعدم رؤيتى إياك . ترفق بنا وابعث لى خطاباً ان كل شيء عندنا يامولاى على ما يرام وداعاً يامولاى . ٢٤ ابيب [١٨ يوليو] (عام ١١٧) . العنوان على ظهر الرسالة الى ابو للونيوس المدير(٥٥) .

ولذلك كثيراً ما كان هولاء الرقيق المخلصين يكافئون من أسيادهم بالحصول على العتق ويتحولون الى أحرار ، ويظهر ذلك فى كثير من الوصايا التى كتبها أصحابها ففى وصية حررت عام ١٥٦(٥٦) . أوصى

صاحبها بعتق أربعة من رقيقة بعد موته مكافأة لهم على خدمتهم الطويلة له بوفاء واخلاص، وامتناناً لحبهم له، بينما يترك لورثته باقي الرقيق وكل ما ينجبونه مستقبلاً من سلالة. وفي حالات أخرى نجد المالك يعتق العبد أثناء حياته، خاصة أن بعض الرقيق الذين أظهروا مهارات في الحرف التي تعلموها كانوا يقتصدون مما يتركه لهم أصحابهم من بعض الأموال كمصروف يومي بعد أن يحصلوا منهم على أجورهم، ومن المبالغ المقتصدة كانوا يشترون حرياتهم. وكان كهنة المعابد يشجعون على هذه الظاهرة(٥٧).

الثقافة والتعليم:

إن العثور على عدد كبير من الوثائق الأدبية التي شملت روائع الأدب الأغريقي القديم لمشاهير الشعراء والأدباء إلى جانب مؤلفات أولئك الأقل شهرة يعطينا فكرة عن الأهتمام بمستوى الثقافة والتعليم في عواصم الأقاليم المصرية خلال العصر الروماني، كما تدل على رواج مهنة النسخ والنساخين الذين قاموا بدور المطبعة أو الآت التصوير الكتابية في عصرنا الحديث. وكان هؤلاء ينسخون الأعمال الكبرى التي تلقى طلباً من قبل القراء ذوى الثقافة الراقية والرفيعة، كما ساعد على ذلك وفرة ورق البردى وتقدم صناعة الأحبار وهما ظاهرتان كانتا موجودتين في مصر منذ عهود الفراعنة، كما أن تمثال الكاتب المصرى الذى يرجع إلى الدولة القديمة يدل على عراقة هذه المهنة. ولقد أوصى الحكيم المصرى داواوف بن خيتى إبنة بيبى: «أن يضع قلبه فى كتبه ويحبها حبه لأمة لأنه لا يوجد شيء يسمو على الكتب. وبالمثل فإن وجود الوراقين والنساخين فى مصر فى عصر الرومان ما هو إلا إمتداد لوجودهم فى عصور البطالمة والفراعنة. وهؤلاء الوراقون كانت لديهم أصول للأعمال الأدبية ويعملون نسخا منها حسب طلب القارىء، بل ثبت من العثور على عدد كبير من الأعمال الأدبية فى بعض البيوت أن بعض الأسر كانت تمتلك مكتبات خاصة بها، كما كان هناك طلبات لاستعارة الكتب(٥٨).

ولقد كان الشاعر هوميروس صاحب الألياذة والأودسا يحتل المكانة الأولى بين القراء وطلاب المدارس، ولذلك كان يكتفى بالإشارة إليه فى

أوراق البردى بأسم « الشاعر » وكانت الألياذة أحب أعماله التي يقرأها المثقفون ويدرسها تلاميذ المدارس كقطع من المطالعة الأدبية ، وحتي الآن تم نشر حوالي سبعمائة بردية وشقافة تحمل أشعار هوميروس ، ويتراوح ماعليها من أبيات من بيت واحد أو أكثر إلي فقرة كاملة ، أو إلي جزء كامل من أجزاء الألياذة الأربعة والعشرين . ويأتي بعد هوميروس في الأهمية أعمال الخطيب الأثيني المفوه ديموستين ويليه شاعر المأساة يوربيديس يليه شاعر الملاحم التعليمية ومعاصر هوميروس الأ وهو هسيودوس فلكل واحد من هؤلاء تم العثور حتى الآن علي مالا يقل عن مائه شذرة أو قطعة من الشقف التي تضم جزءاً من أعماله كانت تقرأ في ذلك الوقت كما نقرأ الآن روائع الشعر العربي ونعلمه في مدارسنا .

وبالرغم من أن بعض هذه الأعمال الأدبية عثر عليها في بعض المنازل السكنية في قرى الفيوم مثل تبتونيس وكرانيس إلا أن الغالبية العظمي استخرجت من أكوام النفايات التي كانت تكوم في شكل تلال خارج المدن والقرى . وللأسف فأن أمل العثور علي وثائق من البردى فى الاسكندرية - مركز الثقافة الأغريقية في حوض البحر المتوسط - معدوم بسبب مناخها الرطب ، وجوها المطير ، وارتفاع مياه البحر الجوفية التى غطت الكثير من الآثار والمقابر ، كما ان محدودية الأرض في الأسكندرية لم يوجد بديلاً للبناء فوق الأماكن القديمة . أما بالنسبة لقرى ومدن الدلتا فالأمل في العصور على الوثائق من البردى فيها أيضا قليل نظراً للتوسع الزراعي ، وارتفاع نسبة المياه الجوفية خاصة بعد بناء السد العالى ، وكذلك نظراً لكثرة شبكات الرى من ترع ورياحات ؛ ومناخ الدلتا المطير نسبياً ، وبالرغم من ذلك فلقد تم العثور على بضع عشرات من الوثائق البردية فى بعض قرى ومدن الدلتا الا أنها كانت فى حالة تفحم وتحلل ، ويبقي الأمل فى قرى ومدن الفيوم والصعيد حيث المناخ الجاف والحار خاصة في المناطق الصحراوية . ففى موقع مدينة أنطينوبوليس (الشيخ عبادة) .استخرج منها وحدها فى شتاء عامى ١٩١٣ـ١٩١٤ حوالى ٢٠٦ وثيقة من بينها حوالى ١٤٨ وثيقة تتعلق بالأدب أو بالعلوم مثل الطب والرياضيات والفلك . كما أن خرائب مدينة بانوبوليس (أخميم محافظة سوهاج) هي المصدر المرجح الذى عثر فيه على احدى مؤلفات

الشاعر الكوميدى ميناندر الكاملة وهى مسرحية « رجل صعب المزاج » . بالأضافة الى أجزاء كبيرة من ثلاثة من مسرحياته الأخرى . ومن أخميم أيضاً استخرج أقدم نص من العهد الجديد وكذلك بعض المؤلفات المسيحية الأخرى اقدمها يرجع الى حوالى ٢٠٠ بعد مولد المسيح . أما أغنى المناطق - بلا منازع - فى العثور على البردى فهو موقع مدينة أوكسيرينخوس (البهنسا محافظة بنى سويف) ، وكان من بينها كمية كبيرة من أوراق البردي الأدبية حتى أن علماء البردى يعتقدون أن هذه الكمية الكبيرة من الأعمال الأدبية ما هى الابقايا ما لابقل عن مكتبتين(٥٩) . القى بمحتوياتها بعد تحول أصحابها الى المسيحية ونبذهم للوثنية وآدابها التي كانت مكروهة في العصر المسيحى . بعد أن حلت التوراة محل المؤلفات الوثنية الأغريقية لتكوين مكتبات خاصة فى بيوتهم . فأحدى وثائق البردى تسجل أجر ناسخ قام بنسج مسرحية أسمها « هاديس » (رب العالم الأسفل والمعادل لاوزوريس) لمؤلفها الشاعر ارسطوفانيس ، واحدى تراجيديات سوفوكليس اسمها ثوستيس Thystes(٦٠) . وفى خطاب بعث به والد الى ولده الذى يتلقى تعليمه العالى فى الأسكندرية طلب منه ان يرسل اليه كتباًعلي عنوان محل اقامته فى اوكسيرينخوس(٦١) . وهناك وثيقتان أخريان : واحدة محفوظة فى ميلانو ، والأخرى فى متحف فلورنسا وهذه الأخيرة كانت فى الأصل سجل ضرائب على بعض الأراضى الزراعية ثم استخدم أحد الوراقين ظهرها ليسجل عليه بياناً بأسماء الكتب التي كلفه أحدهم بشرائها لحسابه الخاص منها عشرون محاورة لأفلاطون ذكرها بالأسم ، وأربع أعمال للأديب المؤرج كسينوفون ، ويضيف قائلاً : « وكل ما تقع عليه يداك من أعمال لهوميروس وميناندر ويوريبيدس وارسطوفانيس » . أما تلك المحفوظة فى ميلانو فهى عبارة عن وصل إستلام الكتب المنسوخة الآتية من الاسكندرية(٦٢) .

عادة جمع الكتب

لقد كانت عادة جمع الكتب إحدي مظاهر الثراء والتباهى ، لكن من المؤكد أن كثيراً من أعمال الأدباء والشعراء الأغريق كان تنسخ فى مصر ، فقد كانت الطبقة الراقية من سكان العواصم تتمسك بأهداب الثقافة والتعليم الأغريقى الكلاسيكى ، وكان ذلك يشمل حتى إقامة العروض المسرحية ، فقد كان وجود المسرح فى كل عاصمة إقليم ضرورة إجتماعية ، وعليه

تعرض الكلاسيكيات الأدبية والأعمال الجديدة وأيضاً كانت تجرى فيه المسابقات والمباريات والمهرجانات الثقافية التي يوزع في نهايتها الجوائز. فقد نشرت قصاصة بروية تعود إلى القرن الثالث الميلادى تحوى فصلاً من إحدى مسرحيات يوربيديس، دون فى أسفلها تعليمات المخرج للمثلين من هذه الفترة ذاتها نعرف من إحدى الوثائق أنه تم دفع مبلغ وقدره ٤٤٨ دراخما لأحد المتخصصين في إنشاد أشعار هوميروس(٦٣)، ودفع مبلغ آخر قدره ٤٩٦ دراخما لأحد الممثلين وهو مبلغ كبير(٦٤) بالنسبة لدخول ذلك العصر الذي نعرف عنه أن أجر البناء الماهر كان لايزيد عن أربعة دراخمات(٦٥) فى اليوم الواحد ولقد أنجبت بعض عواصم الأقاليم المصرية بعض المشاهير فى عالم الثقافة الأغريقية منهم أثينايوس إبن مدينة نقراطيس، وأفلوطين صاحب مذهب الأفلاطونية الجديدة الذى ولد لأسرة رومانية الأصل كانت تعيش فى مدينة ليكوبوليس (أسيوط) ومن المؤكد أن هذين الأديبين الكبيرين كانا يقيمان فى الاسكندرية - مدينة النور والثقافة - في ذلك الوقت. وليس من المعقول أن تكون الأرض التى أنجبتهما قد أجدبت كلية نهائياً.

أما عن الأعمال الأدبية اللاتينية فهى قليلة في مصر، وأغلبها يعود إلي مابعد القرن الثالث الميلادى عندما أدمج دقلديانوس مصر ادماجاً كاملاً فى الأمبراطورية الرومانية، فقد بدأ إستخدام اللغة اللاتينية فى الإدارات الحكومية، ونتيجة لذلك ظهرت المعاجم التي تحمل الألفاظ اليونانية ومايعادلها باللاتينية، والعكس وليس بغريب أن يكون هناك معاجم يونانية مصرية، لكن لم نعثر على شيء منها حتى الآن ورغم ذلك نجد بعض الوثائق التي تدل على إقبال بعض أبناء عواصم الأقاليم من الأغريق على تعلم الكتابة الديموطيقية والهيروغليفية والتي كانت تدرس فى بعض المعابد المصرية. فقد كتبت أم إغريقية لولدها تقول: «عندما نما إلى علمى انك بصدد تعلم الكتابة المصرية (الديموطيقية) غمرنى السرور من اجلك ومن اجلى لأنك سوف تعود إلى المدينة وتعلم الصبية فى بيت فالوا... يس الطبيب وبذلك سيكون لك ضمان فى مواجهة الشيخوخة(٦٦)».

لقد كان التعليم متروكاً للأسرة ولادخل للدولة فيه، فكانت الأسر ترسل ابناءها ليتلقوا تعليمهم على يد معلمين خصوصيين، فإذا ما أتم الصبى تعليمة الأولى يمكن أن يتابع تعليمه العالى فى الاسكندرية، لكن

ليس هذا يعني أن كل أبناء المدن كانوا يلمون بالقراءة والكتابة ، فليس العثور على وثائق بردية يعني أن كل أبناء المدينة كانوا ذوي ثقافة راقية ، أو حتى ملمين بالقراءة والكتابة ، إذ أن كثيراً من الوثائق كتبت نيابة عن أصحاب الشأن لانهم كانوا أميين ولذلك كانت ترد عبارة «كتبت نيابة عنه لانه (أو لأنها) لايعرف الكتابة: εγραφα υπερ αυτου (αυτης) Μη ειδοτος γραμμαια ومن إجراء حصر لمجموعة وثائق تعود للقرن الثالث الميلادى وجد أن حوالي ستماية من أصحاب الوثائق كانوا أميين من بينهم ثلاثة فقط كانوا من أبناء طبقة سكان عواصم الأقاليم metropotites .

لقد شهد القرن الثالث إنكماشاً في الإقتصاد ، وهبط كثير من الأغنياء من مكانتهم العالية لينضموا إلى صفوف الفقراء ، وبالتالي قل الطلب على التعليم الذى كان ضرورة إلزامية de rigueur بالنسبة لأبناء الطبقات الراقية . وفي الحقيقة أن تيارالحراك الإجتماعي لم يتوقف ، فبعض أبناء هذه الطبقة الإجتماعية المميزة هبط بهم الحال إلى صفوف الأغلبية الصامتة المسحوقة من المصريين من أهل الريف ، بل زادت ظاهرة التزواج بين الطبقتين . ونعرف ذلك من إنتشار الأسماء المصرية المتأغرفة . ففى طلب إلتحاق صبى بالجمنازيوم في أوكسيرينخوس ذكر هذا الصبى الذى ولد عام ٢٦٠ م شجرة عائلتة لأثبات عراقته الأغريقية ظهر منها خمسة أجيال من أجداده حملوا أسماء اغريقية ، إلا أن هذا الصبى حمل أسما مصرياً متأغرقاً وهو باترموثيس(٦٧) . رغم كل ذلك لم تتوقف عملية التعليم فى المدن حتى أوقات التدهور الإقتصادى .

أما عن تعليم البنات فقد كان متروكاً لرب الأسرة وليس ضرورة إجتماعية ملزمة لأبناء الطبقة الراقية . ففى ست رسائل تعود إلى مطلع القرن الثاني الميلادى تخص موضوع إبنة حاكم إقليم مغتربة عن بيت أبيها طلباً للعلم بينما فى وثيقة أخرى مؤرخه عام ١٥١ م نجد أحد أبناء الطبقة الراقية فى أرسينوى يوقع نيابة عن أخته لأنها أمية . وفي وثيقة مؤرخة عام ٢٦٣ م قدمت أمرأة اسمها أوريليا ثيسوس والمعروفة أيضاً بأسم لولليانا طلباً إلى والى مصر بلغة راقية يؤكد أنها قد نالت قسطاً عالياً من التعليم ، كما نفهم أيضاً أنها كانت مدركة للقوانين عارفة بحقوقها ، إذ أنها تطالب بتطبيق قانون «الأبناء الثلاثة» الذى كان

اكتافيوس اغسطس قد أصدره فصاحبة الطلب قد حصلت على حقوق المواطنة الرومانية بمقتضى القانون الأنطونينياني الذى أصدره كاراكالا عام ٢١٢ م ولذلك تطالب بتطبيق مزايا هذا القانون عليها لأنها أم لثلاثة أولاد ومن بينها أن يسمح لأم الثلاثة أبناء أن تتصرف في معاملاتها دون وكيل قضائي أو وصي ، خاصة تقول أنها متعلمة وهذا نص الطلب(٦٨) .

[لقد أستنت القوانين] ايها الوالى المعظم ، من اجل ان تمكن النساء اللائى كرمن بحق إنجاب ثلاثة ابناء أن يصبحن مستقلات ويتصرفن بدون وصى عليهن فى اى عمل يقمن به ، خاصة اولئك اللائى ، يعرفن كيف يكتبن ، وبناءً عليه فبما انى ايضاً استمتع بالتكريم السعيد بانى حظيت بانجاب ثلاثة ابناء وبما انى إمراة متعلمة فى إمكانى الكتابة بدرجة عالية من السهولة واليسر وانى على ثقة تامة أن اتقدم إلى عظمتكم بطلبى هذا بغرض ان امكن ان اقوم بانجاز اى عمل اعقده دون عوائق ، راجية منك ان تحفظة بمكتبك المبجل دون افتئات على حقوقى حتى احظى بتاييدكم واعبر عن امتنانى المؤكد . وداعاً انا اوريليا تيسوس وايضاً إدعى لوليانا أرسلت هذا للعرض . العام العاشر ، ٢١ ابيب [١٥ يوليو] .

وعلى العموم لم تكن عواصم الأقاليم وكذلك القرى التابعة لها خالية من وجود معلمين يقومون بتعليم الصبية مبادىء القراءة والكتابة الأغريقية ، وبعض المعلمين كما ذكرنا كانوا من الأرقاء ، بل كان يوجد بعض المعلمات من النساء . غير أن سن التعليم كان يبدأ متأخراً بعض الشيء إذ لم يكن يبدأ قبل العاشرة ، لأننا نجد فى وثيقة صبيا يبلغ من العمر تسع سنوات غير قادر على التوقيع على وثيقة خاصة بتوريثة(٦٩) ، كما نجد صبيا آخر فى الرابعة عشرة من عمره وينتمى إلى طبقة الجمنازيوم يذكر أنه لايزال فى مرحلة التعليم(٧٠) وفى إحدى سجلات احصاء التعداد والممتلكات لعام ٢١٦ م اقر والد أن لديه ولدين أحدهما يبلغ الثالثة عشرة والآخر يبلغ العاشرة والنصف وكتب وراء كل منهما عبارة « لا يزال فى مرحلة التعليم »(٧١) .

وإذا كانت الأسرة مقتدرة مالياً والصبى لديه الرغبة فى المثابرة فى طلب التعليم العالى ، ففى هذه الحالة كان عليه أن يرحل إلى الاسكندرية حيث مقر كبار الأساتذة المتخصصين فى كافة فروع المعرفة ، يصحبة عادة خادم أو خادمين للسهر على راحته ولقضاء حاجياته حتى يتفرغ

هو للدراسة فقط . وهناك يلتحق الفتى فى معية أحد المشاهير من شيوخ العلم مقابل أجر يدفعه لأحدهم . وهناك وثائق كثيرة تدور حول التعليم والتلاميذ خاصة فى القرن الثالث ، مثل الصبى المغترب للدراسة الذى يتعجل والديه ارسال نفقات المدرس الذى يرفض تعليمه ما لم يحصل على أجره[٧٢] ونضائح الأباء للابناء بالأنكباب على المذاكرة والبعد عن اللهو فى الاسكندرية ، وردود التلاميذ إلى ذويهم بأنهم يبذلون ما فى وسعهم ويعبرون عن حنينهم للعودة إلى مدنهم ، وبعضهم كان يحلم بالعمل كمدرس بعد الانتهاء من الدراسة . وفى خطاب عثر عليه فى بيت أبو للونيوس حاكم اقليم القرى السبعة يقول :

« اما عن الحمام والدجاج الذى لست متعودا على اكلها إبعثوا به إلى [فلان] معلم [ابنتى] هيرايدووس ، هيلينا والدة ابو للونيوس تطلب منك ان تاخذ بالك من ابنها هرمايوس . وجميع ما لا اكله ... إرسله إلى معلم ابنتى حتى يبذل مجهودا اكبر معها[٧٣] . وهذا الخطاب يؤكد أن التعليم العالى لم يكن وقفا على الذكور ، بل كان متاحاً اختيارياً للبنات . فقد كتبت أم تقول : **« صغيرتى هيرايدووس عندما كتبت إلى أبيها لم تحيينى ولست أدرى السبب[٧٤] »** ، وورد فى خطاب لتلميذ إسمه هرمايوس إلى ذويه يقول فيه : **« إرسلوا متطلبات المدرسة مثل الكتب لهيرايدووس لتقراها »[٧٥]** .

وفى خطاب من والد لولده الذى يتلقى تعليمه فى الاسكندرية يعتذر له فيه عن عدم استطاعته السفر إليه لأمور طارئه شغلته ويعده بالمجىء إليه الشهر الذى يليه ، ويختتم خطابه قائلاله **« ضع كل همك فى كتبك خلال فترة تعلمك وسوف تستفيد منها[٧٦]** .

وأخيرا نشير إلى خطاب تلميذ سافر إلى الأسكندرية خلال القرن الأول الميلادى ليتعلم على أيد اساتذتها الكبار فأذا به يصدم لأنه وجد المدينة الشهيرة مليئة بمدعى العلم ، ويعبر عن خيبته فى تدنى مستوى المعلمين فيهم وجشعهم فى طلب المال[٧٧] . غير أن الاسكندرية لم تتوقف عن انجاب مشاهير الاساتذة والفلاسفة ، وظلت مدارسها عامرة ، ولعلنا نذكر فيلسوفة الاسكندرية الشهيرة هيباتيا التى فتك بها المسيحيون فى الاسكندرية بتحريض من الأسقف كيرلس أثناء انتقام المسيحيين من الوثنيين . فى القرن الرابع الميلادى[٧٨] .

هوامش الفصل الثالث

(١) CF. D. J. Crawford, Ptolemy Ptah and Apis in Hellenistic Memphis (Studia Hellenistica), Lovanii 1980. pp-42.

(٢) عن أعمال التنقيب فى الاشمونين انظر :
سامى جبرة : حفائر جامعة فؤاد الأول فى الأشموثين القاهرة ١٩٣٩ ، كذلك انظر :
G. Roeder, Hermopolls, 19291-19391. Hildeshelm, 1953

كما قدم شوارتز ملخصا عن أعمال التنقيب فيها :
Schwartz, Ktema,2 (1977), 59-63.

(٣) B. P. Grenfell, A. S. Hunt and D. G. Hogarth (with a chapter by J. Grafton Milne) : Fayum Towns and Their Papyri, Egyptian Exploration Fund London 1900, P 9 F.

(٤) عن المبانى والمشئات التى كانت مقامة فى اوكسيرينخوس انظر الوثيقة :
P. Oxy., 43 (verso).
cf. N. Lewis, of cit, P41

(٥) cf. Select Papyri, Vol. II no 314 (PP 342-347) A. D 134.

(٦) P. Oxy, 2181= N. Lewis, op cit, p 42.

(٧) P. Oxy. No. 3267-3284; Lewis, op cit PP 42-43

(٨) Diodorus Siculus,T, Chapter 27.

(٩) Codex Justinianus, IV, Chapter,4

(١٠)
انظر : عبد العزيز فهمى (معرب) : مدونة جستنيان القاهرة ١٩٤٦ .

(١١) R. Hopkins; Brother-Sister Marriage in Roman Egypt. (Comparative Studies in Society and History, XXII, 1980) PP 303-354.
loc. cit. PP 327-328.

(١٢) loc. cit. PP. 327-329.

(١٣) P. Oxy,IV, 77 = cf. Winter, op. cit, P 72.

(١٤) B. G. U. no 141.

(١٥) P. London no. 188.

(١٦) P. Mill. Vogl. 52 and no. 130 = cf Lewis, op. cit, P 48.

(١٧) Lewis, loc. cit, p48 = (P. G iss 32; PSI. 1253; P. Oxy 2848.

(١٨) P. Gren 150).

(١٩) P.Oxy. no 2147 = Select Papyri, Vol. I. no. 173.

(٢٠) P. Ryiand 103 = Select Papyri no. 314.

فى هذا الطلب وصف كل من فرونيموس وسابينوس نفسها بأنها رئيسا جمنازيوم سابقين .

(٢١) Van Gronigen: Le Gymnasiarque des metropoles de I' Egypte romaine, Bruxelle, 1924 (passim).

(٢٢) S. B. 7696 = Lewis, P49.

(٢٣) Lewis, ibid, P50.

(٢٤) ibid, P51.

(٢٥) P. Turner, 37.

(٢٦) Dio Chtysostiw, Orationes,32, Section 31; St. Clement of Alexandria, Protrepticus, IV, 60.

(٢٧) P. Oxy. 243 = Lewis, P51-52.

(٢٨) St. Pal. XX, 67 (recto) ip Lewis 52.

(٢٩) B. G. U, 115 = W. Chrest. 203 = Lewis op. cit, P 53.

(٣٠) Arnold Toyenbee: A Study of History, Oxford University Press, 1915, Vol. P 302-315

قارن جمال حمدان : شخصية مصر : دراسة فى عبقرية المكان : كتاب الهلال العدد ١٩٦ (يوليو ١٩٦٧) صفحات ٥٩ ، ١٥٠ ، ١٦٢ ، كذلك انظر سيد أحمد على الناصرى : مؤرخ الجغرافيين وجغرافى المؤرخين (مقال) مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد السادس والعشرون ١٩٩٥ (تحت الطبع).

(٣١) P. Oxy,I, 37 = Winter, op cit, P 56-57

(٣٢) B. G. U 1104; Lewis, op. cit, P 55.

(٣٣) Winter, op. cit, P 118 = J. E. A, XIII (1927), P94.

(٣٤) P. Oxy.1487 = Select Papyri no. 174 (PP400-401)

(٣٥) P. Oxy III, no 524 (2ndA. D.)

(٣٦) P. Oxy. Ix, 1213 (2nd A. D.) = Winter op cit, PP 118-119

(٣٧) Naphtali Lewis op . cit, P 55

(٣٨) P. Oxy. 1273 = Selecl Papyri vol. no 5.

(٣٩) Winter, cp. cit, P 125.

(٤٠) P. Oxy. 1273 = Selecl Papyri, vol. 1. no. 5. PP 18-19

(٤١) B. G. U. 1052 (13 B.C) = Select Papyri, Vol I, no 3 (PP 10-11)

(٤٢) P. Oxy 528 (2nd cent. A. D) = Select Papyri Vol.I, No 125 (PP 326-329).

(٤٣) Lewis, op cit, P56-57 = P. Oxy 327. cf. Revue International des Droits de I. Antiquite, 17 (1970). PP231-8

(٤٤) Winter, op. cit, P129.

(٤٥) عبد اللطيف أحمد على، المرجع السابق ص ٢٠

(٤٦) A. E. R. Boak,. Inv. no 2841 Annales du. Service des Antiquites de l'Egypte, xxlx (1929) pp49-51 = Winter, op cit, pp 131-132.

(٤٧) Winter, of. cit, p132 = P. Mich, II (Tebtunis Papyri) 121, recto, ii,v iii, line 2, note.

(٤٨) P. Oxy, I, 51 (173 A. D).

(٤٩) P. Oxy, III, 475 (182 A. D); Wilcken, Chrest, 494, =Select Papyri, Vol, II,mo 337; cf Lewis,p 106.

(٥٠) P. Oxy. I, 115 = Winter op. cit p 134.

(٥١) P. Oxy, Xvl, 1874 = Winter op. cit 134-5

(٥٢) P. Oxy 3197 (A. D 111), Lewis p. 57.

(٥٣) Winter, op cit, P 57 ncte 1.

(٥٤) N. Lewis, Op cit, P 57.

(٥٥) (عبد اللطيف أحمد على المرجع السابق ص ٢٠
Winter, op. cit, P 130

(٥٦) P. Oxy 494 = Select Papyri,I, no 84 (PP244-245)
Lewis, op cit, 59. (150)

(٥٧) Winter, op cit, p 65

(٥٨) أحمد بدوى وجمال مختار : تاريخ التربية التعليم فى مصرص، الجزء الأول العصر الفرعونى، الهيئة المصرية العامة للكتاب (المكتبة العربية) القاهرة ١٩٧٤صفحات ١٣٠، ١٥١، ٢٣٨ - ٢٣٩.
كذلك انظر :
N. Lewis, p 60

(٥٩) Aegyptus, II, (1921), PP 283-285

(٦٠) P. Oxy. 1153 and no. 2142; cf N. Lewis, ibid, p 60.

(٦١) Aegyptus, II, (1921), PP 19-20; Vol. XLIV (1964). PP 23-24; also.

(٦٢) P. Milano, Vog, II.
P. Oxy. 2548
P. Oxy. 529

(٦٣) Lewis, P 61

(٦٤)

(٦٥) P. London, I, 43 = Winter, op. cit, P 66

(٦٦) P. Turner, 38

(٦٧)

(٦٨) p. Oxy 1467 = Selecl Papyri, Vol. II, No 305 (PP 3202)

(٦٩) p. Flor. 56 = Lewis P 63

(٧٠) p. Flor. 282 = W. Chrest, 143 (Lewis, P 63)

(٧١) St. Pal., II, P 27, Lewis ibid.

(٧٢) Winter, op. cit, p 64 note 2

(٧٣) p. Giss, I 80 = Winter 66

(٧٤) p. Giss,I, 78 = Winter 67

(٧٥) p. Gissen, vol I, 85 = P. Oxy vIII, no 1153 = Winter ibid

(٧٦) p. Oxy no. 531 = W.chrest, no 248 (Lewis, P 64)

(٧٧) p. Oxy 2190 (Lewis, PP 63-64)

(٧٨) cf Winter, P 150

كذلك انظر الفصل الأول ص ٥٦ .

هذا الفصل يختص بسكان الدرجة الثالثة وهم سكان الريف والقرى "المصريين"

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الرابع
أهل الريف

لقد عالجنا فى الفصول السابقة الطبقة الممتازة من الرومان والسكندريين، ثم تعرضنا للطبقة الثانية - نصف الممتازة - وهم سكان عواصم الأقاليم، وفى هذا الفصل نتعرض لسكان الدرجة الثالثة: سكان الريف والقرى، والنجوع، والدساكر، الذين إعتبرهم الرومان قاع المجتمع، وأطلقوا عليهم مصطلح «المصريين» بالرغم من أن سكان الريف شملوا إلى جانب المصريين بعض المستوطنين الأغريق الذين تزاوجوا مع الفلاحين حتى أصبحوا بالفعل مصريين مثلهم تماما.

وصف القرى التى سكنها الريفيون فى مصر

كانت القرى (Κωμαι)، والتى سكنها الريفيون عبارة عن عناقيد من البيوت المتزاحمة فى شكل القطيع، مقامة فوق تلال طبيعية، أو مصنوعة حتى لا يغرقها فيضان النيل، وبعيدة عن الحقول التى كانوا يذهبون إليها إما مشياً على الأقدام أو فوق ظهور دوابهم. وتبدو أطلال القرية القديمة الآن لعين الناظر المقترب إليها ككتلة قائمة من الحوائط المشيدة بالطوب اللبن يرتمي أمامها فى صمت الحقول الخضراء الممتدة فإذا ما صعد إليها الزائر تبين له أن هذه الكتل المتلاصقة كالقطيع أو على حد تعبير جمال حمدان - مجتمع النمل[1] ماهي: إلا بيوت مكدسة يفصل بينها حوارى وأزقة ضيقة dromoi ويشق القرية طريق أو شارع رئيسى، وكل الحوارى تؤدى إلى معبد مقام فى صرة القرية ويشرف على ساحة واسعة هى السوق (agora) مركز النشاط الإجتماعى والمعاملات اليومية. وكانت القرى فى العصريين البطلمى والرومانى مصممة على غرار المدن بحيث يمكن لنا أن نطلق عليها مصطلح القرية المدينة أو المدينة القرية تمييز لها عن النجوع والدساكر الصغيرة المقامة وسط الحقول والتى لم تكن سوى كتله واحده من المنازل الريفية الطينية البدائية، بينما كانت القرية - المدينة مقسمة إلى أحياء amphoda، ومفردها amphodon) يفصل بينها أزقة ضيفة، او عند أطراف المدينة يقام الحمام العام (βελανειου) وبجاوره عادة مبانى الجمنازيوم وساحة الألعاب الرياضية (Palaestra)، وبعض القرى مثل كرانيس كان بها حمامان، وكل حمام عبارة عن عدة قاعات يفصل

القرى فى العصرين البطلمى والرومانى

بينها صالات ضيقة، تبدأ بقاعة الأستقبال وخلع الملابس، ثم قاعة الأغتسال بالماء البارد، ثم طرقة تؤدى إلى القاعة الساخنة المتصلة بفتحات يأتى منها بخار قادم من التنور، وهذه الصالات الفاصلة مصممة بحيث لايتعرض المستحم فجأة لتيار من الهواء البارد وهو خارج من الجزء الساخن أو العكس، وكان يوجد بالحمام أحواض الأغتسال(٢) ونعرف من أوراق البردى أن بعض الأيام كانت مخصصة للرجال وأخرى للنساء ولأن الذهاب إلى الحمام العام كان أمراً ضرورياً فقد فرض الرومان ضريبة على الحمامات كما نعرف من وثائق الضرائب. كانت مبانى الحمامات مبنية من الطوب المحروق المقاوم للبلل، كما أن قاعة الأستقبال كانت منفتحه وغير مسقوفة وبها مصاطب للجلوس والأنتظار. وفى حمام كرانيس لاحظنا أن الماء المستخدم يصرف عبر أنابيب صرف من الفخار إلى حديقة خلفية للحمام. أما التنور الذى يسخن الماء فقد كان يستخدم أيضاً فى حرق التماثيل الطينية الصغيرة لبعض المعبودات الشعبية مثل هاربوكراتيس، وديميتر - إيزيس، وبريابوس Priapus رب تطليع النخيل والمشابه للرب المصرى مين. كما عثرنا على بعض عجائن الزجاج الخام بجوار الحمام، مما يجعلنا نعتقد أنه أيضاً كان يستخدم فى صناعة الزجاج حيث عثرنا على مجموعة كبيرة من الأدوات والأطباق والقنينات الزجاجية. وبفضل حفائر جامعة ميشيجان الأمريكية فى موقع كرانيس خلال الفترة مابين ١٩٢٤ - ١٩٣٩، وحفائر كلية الآداب جامعة القاهرة خلال الستينات والسبعينات من هذا القرن أمكن الخروج بفكرة طيبة عن القرية المصرية فى العصرين اليونانى والرومانى(٣).

كانت هناك أحياء للأغنياء وأخرى للفقراء؛ وعادة أحياء الأغنياء تقع الي الشمال أو الى الشرق من القرية بينما تقع الأحياء الفقيرة إلى الغرب أو الجنوب، وكان للأغنياء منازل جيدة البناء تعلو أكثر من طابق، وبعض حجراتها مطلية بالجص ومزخرفة بالرسوم والمناظر. ولقد قام تيرنر بزيارة إلى كرانيس وسجل وصفا لأحد المنازل قال فيه: «كان **الدخول إلى ذلك البيت - الذى هو جزء من وحدة اكبر عن طريق ثلاث درجات من السلالم تعلو ارضية حارة ضيقة متفرعة شمالا من الشارع الرئيسى ولا يزال عرق العتبة العليا قائما فى مكانه فوق باب البيت، ويؤدى المدخل الى** حجرتين مساحة كل منهما ٣م × ٢,٧٠ م. وارضيتها مبلطة بالطين بينما

حوائطها مغطاة بطبقة من الجص . ولم يكن هناك ضوء ينفذ الى الحجرة الأولى إلا ماياتيها من فتحة الباب وذلك لأن الشمس تسطع بشدة فى مصر ويتجنب الناس ضوءها الشديد داخل المنازل ، اما الحجرة الثانية فلها تجويف فى حائطها الشمالى ، كما ان لها نافذة تطل على الحارة ، وعلى جانب الشارع الملاصق لحائط الحجرة الرئيسية كانت هناك مجموعة من الشون التى تخرج من هذه الحجرة فى مواجهة الشارع الرئيسى ، ويبدو انها كانت مجموعة من الحوانيت منفتحة على الحارة ، ولم يكن للمنزل اى قبو او بدورم تحت الأرض كما هو الحال فى كثير من المنازل ، كما لم يكن به فناء تقام فيه الأفران والمطحنة او الحيوانات[٣] .

وهذا البيت الذى وصفه الاستاذ تيرنر يمثل بيت تاجر فى القرية لأن بيوت الفلاحين الأخرى كان بها فناء عثرنا به على مطاحن يدوية ، ومعاصر صغيرة لعصر بعض الحبوب الزيتية ، وعدد من الجرار ، وبالطبع كان هناك مكان للأحتفاظ بالماشية ودواب الحمل - وسيلة الأنتقال الاساسية فى القرى فى ذلك العصر ، وفى مكان اخر من القرية عثرنا على شونة الغلال الرئيسية حيث كانت تجمع فيها ضريبة القمح التى كانت تجبيها الأمبراطورية من الفلاحين المزارعين . كما تعرفنا على مقر كاتب القرية Komogrammateus حيث كانت توجد جرار لحفظ السجلات الخاصة بالسكان وممتلكاتهم[٥] . وفى قرية باكخياس المجاورة لكرانيس تعرفنا على حى الحرفيين الى الجنوب من أطراف القرية حيث كانت تقوم بعض الصناعات التى تتطلبها شئون الزراعة كالنجارة والحدادة . وربما كان هناك مصنعا للنسيج ، تلك الحرفة التى كان يقبل عليها أبناء وبنات القرية الذين لا يملكون أرضاً لزراعتها . وعلى إمتداد كيلو مترين ونصف من تلال القرية كانت توجد الجبانة بمقابرها ذات الطرز المتنوعة ، إما منحوته فى صخرة (Loculi) أو مبنية حولها ، ومقابر الأغنياء فى شكل مقصورات مغطاه tumulus ذات أقبية ، وبعضها مجرد حفرة فى الأرض Kammergrab بكومة من التراب فى شكل هرم يعلوه شاهد القبر ، كما كان هناك قبور جماعية لأسر كاملة[٦] . وعموما كانت المقابر تختلف بعضها عن بعض حسب الدرجة الأجتماعية للمتوفى كما نشاهد فى مقبرة كوم أبو بللو بالطرانة بالقرب من مركز الخطاطبة بالبحيرة والتى امدتنا بعدد كبير من شواهد القبور أغلبها من القرن الثالث الميلادى وكانت مصدراً لكثير من المعلومات الهامة عن حياة الناس فى هذه الفترة المظلمة[٧] .

وأهم ما يلفت النظر فى بيوت القرية عموما هو أرتباط الفلاح بحيواناته ، وهى ظاهرة لفتت نظر هيرودوت عندما زار مصر وتجول

حتى أنه اعتقد أن ظاهرة سكنى الفلاح فيها فى منتصف القرن الخامس ق . م ، فى مكان واحد مع حيواناته ينفرد بها المصريون وخدهم عن سائر شعوب العالم(٨) . فلقد كانت القرية هى عالم الفلاح الذى لم يعرف غيره، بها يولد وفيها يعيش ، وفى ترابها يدفن ، ولا يغادرها إلا بحثا عن عمل لمواجهة ظروفه التعسة ، وحتى من الرسائل التى كان يتبادلها مع ذويه يعبر عن الحنين الجياش للعودة اليها . لكن لم يكن حال القرية تعسا الى هذا الحد ، فقد كان يوجد فيها أعيان ذوو سعة ويسر ، وكان بعضهم ينتقل الى عاصمة الأقليم لينال حظة من الحياة الميسرة ، ويتعرف على ملامح الرقى والثقافة بالرغم من أن هؤلاء القرويين المهاجرين الى المدينة كانوا يظلون خارج الدائرة الخاصة بحياة الطبقة المثقفة التى كانت تشكل جوهر مجتمع المدينة الأقليمية بأعتبارهم هامشيين يمتون الى درجة إجتماعية أدنى . والمثل على ذلك نجده فى عائلة سرابيون الثرية فقد انتقل سرابيون بعائلته وهو فى سن الاربعين (حوالى عام ١٠٠ م) من الريف ليعيش فى عاصمة الأقليم - مدينة هرموبوليس ما جنا (الاشمونين) . وكانت اسرته تتكون من زوجته سيلينى Selene (أى قمر) وابنائه الذكور الأربعة ، وابنة واحدة ، بالأضافة الى الجارية أو المربية . وعرفنا ذلك من الأرشيف الكامل لهذه الأسرة الذى بلغ ما يقرب من مائه وخمسين وثيقة كلها جمعت من أسواق العاديات ، وموزعة الان بين متحفين وخمس مكتبات فى عواصم أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، ولقد كان سرابيون يمتلك أراضى شاسعة ، وبساتين كروم ونخيل وزيتون ، وقطعان من الماشية والأغنام زادت عن الف رأس . ومن إحدى وثائق أرشيفه عرفنا أن محصول أراضيه فى أحد الأعوام بلغ ما يقرب من ٢٣٠ أردب قمح وبحسبه بسيطه عرفنا أن هذا المحصول يمثل ما بين عشرين الى ثلاثين ضعف محصول الفلاح الصغير المتواضع الملكية . كما أن زوجته سيلينى كانت تنحدر من أسرة ثرية ورثت عن أبيها اراضى شاسعة ، لكن فى مناطق متطرفة وبعيدة ، ولذلك كان سرابيون يؤجر هذه الأرض لعدم استطاعته زراعتها بالأضافة الى ذلك عمل سرابيون فى استثمار ماله السائل المتمثل فى دخله من هذه الممتلكات فى إقراض المحتاجين مقابل نسبة الفائدة المعروفة وهى ١٪ شهريا أو ١٢٪ سنويا ، كل ذلك جعل ثروته تتضخم مما شجع هذه الأسرة على النزوح من حياة القرية للعيش فى عاصمة الأقليم للأستمتاع بحياة الحضر المرفهة والميسرة ، وكان يتردد من ان لاخر على قريته للاشراف على مصالحه(٩) .

غير أن إنتقال سرابيون من القرية لكى يعيش هو وأسرته فى المدينة لا يعنى أن كل أثرياء القرى كانوا يتركون قراهم ليقيموا في المدينة ، لأن أغلب أعيان المدن فضلوا العيش معروفين فى قراهم الصغيرة على أن يعيشوا مغمورين في المدن الكبيرة ، كما أنهم نقلوا الى قراهم رفاهية المدينة ، إذ كانوا يسكنون في بيوت رحبة واسعة ، ذات حدائق وبهجه ، تضاهى المدن في جمالها ، وزخرفتها ، ورحابتها ، وأثاثها ، وعدد الخدم والحشم والرقيق العاملين فيها ؛ كما حرصوا على تثقيف أنفسهم بالثقافة العالية الرفيعة ، وإلا كيف نفسر العثور على العديد من أعمال هوميروس وهسيودوس ، ويوريبيديس ، وديموستين ، وأفلاطون وغيرهم من عمالقة الثقافة الأغريقية في خرائب هذه القري . وعندما يطيب لهم الترفيه عن أنفسهم فأن ثراءهم كان قادراً على أن يحقق لهم ذلك بأقامة الولائم وحفلات الترفية ، التى كانوا يجلبون لها فنانين من عاصمة الأقليم . ففى وثيقة مؤرخة فى ١٦ بؤونة (١١ يونيو) عام ٢٠٦ م تعاقدت إحدى السيدات مع راقصة للمجيء الى القرية وعرض رقصاتها فى بيتها ، وهذا نص العقد :

« إلىَ إيسيدورا راقصة صاجات من أرتيميسيا من قرية تيادلفيا (قصر البنات بالفيوم) ، فانى ارغب فى استئجارك مع راقصتين اخريين للرقص فى بيتى لمدة ستة ايام بدءاً من الرابع والعشرين من شهر بؤونة حسب التقويم القديم . وسوف تتقاضين كاجر لك عن اليوم الواحد ستة وثلاثين دراخما ، وعن المدة كلها اربعة ارادب من الشعير وعشرين زوجاً من الخبز . واى ملابس او حلى ذهبية تحضيرها معك سوف نتعهد بصيانتها . وسوف نمدك بحمارين لرحلة المجيء (من العاصمة) ونفس الشيء لرحلة العودة »(١٠) .

غير أنه يجب أن نضع فى حسباننا أن الأغنياء فى القرى كانوا يكونون شريحة صغيرة من غالبية السكان الذين كانوا يعيشون على الكفاف ، ويتكدسون رجالاً ونساءً وأطفالاً في منازل ضيفه ، بنيت بطرق عشوائية ، حيث نجد ملكية المنازل تحدد بالقراريط ، وتتراوح ملكية الفرد فى العقار ما بين أربعة قراريط الى عشرين قيراطاً ، وفى بعض الأحيان نجد الملكية تصل إلى قيراط ونصف قيراط فقط من العقار بل وصلت أحيانا الى ما يزيد عن نصف القيراط بقليل .

إنه لمن الصعب تقدير تعداد سكان أى قرية متوسطة الكثافة السكانية ، لأن ذلك يحتاج إلى عمل قوائم إحصاء ، كما أن الناتج سيكون تقديريا ويقوم على التخمين ، ففى وثيقة تعداد تراجع الى عام ٩٤ م فى قرية فقد اسمها . وبلغ عدد المؤهلين لدفع ضريبة الرأس ٦٣٦ فرداً أى أن هذا العدد يمثل عدد الذكور الذين تعدوا سن الرابعة عشر وتقل أعمارهم عن الستين (سن الأعفاء من ضريبة الرأس) ، فلو إفترضنا جدلاً أن هذا العدد يمثل عدد الأسر ، وأن متوسط عدد أفراد الأسرة الواحدة خمسة افراد ، فيكون الرقم التقديرى لتعداد هذه القرية هو ما يزيد على ثلاثة آلاف بقليل . وفى كرانيس (كوم أوشيم) ذكرت سجلات الضرائب لعام ١٧٢ـ ١٧٣ ميلادية أن عدد الذين إستحقت عليهم ضريبة الرأس بلغ الف نسمة ، وبالتالى فأن الرقم التقديرى لسكانها يقدر بنحو ما بين خمسة آلاف الى ستة آلاف نسمة . ولما كانت قرية فيلادلفيا (جرزه) أصغر قليلا من كرانيس فى القرن الأول فقد قدر عدد سكانها ما بين أربعة الى خمسة آلاف نسمة . أما قرية باكخياس (أم الأتل) فقد قدر عدد سكانها بعدد المنازل فيها نظراً لقلة وثائق الضرائب التى إستخرجت منها ، فقد قدر الأثريون عدد منازلها بحوالى ثمانمائه منزل ، وفى ذلك قدروا عدد سكانها بنحو ثلاثة آلاف الى اربعة آلاف نسمة[١١] . أما العاصمة كروكوديلوبوليس (كيمان فارس بمدينة الفيوم) فنظراً للحالة السيئة التى وصلت اليها نتيجة لعبث السباخين بسبب قربها من الحقول والعمران ، فلا يمكن أن نحصى عدد منازلها ، إنما من باب الأفتراض يعتقد أنها كانت أكبر من كرانيس حجما ، وبالتالى فقد قدر عدد سكانها ما بين ثمانية آلاف الى عشرة آلاف نسمة .

والى جانب هذه القرى الكثيرة إنتشرت النجوع والدساكر الصغيرة المبعثرة وسط الأراضى الزراعية ، والتى لم يزد سكانها عن مائة نسمة ، إذ نسمع أن سكان إحدى هذه النجوع هربوا منها وتركوها خاوية مهجورة أثناء انتشار وباء الطاعون الذى إجتاح البلاد لعدة سنوات خلال عصر الأمبراطور ماركوس أوريليوس . ونسمع عن أن نجعا آخر انخفض عدد سكانه من سبعة وعشرين نسمة الى ثلاثة أفراد فقط ، ثم هجر تماما . وفى حالة ثالثة انخفض عدد السكان من ٥٤ نسمة الى أربعة أفراد فقط ثم هجر تماما[١٢] .

ومنازل القرى عموما كانت متشابهة ولا تختلف كثيرا عن منازل الفلاحين فى القرى فى العصر الحديث حتى منتصف القرن العشرين. وعموماً هى منازل مشيدة من الطوب اللبن وقلما إستخدم فى بنائها الحجر، وليست لها مقاييس ثابته أو نمط هندسي معين مما يجعل من الصعب أخذ مقاييسها، لكنها تحتوى على حظائر للماشية، ولم نعثر بداخلها سوى على المسارج، وأدوات الغزل وأحجار الرحى، وبعض الأواني لحفظ الغلال خاصة الامفورات amphorae، وهي مكدسة فى شكل الخلايا المغلقة وبعضها لا يمكن الوصول الى داخله إلا عن طريق سلم خشبى يرفع فيصبح المنزل مثل القلعة تماما، وذلك تأمينا لساكنيها من اللصوص. وبعض منازل القرية لها أقبية ومسقوفه «بتعريشة» من البوص وجريد النخيل، ومن أغصان الشجر. وعموما فأن وحدات المنزل المتوسط الحجم كانت تتكون بالتقريب من ما بين ثلاثة وست حجرات، موزعة عشوائيا حيثما اتفق. ويتوسط الدار «حوش»، له باب على العطفة (dromos) أو يصل اليه الداخل بسلم خشبى متنقل. وهناك منازل أشبه بالجحور وربما أقيمت أصلاً لتكون مخازن، وقد استخرجنا من أحدها فى كوم أوشيم جرتين مليئتين بقطع من العملة يمثل تحويشة فلاح على امتداد خمسة وثلاثين عام(١٣). ومن مخزن مشابة فى باكخياس استخرج «هنت» تحويشة أخرى بلغت أربعة آلاف دراخما برونزية(١٤) وعموما فقد كانت القرية المصرية فى العصرين البطلمى والرومانى امتداداً للقرية المصرية فى العصر الفرعونى.

الطعام والملبس:

وأذا ما عرفنا كيف كان يعيش الفلاح فى العصر الرومانى فلنبحث عن الطعام الذى كان يأكله، والملابس التى كان يرتديها. فكما هو الحال فى أغلب التجمعات الزراعية فى العالم القديم، فقد كان طعام الفلاح يعتمد فى الدرجة الأولى على البقول والخضروات التى كان يقوم بزراعتها بنفسه. بالأضافة الى ذلك لعبت النباتات والأعشاب البرية التى كانت تنمو فى المستنقعات والأحراش على جانبى النيل دورا ثانويا كمصدر من مصادر الغذاء والتى وصفها ديودوروس الصقلى بانها ملجأ الفقراء من الجوع(١٥).

ومن اهم النباتات البرية التى سدت النقص فى الغذاء نبات اللوتس، والذى كان يجفف ثم يطحن ليتحول الى نوع من الدقيق يصنع منه خبزه، وكما هو الآن كان «عنب الذئب» ينمو من تلقاء نفسه، وكذلك كان شجر النبق المقدس περσεια الذى كانت الطبيعة تقدمه للفقراء مجانا، بل كان يصنع من عنب الذئب أطباق من الحلوى الشهية. كما لعب نبات البردى دوراً هاماً فى ملىء البطون الخاوية، فقد كانت سيقانه تمص كما يمص قصب السكر(١٦) وتعطى قيمة سعزية عالية، أو تجفف وتطحن لتتحول الى دقيق يصنع منه رقائق من الخبز الفاخر، أو تقطع وتسلق لتعطى حساءً شهيا. هذا ما يخص المواد الكربوهيدراتية. أما المواد البروتينية فكان الفلاح يحصل عليها من الطيور الداجنة التى كان يربيها. ومن المعروف أن الأوز والبط هى أقدم الطيور الداجنة التى عرفها المصرى القديم وفى العصر البطلمي انضم الدجاج الى هذه الأسرة الداجنة ويعتقد المؤرخون أنه جىء به من بلدان أسيا الصغرى، وشاعت تربيته منذ ادخاله الي مصر ليربى فى البيوت ليؤكل لحمه، أو من أجل الحصول علي بيضه. فقد كان البيض من أهم مصادر البروتين التى عاش عليها الفلاح. ولقد عرف المصرى القديم البقر والأغنام ورباها بكثرة، بل كان، العجل رمز الخير ورمز النيل، ومن ثم كان يعيش على لحومها والبانها ولقد عرف المصرى صناعة الجبن من اللبن منذ العصور الفرعونية حيث كان يطلق عليه إسماء «عديدة»(١٧) كما صنع القشدة والزبد أيضا منه، وبفضل النيل ومستنقعاته وبحيراته عرف صيد الأسماك، والتى قسمها الى أنواع كثيرة بعضها كان محرما دينيا(١٨) غير أن الباقي كان بالنسبة له لحما طريا شهياً. ولذلك كان حرفة صيد الأسماك من النيل ومن المصارف والبحيرات والرياحات مهنة وحرفة من أهم مصادر النشاط السكاني ولذا فرضت ضرائب فى العصر الروماني على هذه المهنة(١٩). ومن المعروف أن الطبيعة وهبت مصر ميزة لا توجد لغيرها من بلدان العالم، وهى الطيور التى تهاجر اليها كل عام من مناطق أوروبا الباردة لتقضى الشتاء الدفىء فى مصر كالأوز العراقى، والسمان، وبعض الطيور الداجنة، وكانت هذه الطيور المهاجرة تاتي مرهقة بعد رحلة طيران طويلة لتستريح فى الأحراش وعلى ضفاف المستنقعات وبالتالى كان يسهل صيدها، ولا يزال صائدو السمان يستخدمون نفس الشباك القديمة لصيد هذه الطيور المرهقة

والتى ينصبونها عند سواحل مصر الشمالية . صحيح أن الرومان لم يفتهم أن يفرضوا رسوما على ممارسة الصيد فى الأحراش مثلما فعلوا مع صائدى الأسماك ، ولكن ذلك لم يمنع من تسلل البعض وممارستها ليلاً أو سراً . كما عرف الناس فى ذلك الوقت تربية الأسماك فى بحيرات صناعية ، وهذه أيضا كانت عرضه للسطو عليها . فهناك بلاغ قدم عام ٣١ م أبلغ فيه صاحبه أن كمية من السمك تساوى ستة آلاف دراخما قد سطا عليها اللصوص من مزرعة أسماك خاصة به . وفى وثيقة أخرى حررت فى ١٦١ م عبارة عن عقد حق استخدام صيد الأسماك فى مجموعة من البرك الخاصة لمدة سبعة أشهر مقابل مائة وثمانين دراخما[٢٠] . ولقد كانت الأسماك بأنواعها المحللة طعاما غذائيا أساسيا ، ونعرف من الوثائق أن بعضها كان يؤكل طازجا بسلقه أو شوية ، والبعض الآخر كان يجفف فى الشمس أو يملح ليحفظ ويؤكل كوجبة شهيه ، ولقد كانت صناعة تمليح السمك صناعة رائجة لفتت نظر الأمبراطور فسيسيانوس عند تجوله فى الأسكندرية حتى أنه أمر بادراجها فى قائمة ضرائب الدخل مما أغضب العاملين فيها فسخروا منه بأطلاق كنية الأمبراطور الفسخانى عليه Kubiosaktes[٢١] مما أدى الى تازم الموقف بينه وبين السكندريين . وبعد رغيف الخبز تاتى الجعه[٢٢] التى كانوا يصنعونها من الشعير ، وكانت المشروب القومى للمصريين ، بل أن بعض الأجور تدفع عن طريق عدد من الأرغفة ومقادير من الجعة التى كانت تعطى سعرات حرارية كبيرة بالأضافة إلى الاحساس بالنشوة خلال الحفلات والأعياد . أما النبيذ المصنوع من عصير العنب فقد كان أقل استخداما لدى المصريين[٢٣] ولكنه كان أكثر انتشاراً عند الأغريق المستوطنين ، فقد ضرب الرومان المثل بخمر مريوط كاجود أنواع الخمور فى العالم التى تطيح بالرؤس[٢٤] .

والأن نأتى الى سؤال ما هى كمية الغذاء التى كان يستهلكها الفلاح الأجير يوميا ؟ . من دراستنا لعقود العمل نعرف أن الفلاح الأجير كان يتلقى أجره اليومى فى كثير من احيان فى شكل رغيفين من الخبز أى مايقابل جدلاً نصف كيلو جرام من الخبز . ويشك ريكمانز فى أن الفلاح الأجير كان يحصل على غذاء كاف يعطيه الطاقة اللازمة لبذل مجهودا

جسمانيا شاقا فى فلاحة الأرض[٢٥] . ولهذا فأن الأمراض غزت اجسام الفلاحين الهزيلة وساعدت علي ارتفاع نسبة الوفيات فى القرى اكثر مما كانت عليه فى المدن.

هذا عن الطعام والشراب أما عن الثياب فقد كان الفلاحون كغيرهم من سائر القرويين يرتدون كل ما تقع عليه أيديهم من ثياب يقدرون على الحصول عليها. وكانوا يحفظون أكثرها قيمة لأرتدائها في الأعياد فى المناسبات الأجتماعية السارة. أما فى الأيام العادية فكانوا يرتدون الجلباب القصير Chiton ، ويتمنطقون بحزام ، ويلتحفون بأنواع مختلفة من العباءات himation مقلدين فى ذلك أهل الحضر. غير أن أغلبهم كانوا يسيرون فى الطرقات حفاه الاقدام مما نتج عن ذلك انتشار الجروح والأصابات في أرجلهم وأقدامهم؛ ونعرف ذلك من تقديم القرابين لرب الطب اسكلبيوس؛ إذ تعود المريض أن يقدم نموذجا من الاعضاء المصابة والتى يتضرع اليه لشفائها، واغلبها نجدها أقدام رجال وقليل منها اعضاء أخرى من الجسم كالأيدى (التى تصاب أثناء العمل) والرؤس.

العلاقات الأسرية والأجتماعية :

وبسبب كثرة وثائقه، وتعدد مشاكله، تعرف علماء البردى على شخصية رجل من قرية تبتونس اسمه كرونيون Kronion عاش فى الفترة ما بين ١٠٧ و ١٥٣ ميلادية ، وقد بلغ مجموع أوراقه الخاصة التى عثر عليها فى تبتونيس (أم البريقات) جنوب أقليم الفيوم نحو تسعة وستين وثيقة كلها محفوظة الأن فى متحف الجامعة الحكومية فى ميلانو ، وقد اضيف لهذا الملف وثيقة أخرى محفوظة فى متحف جامعة ميشجان الأمريكية ومحرره عام ٣٥ ميلادية ، وبعد نشرها إتضح أنها تتعلق بوالد كرونيون ، وبها إكتمل ملف هذه الأسرة وأصبح صالحا لأجراء بحث اجتماعي عليه ، لأن إكتمال هذا الملف يمثل فرصة نادرة لانظير لها لأعادة تصوير الحالة الأجتماعية والعلاقات التعاملية لأسرة ريفية من الطبقة الوسطى بأدق التفاصيل ، وتتبع خط سيرها ، وتقلبات الأيام التى عصفت بها ، فهى كنز للمهتمين بالتاريخ الأجتماعى ، ونموذج فريد للدراسة والتحليل ، إذ نتتبع شجرة الأسرة لسبعة أجيال ، كان جده يدعى هارميسيس ، وجدته تدعى ثائيسيس بنت بسوسنيوس ، وقد ولدت جدته

فى عام ٥ ق م (ى عصر اكتافيوس اغسطس) ، وعندما بلغت الخامسة عشرة من عمرها تزوجت من جده هارميسيس ، وولدت له ولدا إسمه خيوس (ولا نعرف أن كانت قد انجبت له ابناءً اخرين أم لا) ، وقد كبر خيوس الأول وتزوج عدة مرات وانجب وهو فى سن الثالثة والخمسين - إبنا هو كرونيون الكبير ، ولم يكن فارق السن بين الزوج والزوجة يلقى اهتماما عند الزواج ، كما يحدث عند شيوخ البدو فى الوقت الحالى ، كما ان المرأة كانت تنجب حتى سن الخمسين إذ لدينا حالة اخرى لرجل يبلغ سن التاسعة والستين متزوج للمرة الثانية من إمراة يبلغ عمرها الثانية والخمسين ولهما طفل عمره ثلاث سنوات[٢٦]. وقد كبر كرونيون الكبير وتزوج من امراة إسمها ثن- أبينخيس Thenapynchis وانجبت له ولدين ، ثم رحلت عن الدنيا ، فتزوج بثانية انجبت له ولدين وبنتا ، كان أكبرهم هو كرونيون الابن فيكون مجموع ابناء كرونيون الأكبر خمسة ابناءً أربعة ذكور وبنت واحدة . وعندما أنجب ابنه الأول كان كرونيون يبلغ التاسعة عشرة من عمره ، بينما كانت زوجته الراحلة ثن- ابينخيس فى الخامسة عشرة من عمرها . والفارق فى السن بين أكبر الأبناء وأصغرهم يزيد على العشرين عاماً ، ولم يكن ذلك غريبا ، ففى قرية ثيادلفيا (قصر البنات) عثر على أوراق خاصة برجل أسمه ستوريخوس Storichos[٢٧] عاش خلال القرن الأول الميلادى ومنها عرفنا أن زوجته ولدت له طفله البكر وهى فى سن الخامسة عشرة ، بينما أنجبت له آخر الابناء وهى فى سن الثالثة والاربعين ، أى أن الأبناء ولدوا متتابعين على طول فترة زمنية قدرها ثمانية وعشرين عاماً . وفى إخطار عن تعداد لعام ١٥٨ م أقرت امراة انها أنجبت عددا من الأبناء على طول فترة حمل قدرها ثمان وعشرين عاما .

وكانت هذه الفترة الطويلة فترة خصوبة المرأة ، أى أنها لم تتوقف عن الحمل والأنجاب ، «وعلى حد قول جمال حمدان : «ان شيئا لم يبزرخصوبة التربة سوى خصوبة المراة» ، إذ لم يعرف أفراد المجتمع القروى فى ذلك الوقت فكرة تحديد أو تنظيم النسل كما عرفتها المجتمعات الحديثة ، كما أن ذلك المجتمع لم يكن يعرف وسائل منع الحمل ، ولهذا فكان من الطبيعى أن تكون فترة خصوبة المرأة (من الخامسة عشرة الى الخمسين) فترة

إستمرار فى الحمل ، والاخفاق فيه ، وموت للاطفال بعد الولادة وأن الفارق بين سن الأبناء لم يكن أبداً نتيجة لتنظيم الأنجاب أو متفق عليه مسبقا بين الزوجين ، ولكن كان نتيجة للتنظيم الطبيعى ودون حساب مقصود.

نعود الى متابعة الحديث عن كرونيون فقد تزوج إبنه الأكبر - كرونيون الأصغر - من زوجته الثانية وهى أخته من أبيه وأمه وتدعى تاءور سينوفيس والتى كانت تصغره بنحو أربع سنوات ، وعاشت الأسرة الكبيرة كلهما فى قرية تبتونيس أو بالقرب منها . وقد عثر فى ارشيف كرونيون علي ايصال تسديد إيجار منزله وقدره ثمان وعشرون دراخما وموقع فى عام ١١٤ م . وهذا يعنى أن كرونيون بالرغم من تخطيه سن الخمسين لم يمتلك بيتا يأوى أسرته الكبيرة ، ومن الواضح أنه بمقارنة قيمة إيجارات المنازل فى نفس القرية ونفس الفترة يتضح أن الثمانى والعشرين دراخما هي قيمة الايجار السنوى لبيت متواضع ضيق الحجرات تكدسوا فيه جميعا .

ولقد إمتلكت اسرة كرونيون بعض الأراضي الزراعية . كما كانت تاءورسينوفيس زوجة الابن كرونيون امرأة مدبرة لانها تمكنت من توفير بعض المال لتشترى أرضا مساحتها أربعة أرورات ، مما زاد من مساحة أطيان الأسرة الى سبعة عشر أرور (حوالى أحد عشرة فدانا مصرياً) ، غير أن انتاجها لم يكن ليكفي لأطعام أفواه هذه الأسرة الكبيرة ، لذلك إضطروا الي إستئجار بعض الأراضي التى يؤجرها ملاكها غير المقيمين فى القرية ومساحتها ٢٥ اورورا (حوالى ست عشرة فدانا) . وكانت هذه الأرض المؤجرة تبعد عن القرية حوالى عشرة كيلومترات ، والى جانب ذلك كانوا من آن لآخر يستأجرون مساحات صغيرة من الأراضى مساحتها ما بين ٢ ونصف أروراً الى ١٢ اورورا (من ١,٦ فدان الى ٧,٧ فدان) أى أن كرونيون الكبير واسرته كانوا يقومون بفلاحة ثلاثين فدانا مصريا تقريبا .

وكعادة الفلاحين المصريين منذ أقدم العصور كانت معاملاتهم تتم عن طريق المقايضة المباشرة وهو اقدم انواع المعاملات وأول مظاهر الأقتصاد فى العالم القديم ، ومن ثم لم يكونوا فى حاجة ماسة إلى إمتلاك

النقود أو رأس المال السائل ، حتى أن بعض الضرائب كانوا يدفعونها عينا وليس مالاً . أما المال السائل فكان لا يتوافر الالدى الأسر الغنية التى كانت توظف هذا المال فى عمليات الأقراض بالفائدة كما سبق أن وضحنا . وعندما تواجه الاسر الفقيرة موقفا أو مأزقا صعباً فأنها تتجة الى الأسر الغنية للأقتراض منها بضمان الأرض أو المحصول . ولهذا لم يكن من المستغرب أن نجد حوالى تسع عشرة وثيقة من مجموع وثائق كرونيون البالغ عددها تسعة وستون تتعلق بالديون والأقتراض وتسديد القروض المأخوذة من فرد واحد أو أكثر من أثرياء القرية ، وأقل هذه القروض اربعة وخمسين دراخما ، وأكبرها ثلاثمائة وثلاث وسبعين دراخما ؛ إلى جانب ذلك كان على كرونيون الاكبر أن يسدد ديونا عينية تراوحت ما بين عشرين الى خمسين اردبا من القمح (ما بين نحو سبعة أرادب الى سبعة عشر إردبا مصريا) . وكانت الفائدة على إقراض الحبوب تصل الى نصف الكمية المقترضة أى أنه يسددها مرة ونصف عند الحصاد . ونفس الشيء ندركه فى حالة الفلاح سوتيريخوس ، فكما لاحظ الأستاذ باجنال Bagnall عندما نشر أرشيف وثائقه عام ١٩٨٠ أن سوتيرخوس كان يدبر حياته يوماً بيوم ، إذ كان من الصعب عليه أن يقتصد بعض المال للطوارىء ، وكان هذا هو حال فلاح ذلك العصر «من اليد إلى الفم» ولكن ذلك لا يعنى انه كان من زمرة المعوزين إذا ما قورن بالفلاحين الآخرين الذين عاصروه ، ولأنه كان فلاحاً مستأجراً وليس مالكا فقد كان فى حالة إقتراض دائم لكى يدبر نفقات فلاحة الأرض ، وعندما مات ترك لأرملته ولاولادة تركة كبيرة من الديون ، ظلوا يسددونها لسنوات طويلة[٢٩] . وإذا ماقارنا حالة كرونيون بحالة سوتيريخوس فإن كرونيون يبدو أسعد حالا لأنه مزارع مالك ، أى أنه كان وسطاً بين ، العوز والغنى ، وهو مستوى إجتماعى جعل أسم كرونيون الأب يدرج فى قائمة الفلاحين الذين فرضت عليهم الأعمال الإلزامية Leitourgia والتى كان يعفى منها الفقراء والمعوزون .

وإذا ماتركنا الجانب الإقتصادى إلى الجانب الإجتماعى ، فإننا نتتبع سلسلة من العلاقات الأسرية المعقدة بين أفراد أسرة كرونيون . فبعد أن أنجب كرونيون الأصغر من أخته من أبيه و أمة ثلاثة أبناء (ولدين وبنتا)

وبعد زواج دام أكثر من ثلاثين عاماً ، طلق أخته وزوجته تاءور سينوفيس فقد عثرنا على وثيقة الطلاق بين أوراق هذه الأسرة . ومن خلال دراسة وثيقة الطلاق يتبين لنا أن كرونيون الأبن كان متزوجاً من أخته بعقد عرفي على الطريقة المصرية : وكان هذا النوع من الزواج منتشراً بين الفلاحين المصريين لسببين : أولهما الهروب من دفع المهور الباهظة التي كانت تدفعها العروس للعريس ؛ وثانيهما لضمان بقاء الأرض داخل الأسرة وحتى لاتتفتت أو تذهب إلى الغرباء عند الميراث . وعندما بلغ كرونيون الأب الخامسة والسبعين من عمرة كتب وصية وزع فيها ممتلكاته على أبنائه الأحياء Inter vivos ، والوصية مؤرخة فى ٢٢ بؤونه (١٣ يونيو) عام ١٣٨ م ، وعرفنا منها أنه كان متزوجاً من أمرأة توفيت بعد أن تركت له ولدين ماتت أثناء الوضع وهذا هو نص الوصية :

«فى تبتونس فى قطاع بوليمون من إقليم ارسينوى ، يقر كرونيون بن خيوس (بن هارميوسيس) وتاءور سينوفيس من قرية تبتونيس ، عمره حوالي ٧٥ سنة ، وله ندبه على يده اليمنى ، أن يصبح سارى المفعول بعد موته ماتنازل عنه لأولادة الذين انجبهم من زوجته المتوفاة ثنابنخيس بنت باتينس وهما على وجه التحديد هارميوسيس وهارفائيسيس وكذلك إلى تيفورسائيس القاصر ابنه ولده الأخر كرونيون الأصغر من (اخته) تاءور سينوفيس ، هؤلاء الثلاثة سيرثون كل ماقد يتركة كرونيون الأكبر من بعده خاصة متعلقاته من كل نوع ، وكذلك الأثاث والأدوات ومتاع البيت ... إلخ . وكل الديون المستحقة عليه ، واى شيء من اى نوع ، لكل واحد منهم الثلث بالتساو ، ويترك لباقى أبناء كرونيون (الأكبر) : كرونيون الأصغر وتاءور سينوفيس وتيفور سائيس كل على النحو التالى : لكرونيون (الأصغر) اربعين دراخما من الفضة لأنه- كما يقر والده كرونيون- قد عانى على يديه مظالم كثيرة خلال حياته ، ولأبنتيه تاءور سينوفيس وتيفورسائيس- إلى جانب مصاغهما من الذهب والفضة والثياب التي يؤكد انه قد اغدق بها عليهما- يهب مائه دراخما من الفضة لكل منهما . ويعهد إلى ورثته الثلاثة هارميوسيس ، وهارفائيسيس ، والحفيدة تيفور سائيس- القاصرة- ان يتكفلوا بجنازة ودفن الموصى كرونيون وتسديد ديونه العامة التي قد تظهر ، لكن مادام على قيد الحياة ، فأن كرونيون الموصى له مطلق التحكم في شئونه- وإدارتها كيفما يريد (توقيعات ختم كرونيون الذى لا يعرف الكتابة ولذلك كتب أحدهم له نيابه عنه) وتوقيعات الشهود الستة الذى يشترط قانوناً شهادتهم لصحة الوصية . وأشعار مكتب السجلات في تبتونيس(٣٠) .

هذا هو فحوى الوصية بالحرف الواحد والتى فيها نلمس شيئاً إنسانياً مؤثراً وهو إعتراف كرونيون الأب فى خاتمة حياته بأنه أساء معاملة ابنه الأكبر المسمى أيضاً كرونيون ولهذا يحاول إسترضاءه بالقليل. وقد تحاشى ذكر ما أوقعه بأبنه من أذى وظلم حتى لا ينشر غسيل الأسرة القذر على الملأ بعد موته. وربما كان من بين المظالم التى ألحقها بأبنه كرونيون الأصغر أنه أجبره على الزواج من تاءور سينوفيس، وقد قبل الأبن أن يتزوج من أخته توفيراً لدفع المهر إذا ما تزوج أمراة غيرها، وحتى تبقى الأرض داخل الأسرة. وقد عاشر الشقيق والشقيقة بعضهما كارهين لأكثر من ثلاثين عاماً، وأنجبا ولدين وبنتاً هى: تيفورسائيس أحبهن إلى قلب جدها، أما الولدان فهما ساسوبيس وباكيبكيس. وربما لرفع هذا الغبن، سمح لأبنه كرونيون أن يطلق أخته وزوجته بعد كتابة الوصية بأحد عشر شهراً، إذ تم طلاقهما فى الثانى من شهر توت (٣٠ اغسطس) عام ١٣٨ م. وهذا نص فسخ عقد الزواج:

،نسخة من إتفاق [التاريخ].

فى تبتونيس من قطاع بوليمون فى إقليم أرسينوى. كرونيون بن كرونيون- البالغ من العمر حوالى أربعة وخمسين عاماً. وله ندبة على ذراعة الأيسر، وزوجته حتى هذه اللحظة والتى هى شقيقته المولودة من نفس الأب ونفس الأم تاءور سينوفيس. البالغة من العمر خمسين عاماً وليس فيها أى علامة مميزة، ووليها القانونى والدهما معاً كرونيون بين خيوس البالغ من العمر نحو سبعين عاماً وله ندبة على يده اليمنى. يقران معاً أنهما قد فسخاً زواجهما من بعضهما البعض والذى تم بينهما دون عقد مكتوب، ومن ثم أصبح كل منهما حراً يسلك حياته كما يختار. تاءور سينوفيس لها الحق فى أن تقترن برجل آخر دون أى مساءلة بأى شكل والمصوغات [تذكر المصوغات الذهبية والفضية بالتفصيل والوزن والقيمة(٣١)] والتى يقر الطرفان المذكوران عالية ان كرونيون قد تسلمها من اخته تاءور سينوفيس والتى حولها إلى مبالغ نقدية تصرف فيها لمصلحته، يلتزم ان يعيدها إلى اخته تاءور سينوفيس بما يقابله من حلى وذلك خلال ستين يوماً من هذا التاريخ وإلا فان تاءور سينوفيس المذكورة تحتفظ بحقها القانونى فى مقاضاة اخيها كرونيون والحجز على ممتلكاته. أما فيما يتعلق بالأمور الخاصة فيقران انها لن يقيما اى إدعاءات ضد أحدهما الأخر بأى شكل من الأشكال وتحت اى إدعاء [خاصة] كرونيون لن يطالب تاءور سينوفيس

فيما يخص اى ممتلكات اشترتها لأنها دفعت ثمنها من حر مالها . وباختصار فيما يخص اى موضوع مكتوب او غير مكتوب حتى ذلك اليوم . وكذلك الأبناء الذين انجبوهما ولدان هما : ساسوبيس وباكبيكيس وابنة هى تيفورسائيس.

ومن وثيقة أخرى أرخت بعد شهرين من تاريخ فسخ عقد الزواج نعرف أن كرونيون الأبن قد التحق بعمل لدى أرملة ثرية تمتلك مساحات كبيرة من الأرض، حيث أصبح مشرفا على زراعاتها، وكانت تبلغ من العمر خمسة وأربعين عاما مما يجعلنا نشك فى أن علاقة عاطفية قد نشأت بين كرونيون- الذى كان يبلغ من العمر أربعة وخمسين عاماً- وبين هذه الأرملة الثرية وأن هذه العلاقة كانت سببا فى حدوث طلاقه من أخته[٢٢].

الملكيات الزراعية فى القرية المصرية :

لقد لاحظنا من عقود الايجار التى عثر عليها فى ملف كرونيون أن أغلب الذين إستأجر منهم أراضية كانوا محدودى الملكية الزراعية ، وهذا هو حال أغلب الفلاحين الملاك . كما أن المعابد المصرية إستمرت تمتلك بعض الأراضى المحدودة بعد أن جردها الأمبراطور أكتافيوس أغسطس من إقطاعياتها الشاسعة. أما غالبية الأراضى الخصبة فكانت فى حوزة الدولة أو من ممتلكات الأمبراطور . فعلى اثر الفتح الرومانى لمصر أقبلت العائلة الأمبراطورية على شراء مساحات شاسعة من الأراضى التى صادرها الرومان من الأسرة البطلمية الحاكمة ، وقلدهم فى ذلك رجال البلاط المقربين من الأمبراطور ، كما قلدهم فى ذلك ايضا أثرياء الأسكندرية لأنهم أدركوا أن إمتلاك الأراضى فى مصر خير وسيلة لأستثمار أموالهم لما تدره الأرض من عائد مرتفع . غير أنه منذ نهاية القرن الأول الميلادى إنتقلت ملكية جميع هذه الضياع بطريقة أو بأخرى إلى ممتلكات « الخاصة الأمبراطورية » رغم أن بعض الضياع ظلت تحمل أسماء مالكيها القدامى مثل ضيعة مايكيناس المسئول عن الأعلام والثقافة فى عصر الأمبراطور إكتافيوس أغسطس ، وضيعة ليفيا زوجة هذا الأمبراطور ، وضيعة الأديب والفيلسوف سينيكا ، وضيعة أنطونيا أبنة أنطونيوس من اكتافيا وغيرهم . وبأختصار كانت أغلب الأراضى الخصبة فى مصر أما تتبع ضياع الدولة أو من ممتلكات الأمبراطور . ولقد ظلت ممتلكات الأمبراطورية من الأراضى الزراعية تحمل نفس التسمية التى

ضياع الدولة

كانت تعرف بها أبان العصر البطلمى وهو γη βασιλικη ، وكان يتولى إدارة هذه الأراضى مشرفون حكوميون يقيمون فى عواصم الأقاليم، ويقومون بعرضها فى مزادات كل عام للإيجار أو لحق الإنتفاع ، ويفوز بها من يدفع إيجاراً أعلى من الآخرين. وكان المزارعون الذين يفوزون بحق الإيجار أو الإنتفاع يعرفون بمزارعى الأرض العامة حيث يتولون زراعتها بأنفسهم أو يؤجرونها من الباطن بإيجار أعلي لمزارعين آخرين. وعندما يرسو المزاد علي واحد منهم كان يتوجب عليه ان يدفع فى الحال جزءا من مقدم الايجار كضمان لجدية العرض إذا كان يتوفر لدية المال. اما إذا لم يكن يتوفر فأنه يلجأ إلى الضامن الذى يضمنة لدى السلطات ويكون معروفا لديها.

ضياع الامبراطور

اما بالنسبة لضياع الأمبراطور، فقد كان هناك عدد من النظار الزراعيين الذين يختارون بعناية ، ويقومون بتصريف شئون هذه الضياع، وأحيانا وكان يعرضون بعضا من هذه الضياع للايجار فى شكل حيازات صغيرة، وكانوا مستأجرو هذه الضياع يعرفون بإسم مزارعى الأمبراطور، وفى بعض الأحيان الآخرى كانوا يطبقون النظام المتبع فى الضياع الأمبراطورية فى شمال أفريقيا، حيث يقسمونها إلى قطاعات كبيرة ويؤجرونها إلى بعض الوسطاء القادرين على دفع المقدم الباهظ الثمن، ثم يقوم هؤلاء بتقسيمها إلى حيازات صغيرة يعرضوها للإيجار على مزارعين من الباطن بإيجار يحقق لهم دخلا كافيا. وكان هؤلاء المستأجرون الصغار يعرفون أيضا بأسم «مزارعى الضياع». وكان الواحد منهم يلتزم بتسليم حصة المؤجر من المحصول وهو فى الجرن وبالمكيال الرسمي المعتمد، بل كانوا يضعون شروطا معينة مثل أن تكون الغلال جديدة وخالية من الحصى الطينية، وأن تكون مغربلة، وغير مخلوطة بحبوب أخرى رخيصة الثمن ، وفى مقابل ذلك يتعهد المؤجر الأصلى بتسديد إيجار الأرض للدولة وكذلك كافة الضرائب المستحقة على الأرض.

كانت الدولة أو الأمبراطور يمثلان الملاك ذوى النفوذ، لأنهم يتمتعون بمزايا وسلطات وتسهيلات غير متاحة للمؤجرين العاديين، فمثلا إذا حدثت أى مشكلة مع المستأجرين مثل التخلف أو التهرب أو التسويف فى تسديد

الايجار ، فإن السلطة بكل ماأوتيت من قوة تتدخل لصالح الدولة والأمبراطور ، كما انهما كانا يضمنان زراعة الأراضي النائية أو تلك التي لم تصلها مياه الفيضان بفرض زراعتها على أهل القرى المجاورة لها دون أى تنازل أو إغراءات على نحو ما كان يفعل الملاك الأهليون ، الذين كانوا يخفضون الإيجارات على الأراضي التي يقل الطلب عليها بسبب بعدها ، أو لقلة إنتاجها أو لأن مياه الفيضان لم تصل إليها ، فإن لم يجدوا أحدا يستأجرها فإنهم كانوا يقومون أما بزراعتها بأنفسهم أو تركها بورا للعام الزراعي التالي ، ولا يسألهم في ذلك أحد . أما أراضي الدولة والأمبراطور فإنها كانت محصنة من تخفيض الايجار أو التبوير ، ولذلك نجد في عقود الايجارات الأهلية شرطا ينص على خلو الأرض المؤجرة من وجود نسبة تحميل إجبارى للزراعة مفروضة عليها سواء من أراضى الدولة أو الأمبراطور ، أما المستأجرون الذين تفرض عليهم زراعة هذه الأراضي النائية ، فكانوا يضطرون إلى مغادرة القرية والاقامة بالقرب من منها ، أو يتحملون مشقة الأنتقال إليها يوميا على ظهور الركائب ، أو مشيا على الأقدام لمسافات بعيدة تتروح مابين ثلاثة كيلومترات واثنا عشرة كيلو مترا ، بل بلغت المسافة بين القرية وموقع الأراضي المجبرون على زراعتها أحيانا أربعين كيلومترا . فمثلا نجد فلاحين من قرية سكنوبايونيسوس (ديمى السباع الواقعة إلى الشمال من بحيرة قارون Moeris ويجبرون على العمل في باكخياس (أم الأتل) التى تقع على بعد أثنين وثلاثين كيلومترا إلى الجنوب الشرقي منها . كما ورد في لفافة بردية طويلة خاصة بضرائب عام ١٦٧ م ، أن أرضاً للدولة بلغ مساحتها ٢٤٥٩ أرورا (حوالى ١٥٨٤ فداناً مصرياً) كانت تقع في زمام قرية بطلمية الجديدة ، فرض أكثر من ثلث مساحتها على فلاحى قرية كرانيس (كوم أوشيم) لزراعاتها ، وفرض الباقى على فلاحى قرية بطلمية الجديدة لزراعاتها ، وبالرغم من أن المسافة بين كرانيس وبطلمية الجديدة لاتزيد عن ثمانية كيلومترات إلا أن أربعة وأربعين فلاحا نقلوا من كرانيس للعمل والأقامة في حظائر بالقرب من بطلمية الجديدة[٣٣] ربما ليس لبعد المسافة بل لاتساع مساحة الأراضي . ولقد كانت عملية التهجير تحرم القرى من ربع أو ثلث القوى البشرية العاملة فيها ، أما البقية الباقية من الفلاحين فكانوا وماشيتهم يقضون النهار من مطلع الشمس حتى غروبها

يعملون في الحقول ، كما كان بعضهم يقضي نهاره في نقل المتاع والأفراد على ظهور الجمال أو الحمير مقابل اجور يتفق عليها ، أو في صيد الأسماك.

ولقد تبدو القرية لعين الناظر من بعيد خاملة وهي تصطلي بنار الشمس المحرقة ، لكن إذ ما إقترب منها ، ودلف من بوابتها ، تحول السكون إلى ضجيج . وضوضاء يحدثها البشر ، وصياح الديكة ، وثغاء الغنم ، وخوار البقر ، ونباح الكلاب . كل يؤدى دورة : الحرفيون في حوانيتهم منكبون على العمل ، والصبية أما يلهون ويلعبون ، أو يساعدون أمهاتهم في قضاء بعض الحاجيات ، والنسوة منشغلات في أداء أعمالهن المنزلية ، أو واقفات أمام أبواب منازلهن يثرثرن ويغتبن ، ومن ان لآخر يقوم فجأة شجار ، وتتشابك الأيدى ، ويعلو الصياح ، ويهرع الناس لاستطلاع الخبر ، أو لفض الأشتباك ، ولا يخلو الأمر من إصابات وجروح سواء حقيقية كانت أم إدعائية ، ولص يتسلل خلسة إلى بعض البيوت ليسطو على ما تقع عليه يداه ويهرب ، مستغلاً إلتهاء الناس في فض الشجار . وهذا يقودنا إلى إستطلاع ظاهرة إجتماعية ، قديمة قدم الأبدية ، وهى الجريمة والمجرمين .

الجريمة والمجرمون :

ولم تغفل أوراق البردى أيضاً عن ذكر الجرائم وأحداث العنف والتعدي على ممتلكات الآخرين ، وأغلب الضحايا كانوا عادة من النساء والشيوخ والضعفاء . لقد كون الرومان فكرة متوارثة عن الفلاحين المصريين بأنهم غلاظ عتاة ، معادون للأجانب ، متقلبو المزاج ، لايحترمون النظام ولا القانون .وأن القرية المصرية وكر للأشرار ، وقطاع الطرق يملأون الأحراش ، غير أن هذه النظرة لاتخلو من التعصب العنصرى ، فلو عثرنا على أوراق بردية بمثل هذه الوفرة التي عثرنا عليها في مصر - في بلدان أخرى - سوف نجد جرائم أكثر وأبشع من تلك التى سجلتها أوراق البردى المصرية فى العصر الرومانى ، فقد كان الفقر المدقع هو الباعث الأول على إرتكاب الجرائم ، فعلى حد قول المثل الإنجليزى : البطون الخاوية تسكنها الشياطين ، أنظر إلى هذا العقد الذى وقعته أرملة دفعها الجوع إلى رهن طفلتها ويرجع إلى أواخر حكم الروم

لمصر ويسبق الفتح الإسلامى لها بثمان وثمانين عام فقط[٣٤] وهذا نصه :

«فى العام الثالث والعشرين من حكم ملكنا الشديد الشبه بالرب والتقى الورع فلافيوس جستنيانوس ، الأغسطس إلى الأبد ، والقائد الأعلى ، وفى العام الثالثة عشر بعد قنصلية فلافيوس باسيليوس عظيم الشهرة فى الـ... الخمسعشرية[٣٥] الـ... اوريليا هيرائيس إبنه يوحنا (وسوزانا من (...) إلى (..) بائع ، بن مينا ، وماكسيما زوجة ابنه (.....) سلام .

منذ (كذا) سنة قد تزيد او تقل مات زوجى وتركنى اكد واكدح واتحمل المشاق من اجل ابنتى منه حتى اوفر لها الأعاشة اللازمة . والآن ولم اعد املك الضروريات لأعالتها ... ولما قد بلغت التاسعة عشرة من عمرها . وقد تزيد او قد تنقص فانى طلبت منك ... ان تتسلمها منى كابنتك ، واقر أنى قد سلمتها لك من الآن وحتى باقى السنوات الآتيات كابنتك الشرعية حتى توفر لها متطلباتها وتملاء مكان الوالدين لابنتهما . وبناء عليه ليس لى السلطة ان آخذها منك . وإذا فعلت ذلك ، اقر بأن ارد لك كل نفقات إعاشتها ... وارهن ضمانا لحقوق هذا العقد كل ما املك فى الحاضر والمستقبل خاصة وعامة كضمان وكرهن . هذا العقد الذى كتب من نسخة واحدة فقط عقد شرعى وقد رددت على السؤال الأجرائى بالموافقة . (توقيع) آنا اوريليا هيرائيس ابنة يوحنا .....

هذا الفقر الذى دفع اوريليا هيرائيس إبنة يوحنا إلى بيع ابنتها فى سن التاسعة وجعلها تتخلى ببساطة عن غريزة الأمومة هو الذى كان يدفع الناس إلى إرتكاب الجريمة .والجريمة إنحراف شائع للسلوك الأنسانى المتعارف عليه منذ مولد الضمير . وفى مجموعة وثائق مكتبة جون رايلاندز John Rylands بمدينة مانشستر بانجلترا ، توجد مجموعة من البلاغات المقدمة الى المسئولين حول ارتكاب أفعال جنائية ضد الغير فى الفترة ما بين عام ٢٨ م وعام ٤٢ ميلادية ، وعددها خمسة وثلاثون بلاغا كانت محفوظة فى أرشيف مقر رئيس الشرطة فى قرية يوهمريا (بطن اهريت) بالفيوم ، سبعة بلاغات تدور حول وقوع إصابات بالبدن بسبب الأعتداء ؛ وثلاثة بلاغات حول وقائع إقتحام والتعدى بالقوة على أملاك الغير ، وسبعة بلاغات تدور حول حدوث عمليات سرقات وسطو على المنازل ، وثمان بخصوص الزراعات بترك قطعان ماشية وأغنام تجتاجها ، لكن قبل أن نتعرض لمجموعة جون رايلاندز ، نود أن نشير الى بلاغ مقدم الى حاكم قطاع هيراقليديس بالفيوم التى تتبعها كرانيس (كوم اوشيم) حول سرقة عجل تسمين واليك نص البلاغ ترجمناه حرفيا :[٣٦] .

، إلى تيبريوس كلاوديوس اندروتيموس حاكم قطاع هيراقليديس من إقليم ارسينوى من امونيوس بن إيرانيايوس احد مزارعي ارض الدولة العامة (γεοργος Snmocios) فى كرانيس . فى ليلة ٤ امشير [٢٩ يناير] الماضي من العام الثاني عشر من حكم نيرون كلاوديوس قيصر اغسطس جرمانيكوس الأمبراطور هجم بعض الأشخاص على القطيع الذي كنت ارعاه في خور كركيسوخا Kerkesoucha فى ارض هاريايسيس بن هيراقليس ، وساقوا العجل الأحمر الذى كنت اعده للذبح وعلى ذلك فانى اطلب منكم إصدار امر مكتوب ليرسل الى كبير مجلس كرانيس لكي يتولى البحث معي عنه . سلام .

[خط آخر] انا امونيوس بن إيرينايوس قدمت البلاغ المذكور اعلاه .

[الخط الأول] العام الثاني عشر من حكم الأمبراطور نيرون كلاوديوس قيصر اغسطس جرمانيكوس شهر امشير (.).

وبالرغم مما تتضمنه هذه الشكاوى من مشاكل وخلافات إلا أنها تلقي الضوء على العلاقات الشخصية والأجتماعية في القرية المصرية وتصور لنا الحالة الاقتصادية ، فقد لاحظنا أن هناك علاقة بين الأحوال الاقتصادية فى المجتمع وبين حجم الجرائم وتنوعهافبينهما تناسب طردى ، كما أن نوعية الجرائم تختلف من بيئة الي أخرى ، فجرائم المدينة غير جرائم القرية[٣٥] ففى بلاغ عن حادث سطو وقع على بيت أحد أعيان قرية يوهيمريا (قصر البنات بالفيوم) عام ٢٨ - ٢٩ ميلادية قدم البلاغ التالي :-

، إلى سرابيون ، رئيس الشرطة من أورسينوفيس بن هاريائيسيس ، كبير قرية يوهيمريا فى تقسيم تمستيس . فى شهر مسرى من العام الرابع المنصرم من حكم تيبريوس قيصر اغسطس . كنت اقوم بهدم بعض الحوائط القديمة فى بيتي بواسطة البناء بيتوسوخوس بن بيتوسوخوس . وبينما كنت خارج البيت لأتكسب قوتى . إكتشف بيتوسوخوس اثناء عملية الهدم كنزاً كانت امي قد اخفته فى صندوق صغير منذ زمن مضى يعود الى العام السادس عشر من حكم القيصر [يقصد اغسطس والعام الذى يقصده هو عام ١٥ - ١٤ ق . م] وكان يتكون من زوج من الأقراط الذهبية تزن اربعة ارباع . وهلال من الذهب يزن ثلاثة ارباع ، وزوجان من الأساور الفضية وزنها ما يعادل ثقل ١٢ دراخما من معدن غير مسكوك . وقلادة بها حلية فضية قيمتها ثمانون دراخما ، وستون دراخما فضية نقداً . وبعد ان شغل إهتمام مساعدية واهل بيتي ، تمكن من نقلهم عن طريق ابنته البكر الى بيته ، وبعد أن افرغ الأشياء السابقة الذكر القى بالصندوق الفارغ فى منزلى ، بل انه إعترف بالعثور على الصندوق بالرغم من

انه يدعى انه كان فارغاً . وبناء عليه أطلب منكم إذا وافقتم - أن يمثل المتهم امامكم لينال الجزاء المترتب على فعله . وداعاً . أورسيوفيس ، البالغ من العمر خمسين عاماً وله ندبة على ذراعه الأيمن [أضافة من الكاتب لإثبات الشخصية][٣٨] .

وفى مجموعة برديات جامعة ميشجان هناك بلاغ مؤرخ فى عام ١٧٦ م عن حادث سطو على بيت بالقوة يقول :

«إلى الكنتور (قائد المائه) ... من ستوريخوس بن ... (بن ثيون) من قرية تبتونيس . إقتحم بعض الأشخاص بيتي في القرية على طريقة اللصوص اثناء الليلة السابقة لليوم الثاني والعشرين من هذا الشهر [شهر] هاتور [١٨ نوفمبر] منتهزين فرصة نومي بعيداً [عن البيت] بسبب الحداد على زوج إبنتي ، وذلك عن طريق خلع المساميرمن الأبواب ، وحملوا معهم كل شيء كنت امتلكه في بيتي . وسوف اقدم قائمة مفصلة عنها عندما يطلب منى ذلك ، وبناءً عليه اتقدم بهذا [الطلب] طالباً أن يجرى التحقيق اللازم من قبل الجهات المختصة حتى ينالني الأنصاف منكم[٣٩] .

وهناك بلاغ مؤرخ فى ٢٦ بشنس [٢٢ مايو] عام ١٩٧ م حول سطو بالقوة علي المحاصيل قبل الجني وهى حوادث متكررة فى الريف المصرى ، لكن الذى يهم أن صاحب البلاغ يلفت نظر حاكم إقليم أرسينوى الى أنه لن يقدر على دفع ضريبة المحاصيل لأنها سرقت ، ويبدو أنه إلحاق لبلاغ سابق تقدم به مباشرة الى والى مصر إيمليوس ساتورنينوس والذى أحاله إلى حاكم القطاع ، ويبدو أن حاكم القطاع أحاله بدوره الى حاكم الأقليم وهذا نصه :

«إلى هيراكس المدعو ايضاً نيميسيون- حاكم إقليم ارسينوى قسم هيراكليديس من جميللوس- المدعو ايضاً هوريون بن جايوس ابو لليناريوس من انطينوبوليس كنت يا سيدى- قد تقدمت بشكوى الى صاحب المقام العالى والى مصر إيميليوس ساتورنينوس اعلمه فيها بامر السطو الذى كنت قد تعرضت له من قبل، قام به المدعو سوتاس الذى يزدريني لضعف بصرى ، فدبر لنفسه امرالأستيلاء على ممتلكاتى عن طريق العنف المستمر . ولقد تلقيت الرد السامى الذى نصحنى بالتظلم إلى صاحب السعادة حاكم القطاع [الأبيستراتيجوس] ، واثناء ذلك توفى سوتاس ، غير أن اخية جوليوس بما إتصف به من عدوانية- اغار على بعض الحقول التى زرعتها ، وحمل معه كمية كبيرة من التين . وياليته إكتفى بذلك ، بل انه سطا على بستان زيتون أمتلكه

ويقع بالقرب من قرية كركيسوخا و[سرق] بعضاً من اغصان الزيتون الجافة ، وبعض النباتات البرية . ولقد علمت بأمر السطو عندما وصلت إلى هناك وقت الحصاد ، علاوة على ذلك لم يكفيه [ما فعل] ، فقد توجه إلى حقلي في هذه المره تصحبة زوجته ورجل يدعى زيناس حاملين معهم رمز عين الحسود وكان فى نيتهم تطويق المزارع المستاجر مني بالسحر الأسود . وكان من نتيجة ذلك أنه [أى المستأجر] ترك عمله في الحقل بعد ان كان قد حصد جزءاً من حقل امتلكه ، ثم قاموا بحصد الباقي لأنفسهم . بعد ذلك قمت بنفسي بمواجهة يوليوس وكان فى صحبتي مسؤلو القرية ليكونوا شهداء عليهم . ومرة اخرى وبنفس الطريقة قام اتباعة بتوجية رمز عين الحسود نحوى بغرض تطويقي بالسحر الأسود . وذلك في حضور بيتوسوخوس وبيتوللاس شيوخ كرانيس والذين اتموا فترة اداء منصب كاتب القرية ، بالأضافة الى مساعدهم سوكراس ، وبينما كان المسؤلون متواجدين ، اخذ يوليوس رمز عين الحسود وما تبقى من المحصول من الحقول وحملهم إلى بيتة . ولقد سجلت ما قام به لدى المسؤلين المذكورين ولدى جامعي ضريبة القمح للقرية المذكورة . وعلى ذلك فانا مضطر للتقدم بهذا الطلب راجياً أن يلحق في السجل لحفظ حقي ضدهم عند صاحب السعادة حاكم القطاع [الأبيستراتيجوس] بخصوص هذا التعدى الذى قاموا به ، ومن اجل الضرائب الواجب سدادها للخزانة الأمبراطورية عن هذه الحقول لأنهم ظلما قاموا بجنى المحصول . »(٤٠)

وفى بلاغ مؤثر ، يصور ظلم الأنسان لأخيه الأنسان ، وعدوان القوى الملتوى المسلك علي الضعيف مهضوم الحق ، تقدم رجل يدعي ثوؤنيس فى ٢٨ هاتور (٢٤ نوفمبر) عام ٤٧ ميلادية في عصر الأمبراطور كلاوديوس ببلاغ حول حادث إعتداء غشيم تعرض له هو وزوجته على يد راعى فظ يعمل عنده وهذا هو نص البلاغ :

« إلى ايوللونيوس حاكم إقليم ارسينوى من ثوؤنيس بن اكوسيلاءوس من قرية اريس بقطاع بوليمون . بينما كنت انهى حساباتي مع بنتيتس بن بنتيتس راعي أو كسيرينخا فى القطاع المذكور وتسديد ما عليه من مال نقدى وعينى ، حاول المراوغة لكى لا يدفع ما عليه ، بل حاول أن يغالطني ، فعاملنى انا وزوجتي تانوريس إبنة هيروندداس باحتقار حتى فى قريتنا أريس المذكورة ولم يكفيه ذلك ، بل إنهال على زوجتى تانوريس بلكمات كثيرة بدون رحمة فى كل جزء منها طالته يده ، بالرغم من انها كانت حاملاً . وكانت النتيجة انها اجهضت وولدت قبل الأوان جنيناً ميتاً ، وهى الأن طريحة الفراش ، وحياتها

فى خطر . وبناءً عليه فاني ارجو ان تكتب الى شيوخ اوكسيرينخا لكى يرسلوا المتهم ليمثل بين يديك من اجل المساءلة اللازمة[٤١] .

وبخط جميل، وأسلوب راق يدل على أن صاحبه على دراية بروائع الأدب الأغريقي القديم لأنه إستعار فى شكواه مقتطفات وإستعارات من خطب ديموستين ومسرحيات ايسخولوس، وعلى العكس تماماً من الشكاوى التي يكتبها الكتبة المحترفون ذوى الثقافة الضحلة، تقدم مدرب العاب رياضية بالجمنازيوم فى مدينة اوكسيرينخوس والذى كان يعرض مهارته فى اوقات محددة من العام لتدريب فريقة وامتاع جمهور النظارة بهذة الشكوى ضد إمرأة عاتية مستعدية وترجع الى القرن الثالث الميلادى لأنها بدون تاريخ وهذا نص البلاغ :

«إلى اوريليوس الكسندر المختص بالأمن من اوريليوس [....] المدعو سابقاً افنخيس عارض العاب رياضية فى مدينة اوكسيرينخوس.

مساء امس مرت المدعوة ديدومي Didyme زوجة اجاثوس دايمون من أمام منزلي ووجدتني واقفاً مع اهل بيتي، فسبتنا بالقول وبالفعل. فهى إمرأة تتصف إلى حد كبير بعدم الحياء والوقاحة ولما حاولت منعها من ذلك ورجوتها ان تتركنا وشاننا، استغلت ساعة الظلمة، وتمادت بدرجة كبيرة من الجنون فهجمت علىّ ومدت يدها وهى فاقدة الوعي ولطمتنى، ثم تهجمت بعنف على بعض ابناء ابنتي الذين كنت قد دعوتهم ليشهدوا (عليها)، ولم تكتف بذلك فحسب بل (تهجمت) كذلك على احد المسؤلين فى مدينتنا الذى تصادف مروره.

وحيث انني قد تعرضت للكثير فاني ضحية لأعتدائها واتقدم اليكم بهذة الشكوى راجياً منكم ان تصدروا اوامركم باستدعائها امامكم حتى احظى بانصافكم امام الجميع والسلام[٤٢] .

يقول نفتالى لويس معلقاً على ما ورد فى هذه البلاغات «ليس من العدل أن نتأثر بهذه القسوة التى عامل بها الأنسان أخاه الأنسان، وليس من العدل أن نصدق النظرة الأستعلائية التى نظر بها الرومان الى المصريين بأنهم شعب متقلب المزاج، فوضوى، غليظ الطباع لأنها نظرة غير عادلة لشعب كثير العمل، يعانى من الأضطهاد، لأن وجود المجتمع فى حد ذاته يحتم وجود المودة والتراحم بين الجيران والتى بدونها لا يتأتى للمجتمع ان يبقى. وإذا كانت السجلات والوثائق تظهر حالات التعدى والعدوان أكثر مما تظهر من حالات التعاون والأنسجام[٤٣] فذلك

مرجعه للمثل القائل : « ما يفعله الناس من شر يبقي بعد موتهم The evil that men do lives after them » على حد قول الشاعر خليل مطران :

الخير فى الناس موجود إذا جبروا .. والشر فى الناس لايفنى وإن قبروا

غير أن الخير كان موجوداً فى القرية المصرية دون إجبار ، فتعاليم الديانة المصرية مليئة بالنصائح والمواعظ ، بالحكم والأمثال ، التى تدعو للحب والخير والجمال ، وفى زمن الرومان بالرغم من قسوة الحياة ، وصعوبة العيش ، إلا أن التراحم والتعاطف والمودة لم تختف ، إنما نراها من آن لآخر تعلن عن نفسها من خلال الوثائق ، ففى خطاب كتبه شاب إلى أبيه يتوسل اليه فيه أن يقدم كل ما يستطيع من رعاية ومعونة ممكنة الى زوجة صديق له فى أشهر حملها الأخير لأن زوجها غائب عنها يقول فيه :

« ان يبحر جنوبا ولكن لاتتوفر لديه فرصة لأن منصب ، شيخ العرب Arabarches يعيقه . وهو على وشك من ان ينتهى من إلتزاماته . وفى الحقيقة كان على وشك من ان يبعث باخيه فى مركب سريع ليتوسل إليك لأنه جد مشغول ، غير اننى قلت له : « دعنى اولاً اكتب لأبى عن مستلزمات ولادتها . ثم عن تغيبك الأضطرارى » . ومن ثم فانى ارجوك يا ابى ان تذهب إليها قرب نهاية شهر امشير او منتصف شهر برمهات لتكون إلى جوارها عندما يحين موعدها ، وكل شىء يتعلق بولادتها قد تم ترتيبه . ولهذا اتوسل إليك يا ابى ان ... (باقى الخطاب مفقود)(٤٤) .

وفى خطاب آخر كتبه رجل وزوجته إلى صديقة يهنئانها بزفاف إبنها الذى يعمل طبيباً ، ويعتذران لها فيه عن عدم قدرتهما حضور حفل الزفاف ، لأنهما فى مرحلة النقاهة من مرض ألم بهما . كما أنهما ينتظران عقد الوالى لمحكمته السنوية لأمر يتعلق بهما ، والخطاب تقطر عباراته بالعواطف الإنسانية الدافئة والمودة والمجاملات بين الناس تقول الرسالة :

« من ابوللونيس وسارابياس إلى ديونيسيا سلام . لقد غمرتنا الأنباء السعيدة بالفرح والسرور عن زفاف إبنك الطبيب سارابيون . وكان يتوجب علينا المجىء فوراً فى ذلك اليوم الذى طالما إنتظرناه ، لكى نقوم على خدمته ونشاركك الأفراح ، ولكن بسبب عقد المحكمة السنوية ، ولأننا فى مرحلة النقاهة من المرض فاننا لم نستطع المجىء . الورد لم يتفتح بعد عندنا ، وهو فى الحقيقة نادر ، ولقد جمعنا بصعوبة من كل المشاتل ومن جميع صانعى الأكاليل الألف وردة التى ارسلناها لك مع ساراباس ، حتى تلك التى كان لا يتوجب قطفها

إلا اليوم التالى قطفناها . لقد حصلنا على زهر النرجس الذى ارتديه ، وبدلاً من الألفى زهرة التى طلبيتها بعثنا لك اربعة آلاف . ونرجو الا تظنين اننا بخلاء مثلما تهكمت علينا بكتابتك إلينا أنك قد أرسلت النقود (ثمن الأزهار)، لأننا نعتبر اولادك ايضاً اولادنا ونعزهم ونحبهم اكثر من اولادنا ، ومن ثم نحن سعداء مثلك ومثل ابيهم (التحيات التقليدية التى تكتب فى نهاية أى خطاب)(٤٥).

ولقد سبق أن عرضنا فى الفصل السابق أحد خطابات العزاء كنموذج للعواطف الجياشة لكننا نعيد الحديث عن خطابات أخرى وهى خطابات العزاء فى موت الأبناء الذكور فى سن الصبا ، والتى كانت تحمل عبارات مؤثرة ذات نمط متكرر ، غير أنها تثير فينا الشجن حتى أن القارىء لها لا يستطيع أن يحبس دموعه الا بصعوبة . ومثال على ذلك خطاب كتب فى مدينة أوكسيرينخوس وحرر فى ١٨ كيهك (١٤ ديسمبر) عام ٢٣٥ م الى احد أعيان المدينة وزوجته يعزيهما فى فقدان ابنهما يقول الخطاب :«منثيانوس الى ابو للونيانوس وسبارتياتى تشجعا . الألهة تشهد عندما علمت عن سيدى ولدكما حزنت ونحت كما لو كنت انوح على ولدى لقد كان إنسانا جديرا بالمعزة . ولقد كنت على اهبة المجىء اليكما عندما اوقفنى بينوتيون قائلا انك يامولاى ابولونياس بعثت لى بكلمة وهى الا آتى لأنك ستكون متغيبا فى إقليم ارسينوى . حسناً تحمل الأمر بنبل لأن ذلك من صفات الآلهة [ثم يستطرد الخطاب ليدور حول أمور تتعلق بالمعاملات ثم تنتهى بقوله] وانا ايضا الممت بى خسارة عبد مولود بالبيت ثمنه تالنتان [التالنت الواحد يساوى ٦٠٠٠ دراخما أى ١٢٠٠ دراخما] استسمحك الوداع يامولادى انت ومولاى (ابيك) فى رعاية جميع الارباب(٤٦) . وهناك خطاب آخر مشابه ترجمة الاستاذان لويس ورنهولد حول عزاء فى سيدة ماتت وهى تضع جنينها(٤٧) وهى ظاهرة شائعة تؤكدها شواهد القبور من العصر الرومانى .

إنتشار الأمية :

لقد كانت - كما سبق ان أشرنا - نسبة الأمية متفشية خاصة بين الفلاحين وطائفة الحرفيين حتى اننا نقابل بعض الكهنة ، وشيوخ القرى ونظار الزراعات الذين كانوا اميين لا يقرأون ولا يكتبون ، بل كان هناك بعض الجنود المسرحين من الجيش بعد أن قضوا فيه ستة وعشرين عاما ،

خرجوا منه كما دخلوه أول مرة أميين . والأكثر غرابة أن نجد شخصا أميا يشغل وظيفة كاتب القرية Komogrammateus(٤٨) واسمه بيتاوس(٤٩) . لكن هناك إحتمال كبير أن يكون مصطلح (أمى) فى الوثائق اليونانية لا يعني أنه جاهل كليه ؛ بل ربما يعني أنه غير ملم بالكتابة والقراءة باليونانية فقط، ولا يعنى أبداً أنه غير ملم بالقراءة والكتابة بالديموطيقية لغة المصريين الشعبية . فأغلب الكهنة المصريين كانوا يتعلمون الكتابة والقراءة بالهيروغليفية والديموطيقية فى المدارس الملحقة بالمعابد ، وقد سبق أن أشرنا الى رأى الأستاذ صمويل بأن حجم الوثائق المكتوبة بالديموطيقية فى العصر الرومانى يفوق حجم تلك المكتوبة باليونانية . ولأن المصطلح اليونانى لا يميز بين معرفة المصرية واليونانية - إلا فى حالات قليلة - فقد ترك الأمر غامضا للمؤرخين ليرجموا بالغيب . ومن الأمثلة القليلة التى ميزت بين الكتابتين عقد بيع منزل حرر عام ٥٥ ميلادية حيث نجد فى مذيلة العقد عبارة تذكر أن فلانا كتب نيابة عنه υπερ ατιου لأنه يجهل معرفة الحروف اليونانية لكنه يلم بالكتابة المصرية(٥٠) ولقد بدأت الكتابة بالديموطيقية تنحسر منذ القرن الثانى الميلادى لتظهر ملامح كتابة جديدة اصطلح علي تسميتها بالكتابة القبطية والتي تعني فى الحقيقة « المصرية » غير أن الديموطيقية القديمة لم تمت تماما ، بل ظلت تقاوم طغيان القبطية عليها حتى القرن الرابع الميلادى . وهناك حالات وسط بين هذا وذاك وهى طائفة « الذين يكتبون بصعوبة » أى الذين يرسمون إسمهم بالكاد على نحو المصطلح العامى عند الفلاحين المعاصرين وهو « فك الخط » وبالرغم من ذلك ، فقد كان هناك قلة من القرويين الذين أجادوا القراءة والكتابة باليونانية ، وألموا بقدر كبير من الثقافة الأغريقية . وهؤلاء كانوا قلة أكثرهم من أبناء الزواج المختلط تلقوا تعليماً راقياً بحيث انهم كانوا يقرأون روائع الآداب الأغريقية الكلاسيكية ، ويدعم هذا الرأى العثور علي شذرات من البرديات الأدبية الأغريقية فى نفايات ومنازل ومقابر القرى المصرية . وهذه الفئة كانت تتعلم لتتطلع لشغل وظائف فى الأدارة الرومانية التى كانت تشترط الألمام باليونانية - لغة ولاية مصر الرسمية حتى العصر الأموى الأسلامى - غير أننا لا ننكر أن غالبية أهل القرى . وقليل من أهل المدن - كانوا أميين لا يعرفون لا اليونانية ولا الديموطيقية ، فمنذ العصور الفرعونية كان الذين يلمون

بالقراءة والكتابة محدودى العدد يشار اليهم بالبنان ، لأن الكتابة كانت إمتيازا لرجال الدين - كما هو الحال فى حضارة بلاد الرافدين القديمة ، فالكتابة فى حضارات الشرق القديم خرجت من تحت عباءة الدين . ولهذا ظهر فى حضارة مصر - كما ظهر فى حضارة بلاد الرافدين - طائفة الكهنة الكتبة وهو مصطلح نجده حتى فى العهد القديم عند اليهود . ولعل تماثيل الكاتب المصرى الجالس القرفصاء ممسكا بالقلم - وورق البردى مفرود على فخذيه وفى عينيه نظرة أستعداد لتلقى ما يملى عليه لخير دليل على ذلك ، ويعتقد علماء المصريات أن أغلب تماثيل الكاتب ترجع الى عصر الأسرة الخامسة وما بعدها (٢٤٩٤ - ٢٣٤٥ ق.م)(٥١) . لقد كان مستوى التعليم يتفاوت بين كاتب وآخر ، لكن الانطباع السائد عنهم أنهم غير مبدعين لا يعرفون سوى الكتابة فقط ، فهم أشبه بالآلة الكاتبة يكتبون ما يملى عليهم ، وبطول الخبرة تحولت الكتابة الى اختصاصات ثابتة حسب الموضوعات المتكررة ، ومن ثم ظهرت العبارات والصيغ الثابتة التى تناسب الموضوعات ، وهى صيغ (Φορμυλαθ) متعارف عليها وليست من إبتكارهم ، حتى ديباجه الخطابات ونهايتها ، وعبارت التحية والمجاملات والتمنيات وكلمات الوداع كانت أيضا ثابتة وتقليدية ومكررة ، لذلك فأن المتخصص فى قراءة الوثائق البردية سيجد نفسه يحفظ هذه العبارات عن ظهر قلب ويصححها أو يملأ الفراغات وهو مطمئن . وواثق من نفسه .

هوامش الفصل الرابع

(١) جمال حمدان المرجع السابق، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(2) Abd - el - Mohsen **EL - Kashab** : Ptolemaic and Roman Baths cf Kom - EL - Ahmar, **Annale de Service des Antiquites J. d'Egypte,** 1944; of. EL - Nassery G. Wagner et G. Castel: Un Grand Bain Greco - Romaine a Karanis **BIFAO,** Tome, Lxxvi (1976) pp 231 - 257

(3) D. J. Crawford : Kerkeosiris, An Egyptian village in the Ptolemaic Period. (passim) Cambridge. 1971.

(4) E. G. Turner, Greek Papyri. An Introduction, The Clarendon Press, Oxford, 1968, pp. 76 - 79.

(٥) إنظر التقرير العلمى الأولى لحفائر كلية الأداب جامعة القاهرة، المجلد التاسع والعشرون (١٩٧٣) مجلة كلية الآدب جامعة القاهرة، ايضاً إنظر التقرير العلمى الثانى- المجلد الواحد و الثلاثون (١٩٧٨)، كذلك انظر مقالى: كوم اوشيم مصدر من مصادر اوراق البردى مجلة مركز الدراسات البردية جامعة عين شمس العدد الأول ١٩٨١ ص ٣ - ١١ .

(٦) انظر مقالى: وقفة على أطلال باكخياس، مجلة المؤرخ المصرى. العدد الثانى عشر (١٩٩٤) ص ١١ - ٢٢ .

(7) S. EL-Nnassery et Guy Wagner: Nouvelles Steles de Kom Abu- Bellou, **B.LF.A.O** Tome Lxxxvlll, 1978. pp 231-258 cf Zaki Aly: ''More Funerary Steae frpm Kow Abou Be??ou Alexandrie 1953 (Passi).

(8) Herodotus, Histories, Book II, Chopter 26.

أنظر الترجمة العربية لهذا الكتاب التى قام بها صقر خفاجة واحمد بدوى دار القلم القاهرة سلسلة الالف كتاب ١٩٦٠ .

(٩) قام شفارتز J. Schwartz بنشر أرشيف سرابيون وعلق عليه انظر:
J. Schwartz, Les Archive de Sarapion et ses Fils Le Caire 1961

(10) P. Cornell,9 = Select Papyri, vol. 1, no.20 (pp 62-63).

(١١) انظر المؤرخ المصرى- المقال السابق ص ١٥ - ١٦ .

(12) Chrest. 63; P. Mich 224; PSI 101-102; Lewis, op cit pp 67-68.

(13) S.A. EL- Nassery and G. Wagner, A Roman Hoard From Karanis, **B.I.F.A.O,** Tome Lxxxv, 1975.

ونوه عنه بالصور، جريدة الأهرام يوليو ١٩٧٤ .

(١٤) المؤرخ المصرى المقال السابق نفس الصفحة .

(15) Diodorus, Book I, chapter 3.

(16) E.G.Turner, op cit P25.

(17) Wafik Ghoneim: Die Okonomische Bedeutung Des Rindes in Alten Aegypten, Bonn, 1966, p224-228.

(١٨) سليم حسن : مصر الفرعونية الجزء ١٦ ص ٧١١ .

(١٩) عن صيد الأسماك انظر مقال :

Parasorlo, Aegyptus, CLxvIII, 1981, PP89-93.

(20) P. Oxy 2234.

(٢١) انظر الفصل الأول ص ٢٣ .

(22) Gardner Wilkinson, Sir: The Manners and Custons of The Ancient Egyptians, vol. 1. John Murray, London 1878, pp 395-- 397.

(23) Wilkinson, op cit, pp 387-- 394.

(24) Horace, Odes,I, 37.

(25) .T. Reekmans: Papyrologica Bruxellensia, 3 (1966), especially p 55--57, Lewis, op. cit, p69.

(26) P.Lugd-Bat,v, Col. v= P.Brux.5.

(27) P. Soterichos = Lewis, op. cit, P 60

(٢٨) انظر جمال حمدان المرجع السابق ص ٥٩ .

(29) S. Bagnall, Bulletin of The American Society of Papyrologists, 17 (1980) P80 = Lewis , op. cit, p 71 note no.9 (p218).

(30) P. Mil. vol. 85 = P. kronion, no. 50 = Lewis op cit P72.

(٣١) عن طريق الحسابات يتضح أن قيمة الحلى الذهبية والفضية المذكورة فى وثيقة الطلاق تصل إلى ما قيمته ٩٠٠ دراخما حسب القيمة الشرائية عند تاريخ فسخ تعاقد الزواج ، وهذا المهر الذى دفعته الزوجة الأخت يعتبر مهراً متواضعاً إذا ما قورن بمهور بنات المدن انظر : P. kronion, 52 = Lewis, op cit. p73 (noteil, p218).

(32) Lewis ibid, P 73.

(33) S.B. 7528, P. Lond 27, P Hamb 65, and cf G Poethke: Papyrologica Bruxellensia, 8 (1969) = Lewis, op cit, P 76 - 77.

(34) P.Oxy, no 1895 = Select Papyri, vol I, no. 11 (554. A.D).

(٣٥) الكلمة اليونانية المستخدمة ιυδιxτωυ تعال (Indictio) باللأتينية وهى الفترة الزمنية لاجراء الاحصاء من أجل الضرائب كل خمس عشرة سنة ، وإستخدمت لحساب فترة حكم القناصل .

(36) E. Hisselman: Papyri from Karanis, no 523, p II = P. Mich m. no 5524.

(37) G. Poethke. Papyrologica Bruxellemsia, 8, (1959. passin).

(38) P. Rylands 125 = Select Papyri vol II, no 278 (pp 258 -261). Parasorlo, Aegyptus (xvIII) 1981, pp 89-93.

(39) P. Mich no 421 = Lewis, op cit, P 78 - 79.

(40) B. G. U. no 22 = Lewis op cit P 78 - 79.

(41) P. Tebt. no 332 = P. Mich 424 = Lewis ibid (P79).

(42) CF. P. Oslo. inv. no 1482 = Beitram and Leiv Amundsam, in the J.E.A, vol. 402 (1954) pp 30-33

وهى وثيقة اشتريت عام ١٩٣٤ من سوق العاديات بالقاهرة لصالح معهد الثقافة الأنسانية بأوسلو

(43) Lewis, ibid.

(44) B. G. U. 665 =, op cit, P 80.

(45) P. Oxy 3313.

(46) P. S. I. 1248.

(47) Cf. N.Lewis and Reinhold, op cit, vol, II, pp 408 - 409.

(48) «Le scribe qui no Serait pas ecrire, Chronique d'Egypte, 41 (1966) pp. 127 - 143.

(49) Hagedorn and Youtie; Das Archiv des Petaus, Papyrologica Coloniensa, 1969.

(50) S. B. 5117.

(٥١) انظر سيد توفيق : معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية ، دار النهضة العربية ١٩٩ ص ١١٣ ومابعدها (صورة رقم ١٢).

الفصل الخامس

المعتقدات الدينية والأعياد الشعبية

على طول الأدب الرومانى وعرضه، لم نعرف شاعرا أو أديبا بلغ به الحقد على المصريين، وشهر بهم مثلما فعل الهجاء يوفيناليس فى قصيدته الخامسة عشرة من ديوانه، والتى وصف فيها مصر بالبلد المخبول demens Aegyptus التى تعبد الحيوانات، وفيها ما يثير العجب : **«يحرمون ذبح الماعز بينما يستبيحون اكل لحوم البشر!» nefas illic fetum iugulare Capellae, Carnibus humanis Vesci licet** ولهذا ـ كما يقول : «يسخر منهم الرب ويمقتهم **ridet et odit**» . ثم يروى للقارىء الرومانى حادثة بشعة إدعى انه شاهدها بنفسه أثناء زيارة له لصعيد مصر، وهى أن معركة حامية الوطيس وقعت بين قريتين متجاورتين هما : دندرة Tentyra ونقادة (التى سماها خطئا بأسم أومبوس Ombos أى كوم أمبو)، وكلتا القريتين تقعان إلى الشمال من مدينة قفط Coptos وفى عبارات تقطر سخرية وحقدا يشرح سبب هذه المعركة التى شجت فيها الرؤس، وسالت من أجلها الدماء، أن إحدى القريتين كانت تعبد الكلب، بينما تعبد الأخرى التمساح الذى كان أهل القرية الأولى يستبيحون صيده، ويستطيبون أكل لحمه، خاصة فى الأعياد ، وانتقاما لذلك قام أهل القرية الثانية منتهزين مناسبة أحد الاعياد التى يحتفل فيها أهل القرية الأولى بعيد الكلب، واستغلوا أنهم كانوا سكارى، وقاموا بأجتياح قريتهم، وبدات المعركة بالتراشق بالسباب، ثم الحجارة Saxa التى وضفها بأنها سلاحهم المعتاد فى المعارك Domestice seditioni tela ، ثم التشابك بالأيدى، واتسع نطاق القتال حتى أصبح معركة كبرى إرتكب خلالها كل أنواع العنف، وانتهاء بأكل لحوم القتلى! ودارسى الأدب الرومانى يعرفون يوفيناليس بأنه شاعر متبرم، ساخط وموتور، شديد الكراهية للأجانب بما فى ذلك الأغريق واليهود، وكافة شعوب الشرق الأدنى، وعلى رأسهم المصريون، ويرى بعض الشراح أن كراهيته لمصر مبعثها كراهيته لرجل مصرى ثرى اسمه كرسبينوس Crispinus هاجر من مصر، واستقر به المقام فى روما، وبطرق ملتوية كون لنفسه ثروة طائلة، وأصبح من الاغنياء الجدد Homines novi يشار له بالبنان، ويتطلع لتبوء أعلى المناصب فى

الأمبراطورية . وقد دفعت كراهية يوفيناليس الشخصية لهذا الرجل إلى تعميم الكراهية لتشمل البلد الذى جاء منه . والشعب الذى ينتمى اليه، فأختلق خياله هذا المعركة للتشهير بخصمة ، والحط من قدره .

وسواء كان يوفيناليس جادا أم ساخرا ، وأصفا أم متخيلاً ، إلا انه لا مجال للشك فى أن الرومان إستهجنوا عبادة المصريين للحيوانات، واعتبروها أمراً لا يقبله المنطق أو العقل ، وقدسبق أن ذكرنا أن اكتافيوس أغسطس نفسه عندما كان يتجول فى مدينة منف بعد فتحه لمصر ، رفض أن يزور الحظيرة المقدسة التى كان يعرض فيها عجل أبيس . كما كتب عن هذه الظاهرة كل من ديوكاسيوس وبلوتارخوس ، وأفاضا فى وصف تعصب أهل الأقاليم فى مصر لألهتهم المحلية ، وحماسهم متقطع النظير لها ، لكن كل ماكتبه هؤلاء لا يقارن بالصورة الكئيبة المرعبة التى وصفها أو تخيلها يوفيناليس فى هجائياته ، وتدل الأحصاءات التى عملت عن أنواع الحيوانات المقدسة فى مجموعها - حسب ما جاء على لسان الكتاب الأغريق والرومان - أنها كانت اثنين وثلاثين نوعا وهؤلاء هم : هيرودوت (٤٨٧ ق . م - ٤٦٨ ق . م) ، استرابون (٦٤ ق . م - ٢١ م) ، بلوتارخوس (من حوالى ٤٦ م إلى ١٢٠ م) ، وإيليانوس (١٧٠ م ٢٣٥) . أما هذه الأنواع فهى : (١) القرد بنوعيه البابون والقرد الأخضر (٢) القنفذ (٣) القطة (٤) الأسد (٥) الفهد (٦) الكلب (٧) الذئب (٨) النمس (٩) الدب (وقد ذكره هيرودوت) (١٠) الأرنب (١١) فرس النهر (١٢) الثور والبقرة والعجل (١٣) الكبش (١٤) التيس (١٥) الوضحى (١٦) الغزال (١٧) النسر (١٨) الصقر والباشق (١٩) البومة (٢٠) الغراب بنوعية (٢١) الحمام (٢٢) البجعة (٢٣) الوطواط (٢٤) ابومنجل (٢٥) الطاووس (٢٦) الأوز (٢٧) التمساح (٢٨) الثعبان بأنواعه (٢٩) الضفادع (٣٠) ست أنواع من السمك (٣١) الجعل أو الجعران (٣٢) الأفعى (٣٣) إبن عرس (نوع من النمس) (٣٤) ثغلب الماء (القط المقدس) . ويؤكد ذلك ما عثر عليه من مومياوات الحيوانات المقدسة سواء فى منف أو الاشمونين أو غيرها[١].

ويرجع بعض الكتاب القدامى هذا التنوع إلى تنوع القبائل التى سكنت مصر قبل توحيد البلاد والتى كانت سبب الحروب بينها ، ومن ثم حاول مينا القضاء على مثل هذه الحروب بفرض ثالوث الوحدة بالقوة وهو ايزيس

واوزوريس وحورس الذى اعتبر الثالوث الرسمى ، وبالرغم من ذلك بقيت العبادات الشعبية مطمورة تمارس فى الأقاليم سراً إلى أن خرجت من جحورها بعد ذهاب الفراعنة ، وقد حاول البطالمة تقليد الفراعنة فى فرض ثالوث ملكى بديل يتكون من سيرابيس وايزيس وهاربوكراتيس ، إلا أن هذه الديانة الرسمية السلطوية لم تقض أيضا على العبادات الشعبية العتيقة ، والتى عادت من جديد بعد سقوط البطالمة . ولم تكن المعركة التى وصفها يوفيناليس هى المعركة الوحيدة ، فقد ذكر بلوتارخوس(٢) معركة مماثلة وقعت فى القرن الثانى الميلادى بين شعب أوكسيرينخوس (البهنسا مركز بنى مزار محافظة المنيا) وبين شعب ليكوبوليس (اسيوط) بسبب أكل اهل أسيوط سمك القنوم الذى كان يعبده شعب المدينة الأولى ، فقاموا بصيد عدد من الذئاب - معبود المدينة الثانية - وذبحوها وأكلوا لحمها مما ادى إلى حرب أهليه استدعت تدخل القوات الرومانية للفصل بين المتحاربين ، كما يحدثنا ايليانوس(٣) بأن شعب مدينة قفط Coptos قد انتقم لكرامته من شعب تنتورا (نقادة) لأنهم صلبوا الصقر معبودهم المفدى بقتلهم تمساحا معبود تنتورا المحبب ولقد سبق فى الفصل الأول أن عبرنا عن شكنا فى قيام الرومان بتشجيع عبادة هذه الألهة المحلية لبث الفرقة تسهيلا لحكم المصريين ، إذ بينما كانت سياسة الفراعنة ومن بعدهم البطالمة هى : وحد ثم أحكم Coniunge et Impera كانت سياسة الرومان على النقيض تماماً وهى : قسم ، ثم احكم Divide et Impera

غير أن ما كتبه الكتاب الأغريق والرومان شىء ، وما نقرأه ونحسه من أوراق البرد خلال القرون الثلاثة من الحكم الرومانى وقبل إنتشار المسيحية - شىء أخر . أذ تصور هذه الوثائق مصر كبلد للتسامح الدينى(٤) ، بلد يجتمع فيه ديانه ثلاثة شعوب وثنية : هم الفرس والأغريق والرومان جنبا إلى جنب مع الألهة المصرية ، بالأضافة إلى ديانة توحيدية واحدة وهى اليهودية ، واليهودية ديانة سماوية لكنها تأثرت بالثقافة المصرية فى كثير من جوانبها . أما آلهة الأغريق - أو بمعنى آخر الآلهة الأولمبية - فبعد ثلاثة قرون من إستيطان وادى النيل ، وإنقطاعها عن بلادها بدأت تتمصر ، وتخرج عن الخط الهللينى الصارم لتمتزج بالألهة المصرية ذات الشخصية الأقوى . فمنذ القرن الخامس ق . م . بدأ هيرودوت

يعادلها بالهة الأغريق فعادل زيوس الاغريقى بآمون- رع المصرى، وعودلت هيرا بالربة موت، وعودلت آثينا بالربة المصرية تاءورت Thoeris ، كما عودلت فى نفس الوقت مع الربه المصرية نايت ربه صالحجر . بل ان بعض كتاب الأغريق نسبوا أصول ربتهم الاغريقية إلى هذه الربة المصرية . كذلك عودل أبو للون بالمعبود المصرى حورس، ولدلك أطلقوا على مدينته أدفو اسم مدينة أبو للون Apolloponopolis ، كما عودل هرميس بالرب المصرى تحوت ، وأطلقوا على مدينته فى الاشمونين اسم مدينة هرميس الكبرى Hermopolis Magna كما عودل ديونيسوس بأوزوريس، وعودلت دبميتر بأيزيس(٥)، وعودلت أفروديت بالربة المصرية حتحور ، وعودل اسكلبيوس رب الشفاء بأمحوتب ، عودل بتاح- رب منف- برب الصناعة والفنون هيفايستوس ، وعودل « بان » رب الرعاة الأركادى برب الأخصاب المصرى مين ، ولقد شاعت هذاه الاسماء الاغريقية حتى بين المصريين لدرجة أنهم استخدموها عند الحديث عن ألهتهم ، تماما مثل الأسماء الاغريقية لمدنهم .

وبالرغم من تمسك نسبة قليلة من الأغريق المستوطنين بتراثهم العتيق ، إلا أنهم كانوا محاصرين كالجزر المحاطة ببحر لجى من الحضارة المصرية الضاربة الجذور فى أرض النيل ، وظلوا يقاومون بلاجدوى تيار التمصر حتى جرفهم تيار الحضارة المصرية فى النهاية ، ولم يكن ذلك حال الأغريق المستوطنين وحدهم فحتى الرومان القليلين الذين جاءوا إلى مصر بدأوا يختلطون روحياً مع المصريين والأغريق فى عجينة دينية نسميها الثقافة المصرو- إغريقية Graeco Egyptian ، ونرى مظاهر هذا الأندماج فى متن تقش عثر عليه فى الخمسينات من هذا القرن فى صحراء مصر الشرقية ، وكان مقاما على طريق القوافل الذى كان يربط بين ميناء برنيكى Berenike (سفاجة) على البحر الأحمر ، وميناء قفط النيلى ، وهو مؤرخ فى العام الحادى عشر من القرن الأول الميلادى يقول النقش :

بالحظ السعيد عندما كان بوبيليوس يوونتيوس روفوس- التربيون العسكرى السابق للفرقة الثالثة ، وقائد جبل برنيكي- رئيسا عاماً لمناجم الزمرد والتوباز ولأستخراج الأحجار الكريمة ، وعموم مناجم مصر ، اقام اجاثوبوس- احد عتقائه- هذا الهيكل إلى بان الرب الأعظم فى الأقليم الأوفياتى باسمه : يوبليوس يوونتيوس كاهداء منه(٦) .

هذا المزيج من الثقافة التى يكشف عنها ذلك النقش جديرة بالملاحظة ، فالرجل الذى تبرع بأقامة هذا الهيكل وأسمه أجاثوبوس عبد معتق ، يحمل إسماً إغريقيا خالصا ، وأقام هذا الهيكل تعبيرا عن وفائه لمولاه السابق وهو شخصية رومانية بارزة ، والنقش مكتوب باللغة اليونانية فوق لوحة ذات شكل وزخرفة مصرية ، والمعبود الذى كرس له هذا الهيكل ذكر اسمه بأنه «بان» - روح الصحراء حيث يرعى البدو اغنامهم - ورب الرعاة عند الأغريق ، غير أن رسم المعبود صور فى هيئة المعبود المصرى «مين» رب الذكورة والأخصاب .

وفى خطاب يرجع تاريخه إلى القرن الثانى أو الثالث يقول كاتبة :

«[من] ماركوس اوريليوس ابوللونيوس كاهن عبادة سرية إلى حامل السلال المقدسة فى [قرية] نسمايمس . سلام . توجه إلى [قرية] سنكيفا حيث معبد ديميتر للقيام بتقديم الأضاحى المعتادة لموالينا الأباطرة من اجل انتصاراتهم ومن اجل فيضان النيل ، ووفرة المحاصيل ، ومن اجل حالة مناسبة للطقس . ارجو لك سفراً سعيداً»(٧) .

ومرة أخرى نقابل مزيجا من التنوع الدينى ، فالكاهن مواطن رومانى ، لكن الربه المعبودة ليست رومانية ، انما تذكر بأسمها الأغريقى ديميتر ، غير أن المقصود بها هو الربة المصرية ايزيس ، والتى يجرى داخل معبدها فى القرية المذكورة شعائر عبادة الأباطرة الرومان ، ومن أجل وفرة المحصول وفيضان النيل واعتدال الطقس(٨) .

فى القرى الصغيرة ، لم يكن هناك فى الغالب سوى معبد واحد ، فلا عدد سكان القرية ولا امكانياتها المادية كانت تسمح بأقامة أكثر من معبد لكل رب ، ومن ثم كان معبد القرية الأوحد يتولى كافة الشعائر لسائر الألهة الأخرى سواء كانت مصرية أو يونانية أو رومانية . أى أن المعبد المصرى تحول إلى «المعبد الجامع» Pantheon ، ومن الجدير بالذكر أنه بالرغم من المحاولات المستميتة لبعض عواصم الأقاليم المختلفة للاحتفاظ بالشخصية الأغريقية الخالصة لألهتهم ، لكنها لم تسلم من التأثر بالديانة المصرية التى كانت أكثر قوة وأشد جاذبية ، ومن ثم فان آلهة الأولمب بقيت مجرد أسماء اعتبارية ، بينما اختفت من أرض الواقع . ولم يكن

الامتزاج محصوراً بين الألهة المصرية والأغريقية فحسب ، بل بين الآلهة المصرية وبعض آلهة بلاد الهلال الخصيب مثل عشتار ، التى امتزجت مع إيزيس ، ومع تموز الذى امتزج بأوزوريس . وهناك آلهة عودلت بأكثر من معبود واحد حسب المناطق والأقاليم المختلفة ، ففى الفيوم عودل بريابوس Priapus الرومانى بالرب المصرى « مين » ، بل أن هناك كهنة مصريين أستعاروا أسماء الآلهة الأغريقية ليطلقوها على الهتهم الوطنية ، فعندما يصف كاهن مصرى نفسه بأنه كاهن هرميس فهو يعنى أنه كاهن « تحوت » ، وعندما يقول أنه كاهن أفروديت فأنه يعنى أنه كاهن حتحور ، وإذا ما ذكر أنه كاهن هيفايستوس فأنه يقصد أنه كاهن « بتاح » هكذا دواليك وهناك معادلات سياسية مقصودة بين الآلهة كما حدث فى حالة سيرابيس الذى ابتكر لمزج العبادة المصرية بالعبادة الأغريقية من أجل خلق تعايش سلمى عقائدى بين الشعبين ، حتى ولو كانت الفكرة مثالية أو من باب المجاملة . ولقد تقبل المصريون عبادة سيرابيس لأنه كان يعدهم بحياة أفضل ، كما أقبل عليها الأغريق وأحفادهم لأنه حقق لهم فكرة المساواة مع آلهة المصريين بالرغم من أنهم كانوا يعلمون علم اليقين أن سياسة الرومان كانت تتبنى فكرة الأبقاء على الفصل بين الحضارتين ، وتقنين ذلك الفصل ، لكى ما أن نجحت عبادة سيرابيس حتى بدأ يتشابك مع آلهة مصرية متعددة ، ففى بعض المناطق عودل بزيوس - آمون ، وفى بعض المناطق الأخرى عودل باوزوريس أو ديونيسوس ، أو حابى المصرى رب النيل وهلم جراً .

كانت إيزيس اكثر المعبودات قبولاً لدى الناس .لأنها ربة معطاءة ومانحة للخير وللحياة ، وبعد أن أعيد صياغتها ورسمها فى شكل هللينستى ابان عصر البطالمة مما ساعد على إنتشارها فى كافة بلدان البحر المتوسط ، بل أنتقل مركز عبادة إيزيس الهللينستية من الأسكندرية إلى روما ذاتها . ففى مدينة أوكسيرينخوس عثر على قوائم بألقابها وخصائصها ومكنياتها(٩) بحيث تساعد على التعرف عليها فى الأماكن المختلفة سواء داخل مصر أو خارجها . وقد أمكن حصر مائة وخمسين أسماً وكنية لها فى عدة أماكن ، وبعض هذه الصفات والألقاب تتداخل مع صفات والقاب آلهه أخرى مما يؤدى إلى الحيرة والأضطراب . وعلى حد

قول ديودوروس الصقلى والتى يغلب عليه الضيق والقلق : «هذه الربة ذاتها بعضهم يسميها إيزيس والبعض الآخر ديميتر، ويطلق عليها فريق ثالث مانحة القوانين، أو سيلينى(القمر) او هيرا (زوجة زيوس كير الأرباب عند الأغريق)، وبعضهم يطلق عليها كل هذه الألقاب جمعاء. اما اوزوريس فقد اطلق عليه اسم معادل لديونيسوس (رب الكروم والنبيذ)، وآخرون عادلوه بهاديس (رب العالم الآخر) أو آمون. وقليل عادلوه بزيوس وكثيرون عادلوه برب الرعاة بان»(١٠).

تعتبر مدينة أوكسيرينخوس أكبر المدن التى أمدتنا بمعلومات تفصيلية عن العبادات فى مصر الرومانية، فقد أحتوت هذه المدينة الكبيرة على عدد من المعابد أكبرها معبد سيرابيس ومعبد أثينا ـ ثوئريس Thoris (تاورت المصرية التى هى إنثى فرس النهر) حتى أن أسماءهما أطلقت على أحياء المدينة التى أقيما فيها. وفى حى ثوئريس كان هناك معبد ديونيسوس (أوزوريس)، وفى الحى الجنوبى الشرقى كان هناك معبد لأبوللون (حورس) «الرب العظيم صاحب العزيمة الصلبة». ومعبد للربة نيوتيرا Neotera(أفروديت ـ حتحور). وفى الحى الجنوبى للمدينة كان هناك معبد لديميتر Demetrion (إيزيس) بالأضافة إلى ذلك كان بالمدينة ثلاثة محاريب موزعة على ثلاثة أحياء. وكل محراب كان مكرساً لمجموعة متحدة من الألهة تتكون من زيوس، وهيرا، وعطارد Atorgatis (وهى الربة السورية عشتار التى كانت تعادل بأيزيس) وبرسيفونى (إبنة ديميتر). كما ذكرت الوثائق وجود عدة، معابد لايزيس القياصرة فى اوكسيرينخوس .والجدير بالذكر أن أسماء الكهنة والكاهنات لهذه المعابد كلها اسماء مصرية(١١).

وبوصول الرومان إنضم إلى مجمع الألهة القائمة ثالوث الكابيتول جوبيتر وجونو ومينرفا، وبعض آلهة إيطاليا الصغرى. وكانت عبادة الأباطرة الرومان جزءاً من الإعتراف السياسى بالأمبراطورية وسيطرتها ولذلك فقد كانت أكثر العبادات الرسمية إنتشاراً رغم أنها كانت صورية ولم تشمل هذه العباده القياصرة الذين رحلوا منهم عن الدنيا، بل أيضاً الأحياء منهم، ولم يعترض المصريون على عبادتهم فقد تعودوا عبادة الفراعنة أحياء وامواتاً، وبما أن الفرعون كان يتجسد فيه روح الرب،

وبما أن الأمبراطور الرومانى هو وريث الفرعون فى كل صفاته وأفعاله، فكان من الطبيعى أن يكون الأمبراطور الرومانى تجسيد للرب على الأرض. وفى كثير من الأحيان كان يضاف. إلى الأمبراطور المعبود آل بيته ليعبدوا إلى جانبه، فعندما زار جرمانيكوس مصر عام ١٩ م، أبدى تبرمه وضيقه من الإنهيال عليه بالقاب ربانية والتى رفضها بلين وبدلوماسية فى المنشور الذى اصدره بهذه المناسبة يقول فيه:

«بيان من جرمانيكوس قيصر بن اغسطس (يقصد تيبريوس عمه الذى تبناه) القنصل: إننى ارحب بحسن النية التى تبدونها دائماً نحوى كلما رايتمونى، غير انى استنكر كلية هتافاتكم التى تثير البغضاء نحوى لأنها مثل تلك التى تسمى بها الإلهة ولاتليق فقط إلا بالمنقذ الفعلى والمحسن لكافة الجنس البشرى وهو ابى، وكذلك بامه التى هى جدتى (يقصد الأمبراطورة ليفيا أرملة أغسطس) غير ان وضعنا (لا يمكن أن يقاس) بالوهيتهما، وإن لم تمتثلوا لأمرى فأنكم سترغموننى على الا أظهر بينكم[١٢] إلا نادراً».

وفى وثيقة بردية بلغ طولها أكثر من مترين عبارة عن الحسابات والنفقات الشهرية لمعبد جوبتير الكابتيولينى فى ارسينوى عاصمة الفيوم (كيمان فارس)، وتعود إلى عام ٢١٥ ميلادية، نفهم مما أنفق خلال الشهور الستة الأولى من عام ٢١٥ م انه كان يتصدر هذا المعبد تمثال ضخم للأمبراطور كارا كالا الامبراطور القائم بالحكم، كما تضمنت اللفافة أيام العطلات والأعياد وعدد من المناسبات الخاصة بأسرة الأمبراطور سيفيروس إلى جانب أعياد المعبود الوطنى للفيوم وهو سوخوس (سوبك المصرى رب التمساح)، ومن خلال الأعياد لاحظنا أن شعائرها تتم طبقا للطقوس المصرية الممزوجة بالشعائر الأغريقية، نقتطع منها بعض المختارات على سبيل المثال لا الحصر.

اول امشير (٢٦ يناير) عيد بمناسبة ذكرى جلوس مولانا الأمبراطور سيفيروس انطونينوس (يقصد كارا كالا). توضع اكاليل الغار على تماثيل الألهة وعلى الدروع وتماثيل البشر. ١٩ امشير (١٣ فبراير) عيد بماسبة تولى المؤله سيفيروس والدمولانا الأمبراطور سيفيروس انطونينوس. توضع اكاليل. الغار على كافة (تماثيله) فى المعبد. ١٨ برمهات (١٤ مارس) عيد

احتفالا بإقامة التمثال المقدس لمولانا الأمبراطور سيفيروس انطونينوس. توضع اكاليل الغاز على جميع ما فى المعبد كما من قبل. ٥ برمودة (٣١ مارس) عيد بمناسبة إنتصار ونجاة مولانا الأمبراطور سيفيروس انطونينوس توضع الأكاليل على كافة الدروع وتماثيل الألهة والبشر في المعبد ٩ برمودة (١٤ أبريل) عيد ميلاد الأمبراطور سيفيروس انطونينوس توضع الأكاليل فى المعبد كما من قبل (يلى ذلك قائمة بأنواع البخور والأفاوية المطلوبة وأثمانها) ١٩ برمودة (١٤ ابريل) عيد إحتفال وإبتهاج بمولاتنا جوليا دومنا ام الجيوش التى لاتقهر. توضع الأكاليل على جميع مافى المعبد كما من قبل. ٢٦ برمودة (٢١ ابريل) عيد ميلاد روما. توضع الأكاليل على كل مافى المعبد كما من قبل (تاريخ مفقود) عيد رعاية رب اجدادنا الرب سوخوس مثنى العظمات توضع الأكاليل على كافة الدروع وتماثيل الآلهة والبشر فى المعبد(١٣).

الأعيـاد :

كان هناك نوعان من الأعياد، أعياد سياسية رسمية، وأعياد دينية شعبية. اما الأعياد الرسمية السياسية فقد كان أغلبها يدور حول ذكرى مولد الأباطرة بدءاً من مؤسسى الأمبراطورية أكتافيوس أغسطس، وكذلك عيد تتويج الأباطرة أو عيد جلوسهم على العرش، كما شملت الأعياد الرسمية أيضاً الأحتفال بمولد بعض الشخصيات العامة المؤلهة مثل انطينوس فتى هادريانوس الذى غرق فى النيل فى اليوم الرابع من شهر كيهك (٣٠ نوفمبر) عام ١٣٠ م. وكذلك عيد مولد ماركيانا Marciana شقيقة الأمبراطور ترايانوس فى شهر مسرى، وعيد مولد ماتيديا Matidia ابنه شقيقه فى العاشر من شهر أبيب (٤ يوليو)، وعيد مولد جرمانيكوس قيصر فى الرابع والعشرين من بشنس (٢٦ مايو)، وعلى رأس هذه الأعياد الرسمية عيد ميلاد يوليوس قيصر فى الثامن من شهر أبيب (١٢ يوليو).

كان يوم جلوس الأمبراطور على العرش عيداً قومياً تقام فيه الإحتفالات وتحرق البخور ،وتزين فيه تماثيل الأباطرة فى المعابد، وكذلك تماثيل الألهة حيث يوضع حول رقابها أكاليل الزهور، وكذلك حول دروعهم. وما أن تصل الأنباء بأن إمبراطوراً جديداً قد جلس على العرش فى روما حتى تصدر التعليمات إلى كافة شعوب الولايات باقامة الأفراح

والأحتفالات التى يؤدون خلالها يمين الولاء للعاهل الجديد . ويدرج ذلك اليوم فى قوائم الأعياد والعطلات الرسمية ، وتضاء المعابد بالمسارج والقناديل ، وتقام فيها الطقوس والصلوات تدعو له بالتوفيق والنصر والرفاهية . ولدينا قراران بخصوص ذلك الموضوع أصدرهما ولاة مصر احدهما صدر عام ٥٤ م يعلن وفاة كلاوديوس وتولى نيرون ، والثانى بخصوص تولى برتيناكس العرش عام ١٩٣ م بعد اغتيال كومودوس. وقد جاء فى القرار الأول الذى صدر فى ٢١ هاتور (١٧ نوفمبر) عام ٥٤ م أى بعد اعلان موت كلاوديوس بخمسة وثلاثين يوما فقط مايلى :

«لقد عاد القيصر كرب تجلى ليلحق بذويه الذين ينتمى إليهم ، واختير الأمبراطور الذى تنتظره الدنيا وتتمناه .. لقد اختيرت الروح الطيبة للعالم ، وينبوع كل البركات نيرون قيصر .وبناءعليه ينبغى علينا جميعاً ان نعبر عن شكرنا لكل الآلهة بارتداء اكاليل الغار ونحر الثيران .[صدر فى] العام الأول لنيرون كلاوديوس قيصر اغسطس جرمانيكوس فى الواحد والعشرين من شهر نيوس سيباستوس[٢١ هاتور الموافق ١٧ نوفمبر](١٤) .

أماالقرار الثانى فقد ورد فيه مايلى :

[من] مانتينيوس سابينوس الى حاكم إقليمى : السبعة اقاليم (Heptanomia) ، واقليم ارسينوى . سلام . لقد امرت ان يرفق طية نسخة من القرار الذى اصدرته إلى مدينة الأسكندرية عالية المقام حتى تحاطوا جميعاً وتقيموا الأحتفالات لعدد مماثل من الأيام راجياً لكم الوداع .[التاريخ ونسخة القرار الأصلى]

«يا شعب الأسكندرية : ينبغى عليكم ان تقيموا عيداً للجلوس عظيم السعادة لمولانا بوبليوس هلفيوس برتيناكس الأغسطس زعيم السناتو الأمبراطورى ابو الوطن ولأبنه بوبليوس هلفيوس برتيناكس وكذلك تيتيانا اغسطا [زوجته] وان تقدموا جميعاً الأضاحى العامة و [تقيموا] الصلوات من اجل ان يثبت حكمه وجميع ال بيته وان ترتدوا اكاليل الغار لمدة خمسة عشر يوماً بدءاً من هذا اليوم(١٥) .

أما النوع الثانى من الأعياد فهى الأعياد الدينية للعقائد الشعبية الضاربة الجذور فى التربة المصرية . وأغلب هذه العبادات عبادة الحيوانات التى كما سبق أن ذكرنا . لفتت نظر الأجانب فنظروا اليها إما بأحتقار و إزدراء أو بدهشة و إهتمام . فعندما كان اكتافيوس أغسطس يتفقد منف ، سؤل عما إذا كان يود زيارة حظيرة عجل أبيس

الملحقة بمعبد بتاح «رفض قائلاً : انه إعتاد أن يعبد الألهة وليس الماشية.(١٦) أما إزدراء جوفيناليس فقد فاق الحد فقد قال :

Quis nescit, Volusi Bithynice, qualia demens
Aegyptos Portenta colat? crocodilon adorat
Pars haec, illa pavet saturam serpentibus ibin
effiges Sacri nitet aurea Cercopitheci,
dimidio magicae resonant ubi Memnone chordae
atque vetus Thebe centum iacet obruta portis.
illic aeluros, his piscem fluminis, illic
Oppida tota canem venerantur,

من ذا الذى يجهل ، يافولوسيوس البيثينى ، اى شياطين تتقمص عبادات مصر ، فالتمساح يعبده
هذا الجزء ، وذاك يقف فى رهبة لطائر إبى منجل المتخم بالثعابين
ويتلألأ تمثال النسناس الذهبى
حيث ترجع الأوتار السحرية انغام تمثالى ممنون المتشققين
وطيبة العجوز ترتمى تحت انقاض المائة بوابة
هنا يعبدون القطط ، وهنالك سمك النهر ، وهناك
مدن باكملها تعبد الكلب(١٧) .

أما الكتاب الأغريق الذين راحوا يفتشون عن تبرير يقبله العقل ويفسر هذه الظاهرة التى تنفرد بها مصر عن سائر دول العالم القديم ، فقد قالوا أن الهدف من وراء عبادة هذه الحيوانات هو الرغبة فى استرضائها لأن بعضها كان مفترساً يهدد البشر والأنعام والبعض الآخر معطاء للخير ، ففى رسالة ترجع إلى عام ١١٢ ق.م من عهد بطليموس التاسع وقبل أن يفتح الرومان مصر بأثنتين وثمانين عاما ، يحدد مسئول فى الادارة الرومانية برنامج سياحى لضيف رومانى رفيع المستوى من بينها زيارة التماسيح المقدسة :

«من هرمياس إلى حورس سلام . فيما يلى نسخة من الخطاب المرسل إلى اسكلبياديس ، فعليك إتباع التعليمات الواردة باهتمام والسلام . السنة الخامسة ، كسانديكوس ١٧ الموافق أمشير ١٧ (٥ مارس عام ١١٢) .

إلى اسكلبياديس . لوكيوس مميوس سناتور رومانى يشغل مركزاً عظيم المقام والشرف سيقوم برحلة (نيلية) من العاصمة (الاسكندرية) إلى إقليم ارسينوى لمشاهدة معالمه . اعمل على استقباله بابهة خاصة . وإحرص على اعداد قاعات الضيافة عند المحطات المناسبة وان تنتهى من تهيئة أماكن النزول

بها . وتقديم الهدايا عند نزوله إلى الشاطئ وتجهيز قاعة الضيوف ، والطعام لبيتوسوخوس (التمساح المقدس فى الفيوم) ولسائر التماسيح ، وما يلزم لتفقد قصر التيه (اللابيرانث) (المعبد الجنائزى باللاهون) وكذلك للقرابين والأضاحى . وعلى العموم إبذل كل ما فى طاقتك فى كل أمر للتأكد من ان الزائر راض وإظهر بكل طاقتك . . .(١٨) .

فلقد كان البرنامج المعتاد للسواح زيارة الأهرامات ومنف ومعبد بتاح للتفرج على عجل آبيس ، ثم زيارة منطقة اللاهون حيث كان يوجد معبد امنمحعت الثالث(١٩) . الذى كانوا يظنونه قصر التيه labyrinh ، ومن اللاهون يقصدون كروكوديلوبوليس Crocodeilopolis (كيمان فارس عاصمة الفيوم) للتفرج على معبد التمساح ومشاهدة البحيرة المقدسة التى كان تربى فيها هذه التماسيح ويتجمعون فى اوقات معينة من النهار حيث يشاهدون الكهنة وهم يطعمونها على نحو مايفعل السواح المعاصرين الذين يتجمعون فى أوقات معينة أمام قصر بكنجهام فى لندن لمشاهدة تغيير الحرس الملكى كجزء من برنامجهم السياحى ، غير أن هذا التمساح كان فى عيون شعب ارسينوى هو الجد - الرب - «سوبك» الذى سماه الأغريق سوخوس Souchos . ولهذا لم تخل قرية من قرى الفيوم من وجود معبد بها لهذا الرب ، الذى كانوا يلجأون إليه لطلب العرافة وتفسير اضغاث الأحلام التى كان بها كهنته عالمين .

شعائر العبادة والأعياد الدينية :

لم يكن هناك شئ يميز بين الشعب المصرى وسادته المستعمرين أكثر من شعائر وطقوس العبادة ، فمنذ عصور ضاربة فى القدم تشكل فى مصر نواة من الكهان توارثت هذه المهنة أباً عن جد ، وأصبحت طبقة ثيوقراطية وراثية مغلقة على نفسها ولا تقبل دخيلاً عليها إلا فى حالات الضرورة القسوى وفى أضيق الحدود ، وبعكس الحال عند الأغريق الذين جعلوا منصب الكاهن منصباً إدارياً مدنياً يمكن لأى فرد أن يتقدم لشغله ، ومتاحاً لكافة المواطنين الأحرار . ولقد لا قت هذه التفرقة هوى فى نفوس الرومان لأنها كانت تناسب سياستهم القائمة على التفرقة والتمييز بين الطبقات ، ولهذا رحبت الإدارة الرومانية لمصر ، بل وساعدت على تعميق جذور هذا التمايز الثقافى والدينى بين المصريين والأغريق ، فقد ورد فى

المادة ٨٦ من لائحة الأديوس لوجوس - مدير الحسابات والأوقاف الخاصة - وهى وكالة أستحدثها اكتافيوس أغسطس لرعاية وللأشراف على الشؤن الدينية فى مصر ما يلى : « **يجوز لأى رجل من عامة الناس ان يتولى مسئولية القيام باداء الشعائر فى اى معبد إغريقى** »[٢٠] وبناء عليه لم يكن هناك كهنة رسميون فى المعابد المكرسة للألهة الأغريقية خاصة الهة الأولمب ، بل كان هناك مسئولون وإداريون غير دائمين . وفى المدينة الأغريقية القديمة Polis ، كان المواطنون (Polites) يختارون فيما بينهم ، ومن بينهم مرشحين للأشراف على المعابد ورعايتها وتلبية مطالبها واحتياجاتها ، على نحو ما يفعل الشماس فى الكنائس المسيحية وكان المواطن الذى يفوز بلقب كبير الكهنه « Archierus » ينتخب سنوياً ، لكنه بعد إنقضاء فترة توليه الوظيفة يظل محتفظا بلقبها طوال حياته كنوع من التكريم الأجتماعى والتقدير الرمزى مثل سائر الوظائف الشرفية الأخرى مضافا إليها عبارة سابقاً أو لبعض الوقت .

اما على الجانب الآخر ، نجد المعابد الدينية المصرية - تلك القلاع العريقة - سواء احتفظت بأسماء الهتها الوطنية كما هى أم اتخذت الأسماء الأغريقية لها - تقف فى شموخ ، ويقوم على خدمتها هيئة متوارثة ثيوقراطية من الكهنة لها درجات وسلم وظيفى كهنوتى ، يبدأ من درجة مساعد كاهن حتى كبير كهنة ، لقد حتمت كثرة الأعياد والمناسبات . وتنوع الطقوس والشعائر ، وتعدد جوانبها خلق مثل هذا السلك الكهنوتى المنظم ، وظهور رجل الدين المحترف ، وذلك منذ مولد فكرة الدين فى الحضارة المصرية .

يتحدث هيرودوت بنبرة إعجاب عن المصريين قائلا : « **انهم لا يقيمون عيداً واحدا فى السنة لكل رب يعبدونه ، وإنما يقيمون عدة اعياد فى السنة لنفس المعبود**[٢١] . ومن خلال وثائق البردى المتفرقة التى عثر عليها فى عدة قرى من قرى الفيوم ، نستطيع من هنا وهناك أن نرصد بعض هذه الأعياد الدينية منها عيد زواج أيزيس بأوزوريس ، وعيد مولد سوخوس الرب التمساح ، وذكرى يوم تأسيس المعبد ، والتى كانت تستمر من ٧ إلى ١٩ يوم ، ويبلغ مجموع الأعياد والمناسبات الدينية حوالى مائه وخمسون يوماً فى العام الواحد ، وفى مجتمع زراعى يستولى على أغلب وقت الفلاح فانه من المحال تعطيل العمل نصف العام تقريبا من أجل هذه الأعياد ولهذا

فأن اغلبها كانت طقوسا وقداسات يقوم بها الكهنة نيابة عن الشعب وبأسمه ومن أجل رخائه ، ومن أجل بقاء الكون وبقاء مصر ، فالتوقف عن اداء هذه الصلوات كان يعنى دمار العالم ، ففى الفكر الدينى المصرى كانت مصر هى معبد الوجود ، والمعبد هو قدس أقداس مصر ، وقدس الأقداس هو قلب المعبد(٢٢) ، اى أن قدس الأقداس فى المعبد هو مركز الكون .

الكهنة ودورهم فى المجتمع :

على طول تاريخ مصر الفرعونية كان الكهنة يكونون طبقة ثيوقراطية ذات نفوذ سلطوى موازى وموازن لسلطة الفرعون ، بل أن كفتى ميزان الحكم كانت تتأرجح ، حيناً لصالح الملوك الفراعنة ، وحينا آخر لصالح طبقة الكهنة ، بل كان الأمر يصل فى بعض الأحيان إلى حد الصدام بين القوتين مثلما حدث بين الفرعون امنحتب الرابع (١٣٧٩ - ١٣٦٢ ق . م) الملقب بأخناتون وبين كهنة آمون فى طيبة ، مما أدى الى أن هجر الفرعون العاصمة طيبة ، بل هجر معها عبادة آمون كلها . وفى النهاية مات أخناتون وانتصر كهنة آمون .

فى عصر البطالمة (٣٢٣ - ٣٠ ق . م) إعتبر ملوكهم أنفسهم فراعنة ولكن مقدونيون لهم كل حقوق الفرعون وعليهم كل مسئولياته ، ولذلك شهدت مصر فى عهدهم حركة ترميم للمعابد المصرية الكبرى وبناء معابد مصرية كثيرة فى الصعيدوالنوبة ، ويكفى أن نشير إلى معبد حورس فى أدفو والذى نعتبره « كرنك البطالمة » الموازى لمعبد آمون فى طيبة وهذا يدخل أيضا فى باب الصراع بين رجال السلطة (الأوتوقراطية) ورجال الدين (الثيوقراطية) فى نفس الوقت كان للبطليموس وجه آخر بالنسبة لرعاياة من الأغريق الذى كان بالنسبة لهم ملكاً مسؤلاً عن بناء المعابد لألهة الأولمب الوافدة طبقا لهندسة وقواعد العمارة التقليدية للمعابد الأغريقية سواء بالأسلوب الدورى أو الأيونى أو الكورنثى . وكحل وسط أوكل بطليموس الأول - أو الثانى - إلى هيئة من رجال الدين الأغريق والمصريين مسئولية خلق ديانة توفيقية مشتركة بين عنصرى الأمة وهم : ديمتريوس الفاليروسى من آثينا ، وتيموثيوس من يومولبوس Eumolpos فى تراقيا ، وما نيتون الكاهن المصرى من سمنود ، وتوصل هؤلاء الحكماء الثلاثة إلى وضع اساسى قواعد عبادة ثالوث جديد على غرار

ثالوث الفرعون مينا العتيق، ويتكون من سيرابيس وإيزيس وهاربوكراتيس ، والذى عرف بثالوث الأسكندرية ، غير أن هذا الثالوث لم يستطيع أثناء المصريين عن ديانتهم العريقة الضاربة فى أعماق تاريخهم. وكلما حاق الضعف بالفراعنة المقدونيين كلما رجحت كفة الكهنة المصريين ولم يجد هؤلاء البطالمة المتاخرين سوى الاذعان لسطوة الكهنة وتملقهم بمنح المزيد من الأمتيازات لهم مقابل اصدار قرارات المبايعة ، التى يشهد عليها قرار كانوب الصادر فى ربيع عام ٢٣٧ ق.م الذى بايع فيه الكهنة بطليموس الثالث و عبروا من خلاله عن آيات الشكر للملك العطوف لكفاءته فى الأدارة ، ورعايته للمعابد المصرية ، وانقاذة البلاد من كارثة المجاعة التى حدثت بسبب خذلان النيل لهم بفيضان منخفض ، ومنحوه فيه لقبا دينيا مصريا ترجموه إلى الأغريقية بأسم يورجيتيس Eurgetes أى «فاعل الخير» ، والذى يبدو أنه كان أحد الألقاب التى تحلى بها أوزوريس . أما القرار الثانى فهو قرار منف الشهير الصادر عام ١٩٦ ق. م والذى كتبوه باللغة المصرية بخطيها الهيروغليفى المقدس والديموطيقى الشعبى ، ثم أشفعوا هذا القرار بترجمة يونانية وانتهوا فيه إلى منحه لقبادينيا مصريا ترجموه إلى اليونانية وهو إيبفانيس Epiphanes أى الاله المتجلى فى صورة البشر وقد عرف بأسم حجر رشيد نسبه إلى المكان الذى عثر فيه الفرنسيون على نسخة منه أثناء حملتهم على مصر عام ١٧٩٨ ، وبمقارنه القرارين يتبين لنا أنه خلال الأربعين سنة الفاصلة بينهما أن كانت سلطة الكهنة المصرية فى تزايد مستمر ، كما أن موجة القومية المصرية كانت أيضا فى ارتفاع ، ومعها إرتفعت سطوة المعابد وحصلت على المزيد من الهبات والأقطاعيات الزراعية الشاسعة التى بلغت تقربيا ثلث مساحة الأرض المزروعة ، أى أن أراضى مصر الخصبة أصبحت مقسمة إلى : ثلث للبطليموس وخاصته الملكية ، وثلث للمعابد المصرية ، والثلث الباقى للملكيات الخاصة وحيازات الجنود المستوطنين ، ولم تكتف المعابد المصرية بزراعة هذه الأقطاعيات عن طريق مزارعى أرض المعابد ، بل أقامت صناعات خاصة بها كصناعة ورق البردى ونسج الكتان وتخمير الجعة المشروب الوطنى للمصريين وخلاصة القول اصبحت المعابد المصرية سلطة ثيوقراطية لاندوقراطية ودويلات شبه مستقلة داخل المملكة البطلمية .

وعندما فتح القاهر الرومانى مصر عام ٣٠ ق . م وأسقط ثلاثة قرون من حكم البطالمة ، كانت له نظره أخرى ، وحساب آخر ، فلتأمين مصر وابقائها الى الأبد داخل حظيرة الأمبراطورية الرومانية ، كان عليه أن يقضى على سطوه الكهنة ، وهيمنة المعبد ، وذلك بتقليصهم سواء من ناحية العدد او الثروة أو النفوذ السياسى ، وتجريدهم من كافة الأمتيازات التى كانوا قد اكتسبوها خلال حكم البطالمة الضعفاء . فنزع من المعابد إقطاعياتها والتى أصبحت الدولة تشرف على تأجيرها وزراعتها مع بقاء اسمها القديم بأسم أرض المعابد ، مقابل أن تتولى حكومة الأحتلال الأنفاق على المعابد وتلبية طلباتها ، وفى نفس الوقت أخضعت حساباتهم للمراجعة والتدقيق من جانب موظف كبير إسمه الأديوس لوجوس Idios logosأو مدير الحسابات الخاصة والأوقاف . كما حظر على الكهنة التورط فى ممارسة أى نشاط آخر يخرج عن نطاق اختصاصاتهم الدينية وممارسة الشعائر واداء الطقوس داخل المعابد فقط والا تعرضوا لعقوبة صارمة . هذا بالنسبة للقيادات الكهنوتية المؤثرة . أما الوظائف الكهنوتية الصغيرة ، فقد تركها لفريق من صغار الكهنة والمعاونين غير الدائمين ولفترات محددة وكانت فلسفة الأدارة الرومانية لمصر ـ أبعاد كبار الكهنة عن استقطاب الساخطين والمتذمرين للتخطيط لاحداث ثورة وطنية تدعو لطرد المحتل الرومانى الغاصب ، وتهدد امداد روما بالقمح . وبالرغم من هذه الأحتياطات الصارمة ، لم يمنع ذلك من حدوث ثورات وهبات وانتفاضات وطنية ضد الرومان مثل تلك التى حدثت عام ١٥٣ م أثناء حكم الأمبراطور انطونينوس بيوس ، ودفع والى مصر الرومانى التعس وإسمه لوكيوس موتاتيوس السعيد Lucius Mutatius Felix حياته ثمناً لقمعها ، غير أن هذه الانتفاضات ،كانت محلية ومتفرقة ومعزولة ، ولذلك لم يجد الرومان أى صعوبة فى القضاء عليها . وتظهر الوثائق البردية اصرار الأدارة الرومانية على تقليم أظافر الكهنة المصريين فى قرار الوالى جايوس تورانيوس Gaius Turranius الصادر فى العام الرابع ق.م وهذا نصه :

«إننى امر (المعابد) ان يسجلوا كهنتهم الوراثيين ومساعديهم وكل من يعمل فى المعابد وكذلك اولادهم ويوضحوا المسئوليات التى يقوم بها كل

منهم. وانني سوف افحص (بنفسي) قائمة العام السادس والعشرين من حكم قيصر (أغسطس) وسوف استبعد على الفور اولئك الذين لا ينتمون لسلالة كهنوتية[٢٣].

ومن وسائل تجريد الكهنة من امتيازاتهم قيام الرومان بالغاء قرار سبق لملوك البطالمة أن اصدروة وكان ينص على اعفاء جميع الكهنة المصريين من دفع الضرائب وقصر الرومان الأعفاء على شريحة صغيرة جداً من كبار رجال السلك الكهنوتي. وكان هذا العدد المعفى من الضرائب يختلف حسب أهمية المعبد الذى يتولون إقامة الشعائر فيه، وحسب أهمية المعبود المقام من أجله المعبد، وأيضاً حسب حجم وأهمية المدينة أو القرية التى بها هذا المعبد، ففى إحدى قرى الفيوم الصغيرة كان يقوم بالشعائر فى معبد سوخوس الرب التمساح ثلاثة كهنة يعاونهم مساعد شعائر، بينما نجد فى قرية كبيرة من قرى نفس الأقليم مثل تبتونس (أم البريقات) يقوم على خدمة معبد لنفس المعبود ثمانون كاهنا ومساعداً للشعائر، وفى قرية أكبر مثل كرانيس (كوم أوشيم) بلغ عدد الكهنة والمساعدون مائة وأربعة أما الغالبية من صغار الكهنة المخول لهم رسميا اقامة الشعائر فقد أصبحوا ملزمين بدفع كافة الضرائب، بل وأداء الخدمات الإلزامية كغيرهم من طبقة عوام المصريين.

ومن الصور التى تظهر على الآثار يبدو الكهنة المصريون بمظهرهم المميز والملحوظ، فرءوسهم دائما حليقة، وإذا ثبت أن أحدهم أطال شعره قليلا فأنه كان يفرض عليه غرامة باهظة بلغت فى عصر الرومان ألف دراخما، كما كان يحرم عليهم إرتداء الثياب المغزولة من صوف أو وبر الماشية أمام الناس حتى ولو فى فصل الشتاء القارس، إنما كان لباسهم التقليدى ينسج من الكتان وهو التيل ذو اللون الأبيض. وكان الكهنة المصريون الطبقة الوحيدة المستثناة من غير اليهود من قرار تحريم عادة ختان الذكور والتى حظر الرومان ممارستها على سائر رعايا الأمبراطورية.

ولقد فرضت السلطة الرومانية فى مصر رقابة صارمة على الكهنة للإلتزام باللوائح فمثلا كان يشترط أن يتقدم الكاهن بطلب إلى السلطات المختصة للحصول على إذن منها لكى يختن، وكان يرفق بالطلب الشهادات

الدالة على حالته وعمله، وعادة كان الطلب يقدم إلى حاكم الأقليم (الأستراتيجوس) الذى بدوره يؤشر عليه باجراء التحرى ويرسل الطلب مع التأشيرة إلى رئاسة المعبد الذى يعمل فيه صاحب الطلب لكى يصدق كهنته على صحة طلبه، ثم يعاد الطلب إلى حاكم الأقليم مرة أخرى. ومثال على ذلك رد أربعة من كهنة معبد تبتونيس «الشهير المعفى من الضرائب» والمحررة فى عام ١٨٧م على إستفسار حاكم الأقليم عن طالب ختان وهذا نص الرد :

« بالإشارة إلى الطلب المقدم اليكم من مارم - بسيمس ابن مارسى - سوخوس بن هاربوكراتيون كاهن المعبد المذكور والذى يطلب فيه تختين ولده بانيسيس المولود له من ثن - باكبكس إبنة بانيسيس، ورداً على استفساركم عما إذا كان من سلالة كاهن ويحق له ان يختن: نعلن مقسمين بعزة ماركوس اوريليوس كومودوس انطونينوس اغسطس انحداره من سلالة كهنوتية وكل الأدلة التى قدمت من اجله اصلية وانه يتوجب ختانه لأنه لا يجوز له القيام بأداء واجباته مالم يتم له ذلك وإذا [ثبت خلاف ذلك] نكون مسئولين عن عاقبة حنث اليمين(٢٤). [توقيعات].

ومن الأمور التى إستفسر عنها الاستراتيجوس الوضع الشرعى للأبن هل هو فعلا من صلب أبيه أم ابن متبنى أم لقيط التقط من العراء والخلاء؟ لأن المادة ٩٢ من لائحة مدير الحسابات الخاصة والأوقاف الدينية تحظر أن يتولى هؤلاء اللقطاء مناصب الكهنة، فإذا ما إقتنع الأسترتيجوس بصحة وصدق التحريات يحيل الأمر إلى الكاهن الأكبر لمصر وهو موظف مدنى رومانى، والذى بدوره يأمر بعقد جلسة إستماع أو لا يرى داع لذلك، وفى خاتمة إحدى جلسات الاستماع التى عقدها الكاهن الأكبر عام ١٧١م جاء القرار التالى :

بعد الاستفسار من رؤساء، ومساعدى رؤساء الوفد، ومن الكتبة ومن [حفظة] السجلات المقدسة عما إذا كان بالصبى أى تشوه خلقى فى جسمه، وبناء على ما ورد على لسانهم أنه خال من التشوه، وضع اوليبوس سيرينيانوس الكاهن الأكبر ومدير إدارة المعبد توقيعه على الخطاب المرسل من الاستراتيجوس معطيا الأذن ان يختن الصبى طبقا للتقليد المتبع(٢٥).

وهناك حالات غض فيها الكاهن الأعظم الطرف عن وجود تشوه فى جسد صبى مطلوب تختينه ، وأعطى موافقته على التختين فى نفس الطلب مع صبى آخر خال من أى تشوه ، ويعلل نفتالى لويس هذا الأمر الغريب بأنه «نتيجة لتأثيرات فى الخفاء سواء كانت سياسية أم مالية أم الأثنين معا(٢٦)

وإذا ما حدث وأن خلا منصب دينى فى أى معبد ، ولم يوجد وريث شرعى لكاهن توفى ، ففى هذه الحالة تعرض السلطة الرومانية المنصب للبيع ، ويذهب لمن يدفع أكثر . وقد يبدو ذلك غريبا على القارىء أو يعلن دهشته واحتجاجه على مسلك الرومان ومسلك المصرى الذى يقبل أن يكون رجل دين عن طريق شراء المنصب ، إلا أن وجهة النظر فى مصر القديمة وسائر دول الهلال الخصيب أن منصب الكاهن بامتيازاته الاجتماعية وما يدره من أموال على صاحبه ، منصب مرموق تهفو إليه القلوب ، وترنو إليه النفوس الباحثة عن الثروة المادية والمكانة الاجتماعية ، ولقد كانت هناك دائما مشاحنات ومنازعات ومنافسات شديدة على مثل هذه المناصب التى كانت تدر مالاً ودخلاً وفيراً على شاغليها ، وكثيرا ما أدى التشاحن من أجل الحصول عليها إلى اتهامات بالخروج عن اللوائح ، يقابلها إتهامات مضادة من الطرف الآخر وينتهى الأمر باللجوء إلى القضاء .

المعـــابد :

ومن خلال عمليات التنقيب عن الآثار أتضح أن عمارة المعابد سواء كانت مصرية أم أغريقية ظلت تحتفظ - بتخطيطها وزخارفها التقليدية . فالجاليات الإغريقية فى المدن المصرية أقامت معابداً لآلهتها الأولمبية على الطرز التى كانت تبنى بها المعابد فى أرض أجدادهم ، وبطول الإقامه والتأقلم قبلوا - وفى أضيق الحدود - إجراء بعض التعديلات الملحة . تحت ضغط بعض الظروف مثل اختلاف مواد البناء فى مصر عن بلاد اليونان ، وظروف الطقس ، وصوفية العبادة والتعبد ،لكنها بقيت فى جوهرها إغريقية لحماً ودماً تعبيراً عن تمسكهم بإنتسابهم الى الثقافة الأغريقية ، وكأعلان عن وضعهم المتميز فى الهرم الاجتماعى الذى وضعه الرومان .

أما فى سائر أنحاء الوادى فقد ساد الأسلوب المعمارى الفرعونى، بدءاً من الهيكل الصغير الذى نجده فى القرى والذى كان فى شكل البيت الصغير المبنى بالطوب اللبن، وانتهاءاً بالمعابد الشاهقة المبنية من الحجر، بصرحيها اللذين يقفان على جانبى البوابة كبرجين أو قلعتين يعلوهما صاريتان لرفع الرايات، وبالطريق الممهد المؤدى الى المعبد والذى يصطف على جانبيه صفان من تماثيل أبى الهول أو الكباش او ماشابهما من حيوانات مقدسة رابضة على أربع، باسطة ذراعيها بالوصيد.

ويمكن مشاهدة النموذج الأكمل للصرحين والبوابة التى على جانبيها يقف تمثالان للصقر حورس فى معبد أبوللو نوبوليس (ادفو)، وعلى جدران هذا المعبد الشاهقة صور الأباطرة الرومان بالنحت البارز، فى الثياب والهيئة الفرعونية التقليدية، وبجوارهم الألقاب الملكية والربانية منقوشة داخل الخرطوش بالخط الهيروغليفى. أما فى تبتونس التى كانت واحدة من أكبر القرى فى اقليم الفيوم فقد دمر المعبد تماماً ونقلت أحجاره سواء لبناء منازل الفلاحين أو لحرقها لصنع الجير، غير أن طريق الكباش أو طريق أبى الهول أمكن العثور عليه فى الثلاثينيات من القرن العشرين، وفى معبد بتاح (هيفايستوس) بمنف كان عجل آبيس يعرض للزوار فى الحظيرة المقدسة بجوار المعبد الكبير، وفى كروكوديلوبوليس (كيمان فارس بالقرب من مدينة الفيوم) عاصمة اقليم ارسينوى كان سوبك يرتع فى البحيرة المقدسة وكذلك كان أنوبيس (إبن آوى) فى معبد كينوبولس (الشيخ فضل). كل معبود سيد مدينته.

أهم المعبودات المصرية فى العصر الرومانى:

كان النيل على رأس المعبودات فى كل أقاليم مصر، فلولاه لكانت مصر بلقعاً جرداء لا نبات فيها ولا ماء. ومنذ عصور ضاربة فى القدم كلما بدأ موسم الفيضان كانت الترانيم تنشد والصلوات تتلى من أجل أن يكون الفيضان وفيراً والخير كثيراً. وأقدم هذه الترانيم الخاصة بمباركة الفيضان مكتوبة بنقش هيروغليفى يرجع الى عام ١٢٠٠ ق م، وآخر هذه الترانيم وردت فى مخطوط سوريانى يرجع الى القرن الثانى عشر

كما كان هناك ترانيم من أجل مباركة الفيضان كانت تنشد في العصور المسيحية ؛ غير أن الذى يهمنا هو ما كان ينشد زمن الرومان الميلادى[٢٧]، وهذه هى أشهرها[٢٨] :

«من أجل عيد فيضان النيل عظيم القداسة ، ذلك العيد بشعائره المقدسة الخاصة بالوفرة والرخاء .

لقد اتى الماء . تحية الى الجداول عند ارتفاع طوفان إيزيس ، فلتكن لك الهيمنة يانيل كثير الفيضان ، فمن مروى[٢٩] .تتدفق الينا ـ حللت اهلاً ونزلت سهلاً . وانشر غرينك الخصب مع طوفانك الوفير . ولتعط مصر كلها حلاوة تمدها كل عام فى ميقاتك المحدد . انظروا جميعاً كم يبدو الفيضان لكل واحد منا كالذهب وانشدوا ثلاث مرات تحية للجداول وهى تفيض .[قائلين] فض يانيل وارتفع الى مقدار الستة عشر ذراعاً[٣٠] . السعيدة .

ولقد كانت إيزيس تكنى بأسم «واهبة الحياة» . لأنها ارتبطت بالنيل الذى وصف بأنه اوزوريس ، فعندما تغطى مياه أوزوريس أرض مصر السوداء التى هى رمز إيزيس ، اعتبر المصريون ذلك زواج الربين الشقيقين الذى يتم كل عام فينجبان الحرث والنسل . ومن ثم فقد كان من أهم شعائر الاحتفال السنوى بعيد وفاء النيل أن تغمس فى مياهه المقدسة جرة إيزيس الذهبية ، ثم ترفعها الأيدى عاليا وسط التهليل والغناء والدعاء ولذلك فأن الترانيم الخاصة بأيزيس كانت تذكر فضلها على الفيضان فتردد فيها عبارة تقول :

«بقوتك فاضت كل قنوات النيل بالماء» . وأخرى تخاطبها قائلة : **إنها انت التى تحثين مياه النيل الذهبية على المجئ وتتقدميها فى الميقات المناسب لتغطى ارض مصر كلها . عندئذ تفرح البشرية .[٣١] .**

ولقد كان يوم الثانى عشر من شهر بوءونه [١٩ يونيو] بالذات هو يوم احتفال مصر كلها شمالا وجنوبا بعيد وفاء النيل ، وكان أعظم وأهم أعياد مصر قاطبة حتى أن هذا العيد ظل محفوراً فى ذاكرة الأمة المصرية عبر كل حضارتها وعصورها الفرعونية ، والبطلمية ، والرومانية والقبطية . والإسلامية . وبالرغم من أن هذه العيد وثنى الأصل والجذور إلا أنه ظل باقيافى عصور الديانات السماوية حيث نسبت كل ديانة الفيضان إلى معجزات أنبيائها ، فقد نسب المسيحيون فيضان النيل إلى

بركة السيد المسيح عليه السلام وإلى ميخائيل رئيس الملائكة الذى تحتفل الكنيسة القبطية حتى يومنا هذا فى التاسع عشر من شهر يونيو بعيد الملاك ميخائيل فقد ذكر الرحالة الأيرلندى إنتيس Antes الذى زار مصر فى أواخر القرن الثامن عشر أن الاحتفال السنوى بيوم التاسع عشر من شهر يونيو كل عام بعيد رئيس الملائكة ميخائيل ارتبط بعيد وفاء النيل، ومن مداومة الاحتفال بهذا العيد على مدى قرون عديدة تولدت أسطورة اعتقد فيها المصريون مسلمون ومسيحيون ، بل وحتى الأتراك العثمانيون بأنه فى هذا اليوم يسقط من السماء نقطة واحدة من المياه فى النيل هى خميرة الفيضان .فتجعله يرتفع وينتفخ كما ينتفخ العجين بعد تخمره فيفيض ويغطى كل أرض مصر ، وإذا أخبرهم أحد بأنه هذه خرافة غضبوا منه وإتهموه بالكفر والجهل.

وكما سبق أن ذكرنا أن آلهة مصر الكبرى إختفت مع اختفاء فراعنتها العظام ، وبرزت مكانها الآلهة المحلية الصغيرة التى كانت قد حجبتها الآلهة الرسمية التى كان الفرعون يدعى أنه ينحدر منها ، وأنه هو حاميها . وبالتالى بدأت المعابد الكبرى تهجر ، والتردد عليها يقل . وزاد الطين بله تدخل الرومان فى شئون المعبد المصرى . ودس أنوفهم فى أموره ، وفرض عبادة أباطرتهم الأحياء والأموات عليه ، وتنصيب تماثيلهم جنبا الى جنب مع تماثيل آلهة مصر العريقة ، مما يعتبر فى أعماق المصرى المحافظ تدنيسا للعبادة المصرية ، ففى نقش عثر عليه فى معبد دندرة ويرجع الى مطلع العصر الرومانى ، ومكتوب بخط كبير واضح للعيان يقول : «**هذا مكان سرى ومقدس يحظر دخول جميع الآسيويين إليه . وليبق الفينيقون بعيداً عنه ، ويحرم دخوله على الأغريق وكذلك البدو**»(٣٣) وربما كان كاتب النقش يود لو أضاف أيضاً إسم الرومان الى قائمة المحظور عليهم دخول المعبد ، لكنه لا يجرؤ خوفاً من العقاب ، وفى معبد اسنا نقش آخرون فى العصر الرومانى قائمة الأجناس المحظور دخولها المعبد بحجة عدم الطهارة البدنية والروحية(٣٤)

ولقد كانت حجة عدم الطهارة البدنية والروحية هى المبرر لحظر دخول المعبد المصرى على غير المصريين خاصة فى العصر الرومانى . ولما كان المصريون يدركون أن الرومان يملكون السلطة والقوة العسكرية

التى تخول لهم إقتحام المعابد خاصة بعد أن جردوها من حق الحصانة المقدسة asylum وهو حق حصل عليه كبار الكهنة من الملوك البطالمة مقابل التاييد والمبايعة - فقد أداروا ظهورهم للمعابد الكبيرة ، ولم يعودوا يترددون عليها ، وفضلوا اداء طقوسهم داخل بيوتهم حيث أقاموا فيها لأنفسهم محاريب صغيرة على طريقة الرومان ، أو فى الزوايا والمحاريب والمقامات التى أقاموها على ضفاف النيل ، أو وسط الحقول يؤمها العابدون بعيدا عن المعابد الكبرى التى كانت تحت رقابة الرومان الصارمة .

السحر والإيمان بالغيبيات :

ولقد كان من نتائج هجرة المعابد ، وغروب شمس الآلهة الكبرى مع غروب شمس الفراعنة العظام ، وبسبب تدخل الرومان ، أن ازدهرت العبادات الشعبية العتيقة التى ظهرت مع ظهور الأقاليم قبل توحيد مصر على يد مينا وفرضه للثالوث الرسمى الملكى كرمز لوحدة مصر . ولقد أشرنا الى العدد الكبير من عبادات الحيوانات والطيور والأسماك ، والحشرات ، بل شجع الرومان من عصر الأسرة الفلاقية هذه العبادات المحلية لبث الفرقة بين الأقاليم كضمان لعدم اتحاد المصريين تحت عقيدة واحدة تدعوا لطرد المحتلين كما حدث أيام الهكسوس . ولما كان الفكر الدينى ذا جذور عميقة فى التربة المصرية ، ويرتبط بالتصوف وممارسة السحر والكرامات القادرة على فعل ما يعجز عنه البشر . فلقد أطلق برستيد على مولد الحضارة المصرية بأنها مولد الضمير ، ولهذا اعتبرت شعوب العالم القديم مصر بأنها منبع ومصدر fons et origo الإيمان بالقوى الخفية وعلم الأسرار والصوفية بدرجاتها الثلاث التخلى والتحلى والتجلى ، والقدرة على الإطلاع على الغيب وقراءة الطالع والنفاذ الى صميم الأمور وجواهر الأشياء ولقد أطلق على منجم الخبرات المصرية فى هذا المجال إسم الهرمسيات Hermetcia أى مجموعة التعاليم المنسوبة الى الرب المصرى تجوت المناظر للرب الأغريقى هرمئس أو الى الحكيم المصرى أمحتب الذى يلقب فى كتب أهل التوحيد عند المسلمين الدروز بأسم مولانا هرمس الهرامسة(٣٥) .

وفى عصور الظلم والحرمان والأحباط يلجأ الناس الى الأستعانة بقوى السحر الخفية للحصول على مالا يقدرون الوصول اليه ، سواء بالتعاويذ أو الأحجبة والتمائم Amulets وهذا يفسر هذا القدر الهائل من هذه التمائم التى يعثر عليها من العصر الرومانى ، وعلى حد قول المثل الرومانى أحب وأكره « odi et amo » أى أن الأنسان بقدر مايحب بقدر مايكره ، ومن ثم فأنه منذ العصور الفرعونية القديمة وجدت نصوص اللعنة التى كان لها طقوس معينة تؤدى لأنزال الكوارث والمصائب بالعدو أو الخصم . وأقدم نص لعنة باليونانية عثر عليه فى منف وصاحبته إمرأه يونانية متمصرة ربما من سلاله الجنود المرتزقة الذين جلبهم ملوك الأسرة الصاوية ، وبالرغم من أن تاريخ هذه الوثيقة يسبق بكثير الفترة التى ندرسها اذ ترجع الى الثلث الأخير من القرن الرابع ق . م ، أى نحو ثلاثة قرون قبل مجىء الرومان الا أن فحوى اللعنة لم يختلف كثيرا عن فحوى اللعنات الذى وردت فى العصر الرومانى ، ولأن هذه الوثيقة المعروفة بأسم لعنة أرتيميسيا هى أقدم وثيقة بردى عثر عليها فى مصر ، ولأن فحواها مؤثر للغاية ، ولأن لعنة أرتيميسيا تحمل روح المعتقدات الشعبية المصرية التى لم تتغير رغم مرور القرون ، فقد اخترناها كنموذج لنصوص اللعنة . وارتيميسيا تتوجه الى رب مصرى موطنه منف إسمه أوسير - آبيس Osir apis (وهو الرب الذى حوله البطالمة الى سيرابيس فيما بعد) لكى ينزل مقته وغضبه على زوجها المصرى الذى هجرها بعد أن أنجب منها بنين وبنات ، بل أنه قام برهن جثه ابنته التى توفيت ولم يفك الرهن لكى يقوم بدفنها واقامة الطقوس الجنائزية عليها . وكان العرف المصرى يجيز للأب رهن جثه أحد أبنائه بشرط أن يسرع بفك الرهن لاجراء الطقوس الجنائزية وموراته التراب والا أنزلت به الآلهة أشد عقاب ومن ثم فقد خالف زوجها القانون والعرف فباء بغضب من الآلهة ، ولهذا استننزلت أرتيميسيا اللعنة عليه ، وهذا نصها :

« يامولاى اوسير - آبيس ويا ايتها الآلهة !

[هذه شكوى مقدمة] **منى انا ارتيميسيا إبنة اماسيس ضد والد إبنتى الذى حرمها من الهبات الجنائزية حتى من حقها فى ان تدفن . وما دام لم يفعل خيرا معى ومع ابنائه ، إنما اجحفنى حقوقى وحقوق اولاده فليقدر له أوسير - آبيس**

والآلهة الا يجد من بين ابنائه من يواريه التراب ، ولا حتى ان يقوم والده بدفنه . وانى لأدعوك - وانا اتقدم اليك بهذه الشكوى أن يلقى - هو ومن فى ذمته - على يديك ابشع مصير سواء فى البر او البحر ياوسيرابيس والآلهة الجالسة معك يا او سيرابيس . لقد رفعت ارتيميسيا دعواها اليك وهى تدعوك يا اوسيرابيس ان تنظر بنفسك فى شكواها وكذلك الآلهة الجالسة مع اوسيرابيس . وطالما بقيت هذه الشكوى فى مكانها فلتحرم الآلهة والد ابنتى من رحمتها . ولينزل الرب على من يبعد هذه الشكوى من مكانها بقصد الحاق الضرر بارتيميسيا عقابه (٣٧) .

كان الناس يتضرعون الى المعبود الأفريقى الأصل بس Bes وهو من معبودات الدرجة الدنيا التى صعدت الى الدرجة العليا إبان عصور التدهور والأحباط . وكان « بس » يصور فى شكل قزم مشوه الجسم ، ذى بطن متدل ، ويضع فوق رأسه أكليلاً من نبات البسنت ، بل جعلوا له زوجه هى بيسا Besa وكان يصور حينا وهو يتوشح بدرعه وسيفه كرب محارب للأذى . وحينا آخر كان يصور وهو يخرج لسانه ليغيظ به الأشرار والحساد . ولم يكن له معبد محدد لأن وجوده وقوته منتشرة فى كل مكان ، كما كان يصور كرب مذهب للغم والكرب ، جالب للمرح والسرور .

ويقابل التمائم والأحجبة الواقية Prophylactic من عين الحسود ومن المرض والتى نعثر عليها فى بيوت الفلاحين الفقراء ، رسومات أرضيات الفسيفساء التى نعثر عليها فى بيوت الأغنياء ، والتى يظهر عليها صور الميدوسا Medusa (الجورجو Gorgo(٣٨)) . مصورة كتعويذة من شر حاسد إذا حسد ، ومعها - أو بدونها - عبارة : « وأنت أيضاً » ، كما عثر فى أوراق البردى على أحجبة عليها كتابات سحرية كانت تطوى وتوضع فى حافظة تتدلى من قلادة حول العنق ، وعند الأغنياء كانت هذه الكتابة السحرية تنقش على بعض الأحجار الكريمة النادرة والثمينة وغير الثمينة . ولم يعثر على هذه التمائم والأحجبة فى مصر وحدها ، بل كانت توزع وتباع فى كافة بلدان حوض البحر المتوسط ، فقد أمكن التعرف على تقليدات محلية لهذه التمائم المصرية تحمل نفس الرموز السرية كدليل على سيادة نفوذ الغيبيات والمعتقدات المصرية حتى فى كنف الديانات السماوية كاليهودية والمسيحية والإسلام . فمن العصر المسيحى لدينا تعويذة تتضرع إلى المسيح وأمه العذراء وكافة الرسل والقديسين لكى « يصونوا

يوءانيا التى ولدتها انستاسيا من كل روح مؤذية ، وأن يبعلوا عنها كل انواع الحمى وكل انواع القشعريرة واحدة ومثنى وثلاث من كل شر(٣٩) ".

ولم تكن كل الأحجبة والتعاويذ لدرء الأذى أو الحاقه بالأعداء، أو «للتفريق بين المرء وزوجة» بل كانت هناك أحجبة لجلب المحبة والتقريب بين المحبين ، وهناك لفافات بردية بعضها مطول والبعض الآخر مختصر مليئة بالوصفات الشافية من الأمراض ومن مس الجن . وتتكرر عبارات وصيغ من التعاويذ التى وجدت مكتوبة على سائر مواد الكتابة، غير أن الألواح الرصاصية كانت المادة المفضلة لكتابة مثل هذه التعاويذ عليها . ومن الأمور الطريفة أن احد أحجبة المحبة عثر عليه وقد لفت حوله خصلة من شعر ، ربما شعر من راس الحبيبة تم الحصول عليها سراً أو خداعاً أو بالتراضى (٤٠). كما انتشرت عادة لف أحجبة المحبة حول تمثال من الطين المحروق أو الفخار يرمز للحب . وأكثر التعاويذ فعاليه تلك التى كانت تدفن مع مومياء فى مقبرة اعتقادا بأن « البا » أو روح المتوفى عندما تأتى لتزور « الخت » أو الجسد ، سوف تتكفل بتنفيذ كل ما هو مدون فى الحجاب بفعل قوتها السحرية (٤١) . ففى لفاقة بردية من العصر الرومانى المسيحى ثبت أنها كتاب يحوى طرق عمل الأحجبة والتعاويذ حسب كل حالة ، والوصفات الخاصة بها ، وكذلك حوت هذه اللفافة رسومات غريبة ورموز لصد عين الحاسد والحاقد والعزول، وابعاد اللصوص والكوابيس المخيفة والخطرفة والهذيان . وينصح الكتاب بأن تحفر هذه الرسومات والرموز على طبق من ذهب أو من فضه .. يحمله المرء أينما ذهب(٤٢) .

ولقد شاعت شهرة مصر فى عالم البحر المتوسط بأنها أرض الشفاء من السقم والأمراض المستعصية ، يفد اليها المرضى من كل مكان طلبا للعلاج ، وتحولت المعابد المصرية بعد أن انفض العباد عنها الى بيمارستانات تقدم العلاج للاجساد العليلة وللنفوس الحائرة ، وتمتلىء المتاحف المصرية بنماذج منحوته لبعض أجزاء الجسم التى شفيت ، أو تلك التى يسعى أصحابها الى شفائها ، قدمت كقرابين لهذه المعابد ومن أشهرها معبد الملكة حتشبسوت فى الدير البحرى الذى ذاع صيته فى

العصر الرومانى كأشهر مكان لعلاج الأمراض عن طريق تفسير الأحلام التى يبعث بها ربان مختصان بالشفاء هما امحتب وامنحتب. ونفس الشيء نجده فى معابد سقاره ودندرة. وازاء كثرة المرضى الوافدين للعلاج اضطرت سلطات المعابد الى اضافة ملحقات عرفت باسم بيوت الحياة تحولت الى بيمارستانات أو مشافى يشرف عليها فريق من الأطباء - الكهنة الذين كانوا يفحصون المرضى، ويقومون بأجراء العمليات الجراحية ويصفون العلاج، كما كان بالمعبد قسم لأعطاء النصح الربانى لأى نفس حائرة أو قلب معذب(٤٣).

لقد كانت المنطقة الواقعة حول منف تعج بالحيارى القادمين من كل بلدان البحر المتوسط كى يستشيروا قارئى الطالع والعرافين المصريين، فلقد كان بتاح - رب منف - يلهم فئة مصطفاة من أتباعه الأخيار الذين تخلوا عن المادة وتحلوا بالروح القادرة على قراءة الغيب بعد ان كشف عنهم الغطاء، وأصبح بصرهم من حديد، وهؤلاء كانوا من المتصوفة المعتزلة الذين وصلوا الى مرحلة التجلى أسمى مراحل الصوفية، ولا نعرف الأسم الذى كانوا يعرفون به فى اللغة المصرية، لكننا فقط نعرف الأسم الذى أطلقه الأغريق عليهم وتردد فى وثائق البردى وهو الكاتوخوى Katochoi وأغلب الظن أنهم كانوا الوسطاء بين العابد والمعبود الذى كان يبعث بمشورته لشفاء المرضى عن طريق الأحلام التى كان هؤلاء المعتزلة بتفسيرها عالمين.

كان الرب المعبود فى علم اللاهوت المصرى قوى سرمدية لاتفنى حتى وان فنى الوجود، ومن ثم فقد كان لديه القدرة على كشف المستور، ورؤية الواقع والأطلاع على ما يخبئه الغيب، غير أن بعض هذه المعبودات تميزت عن غيرها فى هذا الإختصاص. اذ يروى بروبرتيوس - أكثر الشعراء الرومان هجاءاً وأكثرهم اسفافاً وقذفاً فى حق الآلهة المصرية - بكل اعتزاز وفخر أن منجماً مصرياً هو الذى قرأ له طالعه(٤٤). كما يقول ديو كروسوستوم (ذو الفم الذهبى) فى خطابه لأهل الأسكندرية فى مطلع القرن الثانى الميلادى: «ان سيرابيس يتمتع بقداسة مميزة وتتجلى قدرته فى النبوءات والأحلام التى يوحى بها كل يوم(٤٥) ولما كان سيرابيس هو

فى الأصل عجل آبيس بعد أن يتحد بأوزوريس : فقد تطور فى العصرين البطلمى والرومانى نحو اتجاه جديد وهو قراءة الطالع عن طريق تفسير حركات العجول المقدسة ، سواء من جانب عجل آبيس فى منف أو عجل بوخيس فى قرية المدامود بالقرب من طيبة (الأقصر) حيث كان يقوم على خدمة هذه العجول فريق من الكهنة ـ العرافين ـ متخصصين فى تفسير حركاتها ، ولقد بهرت هذه الظاهرة شعوب البحر المتوسط ، فكانوا يشدون الرحال الى مصر ليقفوا فى خشوع صاغرين أمام هذه العجول المصرية بينما كانوا فى بلادهم يصارعوها ليقتلوها ، ولقد سبق الحديث عن مجىء ولى العهد جرمانيكوس الى مصر عام ١٩ م ووقوفه ذليلاً أمام عجل ابيس فى منف ، غير أن العجل اشاح وجفل منه ، وتوقع الكهنة حدوث كارثة للأمير المزهو بشبابه ، وللدهشة سقط الأمير صريع مرض غامض الم به بعد قليل ، وهو يزور الشام . وهناك نقش آخر عثر عليه فى قرية المدامود يروى أن أحد الأباطرة الرومان (وأغلب الظن أنه سبتميوس سيفيروس) وقف أمام عجل بوخيس يطلب المشورة الربانية وعلى العكس ما فعل عجل آبيس مع الأمير جرمانيكوس ـ أقبل عجل بوخيس على الأمبراطور واقترب منه مستأنساً به ، ولهذا وضع كاتب النقش على لسان العجل قوله للأمبراطور الرومانى :

[ان عرافتى لك هى أن اجيبك على كل ما تطلب ، وان قلبى سوف يكون فى خدمتك وهو فى اعالى مناطق النور[٤٦] .

ولقد كانت سيوة ـ فاتيكان العالم القديم ـ مقصد الحيارى من كافة أنحاء المعمورة حيث معبد زيوس ـ آمون الذى ذاع صيته كأهم مركز من مراكز إعطاء العرافة . ومن أجل قراءة مستقبله ، غامر الفاتح المقدونى بحياته فى رحلة غير مأمونه الجانب ، وسط بحر الرمال فى الصحراء ليحصل على ما يريح به فؤاده . وخلال القرون الثلاثة بعد الميلاد إزداد الطلب على العرافين وقارئى الطالع بعد أن هجرت الألهة الكبرى فى الديانات الوثنية بسبب تجمدها فى صيغ ثابته لاتتغير ، وفى شعائر روتينية تؤدى بطرق آليه عتيقة لاتعطى أى إهتمام لمتطلبات الناس العاطفية ولا لآمانيهم المكبوتة ، وتترك فى قلوبهم الخوف والرعب ولا تحميهم منه ، تحلق فى الملكوت الأعلى .وتذهب بهم إلى ماوراء الكون

السرمدى، بينما كان الإنسان - غنيا كان ام معدماً، إمبراطوراً كان أم معلوكاً - يبحث عمن يأخذ بيده، ويدله إلى طريق الخلاص وينقذه من القلق والحيرة، ويحقق له الطمأنينة والسلام مع النفس . بعيداً عن التعقيد اللاهوتى الوثنى البعيد عن الفطرة والبساطة التى جبل الناس عليها[٤٧]. ولذلك نلاحظ تناقص إعداد الكهنة، فقد بدأ إنسان ذلك العصر يتحول من العبادة الجماعية إلى التعبد الفردى، ومن الصلاة من أجل بقاء النظام الكونى يعمل بكفاءة، إلى الصلاة من أجل نفسه ومستقبله، ولذلك إنتشر علم التنجيم، وادخلت عليه طرق ووسائل لم تعرف من قبل فى علم الفلك، ووضعت خرائط تحدد مواقع النجوم، ورصدت مسارات الكواكب والأجرام، ونظمت فى منازل وأبراج طبقاً لرسوم موضوعه، وبينما كانت الديانة القديمة ترفض وجود أى علاقة بين نزول النجوم فى بروج، وبين مايحدث للإنسان فى حياته على الأرض« لآن قضاء الإنسان ومصيره » تسيره الآلهه وحدها، فهى التى تمسك بخيوط قدره وترسم له مستقبله. وتحدد له مصيره، غير أنه تحت ضغط المتطلبات الجديده انفتح الفكر الدينى المصرى على تيار الفكر الدينى القادم من بابل مع موجة الثقافة الهلليذستية، وأصبح يربط بين قدر الإنسان ومصيره . وبين نزول الكواكب فى أبراج معينة خاصة منذ مطلع حكم الرومان. فحسب ماورد فى إحدى البرديات الديموطيقية أصبح لون القمر ومنازلة تفسر لأول مرة فى مصر من أجل التنبوء بما سيحل بالبلاد والعباد وبالأفراد، وإستوعب المنجمون المصريون هذا الفن الجديد وأجادوه حتى اصبحوا أساتذه فيه، بل وأشهر عرافى العالم القديم. ولقد انعكس هذا التحول فى الأوراق البردية. فقد أصبح الإنسان يعتقد أنه عن طريق إستشارة الرب المعبود فأنه يتعامل معه مباشرة ودون وساطة من جانب الكهنة الذين كانوا يقفون حاجزاً عازلاً بين العابد والمعبود.

فقد كتبت أم تعاتب ابنها الغائب وتقول:

« إياك ان تظن أننى قد اهملتك إننى أستشير العرافة بخصوصك مرة كل عشرة ايام دون إنقطاع »[٤٨].

وفى قصاصة بردية يسأل رجل سوخوس التمساح المعبود متلهفاً:

« هل سأشفى من هذا المرض الذى ألم بى؟ أفصح لى عن ذلك[٤٩].

وتستشير إمرأة زيوس هليوس (زيوس - رع) عن نجاح صفقة فتسأل :

« إلى زيوس هليوس سيرابيس الأكبر وسائر الأرباب التي تشاركهم معبدهم تسال نيكى عما إنا إذا كان فى صالحى أن أشترى من تاسارابيون العبد الذى تملكه واسمه سارابيون ومعروف باسم جايون إعطنى هذا الرد(٥٠).

وإلى نفس ذلك الرب يتوجه رجل إسمه ميناندروس بهذا السؤال:

هل يسمح لى بالزواج افتنى فى هذا (٥١).

ولأن التساؤلات والمطالب متكررة ، وحفاظاً على سريتها ، فقد إبتكر القائمون على إعطاء العرافة طريقة جديدة وهى تسجيل جميع الأمانى والمطالب فى قائمة طويلة وإعطاء كل منها رقماً كودياً ، وما على طالب العرافة إلا أن يختار من القائمة الطويلة رقم الأمنية أو التعويذه أو سبب الحيرة ، ثم يدون الرقم على قصاصة من البردى دون ذكر أى شىء كتابة. وقد عثر على هذه القائمة فى أوكسيرينخوس(٥٢) ومن أمثلة هذه القائمة المكررة :

(٧٢) هل ساتسلم نصيبى ؟.
(٧٣) هل ساستقر حيث انا ذاهب ؟
(٧٤) هل سأباع ؟.
(٧٥) هل ساحصل على مساعدة صديقى ؟.
(٧٦) هل سيسمح لى أن أشارك فى تعاقد مع طرف آخر ؟.
(٧٧) هل ساصطلح مع ابى ؟.
(٧٨) هل ساحصل على أجازة ؟.
(٧٩) هل سأستلم النقود ؟.
(٨٠) هل يزال الغائب على قيد الحياة ؟.
(٨١) هل سأربح من العمل ؟.
(٨٢) هل ستصادر ممتلكاتى ؟
(٨٣) هل ساجد وسيلة للبيع ؟
(٨٤) هل ساتمكن من طرد مايدور فى ذهنى ؟.

(٨٥) هل سأنجح ؟

(٨٦) هل سأتحول إلى هارب ؟

(٨٧) هل سأذهب فى جماعة ؟

(٨٨) هل سأصبح عضواً فى المجلس ؟

(٨٩) هل لافائدة من هروبى ؟

(٩٠) هل سأطلق زوجتى ؟

(٩١) هل وضع أحدهم لى السم ؟

(٩٢) هل سأستعيد مالى ؟

ونلاحظ أن السؤال رقم ٨٦ والسؤال رقم ٨٩ كلاهما يدوران حول الهروب وهى ظاهرة تفشت بين الناس بسبب الأحباط أو الفشل أو عندما تتراكم عليهم الضرائب والإلزامات المالية بحيث يصبحون غير قادرين على الوفاء بها ، ولذلك تتعدد الاخطارات من الأهل «خرج ولم يعد» ولقد كان المسؤلون على تقديم العرافة يتقاضون رسوماً ، كما أنهم كانوا أغلب الظن على علم بحالة صاحب الحلم النفسية ، ويعرفون المشكلة التى يعانى منها وفى ضوء ذلك يقدمون الرد الذى يبعث الراحة والطمأنينة إلى نفسه الحائرة . كما كان هناك نوع من تفسير الأحلام يرتبط مباشرة بالرب المعبود فقد كان المصريون يعتقدون فى قدرة بعض الآلهة على شفائهم من المرض إذا ماقضوا ليلة يتعبدون داخل محراب الرب متضرعين أن يبعث لهم المعبود بحلم يكون فيه شفاؤهم . ولقد أشتهر الرب الوطنى إمحتب (والذى سماه الأغريق أموثيس وعادلوه بربهم إسكلبيوس) بشفاء المرضى عن طريق الأيحاء إليهم بالأحلام أثناء قضائهم ليلة فى معبده الواقع فى منطقة سقارة على حافة الصحراء بالقرب من منف ، وذكرت إحدى وثائق البردى عدداً من الكرامات والمعجزات التى أنزلها الرب على بعض المرضى ، فبرأوا من سقمهم[٥٣].

اليهودية والمسيحية :

ومن أهم التطورات الجديدة التى فرضت نفسها على ساحة الفكر الدينى إنتشار عقيدة التوحيد التى حمل مشعلها خلال القرون الثلاثة من الميلاد بنو إسرائيل فقد كانت هذه العقيدة قد تبلورت وتحققت على يد الفرعون الفيلسوف أمنحتب الرابع الشهير بأخناتون (١٣٧٩ إلى ١٣٩٢ ق.م) غير أنها إنهارت بعد موته لتبعث من جديد فى شكل رسالة سماوية حملها عبرانى مصرى إسمه مو - إسيسى أو موسى الذى وضع لاتباعه كتاباً ، اوحى به إليه وهو التوراة الأولى (الأسفار الخمسة) ، غير أن بنى إسرائيل إعتبروا هذه الديانة التى جاء بها موسى ديانة خاصة، ولخاصة الخاصة ، وهم اليهود ، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار الذى فضلهم على سائر العالمين ، ولذلك لم يحاولوا نشرها بين الأغيار Gentiles (أى غير اليهود) لأنهم إعتبروهم أدنى درجة منهم، لكنهم تمسكوا بها بشدة كتعبير عن هويتهم الفكرية والقومية . ويعتقد اليهود أن مصر هى الوطن الذى خرجوا منه حاملين خيراتها ، وخير خيراتها وهو التراث الحضارى ، ولهذا فضل كثير من اليهود العودة إليها بعد الفتح الفارسى ثم الفتح المقدونى ، وزاد نشاطهم فيها وتدفقهم عليها أبان حكم البطالمة ، وكان مركز تجمعهم ونفوذهم فى عاصمة البلاد : الاسكندرية ، حيث اختصوا بحى كامل مغلق عليهم هو حى « الدلتا » أو الحى الرابع ، وبعد ذلك التاريخ بدأوا يلعبون دوراً هاماً فى الحياة الإقتصادية ، كما كانوا لا يتوقفون عن السعى وراء المزيد من النفوذ السياسى والمالى ، وقد تحالفوا مع الأمبراطورية الفارسية ثم الأمبراطورية الرومانية فى مطلعها ، ثم ثاروا عليها فأنزلت بهم أشد العقاب وقد سبق أن عالجنا علاقه اليهود بالأمبراطورية الرومانية فى أكثر من موضع وموقع .

المسيحيــة :-

وإزاء عناد اليهود بأن التوحيد والتوراة شىء خاص بهم وحدهم ، فقد جاءت المسيحية فى القرن الأول الميلادى لكى تصلح ماأفسده اليهود ، ولتعلن عالمية التوحيد وليس قصره على بنى إسرائيل وحدهم ، ولقد

جاءت المسيحية إلى مصر بعد ظهورها بقليل فى فلسطين حيث بدأ التبشير بها سراً بين الجالية اليهوديةالمقيمة فى الاسكندرية(٥٤)، خاصة بين الساخطين على تصرف القيادات الدينية اليهودية العليا فى فلسطين، كما أن الجالية اليهودية فى مصر كانت إمتداداً روحياً وجغرافياً لأرض الميعاد وتعيش فيهم رغم أنهم لا يعيشون فيها، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت المسيحية تنتشر بين الأغيار، لكن المصريين كانوا أكثر الشعوب اقبالاً عليها لتشابهها فى كثير من الجوانب مع عقيدتهم خاصة فى فكرة البعث والقيامة، فقيامة المسيح شبيهة بقيامة أوزوريس بعد الموت، والتى كانت تمثل كل عام كشعيرة من شعائر الأحتفالات المقدسة وكرمز لدورة النبات: من البذرة إلى الثمرة، ومن الثمرة إلى البذرة التى تدفن فى الأرض بعد حصد النبات (أى بعد موته) ليبعث من جديد فى شكل نبات جديد، وهكذا دواليك. كما أن نظرية التثليث trinity فى المسيحية ماهى إلا صدى لفكرة الثالوث الدينى فى العقيدة المصرية.

ويعتبر ماركوس [أو مرقص كما عرف فى تراجم الأنجيل إلى العربية] مؤلف أقدم الأناجيل الأربعة، والذى عاش فى عصر الأمبراطور نيرون (٥٤ - ٦٨ م)، وزار الاسكندرية، والقى موعظة فيها، لكن الغوغاء الوثنية هاجمته وفتكت به، ومن ثم إعتبرته كنيسة الاسكندرية مؤسسها وسمت نفسها الكرازة المرقسية نسبة إليه، واعتبرته أول أسقف عليها، وتلاه سلسلة طويلة من الآباء البطاركة الذين توالوا على كرسى البابوية، ومن الاسكندرية تشعبت الكنيسة إلى عواصم الأقاليم، ففى منتصف القرن الثانى ظهر أسقفان فى أثنين على الأقل من هذه العواصم، ومنذ نهاية القرن الثالث ظهرت كنيستان فى أوكسيرينخوس من بين أماكن العبادات المتعددة فى المدينة. ويرجع تاريخ أقدم شذرة بردية إختصت بالاناجيل وباقى الكتب المسيحية الأخرى عثر عليها فى قرى ومدن مصر الوسطى والعليا إلى حوالى عام ١٠٠ م أو بعد ذلك بقليل، وأقدم الكتابات المسيحية ذات الطابع الفلسفى اللاهوتى نجده فى خطاب محفوظ الآن فى كلية وودبروك Woodbrok College بمدينة بيرمنجهام بأنجلترا(٥٥)، والذى يعتقد دارسوه أنه كتب فى مطلع القرن الثالث الميلادى، ويدور حول بعض النظريات الغنوسية التى كانت شائعة وقتذاك بين المسيحيين الأوائل فى

مصر(٥٦). أهمها أدماج الثالوث المتكون من الأب والأبن والروح القدس في ثنائي يتكون من الأب والروح القدس فقط. ولمدة مائة عام أو يزيد منذ ظهورها، ظل الرومان ينظرون إلى المسيحية على أنها مذهب فئة منشقة عن المعبد اليهودي، ولها أراء يهودية متطرفة. فبعد رفع المسيح بقرن تقريباً كتب الأديب الروماني سويتونيوس Suetonoius يقول:

Iudaeos impulsare Chresto assidue tumultuantis Roma expulit.

«ولما كان اليهود يحدثون أعمال شغب لا يتوقف بسبب تحريض المسيح، فقد قام [كلاوديوس] بطردهم من روما»(٥٧)

أن كلمة كريستوس Chrestos استهجاء خاطيء لكلمة Christos التي تعني الممسوح بالزيت المقدس كنوع من التطهير والتكريس. كما أن نظرية المخلص المنتظر كانت غريبة تماما عند مفهوم الديانات الوثنية حتى عند أبناء الطبقة المثقفة من الرومان من أمثال سويتونيوس الذي أعتبر المسيح زعيماً لاحدى الفرق اليهودية التي كانت تعرف بأتباع كرستوس. إلا أن كل المصادر تؤكد أن الذي وحد بين أفئدة قلوب المسيحيين وجمع كلمتهم هو الأجماع على معتقدات وشعائر ذات طقوس معينة، ورموز سرية، ولغة خاصة وهي اشبه بممارسة السحر الشعوذه(٥٨)، ولذا اعتبرهم الرومان ضمن زمرة اعداء الأمبراطورية، وجعلوهم كبش الفداء للتنفيث عن كل أنواع المشاكل والأحباطات التي كانوا يعانون منها خاصة في الولايات وعلى يد الغوغاء. إذ يقول عالم اللاهوت المسيحي ترتوليانوس في كتابه الابولوجيا Apologia والذى كتبه حوالي عام ٢٠٠ م:

«لو فاض نهر التيبر ووصل حتى الأسوار، لو عجز فيضان النيل عن أن يصل إلى الحقول، وإذا لم ترعد السماء [لكي تمطر] أو إذا رجت الأرض رجاً، أو إذا قامت مجاعة، او إندلع وباء، ترتفع الصيحات: «إلقوا بالمسيحيين للأسود الضارية(٥٩).

لم يكن في مقدور الأدارة الرومانية لمصر أن تتجاهل أو تتباطىء في تنفيذ أوامر التعذيب والأضطهاد خاصة إذا صدرت من جانب الأمبراطور الروماني نفسه لكن الحق يقال ليس هناك أى دليل موثوق فيه أن أحداً من الاباطرة الرومان قبل عصر ديقيوس قد أصدر أوامر لاضطهاد المسيحيين. فالابحاث العلمية التاريخية فندت مزاعم الأدب المسيحي الذي

بالغ فى تصوير الشهداء من المسيحيين على ايدى الأباطره إلى حد إتهام اكثر الأباطرة تسامحا وتعاطفا مع الشرق الأدنى وشعوبه وهم أباطرة الأسرة السيفيرية باللجوء إلى عمليات اضطهاد المسيديين . أن عمليات الأضطهاد لم تبدأ إلا عند إقتراب القرن الثالث الميلادى ، ومصدر هذا الاضطهاد والعداء لم يكن بسبب عناد المسيحيين الأعمى ، أو حبهم للجدل اللاهوتى والخلاف الطائفى ، انما كان بسبب رفضهم الأعتراف بالوهية الأمبراطور ، وكذلك بسبب انتشار المسيحية داخل صفوف الجيش ، ودعوتها للجنود والضباط بترك خدمة الأمبراطور الوثنى والتفرغ لخدمة خالق الكون والأنسان ، فى وقت كانت فيه الأمبراطورية فى حاجة ماسة للجيش لصد الهجوم الذى كان البرابرة يشنوه عليها .

صدر أول قرار يأضطهاد المسيحيين عام ٢٤٩ م خلال حكم الأمبراطور ديقيوس Decius الذى كان قصيرا حتى لا يتذكره أحد إلا بأصداره ذلك القرار . لقد ألزم ذلك القرار كل بالغ أو بالغة مهما كان عمره أن يشارك فى عبادة الأمبراطور ، وأن يقوم بتادية بعض طقوسها فى حضور وكلاء عينوا فى القرى والمدن من أجل هذا الغرض والتوقيع على شهادة بأن ذلك قد تم فى حضورهم ومن يرفض أو يتخلف عن ذلك يعتبر معتنقا لديانة معادية للأمبراطورية وتدعو لهدمها . أما من إلتزموا بالقرار فكانوا يمنحون بطاقة Libellus (وجمعها بطاقات Libelli) ، وأغلب هذه البطاقات كانت مدونة على قصاصات صغيرة من ورق البردى يحملها الشخص إينما ذهب لإبرازها عند الطلب ولقد عثر على عشرات منها فى مصر فقط . أما الصيغة المدونة عليها فتكاد تتفق ولا تختلف عن بعضها البعض الا فى أشياء صغيرة . ففى إحدى البطاقات المدونة فى ٢٧ بؤونة [٢١ يونيو] عام ٢٥٠ م جاء فيها ما يلى :

«إلى مسئولى الإضاحى لقرية ثيادلفيا [بطن إحريت بالفيوم] من أوريليا بللياس إبنة بتيريس ، وإبنتها كابينيس . لقد قمنا بتقديم كافة المطلوب منا من اضاحى الى الآلهة . وفى حينه فى حضوركم ، وإكمالاً للإلتزام بالقرار لقد سكبنا الأراقة ، وقدمنا الأضحية ، وتذوقنا من الأضحيات المقدمة . ولذا فانا نطلب ان توقعوا أدناه لنا بذلك[٦٠] .

[كتابة بخط آخر] نحن اوريليوس سيرينوس واوريليوس هرماس لقد شاهدناكما تقدمان الأضاحى ٢٧ بؤنه .

لقد أودت عمليات الأضطهاد الظالمة التى قام بها ديقيوس بحياة الكثيرين من بينهم عالم اللاهوت المسيحى الشهير اوريجينيس Origines أحد مواطنى مدينة الأسكندرية ، ولقد استمر الاضطهاد عامين حتى سقط ديقيوس قتيلا فى إحدى معاركه مع القوط الذين حاولوا غزو الأمبراطورية . ولقد توقفت عمليات الاضطهاد بعد موته إلا أنها كانت تندلع من أن لآخر على فترات متقطعة . وبعد عقد من موت ديقيوس ، صدر قرار الأمبراطور جاللينوس Gallienus بوقف عمليات الإضطهاد نهائيا ، وذلك لكى يضمن وقوف المسيحيين الى صفة فى صراعه من أجل العرش ، فى وقت كان فيه القوط يدقون أبواب الأمبراطورية . فقد سمح فى قراره هذا بحرية العقيدة ، وتعدد الديانات فى الأمبراطورية ، وأن يكون من بينها المسيحيون ، الذين أصبحوا يمارسون شعائرهم فى حرية تامة ، غير أن زعماء النحل والملل المسيحية بدأوا يضطهدون بعضهم بعضاً بسبب الخلاف فى وجهات النظر الذى تحول إلى نزاع دموى بسبب الإختلاف فى تفسير العقيدة ، خاصة بعد صدور مرسوم ميلان عام ٣١١ م وتلاه اعتناق الأمبراطور قنسطنطين المسيحية عام ٣١٢ م .

الأعياد والمهرجانات :

تعتبر الأعياد الدينية والسياسية ، وكذلك المهرجانات الثقافية والرياضية من أهم مظاهر الحياة الأجتماعية فى تاريخ الأمم والشعوب ولقد عرفت مصر القديمة هذه الأعياد التى تنطلق فيها مشاعر الفرح والبهجة ، وتدفن فيها الهموم ، فتغسل النفوس من كل ما كان يؤرقها حتى تعود صافية تقبل بعدها الأمة برضى على الكد والكفاح . وكان الفراعنة يحرصون على تسلية الشعب والتسرية عنه بأقامة مثل هذه المهرجانات التى تزين فيها المعابد والأبنية العامة ، ويتجمع الناس يغنون ويرقصون ويقوم السحرة والحواة بعرض مهاراتهم على الجمهور المبتهج والمنبهر بما وصل اليه إعجاز السحر المصرى ، فقد كان المصريون يعتقدون أن سحرهم لن يقدر على قهره أحد ، وأن السحر المصرى مسخر لحماية مصر من اعدائها ، فكما أن هناك حروباً بين الجيوش الغازية ، هناك حروب بين السحرة الأعداء وبين السحر المصرى القوى المتين . ولعل الأشارات التى أوردها القرآن الكريم عن المباراة بين السحرة المصريين وبين موسى

واخيه هارون اللذين إعتبرهما الفرعون ساحرين عبرانيين قدما يتحديان السحر المصرى فى عقر داره تشهد على ذلك ولما إنتصر موسى بسحرة خروا له ساجدين . فقد ورد حوار شديد الدقة فى سورة طه بين الفرعون وبين موسى لابد من ذكره :

بسم الله الرحمن الرحيم :﴿٥٦﴾ . قال اجئتنا من ارضنا بسحرك ياموسى﴿٥٧﴾ فلناتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لانخلفه ، نحن ولا انت مكاناً سوى﴿٥٨﴾ قال موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى﴿٥٩﴾ فتولى فرعون فجمع كيده ثم اتى﴿٦٠﴾ قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من إفترى﴿٦١﴾ فتنازعوا امرهم بينهم واسروا النجوى﴿٦٢﴾ قالوا إن هذا لساحران يريدان ان يخر جاكم من ارضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى﴿٦٣﴾ فاجمعوا كيدكم ثم إئتوا صفاً وقد افلح اليوم من إستعلى﴿٦٤﴾ قالوا ياموسى إما ان تلقى واما ان نكون اول من القى﴿٦٥﴾ قال بل القوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم انها تسعى﴿٦٦﴾ فاوجس فى نفسه خيفة موسى﴿٦٧﴾ قلنا لا تخف إنك انت الأعلى﴿٦٨﴾ والق ما فى يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولايفلح الساحر حيث اتى﴿٦٩﴾فالقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى﴿٧٠﴾ قال : آمنتم له قبل ان إذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولاصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن اينا اشد عذابا وابقى.

(صدق الله العظيم) .

لقد إختار موسى يوما هاماً فى حياة مصر ليكون موعداً للمباراة الكبرى المرتقبة بينه وبين السحرة المصريين وهو يوم الزينه أى يوم عيد هام فى حياتهم وفى سورة الشعراء يؤكد القرآن الكريم ماحدث بطريقة أخرى فيقول :

بسم الله الرحمن الرحيم :﴿٢٨﴾ قال لئن اتخذت إلاهاً غيرى لا جعلنلك من المسجونين﴿٢٩﴾ قال اولوجئتك بشىء مبين﴿٣٠﴾ قال فات به ان كنت من الصادقين﴿٣١﴾ فالقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين﴿٣٢﴾ ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين﴿٣٣﴾ قال للملأ حوله ان هذا لساحر عليم﴿٣٤﴾ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تامرون﴿٣٥﴾ قالوا ارجه واخاه وابعث فى المدائن حاشرين﴿٣٦﴾ ياتوك بكل سحار عليم﴿٣٧﴾ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴿٣٨﴾ وقيل للناس هل انتم مجتمعون﴿٣٩﴾ لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين﴿٤٠﴾ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴿٤١﴾ قال نعم وإنكم اذاً لمن المقربين﴿٤٢﴾ قال لهم موسى القوا ما انتم ملقون﴿٤٣﴾ فالقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن

الغالبون﴿٤٤﴾ فالقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يافكون﴿٤٥﴾ فالقى السحرة ساجدين﴿٤٦﴾ قالوا ءامنا برب العالمين﴿٤٧﴾ رب موسى وهارون﴿٤٨﴾ قال ءامنتم له قبل ان ءاذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولأصلبنكم اجمعين﴿٤٩﴾ قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون﴿٥٠﴾.

وبسقوط حكم الفراعنة ووقوع مصر فى قبضة المقدونيين ثم الرومان اختفت الأعياد التى كان يحتفى بها بالفرعون، وحلت محلها أعياد سياسية جديدة. ففى عصر البطالمة كانت هناك عدة أعياد سياسية كعيد الجلوس أو الباسيليا، وأعياد أخرى سياسية كعيد الخلاص (سوتيريا) وغيرها، بينما بقيت الأعياد الدينية المصرية يحتفل بها المصريون مثل عيد رأس السنة الجديده، وعيد الزواج المقدس بين ايزيس وأوزوريس، وعيد انتصار حورس على اعدائه، وعيد التتويج(٦١) وبمجىء الرومان وعقليتهم التى تسخر الدين لخدمة السياسة، فرضوا اعياداً سياسية عديدة لتوكيد سيادتهم على مصر مثل: يوم مولد الأمبراطور، ويوم توليه العرش، وذكرى الانتصارات الكبرى للأمبراطورية الرومانية، وعيد ميلاد يوليوس قيصر، وابنه بالتبنى اكتافيوس اغسطس، بل ضمت قائمة الأعياد السياسية كافة الأباطرة وزوجاتهم الذين اعترف بالوهيتهم وهم: كلاوديوس، فسباسيانوس، تيتوس، نرفا، تراجانوس، ماركيانا Marciana ابنه تراجانوس وماتيديا Matidia (ابنه أخيه) وأفلوطينا Plotina زوجته، وهادريانوس، وزوجته سابينا، أنطونينوس بيوس وزوجته فوستينا الكبرى Faustina، ولوكيوس فيروس، وماركوس اوريليوس، وفاوستينا الصغرى زوجته، ثم أضيف فى عام ٢٢٤ م إلى القائمة كل من كومودوس، وبرتيناكس، وسبتيميوس سيفيروس، وأخيرا كاراكالا(٦٢) وفى كل هذه الأعياد تأمر أجهزة الأدارة بأصدار مرسوم بأقامة الزينات والاحتفالات المناسبة، وفى كثير من الحالات كان حاكم الأقليم هو الذى يترأس الاحتفالات فى اقليمه، إذ تذكر لفافة بردية مؤرخة عام ٢٣٢ م أن استراتيجوس الأقليم قام بتنصيب رئيس جمنازيوم يوم عيد رأس السنه المصرية (أول توت = ٢٩ أغسطس)، ثم قاد الشعائر وتقديم الأضاحى فى الجمنازيون وفى معبد القياصرة، بعدها غادر عاصمة الأقليم ليتفقد باقى اجزائه ولحضور الشعائر والطقوس والمسيرات الدينية المعتادة(٦٣).

اما فى المدن الأغريقية الأربع : نقراطيس والأسكندرية وبطلمية وانطينوبوليس ، وكذلك فى عواصم الأقاليم المدعية بأنها اغريقية ، فقد حرصت على اقامة المهرجانات الرياضية والثقافية حيث تجرى المساجلات الأدبية والموسيقية ، وتقام العروض المسرحية على نهج ما كان يحدث فى المدن الأغريقية فى اليونان خاصة فى مدينة أثينا فى العصر الكلاسيكى ، غير أن الفرق الوحيد بينهما هو أن المشاركين فى هذه المسابقات من ممثلين ورياضيين لم يعودوا هواة بل محترفين يتقاضون اجوراً عن دخولهم فى المباريات ولا يتقيدون بمدينة معينة ، بل يسافرون من مكان إلى مكان طوال العام للأشتراك فى المباريات والمنافسة مع الرياضيين الأخرين سواء كانوا ملاكمين أو عدائين أو مصارعين وغيرهم لحصول على جوائز البطولة من أجل ذاتهم وليس من أجل المدينة التى ينتمون إليها . كان البطل الفائز يكتسب شهرة وتكريما بالأضافة إلى الجوائز والهبات وبعض مظاهر التقدير مثل : الأنعام عليه بالقاب التكريم ، والأعفاء من دفع الضرائب ، واداء الخدمات الألزامية ، بل ومنحهم حقوق المواطنة فى المدن الأربع خاصة الأسكندرية . ولقد قلدت مدن عواصم الأقاليم فى مصر الأسكندرية (ثم أنطينوبوليس فيمابعد) وساروا فى خطى التقاليد الأغريقية الكلاسيكية ، ففى مدينة أو كسير ينخوس تبرع مواطن ثرى بمبلغ كبير من المال كان يكفى لأقامة المباريات بين الشباب على النحو والأسلوب الذى كانت تقام به فى مدينة أنطينوبوليس ، وهناك قائمة لفاعليات المدينة الثقافية بين أعوام ٢٦١ - ٢٦٨ م سجلت قائمة بأسماء المشاركين الذين قاموا بعروض فى القاء الشعر ، والعزف على المزمار ، والتحكيم الرياضى ومن الطريف أن اثنين من الفائزين كانا يبلغان الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرهما . كما بلغ أحد الشعراء الفائزين الخامسة عشرة . وللأسف لم تصل الينا القصيدة التى دخل بها المباراة أو حتى جزء منها . والأكثر دهشة أن فائزاً فى مباراة الشعر بلغ التاسعة عشرة ووصف بأنه لايزال فى مرحلة تعلم الكتابة(٦٤) مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن هذه المباريات كانت تقام لأكتشاف القدرات الذهنية وعلامات النبوغ المبكر بين الشباب فى حضور آبائهم الفخورين بهم . كما عثر فى أو كسير ينخوس على وثيقة بها بعض حسابات النفقات التى أنفقت خلال أيام الاحتفالات والأعياد . ففى عيد ديونيسوس منحت

مكافآت مالية لأحد الحكام، ولعازف مزمار، ولممثل كوميدى (مونولوجست) ولبعض الأفراد الذين ذكروا بالأسم، ولشراء دم عجل من أجل الأضحيه(٦٥). أما فى عيد سيرابيس فقد سجلت قائمة الأجور ما تقاضاه راقص، واثنان من الفائزين فى الرياضة الخماسية (الملاكمة والمصارعة والجرى ورمى الجلة والقفز العالى) وكذلك إلى مدلك رياضى، وكوميدى، وحكم، ومصمم رقصات، ومنشد، ومداح، ومبلغ لشراء بعض الطعام الشهى للرب «ذى رأس الكلب» ويقصد أنوبيس(٦٦). وفى قائمة حساب أخرى دفع مبلغ لعدد من الممثلين بلغ ٤٩٦ دراخما للقيام بعرض تمثيلى صامت (بانتوميم)، وكذلك مبلغ ٤٤٨ دراخما إلى منشد أشعار، ومبلغ أخر تراوح ما بين ١٠٠ إلى ٢٠٠ دراخما لراقصه، وآخر لأحد الموسيقيين، و٧٦ دراخما لحملة تمثال رب النيل وباقى المعبودات فى المهرجان، و٤ دراخمات لعازف بوق، بالأضافة إلى عدد آخر من النفقات لانعرف بنود انفاقها(٦٧).

وتقليدا لأسلافهم الأغريق وتقاليدهم، اهتم سكان المدن الأربع، وكذلك عواصم الأقاليم ببناء المسارح لعرض روائع الأدب الكلاسيكى عليها. وفى التراجيديا كانت مسرحيات الشاعر الأثينى يوربيديس هى المفضلة لديهم، بينما فى الكوميديا كانت ملاهى ميناندر هى الأكثر شعبية. كما كان يقام على المسارح حفلات لعزف الموسيقى، ولا ندرى درجة التبذير أو التقتير فى نفقات المدن الأخرى على هذه المهرجانات إلا أن إحدى الوثائق تسجل أن نفقات المسرح فى شهرين فقط بلغت ٦٠٠٠ دراخما(٦٨).

كان الرياضى الفائز ينتخب عضواً فى نقابة الرياضيين المتجولين والتى كان مركزها مدينة روما، وكانت تتخذ من البطل الأغريقى هرقل حاميا لها، أما الفائزون فى مباريات الشعر والتمثيل والموسيقى فكانوا ينتخبون لعضوية مؤسسة الفنون الاستعراضية، ومقرها أيضا مدينة روما، وتتخذ من الرب الأغريقى ديونيسوس (باخوس) حاميا لها.

لقد كانت الأعياد فى مصر كثيرة ولا تتوقف طوال السنة، وبعضها كان يستمر لعدة أيام، وكان حجم الاحتفالات وعدد أيامها يختلف حسب

اهمية العيد ، فالاعياد الكبرى كانت تقتضى مهرجانات كبرى تستمر لبضعة أيام كالتى ذكرناها ، أما الأعياد أو المناسبات الصغرى فكانت تقام فيها مهرجانات متواضعة من الموسيقى والرقص . كما كان الاغنياء الموسرون يقيمون فى قصورهم الفارهة حفلات ساهرة ، ترفيها لهم ولأصدقائهم مثل ما تقول هذه الوثيقة التى ترجع إلى نهاية القرن الثالث الميلادى :

« الأوريليون : أجاثوس رئيس الجمنازيوم ، ورئيس المجلس المحلى القائم بالعمل ، وهرمانوب آمون الأكسيجيتيس ، وديديموس الكاهن الأكبر ، وكوبرياس كوسميت مدينة يورجيتيس [ارسينوى عاصمة الفيوم] إلى الأوريليين[٦٩] يورنياس ممثل ، وساراباس منشد اشعار هومرية سلام . اقدما فورا بطريقتكها المعتاده للمشاركة فى العيد ، وللاحتفال معنا بمهرجاننا التقليدى بمناسبة يوم ميلاد كرونوس [أحد ألهة التمساح فى الفيوم الذى عودل برب الزمن كرونوس عند الأغريق][٧٠] الرب عظيم العظمة . والعرض سوف يبدا من الغد العاشر من الشهر ويستمر لعدد معين من الأيام . وسوف تتقاضون الأجور والهدايا المعتادة . وقعته انا (أى أجاثوس) انا هرمانوب آمون الاكسيجيتيس أصلى من اجل عافيتك ، انا كوبرياس أصلى من[٧١] أجل عافيتك .

لقد كانت هذه الأعياد مناسبة لجذب الناس وأمتاعهم وتسليتهم كجزء مكمل للشطر الخاص بالشعائر ، وكانت أعياد المصريين تبدأ بالترانيم والابتهالات تتبعها المسيرات والمواكب التى تحمل خلالها الصور والتماثيل المقدسة ، وتتصاعد من المباخر أطيب البخور والافاوية وغيرها من الطيوب المجلوية من أفريقيا وبلاد العرب . كما كانت تصنع احتفاء بهذه المناسبه الفطائر ، كما يقدم عسل النحل والنبيذ والجعة وغيرها من الاطعمة الشهية ، والمشروبات المفضلة لكهنة المعبد كأحد حقوقهم التى تكفلها لهم وظائفهم وقد شملت قائمتان الاشياء المطلوبة للاحتفال بمهرجانين القائمة الأولى قدمت إلى حاكم الأقليم ، والثانية إلى نائب قائد الحامية الرومانية المعسكرة فى الأقليم ، وتقول القائمة الأولى التى ترجع الى القرن الثانى الميلادى :

« لوازم الاضاحى على شرف النيل عظيم القداسة فى ٣٠ بوءونه [٢٤ يونيو] عدد ١ عجل ، عدد ٢ جرة من نبيذ طيب الرائحة ، عدد ١٦ فطيرة ،

عدد ١٦ اكليل زهور عدد ١٦ قرن صنوبر ، عدد ١٦ كعكة ، عدد ١٦ فرع نخيل غض ، ١٦ بوصة غاب ، زيت ، عسل نحل ، لبن وكافة أنواع البخور ما عدا اللبان(٧٢) .

أما القائمة الثانية فترجع إلى أواخر القرن الثالث الميلادى وجاء فيها

جريا على العادة من أجل اضاحى شهر هاتور الحالى [مطلوب] عدد ؛ طيور داجنة ، عدد ١ خنزير صغير ، عدد ٨ بيضه ، عدد ٨ قرون خروب . عدد ٢ جرة نبيذ كميات قليلة من عسل النحل ، لبن ، زيت الزيتون ، زيت السمسم ، عدد ٨ أكليل زهور (٧٣) .

وكان حملة السلال . المقدسة يحملون هذه اللوازم لتوصيلها فى موكب مهيب الى المعبد ، حتى القرى الصغيرة كانت لها مواكبها الدينية التى تجوب أزقة القرية وحاراتها وهم يغنون وينشدون لأمتاع المشاركين والمتفرجين من النوافذ ، وأسطح المنازل ، وكثيرا ما كانت يحدث حوادث مؤلمة بسبب التزاحم والتجمهر . فقد سبق أن أشرنا الى بلاغ عن سقوط عبد يبلغ من العمر ثمانية أعوام من سطح بيت لأنه كان .. يحاول التفرج على راقصة صاجات تجوب وفرقتها حوارى القرية إحتفالاً بمهرجان دينى (٧٤) .

وتجىء الأعياد وتذهب ، وينفض السامر ، وتطفأ القناديل والمسارج ، وترفع الأكاليل ، وتطوى الاحزان على من راحوا ضحية التزاحم والتجمهر ، وتهدأ الضوضاء ، وتنحسر مظاهر البهجة ، ويتقاضى الراقصون والموسيقيون أجورهم ، ويرحلون عن القرية قاصدين قرية أخرى على وشك أن تبدأ احتفالاً خاصاً بها ، ويعود المحتفلون الى أعمالهم : الرجال بماشيتهم الى الحقول ، والحرفيون إلى حوانيتهم يعملون .. وتبدأ عجلة الحياة فى العودة الى الدوران .

هوامش الفصل الخامس

(١) أنظر سليم حسن ، المرجع السابق ، جزء ١٦ ، ص ٧١١ - ٧١٢ .
Plutarchus, De Iside et Osoride, 72.

(٢) وكذلك ترجمة حسن صبحى البكرى ومحمد صقر خفاجة السابقة .
Aelianus: De Natura Animalium, x,24

(٣) N. Lewis, op cit, p. 84.

(٤) Herodotus, II, chapter 59 and 156.

(٥) S.B. 10173 a = SEG, xx, no 670

(٦) P, Merit 63= P.Oxy §782.

(٧) N.Lewis ibid.

(٨) P. Oxy. 1380

(٩) Diodorus, Book,I, Chapter 25.

(١٠) Lewis, op cit. p 87.

(١١) S.B. 3924= Select Papyri, vol II no. 211

(١٢) وكذلك انظر ترجمة عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ص ٧٨ - ٧٩ ، وعن زيارة جرمانيكوس لمصر أنظر : Tacitus, Annales, 11,59

(١٣) B.G.U 362= Select Papyri,II, 404 (col. 6-8) Lewis pp 88-89.

(١٤) P.Oxy 1021= B.G.U 646= Select papyri, II, no 235 (pp138-139)
P.Oxy 222.

(١٥) Dio Cassius, Book 51, Chapter 16.

(١٦)

(١٧) (عبد اللطيف أحمد على ، المرجع نفسه ص ١٦٢ - ١٦٣ =)
Juvenal, Satire, XV, 1-8.

(١٨) (عبد اللطيف أحمد على نفس المرجع ص ١٢ =)
P. Tebtunis 33 = Select Papyri , vol II, 416.
Herodotus, II, 148; H. Kees in Pauly Wissowa, XII, 324.

(١٩) B.G.U, vol.5

(٢٠) Herodotus, II, Chapter 59

(٢١)

(٢٢) انظر مقالى فى : مصر وعالم البحر المتوسط ص ١٢
B.G.U 1199

(٢٣) P. Tebtunis 243= B,G,U 347

(٢٤) S.B. 16= P.Tebt. 314

(٢٥) N. Lewis, op. cit. p 93

(٢٦) Lewis, op cit, p 95.

(٢٧) P.Lond. (literary7 no 239.

(٢٨) كانت مروى (جبل البرقل) عاصمة النوبة القديمة تقع على النيل الأبيض

(٢٩) إلى الجنوب من منطقة المقرن الحالية بالقرب من الخرطوم حيث يلتقى النيل الأبيض

بالنيل الأزرق ويتحدان فى مجرى واحد يقطع مسيرة ألف كيلومتر ليصل إلى مصر، وكان المصريون يشيرون إليها دائما كمنبع لنهرهم العظيم.

(٣٠) مقدار الست عشر ذراعاً فى مقياس النيل تمثل الحد الأمثل للفيضان الوفير فإذا زاد عن ذلك تحول إلى كارثة تغرق البلاد وإذا قل عن ذلك سبب القحط والمجاعة والوباء انظر جمال حمدان: المرجع نفسه ،ص ٥٩ ، ص ١٦١ .. ١٦٢.

(٣١) S.E.G, viii, nos 548-549; P.Oxy 1830.

(٣٢) Antes: Observations on Manners and Customs of the Egyptians. Dublin, 1891, 78-79.

(٣٣) أنظر مصر وعالم البحر المتوسط ص ١٥

(٣٤) نفس المقال ونفس الصفحة

(٣٥) انظر: يوسف سليم الدبيس: أهل التوحيد «الدوز» وخصائص مذهبهم الدينية والأجتماعية، الجزء الأول، لبنان ١٩٩٢ ص ١٢٥

(٣٦) Herodotus,II, 136.

(٣٧) Wilcken. U.P.Z I= H.I. Bell: Cults and Creeds in Graeco Roman Egypt, Liverpool. University Press, 1952 pp3-4.

(٣٨) ورد فى الاساطير اليونانية أنها إبنة أحد أنصاف الألهة وإسمه فوركوس Phorcus، اشتهرت بجمال شعرها الذهبى، هام بها بوسيدون - رب البحار - حباً، وانجبت منه ابنها بيجاسوس الذى كان فى شكل الفرس المجنح، وقد أغضب تصرفها اثينا الربة العذراء - الخصم الأول ليوسيدون - فعاقبتها بأن حولت شعرها إلى حيات وثعابين، وحولت عينيها الجميلتين إلى عينين جاحظتين تقطران حقداً وبهما قوة من الشر قادرة على تحويل من ينظر إليها إلى حجر. وأخيرا جاءت نهايتها على يد البطل برسيوس الذى أعارته الربة اثينا درعها وتمكن من قطع راسها وهو يدير وجهة عنها، ومن قطرات دمها تولدت الحيات والأفاعى. وكانت صورة رأسها ترسم لدرء اعين الحاسدين سواء على الاسلحة أو المنازل.

(٣٩)

(٤٠) P.Oxy 1151

(٤١) Lewis, op cit, p 45

J. E. A, vol. 15 (1929), Plate xxx1,1, Archiv für Papyrusforschung, 5.(1913) P. 393 .

(٤٢) Lewis, hid, P 45.

(٤٣) مصر وعالم البحر المتوسط ص ٢٨.

(٤٤)

(٤٥) Propertius, IV, 4, 78.

Dio Chrystomos, Orationes, 32, Section 12.

(٤٦) E. Droiton, Rapport Sur Les Fouilles de Madamud, Les Inscriptions, Fouilles de l'Institut Francaise d. Archeologie Orientale 1925 (1926)

(٤٧) H. I Bell. 'Popular Religion in Graeco-Roman Egypt, J. E. A, vol xxiii, (1937). P 146, and J. E. A. vol xxxiv (1948), P 82 ff.

(٤٨) P. Merit 81.

(٤٩) B. G. U. 229

(٥٠) P. Oxy 1149

(٥١) P. Oxy. 1213

(٥٢) P. Oxy. 1477

(٥٣) P. Oxy. 1381

(٥٤) J. Ferguston: The Religions of the Roman Empire, Thames & Hudson, London, 1970, p 127 f.

(٥٥) P. Harris 107.

(٥٦) J. Ferguston, op. cit p. 128-129

(٥٧) Suetonius. De Vita Caesarum, Liber V. Divus Claudius, chap. 25, (translated by J. C. Rolfe,) vol II , Loeb Classical Liberary (1914) p 52.

(٥٨) R. Macmullen. Enemies of the Roman Order, Harvard University Press 1967, p 152; M. Smith, Jesus the Magician, New York, 1978, Passim.

(٥٩) Tertulianus, Chapter 25.

(٦٠) cf. Winter, op cit, P 140-141

(٦١) سليم حسن المرجع السابق جزء ١٥ ص٢٣٦ - ٢٦٣ .

(٦٢) J. Ferguston, op cit, pp 95- 96.

(٦٣) P. Par 69 = W. Chrest, 41, ii.

(٦٤) P. Oxy 705 = W. Ehrest. 153.

(٦٥) P. Oxy. 2338.

(٦٦) S. B. 7336.

(٦٧) P. Oxy 519 = W Chrest. 492 = Select Papyri, II, no 402 (pp. 522-525).

(٦٨) Lewis, op. cit, p 104.

(٦٩) يعنى مصطلح الأوريليون أن كلاً من المذكورين فى الوثيقة قد حصلا على حقوق المواطنة الرومانية طبقاً لقرار الأمبراطور ماركوس، اوريليوس انطونينوس Marcus Aurelius Antoninus الشهير باسم كاراكالا والصادر عام ٢١٢ م إذ أصبح الذى يحصل على حقوق المواطنة بمقتضى هذا القرار يضيف إلى اسمه الأول لفظ أوريليوس ، أما النساء فكن يضفن إلى اسمائهن لفظ اوريليا تيمنا باسم أسرة (nomen) هذا الأمبراطور .

(٧٠) cf. Select Papyri, vol. I, no 353, note b, p 423.

(٧١) P. Oxy 1025 = W. Chr. 493 (late 3rd Century).

(٧٢) P. Oxy. 1211 = Select Papyri, vol II, no. 403 (pp 524-525).

(٧٣) P. Oxy. 2797.

لاحظنا أن أكل لحم الخنازير كان محرماً في الديانة المصرية وهذا يعني أما أن المصريين تراجعوا عن هذا التحريم بعد اختلاطهم بالأغريق وظهور جيل مهجن، أو أن كاتب الوثيقة ينتمى إلى أصول أغريقية تبيح أكل لحم الخنزير بل تفضل تقديمة فى القرابين الدينية .

(٧٤) P. Oxy. 475 = W. Chr. 494 = Select Papyri, II no 337.

الفصل السادس

النشاط السكانى

(أ) الزراعة

فيضان النيل وأهميته :

يقول حمدان فى كتابه شخصية مصر : «كان هيرودوت جغرافياً - قبل أن يكون مؤرخاً - عندما قال : «مصر هبة النيل» ويضيف : أن مصر فى الحقيقة هبة النيل الأزرق لأنها تستمد حوالى ٦٦٪ من مياهها من هذا الرافد وحده : والحقيقة الأولى فى الوجود المصرى هى أن مصر هى النيل ، فبدونه لاكيان لها ، ليس فقط من حيث مائه ، وإنما أيضاً من حيث تربته ، فأن الغرين الخصب المتجدد هو جزئياً هدية غير مقصودة من رعاة الحبشة ، حيث يساعدون برعيهم على تعرية التربة . ان النيل - لاجدال - أبو مصر» ، منه إستمدت جسمها ودمها وماءها »(١) ويضيف : «لقد صدر المنبع الحياة إلى المصب ، وصدر المصب الحضارة إلى المنبع .. هذا صدره خاماً وذاك أعاده مصنوعاً(٢) . والتربة المصرية تربة متجددة على مر السنين وكل السنين وهذا مصل طبيعى مُضاد للأجهاد والإستنزاف ، وبالتالى فأن الزراعة المصرية تتصف بالثبات والدوام ، مما أدى إلى العمران الخارق ومولد الحضارة ، لأنها زراعة فيضيه(٣) .

ومصر - إذا مانظرنا إليها نظرة جغرافية هى فى الحقيقة واحة كبيرة ، الأرض المزروعة المأهولة تمثل حوالى ٦٪ من مساحتها الأجمالية ، بينما تمثل الصحراء التى تحيط بها عن اليمين وعن الشمال حوالى ٩٤٪ من مساحتها الأجمالية فهى إذا صحراء يخترقها نيل مبارك مكوناً على جانبية شريطا أخضر هو الوادى ، وبعض الواحات فى الصحراء الغربية بالإضافة إلى منخفض الفيوم ، ويلخص حمدان هذا الموضع فى عبارات بلاغية جميلة يقول فيها : «أنها تبدو كالكأس الطويلة ، أو الزهرة ، ساقها الصعيد وزهرتها الدلتا وبرعمها الفيوم ، وآخرون يقولون هى كالنخله ، صعيد باسق ، ودلتا كالمظلة المفتوحة بينما الفيوم عرجونها »(٤) .

ولقد كان منخفض الفيوم يعرف بأسم إقليم ارسينوى الذى تبلغ مساحته حوالى ١٦٠٠ كيلو متر مربع وترويه مجموعة معقدة من القنوات تشغل مساحتها حوالى ١٠٪ من مساحة الأقليم ، كما توجد به بحيرة قارون (Moeris) التى تبلغ مساحتها اليوم ٢٨٠ كيلو مترا مربعاً بينما كانت فى العصور القديمة تبلغ نصف ذلك القدر ، وبالرغم من أن مستوى المياة قد إنخفض عما كان عليه في الماضى ، واستغلت الأراضى التى ظهرت بعد هذا الإنخفاض ، إلا أن مساحة الأرض المنزرعة حالياً أقل من مثيلتها التى كانت مزروعة زمن الرومان . ففى عصور التدهور والكساد الذى إنتاب الأمبراطورية الرومانية فى عصورها المتأخرة ، هجرت الزراعة ، وتقهقرت مساحة الأرض الخضراء أمام زحف الرمال والصحراء ، بينما ظلت سلطات الأمبراطورية متمسكة بنفس المبالغ التى كانت مفروضة كضرائب على سكان الأقليم ، فما أدى إلى زيادة الإلتزامات المالية على المزارعين الذين بقوا فى الأقليم يزرعون ، ومن ثم وجدوا أن مايحصدوة اقل بكثير مما هم مطالبون بدفعه للرومان ، ففضلوا هجر القرى ، وترك الأرض بلا زراعة والهرب إلى حيث لا تعرف لهم السلطات أثراً وبالطبع بدأ هجر القرى الواقعة على حافة الصحراء لضعف إنتاجها ، وصعوبة وصول المياة إليها نظراً لارتفاعها ، وبعدها عن جوف الأقليم حيث تتوفر المياه مما يجعل ريها أمراً شاقاً ومكلفاً ، كما أن اهمال سلطات الأمبراطورية تطهير شبكات الرى من الأتربة والرمال التى تجلبها عواصف الخماسين الرملية . ادى إلى : إنسدادها ، وبالتالى لم تصل المياة إلى كل الأراضى ، فتركت أرضاً بوراً ، وبذلك إستعادت الصحراء ما أصلحه الإنسان . ومن ثم ردمت العواصف الرملية الأرض والقرى معاً بآلاف الأطنان من الرمال ، لتعيد معاول الأثريين الكشف عنها .

يقول إسترابون :

« لو انك ناقشت القضاء والقدر ، فستجد فى شئون البشر والطبيعة أشياء كثيرة قد يفترض انها قد يمكن ان تؤدى أداءً أفضل بهذه الطريقة أو تلك . مثلاً لو ان مصر تكون لها كفايتها من المطر بنفسها دون ان تروى من ارض اثيوبيا »(٥).

فقد كانت حياة مصر تعتمد على تلك الأمطار التى تسقط على هضبة الحبشة، فيندفع منها النيل الأبيض، لتروى أرضها وتبعث فيها الحياة. أن زراعة الرى هى التى فجرت فى مصر - دون سواها - التاريخ والحضارة. وهى التى وحدتها مبكراً، ومنحتها النظام والقوة التى أوجدت أول إمبراطورية فى التاريخ. وذلك لأن البيئة الفيضية حتمت قيام حكم قوى وفعال، وتنظيم سياسى مركزى مؤثر، فالماء عصب الحياة، وأهم أدوات الزراعة والإنتاج، ولهذا كان لابد للدولة أن تملكه بأسم الناس وتقوم بتوزيعه عليهم حسب حاجة كل منهم، وحسب مساحة أراضيه كما لو كان هناك عقداً ملزماً بين السلطة والفلاح من أهم شروطة: «إعطنى أرضك وجهدك وأنا أعطيك مياهى»، لأن من يستولى على مصادر المياة يستولى على السلطة(٦).

وفى كل صيف يأتى ميقات الفيضان: «فتتحول مصر إلى بحيرة موسمية كبرى تنقطها القرى وحلات الأكوام، وتخطها الجسور النحيلة. إذا فعلاقة المصرى بالنيل علاقة إخصاب متبادلة من التأثير والتأثر، من الطاعة والتطويع، عنصران متلاقحان فى مركب واحد، فالنيل رأس مال طبيعى وسياسى دفين، ومورد أصيل من موارد الثروة القومية التى يعتمد عليها نشاط السكان(٧) ولذلك لفتت ظاهرة الفيضان إهتمام العلماء والفلاسفة فى العصور القديمة، بل وحتى فى العصور الإسلامية(٨)، فراحوا يتحرون عن أسبابها ففى القرن الخامس كتب هيرودوت يقول: **«لا احد يستطيع الحديث عن منابع النيل، لأن افريقيا التى منها يتدفق صحراء مهجورة»**(٩). ثم يعرض ثلاث نظريات وضعها العلماء الأغريق لتفسير مصادر مياة النيل وأسباب فيضانه، ثم يضيف إليها تفسيراً رابعاً من وحى خياله مستبعداً كل النظريات الأخرى بما فى ذلك التفسير الصحيح الذى إستنبطه الفليسوف اناكساجوراس(١٠)، ردده كل من إسخولوس وسوفوكليس، ووردت فى إحدى شذرات يوربيديس المفقوده(١١). وبعد أربعة قرون من هيرودوت، عرض ديودوروس الصقلى عدة تفسيرات من بينها التفسير الصحيح(١٢)، لكن القضية ظلت عبر محسومة. أما بلينيوس الأكبر صاحب مؤلف «التاريخ الطبيعى، الذى عاش فى منتصف القرن الأول الميلادى فقد كتب يقول:

ينبع النيل من مصادر غير مكتشفة "[١٣]

ثم يستطرد ليعطينا وصفاً للفيضان أقرب للأساطير التى لايمكن للعقل أن يقبلها، اما الأديب الفيلسوف سينيكا الذى عاش فى عصر نيرون، وعاصر بلينيوس الكبير، فقد أعاد ترديد نظرية أناكساجوراس التى رددها من قبل كل من إيسخولوس وسوفوكليس ويوربيديس، مضيفا اليها نظرية طاليس، ثم نظرية يوثيمنيس المارسيلى Euthymenes، ونظرية اوينوبيديس الخيوسى، مختمتا بنظرية ديوجينس من ابو للونيا. وكان تاجراً عاش فى القرن الأول الميلادى، زعم أنه توغل فى قلب أفريقيا حتى وصل الى منابع النيل فى جبال القمر، وقد ناقش سينيكا ما ادعاة ديوجينس قبل أن يدلى بدلوه[١٤]. وعن ديوجينيس الأبوللونيانى نقل كلاوديوس بطليموس وصفه للمنابع الاستوائية للنيل فى خريطة رسمها عام ١٥٠ م[١٥]، كما قام برسم خرائط أخرى ظلت تدرس فى أوروبا حتى القرن السادس عشر[١٦]. ولقد استمر سر منابع النيل غامضاً الى أن أرسل نيرون بعثته الشهيرة للكشف عنها وصلت الى منطقة السدود النباتية، التى اعتبرتها البعثه المنابع الأولى للنيل. ولقد كان ارسال نيرون لهذه الحملة الإستكشافية إستمراراً لمجال آخر للكشف عن منابع النيل غير المجال النظرى الذى سار عليه أغلب الكتاب الأغريق والرومان. فمنذ عصور الفراعنه الأقدمين وبدأمن عصر الدولة القديمة فالوسطى وعصر الهكسوس ومروراً بعصر الدولة الحديثة خاصة عصر رمسيس الثانى وانتهاء بعصر الأسرة السادسة والعشرين لم يتوقف حكام مصر عن الكشف عن منابع النيل، واكمل مسيرتهم الحكام الأجانب الذى توالوا على عرش مصر من أمثال قمبيز والأسكندر المقدونى، كما إهتم بطالمة مصر بصفتهم ورثة للفراعنة بأرسال حملات الى قلب أفريقيا للكشف عن منابع النيل[١٧]. ثم أكمل الرومان المسيرة بعد فتحهم لمصر وسيطرتهم على البحر الأحمر. ومن بعد الرومان تابع حكام مصر الأسلامية المسيرة منذ عصر الدولة الطولونية، فالفاطمية حيث قام ابن سليم الأسوانى بتكليف من الخليفة المعز عقب فتحه لمصر برحلته الكبرى الى النوبة وبلاد الزنج، بل حاول الفاطميون التغلب على دورة خذلان النيل للبلاد بتخزين المياة فى سدود، وإستدعى الحاكم بأمر الله العالم العربى الشهير إبن الهيثم لهذا

الغرض(١٨) . كما قام ناصر خسرو برحلة استكشافية فى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله بسبب الأنخفاض الشديد فى فيضان النيل الذى تعرضت له مصر لسبع سنوات متتالية وعرفت بالشدة المستنصرية التى وصفها عبد اللطيف البغدادى ، كما تحدث عنها كل من المقريزى والقلقشندى وابن تغرى بردى وغيرهم(١٩) . فقد أيقن حكام مصر على مر العصور « أن مصر هبة النيل ، وأن النيل قادر على أن يهلك مصر غرقاً أو حرقاً(٢٠) .

أما فى العصر الحديث فقد واصلت الأمبراطورية البريطانية بعد استيلائها على مصر جهود الكشف عن منابع النيل ، وساعدها على ذلك سيطرتها على شرق أفريقيا ، فشجعت على تشجيع الرحالة من أمثال بروس وسبيك وجرانت وصموائيل بيكر ولفنجستون ، مستفيدين من خبرات الرحالة السابقين وتسهيلات حكومات محمد على الكبير وابنه اسماعيل ومستخدمين وسائل النقل الحديثة حتى أماطوا اللثام عن سر النيل الدفين .

توصل المكتشفون فى العصر الحديث الى أنه بمقدم الربيع تذوب الثلوج التى تغطى جبال الحبشة وشرق أفريقيا ، فتتدفق سيول جارفة مكونة بحيرات واسعة هى التى ينبع منها النيل ، بالإضافة الى سقوط الأمطار الموسمية بغزارة على هضبة الحبشة . وتبدأ تباشير الفيضان فى اواخر بؤونه (يونيو) ويقول المقريزى .

« فاذا كثرت امطار الجنوب فى فصل الصيف وعظمت السيول الهابطة .... جرى الى أرض مصر فيقال عند ذلك توحم النيل » ويقول أيضاً . **« وزيادة النيل هى من امطار كثيرة ببلاد الحبشة . ويحدد بداية الفيضان فى شهر ابيب القبطى (٢٥ يونيو الى ٢٥ يوليو) ، ولذا فأن المصريين يقولون « اذا دخل ابيب كان للماء دبيب »**(٢١) .

وفى العصور القديمة لم يكن هناك ، سدود على النيل ، فكان الفيضان يغطى مصر كلها وتصل مياهه الى منف ومنخفض الفيوم خلال إسبوعين أو أربعة أسابيع بعد وصوله الى الوادى ، وكما كان المصريون المسلمون يعرفون بداية تباشير الفيضان بأن « النيل قد توحم » فقد كان أجدادهم القدماء يعبرون عن ذلك بعبارة شاعرية هى « أوزوريس بدأ يعرق » لوصف عملية الارتفاع التدريجى للماء وببطء شديد حتى تمتلىء البرك

والمستنقعات ، وتتكون البحيرات والأنغال . وفى العشرين من شهر يوليو (٢٦ أبيب) يحدث تغير درامى ربط المصريون بينه وبين ظهور نجم الشعرى اليمانية (sirius) حيث تغرق المياه المحملة بالغرين الوادى بأكمله محوله لونه من اخضر الى رمادى يميل الى الأحمرار ، ويستمر فى ارتفاعه ببطىء تدريجى لمده شهرين أو اكثر ، ويتحول الوادى الى بحيرة موسمية تبدو فيه القرى والدساكر ، والمدن المقامة فوق مرتفعات طبيعية أو مصطنعة كجزر منعزلة لا يربط بينها سوى القوارب المصنوعة من ورق البردى . وهذا المنظر الغريب كان يسحر اعداداً كبيرة من السواح فى العصور القديمة بما فى ذلك أباطرة الرومان أنفسهم ، فقد كتب سينيكا فيلسوف القرن الأول ، ومؤلف المسرحيات الشهير ، الذى إمتلك ضيعة كبيرة فى مصر يقول :

Illa facies pulcherrima est cum latent se in agros Nilus ingessit : latent campi opertaeque sunt valles, oppida insularum modo extant, nullum mediterraneis nisi per naviga commercium est, maiorque est laetita gentibus quo minus terrarum suarum vident

ان وجهها يصبح غاية فى الجمال عندما يطغى النيل على الحقول ، وتختفى السهوب وتغطى الوديان ، ما عدا المدن التى تبرز كالجزر ، ولا يستطيع سكان المناطق الداخلية أن يتصل بعضهم بالبعض الا عن طريق القوارب التى يرونها اقل من اراضيهم(٢٢) .

ولم يقتصر الإهتمام بالنيل وفيضانه على الجغرافيين والفلاسفة وعلماء الطبيعة فقط ، بل تعداه الى مجال الفن والفنانين ، فقد شغل النيل حيزاً كبيرا فى الفن الرومانى ، سواء فى الرسم ، كما نرى فى الرسومات الحائطية على جدران منازل مدينة بومبيى Pompeii ،أو فى رسومات الفسيفساء والتى على رأسها تجىء تلك التى عثر عليها فى باليسترينا Palestrina بالقرب من روما . وقرب منتصف شهر أغسطس (الثانى والعشرين من مسرى) يبدأ النيل فى جزيرة فيلة فى أسوان فى الأنحسار ، بينما لايشعر سكان إقليم أرسينوى به إلا فى منتصف سبتمبر (الثامن عشر من شهر توت) أى بعد مائة وعشرين يوماً من بداية انحساره فى الجنوب . وفى منتصف أكتوبر (الثامن عشر من بابه) يعود النهر الى مجراه الطبيعى ، تاركاً الغرين فوق التربة كسماد طبيعى غنى بالأملاح

المعدنية والعضويات يقدرة المختصون المحدثون بما يعادل عشرين طناً من السماد فى الهكتار الواحد أى ثمانية ونصف طن من السماد فى كل فدان، بالأضافة الى ذلك تقتل مياه الفيضان القوارض والحشرات والديدان الضارة بالزرع فتطهر مصر منها. وفى أواخر أكتوبر واوائل نوفمبر يصل النيل الى أدنى مستوى له ويستمر هذا التدنى إلى أن يبدأ الفيضان التدريجى مع شهر يونيو (بؤونه) فى دورة ابدية لا تتوقف.

ومن عصور التاريخ المبكر، لفت نظر المصريين ارتباط الدورة الزراعية بالدورة الفيضانية، فيقول بلينيوس الكبير:

«ان إرتفاع النيل الى ١٦ ذراع هو الفيضان المناسب، فإذا بلغ اقل من ذلك، فان المياه لا تغطى كل الأرضى، كما ان الفيضان الزائد عن الحد يؤخر عملية انحسار المياه وبالتالى يقصر مدة الفلاحة بترك التربة غارقة اما إذا حدث العكس،فانه يجعل موسم الفلاحة لاغياً. حيث تبقى التربة جافة. وتحسب مصر الحساب التالى: إذا بلغ الفيضان إثنا عشرة زراعاً فانها تواجة مجاعة، وإذا بلغ مقدار ثلاثة عشر ذراعاً يتوفر بعض الطعام اما إذا بلغ أربعة عشر ذراعاً فيذكر بانه يجلب الرضا، أما إذا بلغ خمسة عشر زراعاً فانه يذهب القلق عن الناس، أما إذا بلغ ستة عشر ذراعاً فأن ذلك يجلب الفرح»[٢٣].

ويستطرد بلينيوس الذى كان أحد ضحايا ثورة بركان فيزوف عام ٧٩ م، قائلا أن مقاييس النيل قد سجلت أقل مستوى للفيضان عام ٤٨ ق م حيث بلغ منسوب الفيضان خمسة أذرع فقط، أما أقصى مستوى وصل إلية فكان ثمانية عشر ذراعاً وذلك عام ٤٥ ميلادية ولقد كتب بلينيوس الأصغر يمدح تراجانوس لأنه أمر بإعادة السفن التى كانت تنقل القمح من مصر إلى روما لأن مجاعة قامت فى مصر عام ٩٩ ميلادية بسبب إنخفاض النيل[٢٤].

وحتى أوائل الحكم العربى لمصر ظل منسوب ١٦ ذراعاً لإرتفاع الفيضان عند المقياس هو الحد بين الكفاية والحاجة حتى عرفت بأسم «ملائكة الموت» فاذا ما ارتفع الى ثمانية عشر ذراعاً اعتبر ذلك فيضاناً «سلطانياً» وعم البلاد الرخاء، فاذا ما تعدى علامة العشرين كان الاستبحار أى غرق الارض والزرع، وقد يصل الى «اللجة الكبرى» أى الطوفان الكاسح وهذا يعنى غالباً الطاعون أو الوباء حيث يتحول الوادى الى مستنقع ملارى كبير، أما اذا هبط النيل عن الحد الفاصل ١٦ ذراعاً فهى «الشدة» التى قد تصل الى حد المجاعة، واذا كان الفيضان المغرق

هو الطاعون ، فإن المجاعة كانت تعنى الموتان الذى قد يصل الى حد ينتشر معه الطاعون بدوره بعد ذلك حتى يتناقص السكان بدرجة مخيفة . إذ إن أدنى هزة فى موارد المياه والزراعه ، سرعان ما كانت تترك أثرها فى السكان بدرجة تخريبية وتناقص نكبائى خطير ، كذلك كان الرخاء المعتاد فيما يبدو من مضاعفات آثار المجاعات[٢٥] ولهذا كانت العرب تقول : «إن مصر اسرع الأرض خراباً ويقول المقدسى :

«هذا الأقليم إذا اقبل فلا تسأل عن خصبه ، واذا اجدب ، فنعوذ بالله[٢٧] من قحطة وكما يقول جمال حمدان :

«إن التاريخ العمرانى فى مصر تطلعنا بعد هذا على دوررة حضارية أساسية تتكرر فيه على ايقاع النهر وضبطه ، وحين يفشل الفيضان او ضبط النهر ، فانه اذن الأنكماش العمرانى وغزو الملح والرمل ، أو البحر والصحراء للمعمور ، وتتقلص الواحات ، وتنقرض الموانىء . وهذا دليل على أن النهر ضابط إيقاع جوهرى للعمران فى مصر الفيضيه[٢٨] .. إن شبكة السدود والترع طبيعة ثانية للوادى .. ولاشىء ابلغ من مقولة عمرو الشهيرة عن لؤلؤة بيضاء (مصر وقت التحاريق) ، فإذا هى عنبرة سوداء (الفيضان) فإذا هى زمردة خضراء (الزراعة الشتوية) ، فاذا هى ديباجة قشاء (موسم الحصاد)[٢٩] .

مقاييس النيل :

ومن أجل ذلك ابتكر المصريون القدماء فكرة عمل مقياس للنيل سرعان ما انتشرت من الجنوب الى الشمال ، وكانت الفكرة الأولى عبارة عن صخرة صلدة طبيعية تقف وسط النيل ، أو إقامة عمود منحوت عليه علامات تبين مناسيب المياه فى شكل خطوط افقية ، وفى العصور التاريخية المتقدمة بنى المصريون مبانى ضخمة كمقاييس للنيل وتقوم على نفس الفكرة الأولى ، إما فى شكل لوحة عليها العلامات ، أو فى شكل حجرة تحت مياه النيل يصل اليها الأنسان عن طريق درجات سلم ، وعلى جدران هذه الحجرة علامات قياسية بالاذرع (الذراع ٥٢٥ سم) والأشبار والأصابع ، وكان مقاييس النيل شيئاً غريباًفى عيون السواح ليس له مثيل فى أنهار الدنيا ، ولهذا فقد كانت مقصد اعداد كبيرة منهم للتفرج عليها ، وحتى يومنا هذا لا تزال بعض مقاييس النيل قائمة فى مكانها فى أماكن مختلفة من البلاد . وفى بعض الأحيان كان يقام المقياس داخل معبد لرب النيل . وفى العصر الرومانى كان فى مدينة اوكسيرينخوس مقياسان

المقياس الكبيرة ، والمقياس الصغير ، وعلى مسافة اربعين كيلو متر الى الجنوب من أوكسيرينخوس عند قرية تسمى اكوريس Akoris يوجد مجموعة من الأحجار عليها نقوش تبين الحد الأقصى لما وصل اليه الفيضان خلال عقد وبعض العقد من أواخر القرن الثالث الميلادى ، غير ان مقياس الفانتين يعتبر بحق أكبر مقاييس النيل ، لأنه أول مقياس يقيس مياه الفيضان عند وصولها الى مصر ، حيث يسرع الرسل يزفون البشرى الى الوالى فى قصره بالأسكندرية حيث تقوم أجهزة الادارة بدراسة الموقف وتقدير حجم الأراضى التى ستزرع وحجم الضرائب التى سوف تجبى منها - وعلى مقياس الفانتين (جزيرة فيلة) لا تزال هناك نقوش محفورة هذه ترجمة بعض منها .

• اغسطس قيصر ٢٤ ذراع واربعة اشبار واصبع (عام ٥ ق . م .)

• العام الثالث عشر من حكم نيرون اغسطس ٢٤ ذراع وستة اشبار واصبع (عام ٦٧ ميلادية) .

• فى العام العاشر من حكم دوميتيان قيصر . ٢٤ ذراع واربعة اشبار (٩١ م) .

• فى العام الرابع عشر من حكم تراجانوس ٢٥ ذراع (١١١ ميلادية)[٣٠]

ويعبر هيرودت - أبو التاريخ عن دهشته عن حظ المصريين السعيد لوجود النيل الذى يضع بين أيديهم ثروة بدون مجهود فيقول :

« لا يوجد فى الدنيا أناس يحصلون على محاصيل من الأرض بأقل مجهود (مثل المصريين) . اذ انهم غير ملزمين بعمل خطوط فى الأرض بالمحراث ،او العزق ، ولا يقومون بعمل مثل باقى البشر من أجل المحصول . اذ يرتفع النهر من تلقاء نفسه فيروى الحقول . وبعد أن تروى الحقول تنحسر المياه ، عندئذ يقوم كل منهم بفلاحة ارضه ، ويترك الخنازير تدوس الحبوب ومن خلال ذلك ينتظر المحصول »[٣١] .

إن دهشة واستغراب أبى التاريخ لها ما يبررها ، فقد جاء من بلاد ينحت فيها الفلاح بأظافره فى أرض من الصخر لكى يحولها الى أرض

زراعية صغيرة ، إنه عمل مضن لا ينتهى . غير أن أرض مصر لم تكن بهذا القدر من السهولة التى تصورها هيرودوت . فقد كان الفلاحون المصريون يحرثون ويعزقون خاصة فى الأرض التى يستصلحونها من براثن الصحراء أو تلك التى تركوها بوراً لتستريح ، فقد كانت حياتهم عملاً دائماً من العزق والحرث والرى ، بل أنهم كانوا يكومون روث الماشية خارج القرى لاستخدامها كسماد خاصة عند زراعة الخضروات والفاكهة . وأول ما يبدأ به الفلاح هو توصيل المياه الى الأراضى العالية التى لم تصل اليها مياه الفيضان عن طريق المجهود البدنى . ومن أجل ذلك إهتم الفراعنة - خاصة فراعنة الدولة الوسطى - بعمل شبكة من الترع والقنوات والرياحات ، ولما جاء البطالمة طوروا نظام الرى وزادوا عليه . وكان المجهود كبيراً فى منخفض الفيوم المتسع والمحاط بحافة الهضبة كالطبق ، غير أنه خلال عصور البطالمة المتأخرين انتشرت الفوضى ، وقل الاهتمام ، فتقلصت شبكة الرى ، وردمت رمال العواصف الترع والرياحات ، اذا انشغل ملوك البطالمة بالصراع على العرش والحروب الخارجية ، فتوقفت أعمال المتابعة والتطهير .

الرومان والسخرة :-

وعندما فتح أكتافيوس قيصر مصر ، وجد أنه قد ورث ضيعة مخربة . ومن ثم عقد العزم على إصلاحها من أجل ضمان مورد دائم للقمح يغذى به غوغا روما الجائعة التى كانت تؤيده ، فهو إبن يوليوس قيصر بالتبنى ، ويوليوس قيصر كان زعيم حزب العامة populares الذى يقوم على أكتاف جماهير الفقراء ، وبروليتاريا المجتمع الرومانى . ولذلك لم يتردد فى تكليف جنوده بالعمل جنبا الى جنب مع الفلاحين المصريين المسخرين من أجل تقوية السدود وتطهير الترع والرياحات من الرمال والطمى المترسب فيها بأسرع ما يمكن ، ولكى يضمن إستمرار هذا العمل أحيا نظام السخرة القديم أو نظام الخدمة المدنية الالزامية الذى إبتكره فراعنة مصر . وأصبح ملزماً على كل فلاح قوى البنية مفتول العضلات أن يقوم بأصلاح وفلاحة مساحة من الأرض تفرض عليه وعلى عبيده إن كان له أرقاء ، وأن ينفذ حصة محددة من العمل غير مدفوع الأجر فى تطهير شبكة الرى ، وتقوية السدود . وكانت المدة المحددة عادة خمسة أيام كل عام قابلة للزيادة فى حالة الضرورة القصوى ، وكان لا يجوز لأحد من الأهالى أن

يستنكف القيام بهذا العمل أو يتهرب منه تحت أى عذر من الاعذار ، او يعرض بدلاً ماليا مقابل أعفائه منه . وفى صعيد مصر وبعض المناطق الأخرى كانت المحاسبة تتم ليس بعدد الأيام التى يقضيها المسخر فى الأعمال الالزامية ، ولكن تحدد بكمية التراب المستخرج من الترع والقنوات والمصارف . فعندما ينحسر مستوى المياه فى النيل الى أدناه يصدر مدير الاقتصاد (Dioeketes) أوامره الى حكام الأقاليم وجامعى ضريبة القمح فى كل مكان من الوادى المزروع ، محدداً حجم ونوع العمل التى يتوجب على الأهالى القيام بها من أجل الصالح العام ، أو تنفيذاً للخدمة المدنية الإلزامية ، والتى كانت بديلاً عن الخدمة العسكرية بالنسبة للفلاحين المصريين . وكانت هذه الأوامر تصدر عادة فى مطلع شهر برمودة (أبريل) حيث يبدأ موسم تقوية السدود وتطهير الرياحات والترع والقنوات إستعداداً لإستقبال موسم الفيضان الجديد . ونسوق نموذجاً لأحد هذه الأوامر التى أصدرها أولبيوس أوريليوس مدير الإقتصاد من الأسكندرية عام ٢٧٨ م الى كافة حكام الأقاليم هذا نصه :

« لقد حل موسم إصلاح السدود وتطهير القنوات . وأرى أنه من باب الحيطة أن اذكركم عن طريق هذه الرسالة انه يتوجب على كل مزارعى منطقتكم ان يشرعوا بالعمل بكل همة وحماس فى الأعمال الإلزامية المفروضة عليهم كل عام ومن اجل الصالح العام ، والمتوجبة على كل فرد بشكل خاص . وإنى لعلى ثقة بأن كل واحد يعرف مقدار الخير الذى ياتى من مثل هذه الأعمال . وعلى ذلك عليكم أن تشرفوا بأنفسكم كما هو مدون فى اللوائح وأن تتاكدوا بانفسكم من إختيار المشرفين المعتادين من بين الموظفين العموميين والمواطنين العاديين دون اى تدليس او محاباة من اجل تنفيذ الأعمال المطلوبة منهم حتى ترتفع السدود الى الإرتفاع والسمك المحددين ، وان يكوم المستخرج للتاكد من انه قادر على مقاومة الفيضان المبارك القادم للنيل عظيم القداسة ، وان تطهر القنوات الى الحد المعتاد للتطهير كما يسمى ، جتى يستوعب بسهولة مياه الفيضان القادم ، وتوجيهها لرى الحقول وهذا للصالح العام . ويحظر بتاتاً على اى واحد أن يدفع مالاً كبديل عن العمل الجسدى . واذا جرؤ اى واحد أن يحاول القيام بمثل هذه التصرفات ، او يهمل الأوامر ، ليكن فى علمه أنه يخاطر ليس بممتلكاته فحسب ، بل بحياته ، لأنه سيقدم الى المحاكمة بتهمة تخريب الخطط المرسومة لانقاذ عموم مصر (٣٢) .

تحمل العبارتين الأخيرتين الى ما يشير بوجود فساد ومحاباة فى تنفيذ هذه الأعمال الالزامية حيث تلعب الرشاوى والوساطة والقرابة

دورها . وتؤكد ذلك الوثائق البردية ، ففى وثيقة ترجع الى القرن الأول الميلادى إتهام موجه من إثنين من مسؤلى القرية ضد المشرف على تقوية السدود بأنه تقاضى رشوه قدرها أربعة دراخمات من كل فرد من تسعة وخمسين رجلاً ممن يتوجب عليهم الخدمة الالزامية حتى لا يعملوا فى تقوية السدود العامة ، كما إتهماه بأنه تغاضى عن تسعة آخرين لذات السبب(٣٣) . كان العمل يستمر طوال العام حسبما تقتضى الحاجة أثناء الفيضان حيث يتم توجيه المياه الى حيث يجب أن تذهب . فلقد كان من المعتاد أن يعمل الناس فى المناطق المجاورة لقراهم ، لكن يتبين من شكوى بعض المسخرين أنهم قد أدوا الخدمة الإلزامية لمدة خمسة أيام فى مناطق تبعد عن قراهم حوالى خمسة وعشرين كيلو مترا ، اذ تم إرسال ١٨١ رجلاً من قرية تبتونيس فى مطلع شهر أمشير .(أواخر يناير وبداية شهر فبراير) الى موقع يبعد عن قريتهم حوالى إثنا عشرة كيلوا متراً ، ومن المعروف أنه فى شهر أمشير يكون النيل قد إنحسر وتراجع الى مجراه الطبيعى .

ومن ثم فإننا نظن أن هذا الأستدعاء إستدعاء طارىء وعاجل لمواجهة تصدع حدث فى أحد السدود الرئيسية بحيث تطلب تجنيد ذلك العدد الكبير(٣٤) . والى جانب قصاصات البردى هناك الأوستراكا (٣٥) الخاصة بالأعمال الألزامية . وفى حالات متكررة ذكرت الوثائق البردية وكذلك الشقافات مبلغ قدره ستة دراخمات وأربعة أوبولات مما دعا الاستاذ كينيون kenyon الى الأعتقاد بأن هذا المبلغ كان البدل المالى لسخرة الأيام الخمسة ، غير أن مصطلح ، υπερ χωματιων ، الخاص بهذا المبلغ لا علاقة له بفكرة البدل المالى . ولعل سماح السلطات الرومانية لبعض الأشخاص بتقديم بديل لا يثبت قبولها البدل المالى ، ويؤكد ذلك تكرار إسم مقدم البديل عدة مرات كتوكيد عن قبول عذره لحالة قصوى (٣٧) . وهذا نموذج لصيغ شهادات أداء الخدمة الألزامية ، ويرجع الى عام ١٤٧ ميلادية : وهذا نصه :

«السنة العاشرة (من حكم) الأمبراطور قيصر تيتوس أيليوس هادريانوس أنطونينوس أغسطس بيوس تم إنجاز العمل فى دعم الجسور لنفس السنة العاشرة من ١٦ الى ٢٠ أبيب فى جسر بسينالى ... فى ثيادلفيا

(بطن إهريت) بواسطة حورس بن بانسنيوس بن نيفيروس، وأمه سوابيريس . وقعته أنا مارينوس(٣٨) .

وفى بعض الحالات لوحظ وجود طلبات جاهزة الأعداد ، وكل مايقوم به كاتب القرية هو ملىء الخانات والتوقيع ، فقد عثر على بعض هذه البراءات قبل ملىء الخانات الخاصة بالأسم وجهة العمل ، ومثيلاتها بعد ملئها (٣٩) ، وقبل القرن الثانى الميلادى لم يكن يحدد فى الطلبات عدد الأيام ولا الشهر الذى تم انجاز العمل فيه .

عندما عبر هيرودوت عن حظ الفلاح المصرى الذى يروى له النيل أرضه دون بذل أى مجهود مثل العزق والحرث ، وما عليه سوى بذر الحب وإنتظار المحصول الجيد من الرب ، كان واهما ، اذ لم يدر بخلده أن هناك مناطق زراعية فى مصر عاليه لا تصلها مياه النيل ، ولذلك كان الفلاح يجد مشقة فى ريها عن طريق رفع المياه اليها خاصة فى الشهور التى تنخفض فيها مياه النيل الى مستوى متدن . وكان الفلاح يستخدم فى ذلك أدوات بدائية بعضها إبتكره هو مثل الشادوف الذى أسماه الأغريق كيلون κελων والذى لا يزال يستخدم حتى الآن فى بعض مناطق الريف المصرى ، والبعض الآخر ابتكره علماء الأسكندرية مثل الطنبور الذى نسب اختراعه الى أرخيميديس (٢٨٧ - ٢١٢ ق . م) . عالم الرياضيات الشهير ، وكان يطلق عليه إسم كوخلياس κοχλιας (أى الأسطوانة اللولبية) . وعندما زار ديودوروس الصقلى (٦٠ ق م - ٢١ ق . م) مصر فى آواخر عصر البطالمة راعة انتشار استخدام الطنبور فى مناطق الدلتا (٤٠) . أما استرابون فيصف كيف أن مياه النيل كانت تجلب الى معسكر الجيش الرومانى الكبير الواقع قباله منف (مصر القديمة تقريباً حيث بنيت بعد ذلك مجرى العيون لنفس السبب وهو توصيل المياه من النيل الى القلعة) عن طريق عدد من الطنابير والسواقى يقوم بتشغيلها مائة وخمسون سجينا من سجناء المعسكر الرومانى(٤١) . أما الساقية فقد أطلق عليها إسم العجلة Teoxos وأحياناً إسم الآلة (Μεχανη) وهى من إبتكار مهندسى الأسكندرية لأنها وجدت مصورة على العديد من مناظر الريف بالأسلوب الهللينستى السكندرى . غير أن الشادوف كان الأكثر إنتشاراً . ولقد نشرت عام ١٩٨١ وثيقة بردية عبارة عن شكوى رفعها فلاح الى رئيس الشرطة فى قريته ،

في حق جار له بتهمة قيامه بهدم العمودين اللذين يستند عليها قاعدة
الشادوف الأفقية ، والذى يخص أخاه التى توفى منذ وقت قريب .ويقول
فى شكواه :

«وبذلك أصبح من المستعصى على جلب الماء لرى بستان العنب
بالقسط...... حتى ان بستان العنب قد أصبح أرضاً بوراً جافة . ولحق به ضرر
ليس بالقليل»(٤٢) .

ورغم كل ماكان الفلاح المصرى على استعداد لبذله إلا أنه لم يكن
ليحصل على نفس المحصول إذا ما روت مياه الفيضان أرضه ، لأنه ربما
الصناعى كان يحرمها من الغرين الذى يجدد شباب الأرض ويزيدها قوة .
وهذا يبن مدى إعتماد الفلاحين على النيل إعتماداً حيويا فى حياتهم ،
ومدى الخراب الذى يلحق بهم إذا ما خذلهم الفيضان ولم تصل مياهه
لتغطى أراضيهم ، ويظهر ذلك من مجموعة الألتماسات التى رفعها
الفلاحون الى الأمبرَاطور هادريانوس (١١٧ـ ١٣٨م) . بعد
اعتلائه(٤٣) العرش مباشرة لأنها حررت خلال الشهور الأولى بعد توليه
تستعطفه بتخفيض الضرائب ، وتقوم على أساس قرار أصدره هذا العاهل
وأشارت اليه هذه الألتماسات :

«فمن بين مكرماته الأخرى أمر مولانا هادريانوس أن تحدد الضرائب على
الأراضى الملكية والأراضى العامة والضياع الأمبراطورية على أساس انتاجها
الحقيقى وليس على اساس الحساب القديم» .

ويدعم الفلاحون التماساتهم بأن فيضان النيل جاء منخفضاً حتى أنه
لم يغط إلا نصف الأرض ، أما النصف المتبقى فأنهم يروونه عن طريق آلات
رفع المياه مما يرفع بدوره التكاليف . ونظراً للخراب الذى حاق بالحقول
خلال الحرب الأهلية ضد اليهود ، وتجنيد الفلاحين فى ميليشيات لقمع
ثورات اليهود فى الأقاليم ، .فقد أصدر هادريانوس فى السنوات الأخيرة
لحكمه قراراً آخر بتخفيف وزر جمع الضرائب عن كواهل الفلاحين وتأجيل
المطالبه بالضرائب المتراكمة عليهم ، وتاريخ هذا القرار هو الخامس من
شهر بوءونه (٣٠ مايو) عام ١٣٦ م . وشهر بوءونه كما نعرف هو شهر
تحصيل القمح من المحصول الجديد . وقد حفظت لنا أوراق البردى هذا

القرار فى شذرتين واحدة محفوظة فى المتحف المصرى بالقاهرة والثانية موجودة فى أوسلو ، وكلتاهما تبدآن بديباجة واحدة تقول : بسبب فيضان النيل غير الكاف وغير الكامل خلال عامين متتاليين ، وبناءً على ذلك منح هادريانوس فترة سماح بحد أدنى عامين وبحد أقصى خمسة أعوام لتسديد الضرائب المتأخرة والوفاء بديون الدولة(٤٤).

المحاصيل الغذائية ومراحل انتاجها :-

والآن لنطرق جانباً آخر من الموضوع وهو : ما هى المحاصيل الحقلية والبستانية التى كانت تزرع فى مصر ؟ . وقبل الأجابة على ذلك السؤال يجب أن نفرق بين نوعين من المحاصيل : محاصيل تزرع من أجل الكفاية الغذائية وهى عادة ما تكون محاصيل إستهلاكية ، ومحاصيل تزرع بغرض التسويق من أجل الحصول على المال السائل وهذه عادة ما تكون منتجات تخدم صناعات سواء للأستهلاك أو التصدير .

أننا لا نعرف إسم ذلك الفلاح النابه الذى ترك لنا مذكرة بمواقيت الدورة الزراعية طوال العام ومن وجهة نظره العملية التى تختلف عن التقويم الزراعى المعتاد والذى يبدأ مع بداية السنة الزراعية المصرية فى اليوم الأول من شهر توت (٢٨ أو ٢٩ أغسطس) ، أما صاحبنا هذا الذى كان يعيش فى إحدى قرى إقليم منف أو الفيوم فقد جعله يبدأ بشهر بوءونه (يونيو) .

ونلاحظ أن ذات التقويم الأهلى كان يستخدم فى طيبة مع فارق الزمن فقد كان تقويم طيبة الزراعى يسبق تقويم منف والفيوم بفترة تتراوح ما بين إسبوعين الى أربعة أسابيع فى الفلاحة والحصاد بسبب الفيضان المبكر وإختلاف الطقس فى الصعيد عنه فى الدلتا والفيوم(٤٥) وبفضل هذا الجدول الزمنى الخاص الذى تركه هذا الفلاح أمكن لنا معرفة المزيد عن أسرار الزراعة فى مصر الرومانية وقد نسقناها فى الجدول الآتى :-

النص الأصلى للوثيقة — اضافة المؤلف

إسم الشهر بالمصرية المزغرقة	الأحداث الزراعية	الشهر بالقبطية المعربة	ما يعادله بالتقويم الأفرنجى
باونى	يبدا إرتفاع النيل . ينتهى الحصاد ويبدا درسه	بؤونه	٢٦ مايو الى ٢٤ يونيو
إبيف	يزداد إرتفاع النيل ليدخل مرحلة الفيضان . ينتهى موسم الدرس	ابيب	٢٥ يونيو الى ٢٤ يوليو
ميسورى	يكتمل الفيضان . يبدا غرس الكروم	مسرى	٢٥ يوليو الى ٢٤ اغسطس
تحوت	يصل النيل الى اقصاه ويبدا فى الإنحسار . يكتمل غرس الكروم . ويبدا جنى البلح	توت	٢٩ اغسطس - ٢٨ سبتمبر
فاءوفى	ينتهى الفيضان . يبدا بذر الحب . بجمع الزيتون ويبلغ موسم جنى البلح اقصاه	بابه	٢٩ سبتمبر - ٢٨ اكتوبر
حتحور	يستمر بذر بذور الحب . تبدا الفلاحة . بجمع بشاير البلح والزيتون	هاتور	٢٩ اكتوبر الى ٢٦ نوفمبر
خوياك	تستمر الفلاحة . بجمع الزيتون	كيهك	٢٧ نوفمبر - ٢٦ ديسمبر
طوبى	ينتهى جنى الزيتون . يبدا الموسم الجديد لزراعة الكروم والزيتون	طوبه	٢٧ديسمبر الى ٢٦ يناير
ميخير	تبدا الاستعدادات لجنى المحصول	أمشير	٢٧ يناير - ٢٤ فبراير
فامنيوث	تستمر الأستعدادات	برمهات	٢٥ فبراير - ٢٥ مارس
فارموثى	يبدا موسم حصاد الحب	برمودة	٢٦ مارس الى ٢٥ ابريل
باخون	يستمر الحصاد ويبدا الدرس	بشنس	٢٦ ابريل - ٢٥ مايو

كان القمح والشعير يشكلان أهم المحاصيل الدائمة . فمن القمح يصنع رغيف الخبز ، ومن الشعير تصنع الجعة ، والى جانب القمح والشعير زرع الفلاح الذرة العويجة Olyra ،ودقيقها أقل من دقيق القمح جودة ويميل الى اللون الرمادى ، وكان يصنع منه خبز الفقراء ، وتتغذى عليها الماشية .

وكان الفلاح المصرى - كما هو حالة اليوم - يعمل طوال العام ، يذهب الى حقله عند مطلع الشمس ولا يعود منه الا عند غروبها ليشرف بنفسه على كل خطوه من خطوات الزراعة من بذر البذور حتى الحصاد ، ومن الدرس حتى تذريه الحبوب . وكان يستخدم أحياناً إجراء دائمين أو « عمال تراحيل » موسميين . وبالطبع كان يسخر فى سبيل ذلك كل ما كان يملك من ماشية ودواب حمل ، مستخدماً أدوات بدائية : كالمحراث والنورج والواح تسوية وتسطيح الأرض بعد عزقها ، والفأس والمذارة وهى نفس الأدوات التى لايزال يستخدمها فى المناطق الريفية النائية التى لم تدخلها الميكنة الزراعية بعد.وبتقدم الزمن برزت بعض جوانب العمل فى الزراعة تطلبت وجود متخصصين فيها من العمال ، فمثلاً نسمع فى الوثائق البردية عن مشذبى كروم العنب مثلما نسمع عن مهنة جزاز الأغنام ، ولم يكن فى مقدور العامل الأجير غير المدرب القيام بالعمل الفنى لأنه يحتاج من صاحبه الى إعداد ومهارة وتدريب وخبرة كما كان فى إمكان هؤلاء الفنيين القيام فى نفس الوقت بالعمل البدنى غير المتخصص الذى يقوم به الفلاح الأجير فى مواسم الزراعة لضمان عمل دائم حتى يقدروا على اعالة إسرهم ، وتسديد ضريبة الرأس ، غير أن هناك طائفة من المتخصصين كانت لاتقوم بأى عمل آخر غير تخصصهم مثل نظار الزراعة ، ومقاولى الأنفار والمختصون بشئون الماشية كأعمال البيطرة ورعى الأغنام وتلقيحها والبقارة والحمالون والمكارية ، غير أن بعض هؤلاء الأخيرين كانوا يشاركون أحياناً فى الأعمال الأخرى اذا دعتهم الحاجة الى ذلك .

نظام المزارعة والأجارة :

كان أغلب العاملين فى الزراعة من الأجراء الأحرار اذ لم يظهر للرقيق أى دور بعكس الحال فى إيطاليا وآسيا الصغرى وأسبانيا ، اذ يتضح من الوثائق بكل أنواعها سواء تلك المتعلقة بالمزارعين أو المتعاملين فى الأراضى : سواء أراضى الملكيات الخاصة أو العامة ، أو ضياع الاباطرة أو أراضى المعابد أنهم جميعاً لم يكونوا رقيقاً . فقد كانت هذه الأراضى تؤجر سنوياً بعقود ايجاره مباشرة ، أو من الباطن عن طريق مستأجر

وسيط ، ليقوم بزراعتها فرد أو أفراد مقابل عقد إجارة نظير مبلغ محدد ويجدد سنويا ، او عن طريق نظام المزراعة أى زراعة الأرض مقابل نسبة من المحصول . وبهذه الطريقة زرعت الضياع الشاسعة عن طريق الأجراء أو المزارعين الأحرار ، سواء بألأجر اليومى أو نظير نسبة من المحصول وكان هناك أجراء دائمون واخرون متغيرون . أما أصحاب الحيازات المحدودة من الأرض الزراعية فكانوا عادة يقومون بزراعتها بأنفسهم تساعدهم زوجاتهم وابناؤهم ، بينما كان آخرون يتعيشون من تأجير اراضيهم مقابل نسبة من المحصول خاصة اذ كان المالك يمتلك حيازات صغيرة متناثرة فى قرى بعيدة عن قريته آلت اليه بالمصاهرة أو الميراث ، فكان يزرع الاراضى القريبة بينما يؤجر البعيدة مالاً أو عيناً عن طريق عقد إيجارة قانونى ملزم يتفق عليه الطرفان .

عقود الأجارة :

لم تكن عقود الأجارة تكتب إعتباطاً وحيثما إتفق ، انما كانت جزءاً من الوثائق القانونية ، اذ كانت تتضمن بنوداً وصيغاً قانونية ثابتة ومكررة تعكس تأثير عقلية الرومان الميالة الى سن القوانين والدقة فى تطبيقها ، وكانت هذه الصيغ والبنود والشروط والمصطلحات القانونية تعتبر شرطاً أساسياً لضمان شرعية العقد وسريان مفعولة ليصبح ذا قوة ملزمة للطرفين . كان العقد يبدأ بديباجة تتضمن أسماء أطراف التعاقد وتاريخه والأماكن أو العين المؤجرة ومدة التعاقد ، ثم البنود التى ارتضى بها الطرفان . كما تبدأ الشروط بعرض شفوى أو مكتوب يوجه من المستأجر الى المالك أو وكيله الذى يمثله . وكانت أبسط صيغ العقود تلك التى تبدأ بالعرض الذى يتقدم به المستأجر مذيلاً بأسم صاحب العرض وهويته . وأكثر أنواع العقود شيوعاً تلك التى يتم فيها التعاقد فى ملحق خاص . وأكثر عقود الأجارة كانت تعقد قبيل بداية موسم الزراعة ، وأحياناً ينص العقد على مدة إجارة أكثر من عام بشرط وجود بند ينص على تكرار دفع المقابل السنوى من المحصول أو المال طوال مدة سريان العقد وهذا نموذج كامل لأحد هذه العقود :

« الى هيرون بن سرابيون ، قاصر ، الوصى عليه اسخوريون بن هيرودس ، من افرود يسيوس بن أكوسيلاءوس من عاصمة الأقاليم (ارسينوى) ارغب فى إستئجار بستان الكروم الذى يملكه هيرون فى زمام قرية يوهميريا (قصر البنات) و [مساحته] إحدى عشرة ارورا او كما تقدر [شاملة] فى صفقة واحدة لمدة حولين بدءا من العام الحالى الثالث والعشرين (من حكم) مولانا انطونينوس قيصر (١٦٠ ميلادية) ومقدار الأيجار الشامل لكل الأدوات هو اربعون أردباً من القمح [غير شاملة التقاوى] مكيلة بالمكيال رباعى الاقداح (أى الكيلة) الخاص بهيئة المعبد دون زيادة أو نقصان . وأتعهد بتنفيذ العمل السنوى من تسوير ، ورى وحرث ، وعزق ، وتطهير المساقى ، والغرس واقتلاع الحشائش ، وكل ما يتوجب القيام به على نفقتى الخاصة وفى الأوقات المناسبة دون إحداث اى ضرر ويحق لى زراعة الأرورات فى العام الأول بأى محصول يروق لى فيما عدا القرطم . أما فى العام الثانى [فسوف أزرع] نصفها قمحا واترك النصف الآخر بورا وسوف أتكفل بنفقات النقل السنوى بنفسى - انا افروديسيوس أما كافة الضرائب فسوف يتحملها هيرون . وسوف أسدد الأيجار السنوى فى شهر بؤونة قمحاً جديداً نظيفاً غير مخلوط وخال من الحصى فى قرية ثيادلفيا . وبعد انتهاء المدة سوف اسلم الارورات خالية من [الحلفاء] ومن البوص والنجيلة وكافة أنواع النفايات من كل نوع وذلك إذا وافقت على التاجير افروديسيوس حوالى أربعين سنة من العمر بندب فى وسط رأسه ١٢ هاتور (٩ نوفمبر)(٤٦) .

وقبل تاريخ هذا العقد بأربعة شهور وأربعة وعشرين يوماً ، حررت السيده ديديمى الشهيرة بأسم ما ترونا ايصالاً على نفسها تقر فيه تسلمها الأيجار العينى من المستأجر مذكره إياه بأن عليه أن يدفع ضريبة القمح والنقل (naubion) وهذا نص الأيصال :

« من ديديمى الملقبة ، أيضاً بأسم ماترونا ، بنت أسكلبياديس ، ووكيلى خالى من ناحية امى هيرون بن أبو للونيوس . الى هيرون بن ساتابوس المزارع تحية . لقد تسلمت منك إيجار العام الثانى والعشرين الخاص بحيازتى التى تقوم أنت بزراعتها ، (وقدرة) أردبان وربع أردب ، وأن تسدد أنت - ياهيرون - ضريبة (قدرها)

أردب واحد وكذلك ضريبة النقل . العام الثانى والعشرين من (حكم) أنطونينوس قيصر مولانا ٢٨ أبيب (٢٢ يوليو عام ١٥٩ ميلادية)(٤٠٧)

الفلاح والالتزامات المالية :

وفى كل موسم زراعى يواجه الزراع والمستأجرون مشكلة التقاوى فقد كان عليهم أن يدبروها سواء بأستدانتها أو استدانة أموال من المرابين لشراء التقاوى من السوق . وكانت نسبة الفائدة على الديون فى الريف تبلغ ١٪ شهريا للمال السائل و ٥٪ بالنسبة للدين العينى يدفع فى الجرن . وفى بعض الأحيان كان يضاف بند خاص بالتقاوى فى عقد الايجار ، وفى أحيان أخرى تتم الاستدانه عن طريق طرف ثالث . ولقد كان مستأجرو أراضى الدولة أو الأرض الميرى أسعد حالاً من غيرهم لأنه كان فى استطاعتهم الحصول على كمية التقاوى المطلوبة من الشون الحكومية كدين يسدد بدون فوائد أو ما نسميه الأن القرض الحسن ، غير أنهم مقابل ذلك كانوا يدفعون للدولة ايجاراً أعلى مما يدفعه مستأجرو اراضى الأهالى ، كما أنهم كانوا يواجهون بتحذيرات وقيود يتضمنها صك الدين لمنع التلاعب أو التحايل والحد من الغش فقد تعود الفلاحون التحايل على الحكومة بكل الطرق والا لا عيب ولذلك كان على المستاجر حتى ولو تندم لاستدانة كمية ضئيلة من حبوب التقاوى مثل اردب وربع أردب أن يطالب بإجراءات مطولة وضمانات متعددة على النحو التالى :

«(من) اسكلبياديس حاكم اقليم اوكسيرينخوس الى هيراقليس المعروف باسم هيراقليديس امين شونة حى باكركى فى المركز الشرقى سلام . عاير - تحت موافقتى انا و [موافقة] هيراكس ، الكاتب الملكى - قرض تقاوى من أجود العينات ، موسم العام الثالث عشر المنصرم لبذر بذور العام الحالى الرابع عشر من حكم مولانا هادريانوس قيصر (عام ١٣١ م) لأبو للونيوس بن هليودوروس وامة ثائيس ابنة خايريمون من مدينة اوكسيرينخوس ، والبالغ من العمر ٧٨ عاماً وله ندبه فوق حاجبه الأيمن ، وسوف تتعرف عليه على مسئوليتك وما طلبه من أجل الأرورا والربع التى يفلحها [تحدد الوثيقة حدود الأرض وتفاصيلها] بالقرب من قرية أوفيس ، مقدار اردب وربع أردب من القمح النظيف ، غير المخلوط ، خال من الحصى وخال من الشعير ومغربل حسب المكيال العام وطبقاً لمواصفات الكيل السابق ذكرها (واحد وربع الأردب قمح) ودون أن يستقطع منه أى مقدار وفاء لديون او اى سبب آخر . وعليه ان يقوم

ببذر هذه التقاوى فى الأرض بطريقة سليمة تحت إشراف الموظفين المختصين، وعليه أن يسدد كميه مماثلة من محصوله الجديد مضافاً اليها الرسوم المستحقه للدولة على الأرض، وعليك أن تأخذ منه الأيصال اللازم من نسختين، ابعث لى بواحدة منها. ١٨ هاتور. (١٤ نوفمبر)(٤٨).

لقد كانت الدولة ضامنة لحقوقها، أما الأفراد فكانوا يضعون شرطاً جزائيا وهو عشرة أمثال كمية بذور التقاوى المستدانه تدفع كغرامة تأخير كما نص على ذلك هذا العقد:

فى العام الثامن والثلاثين من حكم قيصر (يقصد أغسطس) بن المؤله السادس من شهر ارتيميسيوس المناظر للسادس من برمهات فى بيلوزيون قطاع ثيميستس من الاقليم (يقصد أرسينوى).

العام الثامن والثلاثون (من حكم) قيصر، برمهات ٦. سجل فى سجلات مكتب سجلات بيلوسيون، انا بيثيوس بن باترون، فارسى السلالة. أقر اننى تسلمت مباشرة من أكوسيلاءوس بن ثيون مقدار اردبين ونصف أردب من بذور الخضروات جديدة ونقيه وغير مخلوطة، وكذلك ستة ارادب ونصف من الشعير، وسوف اسدد الكل فى شهر بؤونة من العام الحالى الثامن والثلاثين لقيصر فى بيلوزيون مكيلة بالربعة. واذا لم اسدد فسوف اغرم مقابل كل أردب من تقاوى الخضار عشرة ارادب وبالنسبة للشعير ....(٤٩). أما تاريخ هذا العقد فهو الثانى من شهر مارس عام ٩ ميلادية.

وبالرغم من الرقابة الشديدة والتفتيش المستمر على الشون إلا أن نسبة ليست بالقليلة من قمح الدولة كانت تتسرب وتختفى ولا يعرف لها مصير اذ يشير الأستاذ نفتالى لويس الى وثيقة غير منشورة فى مجموعة جامعة ميشيجان عبارة عن خطاب أرسله أحد ولاة مصر فى القرن الثالث الميلادى الى حاكمى مقاطعتى ارسينوى، والقرى السبع يوبخهما فيه لتقاعسهما وتراخيهما فى مراقبة أمناء الشون، ويأمرهما أن يتولا الأشراف بأنفسهم «حتى لا يتسلم التقاوى أحد غير اولئك الذين يستحقون القمح اللازم للبذر..(٥٠).

لقد كانت السلطات حريصة على التأكد بأن القمح الذى صرف كتقاوى يجب الا يذهب لغير ذلك الغرض، ومن تم كان هناك مجموعة من المفتشين يكلفون من بين الوظائف الالزامية الشرفية للأشراف بأنفسهم على أن التقاوى بذرت فى الأرض ولم تباع فى السوق السوداء. ففى الرابع عشر من شهر توت (١١ سبتمبر) عام ١١٧ م وهو موعد إنحسار الفيضان

وظهور الأرض ، أودعت مجموعة من هؤلاء المفتشين المختارين من بين الموسرين من أعيان الريف والذين ادرجت اسماؤهم فى قائمة الخدمات الشرفية هذا التعهد والقسم عند حاكم مقاطعة القرى السبع وهذا نصه :

«الى ابو للونيوس حاكم مقاطعة القرى السبع فى اقليم أبو للونوبوليس من بخير يس بن يو اوريس و اورسينوفيس بن بتيمينيس ، مفتشى الفيضان بقرية نابوءو نقسم بعزة الأمبراطور قيصر تراجانوس هادريانوس اوبتيموس اغسطس جرمانيكوس داكيكوس بارتيكوس اننا سوف نشرف على حرث كل حيازات الاراضى المدونة ادناه لكى تكون معدة للفلاحة خلال ثلاثة أيام وإلا نكون مسئولين عن النتائج المترتبة على هذا القسم .

تتوالى أسماء تسعة فلاحين مصريين ما عدا أسماء واحدا اغريقيا ، ومساحات وحدود حيازة كل منها التى تتراوح من مساحة جزء من الارورا الى ست أرورات . التاريخ ١٤ توت . توقيعان ويلاحظ أن بخيريس قام بالتوقيع أيضاً نيابة عن زميله اورسينوفيس لأنه أمى(٥١) .

ولقد كانت الشهور التى تلى بذور الحب تتطلب إهتمام الفلاح لكى يتابع النبات بالرى وإقتلاع الحشائش الضارة . كما تضمنت بعض عقود الإجارات شروطاً خاصة ببعض الادوات والآلات الزراعية الموجودة فى بعض البساتين وحسن إستخدمها والحفاظ عليها . ففى عقد إجارة حرر عام ٢٢٣ ميلادية قام أحد أعيان مدينة اوكسيرينخوس وأسمه اوريليوس ديونيسو ثيون- وكان يشغل سابقاً وظيفة شرفية مرموقة هى مدير جمنازيوم ، وعضو بارز فى مجلس شورى المدينة المذكورة- بتأجير أرض بلغ مساحتها اثنان وعشرون أرورا وكانت تقع بالقرب من قريتى سكوومونيموس ، لرجل إسمه اوريليوس هاريوتيس بن فناس وتانيخوتيس من نجع مونيموس لمدة أربع سنوات وهى نفس الأرض التى يداوم على زراعتها منذ زمن طويل ، غير أننا نلاحظ أن العقد لم يحدد المساحة التى غطاها الفيضان أو تلك التى لم يصلها وذلك لأن العقد كتب عند بدء ارتفاع النيل ، غير أن جزءاً منها كان أرضا عالية لأن العقد ذكر أن بها ساقية بكامل لوازمها ، ويسمح المؤجر للمستأجر بزراعة كافة المحاصيل التى تروق له فيما عدا النيلة والكزبرة ، وقيمة الإيجار مائة وخمسة وأربعون أردباً من القمح بالأضافة الى عشرة أرادب من الحبوب

الزيتية ، أما إيجار الساقية وحدها فهو ثلاثمائة دراخماً مقابل تشغيلها مستخدما ماشيته والعمال اللازمين لذلك . ويشترط العقد أن يتولى المستأجر إصلاح الساقية اذا حدث بها عطب متحملاً أجور النجارين والخفراء دون أى الزام مالى من المؤجر ، وفى العام التالى اذ حدث ولم تصل مياه الفيضان الى جزء من الأرض يعاد النظر فى قيمة الإيجار لصالح المستأجر . ويتعهد المؤجر بدفع الضرائب وأن محصول الأرض يصبح ملكاً له اذا لم يتسلم النسبة الخاصة به كل عام . ويحدد العقد شهر بؤونة كموعد لدفع قيمة الايجار العينى المتفق عليه من الجرن مباشرة فى نجع مونيموس بحيث يكون نظيفاً غير مخلوط ، خال من الحصى ومغربل تماماً حسب مواصفات الشونة الحكومية وأن يكون المكيال حسب مكيال المالك ، أما مكيال الحبوب الزيتية فيكون حسب المكيال المستخدم فى معصرة الزيوت التى يملكها المؤجر . وعند إنتهاء مدة العقد يلتزم المستأجر بتسليم الساقية فى حالة طيبة وأن يقوم بأستبدال ما إستهلك منها من قطع غيار والا عليه أن يدفع قيمة أى شئ لا يسلمه ويحتفظ المؤجر بحق مقاضاة المستأجر والحجز عليه وعلى كل ما يملك . وفى الخاتمة يقر الطرفان بأن هذا العقد نافذ المفعول ويشترط أن يحصل المستأجر على إيصال من المالك بأنه سدد ما عليه(٥٢) . وكانت هذه المخالصات تكتب بصيغ قانونية ثابتة متعارف عليها وهذه إحدى المخالصات التى ترجع الى عام ١٢٥ ميلادية :

« ديمتريا الشهيرة ايضاً باسم تاسوس ابنة ابوللونيديس ومعى وكيلى ، الى انوبيون ابنى أريوس بن نيارخوس الشهير ايضا باسم منخيس ، بن سارابيون المزارع سلام . لقد كلت لى كل ايجار الأرورات الخاصة بى والتى تتولى انت فلاحتها من محصول العام التاسع المنصرم من [حكم] هادريانوس قيصر مولانا . وليس لى مطالبة نحوك باى شئ وسداد المال العام على أنا المالكة . السنة العاشرة من الأمبراطور قيصر تراجانوس هادريانوس اغسطس توت ١٣ (١٠ ديسمبر) أنا - أريوس بن نيارخوس اقر باننى وكيل أمى وكتبت نيابة عنها لأنها لا تعرف الكتابة(٥٣) .

لم تكن هموم الفلاح تنحصر فى توفير التقاوى قبل الموسم وتسديد الأيجار من الجرن ، بل كانت هناك مشكلة أخرى تقلقه وهى حماية محصوله من السرقة قبل الحصاد أو من اغارات الرعاة المشاكسين الذين

يهجمون بقطعانهم على الحقول فيتركونها أرضاً جرداء ، ولذلك فقد تضمنت بعض عقود الأجارة بنداً يعبر عن رغبة المستأجر فى توظيف حارس على الزرع . كما أن هناك شكوى متكررة من جور هؤلاء الرعاة الذين يحلوا لهم أطلاق العنان لقطعانهم للتعدى على حقول الغير . فالعداء بين الرعاة والزراع عداء قديم وهذا نموذج لإحدى هذه الشكاوى التى عثر عليها فى أرشيف مسئول الشرطة فى احدى قرى الفيوم وهو محفوظ الآن فى مكتبة جون رايلاندز بجامعة مانشستر بأنجلترا :

« الى جايوس يوليوس فولوس ، رئيس الشرطة من بطليموس بن ديديموس من اعيان قرية يوهيميريا[قصر البنات] فى قطاع ثمستيس . فى اليوم الأول من بؤونة الحالى من العالم الثالث من حكم جايوس أغسطس جرمانيكوس [٢٦ مايو عام ٣٩ ميلادية] قام داريس بن بطليموس وساراس بن بائيس واوروسوس - المكنى باسم فلكيس [Phelkis أى السكير] بن هيراقليوس ، وهم رعاة . قد أغاروا على حيازتى المخصصة لى بالقرب من القرية عند ناحيتها الغربية . واطلقوا قطعانهم التى رعت وسط اعواد الشعير الواقفة أو التى حزمت ، ما يقدر بـ ١٢ اردب من الشعير . وبناء عليه فانى ارجوكم آن ترسلوا تعليماتكم أن يمثل المهتمون أمامكم لينالوا العقاب المناسب . وداعاً(٥٤) .

ان تعدد البلاغات ضد رعاة الأغنام لأطلاقهم القطعان وسط الحقول سواء بطريقة مقصودة أو غير مقصودة ظاهرة قديمة فى الريف المصرى منذ أيام الفلاح الفصيح ، وتكثر فى المناطق المزروعة قرب الطرق العامة وفى المناطق التى يندر فيها وجود مراعى وأعشاب ترعاها الماشية ولهذا كان الزراع يضطرون الى حراسة حقولهم ، غير أن ذلك لم يمنع من حدوث تعدى الماشية على الحقول ، كما أن انتشار هذه الظاهرة كان يزعج سلطة الحكم الرومانى فى مصر لدرجة أن والى مصر أصدر قرب نهاية القرن الثالث قراراً ذهب فيه الى حد تهديد الرعاة علناً :

« ان أى راع يطلق ماشيته وسط محاصيل الغير تصادر ماشيته ويوقع عليه نفسه عقوبة صارمة »(٥٥)

وبالرغم من هذا التهديد الصادر من أعلى رأس فى جهاز السلطة الرومانية فى مصر الا أن هذه الظاهرة استمرت ولا تزال تتكرر فى الريف المصرى حتى يومنا هذا .

هموم الحصاد ومستلزماته :

وتمضى أيام الكد والعرق ، وتدور أيام السنة الزراعية ، ويحين وقت حصاد القمح وهو أكثر مواسم العام إزدحاماً بالعمل وهموماً للمزارعين وهم يترقبون المحصول ، ورغم أن الوثائق لا تعطينا جداول ثابته لمتوسط محصول الفدان حسب منطقته الزراعية وحالة النيل الفيضانية الا أن المتخصصين توصلوا الى الربط ما بين اجارة الفدان والضرائب المفروضة عليه وبين طاقته الإنتاجية ، فقد لوحظ أن كل فدان كان يحتاج الى اردب واحد من التقاوى ، وأن كل أردب تقاوى يبذر فى الأرض كان يعطى محصولاً يتراوح ما بين تسعة ارادب وسبعة وعشرين اردباً حسب درجة وقدرة ونوعية الأرض وحالة الفيضان(٥٦) .

كان موسم الحصاد هو موسم العمل للفلاحين مزارعين وأجراء وحمالين ، حيث تتحول الحقول الى خلية من النشاط من الشروق الى المغيب وتنشط الحركة التجارية فى القرية ، فقد كان الحصاد يحتاج الى تشغيل أيدى عاملة كثيرة سواء لخفر المحصول قبل الحصاد ، أو وهو فى الجرن ، وحمايته من حوادث الحريق العرضى أو المقصود التى كانت تحدث من آن لآخر وتكون كارثة على القرية بأكملها ، وكذلك من أعمال السرقة وهجوم الماشية ، أما غالبية الأيدى العاملة فكانت تشارك فى الحصاد ، وكان « عمال التراحيل » يتجولون من قرية الى أخرى ، وتشتد المنافسة ويرتفع الأجر ، كل يريد الحصاد قبل ارتفاع مياه الفيضان ، حتى أن الأجور ارتفعت الى مرة ونصف مما كان يتقاضونه فى الأوقات الأخرى من شهور السنة وفى مناطقهم الأصلية التى جاءوا(٥٧) منها .

كان القمح المحصود يجمع فى شكل حزم مربوطة تنقلها الحمير والبغال والجمال الى مكان الجرن العام فى القرية . وتوضح لنا إحدى وثائق اوكسيرينخوس كشفا لنفقات الحصاد تركه أحد المزارعين ذكر فيه أنه خلال أيام الحصاد الأربعة فى شهر بشنس استأجر عدداً من العمال الزراعيين بلغ أجر الواحد منهم ثلاثة دراخمات ونصف الدراخمة ، وأنه استأجر عددا من دواب الحمل دفع عن كل حمار دراخمتين فى اليوم الواحد ، أما المكارية الذين كانوا عادة من الصبية الصغار فقد بلغ أجر الواحد منهم دراخمتين إلا أوبولاً واحداً(٥٨) .

وفى موقع الجرن الذى يتفق عليه مزارعو القرية يتم تجميع الحزم فى أكوام عدة ، أما الضياع الشاسعة فكان لها جرنها الخاص بها ، وفى حالات كان هناك أكثر من مكان للجرن فى القرية الواحدة اذا كانت الحقول بعيدة ومتناثرة توفيرا للوقت ولنفقات النقل . وكان على كل مجموعة اجران أن توظف خفيراً أو أكثر لحراستها من اللصوص أو إندلاع الحريق ، كما كان عليهم توظيف آخرين للكشف عن جودة الدرس ومنع الخلط والغش وكافة العيوب التى تقلل من قيمة المحصول وكان هؤلاء المشرفون يختارون عن طريق التكليف لأداء الخدمات الالزامية العامة بدون أجر . فمن إحدى الوثائق البردية عرفنا أن أهل قرية معينة اضطروا الى الاستعانة بعدد من هؤلاء لحراسة الأجران أثناء عملية الدرس ، ولحراسة المحصول بعد عملية التذرية وقبل تكييله للتأكد من نظافة القمح ومنع الغش والخلط ، ولمساعده جامعى ضريبة القمح لحراسة الشون الحكومية ومنع فك أختام المخازن ، والتاكد أن أجولة القمح لم تفتح ولم يتسرب منها شيء(٥٩) .

وفى عرف القانون يظل محصول الأرض من القمح ملكاً لصاحبها مالم يسدد له المستأجر الإيجار العينى من المحصول ، وكان عادة يبدأ به المستأجر ، ثم يليه تسديد ضريبة الدولة من القمح حيث يتواجد مندوبو ضريبة القمح(Sitologoi) لتسلمها من الجرن مباشرة ، وما يتبقى ينقله الفلاح الى بيته . وفى أغلب شروط العقود يلتزم المؤجر بتحمل نفقات نقل نصيبه من الجرن الى بيته بينما يتحمل المستأجر نفقات نقل كمية القمح المقدرة على الأرض كضريبة القمح من الجرن حتى الشونه .وعند تسليم مقدار الضريبة يتسلم الفلاح إيصالاً فى شكل قصاصة من ورق البردى او قطعة أوستراكا تبين كمية القمح المسلم الى الشونه واسم المورد والتاريخ الذى تم التوريد فيه ثم توقيع أمين الشونه بالأستلام(٦٠) ، وأحياناً يسجل مندوب ضريبة القمح فى دفاتره كمية الحبوب سواء من القمح أو من الشعير أو العدس التى سلمت للشونه خلال شهر بؤونة من قبل عدة أفراد ومن عدة قرى(٦١) .

ويالبت عند هذا الحد إنتهت إلتزامات الفلاح أمام السلطة ، بل كان عليه أن يساعد فى نقل القمح من شون التجميع الى أقرب ميناء على النيل حيث يتولى أسطول من المراكب الشراعية نقل القمح الى الأسكندرية ،

وهناك يكون الأسطول الرومانى Classis المختص بنقل القمح من مصر الى روما جاهزا فيتم تحميله ويبحر عائدا محملاً بكد الفلاح وتعبه .

أما التبن المتبقى من عملية التذرية فكان يكبس فى شباك من الحبال المجدولة من «ليف» النخيل ، وينقل ليحفظ كعلف للماشية أو كوقود ، بل كان يدخل فى صناعة الطوب المحروق . وحتى التبن لم تتركه السلطه الرومانية للفلاح ، اذ الزمته بنقل كميات منه لاستخدام معسكرات الجيش الرومانى أو كوقود للحمامات العامة .

المحاصيل التسويقية :-

لم يكن الفلاح المصرى منتجاً للحبوب الغذائية وحدها ، إنما كان ينتج أنواعاً مختلفة من الفاكهة والخضروات ، فقد كانت هناك بساتين الكروم والزيتون والنخيل ، فقد عرفت مصر الفرعونية زراعة الكروم وعصره وتخميره ، كما دخل النبيذ الشعائر الدينية المصرية فى اراقته على موائد القرابين ، وتقديم عناقيد العنب كقرابين للالهة المصرية خاصة اوزوريس .

وكما هو قائم اليوم فى بعض قرى الفيوم ، فقد كانت بساتين الكروم تحاط بأسوار من البوص والطين حماية لها من تعديات الأنسان والحيوان ، وغالبأما كانت هذه البساتين تحوى عدداً من نخيل البلح «طعام الفقير وحلوى الغنى ، وزاد المسافر والمغترب» كما وصفه أحمد شوقى ، كما أن زراعة النخيل وسط بساتين الكروم كانت تظلل عليه بطلعها النضير فتحميها من حرارة الشمس اللافحة ، وقدر رأينا فى مذكرة الفلاخ الزراعية حرصة على ذكر موسم جنى البلح وقطف الزيتون . كانت زراعة الكروم تتزامن مع زراعة المحاصيل البقولية . ففى شهرى طوبة (يناير) وامشير (فبراير) يكون قد مر على موسم البذر وقت كاف ، عندئذ يبدأ تقليم فروع الكروم القديمة ، واعداد الأرض لوضع شتلات جديده . أما موسم قطف العنب فكان يتم خلال شهرى مسرى وتوت (اغسطس وسبتمبر) ، أى بعد الأنتهاء من حصد ودرس القمح والشعير مباشرة ، فكانت العناقيد تجمع فى سلال ، وتحمل الى معاصر خاصة مصنوعة إما من الخشب أو الحجر حيث يقوم العمال بعصرها بأن يدوسوا عليها باقدامهم جيئه وذهاباً وهم يتراقصون ويغنون على عزف المزمار والناى ، وبعد الأنتهاء من عملية

العصر يعبأ عصير العنب فى جرار محكمة ، مطلية بالقار من الداخل حتى لاتنضح بمافيها، ثم تعرض لحرارة الشمس أما مباشرة أو بعد مضى اشهر . وبفعل الحرارة والبخر يتحول عصير العنب الى سائل ثقيل حلو المذاق ، بعد ذلك يصفى هذا السائل من الشوائب ويعاد تعبئتة فى جرار جديدة ، حيث يصبح معداً للأحتساء . أما إذ اريد تعتيق النبيذ الجيد فإنه يوضع فى جرار يكتب عليها تاريخ العصر والتخزين وتحفظ فى فناء مكشوف كما نفهم من أحد عقود العمل فى حقل كروم وتأجير بستان زيتون ونخيل وفاكهة مؤرخ عام ٢٨٠ ميلادية(٦٢) .

كان الزيتون أحد المحاصيل الرئيسية التى زرعت فى مصر منذ عصور عتيقة ، وكان غرس أشجاره وقطف ثماره يلى مباشرة عملية قطع وجمع عناقيد العنب إبتداءً من أواخر شهر بابه (أكتوبر) وحتى شهر طوبة (يناير) وهو موعد تشارك فيه مصر كافة بلدان حوض البحر المتوسط ، إلا أنه بالنسبة للمزارع المصرى كان موعداً مناسباً للغاية ، لأنه يكون قد انتهى من قطف العنب وقبل أن ينشغل فى موسم حصاد القمح ، ولقد ارتبط الزيتون بالنخيل ، ولذا كانت بساتين الزيتون تشمل على عدد من أشجار النخيل ، فقد كانت البساتين « تحوط » بالطين والبوص لحمايتها من غارات قطعان الماشية والأغنام فى المراعى القريبة . ففى بلاغ آخر للشرطة محفوظ أيضا فى مجموعة ريلاندز ،ومحرر عام ٣٤ م قدمه أحد أصحاب بساتين الزيتون ضد أحد الرعاة ، بين فيه أن قطعان هذا الأخير قد إقتلعت وأفسدت ما يقرب من مائتى زريعة زيتون جديدة(٦٣) . ولم يكن أصحاب بساتين الزيتون يسوقون كل ما يجمعونه من المحصول ، إنما كان يحتفظون لأنفسهم بمقدار معقول للأستهلاك المنزلى يؤكل طازجاً أو مملحاً ، أما الباقى فينقل إلى المعاصر أما لبيعه لأصحابها أو لعصره مقابل اجر يدفع عينا أو مالاً . كما كان الناتج من بقايا عملية العصير يستخدم فى أغراض صناعية كثيرة أو كعلف للماشية .

ومن المحاصيل الزيتية التسويقية التى تلى الزيتون فى الأهمية وزرعت فى مصر على نطاق واسع فهى : الكتان والقرطم والسمسم ، لأن الطلب كان شديدا على الزيوت ، حتى أنه تم التعرف من خلال شواهد قبور

كرم ابوللو على مهنة بائع زيت ، وكان ينتج من زيت الزيتون نوع فاخر مخصص لدهان أجسام الرياضيين بعد الأنتهاء من التمارين أو المباريات وبعد أخذ الحمام . كما كان يستخدم فى تركيب بعض الأدوية وللعلاج . أما النوع متوسط الجودة فكان يستخدم فى الطهى والطعام ، أما زيت الدرجة الثالثة فكان يستخدم فى أضاءة القناديل والمشكاوات والمسارج .

وكما إرتبط الزيتون بالتين إرتبط أيضا بالنخيل(٦٤) تلك الشجرة المباركة هدية بلاد الرافدين الى مصر منذ عصور ضاربة فى القدم ، إذ كانت واحات النخيل تنمو من تلقاء نفسها فى الصحارى ، كما كانت بساتين النخيل تزرع أيضا فى الأرض السوداء مع أشجار التين والزيتون وكروم العنب ، ولقد ذكرت الوثائق عدة أنواع من التمر أشهرها التمر الشامى . كان التمر يؤكل طازجا (Chlorus) أو يكبس فى سلال من سعف النخيل(٦٥) ليضع منه عجوة (Patetos) ، أما جريدة فكان يصنع منها الأسرة والاقفاص . كما كان سعف الجريد الأخضر له مغزى دينى خاصة فى الشعائر الجنائزية كرمز للخلود ، ولا يزال بعض فلاحى الفيوم يحملونه عند تشييع موتاهم حتى يومنا هذا . كما عرف المصريون منذ عصور ضاربة القدم صناعة جدل السلال من سعف النخيل ، وجدل الحبال من ليفه ، كما أستخدمت افلاقه فى بناء المنازل ، وأعجازه كوقود ، وجماره كغذاء نادر . كان تلقيح النخيل تقوم به رياح الخماسين فى أغلب الحالات ، لذا وجد بين القرابين الطينية التى كان يقدمها الفقراء نماذج للمعبود بريابوس Priapus - صنو مين المصرى - والمختص بتطليع النخيل(٦٦) . وعندما ينضج التمر فى عراجينه المتدلية بفعل حرارة فصل الصيف ، يبدأ موسم جنيه مع بداية الخريف ومع أول شهر فى السنة المصرية وهو شهر توت حيث يستمر الموسم حتى هاتور (نوفمبر) ، وخلال هذه الشهور الاربعة يكون المزارع قد إنتهى من موسم غرس فسائل العنب الجديد ، ويكون الزيتون قد أينع ووجب قطفه ، وهكذا ينتهى موسم غرس العنب ليبدأ موسم قطف الزيتون وعصره ، ومن المحاصيل البستانية التى تردد أسمها فى الوثائق الخوخ (Periskon) والليمون ، (Kitrion) والتفاح (Melon) والشمام (Leuko Peiona) والخروب (Caryotos) وتين الصيف (Sukos therinos) وتين الشتاء (Sukos Cheimerinos) والرمان والكمثرى .. والجميز والنبق .

أما المحاصيل البقولية الأخرى فيأتى على رأسها الفول البلدى والعدس (Lenticula) والحمص والقثاء والبصل والثوم والخس البلدى والخبيزة والتى كان الفلاحون يعتمدون عليها كأهم مصدر للغذاء. كما عرفت مصر زراعة البرسيم لأطعام الماشية الى جانب الأعشاب الطفيلية والمتسلقة التى كانت تنمو بين الزراعات ويقوم الفلاح بأجتثاثها أولاً بأول، وفى الصيف تتغذى الماشية على الدراو الصيفى البديل للبرسيم الشتوى بالأضافة الى أعواد الذرة والدريس المجفف وكذلك الذرة العويجة (Olyra) والشعير (Krithos) والتبن.

وهناك محاصيل زيتية بحته ولا علاقة لها بالغذاء مثل الكتان (Linon) والذى من بذورة يستخرج زيت الكتان، وبعد تعطينه يستخرج منه خيوط تنسج على الأنوال ليصنع منها النسيج، ومنه أيضا كان ينسج نوع فاخر كان يصدر لكافة بلدان البحر المتوسط وعرف بأسم البيسوس Byssos حيث كان الطلب عليه شديدا.

أما ملك النباتات البرية - بلامنازع - فقد كان نبات البردى الذى اعتبر نباتا ملكيا أى من ممتلكات الفرعون (با - بر - عو) ومن الاسم المصرى اشتق الأسم اليونانى (Papyrus)، وهو نبات مائى ينمو فى المستنقعات والأحراش خاصة فى الدلتا. ومنذ أن عرف المصريون الكتابة عرفوا استخراج الورق من هذا النبات بتقطيع سيقانه ثم لصقها بعضها ببعض ليصنع منه لفافات الورق فى المصانع الملكية، ويصدر الى كافة بلدان العالم المتحضر بينما يستهلك الباقى محليا. ومن الوثائق عرفنا أن هناك نوعين من نبات البردى: نوع ينمو بريا فى الأحراش من تلقاء نفسه، ونوع يزرع بهدف الربح خاصة فى الأرضى القريبة من المستنقعات والبرك والبحيرات. وظل العالم يعتمد على ما يستورده من مصر من لفافات البردى الذى عرفه العرب فى الجاهلية باسم قراطيس مصر أو كواعبها حتى ابتكروا فى مطلع العصر الأسلامى الورق والذى انتشرت مصانعه فى القاهرة الاسلامية مما أدى إلى انقراض زراعة نبات البردى ليدخل متحف التاريخ(٦٧).

ولقد لعب نبات البردى دوراً حيويا فى حياة المصريين منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى العصر الأسلامى. فمن سيقانه التى كانت تقطع

وتربط فى شكل حزم صنع الفلاح أعمدته الأولى التى بنى منها أكواخه ، وحتى بعد معرفة قطع ونحت الاحجار ظل يتذكر حزم البردى عندما نحت أعمدته فى شكل حزمة البردى . ومن البردى ايضا صنع المصرى قواربه الصغيرة التى كان يستخدمها كوسيلة انتقال بين القرى عندما يغطى الفيضان الوادى كله وتبرز القرى والمدة كجزر عائمة مترامية ، كما استخدمت هذه القوارب أيضا فى صيد الأسماك والطيور البرية أو التنزه والنقل الخفيف فى نهر النيل ، ومن طلع النبات كانت تجدل الأكاليل (Stephane) التى تزين بها تماثيل المعبودات والأباطرة فى الأعياد والمناسبات كبديل عن أكاليل الغار الذى كان لاينمو فى مصر . ولقد كان لنبات البردى سائل حلو المذاق . بجرى فى سيقانه الخضراء ، ولذا كان المصريون يمضغونه على نحو ما يفعلون بقصب السكر اليوم . وفى بعض الاحيان كانت سيقان البردى تقطع وتسلق فى الماء ليصنع منها حساءً جيد ، وحينا آخر كانت هذه السيقان تجفف فى الشمس ثم تطحن فى مطاحن خاصة ليصنع منها نوع من الدقيق الفاخر يصنع منه الشطائر ، أما جذوره المتخشبة فكانت تستخدم كوقود أو فى صناعة بعض الأثاث والأدوات المستخدمة فى الزراعة ، وفى بعض الأحيان كان يستخرج من لحاء هذا النبات بعض الخيوط التى كات تجدل أو تغزل لتصنع منها السلال ، والحصر (مثل الحلفاء) والمخادع والوسائد والأغطية ، وقلاع الفاخرة ، المراكب والحبال والصنادل وفتائل المصابيح وكذلك بعض الثياب الخشنة .

ولم يكن لهذه الصناعات المستخرجة موسماً محدداً لأن إقتلاع البردى الناضج كان يتم على مدار العام ، ولذلك فأن تصاريح إقتلاعه كانت مؤرخة طوال الشهور من طوبه (ديسمبر - يناير) وحتى شهر مسرى (اغسطس) وهناك إيصال سداد ضريبة تقليع سيقان البردى صدر فى أرسينوى ومؤرخ فى ١٣ هاتور (٩ نوفمبر) عام ١٧٤ م مقابل التصريح بأقتلاع ٢٠,٠٠٠ عود بردى[٦٨] وهناك عقد يرجع إلى عصر الأمبراطور أكتافيوس أغسطس يتضح منه كيف أن عملية تقليع سيقان البردى من مزارعه المؤجرة فى الدلتا كانت تتم يومياً خلال ستة شهور من بؤونة (يونيو) إلى هاتور (نوفمبر) . ومن وثائق البردى نعرف أن وحدة التعامل فيه كانت بالألف عود لكثرة إنتاجه ، ولذا كانت مصر المورد والممون الأوحد لكافة دول البحر المتوسط بالورق ، وفى وثيقة أخرى

إقترضت مجموعة من مستأجرى مزارع البردى مائتى دراخما (٢٠٠ دراخما) بدون فائدة على الدين ولكن بشرط أن يبيعوا محصول البردى إلى دائنيهم بسعر يقل كثيراً عن سعر السوق، وكانوا يقتلعون يومياً حوالى ٢٠,٠٠٠ «باط» (أى مايقدر الرجل على ضمه بين ذراعية) و٣٣٠٠ حمل (ثلاثة أضعاف الباط) من سيقان البردى[٦٩]، وهناك عقد اجارة مؤرخ فى العام الخامس ق. م خاص بتأجير حق الإنتفاع بنبات البردى لمدة عامين، من دراستها المتأنية يتضح أن فترة نشاط إقتلاع البردى كانت تمتد فى الفترة مابين شهر برمهات (أمشير)، حتى نهاية مسرى (أغسطس). كذلك لاحظنا من خلال بنود هذاالعقد ذاته أن قيمة الأجارة لهذا الحقل بلغت ضعف ما كان يدفع خلال الستة شهور الأولى من العام أى من توت (سبتمبر) وحتى برمهات (مارس)[٧٠]. وفى هذا العقد أيضا اتفق المستأجرون فيما بينهم على الا يدفعوا للأجراء العاملين فى هذا المجال اكثر من الأجر السائد فى المنطقة وهذا أشبه بتنسيق ودى بين منتجى البردى لكى يحافظوا على سعره عاليا بمنع التنافس والمضاربة واغراق السوق مما يؤدى إلى انخفاض سعره، وهذا بالطبع كان لا يتطلب تشجيع العمال برفع أجورهم.

الفلاح وما شيته:

يقول هيرودت مستغربا:

«ويسكن سائر الناس فى عزلة عن الحيوانات، اما المصريون فيسكنون مع حيواناتهم»[٧١]. ويرد الدكتور احمد بدوى على هيرودوت بقوله: «يقصد (هيرودوت) الأليف من الحيوان. ولسنا نستغرب من المصريين أن يعنوا بالحيوان أكثر مما يعنى به غيرهم من شعوب الأرض، فمصر قد كانت - ولا زالت - تعتمد فى بناء حياتها على الزراعة، ولن يعيب المصريين أن يعنوا بحيوان الزراعة على النحو الذى رآه هيرودوت وإستغرابه منه» ونحن مع رأى الدكتور أحمد بدوى لقد اعتمد الفلاح المصرى على الماشية فى كثير من الزراعة كجر المحراث ودفن البذور ودرس القمح، كما استخدم روثها فى تسميد الأرض، كما استخدمها أيضا كمصدر للغذاء كاللبن ومشتقاته واللحوم، مضيفاً إلى غذائه الذى كان يقوم أساساً على المواد الكربوهيدراتيه بروتينا حيوانيا مكملاً، بينما

ويرى جمال حمدان أن الثورة الزراعية فى مصر لم تنفجر إلا فى العصر الحجرى الحديث نتيجة «لأجتماع الأنسان والحيوان بعد إستئناسة»(٧٢).

ويقول هيرودوت أيضا :

«ولكن عندما يفيض النهر عندهم من تلقاء نفسه، ويروى الحقول، ثم ينحسر ثانية بعد ريها، هناك يلقى كل منهم بالبذور فى حقله، ويطلق فيها الخنازير، وعندما تدوس هذه البذور وتغرسها، ينتظر بعدئذ موسم الحصاد. وهناك يدرس القمح بواسطة الخنازير، ثم يحمل بعد ذلك إلى الدار(٧٣).

• ويعلق الدكتور أحمد بدوى على مقولة هيرودوت بقوله : «كان المصريون القدماء - إذا ما حل موسم الزرع واستعدت الأرض لاستقبال الحب - يطلقون عليها بعض أنعامهم من الضأن والخنازير ليكسبوها اللين والنعومة، وليسووا تربتها بعد الحرث. أو ليدفنوا فيها الحب إذا كانت رطبة لم تجف بعد. وقد ظل استخدام الخنازير فى ذلك أيام الدولة الحديثة معروفا، بل يظل قائما حتى أدركه هيرودوت عندما زار مصر. واكبر الظن أنه ذكر الخنازير (الديوس) لذيوعها فى الدلتا، وذلك لتوافر المراعى الصالحة لحياة الحيوان. وأن المصريين لم يستخدموا الخنازير وحدها فى درس محاصيلهم، ولكن إستخدموا أيضا غيرها من الأنعام كالبقر والحمير».(٧٣).

دواب الحمل :

ويعد الحمار من أقدم وأهم وسائل النقل والمواصلات وحمل الأثقال، ولا ينافسه فى ذلك إلا الجمل الذى دخل مع مجىء الفرس اليها فى اواخر القرن السادس ق . م . فقد كانت هذه الدواب تحمل أدوات الزراعة وآلاتها بالاضافة الى أحمال السباخ وأجولة التقاوى والمحصول، وجرار النبيذ وزيت الزيتون والتين وأعواد الذرة، بالاضافة الى ذلك كانت تحمل الناس وأثقالهم الى أماكن لم يكون بالغيها إلا بشق الأنفس. كان الحمار وسيلة الانتقال الخاصة بالفلاح عندما يذهب من داره الى حقله أو يعود من حقله الى داره. ولهذا كان الحمار سلعة مطلوبة شغلت حيزا فى عقود البيع خاصة فى القرن الثانى الميلادى حيث كان سعر الحمار يتأرجح ما بين ٥٠ دراخما الى ٣٥٠ دراخما وذلك حسب عمره، ونوعه ذكراً كان أم انثى، وحالته البدنية. بينما تارجح سعر الجمل ما بين ٢٠٠ دراخما

و ٨٠٠ دراخما . ولإظهار أهمية دواب الحمل يمكننا أن نقارن بين أسعارها وبين القيمة الشرائية لما يدفع فيها . إذ أن أدنى سعر للجمل كان يساوى أجر عامل لمدة تتراوح من شهرين الى أربعة شهور أو ما يقابل ثمن ستة أردب يونانية (اردبين مصريين) من القمح كافيه لأطعام أسرة تتكون من أربعة أفراد ولمدة شهرين(٧٤) . رغم ذلك لم يخل بيت الفلاح متوسط الحال من أحد هذين الدابتين . أما الفلاح المعدم الذى لا يملك أى منهما فقد كان مجبراً على التعامل مع الحمارين والجمالة لنقل محصوله، أو إكتراء دابة من أصحاب الاصطبلات لقاء أجر معين لقضاء مصلحته.

أما الحصان فكان وجوده رمزاً للثراء ولا يملكه الا الأعيان ووجهاء الريف ويتضح من أوراق البردى أن الجواد العربى قد لعب دورا هاما فى حياة الناس . فقد دخل أصلاً مع الهكسوس وهم قوم ساميون عندما غزوا مصر (١٧٠٠ ـ ١٥٠٠ ق . م)، غير أنه ظل منذ ذلك الوقت وسيلة حربية، ارتبطت بالجيوش . وفى عصر البطالمة لعب سلاح الفرسان(Hippeis) دوره فى الجيش البطلمى ولذلك حرص البطالمة على جلب الخيول العربية الأصيلة من الشام وفلسطين . ففى أوراق زينون كان الشيخ طوبيا زعيم شرق الأردن يتولى هذه المهمة، كما جلب البطالمة الخيول من قورينى فى ليبيا ولذلك كانت الفيوم بحكم طبيعتها التى تشبه طبيعة بلاد العرب مركزاً لتربية وتدريب الخيول حيث سكنها أغلب الجنود المرتزقة والبدو الذين وطنهم البطالمة فى ذلك الأقليم بعد التوسع فى إصلاحه . ولما دخل الرومان وسرح الجيش البطلمى بعد هزيمة كليوباترا أصبح الجيش الرومانى وحده هو صاحب السلطة فى إستيراد وتدريب الخيول ونقلها الى كافة انحاء الأمبراطورية وبالرغم من ذلك إحتفظت بعض الأسر الثرية بالخيول لممارسة رياضة الفروسية ولسباق جر العربات تقليدا للألعاب الاولمبية الأغريقية .

والى جانب ذلك استخدمت دواب الحمل أحياناً فى جر الأثقال وادارة السواقى خاصة اذا هرمت، الا أن الثور كان الحيوان المفضل فى مثل هذه الأعمال الشاقة، فقد ظهر مصوراً وهو يجر المحراث ويدير الساقية أو ينقل مواد البناء، إما بمفرده أو بمساعدة ثور آخر .

الماشية والأغنام :

لعبت الأبقار والثيران دوراً هاماً فى الريف المصرى[٧٥]. فقد ظهرت مصورة على جدران مقابر منف فى الأسرة الخامسة (٢٤٩٤ - ٢٣٢٥ ق.م) ، وبالطبع دخلت الثيران والأبقار قبل ذلك بكثير ، فقد ظهر الثور كأحد رموز الكتابة التصويرية (الهيروغليفية) المستمدة من البيئة المصرية[٧٦]. كما عرفت مصر عبادة العجول المقدسة فى منف والمداموود كرمز لأوزوريس وحابى. والتى طورها البطالمة الى عبادة سيرابيس[٧٧]. ومن الناحية العملية استخدام الثور فى جر الأثقال كما سبق وأن بينا. كما استخدم فى التقليح واختيار سلالات جيدة للتناسل. ومن الصور المنحوته على الآثار فى العصور الفرعونية. ومن وثائق البردى فى العصرين البطلمى والرومانى تظهر الثيران والأبقار وهو تنحر كأضاحى فى المناسبات الدينية الكبرى والأعياد الأمبراطورية وفى ولائم الأثرياء ، أما فى المناسبات الصغرى فقد كانت الحيوانات الأدنى مرتبة هى التى تقدم كأضاحى ، حيث كان يحرق الفخد الأيمن على مذبح معابد الآلهة ، بينما يستخدم باقى الاضحية كوليمة بعد الانتهاء من الشعائر المقدسة عليها. أما بالنسبة للأبقار فقد كانت تستخدم كمصدر للحصول على الألبان. وكان لبن الأبقار للشرب وصناعة الزبد الا أن لبن الأبقار كان يعتبر أقل جودة من لبن الأغنام والماعز فى صناعة الجبن. وقد أخذ الأغريق ذلك عن المصريين ، اذ لم تذكر المصادر المصرية أى شىء عن صناعة الجبن من لبن البقر [٧٨]. بينما ذكر أرسطو صراحة أن لبن الأبقار أقل جودة من لبن الأغنام والماعز فى صناعة الجبن[٧٩]. بعكس الحال عند الرومان الذين اعتبروا الجبن المصنوع من لبن الأبقار هو أجود أنواع الجبن[٨٠].

أما الماشية الأخرى التى تردد ذكرها فى الوثائق فهى الأغنام والماعز والخنازير والتى - كما سبق أن ذكر هيرودوت كانت تستخدم لدفن البذور فى التربة عندما تدوس عليها ، كما إستخدمت لفصل القمح عن سنابله فى الأجران قبل دخول النورج. ورغم ذلك كان لحم الخنزير محرماً فى الديانة المصرية ، ولقد أخذ اليهود هذا التحريم عن المصريين وحتى القرن الثالث الميلادى كان يحظر استخدام الخنازير فى الشعائر الدينية

المصرية لأنها نجسة ، فى حين كان لحمها محببا لدى الأغريق والرومان خاصة فى الشعائر الدينية الخاصة لهما فعندما أصدر الأمبراطور كاراكاللا قراره الشهير عام ٢١٥ م بطرد الفلاحين المصريين الهاربين من الريف من مدينة الاسكندرية استثنى من هذا الطرد تجار الخنازير(٨١). وخلال حكمهم لمصر حاول الرومان تشجيع السكان على تربية وأكل لحم الخنزير . وبعكس ما كان معروفا بالنسبة لسائر الماشية الأخرى لانستطيع تقدير أعداد الخنازير التى كانت تربى باعداد كبيرة إلا أن ضريبة شهيرة كان الرومان يجبونها كانت تسمى ضريبة الخنازير (υiκη) تتردد دائما وبكثرة فى وثائق الضرائب خاصة فى أقليم الفيوم(٨٢) ويؤكد ذلك عثورنا على عظامها الفوسفورية التى نميزها بسهولة لشدة بياضها وكذلك أسنانها اللولية التى استخدمت فى صناعة القلائد والحلى(٨٣). ولا نعرف مدى استجابة المصريين لأغراء الرومان الا أننا متأكدون أنها كانت لحما شهيا فى معسكرات جنودهم .

أما فيما يختص بالأغنام وقطعان الماعز فنعرف بعض الأرقام عنها فى سجلات الزراعة وفى التقارير التى كان ملاكها يقدمونها للسلطات لتقدير الضرائب عليها فقد أخطر أحد الملاك فى العام الخامس قبل الميلاد السلطات بأنه يملك ٥٦٦ رأس غنم و٢٥ رأس ماعز ، مقسمة الى خمسة قطعان . كل قطيع يتولاه راع مستقل(٨٤) . وفى عام ١١٨ ميلادية أبلغ آخر أن لدية ٥٥٩ رأس غنم و٢٠٩ حمل صغير وعشرة من الماعز وكبش كبير مقسمة الى عدد من القطعان (٨٥) . ويلاحظ أن الخراف كانت تفصل عن الشياه ولكل نوع راع متخصص . وعرفنا من اوراق البردى أن سارابيون أحد أثرياء الريف الذى انتقل مع زوجته سيلينى للعيش فى مدينة هرموبوليس حولى ١٠٠ ميلادية كان يمتلك أكثر من الف رأس من الغنم ومن الماعز(٨٦) . وفى إحدى القرى أثبت الاحصاء وجود ٤٢٤١ رأس من الغنم و ٣٣٦ من الماعز(٨٧)، بينما فى قرية أخرى أقل حجما سجلت الاحصاءات ٨٢٩ رأس غنم و ٢٨ رأساً من الماعز(٨٨) .

لقد ذكرت الوثائق أنواعاً وسلالات متعددة من الأغنام منها المصرى (البلدى) والعربى والنوبى (السودانى) واليونانى والأسيوى وكان ببعضها يعطى صوفاً فاخراً وذلك بكسوتها بغطاء من الجلد أثناء نمو

صوفها لكى يصبح ناعم الملمس كالحرير ، وهو أسلوب كان يمارسه رعاة آسيا الصغرى ، ونقل الرومان تجربتهم إلى إيطاليا واليونان ومصر . وعموماً كان جز الصوف يتم مرتين فى العام ، مرة فى الشتاء وبالذات فى شهر طوبة ، والمرة الثانية فى الخريف فى شهر توت (سبتمبر)وقد لوحظ أن الطلب على الصوف يزداد فى الصيف استعداداً لموسم نسيج ثياب الشتاء بينما ترتفع أسعار التيل فى الشتاء استعداداً لصنع ملابس الصيف .

كان الجبن المصنوع من لبن الغنم هو أفضل أنواع الجبن ولهذا كان الطلب عليه شديداً . وتقرأ فى الوثائق أن الجبن كان يقطع الى قطع كبيرة وقطع صغيرة ، كما نسمع عن جبن معتق أو مجفف (الجبن القديم) جنبا الى جنب مع الجبن الأخضر المشبع بالماء ، وفى حالات كثيرة كانت كلمة جبن تذكر بلا تحديد . ولقد كانت الماشية ذات فائدة حتى بعد ذبحها ، فقد كانت جلودها تسلخ وتدبغ ليصنع منها قرب لحفظ المياه واللبن والبلح . وأفضل أنواع القرب تلك التى تؤخذ من جلود الماعز ، لكن الأمر لم يمنع استخدام جلود حيوانات أخرى كالخنازير والأغنام كما صنع من جلود البقر أنواع فاخرة من الأحذية وبعض الثياب بل والدروع . كما عرف المصريون صناعة الطبول من رقائق الجلد ، كما استخدمت قرون الحيوانات فى صناعة الأبواق ومقابض الخناجر والمدى ، أما عظام الجمال فقد استخدمها البدو كمادة للكتابة بدلاً من الأوستراكا . ولا نستبعد إستخراج الغراء من أظلافها .

الطيور الداجنة :

كان الأوز هو الطائر المفضل عند الفلاح المصرى منذ أيام الدولة القديمة ، فقد ظهر مصوراً عدة مرات على الحوائط فى المقابر . كما صور الفلاح وهو يقوم بتزغيط الاوز لتسمينه ، فقد كانت الاوزة هى الأضحية المفضلة للفلاح الذى كان فى حاجة ماسة الى ماشيته وأغنامه . وفى الوثائق تظهر مهنه راع الاوز وكان « رعاة الأوز » لايقلون أهمية عن رعاة الغنم ، ففى اثنين من عواصم أقاليم مصر كان يوجد بكل منهما حى يسمى بحى رعاة الأوز .

اما الدجاج فلم يعرف فى مصر الا منذ العصر البطلمى او قبله بقليل اى ربما جاء به الفرس الى مصر من آسيا الصغرى مثلما جاءوا بالجمل. وسرعان ما انتشرت تربيتة من اجل بيضه ولحمه فقد كان البيض احد المواد الأساسية فى غذاء الفلاح وأقبل على تربيته حتى أصبحت بيوت الفلاحين تعج بالدجاج ، وأصبح الديك القربان المفضل لدى الفلاح يقدمه فى المناسبات الدينيه خاصه فى العصر الرومانى ، فقد وجدت دمى من الطين للديوك ، بل صور حورس طفلا يمتطى إحداهما كرمز للأضحية التى كانت تقدم فى مراحل مختلفة من نمو الأطفال كالفطام أو المشى(٨٩).

كما أشتهر الفلاح المصرى بتربية الحمام ، فقد كشفت أعمال التنقيب عن وجود ابراج للحمام فى القرى وفوق أسطح المنازل ، بل تردد إسمه فى الوثائق من القرن الأول حتى القرن الثالث . وكان يربى من أجل المتاجرة والتربح او من أجل الأستهلاك المنزلى ، وقبل كل شىء كان زبل الحمام مطلوبا لتسميد أشجار الكروم والفواكه حتى أن بعض عقود اجارة بساتين الكروم كانت تشترط فى أحد بنودها على المستأجر أن يسمد الكروم بزبل الحمام .

(ب) الحرف والمهن والصناعات

لقد أدى اكتشاف الزراعة الى ابتكار أدوات وآلات ، بدأت بدائية ثم أضافت اليها الخبرات الفردية ما إستطاعت أن تصل اليه عن طريق القدرات الخاصة حتى أصبحت أكثر تعقيداً مما أدى الى مولد تخصصات مهنية وحرفية ظهرت لخدمة الزراعة ، بالأضافة الى ذلك كما يرى تشايلد فان ظهور المدن أدى إلى ظهور تحديات واجهت الأنسان ، واجهها هو بدوره بخلق التخصص ، ففى مجال الزراعة نفسها أصبح هناك رعاة ومزارعون ، كما كان هناك أهل الريف وأهل الحضر ، غير أن مجتمع المدينة كان أكثر تعقيداً مما ساعد على ظهور التخصص المهنى والحرفى ومولد الصناعة كمجال من مجالات النشاط السكانى .

ولقد كانت صناعة الفخار وجدل السلال أقدم صناعة عرفها انسان وادى النيل بعد توصله الى سر الزراعة ، وذلك لحاجته الماسة لحفظ ونقل

وتخزين الحبوب الغذائية ، ثم ابتكر عجلة الفخرانى « التى طورت صناعة الفخار وحرقه فى قمائن ، ومن فكرة عجلة الفخرانى إبتكر المغزل الذى غزل به صوف بعض الحيوانات ، ومن المغزل عرف نسج الثياب بأبتكار النول اليدوى . ومن قبل عرف صناعة الفأس ـ الذى لا يزال أشد الأشياء ارتباطاً بالفلاح المصرى حتى يومنا هذا ، ومن الفأس عرف المحراث والشادوف والمذراة وهكذا دواليك ، غير أن تقديس المصريين لبعض الحيوانات وتحريم جز صوفها ، أو ربما لطبيعة مناخ مصر الحار ، لم يرق للمصريين نسج الصوف ، فبحثوا عن بديل له وجدوه فى نبات الكتان الذى زرعوه بكثرة ، كما عرفوا استخراج بعض الخيوط من نبات البردى ومن ثم أشتهرت مصر دون سائر بلدان العالم بزراعة الكتان والبردى .

ولقد إقتحمت مصر فى القرن الثالث الميلادى مجالاً صناعياً جديداًسرعان ما أصبحت رائدة فيه الا وهو صناعة الزجاج ، ولم يكن ينافس مصر فى هذه الصناعة سوى بلاد الشام ، ولكن للأسف فأن معلوماتنا عن العاملين فى هذا المجال وفى مجال صناعة البردى قليلة للغاية وذلك لأن مراكز هاتين الصناعتين كانت فى الدلتا . غير أننا عثرنا على بقايا عجينة من الزجاج بالقرب من تنور الحمام فى كرانيس(٩٠) ، مما رجح أن صناعة الزجاج ارتبطت بصناعتى الفخار والطين المحروق Terra -Cotta وأغلبها قام حول تنور الحمامات .

وبعكس هاتين المهنتين السابقتى الذكر ، نعرف الكثير عن صناعة النسيج وعن عمالة ، وذلك لأن مراكز صناعته كانت فى مصر الوسطى والصعيد ، حيث حفظت الرمال والمناخ الجاف الكثير من الوثائق ، فقد كانت صناعة النسيج ـ كصناعة الساعات فى سويسرا الآن ـ صناعة البيوت ، حيث وجد النول المبسط طريقة الي منازل : الفلاحين فى الريف(٩١) . والفقراء فى الحضر ، لأنتاج أنواع من النسيج الخشن المستخدم لدى الطبقات الوسطى والدنيا .أما صناعة المنسوجات التيلية الفاخرة ، فكانت مخصصة لكبار الصناع الذين كانوا يتوارثون صناعتها أباً عن جد .. كما كان هؤلاء « الأسطوات » الكبار ـ ذائعى الصيت وتتسابق الصبية الصغار ـ أحراراً كانوا أم رقيقاً ، ذكوراً أم اناثاً ، لتعلم المهنة على أيديهم . كما كانوا يدربون أبناء زملائهم فى المهنة كعرف سائد بينهم .

وكان الصغار يبدأون التدريب من سن العاشرة حتى سن الثالثة عشرة، وقد تصل أحياناً الى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، وكانت هناك عقود تدريب مهنى، ومن أحسن نماذج هذه العقود العقد الذى عثر عليه فى أوكسيرينخوس ويعود لعصر نيرون وهذا نصه:

«تريفون بن ديونيسوس بن تريفون وامه ثامونيس بنت اونوفريس، وبطليموس النساج بن باوسيريون بن بطليموس وامه اوفيلوس بنت ثيون وكلاهما [كلا الطرفين] من سكان مدينة أوكسيرينخوس يقران بينهما: تريفون قد اعطى بطليموس ابنه ثوءونيس- القاصر- للتدريب، امه هى سيرايوس بنت ابيون لمده عام بدءاً من هذا اليوم [بدءاً من تاريخه] ولمدة عام ان يخدم وينفذ التعليمات التى يصدرها إليه بطليموس بما يتفق وفن النسيج بقدر ما يعرف. وخلال الفترة كاملة يقوم ابوه تريفون باطعامه وكسائه ويكون ايضأمسئولاً عن دفع كل الضرائب عنه. بشرط ان يدفع بطليموس له شهرياً نظير طعامه خمس دراخمات، وفى نهاية المدة كلها اثنتا عشرة دراخماً مقابل كسائه. وليس لتريفون الحق ان ياخذ إبنه من بطليموس قبل اكتمال المدة، واى يوم يتهرب فيه الصبى من العمل على تريفون ان يقدمه للعمل بعدد مساو لها فى نهاية المدة وإلا يغرم دراخما فضية واحدة عن كل يوم منها. وغرامة اخذه بعيداً خلال المدة [التعاقد] تكون مائه دراخما بالأضافة الى مبلغ مساو [يسدد] للخزانة [العامة] وإذا لم يعلم بطليموس نفسه الصبى تعليما كاملا تقع عليه نفس الغرامة. عقد التدريب كامل الأهلية العام الثالث عشر من [حكم] نيرون كلاوديوس قيصر اغسطس جرمانيكوس الأمبراطور، ٢١ من شهر سيباستوس [شهر توت- سبتمبر] (وقعت) انا بطليموس بن باوسيريون بن بطليموس وامى أو فيلوس بنت ثيون، سننفذ كل شىء خلال ذلك العام. انا زويلوس بن حورس بن زويلوس وامى ديئيوس بنت سوكيوس قد كتبت نيابة عنه لأنه لا يعرف الكتابة. العام الثالث عشر من [حكم] نيرون كلاوديوس قيصر اغسطس جرمانيكوس الامبراطور. سيباستوس ٢١»(٩٢).

وفى حالات أخرى يمتد العقد لخمس سنوات، وليس لعام واحد ففى عقد حرر فى اوكسيرينخوس عام ١٨٣ م اتفق كل من إسخوريون بن هيراديون طرف أول وهيراقلاس بن سيرابيون النساج طرف ثان على أن يلحق الطرف الأول ابنه القاصر ليتعلم المهنة بدءاً من أول شهر بابه ولمدة خمسة سنوات(٩٣). وفى عقد حرر قرب نهاية القرن الثانى نجد سيدة من اوكسيرينخوس تلحق عبدتها الأنثى عند نساج شهير فى الواحة الصغرى

(الداخلة) ، ورغم أن البردية مهلهلة لكننا نستطيع أن نخمن الجزء المفقود الخاص بالغرامة التى تلحق بالطرف الذى يخالف شروط العقد . واليك الجزء الذى أمكن قراءته من هذه الوثيقة :

افلاطونيس المعروفة أيضا [بأسم] أوفيليا بنت هوريون من اوكسيرينخوس ومعها اخيها افلاطون كوكيلها القضائى [طرف أول] ولوكيوس بن إيسيون ونيسائيس ، نساج من افروديسيون فى الواحة الصغرى [طرف ثان] يقران معاً أن تلحق افلاطونيس المعروفة أيضا [بأسم]أوفيليا عبدتها الأنثى ثرموثيون القاصر للعمل لدى لوكيوس لمدة أربع سنوات بدءاً من أول الشهر القادم (طوبة) من العام الحالى لتعلم حرفة النسيج وفقا للشروط الآتية : أن تقوم بأطعام وكساء البنت وتضعها تحت تصرف المعلم كل يوم من مطلع الشمس حتى مغيبها وأن تنفذ كل الأوامر التى يصدرها اليها فيما يتعلق بالمهنة السابق ذكرها . وأجرها للعام الأول يكون ثمانية دراخمات فى الشهر وللعام الثانى يكون أثنا عشرة دراخما فى الشهر . وللعام الثالث ست عشرة دراخما فى الشهر ، وفى العام الرابع عشرين دراخما فى الشهر . وأن تكون اجازتها ثمانية عشر يوما فى السنة وأى يوم لا تعمل فيه أو تكون فيه مريضة تقضى مع المعلم عدداً مماثلاً عند نهاية الفترة . وأن يتولى المعلم دفع الضرائب الخاصة بالمهنة وبالتمرين (يتولى) لوكياس ...[باقى الوثيقة مفقود][٩٤] .

ولقد أمكنا أن نعرف بمقارنة هذا العقد بالعقود الأخرى المتعلقة بهذه الحرفة أن الشرط الجزائى كان يلزم المعلم لوكيوس أن يؤدى عمله كاملاً فى تدريب الصبية «بقدر ما يجيد المهنة بنفسه» ثم يلى ذلك ذكر باقى الشروط الجزائية فى حالة إخلال أى من الطرفين لبنود العقد . لكن الشىء الملفت للنظر أن هذا العقد يختلف عن سائر العقود الأخرى فى أنه يمنح للفتاه المذكوره أجراً منذ العام الأول لالتحاقها بالعمل بينما تنص العقود الأخرى على أن يكون العام الأول بلا أجر كما نلاحظ أن أجر الفتاه فى العام الرابع يعادل أجر عامل عادى وليس عامل فنى[٩٥] .

لقد كانت هناك عقود تمرين تغطى عدداً من الحرف الأخرى المتنوعة وأغلبها كان أصحاب الرفيق يدربون رقيقهم فى مختلف هذه الحرف التى كانت بلا شك تدر ربحاً وفيرا يذهب أغلبه الى جيوب السادة أصحاب الرقيق ويترك للرقيق النذر اليسير كمصروف يومى ، فقد كان هؤلاء

السادة ملزمين أمام القانون بتسديد كافة الضرائب عى رقيقهم وكل ما ينجبه رقيقهم من أبناء . ولقد امكنا حصر أغلب هذه المهن وأهمها حرفة البناء ، وصناعة النحاس والبرونز ، وجدل الحصر والسلال ، وصناعة المسامير والعزف على المزامير ، وجز الصوف ، وغزله ، وغير ذلك من المهن التى تتطلب فترة تمرين وإعداد على يد أحد « الأسطوات » الكبار ، فمن بين عشرات الرقيق التى يمتلكها أحد أغنياء الاسكندرية من الحاصلين على حقوق المواطنة الرومانية أمكن حصر ستة منهم تدربوا على مهنة الأختزال ، اثنين تدربوا على مهنة نسخ المخطوطات أو السكرتارية وواحد تدرب لكى يكون كاتباً عمومياً ، وأخر لكى يكون طباخاً وواحد لكى يكون حلاقاً واخر لكى يكون رفاءً للملابس ، وهذا نص عقد تمرين أحد الرقيق فى مهنة الأختزال :

، بانيخوتيس المسمى ايضا باناريس كوسميت مدينة اوكسيرينخوس السابق من خلال صديقه جميللوس الى ابو للونيوس كاتب إختزال . سلام . لقد وضعت بين يديك عبدى خايرامون لكى يتعلم العلامات التى يعرفها إبنك ديونيسيوس لمدة عامين بدءاً من الشهر الحالى برمهات (مارس) من العام الثامن عشر (من حكم) أنطونينوس قيصر مولانا بالأجر المتفق عليه بيتنا وهو مائه وعشرين دراخما فضية فيما عدا أيام الأعياد . ومن هذا المبلغ تسلمت القسط الأول [وقدره] اربعون دراخما ، وسوف تتسلم القسط الثانى [وقدره] اربعون دراخما بمجرد ان يتعلم الصبى جميع الأشكال [المقاطع] عن ظهر قلب ، والقسط الثالث المتبقى (وقدره) اربعون دراخما ، سوف تتسلمه فى نهاية المدة عندما يصبح الصبى قادراً على ان يكتب ويقرأ من كافة انواع النثر دون ان يخطىء وإذا تمكنت من اكمال تمرينه خلال هذه الفترة ، لن انتظر حتى نهاية التاريخ السابق ذكره رغم انه لن يكون لى الحق فى إبعاد الصبى عنك خلال هذه الفترة . وسوف يبقى عندك بقدر عدد الأيام أو الشهور التى تغيب فيها عن العمل . العام الثامن [من حكم] الأمبراطور قيصر تيتوس إيليوس هادريانوس أنطونينوس أغسطس بيوس . برمهات ٥ [أول مارس عام ١٥٥ م[٩٦] .

لقد تردد فى الوثائق البردية أسماء عدد كبير من الحرف والمهن والصناعات فى العصر الرومانى منهم على سبيل المثال لا الحصر البناءون بالطوب λαξοι والبناءون بالحجر λαο-τυποi ، والنجارون ، Τεκτονες ، والفخرانية κεραμεωες ،والسقاءونυδοΦοροι ، وصائدو السمك ιχθυο-θηρητηρες والحدادون σιδηρεωες والعاملون فى سبك المعادن χαλκο-σιδρεωες ، والخبازون αρτο-κοποι والجزارون

والطباخون μαγειροι وطباخو العدس φακηφοι والاسكافية σκυτοτομοι ، وصانعوا النعال σκυτεωες والصباغون κογχισται والنساجون γερδιοι وجدالوا الحصر φορμυρογοι ، والنخاسون χαλκοκλληπτοι ، وصانعو الطوب πλινθουργοι والحلاقون κτενισται ، والقصارون وطراز الملابس الذين يرفعون من قيمتها . والى جانب هؤلاء كان هناك الباعة وأصحاب الحوانيت ، بعضهم كان له جوانيت كبيرة تبيع كل شيء παντοπωλειον والغالبية تمتلك حوانيت صغرى تخصصت فى بيع سلع معينة مثل العطارين μυροπωλιται ، وبائعى البيض ωοπωλοι، وبائعو السجق ισικιαριοι والزياتون ελαιοπωλαι ، وبائعو الجعة ζυθοπωλαι وبائعو النبيذ οινοπωλαι، وبائعو الخضر λαχανοπωλαι ، وبائعو اللبن γαλακτο-πωλαι وبائعو الخبز αρτοπωλαι والصوافون εριοπωλαι والفكهانية οπωροπωλαι والجزارون κρεοπωλαι والسماكون ιχθυ-πωλαι والوراقون βιβλιοπωλαι ، فقد شملت قائمة السلع التى عرضتها إحدى المحال الكبرى فى يوم واحد : السمك المملح (الفسيخ) والحبال والوسائد ، ودقيق القمح ، وادوات ومصنوعات من الجلد وأرجل الاسرة ، والاصباغ الأرجوانية ، وسلال السمك ، وفتائل المسارج والمصابيح ، وكافة أنواع الشموع(٩٧) . والى جانب هؤلاء كان هناك بعض المهن الصغيرة مثل المكارية ουηλατοι والجمالة καμηλατοι واللحادون ταφεωτες والمحنطون σωμα ελισμενοι ، إلى جانب المهن المتعلقة بالأنتاج الزراعى مثل الرعاة φορβαδες سواء رعاة الغنم أو رعاة الخنازير υοφορβοι او حتى رعاة الأوز χηνοβοσκιοι الذين كانت لهم أحياء خاصة بهم فى المدن والقرى .

وطبقاً للمعلومات المستقاه من الوثائق البردية ، كانت مهنة البناء من أنشط المهن التى يزداد الطلب عليها اما نتيجة للتزايد آلسكانى وانقسام الأسر حيث ينفصل الأبناء بزوجاتهم ليعيشوا فى بيوت خاصة بهم أو لأن الكوارث المتكررة . التى كانت تؤدى الى تساقط البيوت كالحرائق وفيضان النيل والزلازل ، كان يتبعها حركة بناء وتعمير ، ولذلك ازداد الطلب على صناعة الأجر فقد كانت أغلب بيوت الفلاحين مبنية منها ، أما الطوب المحروق فى قمائن فكان لا يستخدم الا فى حالات محدودة مثل الحمامات العامة والخاصة ، وتبطين الآبار والسواقى وغير ذلك من الأماكن التى

الجمنازيوم والمعابد فقد كانت تبنى عادة من الحجر المجلوب من محاجر مصر الوسطى وابى زعبل والمقطم وجبال البحر الأحمر ولذلك فقد كان البناء بها باهظ التكاليف ، ومن ثم تغلب الناس على ذلك بأستخدام الأسلوب الرومانى وهو الأكتفاء بتكسية المبانى من الخارج بالحجر بينما تحشى من الوسط بالملاط والطين أو تبنى من الطوب الأجر وتكسى بالحجر من الخارج .

ولهذا السبب كان صناعة الأجر بنوعية اللبن والمحروق من اهم الصناعات المزدهرة فى مصر زمن الرومان ويأتى بعدها تشذيب الحجر بعد قطعه من المحاجر سواء فى طره الأسمنت ، أو أبى زعبل ، أو جبال مصر الوسطى . وأصبح لكل منهما فنيون متخصصون . فقد كانت عملية انتاج طوب البناء تتم عن طريق تخمير الطين بعد خلطه بالقش والتبن وضربه بالأقدام أو تقليبه بآله تشبه الفأس وبعد الحصول على العجينه المطلوبه يبداون فى صبها فى قوالب من الخشب وهذه العملية عملية آلية لا تحتاج لعامل متخصص مثل العملية الأولى . ثم يترك الطوب ليجف تحت أشعة الشمس المحرقة . وفى الغالب كانت مصانع الطوب تقام على مشارف القرى والمدن حيث تتوفر مساحات الأرض المطلوبة . ففى إحدى البرديات نسمع أن المسافة بين احدى القرى والطريق الرئيسى الذى يربطهما بعاصمة الأقاليم ، كانت مغطاه بالطوب المصبوب المتروك ليجف تحت أشعة الشمس ، وأن هذه المساحة كانت تبلغ ارورتين ونصف الأروار (أى مايعادل فدان ونصف الفدان بالمقياس المصرى أو حوالى ٦٣٠٠ م٢) . وكانت وحدة عد الطوب هى العشرة آلاف ، أى أن كل عشرة آلاف طوبة تحسب وحدة ويتم الحساب على أساس الوحدة وفى حساب بناء نعرف أنه قام ببناء ٢٢٠٠ طوبة ، لكننا لا نعرف كم عدد الأيام التى قضاها فى بناء هذا الكم وهل قام برصها بمفرده أم كان هناك مساعد ساعده فى رصها (٩٨) .

كانت صناعة الطوب رائجة فى مصر زمن الرومان ـ كما هى رائجة الآن فى جمهورية السودان بسبب طمى النيل المتراكم كل عام بفعل الفيضان الذى لا تتحكم فيه سدود او خزانات . اما هضاب مصر الوسطى وجبال البحر الأحمر والهضاب القريبة عن القاهرة فكانت مصدر المحاجر

التى تقطع منها الحجارة منذ عصر بناة الأهرامات ، أما الدلتا فهى خالية تماماً من المحاجر والمناجم . ولقد كانت صحراء مصر الشرقية غنية بالمناجم بكافة أنواعها بدءاً من الحجر السلطانى (الجيرى) والحجر الرملى الى البازلت والجرانيت بألوانه الثلاث : الوردى والرمادى والأسود الى جانب الرخام السماقى الأرجوانى اللون πορφυρα الذى إكتشفه الخبراء الرومان ابان عصر الأمبراطورية ، وأصبح الطلب عليه فى القرن الثالث الميلادى شديدا لأنه أصبح المادة المفضلة لدى النحاتين لنحت التماثيل والأعمدة الزخرفية المعمارية . لقد كانت مصر - بعكس بلاد اليونان - فقيرة فى نوعية الرخام المستخرج منها ، وحتى نوع الرخام المصرى لا يمكن مقارنته برخام بعض الجزر اليونانية الفاخر مثل رخام جزر ناكسوس أوباروس أو هيميتوس الواقعة فى بحرايجة ، وهو رخام له بعض الخشونه . أو الرخام البنتيلى الناعم الملمس نسبة الى تلال تقع بالقرب من أثينا . أو حتى رخام لونا (أوكارارا) المجلوب من بعض محاجر جبال الأبنين بالقرب من اقليم ليجوريا والمطلة على نهر التيبر . وفى مطلع إقامتهم فى مصر تعود الأغريق المستوطنون على جلب الرخام من بلادهم كنوع من الأرتباط العاطفى بالمنشأ الذى يذكرهم بأرض أجدادهم . وبالفعل نعثر على بقايا أعمال فنية وأعمدة فى الأسكندرية ترجع الى مطلع العصر البطلمى ومنحوته من هذا الرخام المستورد أو منحوته فى بلاد اليونان وجلبت مصنعة الى مصر ، لكن ذلك كان فى حالات قليلة جداً نظراً لأن استيراد الرخام من الخارج كان باهظ التكاليف بينما كان الأغريق فى بلادهم يستخدمون الرخام الفاخر فى رصف شوارع مدنهم . أما السكندريون فقد رضوا أن يرصفوا شوارع مدينتهم بالحجارة الصوانية المجلوبة من محاجر أبى زعبل أو من مصر الوسطى خاصة من محاضر اكوريس Akoris الواقعة الى الجنوب من مدينة اوكسيرينخوس (البهنسا) .

ولقد حرص اباطرة الرومان - كما حرص الملوك الفراعنة ، والفراعنه المقدونيون - على أن تكون كافة الثروات الطبيعية - سواء فوق الأرض أم فى باطنها - ملكاً للدولة وليس للأفراد خاصة المناجم والمحاجر الغنية بالمعادن والأحجار الكريمة وشبه الكريمة . ولما كانت هده المناجم تقع

فى مناطق نائية بعيدة عن العمران ، حيث تشتد الحرارة وتندر المياه، وتهب العواصف المحملة بالرمال صيفاً ، بينما تشتد البرودة القارسة وتتدفق السيول المغرقة فى الخريف والشتاء ، فقد كره الناس العمل بها. فقد كانت ادارة الأحتلال الرومانى لمصر تستخدم نزلاء السجون والأسرى اليهود والخارجين على القانون الذين يلقى القبض عليهم ، والرقيق المتمردين على أسيادهم ، كما إنضم الى هذه الكوكبة المسيحيون الذين كانوا يرفضون تقديم الأضاحى أمام تماثيل الأباطرة والأعتراف بربوبيتهم ، وفى أحيان أخرى كانت ادارة الأحتلال تقوم بتأجير حق إستغلال هذه المناجم والمحاجر لبعض الأثرياء الذين يقومون بدورهم بأغراء بعض العمال بالذهاب للعمل فى هذه المناطق النائية مقابل أجور مشجعة . وكان لكل منجم أو محجر قائد رومانى الجنسية لا تقل رتبته العسكرية عن كنتور - اى قائد مائة - وهناك وثيقة بردية حررت فى الأول من شهر طوبه (٢٧ ديسمبر) عام ٢٠٩ م عبارة عن أمر إفراج صادر من والى مصر هذا نصه :-

«[من] ساباتيانوس أكويلا [والى مصر] الى ثيون حاكم إقليم ارسينوى . سلام إن نيجر عبد بابيريوس الذى أصدر صاحب الرفعة كلاوديوس يوليانوس [الوالى الأسبق] ضده حكماً بالأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات فى محاجر الألباستر ، قد اتم مدة العقوبة . وبناء عليه يطلق سراحه . وداعاً (٩٩) .

إن الزائر - اليوم - للمواقع الأثرية النائية التى كانت تمثل نقاط الحراسة العسكرية على طول طرق القوافل التى كانت تقطع صحراء مصر الشرقية حيث ربطت بين موانيها الخارجية على البحر الأحمر من ناحية ،وبين موانيها المحلية على النيل ، ليدرك كم كانت الحياة صعبة ومرهقة للجنود (١٠٠) . الذين كانوا يتولون حراستها ، كما أن قطع الشقف القليلة التى عثر عليها هناك تعطينا صورة تكاد أن تكون ناطقة عن قسوة الحياة فيها سواء بالنسبة للجنود المعسكرين فى هذه النقاط أو للمدنيين أصحاب المصالح الذين كانوا يترددون على الموانىء لقضاء مصالحهم ، ففى قصاصة موجزة كتب جندى ممنياً نفسه بالأجازة التى ينتظرها قبل أن يقضى فى هذا المكان الموحش ثمانية عشر شهراً يذوق فيها مرارة

الوحدة ، والبعد عن الأهل والخلان ، والعيش فى البادية المقفرة فى حياة الملل وقلة العمل ، يقول :

«امامك اجازة يا اعوناس قدرها عشرة ايام ولك ايضاً يومان اضافيان تعود خلالهما »(١٠١) .

كانت كتل الحجر التى تقطع من المحاجر الجبلية تنقل براً عن طريق الجر الى أحد موانىء النيل ، وهناك تحمل فوق ناقلات نيلية خاصة تتجه بها شمالاً أو جنوباً الى موقع الطلب ، أو الى أقرب ميناء لموقع الطلب ، ومنه تحمل الى ورشة العمل » . ولقد كان هناك بعض المصنوعات الحجرية تمثل غاية فى الصعوبة عند نقلها مثل المسلات والأعمدة ، فلقد كتب بلينيوس الأكبر وهو مبهور عن مسلة من قطعة واحدة من الحجر بلغ طولها ثمانون ذراعاً (أى ما يقرب من ٤٢ متراً) قائلاً ان دهشته ليست لأنها نحتت من قطعة واحدة من الحجر ، بل كيف نقلت وكيف نصبت فى المكان القائمة فيه(١٠٢) .ومن المعروف أن البطالمة نقلوا الكثير من المسلات المصرية من مواقعها فى المدن المصرية مثل هليوبوليس (المطرية) وطيبة (الأقصر) ليزينوا بها عاصمتهم الاسكندرية ، كما أن اكتافيوس أغسطس نقل عدداً آخر من المسلات من الأسكندرية ليزين به عاصمته روما ، وفى العصر الحديث أهدت الأسرة العلوية بعضا من المسلات لكل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة أيضا لنفس السبب . ونظراً لوجود العديد من الوثائق البردية التى دارت حول الحجر والحجارة وفنون نقله وتشذيبه وتنصيبه ، والحسابات الخاصة بترميم بعض المعابد لتعويض ما تساقط من حجارتها ، أصبحنا نلم بكل التفاصيل عن هذا الفن من البناء(١٠٣) ، فقد حرص الرومان على ارضاء النزعة الدينية عند المصريين بالأهتمام بترميم وأقامة معابد على النمط الفرعونى ، فقد كان الأمبراطور الرومانى أيضا فرعونا وحامياً للعقيدة غير أنه كان يقيم فى عالمه السماوى فى بلاده البعيدة .

كانت ندرة الأخشاب إحدى التحديات التى واجهتها مصر منذ بداية نهضتها ، فقد حرمتها الطبيعة من الغابات المدارية والاستوائية ، أما الأشجار التى توطنت فى التربة المصرية مثل السنط واللبخ والجميز

والنبق والأثل والدوم والنخيل فلم تكن تصلح الا لصناعة الأدوات الزراعية ، والأبواب والنوافذ وبعض القوارب الصغيرة ، أما المباني والعمائر البحرية التي تحتاج الى عروق ضخمة مستقيمة والواح عريضة فكانت تستورد إما من الشام أو قبرص ، ولهذا حرصت مصر على نشر نفوذها في هذه المناطق منذ وقت مبكر لاستيفاء حاجتها من الأخشاب . غير أن النفوذ المصرى عندما يضعف أو يتدهور فى الشام تظهر أزمة الأخشاب وتتعطل أعمال البناء ، فعندما تدهورت الأمبراطورية المصرية مع قدوم الاسرة الواحدة والعشرين (١٠٨٥ - ٩٤٥ق م) وانهار نفوذ مصر فى آسيا الغربية ، أرسل حريحور الكاهن الأكبر كاهناً اسمه ون - آمون الى فينيقيا لاحضار اخشاب الأرز لصناعة مركب آمون المقدس ، فسافر اليها . غير أن أمير ببلوس (جبيل) واسمه زكر بعل » رفض مقابلته وتركه ينتظر على بابه تسعة وعشرين يوماً حتى سمح بمقابلته ، ولما سأله عن السبب من زيارته أوضح ون آمون له قائلاً « **لقد جئت فى طلب الخشب اللازم لصنع** سفينة آمون رع ملك الآلهة . **لقد فعل أبوك ذلك . وفعل جدك مثلة من قبل وستفعله انت أيضاً** » فتهكم عليه زكر بعل وأفهمه أنه لم يعدتابعاً لمصر ، وأنه ليس هناك ما يجبره على ارسال هذه الأخشاب ما لم يتسلم أثمانها ، وبعد مفاوضات مضنية وافق أمير ببلوس على إعطائه الأخشاب اللازمة بضمان فرعون مصر سمندس بأن يرسل ثمنها مع رسول خاص ولذلك فإن أثمان الأخشاب كانت غالية لا يقدر على شرائها الا الفرعون والدولة وأثرياء المواطنين ولعلنا نذكر رحلة الملكة حتشبسوت البحرية . الكبرى الى بلاد بنت (الصومال) والتى صورت على جدران معبد الدير البحرى (١٥٠٣ - ١٤٨٢ق م) فى محاولة لاحضار بعض الاشجار لزراعتها فى مصر للتغلب على النقص فى الأخشاب ، غير أن محاولتها باءت بالفشل ، ولاتزال جذور بعض الأشجار التى غرستها قائمة فى مكانها قرب معبدها فى الدير البحرى.ولما تولى البطالمة كرروا نفس المحاولة حيث حاولوا زرع أشجار الأرز التى جلبوها من الشام فى ساحل مصر الشمالى القريب من الشام موقعاًومناخاً ، غير أن هذه المحاولة باءت أيضاً بالفشل ومن ثم كان على مصر أن تستورد الأخشاب الباسقة السميكة من آسيا الصغرى أو قبرص أو الشام ، وعندما بنى الأمبراطور هادريانوس . مدينته الكبرى فى مصر إستورد أخشاباً من الشام ليبنى بها جمنازيوم المدينة ،.

عندما فكر الأمبراطور جالينوس فى إعادة بناء أنطينوبوليس عام ٢٦٤ م بعد إخماد ثورة إيميليانوس وطرد قبائل البلمبيين المغيرة على مصر ، استورد أخشاباً من آسيا الصغرى والشام لأعادة بناء نفس الجمنازيوم بنفس الطريقة التى كان عليها .

وسائل النقل والأنتقال :

واذا ما تركنا مواد البناء من الطوب والحجر والخشب لنعالج جانباً آخر من النشاط السكانى وهو وسائل النقل الخفيف . فقد كان الحمار من أقدم الحيوانات التى إستأنثها الأنسان المصرى وسخرها لخدمته ، فقد كان الفلاح - ولا يزال - يمتطى الحمار فى تنقلاته من بيته الى الحقل أو بين القرية والقرى المجاورة ، ويحمل أثقاله سواء من السماد أو المحصول ، ورغم ان الأشوريين أو الفرس قد أدخلوا الجمل - سفينه الصحراء - الى مصر ووطنوه وتأقلم مع طبيعة الوادى لينضم الى زميله الحمار فى القيام بأعمال الزراعة وجر المحراث وإدارة السواقى وحمل المحاصيل والأسباخ الا أن الحمار ظل الدابة المفضلة لدى الفلاح المصرى ويظهر ذلك من تردد اسمه فى وثائق البيع والشراء ، وهذا نموذج لعقد بيع إنثى حمار يرجع الى عام ٢٠٤ ميلادية عثر عليه فى أوكسيرينخوس :

[من] ابوللونيوس بن هيفا يستيون بن امونيوس من قبيلة سوسيكو سموس ومن حى الثايوس ، الى أبو للونيوس بن أبو للونيوس بن سيرابيون من قبيلة يوثينوديوس وحى الثايوس .سلام . اقر اننى قد بعت لك إنثى حمار نبتت اسنانها الأولى .لونها مثل لون الفار وليس بها وشم .على الثمن الذى إتفقنا عليه وهو ستماية دراخما فضية إمبراطورية ، (٦٠٠ دراخماً كاملة والتى يقر الطرف الأول أبو للونيوس انه تسلمها فى حينه من أبو للونيوس وسوف يضمن ذلك بكل الضمانات ضد إدعاءات أى شخص ، كما أنه (أى الاتفاق) غير قابل للرجوع فيه . واذا ادعى أى شخص ملكيته لها (أى الحمارة) يتولى أبو للونيوس وقفه عند حده على نفقته الخاصة . عقد البيع هذا قانونى . الثالث عشر (من حكم) الأباطرة والقياصرة لوكيوس سبتميوس سيفيروس بيوس برتيناكس العربى الأديابينى البارثى الأكبر ، وماركوس أوريليوس أنطونينوس بيوس ، الأوغسطيان . بوبليوس سبتميوس جيتا قيصر أغسطس ٥ بابه (الثانى من اكتوبر عام ٢٠٤ م) [بخط ردىء ثان] أنا أبو للونيوس سالف الذكر قد بعت ماسبق بقراره .

نفهم من هذا العقد ان سرقة الحمير فى الريف كانت منتشرة ، وان منازعات قضائية كانت تنشأ حول هذه السرقات . وان دفع ستماية دراخما فضية امبراطورية ثمنا لأنثى حمار صغيرة السن غير معدة للركوب يعنى ان ثمن الحمار كان غالباً لا يقدر عليه الفلاح الفقير ، ومن ثم ظهرت مهنة المكارى او الحمار ονηλατης الذى لعب دوراً حيوياً فى مهنة النقل الخفيف . كما ظهرت مهنة الجمال καμηλατης وبالرغم من أن هاتين المهنتين لم تكونا فى حاجة الى مهارة ، ولا تتطلب من العامل بها ملكات مبدعة ، الا انهما كانتا مهنتين حيويتين بالنسبة للأقتصاد القائم على نقل الأنتاج الى مناطق الأستهلاك والتصدير او الأسواق . وفى البداية كانت هناك مهنة الحمار أو الجمال كمهنة حرة يقوم بها بعض الأفراد الذين وضعوا كل راس مالهم فى شراء حمار او جمل . لكن فيما بعد تحولت هذه المهنة الى مشروعات استثمارية تدر ربحاً وفيراً على أصحاب الاسطبلات و« المناخات » الذين إستلكوا عدداً من دواب الحمل عرضوها للأيجار حيث كان الطلب يشتد عليها فى مواسم الحصاد لنقل المحصول من الحقول الى الأجران أو لدرس القمح ثم نقله الى الشون الحكومية أو المنازل . كما كانوا يتولون نقل القمح المصدر الى روما من هذه الشون الريفية الى أقرب موانىء النيل ، لتنقلها المراكب الى الأسكندرية حيث يكون الاسطول الرومانى الخاص بالأسكندرية فى إنتظارها ، وبعد تحميله يقلع بالقمح الجديد الى روما . وبالنسبة للمكارى الصغير فقد كان عليه أن يحصل على تصريح من قبل الدولة تضفى على مهنته الضمان والشرعية . ففى احدى هذه التصاريح جاء ما يلى :

« أثناء قنصلية مولانا ليكينيوس المرة الخامسة . ومولانا كرسبوس القيصر الألمع للمرة الأولى إلى اوريليوس هيراس المسمى ايضاً ديونيسيوس حاكم المنطقة الثامنة من إقليم أوكسيرينخوس ، من أوريليوس هاتريس بن هيراكيون امين مالية قرية دوسيتيو فى المنطقة الواقعة تحت إشرافكم . اتقدم على مسئوليتى لأحل محل حمار بيلوزيوم بدلاً من الشخص القائم بها الآن والمحدد ادناه . حيث أنى مقتدر ومناسب لهذه المهنة . وأسمه أوريليوس هورس بن باثوتيس من القرية المذكورة . وذلك فى القنصلية السابق ذكرها ١٨ برمودة [١٢ ابريل عام ٣١٨ ميلادية] . أنا اوريليوس هاتريس قد

تقدمت بهذا الطلب . أنا أوريليوس اموناس كتبت نيابة عنه لأنه لا يعرف الكتابة(١٠٨) .

ماذا فعل المكارى أوريليوس حورس بن باتوتيس لكى يعفى من مهنته ويعين بدلاً منه عكارى جديد اسمه أوريليوس هاتريس بن هيراكيون خازن مالية قرية دوسيثيو الذى يصر على أنه مقتدر مالياً وكفىء لهذا العمل ، لابد أن الحمار المعفى من العمل لم يكن أميناً عند نقله بضائع أو سلع الناس ولهذا أعفى أو سحب منه التصريح ، لأن سلطات الحكم كان تضمن أمانه الحمارين وتضعهم تحت رقابة شديدة حتى تستريح نفوس الناس ويذهب الشك عنهم .

اما بالنسبة لشركات النقل التى تمتلك عدداً كبيراً من دواب الحمل فكانت الادارة الرومانية تتعاقد معها لنقل كميات كبيرة من القمح من الشون المحلية إلى أقرب ميناء على النيل وهذا مثال على إحدى هذه التعاقدات المحررة عام ١٥٥ ميلادية .

«إلى سابينوس وشركائه ورجال بنوك الدولة . من المذكورين ادناه مشرفى الحمير الحكومية لقرى موخيس والبوسيس من خلال هيراكليس مندوبهم . لقد تسلمنا منك المبلغ الذى أمرت بأن تدفعه لنا كأجور نقل القمح والشعير الذى نقلناه - كما هو مدون - من شون تانسيم بوليمون إلى أماكن المراسى هذه الأجور تعادل $\frac{١}{٢}$ ٢٨ اردب من القمح و $\frac{٥}{٢٤}$ ٢ أردب من الشعير . ومايساويه نقل القمح بمعدل ٨ دراخمات لكل اردب فيكون مجموعها ٢٢٦ دراخما . ومايساوية نقل الشعير بمعدل ٤٨٠ دراخما لكل مائة أردب هو ١١ دراخما و ٢ أوبول و ٢ خالكليس ، فيكون جملة المبلغ ٢٣٧ دراخما وثمان أوبولات و ٢ خالكليس والقائمة هى كمايلى : مايخص موخيس وباخيوس وهيكوسيس $\frac{٥}{٦}$ ٧ أردب قمح ، ومايخص باخيوس وأونوفريس $\frac{١١}{٢٤}$ ٤ اردب قمح . ولخريساس بن باخنوبيس $\frac{١}{٤}$ ٥ أردب قمح . ولباخيوس بن باخيوس $\frac{٥}{٢٤}$ ٦ أردب قمح ، ولخروساس بن باخيوس $\frac{١١}{١٢}$ ٣ اردب قمح . أما مايخص البيوسيس : بروناس وأفيوس $\frac{٥}{١٢}$ من الأردب قمح ، $\frac{٢}{٣}$ من الأردب شعير . بروتاس بن نابوس $\frac{١}{٦}$ من الأردب قمح . واردب و $\frac{١٧}{٢٤}$ من الأردب شعير والمجموع كما هو موضح أعلاه . العام الثامن عشر لحكم انطونيوس قيصر مولانا ، ٢٩ أمشير [٢٣ فبراير] . أنا هيراكليس المذكور أعلاه تسلمت مبلغ ٢٣٧ دراخما و ٢ أوبول و ٢ خالكليس المذكورة آنفا(١٠٩) .

وإلى جانب ذلك إستخدمت هذه الدواب لجر العربات المحملة بالأثقال والتى تعجز ظهورها على حملها .

نقاط المكوس والجمارك :

ولقد حرصت الأمبراطورية الرومانية على إقامة نقاط لتحصيل الرسوم والجمارك عند التقاء الطرق البرية الكبرى وفى أماكن إختيرت بحرص شديد حتى لاتفلت حمولة من دفع ما عليها من مكوس ، ولقد تعلم الرومان من العرب القدماء الذين إبتدعوا هذه النقاط خاصة العرب المعينيون والسبئيون الذى أقاموا نقاط تحصيل المكوس على طول طريق البخور الذى كان يقطع شبه جزيرة العرب من اليمن إلى الشام ، ومن موانىء الخليج إلى موانىء البحر المتوسط ومصر . وبعد تسديد الرسوم تحصل القافلة أو صاحب الحمولة على إيصال يفيد تسديدها ضريبة المكوس ولدينا أكثر من ثلاثمائة قصاصة بهذا الخصوص ، بعضها صدر من نقطة المكوس عند رأس طريق الفيوم - منف ، وكان مقر هذه النقطة مركز سكنوبايونيسوس (دمى السباع شمال بحيرة قارون) ، كما كان هناك نقطة جمارك أخرى عند مخرج فيلادلفيا (جرزة) جنوب الفيوم . وبذلك ضمنت الأدارة الرومانية المنفذين الوحيدين اللذين كانا يربطان الفيوم بالوادى ونسوق إحدى الأمثلة الدالة على تسديد المكوس على البضائع المارة :

« عند نقطة جمارك سكنوبايونيسوس سدد سيرابيون ضريبة الـ $\frac{1}{2}$ ١ فى المائة مصدراً على جمل واحد ستة أرادب من بذور الخضر ، دفع عنها خمسة دراخمات وعلى جمل واحد وحمارين حمولتهما اثنا عشرة أردبا من القمح دفع عنها ثلاثة دراخمات . السنة الثالثة من حكم أنطونينوس وفيروس مولانا . الرابع من هاتور (أول نوفمبر عام ١٦٢ ميلادية)(١١٠) .

ولقد لعبت طرق القوافل فى صحراء مصر الشرقية دوراً حيوياً فى تجارة مصر الخارجية ، وكان من أهم هذه الطرق الطريق الذى كان يربط بين ميناء قفط على النيل ، وميناء ميوس هورموس Meos Hormas (أى ميناء الفأر - أبو شعر القبلى بالقرب من ميناء سفاجة الحالى) ، وبين قفط وميناء برينيكى الذى سمى على إسم إحدى أميرات البيت البطلمى (وهو

ميناء القصير الحالى أو ميناء برنيس) . فقد كانت موانىء مصر على البحر الأحمر هى نقطة الأتصال مع موانىء اليمن والخليج العربى والهند وسائر موانىء شرق أفريقيا . ولقد كان طريق قفط - ميوس هورموس يبلغ حوالى ١٥٠ كيلومتراً طولاً ، بينما كان طول الطريق الأخر قفط - برينيكى يبلغ مايقرب من ٣٠٠ كيلومتر ولقد حصر بلينيوس عدد نقاط الحراسة والمكوس على طريق قفط - بيرينيكى بأن عددها كان ثمانى محطات ، وربما كان العدد يزيد عن ذلك بكثير(١١١) ، وعلى مسافات متقاربة ومناسبة إقيمت هذه المحطات لأستقبال القوافل المرهقة وإمدادها بالمياه ، ولحسن الحظ فأن المياه الجوفية متوفرة فى صحراء مصر الشرقية وتقع على مسافة ليست بعيدة من باطن الأرض ، ومن ثم كان يسهل حفر الأبار فيها ، وزراعة بعض أشجار النخيل للأستظلال بها من حرارة الشمس المحرقة ، وكانت كل نقطة تشتمل إلى جانب البئر برج المراقبة لمطاردة قطاع الطرق وبالأضافة إلى هذين الطريقين إفتتح الأمبراطور هادريانوس بمناسبة زيارته لمصر طريقاً ثالثاً هو طريق انطينوبوليس - بيرينيكى ، وأقام على طوله محطات الاستراحة ، والحراسة وتزويد المياة ، إذ يقول نقش مؤرخ فى عام ١١٧ ميلادية أن الأمبراطور قيصر تراجانوس هادريانوس اغسطس .. الخ إفتتح طريق هادريان الجديد الذى يربط بين بيرينيكى وأنطينوبوليس مخترقاً أرضاً آمنة ومستوية ، وبه محطات يتوفر فيها المياه ، ومحطات للاستراحة ونقاط حراسة على طول الطريق(١١٢) . وبالطبع كانت المكوس التى تجبى من تجارة المرور أو « الترانزيت » تنفق على دعم الطريق وضمان الخدمات وتأمين حراسة الناس وتجارتهم من غارات البدو والعربان وهذا جدول للتعريفة الجمركية إقيم عام ٩٠ ميلادية عند محطة قفط وعثر عليه عام ١٨٩٤ .

لقائد مركب تجارية فى البحر الأحمر	٨	دراخمات
للحارس	١٠	دراخمات
للبحار	٥	دراخمات
للحرفى	٨	دراخمات
للموسسات	١٠٨	دراخمة
لزوجة البحار	٢٠	دراخمة
تصريح مرور الجمل	١	أوبول
رسوم ختم المغادرة	٢	أوبول
للحمار	٢	أوبول
للعربة المغطاة (المحملة)	٤	دراخما
للجنازة القادمة	١	دراخما و ٤ أوبول

وهناك بعض الملاحظات على هذه القائمة ، فمثلاً الرسوم المفروضة على الجمل الذى يحمل أضعاف مايحمله الحمار هى أوبل واحد بينما الرسوم المفروضة على الحمار هى ٢ أوبول وتفسير ذلك الحمار يستهلك مياه ضعف مايستهلكة الجمل .

وإلى جانب نقاط جباية المكوس عند مداخل ومخارج والتقاء الطرق الداخلية ، وعلى طول محطات التموين والاستراحة فى طرق الصحراء الشرقية ، كانت هناك نقاط جباية للمكوس عند مراسى المراكب النيلية . فقد كان من حق رجال الجمارك التفتيش على السفن والمراكب لأكتشاف السلع والبضائع المهربة ، فقد كانوا مزودين بحق « الضبطية القضائية » وهو حق إسىء إستخدامه فى بعض الأحيان حتى أن أحد ولاة مصر الذى لم يذكر إسمه اشار إلى ذلك صراحة عندما أصدر المرسوم التالى :

« نما إلى علمى أن محصلى الضرائب قد لجأوا إلى إتباع وسائل خبيثة وماكرة للغاية ضد الأشخاص المسافرين عبر البلاد ، بالإضافة إلى ذلك فأنهم يطلبون بدون وجه حق مكوساً ليست مستحقة عليهم ويتعمدون حجز الأشخاص الذين هم فى عجلة من أمرهم لكى يفاصلوهم على الرحيل السريع . ولهذا فأننى آمرهم بالتوقف عن مثل ذلك الجشع ... [باقى النص مفقود ...](١١٤) .

وتتحدث بردية مهلهلة للغاية عن لائحة تفتيش السفن على يد رجال الجمارك والمكوس : -

«وإذا طلب محصل المكوس تفريغ حمولة سفينة فعلى التاجر أن يلتزم بذلك ، فإذا عثر على بضاعة غير التى أعلن عنها فإنها فى هذه الحالة تكون عرضة للمصادرة ، وإذا لم يعثر على شىء آخر [غير ما أعلن عنه] ففى هذه الحالة يقوم محصل المكوس بتعويض التاجر عن تكاليف التفريغ . ويتسلم (التاجر) من محصل الضرائب صكا مكتوبا بذلك حتى لا يتعرض مرة أخرى للمضايقة [... الباقى مفقود ..]»(١١٥).

النقل النيلي والبحري : -

ومن الجدير بالذكر أن هذه الإجراءات لم تكن وقفا على ولاية مصر وحدها بل أمراً متفق ومتعارف عليه فى كافة أرجاء الأمبراطورية ، إذ يقول الأديب كونتليانوس (٤٠ - ١٠٠ م) معلم بلينيوس الأصغر «لمحصل الضرائب حق التفتيش . والسلع غير المعلن عنها تصادر . إما السيد الرومانى فغير مسموح بتفتيشه»(١١٦).

كانت مرحلة النقل البرى تسبق أو تلى مرحلة الشحن والتفريغ البحرى من وإلى موانىء مصر سواء على البحر المتوسط أو البحر الأحمر . لقد كانت تجارة مصر الخارجية حكراً على قطاع صغير جداً من الأثرياء المصدرين أغلبهم من غير المصريين وعلى رأسهم وبالطبع التاجر الإيطالى الذى يستظل بمظلة القانون الرومانى الذى يحميه ويتمتع بمزاياه ، ولذلك لم تكن لها أى تأثير إجتماعى أو إقتصادى ملموس على الحياة الداخلية والاقتصادية للناس .

أما التجارة الداخلية فقد كانت ذات تأثير كبير على حياة الناس لأن حركة النقل البرى أو النيلى للقمح كانت مصدراً للأرتزاق سواء عند نقل القمح من الشون إلى الموانىء النيلية . وشحن وتفريغ السفن النيلية المحملة بالقمح حيث يتولى الأسطول الرومانى بعد ذلك نقلها إلى إيطاليا وإلى جانب القمح كانت عملية الشحن النيلى تتولى توصيل المؤن والامدادات والوقود إلى المناطق التى تعسكر فيها الحاميات الرومانية على طول الوادى ومن ثم فأن الادارة الرومانية لمصر إمتلكت اسطولاً نيليا من السفن والمراكب يقوم على إدارته طاقم من البحارة و «القباطى» سواء

كانوا معينين برواتب أو ملزمين بحق الخدمة الإلزامية المدنية أو مجندين في الجيش الروماني في مصر وهؤلاء كانوا يكونون نواة الأسطول النيلي لنقل القمح .. غير أن أغلب السفن والمراكب التى كانت تتولى نقل القمح كانت «قطاع خاص» وملكا لأفراد يستدعيهم حكام الأقاليم بتكليف مباشر ساعة الضرورة لتقديم خدماتهم للسلطة . وهذه وثيقة مؤرخة بين عامى ٢٢٠ - ٢٢١ تتحدث عن ذلك :

«(من) أوريليوس امونيوس بن امونيوس صاحب سفن في إدارة نيابوليس (بالاسكندرية) ثلاثة مراكب حمولتها ١٥,٠٠٠ أروب إلى أوريليوس سارابيون السيتولوجوس (عامل القمح) لحى سكو الطوبارخية العليا . سلام . لقد تسلمت منك، بعد الكيل الكمية التي تلقنى بها الأستراتيجوس أوريليوس هاربوكراتيون . وأوريليوس نمسيون المسمى أيضاً ديونيسيوس الكاتب الملكي . بالاتفاق مع الموكل إليهم أمر ضريبة القمح وباقى المواطنين المعينين من الشون العامة الخاصة بحيازة القمح للمنطقة السابق ذكرها . عند مرسى ساتوروس على النهر العظيم (يقصد نهر النيل) قمحا من محصول السنة الثالثة المنقضية، نقياً، وغير مخلوط وخال من الحصى والشعير، وليس من درس المرحلة الثانية، ومغربل، ومكيل بمكيال نصف الأردب الرسمى طبقاً للمكيال المقنن، بنسبة ١½ أردب وسبعة وسبعون إردباً ويكون المجموع ٧٧ إردباً والتى سوف أتولى نقلها شمالاً إلى الاسكندرية وأرسلها إلى الأدارة (المختصة) في نيابوليس حمولة كاملة وغير ناقصة . هذا الايصال قانونى ومحرر من ثلاثة صور . صورة لك أيها السيتولوجوس، والاثنان الأخريان من أجل الاستراتيجوس . وردا على السؤال الرسمى أجبت بالموافقة [خط آخر] أنا - أوريليوس أمونيوس بن أمونيوس - قبطان بحرى في إدارة نيابوليس قد تسلمت وحملت على السفينة السبعة والسبعين اردبا من القمح بنسبة الواحد والنصف في المائة[١١٧] *» .

ولقد كانت المراكب النيلية تتراوح في أحجامها بدءاً من القارب الصغير المصنوع من سيقان البردى ويسيره فرد واحد، إلى المراكب الكبيرة التى يسيرها طاقم من البحارة والتى تبلغ حمولتها ١٨,٠٠٠ أردب قمح أو مايعادل ٥٠٠ طن، ومصنوعة من «الألواح الدسر» ، ومغطاة بالقار، وقد بلغ طول بعضها عشرون متراً، وثلاثة أمتار عرضاً، ومزودة بأشرعة رباعية الشكل، بالإضافة إلى مجاديف تساعدها على الأبحار جنوباً في مواجهة الموج المندفع زمن الفيضان صيفاً، أو تزيد

---

* نسبة الفاقد

من سرعتها إذا أبحرت شمالاً شتاءً ، وفى الصيف كانت السفينة الكبيرة المحملة تقطع فى اليوم الواحد مسافة ما يقرب من أربعين كيلومتراً إذا أبحرت جنوبا عكس التيار وبمساعدة الرياح الموسمية (١١٨) كما أن هذه السفن الكبيرة كانت مجهزة بمعدات وادوات لا تتوافر فى القوارب مثل الخطاطيف ، والمراسى ، والحبال ، والزوايا ، وحلقات من الحديد ، والروافع والواح للرسوم ، وقوارب نجاة ، وقد عرفنا هذه التفاصيل من لفافة بردية مطولة تحوى عدداً من المعاملات المالية التى أو كل إلى أحد البنوك القيام بها ومن بينها بيع مركب فى صيغة إيجار تمليك و مؤرخة عام ٢١٢ م(١١٩) .

غير أن إمتلاك السفن كان أمراً مكلفاً ، لا يقدر عليه إلا الأثرياء ، أما الربابنة الذين كانوا يمتلكون سفنهم فقد كانوا فئة قليلة ، أما أكثر الحالات شيوعاً هو أن يمتلك رجل ثرى - عادة ما يكون من وجهاء عاصمة الأقليم ومن سلالة الأغريق أو الرومان - مركباً كنوع من إستثمار أموالة ، ويتعاقد مع ربان ليقوم بتشغيلها ، وتولى إدارتها وإختيار طاقمها ٠ وهناك وثيقة محررة عام ٢٢١ ميلادية تدور حول سفينة كبيرة يملكها ويديرها إثنان من سكان أوكسيرينخوس حيث يقومان بتأجيرها بعقد مشروط مثل حظر تسييرها ليلاً ، أو أثناء النوات والعواصف ، وأن ترسو فى مراسى أمنة ومعروفة ، وأن يتعهد المستأجر بتسليم السفينة فى حالة جيدة إلى أصحابها عند إنتهاء مدة التعاقد(١٢٠) .

وعلى طول ضفاف النيل قامت المدن ، والقرى والدساكر ، بعضها قام على شاطئه الشرقى والبعض الآخر على شاطئه الغربى ، بل فى بعض الأحيان كان النيل يشطر المدينة إلى نصفين ، فكان الأتصال بين الشطرين يتم عن طريق « المعدية » التى كانت عبارة عن عبارات تنقل الناس وحاجياتهم ومواشيهم من ضفة إلى أخرى ، إذ لم يكن قد أنتشر فى مصر فى ذلك العصر الجسور عبر شاطئى النيل، بالرغم من أن البطالمة قد أقاموا بعضها ، كما أن الرومان قد شيدوا عدداً منها لخدمة تحركات جيوشهم كجزء من تشديد قبضهم العسكرية على البلاد . بالاضافة إلى النيل فان شبكة الترع والرياحات والمصارف كانت هى الأخرى تفصل بين المدن والقرى ، ومن ثم فقد كانت القوارب وسيلة هامة من وسائل الأتصال

الداخلي في مصر لنقل الأفراد والسلع والمحاصيل والماشية ، ناهيك عن أهمية هذه القوارب عندما يغرق الفيضان الوادي فيحيل مدنه وقراه إلى جزر متناثرة وهو منظر خلب بلينيوس الأكبر كما خلب الكثيرين من السياح والأجانب في العصور القديمة (١٢١)، ومن ثم فقد كانت وسيلة الأتصال بين هذه القرى والمدن خلال شهور الفيضان هي تلك القوارب والمعديات التي كان يديرها أصحابها بعد حصولهم على تصريح بذلك وتسديد رسوم عنها تذهب لخزانة السلطة.

النقابات الحرفية والمهنية :

كان التجار والحرفيون ينتظمون في جماعات أشبه بالنقابات المهنية والحرفية والعمالية ، إذ نعلم من وثائق البردي وجود نقابات للمكارية والاسكافية ، وللقصارين والصباغين والنساجين والفخرانية ، ولصانعي الزجاج وللبحارة وربابنة السفن وتجار الملح ونحاتي الكتابة الهيروغليفية ، وللجزارين والحدادين والخبازين والترزية ، ومرممي الثياب والبنائين والنجارين وغيرهم من أصحاب الصناعات والمهن الحرفية كما تحدثت وثائق القرن الرابع الميلادي وما تلاه عن قيام نقابات للخبازين والنحاسين وصناع الجعة والزياتين بعد اصلاحات دقلديانوس الشهيرة التي سمح فيها بقيام مثل هذه النقابات : بعضها كان قديما قدم التاريخ مثل الفخرانية وجدالي السلال ، والبعض الأخر إستحدث نتيجة للتطور الصناعي وتلبية للسياسة الأجتماعية والأقتصادية للأمبراطورية مثل الزجاجين. ولدينا بضع وثائق ترجع إلى القرن الأول الميلادي في صدر الحكم الروماني تكشف لنا عن بعض جوانب هذه التجمعات المهنية فقد كان لكل جماعة من هذه الجماعات المهنية والحرفية لوائحها الداخلية التي يلتزم بها أعضاؤها ويقسمون يمين الشرف على إحترامها وعدم مخالفتها أو الخروج عليها ، بل كانت هذه النقابات تتولى تحديد أسعار وأجور خدماتها ، وتعيين أيام الأجازات والعطلات ونوعية الجزاءات التي تفرض على الأعضاء الذين لا يلتزمون بتقاليد وأصول المهنة ، وفرض الغرامات على الذين يتغيبون عن حضور إجتماعاتها . هذا من ناحية المسئوليات أما من ناحية الحقوق ، فقد كانت النقابات تقف إلى جانب أعضائها وتقدم لهم المساعدات في الملمات والمحن كالمرض والعجز

بحالات الوفيات ، إذ كانت النقابة تتكفل بنفقات جنازة العضو أو من يعولهم ، وتقوم بتعويضهم عند الأصابة والعجز ففى حالة وفاة عضو من أعضاء النقابة كان على زملائهم أن يحلقوا رؤسهم وأن يقيموا ماتماليوم واحد ، وأن يدفع كل واحد منهم دراخمة واحدة ورغيفين خبز أما فى حالة وفاة قريب من أقارب الأعضاء فيقام مأتم ليوم واحد . ومن يتخلف عن ذلك يدفع غرامة، مثلا فى حالة التخلف عن حضور الجنازة أو وضع أكليل على القبر ، وفى المناسبات السعيدة كالزواج أو الأنجاب كانت النقابات تقدم مساهماتها المالية لاعضائها(١٢٢) كما كانت تتولى دفع الضرائب عن الأعضاء وكذلك ضرائب الهاربين والمتوفين وغير القادرين بحكم تضامن الأعضاء فى المسؤلية والأبلاغ عن من يظهر من الفارين . ومن مظاهر النقابة الوليمة الشهرية التى كانت من أهم ملامح الحياة الثقافية فى مصر حيث يجتمعون مع نقيبهم لتناول الطعام والشراب غير أن هذه النقابات التى ساعد الرومان على قيامها لم يكن الهدف منها حماية مصالح أعضائها ـ كما كان الحال بالنسبة للنقابات فى العصور الوسطى ـ إنما كان غرض الرومان أولاً وأخيرا الحفاظ على مصالحهم وتلبيه احتياجات الأمبراطورية وكل ما يخدم السلطة فى مصر ووضع أصحاب المهن والحرف والصناعات تحت رقابة السلطة ، ومنع الأضرابات وحركات الأعتصام أو رفع الأجور مما يثير غضب الناس ويشكك فى قدرة الأمبراطورية على الأمساك بزمام الأمور : فمثلا عندما تطالب الجيوش الرومانية بحاجتها إلى أغطية وملابس لجنودها ، تسارع إدارة السلطة بالأتصال بنقيب النساجين فى الأقليم المطلوب لجنوده الملابس ، بدلاً من الأتصال بمئات النساجين كل على حدة ، كما أن إدارة السلطة فى هذه الحالة تشرك كل أصحاب المهنة فى المسئولية وتحملهم عاقبة التكاسل فى حالة عدم تنفيذ الطلب .

المهن النسائية :

كان مجتمع العمل فى مصر يقوم أساساً على الرجل ، إلا أن النساء قمن ببعض الأعمال التى كانت تدر عليهن دخلاً خاصاً بهن . ففى الريف المصرى عملت المرأة مع زوجها فى أعمال الزراعة منذ فجر التاريخ ، بل يفترض علماء الأجتماع والأنثروبولوجيا عصراً كانت فيه المرأة هى التى

تقوم بالعمل وإعالة الأسرة وليس الرجل ويطلقون عليه الأمومية(١٢٣) matrimonial إلا أنه بأكتشاف الزراعة تغير المجتمع من مجتمع الأمومية إلى مجتمع الأبوبية حيث بدأ دور المرأة يحتجب عن ميدان العمل الخارجى إلى عالم البيت وتربية الأبناء ورعاية الزوج ، إلا أن النساء ظللن يمارسن بعض الأعمال الهامشية كتربية الطيور الداجنة والماشية وبيع منتجاتها فى الأسواق ، كما قامت النساء بمهمه غزل الثياب من الصوف والكتان كقوله تعالى : كالتى نقضت « غزلها ، غير أن الرومان لم يعتبروا مثل هذه الأعمال أعمالاً بالمعنى الذى يتوجب فيه على النساء دفع ضريبة الحرفيين Χειρονάξιον . باستثناء مهنتين تخصصت فيهما المرأة هى الدعارة والرضاعة . إذ ورد ذكر الداعرات من بين قائمة تعريفة المغادرة الجمركية التى عثر عليها فى قفط والتى سبق الأشارة إليها إذا راينا أن ضريبة المغادرة بالنسبة للمومس كانت مائه وثمانية دراخمات بينما كانت ضريبة المغادرة بالنسبة للزوجة الشرعية للجندى أو الملاح هى عشرون دراخما فقط لاغير وهذا يبين مدى رواج مهنة الدعارة وماتدره من مال على العاملات بها وهى أقدم مهنة مارستها المرأة منذ فجر التاريخ . ولقد راج وارتفع أجر الداعرة فى المناطق النائية والمنعزلة فى الصحراء حيث ينعدم وجود النساء بأستثناء زوجات الجنود والملاحين ولهذا فرض الرومان عليها هذا القدر الكبير من الضرائب لما تتكسبه الداعرة من مال فى رحلتها إلى مثل هذه المناطق النائية حيث يقيم الرجال بلا زوجات وفى ظروف صعبة للغاية . غير أن الثراء السريع لم يكن الدافع الملح الذى يدفع بعض النساء إلى السير فى هذا الطريق ، إنما لعب الفقر المدقع أيضا دوره . فقد ثبت لنا من خلال دراسة الوثائق دراسة متأنية أن الحاجة وشظف العيش هما الدافعان الأساسيان اللذان يدفعان النساء إلى اتباع هذه المهنة تحت الحاج الجوع وعضه لهن بأنيابه فمن القرن الرابع الميلادى لدينا جزء من وقائع محاكمة فتى طائش وفاسق وثرى من أبناء وجهاء الأسكندرية أسمه ديوديموس أتهم بقتل ساقطة كان يتردد عليها ، وبدلاً من أن تسعى أمها لأدانة قاتل أبنتها وقبل أن ينطق القاضى بالحكم فى حق الجانى ، تقدمت والدة القتيلة بعريضة دعوى للمحكمة تطالب بتغريم القاتل مبلغا كبيرا كتعويض لها لفقد ابنتها العائل الوحيد لها ، ولم تهتم بأدانة القاتل أو براءته وجاء فى نص العريضة ما يلى :

ام الساقطة المدعوة ثيودورا ، إمراة عجوز ، معدمة ، طلبت ان يدفع لها ديوديموس نفقة إعالة ثابتة كتعويض لها عن فقدان مصدر إعالتها ، وقالت : انه بسبب ذلك دفعت بابنتى إلى صاحب بيت دعارة حتى احصل على دخل اتعيش منه ، والأن وقد رحلت ابنتى فقد حرمنى (الجانى) من مصدر اعاشتى ، وبناء عليه فانى أطالب ان امنح القليل لأتعيش منه حيث إنى معدمة »(١٢٤) .

اما المهنة الأخرى التى تخصصت فيها المراة ودرت عليها ربحا وفيرا توجب دفع الضرائب عليه فهى مهنة الرضاعة والحضانة . فمنذ عصور قديمة كانت بعض النساء من بنات الأسر لا يرضعن ابناءهن وإنما يعهدن بمهمة أرضاعهم إلى مرضعات تخصصن فى هذا المجال ، ربما لأن بعض النساء كن يعانين من نقص اللبن فى الثدى .أو تضاؤل حجمه ، أو حفاظا على رشاقتهن وتفرغهن للحمل التالى ، وأحيانا نجده يمارس كنوع من التباهى بالثراء ورغد العيش يقابل ذلك شطر كبير من النساء اللائى إمتلأت أثدائهن باللبن خاصة أولئك اللاتى فقدن أبناءهن الرضع ، ومن ثم فقد كان أجدى لهن من الناحيتين الصحية والمالية ان يستغللن هذا اللبن الوفير فى إرضاع الأطفال من كافة الطبقات بدءاً من أطفال نساء الطبقات العليا من أبناء الرومان أو السكندريين اللاتى كن ينشغلن فى نشاطات إجتماعية تفرض عليهم المحافظة على لياقة أجسامهن ، وإلى أطفال الأسر متوسطة الحال الذين فقدوا أمهاتهم بعد أن ولدنهم ، أو بسبب جفاف ثدى بعض النساء أو بسبب اصابتهم بأمراض تحول دون عملية الرضاعة .

تجارة الأطفال اللقطاء :

غير ان الوثائق البردية تظهر مجالاً لمهنة المرضعات وهو إرضاع اللقطاء ، أو الذين تلقى بهم أسرهم فى العراء بسبب الأملاق والفقر حتى يلقوا حتفهم أو تأكلهم الضوارى فقد كانت عادة التخلص من الأطفال بألقائهم فى العراء فى أكوام قمامة المدن والقرى سلوكا مشروعاً فى عرف الأغريق كوأد البنين والبنات عند العرب فى الجاهلية ، بينما كان هذا السلوك مرفوضاً دينيا وأخلاقيا من جانب المصريين ، فقد كانت الترانيم المصرية لأيزيس تتغنى بأمومتها لابنها حورس الذى غلب ترضعه حتى مرحلة الصبا كما هو مصور على جدران المعابد ، ولأنها كانت تكره أن يحرم اللبن عن فم الرضيع(١٢٥) . ولذلك تخصص بعض المصريين فى

البحث فى أكوام القمامة عن هؤلاء اللقطاء الأحياء ، وأن يعهدوا بهم إلى مرضعات لقاء أجر معين يحدده عقد مكتوب ومسجل ، فإذا كبروا إتخذوهم ابناء لهم يعولونهم عندما يشيخون ويحملون أسماءهم من بعدهم ، ولعلنا نذكر القارئ بقصة موسى عليه السلام - عندما ألقت به أمة فى اليم فالتقطة آل فرعون ليكون لهم سندا ، وبذلك شب موسى أو لقيط الماء فى بيت فرعون(١٢٦) لا يعرف له أماً غير زوجة الفرعون ، ولا أبا سواه ، ونفس الشيء نجده فى قصة يوسف عليه السلام : **وقال الذى إشتراه من مصر لأمراته اكرمى مثواه عسى أن ينفعنا او نتخذه ولدا**(١٢٧) .

غير أن فقراء المصريين لم يكن يعوزهم تبنى هؤلاء اللقطاء لكثرة عيالهم ، وإنما كان يعوزهم المال ، ومن ثم ابتكروا مهنة التقاط اللقطاء من أكوام القمامة وإرسالهم إلى مرضعات محترفات لقاء أجر معين ، فإذا كبروا باعوهم فى أسواق النخاسة كالمماليك أو الرقيق . وكانوا يجنون من وراء ذلك أموالا طائلة ، ولذلك لم يكن شرطا أن تكون المرضعة حرة أو من الرقيق .

كانت مدة عقد المرضعة تمتد من ستة أشهر حتى ثلاث سنوات ، وفى المتوسط حولين كاملين ، وعقب التعاقد تصطحب المرضعة الطفل إلى دارها وتعودة على ثديها ، وتقوم بتنظيفه وكسوته ورعايته حتى يشب قويا ومعافى ، وإذا حدث وأن مات خلال فترة عقد الرضاع ، يحق لصاحب العقد ان يوكل إليها إرضاع طفل اخر لأكمال المدة دون أجر إضافى ، وهناك شروط أخرى مثل تعهدها بالأتغش لبنها « أو تضاجع رجلاً أو تحمل من رجل جنيناً ، أو تضع طفلاً آخر فى نفس الوقت » . وهذا نموذج لعقد إحدى المرضعات عثر عليه فى الفيوم :

«إلى بروتارخوس من إيسيدورا أبنة .... ومعها وليها اخوها يوتيخيديس بن .... من ديدوما إبنة ابوللونيوس ، فارسية السلالة ، ومعها وليها أخوها اسخوريون بن ابوللونيوس . فارسى السلالة ، إرتضت ديدوما ان تقوم بحضانة وإرضاع . وبعيدا عندها فى المدينة ، ومن لبنها ذاته ، صاف وغير مغشوش ولمدة ستة عشر شهراً بدءا من شهر برمودة من السنة السابعة عشرة الحالية لحكم قيصر - الرضيع اللقيط - الولد العبد .... وإسمه .... والذى قدمته لها

إيسيدورا ، متسلمة - أى إيسيدورا - عشر دراخمات فضية وصاعين(*) من الزيت كل شهر كأجر لها عن الرضاعة والحضانة . وما دامت تتلقى أجرها كاملاً فإنها سوف ترعى نفسها والطفل رعاية كاملة دون أن تفسد لبنها ، أو تضاجع رجلاً ولا تحمل أو ترضع طفلاً آخر . وأى شيء يخص الطفل يتسلمه أو يعهد به إليها سوف تحفظه وتعيده عندما يطلب منها ذلك . أو تدفع قيمة كل شيء كغرامة باستثناء حالات الفقدان الواضح الذى تعفى من تقديم الدليل عليه . لقد تسلمت ديدوما فى حينه من إيسيدورا يداً بيد من بيتها زيتا لمدة الثلاثة شهور الأولى : برمودة وبشنس وبوءونه . وعليها إلا تتوقف عن الحضانة قبل نهاية المدة وإذا خالفت الأتفاق بأى وسيلة فانها سوف تغرم الأجورالتى تسلمتها وتلك التى كان من حقها أن تتسلمها مزادة عليها النصف وكافة الخسائر والنفقات ، بالأضافة إلى ذلك فان عليها أن تدفع خمسمائه دراخمة والغرامة المنصوص عليها ، ولأيسيدورا حق التحفظ على شخص ديدوما وكل ممتلكاتها كما لو كان حكماً قضائيا ، وكل الضمانات التى قد تقدمها ساعتها وكل وسائل الحماية تصبح لاغية . وإذا ما التزمت بالشروط سوف تسلم لها ايسيدورا كافة النفقات الشهرية كما هو موضح اعلاه للثلاثة عشر شهراً الباقية ، ولا يجوز لها ان تستعيد الطفل قبل نهاية المدة وإلا كان عليها نفسها ان تدفع غرامة مماثلة . وسوف تقوم ديدوما بزيارة إيسيدورا كل شهر بانتظام خلال اربعة ايام منفصلة محضرة معها الطفل لتقوم هى بفحصه نرجو الأعتماد [بخط آخر] انا إيسيدورا اوافق على الشروط السابقة . انا يوتيخيديس الولى الملزم لأختى كتبت نيابة عنها لأنها لا تعرف الكتابة انا ديدوما اوافق على الشروط السابقة . انا إيسخوريون الزمت نفسى كوصى على اختى وكتبت نيابة عنها لأنها لا تعرف الكتابة [خط الكاتب الأول] موافقة إيسيدورا السنة السابعة عشرة من حكم قيصر . [عام ١٣ قبل الميلاد](١٢٨) .

وهناك وثيقة أخرى عبارة عن إيصال مخالصة عن حقوق مرضعة. حرر بعد مرور مائتى سنة من تاريخ العقد الأول أى فى عام ١٨٧ بعد الميلاد هذا نصه .

خوسيون بن سارابيون بن هاربوكراتيون وامه سيرابياس . من أوكسيرينخوس . إلى تانيتيرس إبنة ثونيس بن ثونيس وامها زويلوس من نفس المدينة . ومعها ولى امرها ديمتريوس بن هوريون وارسينوى . من نفس

(*) الكلمة المستخدمة هى كوتولان Cotulyae والكوتولا الواحدة يعادل ربع لتر بالمعايير الحالية .

المدينة . سلام . اقر اننى قد تسلمت منك عن طريق هليودوروس والذين معه وكلاء البنك القائم فى السيرابيوم بمدينة او كسيرينخوس الذى له اصدر وكلاء إبيماخوس ضماناً بدفع مبلغ اربعمائة دراخما من العملة الفضية الأمبراطورية كاجر للمرضعة، وللزيت وللكساء وسائر النفقات الأخرى للعامين التى قامت خلالهما عبدتى سيرابياس بحضانة ابنتك هيلينا المنسوبة اباً إلى من كان [أى إبنة أبيها المجهول] والتى تسلمتيها بعد أن فطمت وعوملت بكل رعاية ولن يكون لى فى الحاضر او المستقبل أى مطالبة نحوك ولن اتخذ اى إجراءات حول هذا الأمر او بخصوص اى موضوع اخر مهما كان حتى يومنا هذا . الأيصال قانونى. العام الثامن والعشرين من حكم الأمبراطور القيصر ماركوس اوريليوس كومودوس انطونينوس التقى السعيد الأغسطس بطل ارمينيا وميديا وبارثيا وصرماتيا والمانيا الأعظم وبريطانيا بابه ١٥ (١٢ أكتوبر عام ١٨٧ ميلادية).

[بخط مختلف] انا خوسيون بن سارابيون قد تسلمت الاربعمائه دراخما الخاصة بنفقات الحضانة ولن يكون لى اى مطالبة كما سبق ان اقررت. انا تانيتريس ابنة ثونيس ومعى ولى امرى ديميتريوس بن هوريون قد وافقت وقد إستعدت ابنتى كما سبق ذكره، انا بلوتيون بن هرمس، قد كتبت نيابة عنهما لانهما لا تعرفان الكتابة(١٢٩).

وبحسبة بسيطة فى ضوء تدهور القيمة الشرائية للدراخما خلال القرنين اللذين يفصلان بين الوثيقتين، نجد أن أجر المرضعة كان يعادل أجر عامل غير فنى، وكان جزء من هذا الأجر يدفع نقداً ومقدماً ويقسط الباقى فى شكل دفعات تدفع كل شهر إما نقداً أو عيناً مثل زيت الزيتون الذى كانت المرضعات يستخدمنه لتدليك الأطفال ولحماية بشرتهم الرقيقة من الجرب والهرش والألتهابات الجلدية.

البنوك والمعاملات المالية :

ورد فى الوثيقة السابقة أن المرضعة تانيتريس أقرت أنها تسلمت عن طريق وكلاء بنك السيرابيوم بمدينة أوكسيرينخوس صكا يضمن لها البنك بمقتضاه صرف مبلغ أربعمائة دراخما فضية إمبراطورية كنفقات الحضانة والرضاعة لأبنة لقيطة . ونفهم أيضا نظام المعاملات المالية كان يشمل على مقدم نقدى يسلم « يداً بيد» وهى عبارة تتردد كثيراً فى وثائق العقود والمعاملات، أما الباقى فيقسط على أقساط يتسلمها المتعاقد عن طريق

احد البنوك أو بيوت المال الكثيرة والمنتشرة فى كل مكان خاصة فى
عواصم الأقاليم ، بل حتى فى بعض القرى الكبيرة . كانت وظيفة البنك
او بيت المال هى إستقبال الودائع ، وتسديد ضرائب الدخل نيابة عن
العميل ، أما الأعمال المملوكة ملكية عامة فكانت تتم عن طريق البنوك التى
يمتلكها أفراد مقتدرون فى البداية ليصبحوا أثرياء فى النهاية . وبالرغم
من أن بنوك مصر فى العصر الرومانى لم تكن بمثل الأمكانيات
والأختصاصات وتقديم الخدمات بالقدر الكبير الذى تقدمه بنوك العصر
الحديث ، إلا أنها لعبت دوراً منشطا للأقتصاد إذ كانت تستقبل الودائع
وتقدم لعملائها المال السائل «وخطابات الضمان» وغيرها من الخدمات
البنكية مثل الدفع لطرف ثالث ، وتسديد الكمبيالات ، ونقل الأموال من
حساب طرف إلى حساب طرف ثان ، بناءاً على أوامر دفع ، خاصة عندما
تكون المبالغ كبيرة لدرجة يتعذر نقلها حملاً بعد صرفها . كانت هذه
البنوك τραπεζαι تعرف أحيانا بأسم بنوك الأيجارات او بنوك مسك دفاتر
الحسابات لأنها أصلا تخصصت فى هذا المجال إلا أنها قدمت خدمات
بنكية تتعدى هذا النطاق وهو ما نسمية بأمناء الاستثمار فى لغة المال
فى العصر الحديث إذ كان فى مقدور العميل أن يكلفها بأستئجار مساحة
من الأرض الزراعية نيابة عنها لمدة قد تصل إلى خمس سنين وتقوم
بتسديد الأيجار سنويا عنه بل ومقدماً بضمان حسابه(١٣٠) او برهن
المحصول ، بل وفى بعض الأحيان قام بنك التحويلات بأستقبال اموال
الأيداعات الخاصة بأيجارات العقارات بهدف تحويل عقد الأيجار إلى عقد
تمليك بعد أكتمال الثمن (١٣١) ويتضح من حصر أسماء رجال البنوك
والمعاملات أنهم يحملون أسماء اغريقية خالصة وفى حالات نادرة نرصد
أسماء مصرية أو مصرية متأغرقة ، وبالطبع ترددت أسماء رومانية أو
مترومنه وأغلب الظن انهم كانوا ينتمون إلى رجال طبقة الفرسان الذين
تخصصوا فى استثمار الأموال وأعمال الصيرفة من أمثال تيبريوس
كلاوديوس ديمتريوس Τιβεριος χλαυδιος Δεμετριος المعروف بأبن بيون
Βιου وكان من اعيان الاسكندرية الذين حصلوا على حقوق المواطنة
الرومانية ، وانتخب رئيساً للجمنازيون وهو منصب شرفى عال المقام ،
وإلى جانب ذلك كان عضواً بارزا فى مجلس الموسيون (دار الفنون
والآداب) وشغل منصب كرسى الكاهن الأعظم وذلك خلال فترة نشاطه فى

القرن الأول الميلادى . ونخلص من ذلك أن العمل فى مجال البنوك لم يكن متاحاً إلا للوجهاء الأثرياء الذين يسعون للمزيد من الثراء .

نجوم المسرح وابطال الرياضة :

شغل نجوم المسرح- أو فنانو احتفالات ديونيسوس كما كانوا يعرفون- مكانة بارزة فى المجتمع ، وتمتعوا بمزايا عديدة . وكان على الممثل أن يشق طريقاً طويلاً من الكفاح والمعاناة قبل أن يصل إلى عالم الشهرة ويصبح ذائع الصيت ، فاذا ما نجح فى ذلك فإنه يصبح عضواً فى نقابة محلية كانت بدورها فرعاً من نقابه عالمية كبرى على مستوى الأمبراطورية مركزها مدينة روما ، ولا يلتحق بها إلا أولئك الذين حصلوا على جوائز فى المهرجانات الدينية الخاصة بعبادة ديونيسوس والتى كانت متاحة لمشاركة كافة فنانى الأمبراطورية المتجولين من قطر إلى أخر أى أن الرومان اشترطوا الذيوع المحلى قبل الأعتراف بالفنان عضواً فى النقابة الدولية ، ولما كانت وسائل الذيوع والأنتشار محدودة ، فقد كان على الفنان أن يبدأ بالتجول من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى مدينة فى وطنه الأم لكى يحقق هذا الذيوع والأنتشار محليا ، ثم يبدأ فى الانتقال من قطر إلى آخر من أقطار الأمبراطورية ليحصل على لقب فنان عموم الأمبراطورية وينتهى به التكريم إلى عضوية النقابة الكبرى فى روما حيث يمنحون التاج الذهبى الخاص بديانة ديونيسوس ، وهو شرف كبير يحقق للفنان مكانة دولية ومزايا عديدة تدر عليه أموالاً طائلة ، وذلك منذ عصر الأمبراطور أكتافيوس أغسطس الذى أوكل إلى وزير الأعلام والفنون مايكيناس تنظيم شئون الفن والثقافة وتجنيدهما لخدمة أهداف الأمبراطورية السياسية(١٣٢) . وقد حرص خلفاؤه على متابعة هذه السياسة خاصة الأمبراطور نيرون الذى ظهر كراقص ومغنى وممثل على المسرح الكبير فى روما(١٣٣) . وفى عصر الأباطرة الصالحين تميز الأمبراطور هادريانوس برعايته للفن وإغداقه- بلا حدود على الفنانين والأدباء بالمزايا المادية والتكريمية مثل عدم المساس بشخص الفنان أو التعرض له بالأذى وهو ما يعرف بحق الحصانة الدبلوماسية ، وإجلاسهم فى المقاعد الأمامية فى الحفلات والمناسبات العامة ، وإعفائهم من الخدمة العسكرية وأداء الخدمات المدنية الألزامية والأعفاء من ضريبة الدخل والكسب

العام، وإعفائهم من شرط تقديم الضمانات عند المعاملات أو تقديم المسوغات من أجل إعفائهم من الضريبة الخاصة بالأضاحى الأمبراطورية، وحقهم فى رفض إستقبال أو ايواء ضيوف الأمبراطورية، والا يتعرضوا لفرض أى غرامات عليهم تحت أى ظرف من الظروف، ولا يجوز الحكم بالاعدام على فنان، كل ذلك ورد فى مرسوم امبراطورى أصدره الأمبراطور هادريان وذكرته الوثائق البردية(١٣٤). وفى القرن الثالث جدد الأمبراطور سبتميوس سيفيروس هذه الأمتيازات وزاد عليها، وقلده خلفاؤه: إبنه كاراكالا(١٣٥) وحفيده الأمبراطور الاسكندر سيفيروس(١٣٦) الذى كرم الفنان ماركوس اوريليوس سيرينوس Marcus Aurelius Serenus وكانت النقابة الرسمية الأمبراطورية تمنح العضو المقبول فيها شهادة هى: عضوية النقابة العامة للفنانين المتجولين المكرسين لمهرجانات ديونيسوس وسائر الأباطرة المؤلهين، بعد فوزه فى هذه المهرجانات وتتويجه بالتاج الذهبى وتسجيل إسم وتاريخ المهرجان الذى فاز فيه وذلك بعد تسديد رسوم الأشتراك والتسجيل فى النقابة، وأداء طقوس وشعائر عبادة الأباطرة، بعد ذلك تقوم النقابة المركزية بابلاغ النقابة القطرية بأن الفنان المذكور قد أصبح عضواً عاملاً ويتوجب اعفاؤه من كافة الألتزامات وتطبق عليه كافة الأمتيازات التى سبق ذكرها عليه.

وعلى نفس النسق كان هناك نقابة الرياضيين المتجولين، وكما كان ديونيسوس هو الرب الحامى للفنانين، فقد كان هرقل هو الرب الحامى للرياضيين ولقد عمل كثير من الأباطرة من أمثال كلاوديوس وفسباسيانوس وسبتميوس سيفيروس على دعم هذه النقابة ومنحها العديد من الأمتيازات حتى أضحت مهنة إحتراف الرياضة ترفع صاحبها إلى مكانة تفوق مكانة نجوم المسرح والفنون فقد كان نجوم الرياضة إلى جانب الأغداق عليهم بجوائز مالية قيمة يمنحون حقوق المواطنة الرومانية ويصرف لهم معاش مدى الحياة بالأضافة إلى الأعفاء من الضرائب والخدمات الألزامية. فقد تحدثت النقوش التى عثر عليها خارج مصر(١٣٧) عن بطل سباق العربات الذى جمع ثروة قدرت آنذاك بمليون ونصف دراخما من المسابقات التى فاز فيها على مدى أربعةوعشرين عاما، وعن الملاكم الذى فاز فى مائة مباراة دخلها ولم يهزمه فيها أحد

وكرمته أربعة عشر مدينة من مدن الأمبراطورية بجعله مواطنا شرفيا لها من بينها الاسكندرية وانطينوبوليس . أما عن وثائق البردى المصرية فقد أمدتنا بتفاصيل دقيقة عن الرياضة والرياضيين من أعضاء النقابة الأمبراطورية مثل :

« ان هرمينوس الملاكم المعروف أيضا باسم موروس عضو نقابتنا قد سدد رسوم التسجيل المحددة وقدرها مائة دينار [أى أربعمائه دراخما] كاملة(١٣٨) .

ومن مدينة الأشمونين [هرموبوليس ماجنا] لدينا هذا الطلب الذى تقدم به أحد أبطال الملاكمة المصارعين وإسمه أوريليوس ليوكاديوس يطلب معاشا وهذا نصه :

« إلى المبجل مجلس مدينة هرموبوليس العظيمة ، العريقة الموقرة ، ذائعة الصيت من أوريليوس ليوكاديوس الهرموبوليسى الفائز فى الألعاب المقدسة فى الباناكراتيا [لعبة تجمع بين الملاكمة والمصارعة] عن طريق أوريليوس ابيانوس المسمى أيضا ديمتريوس من هرموبوليس والمفوض وكيلا عنه . أننا نلتمس أن يصدر (منكم) امرأ لكى يدفع لى من خزانة البلدية المعاش [المستحق لى] عن الأنتصارات التى حققتها فى ألعاب أعياد النصر المقدسة طوال ثمانية وأربعين شهراً بدءا - من برمهات العام العاشر إلى الثلاثين من أمشير العام الرابع عشر بمقدار ١٨٠ دراخما شهريا أى بمجموع تالنت واحد والفين وستمايه واربعين دراخما هذا عن الفوز الأول الذى توجت فيه فى مبارايات الشباب المسكونية للانتصارات المقدسة والتى اقيمت فى أولمبيا فى مستوطنة صيدا (الرومانية) ، وعن الخمسة والثلاثين شهراً وخمسة وعشرين يوما بدءاً من ٦ برمودة من السنة الحادية عشرة حتى أمشير شاملة السنة الرابعة عشرة بواقع ١٨٠ دراخما شهريا وقدرهاتالنتا واحداً وأربعمائة وخمسون دراخما فيكون المجموع الكلى المستحق تالنتان وثلاثة ألاف وتسعون دراخما فضية (إجمالى ٢ تالنت و ٣٠٩٠ دراخما) دون أى إجحاف يلحق بأى حق من حقوق المدينة ومجلس شيوخها . السنة الرابعة عشر من حكم الأمبراطور قيصر بوبليوس ليكينيوس جاللينوس بطل المانيا الأكبر ، بطل فارس الأكبر التقى السعيد الأغسطس برمهات (٢٦٧ م)(١٣٩) .

إن مبلغ تالنتان وثلاثة آلاف وتسعون دراخما مبلغ كبير بالنسبة لأجر العامل الماهر او راتب جندى الفرقة المتميزة وحتى بعد أن منحهم كاراكالا علاوة الخمسين فى المائه لم يزد راتب الجندى عن ستين دراخما شهريا. والاغرب من ذلك أن الأمتيازات التى كان الرياضيون يحصلون عليها كانت تورث إلى أبنائهم من بعدهم. فقد سجلت إحدى وثائق هرموبوليس قراراً صادرا من الأمبراطور جاللينوس عام (٢٥٣-٢٦٠ م) بشأن رعاية طفل يتيم كان أبوه وجده من أبطال الرياضة وهذا نصه:

«(من) الأمبراطور قيصر بوبليوس ليكينيوس جاللينوس التقى السعيد الأغسطس إلى اوريليوس بلوتيون سلام. لقد فعلت حسنا وطيبا بخصوص تدبير الوصاية على الصبى اليتيم اكتب لى حول هذا الموضوع ان حق العدالة وماطلبته انت يحثانى على منح المكرمة على الفور لأنه الم يكن مناسباً ان نيسر على طفل ينتمى لأبوين من امثال اسكلبياديس و (أمة) إبنة (البطل الرياضى) نيلوس الذين كانا يوما ما رياضيين ذائعى الصيت لكى يحصل عليها بسهولة؟ وعلى ذلك فليعف إيليوس اسكلبياديس المسمى ايضا نيلوس من كافة الخدمات والوظائف الشرفية والواجبات العامة حتى يتمتع بمكرمتى نظير شجاعة اجدادة»(١٤٠).

وأخيرا فأن هذه المزايا أصبحت - مثل بعض المناصب المدرة للربح - عرضة للبيع والشراء، إذ وجد بعض الرياضيين أنه من الأفضل لهم تحويل بعض هذه المزايا طويلة الأمد إلى أموال فورية يستثمرونها فى الحال فقد باع أحد الأبطال الفائزين فى المباريات الكبرى التى أقيمت على شرف أنطينووس - حقه فى تناول وجبه مجانية على حساب المدينة مدى الحياة نظير ألف دراخما فضية وذلك فى شهر برمودة (أبريل) عام ٢١٢ ميلادية(١٤١).

المهن العلمية:

١ - الأطباء:

وقبل أن ننهى ذلك الفصل يتوجب علينا أن نتعرض للمهن العلمية الراقية التى يتطلب العمل فيها تأهيلا وتدريبا ذهنيا شاقا ومكلفا، وعلى رأسها مهنة التطبيب، إذ يرد فى الوثائق مرارا وتكراراً لفظ الطبيب وفى المعاملات اليومية حتى تلك التى لا تتعلق بالطب مثل تسديد الضرائب

وحصر الممتلكات فقد كان هناك أطباء ممارسون لحسابهم، وآخرون تعينهم السلطة ويكلفون بأعمال من قبلها فإذا لم يتوفر ذلك كلف الممارس الحر فإذا لم يتسير ذلك كلف أقرب الناس إلى مهنة الطب وهم اللحادون ενταφισται أو حتى القابلات meai وكانت هذه المهمات عادة هى توقيع الكشف الطبى لتحديد المسئولية الجنائية أو معرفة الأسباب أو حتى الفصل فى القضايا وكان لا يصرح بدفن أى جثة إلا بعد توقيع الطبيب الحكومى الكشف عليها. وفى بعض الحالات الخاصة اشترك أكثر من طبيب فى توقيع الكشف وإعداد التقرير، كل هذا تؤكد أن السلطة الرومانية فى مصر اعادت تنظيم ممارسة الطب وأوجدت إدارة مركزية طبية يعمل فيها إعداد كبيرة من الأطباء على نظام الادارة الطبية فى الجيش الرومانى، وأغلب الظن أنه كان يترأسها طبيب كبير يقيم فى مدينة الأسكندرية ولها فروع فى سائر الأقاليم. إن لدينا تقريرا من طبيب حول فحص مصاب تعرض للضرب المبرح من جانب نفر من الأهالى، ونفهم من التقرير أن الطبيب الفاحص قد سرح حديثا من العمل فى الأدارة الطبية للجيش الرومانى هذا نصه:(١٤٢)

«إلى بروتارخوس استراتيجوس اقليم ارسينوى قسم هيراكليديس من جايوس سينيكوس فاليريانوس الذى يمارس مهنة التطبيب فى قرية كرانيس ومن فائيسيس بن زيناس، وأسكوريس بن كاستور وكلاهما من شيوخ القرية (حول) حالة سوستاريون بن كاميس بعد أن زرتة فى حضور اخيه بيتيسوخوس نرفع التقرير التالى: نقسم بعزة الأمبراطور قيصر تراجانوس هادريانوس اغسطس ان المذكور فى اليوم الخامس بعد تعرضه للضرب المبرح فوق الصدغ الأيسر من راسه. قمت انا جايوس مينيكيوس فالريانوس بمعالجة سوستاريون من جرح غائر وجد فيه بعض شطايا من الحجر [خط مختلف] شاهدنا نحن فائيسيس واسكوريس المذكورين اعلاه الجرح السابق ذكره وإلا حق علينا حنث القسم [إذا كان غير ذلك] كيهك ٢٦. [٢٢ ديسمبر عام ١٣٠ ميلادية].

كانت أغلب طرق العلاج مأخوذه من تذكرة الطبيب الشهير أرخيجاثوس وهو طبيب إغريقى ذاعت شهرته ابان القرن الثالث ق م، بل ظلت حتى القرن الأول الميلادى ووصلت إلى الأطباء الرومان، فتحدث عنها كورنيليوس كيلسوس أشهر مؤلفى كتب الطب عند الرومان، كما أشار إليه

الأديب بلينيوس الأكبر ، بل ظلت وصفاته يعمل بها حتى العصور الوسطى . ففى خطاب مؤرخ فى أول توت [٢٩ اغسطس] عام ٥٨ ميلادية كتب رجل إلى صديقة الطبيب حول مفعول دواء وصفه له من تذكرة ارخيجاثوس ودواء ثان من وصف الطبيب عبارة عن لبخة مركبة من الصودا الكاوية ، وبينما يمدح كاتب الخطاب وصفة تذكره أرخيجاثوس يشتكى من تأثيرات اللبخة التى وصفها له كمادة مطهرة وذلك لأن نسبة المادة الكاوية أكثر مما ينبغى مما أحدث إلتهابا بباطن القدم ويطلب منه استبدالها بوصفة أخرى ورباط مهدىء للألم .

ومن الواضح أن صاحب الخطاب مصاب بجرح فى قدمة ، و هى إصابة شائعة فى المجتمع المصرى فى ذلك الوقت حيث كان أغلب الناس يسيرون حفاة الأقدام ويبدو أن هذا النوع من الجروح كان أحد التخصصات التى برع فيها الطبيب الشهير أرخيجاثوس .

وبالرغم من أن الأسكندرية العاصمة إستحوذت - مثلما الحال فى القاهرة اليوم - على أشهر الأطباء والجراحين ، إلا أن عواصم الأقاليم كان بها عدد من الأطباء والجراحين الأقل شهرة ، بينما خلا الريف منهم . ومن ثم اعتمد أهل الريف فى علاج أنفسهم على الطب الشعبى وخبرة الوصفات الطبية المتوارثة عن الأجداد ، والتى كان يمارسها فئة من الناس أشبه بما كان يعرف « بحلاق القرية » أو بالأطباء الحفاة فى الصين . كما نفهم من وثائق البردى إزدهار حرفة العطارين(١٤٣) ومركبى المراهم μυροπωλοιχαι الذين كانوا يتولون مهمة تركيب الوصفات العلاجية . وهناك ما يقرب من مائة وصفه شعبية مدونه على أوراق البردى من العصر الرومانى لكافة الأغراض المرضية بدأ من عفونة الأمعاء الى المغص . وتعتمد أغلب هذه الوصفات على الأعشاب المتوفرة فى البيئة المصرية سواء فى الريف أو الصحارى وهى كثرتها تبلغ ثلاثة أضعاف الوصفات المأخوذة من المشتقات الحيوانية أو المواد المعدنية ، بعضها لا يزال يستخدم فى الطب العربى » والبعض الآخر لم يعد له وجود . وكانت هذه الوصفات تحضر عادة مع قراءة بعض التعاويذ وكلمات السحر وكذلك ينصح متعاطيها عند تناولها بتلاوة بعض التعاويذ . وبعض الوصفات كان معروفاً فى علاج بعض الجروح والأمراض الشائعة كالكحة والصداع وآلام المفاصل - وربما

البلهارسيا ، والبعض الآخر تركيبات دقيقة وجدت لها صدى فى الأدوية الحديثة والتى تعكس آخر ما وصلت اليه معامل الأدوية وفنون الصيدله مثل وصفات علاج سقوط الشعر الذى وجد لها عدة وصفات مختلفة ، نشرت إحداها منذ أكثر من ستين عاماً ، وثبت أنها نفس الوصفة التى أشار إليها جالينوس أشهر أطباء الرومان وإستخدمت العصور الوسطى الذى كان يجمع الوصفات الطبية الشعبية المصرية وينسبها الى نفسه[١٤٤] . ولقد أعطيت السلطة الرومانية للأطباء حق الأعفاء من الخدمات الالزامية ، لكن كان على الطبيب أن يحصل على إعتراف رسمى بصلاحيته لممارسة هذه المهنة ويقدم الأدلة العلمية والعملية على ذلك ففى وثيقة ترجع للقرن الثانى أو الثالث الميلادى عبارة عن إختبار لطبيب يريد الحصول على إذن رسمى بصلاحيته لممارسة التطبيب والعلاج لكى يعفى من الخدمة الإلزامية جاء فيها وقائع هذا الأختبار :

« نسخة من مذكرات فاليريوس يوديمون الوالى (السنة ...) من حكم القيصر أنطونينوس مولانا برمهات[٢٠٠] **. دعوى بساسنيس . مثل بساسنيس وقال : انا طبيب بحكم مهنتى وقمت بعلاج هؤلاء الأشخاص بالذات وهم الذين ادرجونى فى قائمة الأعمال الإلزامية ، فقال يوديمون » ربما لأنك عالجتهم بغشم ، وإذا كنت تدعى رسمياً أنك طبيب تمارس التحنيط** *κατaθηκον* **قل لى ما هى المحاليل** [يقصد المستخدمة فى التحنيط] **وسوف يكون لك حق الأعفاء من الخدمة الألزامية**[١٤٥] . [١٤١ـ١٤٢م].

وقد ورد فى بعض الوثائق من آن لآخر لفظ طبيب الخيول » والمقصود به الطبيب البيطرى ، كما ورد فى وثائق المعاملات اليومية مصطلح طبيب الوحدة العسكرية » . ولم يكن هناك برنامج محدد أو إعداد واضح لتدريب واعداد الراغبين فى ممارسة التطبيب ، كما أن المصادر لم تشر من قريب أو بعيد الى قدر من المعرفة أو الدراسة يتوجب على الطبيب الألمام بها ، إنما كان ذلك يترك لمدى الخبرة العملية التى يلم بها الدارس من خلال ملازمة طبيب معلم سواء فى الأسكندرية أو إحدى عواصم الأقاليم ، أو الطبيب الشعبى فى القرية .. وكان لكل طبيب طريقته الخاصة فى العلاج وله وصفاته أو تذكرته التى يستوحيها من الظروف والبيئة . والذى لا شك فيه أن المؤلفات الطبية فى الوصيفات العلاجية كانت شائعة ومنتشرة فى

مصر فى ذلك الوقت وذلك لأن الوباء هو العدو الدائم والتقليدى للأنسان خاصة الفلاح الذى كان جسده الهزيل ملتقى لكافة الأمراض . فقد كشفت معاول الأثريين فى أطلال مدن مصر فى العصر الرومانى مثل : انطينوبوليس و هرموبوليس و اوكسيرينخوس ، بل كذلك فى بعض القرى النائية عن شذرات جالينوس فى الطب ، وعشرات من القصاصات البردية المنسوبة الى الطبيب هيبوقراط ، وما يزيد على خمسين شذرة من مؤلفات متعددة لا نعرف هوية مؤلفيها الا اننا نلمس فيها الطب الأغريقى من خلال الوصفات العلاجية ، ويقابل ذلك كم هائل من مؤلفات الطب المصرية المدونة بالهيروغليفية على أوراق البردى بعضها يرجع الى الألف الثالث او الثانى قبل الميلاد . وبذلك كان أمام الطبيب الممارس فى مصر الرومانية مصدران للتطبيب يأخذ منها مايشاء ، أو يلتزم بأحدها نصاًوروحاً . ومن أمثلة المزج بين الطب المصرى والطب الأغريقى ما ورد فى إحدى البرديات الديموطيقية التى نشرت عام ١٩٧٦ .وكانت جزءاً من مؤلف طبى كان محفوظاًفى مكتبة بيت الحياة بمعبد رب التمساح سوخوس بالفيوم فى أواخر القرن الثانى الميلادى ، جميع معلوماته مزيج من التراثين المصرى والأغريقى(١٤٦) ، ومن المثير أننا نجد بعض أسماء العقاقير الأغريقية مكتوبة بالحروف المصرية(١٤٧) .

ولقد ذكرت إحدى وثائق إخطارات الأحصاء عن عام ١١٨ م والتى نشرت فى الستينات أن قروياً أقر فى إخطاره بأن إبنه - وكان فى السابعة عشرة - يعمل كطبيب . غير أن كلمة طبيب كتبت بالأختصار او بالأختزال مما أثار جدلاً بين المختصين عن السبب الذى دفع كاتب الوثيقة الى فعل ذلك ، كما ثار جدل بين العلماء هل يعقل أن يكون هناك طبيب يداوى الناس وهو فى السابعة عشرة من عمره ، غير أننا قابلنا من قبل عقود تدريب تنتهى عند سن السابعة عشرة أو حتى أقل منها بقليل ، فهل يمكن أن ينطبق ذلك على تدريب الأطباء ؟ أم أن هذا الإختصار يعنى أن الصبى لايزال فى مرحلة التدريب ، أو أنه يعمل كممرض أو مساعد طبيب ؟ وربما كان هذا الصبى هو الشخص الوحيد المؤهل لتطبيب الناس فى هذه القرية المنسيه ، وليس من المستبعد أن يكون الصبى قد أبدى نبوغاً منذ الصغر بعلم لدنى وقدرة ربانية على الشفاء وهو أمر شائع فى أفكار شعوب الشرق القديم ،وستظل التساؤلات قائمة حتى تظهر وثائق أو تنشر أخرى حتى

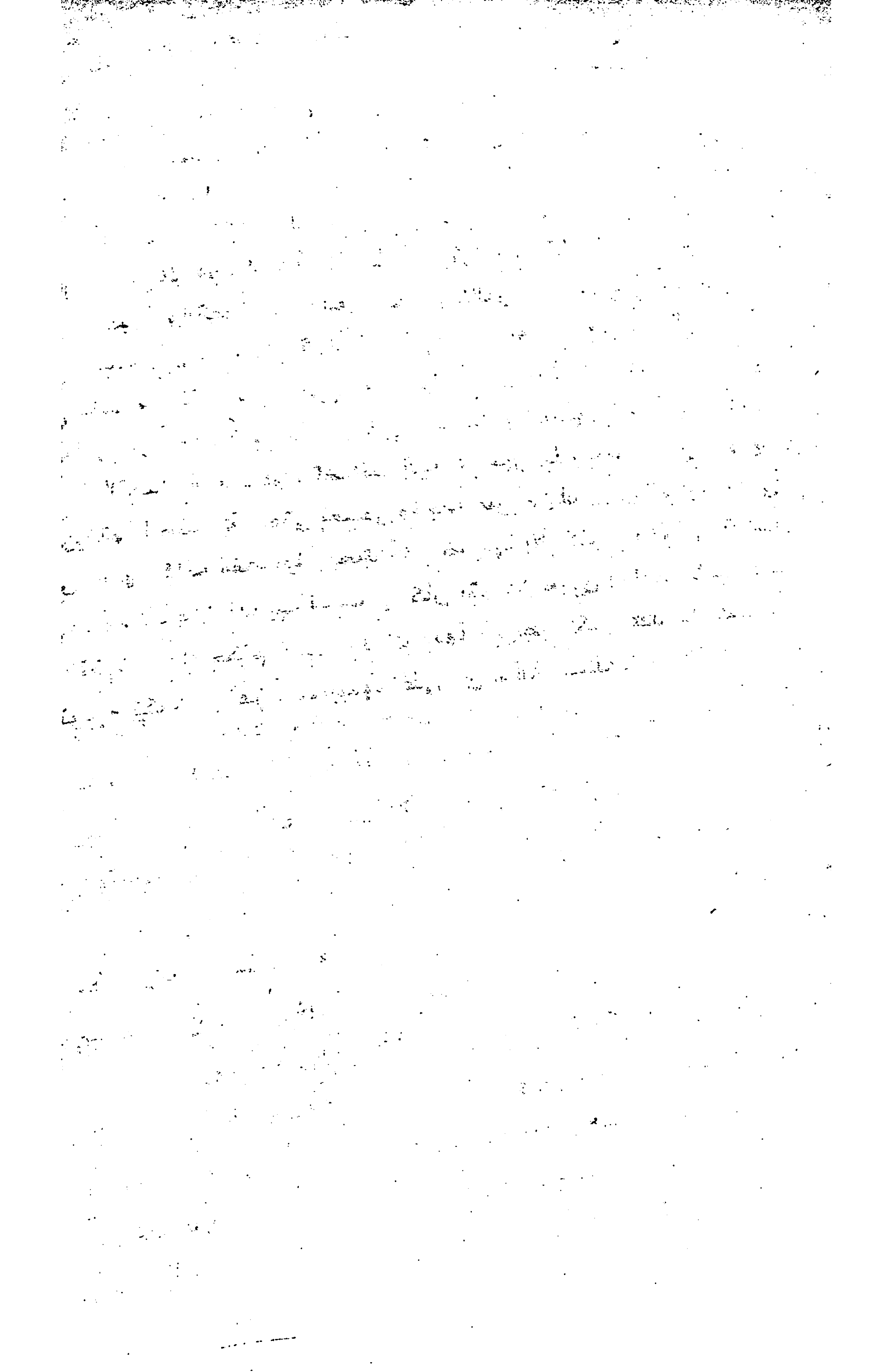
تضع حلا لهذا الجدل.وكذلك تساعدنا على تحديد أجور الأطباء بالنسبة للنشاطات الأخرى للسكان .

٢ ـ المحامون :

وأخيراً نأتى الى معالجة المحامين الذين ترددت وظائفهم كثيراً فى الوثائق البردية غير أننا لا نعرف عنهم أكثر مما نعرف عن الأطباء ، نعم لقد سجلت البرديات القانونية مرافعات بعض المحامين نيابة عن موكليهم غير أننا لا نعرف مقدار الأجر الذى كان يتقاضاه المحامى نظير دفاعه عن موكله ، ولا عن التدريب الذى يتلقاه الدارس حتى يسمح له بالمرافعة أمام المحاكم واعداد صور العقود والمذكرات القانونية . ومن خلال دراسة البرديات القانونية ندرك أن تنازع القوانين فى مصر كان قائماً . اذ كان فيها ثلاثة قوانين تعمل جنباً الى جنب : القانون المصرى والقانون الأغريقى والقانون الرومانى . ولقد أراح الرومان أنفسهم بجعل لغة العقد هى التى تحدد نوع المحكمة التى تنظر الخلاف ، فطبقاً لنصوص القانون الرومانى المدعى يتبع محكمة المدعى عليه .

وبطول الأحتكاك بين القانون المصرى والقانون الأغريقى نشأ قانون وسط نستطيع أن نسميه بالقانون البطلمى أو الأغريقو ـ مصرى الذى كان مزيجاً من التشريعين . وبوصول الرومان ـ سادة القوانين ـ بدأ تأثيرهم يظهر فى صيغ العقد التى بدأت تتضمن شروطاً جزائية وكذلك الأحتفاظ بالحق القانونى ، كما ظهر تأثير فقه القانون الرومانى فى قوانين المرافعات ، ووصل الى قمته بعد عام ٢١٢ ميلادية بصدور الدستور الأنطونينياتى Constitutio Antoniniana الذى كان مكرمة إمبراطورية جاد بها كاراكالا على كافة شعوب الأمبراطورية فيما عدا المستسلمين . فقد لوحظ أن تعديلاً أدخل على القانون المصرو ـ اغريقى بتأثير التشريع الرومانى وذلك بعد عام ٢١٢ م اذ كان سن الكسب فى القانون المصرو ـ اغريقى هو سن الرابعة عشرة يتوجب بعدها فرض ضريبة الرأس وسائر الضرائب الأخرى ، بينما جعل القانون الرومانى سن كسب العمل ودفع الضرائب هو سن الخامسة والعشرين ، وثمة ملاحظة أخرى هو وجود تغير واضح فى جوهر عقود الزواج تحت تأثير القانون الرومانى بأدخال بنود

الشروط وغرامات الجزاء ومسئولية نقض العقد والتعويض، ففى وثيقة حررت عام ٢٦٠-٢٦١ نجد شرطاً يضاف الى عقد الزواج ينص على الزام الزوج برد المهر المدفوع له عند فض العقد وإلغائه وتبين أن هذا الشرط مستمد من روح القانون المدنى الرومانى ولم يكن له وجود لا فى القانون(١٤٩) المصرى أو الأغريقى، ولا حتى فى القانون المحلى السكندرى الذى كان- على العكس من القانون الرومانى- معروفاً بالممارسة فقط ولم تكن مواده مدونه فى لائحة توضع بين أيدى القضاة ورجال المحاماة لأصدار الأحكام فى ضوئها إنما كان القانون المحلى متالح بالخبرة والتجربة وسوابق الأحكام كالعرف تماماً لأن الأصل فى القانون المصرى هو الاتفاق العام على مجموعة من الأعراف المتوارثة والتى كانت فى تغير دائم بسبب تغير الظروف ومن ثم فهو قانون متحرك متجدد وليس جامداً كالقانون الرومانى. فهو تراكم الخبرات، وكنز المعرفة القضائية المدخر، أضافت اليه الأجيال ما استطاعت أن تلهمها به غريزتها القضائية، حتى أضحى منجماً غنيا من السوابق القانونية التى تقاس عليها كافة القضايا ويصدر فى ضوئها الأحكام المماثلة أو قياساً عليها. ولذلك فأن تدريب المحامى كان يتم عن طريق دراسته لأكبر عدد من القضايا والأحكام التى صدرت فيها وفحص أكبر عدد من السوابق القانونية تكون جاهزة لتطبيقها على أى حالة مماثلة.



هوامش الفصل السادس

(١) انظر : جمال حمدان ، المرجع السابق ، ص ١٥٧ ، . Herodotus ,II, Chapter 5

(٢) نفس المرجع ص ١٥٨ .

(٣) نفس المرجع ص ١٢٩ .

(٤) نفس المرجع ٣٩ - ٤٠ .

(٦) جمال حمدان المرجع السابق ٦٣ .

(٧) نفس المرجع صفحات : ١٦٨ - ١٦٩ ، ١٧٣ ، ٢٢٢ .

(٨) عن محاولات العرب المسلمين كشف منابع النيل فى القرون الأولى للأسلام ، انظر العرب فى افريقيا - الجذور التاريخية والواقع المعاصر ، اشراف رؤوف عباس ، القاهرة دار الثقافة العربية ، ١٩٨٧ صفحات : ١٦٨ - ١٦٩ ، ١٧٣ ، ٢٢٢ .

(٩) عن محاولات المسلمين فى معرفة سر فيضان النيل انظر : عطية أحمد القوصى :(مقال) «محاولة العرب المسلمين كشف منابع النيل فى القرون الأولى للأسلام» العرب فى أفريقيا - الجذور التاريخية والواقع المعاصر ، اشرف رءوف عباس ، القاهرة دار الثقافة العربية ، ١٩٨٧ صفحات ٤١ - ٥٦ .

(9) Herodotus,II, Chapter 34

(١٠) عن هذه النظريات انظر هيرودوت الكتاب الثانى الفصول من ٢٠ الى ٢٦ ، لذلك انظر :

Seneca Quaestiones Naturales .Book 17,11

(11) Euripides Fragment no . 22 y Nauck Fragmenta Graecae Trgoediae. 2nd editian 1898

(12) Diodorus Siculus, chapter 38.

(13) Pliny, Historia Naturalis, I, section 51.

(14) Seneca Quaestiones Naturales, Book, 17, 17- 3.

(١٥) جوزفين كام : المستكشفون فى افريقيا ، ترجمة السيد يوسف ، القاهرة ١٩٨٣ .ص ١٨ .

(١٦) محمد عوض محمد : نهر النيل ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٠ .

(١٧) انظر كتابى : دور مصر الحضارى بين شبه الجزيرة العربية وأفريقيا فى عصور ما قبل الأسلام ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ٨ - ١٠ .

(١٨) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٨٠ .

(١٩) القوصى - المقال السابق ، ص ٥٣ - ٥٥ . وكذلك انظر - جمال حمدان المرجع السابق ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢٠) القوصى ، المقال السابق ، ص ٤٩ .

(٢١) المقريزى الخطط ، الجزء الأول ص ٥٨ ، ٦١ .

(22) Seneca, ibid , Book 17,11.
(23) Pliny, Historia Naturalis.
(24) Pliny Minor. Panegyric section 13.

(٢٥) جمال حمدان ص ١٦٣ - ١٦٥.
(٢٦) المقريزى الخطط، الجزء الأول ص ٤٠ .
(٢٧) المقدسى : أحسن التقاسيم ، طبعة ليدن عام ١٩٠٦ الجزء الأول ص ١٩٨ .
(٢٨) جمال حمدان نفس المرجع، ص ١٦٢ .
(٢٩) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى وصف مصر والقاهرة، طبعة بولاق ١٩٢٩ جزء ٢ ص ٣٣ .

Lewis, op cit, p 110-111

(30) S. B. 8392 = Inscriptiones Graecae ad Res Romanas Pertinentes, vol II, Paris 1906-1927. New Reprint Chicago 1975, No. 1290 .
(31) Herodotus, II, chapter 14
(32) P. Oxy. 1409 = Select Papyri, II. no 225 (pp 116 -119) .
(33) P. Oxy- no. 3264
(34) P. Fay. 79, P. Grenfell, 53 d; P Mich 381; S. B. 5124.
(53) Wilcken, Ostraka, I, PP 333 sqq.
(36) F. G. Kenyon: Catalogue of Greek Papyri in the British Museum , vol.II, p 103 = cf. B. Grenfell & D. Hogarth: Fayum Towns 8 Their Papyri, P 204.
(37) B. Grenfell, ibid,.
(38) Ibid. no. Lxx vii, A.D. I47.
(39) Lewis. op. cit, P 113 note 19 (p 222) = S. B. 9567.
(40) Diodorus Siculus, BookI, Chapter 34.
(41) Strabo, Book, 17, Chapter I, Section 30.
(42) Scritti, Montevcchi, Bologna, 1981.
(43) P. Brem. 36.
(44) ct. N. Lewis andReinhoid, op cit, vol. II, pp 396-397.
(٤٥) نقلنا ترجمة هذا التقويم نقلا عن الاستاذ نفتالى لويس ، ولم نستطع الوصول الى أصل الوثيقة لا غفاله ذكر مصدرها انظر N. Lewis, op cit, p 115-116.
(46) P. Amherest no 19= Lewis cit p. 117-118.
(47) P. Fayum, no xclx, p 240-241.
(48) P. Oxy. 1024= Lewis, op cit p 118-119.
(49) P. Fay., no Lxxxlx, p. 223-224.
(50) N. Lewis, op cit, P 119.
(51) P. Alex. Giss, 25= N. Lewis op cit p 119.
(52) P. Oxy. Hels 4= N. Lewis, op cit, p 119-120.
(53) P. Amherest no. 104= Select Papyri, Vol I, no 73 (pp 210-212)= N.

Lewis, op, cit, p 120.

(54) P. Rylands, no 147= Lewis, op cit, p121.

(55) P. Oxy 2704.

(56) P. Tebt 375= C. Johnson, Roman Egypt (An Economic Survey of Ancient Rome, vol. II, ed. by T. Frank), 1936, p 59.

(57) N Lewis, op cit, p 122.

(58) P. Oxy, 1044.

فى الأصل كانت الدراخما تساوى ست ابولات لكن قيمتها تدهورت فى العصر الرومانى لتصبح سبعة اوبولات أى أن أجر الحمار الصبى بلغ دراخما واحدة وست اوبولات.

(59) Rylands, 90.

(60) P. Oxy 518. cf, P. Fayum, P 210-11.

(61) P. Fayum, no Lxxxvl, P 217.

(62) P. Oxy 1631= Select Papyri, vol. I, no 18 (pp 54-58)= N. Lewis op. cit pp 125-126.

(63) cf. P. Rylands no 138; [قارن ايضا صفحة رقم ٢١ هامش رقم ٥٤]

(٦٤) ويظهر ذلك فى قوله تعالى: «والتين والزيتون» فى سورة التين، وفى قوله تعالى: «وعنبا[٢٧] وقضبا[٢٨] وزيتونا ونخلا[٢٩] وحدائق غلبا[٣٠] وفاكهة وابا[٣١] متاعاً لكم ولأنعامكم (سورة عبس).

(65) cf. P. Oxy 1631= Select Papyri,I, no 18 (P. 57).

(66) Paul. Perdrizet, Les= Les Terres-Cuites grecque d, Egypte de la Collection Fouquet, Nancy 1921, P. 32

(٦٧) أنظر: سيد أحمد الناصرى: «الوراقون والنساخون ودورهم فى الحضارة العربية الأسلامية» (مقال)، مجلة الدارة بالرياض، العدد الرابع (رمضان ١٤٠٩ هـ = ابريل ١٩٨٩) ص ١٨٠ وما بعدها. وكذلك جمال حمدان المرجع السابق ص ١٤٤.

(68) P. Med. no. 6. = Lewis, op cit, P 129.

(69) P. Tebtunis 308; Lewis Ibid. B. G U 1180.

(70) B.G.U. 1121= Select Papyri, vol. I, no 41, pp 124-128

وقد قام الأستاذ نفتالى لويس بتحليل ذلك العقد فى كتابه:

Papyrus in Classical Antiquity, Oxford Clarendon Press, 1974 pp. 109-130.

(٧١) هيرودوت الكتاب الثانى، فقرة ٣٦ (ترجمة محمد صقر خفاجة وتقديم وشرح احمد بدوى، دار القلم القاهرة ١٩٦٦، ص ١٢١ هامش ١).

(٧٢) جمال حمدان، المرجع السابق ص ١٣١.

(٧٣) هيرودوت، الكتاب الثانى، فقرة ١٤، ترجمة محمد صقر خفاجة وتعليق أحمد بدوى ص ٨٨.

(74) P. Fayum no.xcii.
اما التقديرات الحسابية فهى من تقديرات لويس.. N. Lewis, op. cit, P 130.
(75) Wafik Ghoneim, op cit 229 - p233.
(٧٦) سيد توفيق، المرجع السابق ص ٦٦ (شكل ٢٨).
(٧٧) انظر سيد أحمد الناصرى: مصر والشرق الأدنى فى العصر الهللينستى، ص ١٣٥ - ١٣٨ وكذلك مصر تحت حكم الأغريق والرومان: ص ٢٠٤ - ٢٠٥.
(78) Wafik Ghoneim, op cit, P 229 - 233. N. Lewis, op cit, 26.
(79) Aristotle, Historia Animalium. 522, c 26.
(80) Varro, De Agricaltura, Book 2, Chapter 11.
(81) Cf Winter, op. cit, P 21.
(82) cf. P. Fayum, nos 111, 7,8, Liv,7, ccxxx, cccxvi, cccx 111, And X111
(69) II, And 2ee Page 182 -
(٨٣) انظر الناصرى: التقرير العلمى الأول لحفائر كوم اوشيم. مجلة كلية الآداب.

(84) P. London no 117.
(85) P. Strass. 24.
(86) J. Schwartz, op cit, P 10.
(87) P. Oxy. 807.
(88) P. Hamb. 34.
(89) Perdrizet op. cit. P. 28
(٩٠) انظر: سيد أحمد الناصرى: التقرير العلمى لحفائر جامعة القاهرة فى كرانيس كوم اوشيم.

(91) Cf Winter, op cit, p 69.
(92) P. Oxy, 275 = Select Papyri, Vol.1 No 13 (PP 38 - 41)= Winter, op cit, pp 69 -71.
وهناك عقود كثيرة مماثلة انظر:

W. L Westermann, Apprentice Contracts and the Apprentice System in Roman Egypt, Ciassical Philology, lx, (1914), PP. 295 - 315.
(93) P. Oxy. 725 (A.D. 183) Select Papyri, Val,1 no 14 (PP 40); Winter op.cit, P 70.
(94) P. Oxy. 1647 = N Lewis, op cit, P 135.
(95) P.Oxy. ibid.
(96) P. Oxy, iv, 724 = Select Papyri, Vol 1 No. 15 (PP 45 - 46) = Winter, op. cit, P72. = Lewis, op cit.P136 -.
(97) P. Oxy. 520. = N Lewis, ibid. (A.D. 143).
(98) P. Hamb. 13. and P. Tebtunis 402.
(99) S. B. 4639 = N Lewis, p 138.
(100)

(101) P. Mich, 203 and O. Flor. 1. = Lewis, p. 138.

(102) Pliny, Historia Naturalis, Book 36 Section 67.

(١٠٣) انظر مثلا الوثيقة P. Oxy. 2272 التى هى عبارة عن قائمة حسابات نفقات ترميم احد المعابد واجور الفنيين (N. Lewis, op cit. p. 139).

(١٠٤) انظر سيد توفيق- المرجع السابق ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

(106) P. Köln, n. 53.

(107) P. Oxy. 1707 (A.D 204) = Select Papyri, Vol. 1 no 33 C pp 100.

(108) P. Oxy. 1425 = Select Papyri, Vol. II, no 345 (p. 404).

(109) P. Columbia, recto 4, Col. 1. (155 A.D)= Select Papyri. Vol, II, no 327) (PP 472- 474).

(110) P.Rylands 197 a = Select Papyri, vol, II, no 383 (P 486). N Lewis, p 140.

(111) Pliny, Historia Naturalis, Book vl, Sections 102 - 103.

(112) O.G.I.S. 701 = IGRR., I, 1142.

(١١٣) ترجم نفتالى لويس ورينهولد نص تعريفة الجمارك كاملة فى كتابهما انظر :

N.lewis and M. Reinhold: Roman Civilization, Vol.II, PP 147 -8

والنقش مسجل فى : O.G.I.S 674= I. G. R.R, I, 1183

(114) P. Prince, 30 = S.B. 8072.

(115) P. Oxy 36 = W. Chrest. 273.

(116) Ouintilianus : Declamationes, 359.

(117)P. Oxy 2125= Select Papyri, vol. II, No 373 (P474 - 6)

(118) Pliny, Historia Naturalis, Book Vi. Section 102.

(119) P. London 1164= Select Papyri, no 38, vol,I, (pp 112-117).

وعن اجهزة ومعدات المراكب فى العصور القديمة انظر :

L. Casson: Ships and Seamanship in the Ancient World, Princeton (1971) especially, p. 164.

(120) P. Lond. Inv. 616 + 245 = Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphie, 20, (1976) 162-5.

(121) cf. A Short History of the World, Vol 1 (edited by A.Z.Manfred) Progress Publisher Mossow, 1471, P 14,

(122) cf. P. Mich 243-245; Lewis, op cit, p 145.

(123) D. A. Short History of the World Vol 1, P 14.

(124) B. G. U. no. 1024. Vii.

(125) Perdrizet, op. cit, 28 - 36.

(١٢٦) القصص . آية ٨ ، وآية ١١ .

(١٢٧) سورة يوسف آية ٢٠ .

(128) B. G. U. 1107 (13 B C).= Select Papyri, vol I, no 13, (pp46-50).

(129) P. Oxy. 91= Select Papyri, vol I, no 79 (pp 228-230).

(130) P. Oxy 2584; N.Lewis, op. cit 147.

(131) P. Strassbourg; Lewis ibid.

(١٣٢) انظر كتابى تاريخ الأمبراطورية الرومانية السياسى والحضارى، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٨، ص ١٠٧ - ١١٧ .

(١٣٣) المرجع نفسه صفحات ١٥٩ - ١٦٢ .

(134) B. G. U. 1074.

(135) P. Oxy 2476.

(136) P. Oxy. Hels 25.

(137) Corpus Inscriptorum Latinarum, Vl, 10048= Inscriptones Latinae Selectae no. 5287 and Inscriptones Graecae ad Res Romanas Pertinentes, (Chicago Reprint 1975), vol Iv, no. 1519= Sardis vll, 79.

(138) P. Lond 1178= W.Chr. 156.

(139) P. Hermopolis, 52-56, col. iv= Select Papyri, Vol II, no. 306 pp322-324.

(140) C. P. Hermopolis no. 119, verso iii, II. 8-16= Select Papyri, vol II, no. 217 (pp 98-99), ct N. Lewis and Reinhold, op cit, p. 237.

(141) p. London. 1164.

(142) p. Mert 12; B. S. A. A. xiv P 189= Select Papyri, vol I, no 104, p 293 حيث ورد إسم من سمى نفسه αρχιατρος أى كبير الأطباء .

(143) cf. p. Fayum. 93 (A.D.) 161= Select Papyri, vol I, no 44.

(144) cf. M. H. Marganne: Papyrologica Florentina, vll (1980) pp. 179-83; cf Lewis, p 152.

(145) P. Oxy 40= Select Papyri, II, no 245 (pp 168-170)= Winter op cit, p 95-96.

(146) E.A.E Reymond: A Medical Book From Crocodeilopolis; Mitteil Papyrussamel; Oester Nationalbibliotheque, 10, 19, p. 76.

(147) P. Giss 43= S. B. 10630.

(١٤٨) اثيرت هذه القضية فى المقال التالى :

«Physicians under Twenty in Asia Minor, Phoenix, 36, (1982), p 271.



بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل السابع

الأحصاء والضرائب وسجلات الملكية والخدمات الألزامية

«وفى تلك الأيام صدر امر من اوغسطس قيصر بان يكتب كل المسكونة. وهذا الأكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والى سوريا. فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد الى مدينته».

لقد ورد ذلك فى السفر الثانى من إنجيل لوقا عند الحديث عن مولد السيد المسيح، وتحديد تاريخ مولده بذلك الحدث الدورى الصارم، الذى كان يواجهه رعايا الأمبراطورية الرومانية. والحدث الدورى المذكور هو إجراء التعداد Census الذى كان يجرى فى كافة أنحاء ولايات الأمبراطورية لكن لا نعرف عنه شيئا إلا فى ولاية مصر، وذلك بفضل الآلاف من الوثائق البردية وقطع الشقف التى سجلت لنا هذه العملية خطوة بخطوة، موضحة الخطوات التفصيلية والأجراءات البيروقراطية وتوزيع المسؤليات عند القيام بعملية التعداد.

كان الفراعنة قد أوجدوا نظام حصر الممتلكات كل عامين من أجل فرض ضرائب عادلة، ثم أصبح ذلك الحصر سنويا. ولما ورث البطالمة عرش الفراعنة اشترطوا على كافة سكان مصر أن يسجلوا أنفسهم وممتلكاتهم كل عام، غير أن الأمبراطور اكتافيوس اغسطس الغى هذا الأجراء، وأحل محله إحصاء يتم على دورات متتالية تجرى كل اربعة عشر عاماً وهو السن الذى تزول فيه الوصاية على الذكور، عندئذ تسجل اسماؤهم فى قوائم ضريبة الرأس laographia. وعند بداية كل دورة إحصاء يصدر والى مصر فرماناً يعلن فيه بداية إجراء التعداد من بيت الى بيت katoikian، عندئذ كان يتوجب على الأفراد الغائبين العودة الى مواطنهم الأصلية المسجلين فى قوائم ضرائبها، ويعلنون عن مساحة الأرض الملزمين بزراعتها خلال فترة سماح قدرها ثلاثون يوماً وإلا تعرضوا للعقاب، أما أولئك الذين اقتضت الضرورة تغيبهم عن مواطنهم بسبب تواجدهم فى المدن- خاصة الأسكندرية. حيث يقومون بأداء خدمات ضرورية للجمهور أو لديهم أعذار مقبولة للبقاء فيها، فكان عليهم أن

يسجلوا انفسهم فى قوائم خاصة توجد في المدن ، ويتسلمون من السلطات إذنا موقعا يسمح لهم بالتواجد فى المدينة خلال عملية الاحصاء .

وبعد أن يتم توزيع ونشر هذا الفرمان فى كافة أنحاء البلاد وتنتهى مدة السماح المحددة ، تبدأ السلطة في تطبيق العقوبات التى وردت فى لوائح الأديوس لوجوس مدير الحسابات الخاصة والأوقاف ، وكانت العقوبة الشائعة هى مصادرة ربع ممتلكات المتخلف ، وإذا ثبت أن المتخلف قد سبق له التخلف عن تسجيل نفسه فى قوائم التعداد مرة أو أكثر تضاعف العقوبة فيصادر ربع آخر من ممتلكاته ، أما الذين يتخلفون عن تسجيل عبيدهم فى قوائم الاحصاء فتصادر الدولة هؤلاء العبيد . وسمحت اللوائح باسقاط هذه العقوبة إذا أبلغ المتخلف من تلقاء نفسه عن تقاعسه عن التسجيل فى قوائم التعداد وتقدم لطلب العفو ويقوم بتسديد ما عليه من متأخرات قبل إنقضاء العام التالي للاحصاء . غير أن السواد الأعظم من الناس كانت تنتظر حتى اقتراب باب الأقفال وتتزاحم لدفع ما عليها من مستحقات للسلطة . لقد كان على كل رب أسرة سواء كان مالكا أو مستأجرا للعقار الذى يقيم فيه أن يقدم اخطاراً يدون فيه أسماء وأعمار جميع من يعيشون معه أو (معها) ، أما إذا كان العقار غير مسكون فعلى مالكة أن يقدم إخطاراً بهذا الصدد . ان مصطلح الأحصاء «من بيت الى بيت» ظل هو المصطلح المستخدم من قبل السلطة ابتدأ من أحصاء عام ٦١ - ٦٢ ميلادية الى أن تغير إسمه إلى مصطلح جديد شائع هو : إحصاء تحقيق الشخصية للرعية . وكانت الأخطارات تقدم بأسم الأستراتيجوس (حاكم الأقليم) أو الكاتب الملكى . وفى ديوان الاستراتيجوس أو نائبه (الكاتب الملكى) كانت الطلبات تعطى رقما مسلسلاً ، ثم يلصق طرف الطلب الايسر بمادة لاصقة مع الطرف الأيمن للطلب السابق لتتحول الطلبات الى لفافة كبيرة ملصقة - كما كانت تسمى ، ثم تعطى كل لفافة رقما كوديا ويدون هذا الرقم فى الكشاف أو السجل ، ثم تحفظ فى أرفف خاصة مع باقى اللفافات لحين الفحص . ونسوق نموذجا لفرمان الوالى فيبيوس ماكسيموس الصادر عام ١٠٤ م بدعوة الناس الى التسجيل من أجل الاحصاء وهذا نصه :

«بيان من جايوس فيبيوس ماكسيموس ، والى مصر . لقد بدا الاحصاء من بيت الى بيت . إنه لمن الضرورى على جميع الأشخاص الذين لسبب ما هم

متغيبون عن اقاليمهم ان يعودوا الى مواطنهم حتى يؤدوا العمل المعتاد الخاص بتسجيلهم وان يحددوا الأرض التى يعنيهم زراعتها . وعلى اى حال نظراً لأن بعض الناس من الريف مطلوبون من جانب مدينتنا ، اود من كل هؤلاء الذين لديهم سبب كاف للبقاء هنا [أى فى الاسكندرية] ان يسجلوا انفسهم امام بولـ.. فستوس نقيب الآلاى الذى عينته لهذا الغرض والذى منه سوف يتسلم - أولئك الذين يثبتون ان وجودهم امر ضرورى - إذنا طبقا للاعلان وحتى الثلاثين من شهر ابيب ...(١) .

وبفضل وثائق البردى لدينا مايقرب من ثلاثمائه إعلان احصاء ومن المؤكد أن هناك الكثير الذى لم ينشر بعد ، وأقدم أخطارات الاحصاء يرجع الى عام ١٩ - ٢٠ ميلادية وآخرها مؤرخ بعام ٢٤٣ - ٢٤٤ ميلادية . ان هذه الاخطارات مرآه حية لشكل وحجم الاسرة المصرية فى العصر الرومانى وطبيعة تكوينها . ففى إخطار مقدم من اربعة أشقاء يقيمون فى عقار واحد آل اليهم بالميراث ويعود لإحصاء عام ١٧٣ - ١٧٤م نجد أن متوسط أعمار الأخوة الأربعة هو ٢٨ عاماً . ولكل واحد منهم زوجة واحدة وعدد من الأبناء ، ومجموع الأبناء جميعا بلغ تسعة أبناء منهم اثنان انجبهما شقيقان من زيجات سابقة ، واثنان من الأشقاء الأربعة متزوجان من شقيقتيهما وعمر الشقيق الأكبر تسعة وأربعون عاماً ويقيم مع زوجتة الثانية التى كانت تبلغ وقتذاك الواحدة و العشرين . ولوحظ أن ستة من أبناء هذه الأسرة الكبيرة التسع حملوا إسماء أجدادهم طبقا للتقليد المصرى المتبع حيث يحمل الطفل أسم جده ، كما نجد طفلة تحمل أسم عمتها كنوع من الذكرى بعد أن رحلت هذه العمة عن الدنيا قبل مولد هذه الطفلة بوقت قليل كما لوحظ أن طلبات التسجيل حرصت على ذكر الأوصاف والعلامات المميزة خاصة للذكور مثل : له عين واحدة عمياء » وذلك كنوع من تحديد الشخصية لدفع ضريبة الراس ، ولأن الأناث كن معفيات من ضريبة الراس ولذلك لم يكن هناك داع لذكر الأوصاف الجسمانية المميزة ، لكن يكتفى بذكر أسمائهن وأعمارهن ودرجة قرابتهن لمقدم الطلب(٢) .

وعلى اثر تلقيه الاخطار يقوم ديوان حاكم الأقليم أو مكتب نائبه بارسال نسخة من كل أخطار الى كاتب القرية الكاتب الملكى komogrammateus أو كاتب الحى فى المدينة حيث يتوفر سجلات وبيانات

عن الأفراد الذكور . وهناك يتم مطابقة ما ورد في الأخطارات بما هو مدون في السجلات المصنفة تصنيفا دقيقاً فمثلا كان هناك سجل بأسماء الذكور الذين لم يبلغوا الرابعة عشرة بعد ، وعندما يبلغ احدهم ذلك السن ينقل اسمه الى قوائم الذين يتوجب عليهم دفع ضريبية الرأس . وبالرغم من وفرة الوثائق البردية المتعلقة بالأحصاء في ما يقرب من ستة من الأقاليم المصرية ، إلا انها لا تعطينا التعداد الاجمالى لكل إقليم وبالتالى لا نعرف على وجه الدقة تعداد السكان على مستوى ولاية مصر قاطبة ، غير أن الرقم التقديرى لسكان ولاية مصر الرومانية يأتينا من مصدرين لكاتبين اولهما ديودوروس الصقلى والذى قدره عند فتح الرومان لمصر بحوالى سبعة ملايين نسمه[٣] ، وفى عام ٧٥ - ٨٠م تقريبا قدر يوسف السكندرى تعداد مصر بنحو سبعة ملايين و نصف مليون نسمة دون أن يدخل فى تقديرة تعداد سكان الاسكندرية والذى حددة بنحو نصف المليون فيكون إجمالى سكان ولاية مصر الرومانية حوالى ثمانية ملايين نسمة[٤] ، اى أن سكان مصر زادوا مليون نسمة خلال قرن ونصف تقريبا ، وهذا التقارب فى التقدير بين الكاتبين يجعل المؤرخين يميلون الى الأخذ بهما . وكما أن إخطارات الأحصاء كانت تراجع سنويا أولاً بأول عن طريق كاتب القرية أو كاتب المدينة فقد كان من الطبيعي أن تراجع بالمثل ايضا سجلات الملكية الزراعية اذ أنه في ضوئها تقدر ضرائب الأرض و توقعات المحاصيل . ولقد كانت كشوف الملكية الزراعية تراجع بدقة من قبل الموظفين المحليين ومساعديهم ، وفي هذه الدفاتر تسجل كل حيازة والحوض الزراعي الواقعة فيه ، والحدود والمال الواجب عليها ، وأسم دافع الضريبة سواء كان مالكا أو مستأجرا ، ونوع المحصول المزروع فيها ، وحالة ريها ، هل هو رى مباشر من النيل أو عن طريق الآلات الرافعة ، ثم نوعيه سطحها وتحديد جيرانها طبقاً لما ورد فى كشوف المساحين الحكوميين ، كما كان يسجل حالة الملكية وتاريخ انتقالها من مالك لآخر اذ دعت الحاجة لذلك . وكان تحديد المال الواجب على الأرض يتفاوت حسب نوعية الأرض ودرجة استفادتها من مياه الفيضان السنوي ، فأذا حدث وأن كان الفيضان منخفضا ولم يصل ليغمر الأرض ، او تآكلت بفعل النحر أو حدث بها ضرر من جراء الفيضان تخفض الضريبة عليها بشرط أن يقدم صاحبها التماساً بذلك . وعلى إثر

تلقيه الالتماس يكلف المسئول فريقا من المساحين او المفتشين بالذهاب الي الأرض موضوع الالتماس للتأكد من صدق ادعاء مالكها او زارعها، وحساب الجزء الذي أصابه الضرر او الذي لم تصل اليه مياه النيل، ولم يكن شرطا ان يقدم الطلب عقب إنحسار الفيضان او حتى عند حصاد المحصول لأنه من اليسير على المفتشين أو المساحين اكتشاف عما اذا كانت الأرض المذكورة قد غمرتها مياه الفيضان أو تركتها بوراً جرداء في اي وقت.

اننا لا تعرف هيكلاً ضرائبيا صارما ومعقدا ومصنفا في نظم الحكم في العالم القديم مثل هيكل الضرائب الذي أقامه الرومان في مصر، اذ نجد سلسلة مذهلة من الضرائب الأساسية والضرائب الاضافية المفروضة على الفرد وممتلكاته، وعلى دخله من مهنته او حرفته، وعلى مبيعاته، والخدمات التي تؤدي اليه، وعلى نقل الملكيه وعلى نقل السلع وانتقال الناس، وعلى كافة أنوع الملكية سواء الثابته او المنقوله، هذه المجموعة المتنوعة من الضرائب والمكوس العينية والمالية، الثابته والعرضية التي تقابلنا في وثائق البردي لو حصرناها لوجدناها تزيد على المائة صنف ونوع.

لم يشعر الناس بذهاب البطالمة ومجيء الرومان الا عندما شعروا بثقل ضرائبهم التي بدأت تتزايد بمرور الزمن، عندما فوجئوا بكفاءة أجهزتهم المالية والضرائبية التي لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا احصتها والتي كانت على العكس تماما من أجهزة البطالمة المتسيبة والمتكاسلة ولقد كانت أجهزة الرومان دقيقه ومدققة حتى ان الأمبراطور تيبريوس عنف واليه في مصر لأن الضرائب التي جمعها[٥] زادت عما هو مدون في السجلات قائلاً «اريد لغنمي ان تجز لا ان تسلخ».

لقد كان جشع عمال الضرائب وخراب ذممهم أمراً ضج الناس منه بالشكوى في كافة ولايات الأمبراطورية - خاصة الشرقية - الا أن نزاهة الأمبراطور تيبريوس وموقفه المعادي للظالمين والمناصر للمظلومين، وميله الصارم للأنضباط وتطبيق العدل وإقراره، وحرصه على الا تأخذ الأمبراطورية من رعاياها اكثر مما تستحق، لا اكثر ولا أقل، هو الذي جعله يشدد رقابته على عمال الضرائب، ويقف لهم بالمرصاد، ولهذا شعر

الناس في عهده في ولاية مصر - على الأقل - بالرضا والسكينة ، فبالرغم من أن الأمبراطور تيبريوس كان مكروها عند الرومان وسكان الولايات الأوربية ، كان محبوبا ومبجلا في الشرق - خاصة في مصر - حيث ظهر مصوراً على المعابد المصرية يؤدى الطقوس لآلهتها في قدسية الى جانب القاب التكريم المقدسة التى كان يحملها الفراعنه العظام ، والذي يؤكد ذلك قرار سكان بوسيريس في اقليم ليتوبوليس الذين إجتمعوا في أحد أيام عام ٢٢ ميلادية أو ٢٣م وعبروا عن اعترافهم بالفضل والامتنان لهذا الأمبراطورمسجلين ذلك في نقش تكريمي يحمل آيات الشكر والعرفان بأسم جنايوس بومبيوس سابينوس حاكم القطاع كرمز لرضائهم عن سياسة الأمبراطورية هذا نصه :

«لقد قرر شعب بوسيريس في إقليم ليتوبوليس بالأجماع في اجتماع عام ما يلي :

لما كان جنايوس بومبيوس سابينوس حاكم إقليمنا بحرصه الصارم الرحيم الذى لا يتوقف من اجل شعب الأقليم خاصة انه دائما يعمل لصالح شعب القرية ويقيم العدالة في محكمته بالقسطاس المستقيم وبامانة بعيدا عن الرشاوى طبقا لرغبات حاكم ولايتنا عظيم القداسة جايوس جاليريوس ، مشرفا على صيانة سدود الرى بكل اهتمام وفي الوقت المناسب ، فهو يعمل ليل نهار دون ان يجامل احدا حتى اكتمال العمل حتى ان الحقول قد رويت رياً كاملاً ، ومن ثم اعطت محصولاً وفيراً ، باذلا كل جهده لحماية العاملين في سدود القرية من الفساد والمغالطة على عكس اهمالهم في الماضي للزراعة ، واكثر من ذلك فانه يشرف على بيع الارض العامة بكل عدل ، دون اكراه او تعسف وهذا أعظم شيء لأزدهار واستقرار القرى ، مسددا ما كان على القرية من ديون لدى موظفي ادارته ، بذلك ارسى القواعد التي تحمى الفلاحين من المعاملة الظالمة ومن العقاب ، ومن أجل هذه الأسباب نود أن نرد له هذه الجمائل ، فلقد قررنا ان نكرم جنايوس بومبيوس سابينوس ، حاكم اقليمنا المشار اليه سابقا بلوحة من الحجر تسجل هذا القرار وتقام في ابرز مكان في القرية وان ترفع اليه نسخة عليها توقيعات اكبر عدد من الناس وستكون أيضا اصلية »(٦) .



لقد إستمر صدور قرارات التاييد والمبايعة كنوع من النفاق والتزلف من جانب فئة من الناس زمن الرومان كما كانوا زمن البطالمة ، كلها تشيد بالحاكم وعدله وحرصه على استرضاء رعاياه والعمل على رخائهم ، وتصف حكمه بالطهارة والنقاء والبعد عن المحاباه والفساد ، وتنتهى بالأنعام عليه بالقاب التكريم ؛ غير أن هذا النفاق والتزلف لم ينجح في

لمس الحقائق المشينة القابعة وراء هذه العبارات البلاغية . فقد كان نظام الالتزام أو نظام عرض الادارة الرومانية لبيع حق جمع الضرائب في مزاد علني تدخله شركات الأموال التى كان يسيطر عليها ويديرها فئة محترفة من رجال طبقة الفرسان المتمرسين فى أعمال المال ويتصفون بالجشع وخراب الذمم الذى يؤدى الى انتشار الفساد والمحاباة والرشوة ، فما أن يرسو المزاد على احدى شركات جمع الأموال Publicani ويتعاقدون مع الأمبراطورية على جمع الضرائب بعد دفع مقدم كبير حتى يشرعوا في سلخ الناس بالضرائب التى تزيد كثيرا عما كان عليهم للدولة ، يساعدهم فى ذلك جنود الجيش الروماني وجيش من الموظفين ذوى الذمم الخربة حتى ان إسم « جامعى الضرائب » أصبح رمزا للجشع والنهم وخراب الذمم حتى ان أناجيل العهد الجديد ادرجتهم فى قوائم السفاحين والمذنبين ومرتكبى الخطايا والمعاصى ، فقد ورد فى انجيل متى :

« وفيما يسوع مجتاز من هناك راى إنسانا جالساً عند مكان الجباية إسمه متى . فقال له إتبعنى فقام وتبعه . وبينما هو متكىء فى البيت إذ عشارون وخطاة كثيرون قد جاءوا واتكاوا مع يسوع وتلاميذه . فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه لماذا ياكل معلمكم مع العشارين والخطاة .

وورد فى انجيل مرقس الاصحاح الثانى ما يلى :

: ثم خرج ايضا الى البحر واتى اليه كل الجمع فعلمهم ، وفيما هو مجتاز راى لاوى بن حلفى جالسا عند مكان الجباية . فقال له اتبعنى فقام وتبعه ، وفيما هو متكىء فى بيته كان كثيرون من العشارين والخطاة يتكوْن مع يسوع وتلاميذه لأنهم كانوا كثيرين وتبعوه

وفى انجيل لوقا الأصحاح الخامس :

وبعد هذا خرج فنظر عشارا اسمه لاوى جالسا عند مكان الجباية . فقال له اتبعنى فترك كل شىء وتبعه . وصنع له لاوى ضيافة كبيرة . والذين كانوا متكئين معهم كانوا جمعاً كثيرا من عشارين وآخرين . فتذمر كتبتهم والفريسيون على تلاميذه قائلين لماذا تاكلون وتشربون مع عشارين وخطاة ؟

وورد فى اصحاح لوقا الاصحاح الثالث :

وجاء عشارون ايضا ليعتمدوا فقالوا له يامعلم ماذا نفعل فقال لهم لا تستوفوا اكثر مما فرض لكم ، وساله جنديون ايضا قائلين وماذا نفعل نحن فقال لهم لا تظلموا احدا ولا تشوا باحد واكتفوا بعلائفكم ».

يتضح إذن بمالا يقبل الشك أن الأناجيل أدرجت جامعى الضرائب (أو العشارين) من بين زمرة الخاطئين والمجرمين والمذنبين لأنهم ظلمة

يجمعون ضرائب اكثر مما هو مستحق على الناس، وأن الجنود كانوا
يساعدونهم ويقلدونهم. فإذا ما تركنا الأناجيل، وجدنا صورة أخرى
رسمها لنا الكاتب اليهودى السكندرى فيلون الذى عاش فى القرن الأول
الميلادى ومات قبل منتصفه، إذ كتب يقول :

«عين اخيرا احد جامعى الضرائب لمنطقتنا، وحدث ان هرب بعض الناس
الذين- على ما يبدو- كان عليهم ضرائب متاخرة بسبب الفقر وخوفا من
العقوبة التى لاتطاق، فقام والقى القبض على زوجاتهم واطفالهم ووالديهم
واقربائهم والآخرين وعمل فيهم ضربا ووطئا بالأقدام ومنزلاً بهم كل غضبه
ليرغمهم على الكشف عن سر الهاربين او يقوموا بتسديد ما عليهم من ضرائب
نيابة عنهم غير انه لم يكن فى طاقتهم ان يفعلوا شيئا مثل هذا اولاً لأنهم كانوا
لا يعرفونهم وثانياً لأنهم كانوا لا يقلون فقراً عن هؤلاء الهاربين غير ان جامع
الضرائب لم يتركهم وشانهم قبل توقيع العذاب عليهم، بآلة الشد او قتلهم
بوسائل الموت المستحدثة؛ وعندما لم يعد لهم اقارب على قيد الحياة، إمتد
الجلد بالسياط الى جيرانهم، فى بعض الأحيان امتد الى سائر القرى والمدن
التى سرعان ما هجرت واصبحت خالية من السكان الذين ولوا هاربين من
بيوتهم وتفرقوا فى اماكن ظنوا انهم لا يمكن التعرف عليهم فيها اننا لا نستغرب
لو ان هؤلاء الناس الغلاظ بطبيعتهم الذين لا يملكون ادنى قدر من الثقافة
المتحضرة ينفذون بطاعة عمياء اوامر اسيادهم بخصوص جمع الضرائب بان
يقوموا بجمع الضريبة السنوية ليس فقط من ضياع الناس، بل ايضا من
اجسادهم حتى يصل الأمر الى فرض تهديد بالحياة على البعض بدلاً من
الآخرين(٧).

غير أن التصرفات التى قام بها جامع الضرائب الذى أشار اليه فيلون
لم تكن قاعدة متبعة بل استثناء، فمن وجهة نظر اللوائح الرومانية لم تكن
الأقارب والجيران والأصدقاء ملزمين بتسديد ما على الهاربين من ضرائب
أو متأخرات ضريبية كما وضح الأمبراطور سبتيميوس سيفيروس
عام ٢٠٠ ميلادية بقوله :

«لما كان هناك كثيرون يطالبون بان يعفوا من إلزامهم بدفع الضرائب بدلاً
من الآخرين- وهو امر يخالف قراراتنا السابقة كما لو كانوا شركاء ضامنين،
نرى انه من الضرورى ان نؤكد قرارنا الذى سبق ان اعلناه بهذا الخصوص وهو
لا يجوز إجبار احد على تسديد الضرائب المفروضة على شخص آخر أو العثور
على بديل لشخص آخر لمطالبته بمثل هذه الجباية(٨)».

يجب أن نضع في الأعتبار ان ما كتبه فيلون عن جشع عمال الضرائب المشارين ما هو الا نوع من السخط الممزوج بالميل الى المبالغة الأدبية البلاغية وهي إحدى ميزاته التي ميزته عن غيره من الكتاب القدماء ، لكنها تقوم على أساس من الحقيقة التي تؤكدها وثائق كثيرة من اوراق البردى مثل هذه الشكوى التى رفعها فلاح الى السلطات ومؤرخة عام ١٩٣ ميلادية وهذا نصها :

« إلى امونيوس باترنوس قائد المائه من سيروس ابن سيريون الملقب باسم بيتيكاس من العاصمة [ارسينوى] لقد سددت انا واخي في شهر بوءونة كل القمح المستحق علينا للحكومة وكذلك تسعة ارادب من الارادب العشرة التى فرضت علينا كمساهمات في قرية كرانيس والآن بسبب الاردب المتبقى علينا قام جامعو الضرائب بيتئيسيس بن تكلو وسيرابيون بن مارون وكاتبهم بطليموس ومعهم مساعدهم امونيوس باقتحام منزلي بينما كنت متواجدا فى الحقل ومزقوا ثياب امي من الخلف وطرحوها ارضا ونتيجة لذلك فهى طريحة الفراش ولا تستطيع .. بسبب ... انى التمس ان يمثلوا امامكم حتى انال حقى من العدل على يديكم . ووداعا . [تأشيرة المسئول] لقد حددت اوصافه لأنه يقول أنه يجهل الكتابة : السن ٤٧ عام له ندبة على ركبته اليمنى . العام الثالث والثلاثون من حكم اوريليوس كومودوس قيصر مولانا . بؤونه ٨ (الثانى من يونيو)(٩) » .

ولكي يتجنب الضعيف مثل هذه الأهانة لجأ الى سلاح تقديم الرشوة ليهدأ من غضب القوي ، فالعدالة كما سنرى كانت مليئة بالاجراءات القضائية التى تدخل صاحب الشكوى فى دوامة قد تستغرق سنين طويلة ، ومن ثم توفيرا لهذا الجهد الضائع لجأ المظلوم الي استرضاء الظالم بتقديم بعض المغريات التى وصلت في بعض الأحيان الى قدر كبير من المال مقابل الدخول فى حماية جامعي الضرائب . فقد سجل فلاح قائمة بالرشاوى والاكراميات التي يدفعها لدائرة محددة من اولى الأمر والنهى بدءا من الجندي المنوط به حراسة الأمن والخفير ، ومخبرى الشرطة وما بطلبة شرطي آخر ويدخل ذلك كله كبند من بنود المال المستحق عليه(١٠) .

لقد أكدت الظواهر الأثرية والوثائق البردية ما ذكره فيلون عن هروب الفلاحين العاجزين عن سداد الديون من قراهم والتى هجر بعضها تماما خاصة فى القرن الثالث الميلادى عندما تأزمت الأحوال الأقتصادية واهتزت ثقة الناس في الحكم . فقد كان الهروب هو سلاح الفلاح المصرى

الوحيد عندما تضيق الدنيا في وجهة ، ويعجز الصبر عن صبره . ففي أيام البطالمة كان الفلاح يهرب ليعتكف فى المعابد التي كانت تتمتع آنذاك بحق الحماية والأستجارة (asylum) وعندما يزول سبب الأعتكاف يعود الفلاح المعتكف الى بيته وعمله . أما بعد مجيء الرومان فقد تغير الحال ، إذ جرد اكتافيوس أغسطس المعابد من حق الأستجارة والحماية المقدسة ، وأصبح من حق الجنود اقتحام المعابد والقاء القبض على المعتكفين . كما أن سياسة الاستنزاف الروماني دفعت فئات إجتماعية أخرى غير الفلاحين الى الأنضمام الى زمرة الفارين هربا من اليأس والقنوط ، وطالت مدة الاختفاء حتى وصلت إلى حد الأختفاء إلى الأبد . ولقد مر علينا أثناء معالجتنا لنماذج التساؤلات التى كان يتوجه بها الحيارى الى المعبد طلبا لمشورة الرب التى تأتى إليهم من طريق سدنته أنه كان من بينها السؤال : « هل سوف أصبح هاربا » ؟

ولقد كانت المدن الكبيرة - خاصة الاسكندرية - هي مقصد الهاربين حيث يندسون بين جمهرة الناس ، ويذوبون فيهم على حد تعبير فيلون السكندرى بحيث لا يتعرف عليهم أحد ، وفى طرقات المدينة وميادينها يتجمع هؤلاء الهاربون يعرضون خدماتهم ، ويقومون بالأعمال الدنيا والخدمات العامة ، وبمرور الزمن تزايد عددهم فى الأسكندرية حتى أن الأمبراطور كاراكالا عندما زار المدينة عام ٢١٥ ميلادية استاء من تواجدهم فأصدر قراره الشهير الذى أمر فيه واليه على مصر بطرد كل الفلاحين المصريين الذين تدفقوا من كافة إنحاء الوادى على الأسكندرية ، مستثنيا من ذلك الزوار والتجار وأصحاب المصالح :

« يتوجب طرد كل المصريين المتواجدين في الأسكندرية ، خاصة الفلاحين الذين هربوا من اماكن عدة ويمكن التعرف عليهم بسهولة ، باستثناء تجار الخنازير واصحاب القوارب . وأولئك الذين يزودون الحمامات بالحطب من اجل الماء الساخن . اطرد الباقين الذين يسببون باعدادهم وعدم جدواهم الفوضى فى المدينة . واني اعرف انه في اعياد سيرابيس وبعض الأعياد الأخرى إعتاد المصريون ان يسوقوا الثيران والحيوانات الأخرى المقدمة للأضاحى ، لا احد يمنعهم من ذلك . لكن الذين يجب ابعادهم هم الفارين من اقاليمهم هربا من العمل فى الحقول . وبالطبع هذا الحظر لا ينطبق على الذين ياتون فى جماعات للتفرج على الأسكندرية اكثر المدن جمالاً ، او اولئك الذين يجيئون من اجل الحياة الأكثر انفتاحاً فى المدينة ، أو من اجل إنجاز اعمال . ومن بين الأشياء الأخرى . يمكن التعرف بسهولة على المصريين الأصليين من بين لابسى الكتان

متغيبون عن اقاليمهم ان يعودوا الى مواطنهم حتى يؤدوا العمل المعتاد الخاص بتسجيلهم وان يحددوا الأرض التى يعنيهم زراعتها . وعلى اى حال نظراً لأن بعض الناس من الريف مطلوبون من جانب مدينتنا ، اود من كل هؤلاء الذين لديهم سبب كاف للبقاء هنا [أى فى الاسكندرية] ان يسجلوا انفسهم امام بولـ . . فستوس نقيب الآلاى الذى عينته لهذا الغرض والذى منه سوف يتسلم - أولئك الذين يثبتون أن وجودهم امر ضرورى - إذنا طبقا للاعلان وحتى الثلاثين من شهر ابيب ...[1] .

وبفضل وثائق البردى لدينا مايقرب من ثلاثمائه إعلان أحصاء ومن المؤكد أن هناك الكثير الذى لم ينشر بعد ، وأقدم أخطارات الاحصاء يرجع الى عام ١٩ - ٢٠ ميلادية وآخرها مؤرخ بعام ٢٤٣ - ٢٤٤ ميلادية . أن هذه الاخطارات مرآه حية لشكل وحجم الاسرة المصرية فى العصر الرومانى وطبيعة تكوينها . ففى إخطار مقدم من أربعة أشقاء يقيمون فى عقار واحد آل اليهم بالميراث ويعود لإحصاء عام ١٧٣ - ١٧٤م نجد أن متوسط أعمار الأخوة الأربعة هو ٢٨ عاماً . ولكل واحد منهم زوجة واحدة وعدد من الأبناء ، ومجموع الأبناء جميعا بلغ تسعة أبناء منهم اثنان أنجبهما شقيقان من زيجات سابقة ، واثنان من الأشقاء الأربعة متزوجان من شقيقتيهما وعمر الشقيق الأكبر تسعة وأربعون عاماً ويقيم مع زوجتة الثانية التى كانت تبلغ وقتذاك الواحدة و العشرين . ولوحظ أن ستة من أبناء هذه الأسرة الكبيرة التسع حملوا إسماء أجدادهم طبقا للتقليد المصرى المتبع حيث يحمل الطفل أسم جده ، كما نجد طفلة تحمل أسم عمتها كنوع من الذكرى بعد أن رحلت هذه العمة عن الدنيا قبل مولد هذه الطفلة بوقت قليل كما لوحظ أن طلبات التسجيل حرصت على ذكر الأوصاف والعلامات المميزة خاصة للذكور مثل : له عين واحدة عمياء » وذلك كنوع من تحديد الشخصية لدفع ضريبة الرأس ، ولأن الأناث كن معفيات من ضريبة الرأس ولذلك لم يكن هناك داع لذكر الأوصاف الجسمانية المميزة ، فكن يكتفى بذكر أسمائهن وأعمارهن ودرجة قرابتهن لمقدم الطلب[2] .

وعلى أثر تلقيه الاخطار يقوم ديوان حاكم الأقليم أو مكتب نائبه الكاتب الملكى بارسال نسخة من كل أخطار الى كاتب القرية komogrammateus أو كاتب الحى فى المدينة حيث يتوفر سجلات وبيانات

كانت بلاغات: «خرج ولم يعد» تتضمن أحيانا عبارة تقول أن إسم الغائب قد أدرج فى قائمة الهاربين وليس له ممتلكات منذ تاريخه» كما أن كتبة القرى والمدن كانوا يقدمون لعمال الضرائب قوائم بأسماء الذين «رحلوا لجهات غير معلومة». وكانت هذه القوائم تراجع سنويا، وتزدحم بالأسماء عندما يكون المحصول ضعيفا والأحوال الأقتصادية سيئة والأسعار مرتفعة. فقد ذكرت سجلات قرية فيلادلفيا (خرابة جرزة شرق الفيوم) أنه فى العام الأول من حكم نيرون وبالذات فى صيف عام ٥٥ ميلادية كان هناك ثلاثة وأربعون فلاحاً أدرجوا فى قائمة: «هرب ولم يترك من ورائه شيئا»، وبعد عام واحد إمتلات القائمة ليصل عدد الأسماء إلى مائه وإثنتين وخمسين هارباً، وعندما إسقط نيرون جزءاً من المتأخرات عام سبعة وخمسين ميلادية، عاد من الهاربين سبعة وأربعون فرداً بينما ظل مائة وخمسة عشر فردا غائبا. وهذا يعنى أن واحداً من كل سبعة أو ثمانية من سكان قرية فيلادلفيا كان هارباً[١٣] خلال كل أو جزء من هذه السنوات. ولقد كان هروب سكان فيلادلفيا ملحوظاً حتى أن عمال ضريبة الرأس فى هذه القرية وخمسة قرى مجاورة تقدموا بالتماس إلي والي مصر طالبوا فيه بإعادة النظر في الألتزامات التى تعاقدوا عليها وكان من بين مبررات تظلمهم هروب البعض غير تاركين من ورائهم أى ممتلكات، وموت البعض الأخر دون أن يتركوا من ورائهم أقارب، ونتيجة لذلك فهم يخشون أن يهجروا عملهم[١٤]. وبعد مرور قرن من هذا التاريخ سجل كاتب إحدى القرى إختفاء كافة الأفراد المستحقة عليهم ضريبة الرأس في نجعين، إذ تضاءل عدد السكان فى النجع الأول من سبعة وعشرين إلى ثلاثة أفراد فقط، بينما تضاءل سكان النجع الثانى من ٥٤ فرداً إلى أربعة أفراد فقط[١٥]، وفى حالات أخرى تضاءل العدد إلى لا شئ[١٦]. وعموما كان تسديد الضرائب هماً ثقيلاً يجثم على صدور الناس كلما حل موعد الدفع، هذا الحمل ليس سببه قيمة هذه الضرائب ولكن عددها الكبير الذى قارب المائه والتى يحتاج حصرها إلى صفحات عديدة وهذه أهم أنواع الضرائب العينية والمالية:

(١) **ضريبة القمح** Sitologia:

عندما ضم إكتاقيوس اغسطس مصر إلى حوزة الأمبراطورية الرومانية كانت فكرة إطعام شعب عاصمتة - التى إزداد عدد الغوغاء فيها -

تدور في ذهنه ، ومنذ ذلك التاريخ اصبحت مصر شونة الغلال . وخصص اسطولا لنقل القمح المصرى ظل يمخر عباب البحر المتوسط طوال شهور الربيع والصيف متنقلاً بين الأسكندرية وبين ميناء اوستيا الايطالى والذى منه يتم نقل الغلال براً إلى روما . ففي خطاب رقيق كتب احد البحارة العاملين على أسطول نقل القمح إلى أهله فى مصر يطمئنهم على نفسه ويتحدث عن تفريغ السفن . يقول :

«[من] إيريناويوس إلى اخيه الأعز ابوليناريوس تحيات كثيرة . إننى اصلى على الدوام من اجل صحتك ، وإننى بخير . اود ان اعلمك اننى رسوت إلى البر فى السادس من شهر ابيب [٣٠ يونيو] وإنتهينا من التفريغ فى الثامن عشر من الشهر ذاته [١٢ يوليو] ، وإتجهت إلى روما فى الخامس والعشرين من الشهر ذاته [١٩ يوليو] ، حيث إستقبلنا السكان بالترحاب كما اراد الرب وفي كل يوم ننتظر صدور امر الأنصراف (dimissoria) وحتى هذا اليوم لم تبحر اى من سفن نقل القمح . تحيات كثيرة لزوجتك وإلى سيرينوس ولكل من يحبونك فرداً فرداً وداعاً . مسرى ٩ . [الثانى من اغسطس القرن الثانى أو الثالث الميلادى] [العنوان على ظهر البردية] إلى ابوليناريوس من اخيه إيريناويوس[١٧] .

لقد وصف تاكيتوس فى حديثه عن مصر بأنها « بلد ثرى » وبأنها ذات قمح وفير annonae fecundam بالرغم من أنها بلد الخرافات والشهوات وحركات التمرد والعصيان[١٨] . وهذه نظرة الأمبراطورية الرومانية إلى ولاية مصر التى تحمل روح الحط من قدرها لأنها ولاية كثيرة المشاكل إلا انه لا غناء عنها كمصدر للقمح الجيد ، ولهذا فهى ولاية تدار بصرامة من أجل الفائدة المادية لشعب روما دون اى إعتبار لرفاهية وإزدهار شعبها[١٩] . ومن أجل ذلك أوجدت السلطة الرومانية جيشا من الموظفين البيروقراطيين أغلبهم من الأغريق المستوطنين أو أبناء طبقة المخلطين من الأغريق والمصريين ، الذين أنيط بهم جمع القمح والعمل على نقله من الوادى إلى ميناء الإسكندرية حيث يقوم الأسطول بنقله إلى ميناء بوتيولى Puteoli أو مينا أوستيا ، إذ يذكر الأديب سينيكا أن ميناء بوتيولى يضج عن بكرة أبيه عندما يعلن عن وصول سفن أسطول القمح السكندرى[٢٠] . وكان الطريق البحرى المتبع هو أن تبحر سفن الأسطول من الإسكندرية إلى مالطة أو صقلية وإذا كانت الظروف المناخية مواتية فأن المدة التى كان يستغرقها أسطول شحن القمح من الإسكندرية وبوتيولى تبلغ إثنا

عشرة يوماً(٢١). ولقد كان قمح مصر يمثل ثلث كمية الغلال التى كان يستهلكها شعب روما. والتى قدرت بنحو سته ملايين أردب يونانى (٢ مليون أردب مصرى) أو ما يعادل ١٣٥,٠٠٠ طن قمح، كما كان يترك فى شون السلطة كمية أخرى من القمح للطوارىء ولإطعام جيش الاحتلال ولم يكن هناك أحد من السكان يعنيه ما تأخذه الأمبراطورية كل عام من قمح يكد الفلاح ويعرق فى زراعته وحصده، إنما كان كل فرد يعنيه فقط تسديد ما عليه من ضرائب قمحا ومالاً ليتجنب شرور جامعى الضرائب.

كانت ضريبة القمح على الأرض الخاصة عادة بواقع أردب يونانى عن كل أرورا، لكن فى بعض الأحيان ضوعف هذا الرقم، وفى ضوء متوسط إنتاج الفدان الذى كان عشرة أرادب يونانية فإن هذه الضريبة تعادل ضريبة العشور، ولهذا السبب أطلقت الاناجيل على العاملين فيها اسم العشارين.

إما الفلاح المستأجر أرضاً من الدولة أو أرضا من الخاصة الأمبراطورية - والتى كانت بالطبع من أجود أنواع الأراضى - فقد كان يدفع ما بين خمسة إلى ثمانية أرادب يونانية لكن فى بعض الأحيان وصل الإيجار إلى ١٤ ½ أردبا عن الأرورا الواحدة وهو أعلى إيجار عرفناه حتى الآن، ومن ثم يمكن نعتبره السقف الأعلى للضريبة، وبذلك يمكن أن نقول أن إيجارات أراضى الدولة والأراضى الأمبراطورية تراوحت حسب جودتها ما بين خمسة إرادب إلى ١٣ ⅓ ارادب للأرورا الواحدة حسب درجات جودة الأرض، وعموما كان الضريبة الشائعة على الأراضى العامة هى ٣ ½ اردبا يونانيا للأرورا الواحدة. أما الأراضى العالية أو التى تقع على حافة الصحارى والتى يتم ريها بوسائل الرفع المختلفة سواء تلك تديرها يد الأنسان أو الحيوان، فإن الضرائب عليها كانت نصف ما كان على الأراضى التي كانت تروى غمراً كل عام بمياه الفيضان. وفى حاله نقص الفيضان وعدم وصوله إلى بعض الأراضى كانت الضرائب تخفض إلى النصف. وفى جميع الحالات كانت الضرائب تزاد عادة ما بين ٥٪ إلى ١٠٪ نظير الرسوم الأضافية. كما كان الفلاح المستأجر لأراضى الدولة أو الخاصة الأمبراطورية يرد ما أقترضه من تقاوى إلى الشون الحكومية. وما يتبقى من نذر يسير يتقوت به الفلاح طوال العام.

كان الحصول على قمح مصر لأسكات بطون غوغاء العاصمة الرومانية هو الشغل الشاغل للأمبراطورية ، ولهذا فأن سلطة الإحتلال الروماني لمصر سعت جاهدة لزرع كل شبر في أرض النيل والحصول على اعلى محصول منها من اجل زيادة خراج مصر الذي كان يدفع للأمبراطورية الرومانية . أما الأراضي التي تترك بوراً فلا دخل ولا ضرائب تجبى منها . ورغم حسابات وتقديرات السلطة الرومانية لتوقعات الخراج من مصر إلا ان فيضان النيل هو الذي كان يحدد انتاجها ، فإذا كان الفيضان منخفضا فأن نسبة كبيرة من الأراضي لا تغمرها المياه ، وبالتالي تترك بوراً ، ومن ثم لا يستحق عليها الضرائب . أما الأراضي التي يتركها أصحابها عمداً لتبور لأن ما يتبقي بعد تسديد الضرائب لا يساوى المجهود الذي يبذل فيها طوال العام - خاصة إذا كانت تقع عند أطراف الوادي أو فقيرة الأنتاج ، (وكثيراً ما كان أصحاب هذه الأراضي يتركونها ، ويفرون هاربين) فقد لجأت الأمبراطورية لمواجهة هذه الظاهرة إلى فرض تشريع ظالم وهو تحميل زراعة هذه الأراضي المبورة على الجيران أو يضاف ما كان عليها من ضرائب علي كافة دافعي الضرائب في القرية بحيث يتحمل كل فرد جزءاً منها . وكان يقع على عاتق كاتب القرية وكبارها مسئولية حصر وتوزيع المساحات التي يهجرها أصحابها ويفرون هائمين على وجوههم ليزرعها الآخرون . ولما كان إنتاج هذه الأرض التي لا يريدها أحد ضعيفا ، كما أن الوصول إليها صعباً وعسيرا ، فقد كان الفلاحون المجبرون على زراعتها ساخطين . وهذا يفسر وجود شرط يضاف إلى بنود عقود الإجارات الحرة ينص على أن هذه الأراضي المؤجرة أو المعروضة للبيع خالية من تحميل أراضي مهجورة مفروض على أصحابها زراعتها كنوع من الأغراء أو التمييز .

وعندما يسدد الفلاح ضريبة القمح كان يشترط عليه أن يكون القمح مغربلاً خالصاً من القصالة «وحصى الأرض» وغير مخلوط بحبوب أخرى رخيصة كالشعير وخلافه ، كما كان عليه أن يتحمل تكاليف النقل من الحقل إلى شونة القرية ، فإذا ما سلم القمح وقبل منه يعطى إيصالاً موقع عليه من أولى الأمر بأنه سدد ما عليه من ضريبة القمح . وقد تم العثور على العديد من هذه الصكوك أو الأيصالات المدونة حينا على قصاصات البردي وفي أكثر الأحيان على كسر الشقف(٢٢) أو الأوستراكا مما يجعلنا نعتقد

بأن الفلاح كان مطالبا بأحضار الورق أو الشقف الذي يكتب عليه إيصالات التسديد ولما كان ورق البردي غالي الثمن ، فقد لجأ الفلاحون إلى كسر الشقف التي يلقى بها الناس في قمامة القرية ، ويقومون بشطفها لتصبح إيصالات يكتب عليها بالحبر .

وعندما يهل موعد الحصاد ، تحدد كل شونه حكومية أسماء الهيئة المنوط بها جمع ضريبة القمح ويطلق عليهم أسم السيتولوجوى Sitologoi وكانوا يعينون بالتناوب من بين كافة الطبقات ما عدا طبقة « المعدمين » لشك السلطات في ذممهم ، وكان هؤلاء الموظفون يقومون بهذا العمل بلا راتب يتقاضونه من السلطة ، بل كانوا يتحملون نفقاته ، لأنه عمل يدخل في بند الأعمال الألزامية أو الخدمة المدنية الأجبارية المجانية leitourgia . وكان جباة القمح مسئولين عن كمية القمح ، المحددة بل وعن جودة القمح المسلم إلى الشونة من لحظة تسلمة في شونة القرية وحتى لحظة تسليمة إلى الصوامع المركزية المقامة في ضاحية نيابوليس Neapolis على أطراف الأسكندرية ، أو تسليمة إلى صوامع الحاميات العسكرية المنتشرة على طول الطرق . وفي ضاحية نيابوليس يقوم المشرف العام الروماني بمراجعة الكميات المسلمة على كشف التسليم ، ثم يوقع بالأستلام ويتولى هو تحميل اجولة الغلال على ظهر سفن الأسطول الذى يكون وقتذاك مرابطا فى الميناء .

هكذا خلال شهور الحصاد المعدودة كان جباة الضرائب يتحملون مسئولية جمعها وتحميلها وتسليمها ، أما المتأخرات التي تتبقى على بعض الفلاحين فتظل دينا يطوق أعناقهم . وكانت عملية شحن القمح من قرى الوادي إلى الإسكندرية مستمرة على طول العام حتى تسدد كل الكمية المطلوبة من ولاية مصر فيما عدا كمية محدودة تخزن فى الشون لكى يستدينها الزراع كتقاوى لمحصول العام الجديد .

كانت عملية الشحن تتم على مراحل . المرحلة الأولى هي نقل القمح من شون التجميع المحلية إلى أقرب ميناء على النيل ، وكان يحدد لكل أقليم ميناء معين ، حيث تقوم المراكب الشراعية الكبيرة بنقل القمح إلى الإسكندرية عن طريق ترعه سخيديا (ترعة المحمودية) ، أما المناطق البعيدة عن النيل فقد كانت القوارب الصغيره المتواجدة فى الترع

المصارف المتصلة بالنيل تقوم بنقل القمح إلى الميناء النيلي المحدد.
غير أنه في أغلب الحالات كان يتم نقل القمح عن طريق ظهور الركائب
من الحمير والجمال. وكان القمح يوضع في زكائب σαχχοι سعه كل
زكيبة ثلاثة أرادب يونانية، وكان الفلاح ملزماً أيضاً بشراء هذه الزكائب
على نفقته. وكان متوسط حمل الحمار زكيبة واحدة سعة ثلاثة أرادب (أى
ما يعادل إردبا واحدا بالعيار المصرى الحديث)، بينما كان الجمل يحمل
زكيبتين او ثلاث زكائب. وكان الحمارون «والجمالة» يجندون لهذا العمل
كل عام كجزء من الخدمة الألزامية. ومن إحصائية من واقع كشف إستلام
ضريبة القمح عند إحدى نقاط الشحن النيلي بالقرب من ميناء
اوكسيرينخوس ما بين الحادي عشر من كيهك إلى التاسع عشر منه (من
السادس إلى الرابع عشر من ديسمبر) عام ١٢٧ ميلادية يتبين أن كميات
القمح كانت تصل إلى الميناء في شكل قوافل من الركائب يتراوح عددها
ما بين ٦ إلى ٤٢ حمار في اليوم الواحد بمتوسط حموله ما بين ٤٢٤ إلى
١٣١٤ اردب يوناني (أى ما بين ١٤٢ إلى ٤٣٨ إردب مصرى)(٢٣).

أما المرحلة الثانية فكانت تحميل القمح على ظهر المراكب النيلية،
وكان ربان كل مركب يتسلم الكمية المنوط بنقلها من جباة الضرائب مقابل
إيصال يفيد تسلمه الكمية المذكورة بعد قيامه بتكييلها بالمكيال الحكومى
والتأكد بأنها «قمح نقى غير مخلوط بالشعير، ومغربل» ويتعهد بنقلها
وتسليمها كاملة غير منقوصة إلى إدارة الشون المركزية في نيابوليس
وكان هذا الأيصال عادة من ثلاثه نسخ: نسخة يحتفظ بها جامع ضريبة
القمح، ونسختان ترسلان إلى مكتب الأستراتيجوس او حاكم الأقليم الذى
تشحن منه الكميه. وكان بعض الربابنة يمتلك أكثر من قارب وهذا نموذج
لأحد هذه الأيصالات الخاصة بنقل القمح:

اوريليوس امونيوس بن امونيوس ربان سفينة في إدارة
« [من] اوريليوس ... ١٥,٠٠٠ اردب إلى اوريليوس سارابيون
له ثلاث قوارب حمولتها
نيابوليس، له ثلاث قوارب حمولتها ... العليا. سلام - لقد تسلمت وكيل في عن
عامل القمح لإقليم سنكو - الطوبارخية اوريليوس هاربوكراتيون
طريق الكمية التى امرنى بها الأستراتيجوس ، الكاتب الملكى طبقا للاتفاق
واوريليوس نمسيون المسمى ايضا ديونيسيوس. وذلك من
مع المسئولين عن ضريبة القمح وباقى المسئولين المعنيين بالأمر. وذلك من
الشون العامة الخاصة بمنطقة عامل القمح المشار إليه آنفا عند ميناء

ساتوروس على النهر الكبير - من القمح محصول العام الثانى ، صاف وغير مخلوط وخال من الحصى والشعير وليس من الفرز الثانى (الدرس الثانى) ومغربل ومكيل بمكيال نصف الاردب وطبقا لقواعد الكيل المحدد ، بنسبة ١ ١/٢ اردب [نسبة الفاقد] ، ومجموع الكمية هو ٧٧ إردب ، والتى سوف اتولى نقلها [شمالاً] إلى الإسكندرية وتسليمها إلى سلطات نيابوليس ، كاملة وغير منقوصة وليس بها اى ضرر . هذا الأيصال قانوني وكتب من ثلاث نسخ ، واحدة لك - يا عامل القمح - والأثنان الأخريان لحاكم الأقليم ، ورداً على السؤال المتبع اجبت بالموافقة (توقيعات) انا اوريليوس امونيوس بن امونيوس ربان سفن بادارة نيابوليس قد تسلمت وحملت السبعة والسبعين اردب قمح بنسبة (فاقد) ١ ١/٢ اردب (١) .

وضمانا لوصول القوافل سليمة وحتى لا تتعرض لقطاع الطرق ، كان يصاحب كل قافلة طاقم حراسة ، وواحد أو أكثر من مشرفي النقل منعاً لتسرب القمح سراً أثناء النقل والتأكد من سلامة الكمية من الغش عند تسليمها ، وفيما بعد نقلت مسئولية الحراسة من الجنود الرومان إلى الخدمة المدنية الألزامية . كان مشرف القافلة يحمل معه عينة من القمح الذى يقوم بنقله ليتم مطابقتها بالقمح المحمل بعد تفريغه وإذا حدث ووجد أن هناك أختلافا بين العينة والكمية المحملة فأن المسئولية تقع على كاهل عمال القمح الذين جمعوا الكمية ، حيث يقوم مشرف الصوامع المركزية بإخطار حاكم الإقليم المعني بالأمر وهذا نموذج لهذا الأخطار :

« نحن انطونيوس إيليانوس [مدير صوامع نيابوليس] إلى إستراتيجوس إقليم ديوسبوليس فى طيبة سلام عندما تم شحن الحمولة مع باوسيس بن سيبوس وبحارته من الإقليم الذى تتراسونة تبين عند مطابقة العينة ان الكمية مخلوطة . ولقد امرت ان يفحص نصف أردب من أجل إكتشاف الشعير والحصى وتبين انها تحتوى على نسبة ٢٪ شعير ونصف فى المائة من الحصى الطينية . وبناءً عليه يتوجب تحصيل كمية العجز من جامعى القمح الذين قاموا بتحميلها على السفن تحت مسئوليتكم ، وقدرها إجمالاً هو ٣/٤ ٥٠ اردب قمح بالأضافة إلى الغرامات والتكاليف الأخرى . وعندما يتم تسديد الكمية عليك ان تخطرنى بذلك . اول هاتور [٢٨ أكتوبر] عام ٨٨ ميلادية(٢٥) .

هكذا كان يتم نظام التقدير والتحصيل والتسليم لأهم ضريبة عينية جباها الرومان من مصر ليملأوا بها بطون شعب روما النهم .

* * * * * *

٢ - ضرائب المحاصيل البستانية : Apomoira

ومن الضرائب العينية الأخرى ضرائب المحاصيل البستانية وعلى رأسها بساتين الكروم ومنتجاته ومستخرجاته بما فى ذلك النبيذ والخل، وكذلك بساتين النخيل والزيتون والمحاصيل الزيتية والفاكهة والخضراوات، وبالطبع لم تكن الأمبراطورية الرومانية فى حاجة إليها لأن إيطاليا كانت غنيه بحدائقها وبساتينها، وكرومها وزيتونها، كما أن الولايات القريبة منها خاصة أسبانيا وبلاد الغال كانت أيضا تمدها بهذه المنتجات فيما عدا ثمار النخيل، كما أن نقل بعض أنواع الفاكهة إلى إيطاليا كان يعرضها للعطب. ومن ثم كانت الكميات التى تجبى عينا تزود معسكرات جيش الأحتلال ببعضها، أما الباقى فكان عمال الضرائب Practores يجبونه مالاً. وهذه الضريبة فى الأصل أوجدها بطليموس الثانى بهدف دعم بعض العقائد الدينية، وأبقى عليها الرومان(٢٦).

٣ - ضريبة المسح والقياس : Geometria

لعب المساحون دوراً هاما فى تحديد الأراضى المفلحة وغير المفلحة، بما فى ذلك مساحات البساتين، وكانت ضريبة المسح والقياس عادة تقدر بواقع أربعين دراخما لكل أرورا فى الأرض العادية، لكن فى الأراضى الجيدة ذات القدرة الإنتاجية العالية مثل بساتين الكروم فقد وصلت إلى ٣٥٠ دراخما للارورا الواحدة، أما ضريبة المساحة على بساتين النخيل والزيتون والتين وغيرها من الفاكهة فكانت تتراوح ما بين ٢٠ إلى ٣٠ دراخما وعلى حقول الخضراوات من ٢٠ إلى ٢٥ دراخما.

٤ - ضريبة حصة الدخل على الفدان : eparourion

وكانت أيضا من الضرائب التى ورثتها الإدارة الرومانية عن البطالمة، وكانت تتراوح من عشر إنتاج الفدان إلى سدس إنتاجه ولما جاء الرومان أبقوا عليها لكن بدلاً من تحصيلها عينا حصلوها مالاً مثل ضريبة المحاصيل البستانية (apomoira) وبواقع خمسة دراخمات عن كل أرورا مزروعة بالخضر، وعشرة دراخمات عن كل أروراً بساتين خاصة الكروم. وفى القرن الثلث الميلادى أثناء أزمة التضخم التى تعرضت لها الأمبراطورية والتى أدت إلى تدهور قيمة العملة وتدنى قوتها الشرائية إلى

أدني حد لها ، رفعت هذه الضريبة إلى ١/٢ ١ دراخما على كل ارورا وأصبحت موحدة على جميع المحاصيل الزراعية .

٥- ضريبة الماشية والاغنام

إلى جانب ذلك فقد كان هناك ضرائب على الماشية التي يمتلكها الفلاح سواء ضريبة ملكيتها أو ضريبة إستخدام المراعي العامة φορος νομων سواء كانت ملكا للدولة أو للأمبراطور(٢٧) ، وهى ضريبة كانت موجودة منذ العصر البطلمي بمسمى εννομιον والتى كانت تحدد حسب عدد رؤس الماشية التي تستخدم المراعي ، وكان على الفلاح أن يقدم كشفا كل عام يعلن فيه عن عدد رؤس الماشية التي يمتلكها ليدخل في حساب الضريبة ما تكاثر منها بالتناسل خلال العام المنصرم ، لأن ضريبة أيلولة الماشية كانت تفرض على كل رأس ، وكانت تختلف حسب أعداد القطيع المملوك .

٦- ضريبة الرأس λαογραφια :

ومعنى المصطلح اليونانى هو : « تسجيل الناس » ، وهى ضريبة عامة لم يعفى منها إلا شريحة مميزه من السكان على رأسها بالطبع السادة الرومان المقيمون فى مصر ، ثم « المترومنون » أو الذين حصلوا على حقوق المواطنة الرومانية بالأكتساب كبعض أثرياء السكندريين أو الذين أتموا الخدمة العسكرية الطويلة في الجيش الرومانى وبقوا على قيد الحياة . وإلى جانب الرومان ومكتسبى الجنسية الرومانى ، أعفى من ضريبة الرأس سكان المدن اليونانية المميزة : نقراطيس والأسكندرية وبطلمية (وأنطينوبوليس فيما بعد) ، خاصة أعضاء الموسيون Μουσειον (**دار الفنون**) السكندرى ، وعدد ممن شغلوا مناصب دينية رفيعة المستوى ، وفي معابد كبرى تحظي بقداسة مميزه عند المصريين وكذلك بعض الذين شغلوا وظائف مدنية عليا ، ولكن طيلة شغلهم لهذه المناصب فإذا ذهبت عنهم عادوا لدفع ضريبة الرأس .

أما السواد الأعظم من المصريين الذكور فقد دفعوها عن يد وهم صاغرون . وكان الفرد يطالب بدفعها منذ بلوغه سن الرشد طبقا للقانون البطلمى وهو سن الرابعة عشرة والذى اعتبر بداية « كسب العمل » ، حتى بلوغه سن الستين ، وكان عند كل كاتب قرية دفاتر بأسماء القيد للمواليد

تراجع سنويا لأسقاط حالات الوفاة ، وعندما يبلغون سن الرابعة عشرة تنقل أسماؤهم إلى كشوف التحصيل ، وكانت كشوف التحصيل تراجع سنويا لأضافة جدد وحذف ممن أخطر ذويهم السلطات بوفاتهم أو من بلغوا سن الستين . ولحسن الحظ عثر علي بعض من هذه الكشوف(٢٨) ، وهذا نموذج لأخطار بحالة وفاة مشفوعا بالتماس برفع اسم المتوفى من قائمة المطالبين بدفع هذه الضريبة :

« إلى هرمايوس الكاتب الملكي ، من تاباييس ، ابنة باسيس ، ومعها وكيلها أدراستوس بن ديوجينيس . لقد مات زوجي آبايس بن حورس ، الذى يدفع ضريبة الرأس فى قرية فيلادلفيا ، فى شهر أبيب [يوليو] للعام الحالى السابع من حكم تيبريوس . كلاوديوس قيصر أغسطس جرمانيكوس الأمبراطور [٢١ ميلادية] وبناء عليه التمس أن يدرج اسمه بين المتوفين [تأشيرة الكاتب] تاباييس ، عمرها حوالى ٤٥ سنة ، ولها ندبة على قدمها الأيمن ، وادراستوس عمره حوالى ٥٠ ، له ندبة على اصبع يده اليمنى . [توقيعات] أنا تاباييس المشار اليها سابقا ومعها وكيلها أدراستوبس ، المشار اليه سابقا نقسم بعزة تيبريوس كلاوديوس قيصر أغسطس جرمانيكوس الأمبراطور أن ما كتبناه هو حقيقى كلية(٢٩) .

كانت قيمة ضريبة الرأس تختلف من أقليم لأخر حسب ثرائه ، بينما كان مواطنو عواصم الأقليم μετροπολιτες يميزون عن سكان الريف بدفع ضريبة الرأس مخفضة ، ولقد عثر على الآلاف من قطع الأوستراكا التي حررها عمال ضريبة الرأس ، فقد كانت كسر الشقف أكثر شيوعا من قصاصات البردى فيما يخص ضريبة الرأس كايصلات سدادها ، وتسهيلاً على الناس سمحت سلطات الأحتلال بتقسيط هذه الضريبة على دفعات ، مما سبب لنا مشكلة وهى أننا لا نعرف بالضبط وعلى وجه التحديد قيمة المبلغ الأجمالي المطلوب من مسدد القسط ، ومن ثم فليس أمامنا سوى التخمين فى ضوء هذه الأقساط عن قيمة هذه الضريبة من واقع الشقافات التى جمعت من حوالى أثنا عشر إقليماً تقريباً . وفى ضوئها قدر العلماء أن متوسط قيمة ضريبة الرأس هو ست عشر دراخما فى السنة للفلاحين المصريين ، وبينما كان مواطنو عواصم الأقاليم يدفعون ما بين ثمانية دراخمات وإثنا عشرة دراخما فى السنة الواحدة . ومن واقع دراسة شقافات هذه الضريبة التي عثر عليها فى إقليم طيبة يتضح أن ضريبة

الرأس في مناطقها تراوحت ما بين ٢٤ دراخما الي عشرة دراخمات. أما بالنسبة لعواصم الأقاليم فالصورة أكثر وضوحا، ففى هرموبوليس كان سكان عاصمتها يسددون حوالى ثمانية دراخمات، وفى مدينة أوكسيرينخوس كان سكان عاصمتها يدفعون أثنا عشرة دراخمات، وفى ضوء ذلك قدرت ضريبة الرأس غير المخفضة بأنها ١٢ دراخما فى هرموبوليس. و١٦ دراخما فى أوكسيريتخوس. أما بالنسبة لأقليم الفيوم فالصورة أشد وضوحاً من أى إقليم آخر، إذ نعرف بالضبط قيمة ضريبة الرأس المخفضة وقيمة ضريبة الرأس الكاملة وذلك لوفرة وثائق البردي. فقد كانت ضريبة الرأس الكاملة فى إقليم الفيوم هى أربعون دراخما، والمخفضة هى عشرون دراخما وهى أعلى شريحة في ضرائب الرأس فى كل إقاليم مصر حتي تكاد تعادل ضعف ما يدفع في مناطق أخرى، وهذا يدل على غنى هذا الأقليم ووفرة إنتاجه وإرتفاع مستوى المعيشة فيه، كما أنه كان أكثر الأقاليم تكلفة للسلطة لأن رخاءه يعتمد على شبكة معقدة من قنوات الرى والصرف تنفق عليها السلطة مبالغ كبيرة وتحتاج إلى عناية وإهتمام يفوق أى إقليم أخرى، ومن ثم روعى ذلك عند تقدير ضريبة الرأس.

٧- ضريبة حماية السدود Ιναυβιον

وهى ضريبة من عصور البطالمة وثبتها الرومان وجعلوها ضريبة موحدة، بل هى الضريبة الموحدة الوحيدة على طول البلاد وغرضها بالنسبة لملاك الأراضي الزراعية، وكانت قيمتها مبلغ ٦ ٢/٣ دراخما سنويا، وتنفق على تقوية السدود وتطهير الترع والقنوات من ملايين أطنان الرمال التى تلقي بها الرياح سنوياً، وبدون ذلك يتعطل وصول مياه الرى إلى الأراضي[٣١]. وكان يشار اليها أحيانا فى الوثائق بأسم ναυβιον κατοικων[٣٢]. والغريب فى الأمر أنها كانت تدفع جنبا إلى جنب مع الخدمة الألزامية وليس بديلا عنها كما كان يظن سابقا والتى كان الفلاحون يؤدونها كخدمة أقرب إلى مفهوم السخرة في العصر العثمانى.

٨- ضريبة تربية الخنازير υικη.

وقدرها دراخمتان، ولقد حرص الرومان على فرضها لأقبال الأغريق والرومان على تناول لحومها فى الحفلات والولائم، وتقديمها كقرابين فى

المناسبات الدينية ، كما أن الخنازير كثيرة التوالد ولا تكلف تربيتها شيئا لأنها تعيش على قمامة القرى والمدن ، ولم تكن لحومها فقط هى المطلوبة ، بل أن جلودها وعظامها وأسنانها كانت تستخدم فى بعض الصناعات . وكان الفلاح المصرى يستخدم الخنازير لدهس سنابل القمح لفصل الغلال عن التبن ، وكذلك فى دفن البذور فى التربة بالمرور عليها جيئة وذهابا . وبالرغم من أن الديانة المصرية أعتبرتها حيوانات نجسة بتوحب أبعادها من الأقتراب من المعابد ويحرم أكل لحومها(٣٣) إلا أن الفلاح أدرك أهميتها فى الزراعة والصناعات ، ونهم الأغريق والرومان على تناول لحومها وشحومها ، وأعتمادهم عليها فى تقديم القرابين ، بالاضافه إلى كثرة توالدها ورخص تكاليف تربيتها ، فأقبلوا على تربيتها رغم نجاستها وتحريم ديانتهم أكل لحومها ، كما أن تزايد طبقة أبناء الأغريق من مصريات وأبناء المصريين من الأغريقيات والتى نسميها أبناء الطبقة المهجنة hybrid هؤلاء كانوا يقبلون على تربيتها وتناول لحومها ، ومن ثم أصبحت تربيتها من أهم مصادر الدخل للفلاح ، ولم يفت ذلك الرومان ففرضوا ضريبة على كل رأس منها . وبالتالي فأن ضرائبها تختلف حسب أعداد رؤس القطيع(٣٤) . وهى أكثر الضرائب شيوعا خاصه فى إقليم الفيوم حيث يكثر العنصر الأغريقى والأغريقى المتمصر .

ضريبة المهن الحرفية : χειροναξιον

كانت ضرائب المهن والحرف اليدوية تأتى على رأس الضرائب التى كانت تجبى مالاً ، وكانت ضريبة تجبى علي كل عامل أو عاملة يؤدى عملا حرفيا أو فنيا يدر عليه (أو عليها) دخلاً أو مكسبا ، ويدخل تحت بنودها الصبية الذين هم فى مرحلة التدريب أو التمرين وتقل أعمارهم عن أربعة عشر عاما . كانت كل مهنة أو حرفة معينة توضع فى قائمة واحدة مستقلة بذاتها ، وكضريبة الرأس كانت ضريبة المهن تجبى على أقساط شهرية ولهذا فإن هناك كميات كبيرة من إيصالات تسديدها وصلت إلينا ، والتى تضع بين أيدينا أرقاماً مذهلة لا نستطيع من خلالها تقدير فئة هذه الضريبة سواء على المهنة أم على صاحبها ، كما أنها لم تكن موحدة ، بل كانت تختلف من مكان إلى مكان ، ومن حرفة لأخرى ، غير أن أعلاها تقديرا كانت فى إقليم أرسينوى تماما مثل ضريبة الرأس .

وعندما يلتحق الصبي دون الرابعة عشره بمهنة للتدريب أو التمرين كان يتوجب على معلمه (او الأسطى) إخطار السلطات بذلك حتى يدرج أسمه في قوائم ضرائب هذه المهنة ، وإذا أراد الصبى أن يغير الحرفة بالأنتقال لتعلم حرفة أخرى بسبب فشله في الأولى ، كان عليه أيضا إخطار السلطات حتى ينقل إسمه من كشف الحرفة القديمة إلى كشوف الحرفة الجديدة ، كما كان على « الأسطى » إخطار السلطات إذا انقطع الصبى عن التدريب لسبب أو لآخر ؛ سواء كان أنقطاعا مطلقا أم انقطاعا مؤقتا ، حيث ترفع عنه الضريبة خلال فترة الأنقطاع ، وقد وضعت هذه القاعدة من خلال حكم نطق به أحد الولاة في منتصف القرن الثاني وأصبح سابقة قانونية إذ رفض أحد الحرفيين دفع هذه الضريبة لأنه كان مكلفاً بعمل آخر ربما أداء الخدمة الألزامية المدنية ، وقد جاء منطوق حكم الوالي كما يلي :

« ما دام لم يمارس المهنة فإنه لا يمكن أن تدينه بتهمة عدم تسديد ضريبة هذه المهنة »(٣٥) .

كما كان على العمال أو الحرفيين الموسميين أو المتجولين من قرية لأخرى أن يحصلوا على « إذن عمل » من عامل هذه الضريبة ، حتى بنات الهوى أو الساقطات كان عليهن الحصول على إذن لممارسة مهنتهن ، فمن واقع إحدى الشقافات حصلت إحدى بنات الهوى وإسمها أفروديت على إذن لممارسة الدعارة لمدة يوم واحد وللأسف لم تسجل هذه الشقافة تاريخ ذلك اليوم وورد فى الاذن بأنه يسمح لها أن : **« تجامع أى رجل ترغب فيه خلال تاريخه »**(٣٦) . ويبدو أن عدم تسجيل التاريخ كان مقصودا لأنه هذا الأذن كان يسحب من الساقطات عند دفع الضريبة ليعطى عند الأستخدام من جديد .

١٠ - ضريبة الحمامات βαλανειον :

تردد أسم هذه الضريبة فى الوثائق البردية بواقع خمسة أوبولات ، وكذلك في قطع الشقف ، ونظراً لأن أغلب المنازل لم تكن مزودة بالحمامات الخاصة فقد كان إستخدام الحمام العام المزود بالمياه الساخنة والباردة أمراً ضروريا لا يمكن الأستغناء عنه ، كما كان يخصص يوم للسيدات ، ويؤكد ذلك كثرة الحمامات التى عثر عليها فى المدن البطلمية الرومانية القديمة ، سواء فى الإسكندرية أو مدن الفيوم خاصة كرانيس (كوم أوشيم) أو كوم الأحمر ، وربما كانت هذه الضريبة تجبى من أجل ترميم وإصلاح هذه الحمامات والإنفاق على الوقود والزيوت(٣٧) .

١١ - ضريبة العجز فى تسديد الضرائب :-

وهى ضريبة مؤقتة ومتغيرة فرضت بسبب هروب الفلاحين دون دفع ما عليهم من ضرائب مما يسبب عجزا فى قوائم الدخل من الضريبة العامة خاصة أن بلاغات الهروب - كما سبق وأن تعرضنا لها - كلها تذكر أن الهارب لم يترك من ورائه شيئا ذا قيمة أو لم يترك شيئا على الأطلاق، ومن ثم يوزع العجز على باقى دافعى الضرائب الآخرين فى القرية أو المدينة المعنية بالأمر، ولهذا فهى ضريبة مؤقتة وغير ثابتة قد تقل وقد تزيد من عام لآخر حسب حالات هروب الفلاحين، لكنها تصل إلى أدنى قدر لها قبل إجراء التعداد وحصر الممتلكات، وذلك لأن الوالى يصدر فرمانا بالعفو التام عن الهاربين إذا عادوا لمواطنهم الأصلية خلال فترة معينة، إذ بلغت بعد إعلان الإحصاء نصف دراخما فقط (ثلاثة أوبولات). أما فى وثائق القرن الثانى الميلادى حيث شاعت ظاهرة الهروب، فقد بلغت هذه الضريبة إلى أعلى معدل لها وهو ثمانية دراخمات أضيفت على كل دافع ضريبة.

١٢ - ضريبة العقارات ενοικιον :

تؤكد وثائق البردى وقطع الاوستراكا وجود ضريبة كانت تجبى على ملكية العقارات أو الدخول التى تأتى من ملكيتها يقوم يجمعها عمال الضرائب الحكوميون الرسميون epiteretai (أو - praktores)، وفى أوستراكا طيبة تروحت هذه الضريبة من دراخما واحدة ونصف أوبول إلى ثمانية دراخمات وثلاثة أوبولات سنويا.

١٣ - ضريبة الجمارك εγκυκλιον

وكانت تفرض على البضائع سواء المحلية أو المستوردة وتتراوح ما بين ٥٪ إلى ١٠٪ من قيمة البضاعة أو سعر الشراء، لكنها زيدت فى القرن الثالث الميلادى، وكانت هذه الضريبة أيضا تفرض على الرومان بواقع ٥٪ فى حالة عتقهم للعبيد للحد من إنتشار هذه الظاهرة، لكن عندما منح كارا كالا عام ٢١٢ ميلادية الجنسية الرومانية لكافة شعوب الأمبراطورية أصبحت واجبة الدفع على المصريين أيضا بعد هذا التاريخ مساواة بالرومان، كذلك ضريبة إيلولة الأرث وكانت تجبى لحساب الاديوس لوجوس.

١٤ - ضريبة الملح والنطرون :

وهى من أقدم الضرائب في مصر وكانت موجودة منذ العصر الفرعوني وأستمرت خلال العصرين البطلمي والروماني.

وإلى جانب هذه الضرائب البارزة كان هناك رسوم غير مباشرة مثل رسوم التقاضي أمام المحاكم والإجراءات القانونية απαρχη ، ورسوم تسجيل إشهار الوثائق فى مكاتب التوثيق فى السجلات العامة ، وضريبة العشور على بيع الأراضي والرقيق ، وضريبة الرهونات وكانت بواقع ٢٪ ورسوم مختلفة عند تقديم الأضاحى ، ورسوم الغرامات كلها كانت تجبى لصالح بيت المال . كما كانت هناك ضرائب لاعالة وتموين جيش الإحتلال الروماني وإمداده بالضروريات من طعام ووقود وعلف للخيول ، إذ كان من حق السلطة العسكرية أن تطلب ذلك كلما كانت فى حاجة إلى ذلك . ولقد أساء بعض الجنود إستغلال هذا الحق وحولوه إلى نوع من الأتاوة والإبتزاز ليس في ولاية مصر وحدها بل فى كافة ولايات الشرق والغرب . إذا ركب الغرور جنود الجيش الرومانى معتقدين أنهم حماة الشعوب وسادتها . ومن أكثر عمليات الأبتزاز التى رصدت في مصر جمع التبرعات المالية ودواب الحمل والماشية بطريقة غير مشروعة وبالرغم من صدور تحذيرات من السلطة الرومانية من هؤلاء « النصابين » سواء من جانب الولاة أو حتى الأمبراطور نفسه إلا أنها إستمرت حتى زيارة قسطنطين المزعومة لمصر والتى سبق أن تعرضنا لها في الفصل الأول . وأقدم تحذير ضد هؤلاء الأفاقين صدر من جانب ولي العهد جرمانيكوس أثناء زيارته الخاطفة لمصر عام ١٩ ميلادية إذ أصدر البيان التالي :

« جرما نيكوس قيصر بن اغسطس حفيد أغسطس المؤله ، البروقنصل يعلن (بلغنى انه بمناسبة زيارتى) قد أكره الناس على تقديم مراكب ودواب حمل وأن أماكن للإقامة قد أخذت بالقوة ، وأن اكراها قد وقع على المدنيين لذلك رأيت انه من الضرورى أن أوضح أننى لا أريد أن يستولى أحد على مراكب أو دواب إلا بامر من صديقى وكاتبى الخاص بايبيوس والا تغتصب أى محلات إقامة ، فاذا كانت هناك حاجة اليها فإن بايبيوس سيحدد بعض هذه المحال دون تحيز وبالعدل . وبالنسبة للمراكب والركائب المطلوبة فقد أمرت باستئجارها طبقا للجدول الذى قدمته . وهؤلاء الذين يخالفون ذلك أود ان يؤتى بهم للمثول أمام كاتبى الذى سوف يتولى بنفسه منع وقوع الظلم على المدنيين أو يحيل الأمر إلىّ . إن الاستيلاء على الركائب بالقوة أثناء مرورها بالمدينة (يقصد

الإسكندرية) أمر مرفوض لأن ذلك ليس إلا عملاً من أعمال اللصوصية الذى لايحتاج إلى إثبات »(٣٨).

ويبدو أن هذه الظاهرة المقلقة لشعوب الأمبراطوريه الرومانيه لم تكن وقفا على مصر ، بل كانت منتشرة فى كافة الولايات الأخرى سواء فى الشرق أو فى الغرب على السواء ، فقد أصدر الأمبراطور كلاوديوس مرسوما عام ٤٩ ميلادية هاجم فيه بعضا ممن سماهم « عديمي الضمائر » لأنهم يسيئون لسمعة الأمبراطورية فى كل مكان بالرغم من الإجراءات الصارمة التى قام بها لوكيوس إيميليوس ركتوس Lucius Aemilius Rectus قد سبق سيده الأمبراطور كلاوديوس بإصدار عام ٤٢م على أثر إعادته إلى منصبه كوال على مصر - قرارا مشابها(٣٩).

كانت ركائب الناس هى عادة الضحية الأولى لهؤلاء المبتزين من العسكريين والمدنيين على السواء ، دواب الحمل الوحيدة المحصنه من عمليات الأبتزاز هى تلك التابعة لضياع الأمبراطورية ، فقد كان يتدلى من رقبة كل منها قلادة نحاسية تحذر من ذلك ، ولحسن الحظ عثر على واحدة منها في مصر ووجد عليها النقش التالى :

« إنها من ممتلكات ضيعة اجربينا - روتيليا التابعة لمولانا الأمبراطور غير خاضعة للضريبة أو المصادرة »(٤٠).

ولقد كان بعض حكام الأقاليم يتزلفون القوات الرومانية أثناء مرورها خوفا منها أو إسداءً للجميل لها حتى تساندهم ، ففى عصر العدل - أقصد عصر الأباطره الصالحين - ضاق صدر والى مصر ماركوس بترنيوس مامرتينوس من إستمرار تفشى هذه الظاهرة التى أساءت إلى سمعة الجيش الرومانى فى نظر المصريين فأصدر الفرمان التالى عام ١٣٥ ميلادية وهذا نصه :

« فرمان من ماركوس بترونيوس مامرتينوس والى مصر .

لقد نما إلى علمنا ان كثيراً من الجنود اثناء تنقلهم عبر البلد يطلبون بدون أمر مكتوب قوارب وماشية وافراد بطريقة غير مشروعة ، بل وصل الأمر فى بعض الحالات إلى حد الأستيلاء عليها بالقوة ، وفى حالات أخرى يحصلون عليها عن طريق حكام الأقاليم كنوع من إسداء الجميل أو خضوعاً لهم . وكانت النتيجة أن الفرد العادى اصبح يتعرض للأهانات والأذلال ، واصبحت اصابع

الاتهام تشير إلى الجيش بالجشع والظلم . وبناء عليه فقد اصدرت امرى إلى
حكام الولايات والكتبة الملكيين إلا يمدوا احداً ـ سواء كان مسافراً نهراً ام براً ـ
باى مساهمة اثناء سفره دون اذن صادر ، وعليهم ان يتفهموا اننى سوف اعاقب
بشدة اى شخص يضبط وهو يتلقى او يعطى أيا من هذه الأشياء المشار إليها
إعلاه منذ صدور هذا الفرمان .. العام ... من حكم هادريانوس قيصر مولانا
٨ توت [٥ سبتمبر](٤١)

وهناك قرار مشابه أصدره . والى سوريا عام ١٨٥ ميلاديه(٤٢).
غير أن يقظة الضمير والرغبة فى تطبيق العدل فى والأنصاف سرعان
ماتصبح صوتا صارخا فى البرية عندما تواجه بجنود متمردين قساة
غلاظ ، على إستعداد لرفع السلاح حتى فى وجه الأمبراطور ذاتة ، فعندما
يتغلب « أرباب السيف » على « أرباب القلم » وعندما يهيمن على هواجس
إمبراطور مثل كاراكالا أحلام الفتوحات الرومانسية فيطلق لجيوشه العنان
لأن المهم عنده هو النصر العسكرى فى الميدان وليس تطبيق العدل
للانسان ، عندها يصبح » القانون فى أجازة ! ومن قبل أوصاه أبوه
بالا يعير بالا لأحد إلا للجيش(٤٢) هذا المرض المزمن أشار إليه الأديب
ديو كاسيوس عندما أشار إلى أن جنود كارا كالا فرضوا الأتاوات على
ولاية سوريا بأمر صادر منه شخصيا « مستخدمين كل شيء عند مضيفيهم
كما لو كان فى حوزتهم »(٤٤).

ولقد أشار الأمير جرمانيكوس في بيانه ، كما أشار والي مصر
مامرتينوس إلى أن هناك طلبات رسمية لبعض الأغراض التى يحتاجها
الأمبراطور أو الأمبراطورية ، وهذه الطلبيات الرسمية كان يصدر بها
تكليفات توجه إلي المسئولين بموجب الخدمة المدنية الالزامية ، حيث يتم
التعاقد عليها مع المنتجين مقابل سعر وبالطبع كان سعراً متدنيا أقل من
سعر السوق ، وهناك عقد توريد أغطية وملابس بمواصفات معينة من أجل
القوات الرومانية . صدر عام ١٣٨ م وضع غرامات مشددة إذ وجدت عيوب
أو نقص فى الصناعه أو عجز فيها . وهذا أمر بالطبع يزعج النساجين
فضلاً عن دفعهم رشاوى لكى يحصلوا على مطابقة التسليم مع المطلوب
كما كان الجيش أحيانا يطلب أعلافاً أو غلال ، وعادة كان إيصال إستلام
السلعة الموردة يكون في شكل خطاب من أربع نسخ ، واحدة تحفظ فى

أرشيف حاكم الأقليم المعني، وأخرى تحفظ عند شيوخ القرية أو الحي، والثالثة توضع فى محفوظات الأقليم، أما الرابعة تحفظ فى ملف الجهة التى أصدرت أمر الإستلام(٤٥)، ولقد ورد فى إحد أوامر توريد شعير عبارة «بنفس السعر المعتاد» وهذا قد يدل على أن الإدارة كانت تشترى بسعر خاص أقل من السعر المعتاد، كما أن الموردين لم يكونوا يضمنون الحصول على مستحقاتهم بسهولة، وليس هناك مايضمن عدم مصادرتها. لقد كان المنتجون من زراع وصناع لا يسعدون بالحصول على أوامر توريد حكومية لأنها كانت عبئا ثقيلا عليهم، حتي ولو دفعت السلطة لهم أثمانها، إلا أن هذه الطلبات كانت مستمرة وكثيرة ولا يستطيع الوفاء بها طوال العام مما كان سببا في احداث أختناقات في السوق وإرتفاع فى الأسعار فضلاً عن شبهة الفساد من إعادة بيعها فى السوق السوداء. وياليت الأمر يتوقف عند هذا الحد، إذ كانت هناك حصص إضافية من الطعام والعتاد ووسائل الحمل والركائب تفرض على الناس كطوارىء أوكمجهود حربي للمساهمة في حروب الأباطرة الخارجية. ومن بين هذه الطلبات الطارئة إستقبال كبار الزوار وأعاشتهم والترفيه عنهم وعن حاشيتهم، ويدخل في ذلك أيضا إستقبال الوالي وحاشيته عندما يقوم بدورته التفتيشية السنوية لعقد جلسات محكمته. وكذلك إستضافة الأباطرة وأسرهم الذين يأتون فى زيارات سياحية خاصة. ففي تقرير حرر فى عام ٢١٦م ذكر أحد سكان قرية سوكنو بايونيسوس (ديمى السباع) أنه فى العام المنصرم طلب منه إعارة الدولة زوج من الجمال بمناسبة الإحتفالات لاستقبال الأمبراطور كاراكالا عند زيارته لمصر، وأنه بعد الإحتفال أعيد إليه الجملان، ثم تكرر الطلب، وأعيد أحد الجملين لعدم لياقته أما الجمل الآخر فقد إمتطاه قائد مائه إسمه أوريليوس كالفيسيوس ماكسيموس بناءً على أمر مكتوب صادر من والى مصر فاليريوس داتوس «لخدمه قواتنا الباسلة فى سوريا(٤٦). أى من أجل حروب كاراكالا ضد البارثيين التى تخيل نفسه فيها الأسكندر الأكبر يعيد فتح الشروق.

ولحسن الحظ لدينا معلومات مفصلة عن تكاليف إستقبال ولاة مصر أثناء تجوالهم الحولي فى الوادى للتفتيش على مقاطعات مصر، إذ كانت

تشكل لجان إستقبال متعددة التخصص ، واحدة للسلع والخدمات ، وأخرى تختص بتدبير الركائب والسفن وكافة وسائل الأنتقال ، وأخرى للأشراف على إدارة دور الضيافة التى ينزل فيها الوالى ، ولجنة لتسليته وإمتاعه باقامة حفلات السمر والغناء ، وتلبية ما يطلب من شهوات ، ولجنة تختص بتدبير الوقود وزيوت الأضاءة والمصابيح والمشكاوات ، ولجنة لنقل متاع الوالى والهدايا التى تنهال عليه من كبار الموظفين والأثرياء ومن بين مستلزمات وطلبات الوالى : الخبز ، الشعير ، الجبن ، الزيت ، العدس والسمك طازجا أو مملحاً ، والمقبلات والخضروات والفاكهة ، والنبيذ ، والطيور اللاحمة من أوز وبط ودجاج ، وحيوانات الدبح مثل صغار الخنازير الرضيعة وعجول وأغنام ، وتبن وأعلاف لاطعام دواب الحمل وسقايتها وكل لجنة من هذه اللجان كانت تعمل بتكليف بلا أجر ، بل كانت تتحمل جزءاً من النفقات ، بينما تجمع من كل فرد مساهمة لتغطية التكاليف وعادة يكون مالاً وليس عيناً . وإعتبرت الخدمة فى هذه اللجان من بين أعمال الخدمة الالزامية .

الأعمال والخدمات الالزامية :

إن فكرة تسخير الشعوب كل عام من أجل تحقيق أحلام وأوهام الملوك والحكام فكرة ولدت في ممالك الشرق الأدنى القديم ، فعن طريق هذا الألزام المدنى تحققت أعظم المنجزات والأعمال الخالدة كالأهرامات في وادي النيل وكالزاجورات والأسوار المعلقة في بابل ، وكالمعابد الضخمة والقصور الفارهة المزودة بكل أساليب الرفاهية ، وعن طريق هذا التجنيد المدنى للمواطنين أقيمت السدود وشقت شبكات الرى ، وإقيمت المسلات ونحتت التماثيل ، ودبت الحضارة في أوصال **هذه الممالك** . والأمبراطوريات ، وساعد على ذلك نظرتها المقدسة لملوكها الذين كانوا آلهة ، رغباتهم واجبة التنفيذ .

أما فى بلدان الغرب الأوربي ، فقد نشأت فكرة دعوة القادرين لأداء خدمات من أجل الصالح العام للمواطنين . فمع تبلور المفهوم الآثيني لحكم الشعب (أى الديموقراطية) ظهر إلى الوجود مصطلح الليتورجيا Leitourgia أى « العمل من أجل الشعب » وذلك فى آثينا فى القرنين الخامس

الرابع قبل الميلاد ، إذ كان أثرياء الآتينيين يدعون كل عام لتولي الأنفاق من أموالهم الخاصة على أحد أنشطة المدنية المختلفة بعضها شمل الشعائر الدينية والعروض المسرحية ، والبعض الآخر شمل دعم الاسطول بعدد من السفن ، أو إعداد وتدريب جوق Chorus من المنشدين والممثلين لتقديم عروض ترفيهية للمواطنين ، وكان أثرياء المواطنين الآثنيين يتناوبون للقيام بهذه المهام . وبمرور الزمن أصبحت الليتورجيا ضاربة الجذور فى مؤسسات الدولة الآتينية ونظمها الدستورية ومنها إنتقلت إلى كافة المدن الأغريقية الأخرى ، أما فى العصر الهللينستى حيث ظهرت فكرة الملوك المؤلهين ، فقد اتخذت الليتورجيا طريقا آخر وهو خدمة الملوك الآلهة أو الآلهة الملوك .

وفى مطلع تاريخهم المبكر ، طور الرومان لأنفسهم نظاماً مميزا للخدمات العامة التى تؤدى للدولة أو الجمهورية بحيث يعفى منها المواطنون ذوى الدرجة الاجتماعية العالية والنفوذ المالى المؤثر ، وأطلقوا على هذه الخدمات الأحمال munera (ومفردها munus) . ولما جاء الرومان إلى مصر طور أباطرتهم نوعاً جديداً هو مزيج من الفكرة الآتينية والاصل الشرقى والتصور الرومانى . وجعلوه نظاماً مقننا له أصول وقواعد بحيث لا يوجد له مثيل فى العالم القديم ، وطبقوه بحذافيره فى كل شبر من أرض مصر : الدساكر والكفور ، والقرى والمدن ، وبحيث يلتزم بقواعده كافة السكان ، محتفظين بالمصطلح الآتينى leitourgia بعد أن أفرغوه من جوهرة الكلاسيكى وملأوه بنظامهم الجديد .

وكما كان الحال بالنسبة لضريبة الرأس ، فقد كانت هناك شريحة من السكان معفاة من أداء الخدمة الألزامية يأتى على رأسها بالطبع المواطنون الرومان Cives Romani والحاصلون على حقوق المواطنة الرومانية بالأكتساب ، ومواطنو المدن الأغريقية الثلاث (وفيما بعد مواطنو مدينة أنطينوبوليس) ، والرياضيون الفائزون فى المباريات الأولمبية ، وأعضاء النقابات المهنية الراقية كالاطباء وغيرهم ، وأرباب الأسر الذين انجبوا خمسة أبناء ، طبقا لقانون الابناء الثلاثة الذى استنه اكتافيوس أغسطس ، كذلك بعض الأفراد الذين يقومون بأداء وظائف حيوية مثل تموين القوات العسكرية وبعض أفراد الأسر الذين لهم أشقاء يؤدون الخدمة الإلزامية

تؤجل خدمتهم مؤقتاً (كما هو فى قوانين التجنيد مثلاً)، كما أعفى من أداء الخدمة الإلزامية النساء والمسنون وذوى العاهات التى تسبب عجزاً لأن هذه الخدمة تقوم على المجهود الجسمانى. ولقد ميز الرومان بين نوعين من الخدمة الإلزامية: الخدمات الشرفية التى يؤديها الأعيان وأطلقوا عليها مصطلح candida munera أو Patrimonia أى الأعمال الشرفية أو «الإنفاق من الجيوب»، أما النوع الآخر فهو النوع الأدنى، وهو الخدمات الدنيا sordida munera والتى تقوم على المجهود الجسمانى أو الأعمال الشاقة.

ويتضح من الوثائق أن نظام الخدمة العامة الذى تبلور مع مجىء الرومان إتخذ شكله الثابت الراسخ منذ منتصف القرن الأول الميلادى وتنامى مع نهاية هذا القرن، ووصل إلى قمة ازدهاره فى القرن الثانى الميلادى. وكلما رسخ الحكم الرومانى فى الأرض المصرية كلما رسخ نظام الخدمة الالزامية، وإتسعت دائرته لتشمل خدمات جديدة، واوجدت أخرى لتدخل فى نطاق هذا النظام، ولقد اتخذ الأمبراطور تراجانوس خطوة جريئة قفزت بهذا النظام إلى قمة إكتماله ورسوخه عندما ادرج مهمة جمع الضرائب والمكوس إلى قائمة الخدمات الالزامية الشرفية التى كانت تفرض على الأعيان والموسرين والغى نظام الجباة practores الذى كان الأمبراطور تيبريوس قد أوجده كبديل عن نظام الالتزام المستغل، وبهذا القرار وضع تراجانوس حداً لتجاوزات جباة الضرائب الرسميين وان كان ذلك لم يقض نهائيا عليها.

هناك ما يقرب من مائة خدمة الزامية يمكن رصدها من واقع وثائق البردى ضمت فئات مختلفة من قطاع المجتمع، كل فئة لها عدد معين سواء افراداً كانوا أم جماعات، منها شيوخ القرى المصرية، وكتبتها وكتبة الأقاليم (نواب حكام الأقاليم) والخفراء، وجباة الضرائب العينية والمالية، والمسؤلين عن نقل القمح من الشون فى القرى إلى موانىء الشحن النيلية، والمسؤلين عن تحميل المراكب وتأمين وصول القمح إلى الاسكندرية أو إلى مراكز تجميعه عند معسكرات الجيش الرومانى، ومفتشى الري والفيضان، والمساحين الذين يسجلون مساحات الأرض التى غطتها مياه الفيضان وتلك التى تصل إليها، ومراقبى بذر التقاوى

للتأكد أنها لم تتسرب لتباع في السوق السوداء ، ومراقبي الحصاد ، ومفتشي السدود والجسور وشبكات الرى ، ومراقبي الأشغال العامة ، والمشرفين على جمع الضرائب والمكوس ، ومسؤلى الأمداد والتموين ، والأشراف على خدمة وراحة كبار الزوار لمصر ، والعاملين فى البنوك ، والمسؤلين عن تسلم وتسليم الأموال العامة ، والأوصياء على القصر ، وأصحاب الوظائف الشرفية ، المحلية في البلديات ، وأعضاء مجالس الرأى والشورى في عواصم الأقاليم . كل هؤلاء كانوا يدرجون ضمن نطاق الخدمة الألزامية المدنية عندما أكتمل هذا النظام خلال القرنين الثانى والثالث الميلاديين .

كانت فترة الألزام تتراوح من عام الى ثلاثة أعوام ، يخلي بعدها سبيل الفرد ليستمتع بالأعفاء بضع سنين قبل أن يستدعى مرة أخرى للخدمة ، وفي أوقات الضرورة أو ندرة وجود المؤهلين للخدمة ، كانت تسقط فترة السماح والأعفاء المؤقت . إن إلغاء وظيفة جامعى الضرائب الرسميين لم يكن الدافع إليها هو القضاء على مصدر فساد وابتزاز ، ولكن لأن سلطة الأحتلال وجدت فى نظام الخدمة الألزامية مزايا مادية لها ، لأن المكلفين بالخدمة الألزامية لا يتقاضون رواتب ، بل ينفقون عليها من جيوبهم الخاصة ، بل يدفعون من جيوبهم الخاصة أى عجز يحدث فى الأموال المقررة ، ولهذا السبب وضعت شروط لتولي هذه الخدمة وهو أن يكون لمن يتولاها ملكية معقولة من العقارات أو الأطيان أو الأموال السائلة لا تقل مثلا عن ثلاثة تالنتات (١٨,٠٠٠ دراخما) لمن يريد أن يشغل وظيفة مدير بيت المال في الأقليم ، بينما إشترط على من يريد أن يترشح للخدمة كخفير فى القرية أن يكون لدية دخل لا يقل عن مائتى دراخمة ، أما المعدمون الذين لا يملكون شيئا فكانوا ممنوعين من تولى هذه المناصب الشرفية المكلفة ، ومن ثم يمكن القول أن كل الناس فى مصر وقعت فى شباك الوظائف الشرفية ولم ينج منها سوى المعدمون . إذ أنه ما أن تعلن قوائم الوظائف الشرفية حتى تصبح ممتلكات المرشحين مرهونة لدى الدولة كضمان لحقوقها كما كان على المرشح المختار أن يؤدى قسما يتعهد فيه أن يؤدى عمله فى هذه الوظيفة بأمانة ونزاهة . غير أن السلطة الرومانية لم تكن مستريحة من الأعتماد الكلي فى ضمان حقوقها على ضمانات الملكية الفردية التي يقدمها أصحاب الوظائف ، ومن ثم وزعت المسئوليات

على أكثر من فرد بدءاً من الذين استرشدت بهم عند إختيار الموظفين الشرفيين سواء في القرية أو المدينة ؛ هؤلاء أصبحوا أيضا ضامنين ومسئولين أمام السلطة الرومانية لأنهم زكوا وضمنوا المرشح بأنه جدير بالثقة وقادر على إداء مهام وظيفته . وبمرور الزمن طالبت السلطة المرشح أن يقدم ما يفيد بأنه يحظى بثقة شعب قريته أو مدينته أو أقليمة ، ومن ثم فانه في حالة مخالفته للوائح تكون المسئولية مسئولية جماعية أيضا ، فقد كان القصد الأساسي أن يكون تولى هذه الوظائف مبايعة من شعب القرية أو المدينة لهذا المسئول وانه يلقى منهم القبول ، وأن يكون إختياره إختياراً ذاتياً للجماعة .

أما من ناحية إجراءات الترشيح والتعيين ، فقد كان العمد والمشايخ وكبار موظفي المدينة أو الأقليم يقدمون ترشيحاتهم إلى حاكم الأقليم مشفوعة بتزكياتهم ، وتعلق هذه الأسماء في مكان بارز لتلقى الطعون . أما في حالة وظيفة جامع الضرائب - أو العشار - فقد اتخذت الأجراءات طريقا آخر بهدف منع التدليس والتحايل أو الوصول الى هذا المنصب بطرق ملتوية ، إذ كان على مقدمي الترشيح أو المزكى - وعادة كاتب القرية أو كاتب الأقليم أن يقدموا أسماء أكثر من مرشح لحاكم الأقليم ، ويقوم حاكم الأقليم (الأستراتيجوس) برفع هذه الأسماء الى حاكم القطاع أو الأبستراتيجوس epistrategos الذى كان محايدا لأنه - في «برجه العاجى» - كان بعيدا عن التورط والمجاملة إذ لم يكن له علاقة بالناس ، بالأضافة الى كونه رومانيا لا يعنيه إلا مصلحة الأمبراطورية ، ولايحابى أحداً على حساب أحد ، ومن بين أسماء المرشحين يجرى قرعة لإختيار واحد منهم ، ويعلن عن أسماء الفائزين [٤٧] لكن ماذا لو حدث خطيء في عملية الإختيار وتم إختيار شخص لا تنطبق عليه المواصفات ، أو كان معفيا من الخدمة الإلزامية ، أو ثبت أنه لايملك الحد الأدنى من الملكية ؟ في هذه في هذه الحالة يقوم كاتب القرية أو المدينة أو الأقليم بتصحيح الخطأ بحذف أسمه أو أستبداله بآخر قبل الأعلان النهائي للأسماء ، أما إذا كان الوقت قد فات ففي هذه الحالة لامناص من أن يتولى المسئول المنصب بنفسه عقابا له لأنه هو الذى رشحه أصلاً وقدم أسمه للسلطات . ولقد كانت هذه القاعدة قائمة ومتبعة منذ منتصف القرن الأول الميلادى . ففي إحدى حالات الخطأ رشح كاتب قرية أحد النساجين لمهمة فرض الزراعة الجبرية وهو لايعرف

شيئا بحكم مهنته عن الزراعة والمحاصيل مخالفا بذلك القواعد المتبعة ، ومن ثم أعلن كاتب القرية انه سوف يتولى بنفسه هذه الألزام أو يبحث عن آخرين مناسبين لذلك العمل وذلك على مسئوليته الشخصية [٤٨] وفى حالة اخرى مماثلة خاصة بشقيقين مواطنين فى مدينة انطينوبوليس (ومن ثم فقد كانا معفين من الخدمة الالزامية) ، ولما كان لهما ممتلكات فى أوكسيرينخوس وغير معروفين فيها فقد رشحا فى عام ٢٤٤ ميلادية لأحدى الوظائف الالزامية ، عندئذ تقدم الشقيقان بشكوى إلى حاكم إقليم اوكسيرينخوس ضد كاتب هذه المدينة الذى تسبب في ترشيحهما ، واحال حاكم الأقليم بدوره هذه الشكوى الى كاتب المدينة المعنى بالأمر ، فرد عليها قائلا : «فى ضوء التحريات تبين لى انهما [معفيان] ، وبعد أن علمت بذلك توليت المهمة الألزامية بنفسي بدلاً منهما[٤٩] ..

أما إذا كان الترشيح الخاطئ قد تسبب في اضرار مادية ومعنوية فمن حق المتضرر أن يلجأ إلى القضاء للحصول على تعويض من المزكي لهذا المنصب ، ففي قضية نظرت أمام محكمة الوالي نظرت فى ١٧ أمشير (١١ فبراير) عام ١٤٣ م اصدر الوالى هذا الحكم موجها كلامه الى كاتب القرية المتسبب في هذا الضرر :

ماذا كنت تتوقع من ترشيحك لرجل لأداء الخدمة الألزامية ليس لديه ما يكفيه من مال؟ غير تسببك فى هروبه، وبيع متاعه [لتعويض نفقات الخدمة الألزامية] إنك ملزم بتحمل المسئوليه وتستحق العقاب . عليك ان تدفع الغرامة [المبينة] لبيت المال، بالأضافة إلى ذلك عليك ان تدفع له اربعة اضعاف الثمن الذى بيعت به اغراضه[٥٠] .

وعموماً كانت الخدمة الألزمية هماً يؤرق الناس ؛ ويسعون بشتى الطرق لتجنبه ، وبقدر الأمكان تفاديه ، فكانوا حينا يدفعون الرشاوى إلى كاتب القرية حتى لايدرج أسماءهم في قائمة المرشحين ، أو لكى يتعمد تناسى أسما فيسقطه من كشوف القيد من باب المجاملة والمحاباة ، خاصة أنه لم يوجد في اللوائح ما يمنع هذا التواطيء ، لكن السلطة لجأت إلى حل آخر لعلاج هذا الخلل وهو إلا يرشح كاتب القرية أحداً من قريته وإنما جعلت كتبة القرى الأخرى هم الذين يرشحون الموظفين بحيث الأيكونوا من قراهم التي يرتبطون مع شعبها بعلاقات وصداقات وربمابقرابة ، غير أن عامل الوساطة ظل يلعب دوراً ، اذ أن كتبة القرى كانوا يجاملون

بعضهم بعضا ، ولذلك فقد حصل كثير من الناس على الأعفاء من الخدمة الألزامية بطرق ملتوية ، اذ كان كتبة القرى يبحثون لهم عن حيثيات ومبررات تعفيهم من هذه الخدمة ، وفي حالات أخرى كان كاتب القرية يتجنب اختيار بعض العتاة الذين يهددونه بالأنتقام ، وهذا التهديد من جانب «ذوي العزوة» يترك الضعفاء الذين ليس لهم سند هم الضحايا الذين ينصاعون لقبول الخدمة الالزامية بدلاً من القبضايات غلاظ الطباع والسلوك . ونادراً مايلجأ هؤلاء الضحايا الى القانون طلبا للعدل والأنصاف ، فيرفعون شكواهم الى السلطات التى تأمر بأدراجها كقضايا عاجلة ضد الفساد وقد تستمر القضية عشرات السنين قبل صدور الحكم فيها . ونحن نعرف أن قرارا امبراطوريا صدر عام ٤٨ ميلادية ضد التواطيء لحماية بعض الناس من اداء الخدمة عن طريق شراء هذه الحماية ، لكن بعد ثمانين عاما تقريبا نجد والى مصر يقوم بالتحقيق فى تهم متشابهه (٥١) وبعد ثمانين عام أخرى (أى فى شهر بابه عام ٢٠٧ ميلادية) تقدم خمسة وعشرون مزارعاً نيابة عن مزارعي أراضى الدولة فى قرية سوكنو بايونيسوس (دمى السباع) الى حاكم اقليمهم بشكوى ورد فيها على لسانهم مايلى :

«لقد أجبرنا على العمل فى أراضى الشاطئى التى انحسرت عنها مياه الفيضان مؤخراً ، كل منا بكل طاقتة ، غير أن رجلاً اسمه أورسيوس ، قاسى وعنيد فى صحبة أربعة من أشقائه قاموا بالهجوم علينا ، ومنعونا من أداء عملنا ، ومن بذر الحب . وأرهبونا حتى نفر من بيوتنا كما حدث لنا من قبل حتى يضعوا أيديهم على الأرض وحدهم . ولهذا نقدم لكم هذا البلاغ عن مخالفتهم للقانون . إنهم لا يسددون القسط الشهرى وما عليهم من ضرائب سواء قمحا أو مالاً . ولم يتولوا أبدا أى عمل الزامى لأنهم يرهبون كل من يتولى منصب كاتب القرية . لقد دفعتنا الحاجة الماسة لكى نلجأ اليكم طلبا لحمايتكم ، ونسأ لكم - إذا سمح معاليكم - أن تأمروا باستدعائهم ليمثلوا أمامكم وتستمع الى قضيتنا ضدهم ، فاذا ما نلنا حقنا بعونكم ، استطعنا أن نكرس أنفسنا للأرض ، وأداء الخدمة الالزامية المفروضة علينا ، ويسدد أورسيوس واخوته ما عليهم الى الدخل العام . ويؤدون الخدمة الالزامية المؤهلين لها ، وحتى نكون جميعا مسئولين بقدر متساو عن فلاحة الأرض موضوع النزاع . وحتى نتمكن من الأقامة فى قريتنا مقدمين آيات الشكر لجنابكم . ووداعاً »(٥٢)

من هذه الشكوى نعرف أن أعمال البلطجة و الفتونة كانت تستخدم من جانب البعض للهروب من اداء الخدمة الألزامية ، بينما يؤديها الضعاف صاغرين، وعلى الجانب الأخر كان هناك أعيان من أعمدة المجتمع لهم حق الأعفاء من اداء الخدمة لوضعهم المميز، لكنهم تطوعوا لأدائها كنوع من شهامة الأغنياء لخدمة الفقراء وخدمة الصالح العام، أو كالتزام اخلاقى مبعثه حب فعل الخير للمجتمع pro bono publico ، أو من أجل حب الظهور والوجاهة الاجتماعية ،لكنهم بعد أن خاضوا التجربة المريرة خاب ظنهم اذ شعروا ان طيبتهم فهمت على انها سذاجه منهم ،إذ اعتبر شعب قراهم ان تبرعهم للعمل الاجتماعي و انفاقهم من اموالهم الخاصة ليس تعطفا وتبرعا من جانبهم بل واجب وحق لأهل القرية عليهم لا يستحق الشكر و التقدير ، ولا يجب أن يتنصلوا منة ، ومن ثم طلبوا إعفاءهم من القيام بهذة الوظائف لأنه حق من حقوقهم وهذا نموذج من هذة الحالات ، اذ تقدم أحد الأطباء الى والى مصر افيديوس هليودوروس (الذى تولى منصبة عام ١٤٠ ميلاديه فى عصر هادريانوس) يطلب منه استصدار قرار لأعفائة من الخدمة الألزامية هذا نصه:

«إلى جايوس افيديوس هليودوروس والى مصر من ماركوس فاليريوس جيميللوس الطبيب. بالرغم من قرار الأعفاء قمت باداء الخدمة الألزامية كمشرف على الممتلكات المصادرة فى قريتى بلكخياس وهيفايستياس فى تقسيم هيراقليديس فى اقليم ارسينوى، ومن خلال تولى هذا العمل طوال السنوات الاربع المنقضيات تحولت ياسيدى الى شخص معوز ولهذا فانى اتوسل اليك- يامنقذى- ان تتراف بحالى وتامر فى الحال باعفائى من هذة الوظيفة حتى اتمكن من ان افيق من تاثيرات هذا المنصب الذى اتولاه وارفق طيه سوابق منحت فيها الأعفاءات الكاملة من الخدمات الألزامية لبعض الأشخاص الذين يمارسون مهنة الطب خاصة لهؤلاء المؤهلين مثلى وبذلك سوف احظى بعطفكم. ووداعاً»(٥٣).

وفى حالة أخرى نقابل امرأه ثرية أخذت على عاتقها فلاحة أرض مهجورة من تلقاء نفسها. وهو نوع من الخدمات الألزامية التي تعفى منها النساء ، ولما حاولت أن تترك هذا العمل التطوعى، ظلت تتخبط فى الإجراءات البيروقراطية لمدة عامين كاملين قبل حصولها على أمر الأعفاء(٥٤).

ومنذ نهاية القرن الثاني واوائل القرن الثالث الميلاديين ، بدات ملامح عصر الأنكماش الأقتصادي تبدو في الأفق والتي ساعد على حدوثها تزايد الضرائب والتقديرات الضرائبية الجزافية ، والضرائب الطارئة الأضافية التى استحدثت خلال الصراع المميت بين القادة المتنافسين للجلوس على عرش الأمبراطورية ، والحروب الملتهبة عند حدود الأمبراطورية الشمالية ضد البرابرة ، كل هذا ادى الى تحول كثير من الأعيان والأثرياء الى فقراء معدمين ، ومن ثم بداوا يديرون ظهورهم للوظائف الشرفية أو يطالبون ان يشاركهم فى توليها آخرين تخفيفا من نفقاتها الباهظة التي قصمت ظهورهم ، وحولتهم من الغني إلى الفقر ، ومن الكبرياء والشموخ الى المذلة والضعف حتى الذين ظل لديهم بعض الممتلكات فضلوا تسليم كافة ما يملكون الى من رشحهم لأحدى الوظائف الشرفية الالزامية بشرط أن يتولى هو نفسه القيام بها نيابة عنهم أو بدلاً منهم ، واعتبر الشخص الذى يقبل مثل ذلك العرض مغامراً لأن هذه الوظائف الألزامية أصبحت كالسرطان تلتهم الثروات ، وعند نهاية مدة الألزام الوظيفى قد يتبقى أو لا ينبقى لصاحب الممتلكات الأصلي شيء منها بل وصل الأمر الى حد توقيع العقاب البدني علي الذين يرفضون تولي وظائف الألزام أو يزج بهم في غياهب السجون علي يد الموظفين المرشحين لهم حتي يرجعوا عن رفضهم ، ولم يتوقف ذلك إلا عندما أصدر الأمبراطور سبتميوس سيفيروس أمرا بالكف عن مثل هذه التصرفات والأجراءات المتعسفة ، وأن يترك للناس حق الأختيار بين تسليم كل ما يملكون فيما عدا القليل الذى يتقوتون منه ، دون إنزال لدرجتهم الطبقية والأجتماعية ، وبين قبول الترشيح لتولى الوظائف . ولدينا عدد من الوثائق التى تدور حول هذه المشكلة منها الوثيقة التالية :

« إلى أوريليوس ليونيداس ، إستراتيجوس إقليم أوكسيرينخوس ، من ايميليوس ستيفانوس بن هاتريس وتاسورابيس من قرية سنكيفا اليوم فقط علمت انني قد زكيت بواسطة اوريليوس آمويس بن باتاس وديمتريوس من نفس القرية باني رجل مقتدر واستحق ان اخلفه في وظيفته - جابي اموال الضرائب المستحقة على القرويين في سنكيفا - آنفه الذكر - للعام الثالث الجاري . هذا غير معقول ويخالف مبدا المشاركة [بالقسطاس] في الوظائف الألزامية . وبناء عليه فاني اتنازل له عن ممتلكاتي تماشيا مع القاعدة المقدسة [أى

الأمبراطورية]. واعلن ان لى عقارات واطيان فى (٥٥) [... باقى الوثيقة مفقود وعام تحريرها هو عام ٢٣٦ ميلادية].

ومثلما كان الفلاح المغلوب على أمره يفر هائما على وجهه الى حيث لا يدرى عندما يعجز عن دفع الضرائب الثقيلة المستمرة ، نجد بعض رجال الطبقة الوسطى عندما يعلمون بأنهم قد رشحوا لأحدى الوظائف حتى يفرون هم الآخرون هائمين على وجوههم لاحقين بالفلاحين ، ومن ثم تسببت الوظائف الألزامية أيضا فى ظاهرة الهروب (٥٧) . أو الأنسحاب من المجتمع anachoresis والتى أصبحت ظاهرة مقلقة فى المجتمع المصرى زمن الرومان ، ومسماراً دق فى نعش السلطة الرومانية فى النهاية . لقد كان الوالى الرومانى صادقا عندما أصدر يوم الفاتح من شهر توت [٢٩ أغسطس] وهو عيد راس السنة المصرية فى العام الثامن عشر من حكم الأمبراطور انطونينوس بيانا إختار كلماته بحرص ودون تصنع وهو يتحدث عن أولئك ، **الذين هربوا من تولى الوظائف الألزامية بسبب الفاقة التى كانوا يعانون منها** وقتذاك ، **ولا يزالون يعيشون فى خوف بعيداً عن مواطنهم لأنهم إعتبروا خارجين عن القانون تماماً** ثم يعرض عليهم إقتراح العفو عنهم عفواً تاما بشرط أن يعودوا إلى مسقط رؤسهم خلال فترة سماح قدرها ثلاثة شهور (٥٨) . وبالطبع كان هناك من يستجيبون بل وينتظرون صدور قرار العفو من الوالى والذى كان عادة يسبق حلول موعد إجراء الأحصاء ، وبذلك يفلتون من العقوبة الصادرة فى حقهم ، ويعودون إلى قراهم ، لكن سرعان ما يعود الحال إلى سابقة ، لأن قرارات العفو كانت بمثابة المسكنات المؤقته وليس علاجاً لهذا المرض المزمن اللعين ، فقررات العفو أزاحت عن كواهل الناس آلام ماضيهم لكنها لم تؤمن لهم مستقبلهم ، بل على العكس كان المستقبل يخفى كوارث أشد إيلاماً عندما مرت الأمبراطورية بمنعطف خطير وهو هجوم البرابرة الجرمان عليها كالذئاب الجائعة التى تحيط بثور مسن تنهش فى لحمه ، ومن ثم إندلعت الحروب على الحدود ، وزلزل الأستقرار والسلام الرومانى الذى طالما تغنى به الشعراء ، وبدأت جزوة الأزدهار الأقتصادى تنطفأ رويداً رويداً ، وكلما أشتدت المعارك على الحدود كلما زادت حاجه الأمبراطورية إلى المال مما يعنى إزدياد الضرائب وفرض الألزام بقسوة ، ولم يكن الولاة الرومان قادرين على أن يفعلوا شيئا سوى إصدار العفو العام كلما وصل

التذمر إلى مداه، وتدور الدائره المفرغة، وتفقد الأمبراطورية سرقوتها وهي القوى البشرية التى كانت السبب في رخائها، بل تحول الهاربون إلى قطاع طرق يعطلون الحياة الأقتصادية، ويلجأون إلى حرب العصابات وهي نقطه الضعف التى لا تقدر الجيوش الرومانية علي قهرها، وبدت الأمبراطورية الرومانية وهى تعيش فى دوامة هي المسئولة عن صنعها.

هوامش الفصل السابع

(1) P. London 904, II. 18 = Select Papyri, II, no 220 (P 108).

(2) S. B. 7460 = P. Brux, 10 = P. Lugd- Bat, V, col. X, cf. Lewis, op cit, P 158.

(3) Diodorus Siculus Book 1, chapter 31.

(4) Josephus, De Bello Iudaico, Book II, Section 385.

(5) Dio Cassius, Book 57, Chapter 10.

(6) S. B. 7768 = S. E. G. Viii, no. 527.

(7) Philo: on Special Laws, Book 3, Chapter 30.

(8) P. Mich no. 529 (Verso) = chronique d' Egypte, Vol 50 (1975), pp 202 - 206.

(9) B. G. U. 515 = Select Papyri, vol. II, no 286, p 276.

(10) S. B. 9207 = Nephtali Lewis, P 163.

(11) Winter, op. cit, P 21 = P. Giss, 40 coll II, lines 16 ff = Wilcken, Chrest,22.

(12) P. Oxy 2669 = cf. N. Lewis, P 164.

(13) cf Lewis ibid p 164 = P. Rylands 595.

(14) S. B. 7462.

(15) P. S. I, 101.

(16) P. S. I, 102.

(17) B. G. U, 27 = Select Papyri, vol. I, no 113 (P 306) =Winter, op cit pr 38-39.

(18) Aegyptum copiasque quibus coërcetur iam inde a divo Augusto equites Romani Obtinet loco regnum, ita visum expedire, provinciàm aditu difficilem annonae Fecundae, Superstitione ac lascivia discordem et mobilem, insciam legum, ignaram magistruum, doni retinere. (Tacitus, Historlae I, ii).

،فمنذ ايام اغسطس المؤلة ، تولى مصر والقوات اللازمة لاخضاعها ، فرسان رومان فى منزلة الملوك. هكذا رأى من المصلحة ان يضع تحت سيطرته (المباشرة) ولاية عسيرة المدخل، وفيرة الغلال، متنافرة الأهواء، سريعة الهياج لأيمانها بالخرافات وميلها للفوضى، جاهلة بالقوانين، ولا دراية لها بالحكام.(ترجمة عبد اللطيف أحمد على المرجع السابق ص١٧٨)

(19) Winter, op cit ,p 2(note 1).

(20) Seneca, Epistulae, 77, I.

(21) Winter op cit, p7. note 1.

(22) cf P Fayoum, P 331, nos 42-43.

(23) P. Oxy. no. 2670 = Lewis, op cit, P 167.

(24) P . Oxy. 84 (A .D .316) = Select Papyri, vol II, no. 374 (p 474-475).

(25) P. Oxy. 2152 (and 708) = W. Chr. 432 = Lewis op. cit, p 168.

(26) J. G. Milne, op. cit, p 153 (4).

وكذلك انظر إبراهيم نصحى: تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، الجزء الثالث ، الطبعة السادسة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨ ، ص ٣١٠ .

(27) P. Fayum, no. Lxi P.190.

(28) P.London 259 = W. Chr. no 63 (A.D.94)

(29) P. Mich, II (Tebtynis Papyri) 121 recto II, = Winter, op. cit, P 132.

عن ضريبة الرأس فى مصر انظر : عبد اللطيف احمد على : ضريبة الرأس فى مصر الرومانية مجلة كلية الآداب جامعة الكويت ١٩٧٥ من الى ص؛ وكذلك :

J.A.S. Evans: The Poll-Tax in Raman Ejypt, Aegyptus, 37 (1957) PP. 250-265

(31) P. Oxy II., 297; Wilcken, Ostraka, I, pp 259 - 63; Milne, op cit, p 154 (no 5.); Lewis, op cit, p 170 - 171

(32) P. Fayum. p 160, Lvii, 4, Lxv, 6, cxc- cxciv.

(٣٣) انظر مثلا النقش الموجود على حائط معبد كلابشة : وعن ضريبة الخنازير

(34) cf. P. Fayum, 178 Liii and P 182 nos Liii, 7; ccxxx; cccxvii cf. Milne, op cit pp 154 - 155.

(35) Scritti. Montevecchi. Bologna, 1981. pp 196 - 7 = Lewis, op cit, p 171.

(36) Wilcken (Ulrich) Griechische Ostraka aus Aegypten und Nubien,2 vois, Leipzig und Berlin 1899, Vol. 1 no 1157.

(37) Wilcken, op cit, v I, pp 165 ff; P, Fayum no Xlvi, p 170.

(38) S. B. 3924 = Select Papyri, II, no 211/1-30), pp 77 -78

كذلك انظر ترجمة عبد اللطيف احمد : مصر الأمبراطورية الرومانية ص ٧٨ .

(39) P. London 1171 (verso) = W Chresto 439.

(40) Inscriptiones Latinae Selectae, no. 214.

(41) P. S. I. 446 = Select Papyri, n. 221 (vol. II p 110).

(42) O. G. I S, no 609.

(٤٣) انظر تاريخ الأمبراطورية الرومانية من ص ٢٥٥ - ٢٦٣ (خاصة ص ٢٦٣ .

(44) Dio Cassius, Book 79, chapter 3, cf N. Lewis and Reinhold, op cit, pp. 399 - 403.

(45) P. Amh. 107 = W. Chrest. 417; Lewis, op cit, P 175.

(46) B. G. U. 266 = W. Chrest. 245 = Lewis, p 176.

(47) P. Petaus 65 (A. D. 185).

(48) P. Phil 1.

(49) P. Oxy 1119 = W.Chrest 397 = Lewis, p 180.

(50) Wisc. 81, Lewis, P 181.

(51) O. G. I. S, 665, P. S. I 1406.

(52) S. B. 4284 = N. Lewis P 182.

(53) P. Fayum 106, II - 6 - 25 (A. D. 140) = W. Chrest no 395 = Select Papyri, Vol II, no. 283, P. 270.

(54) P. Oxy 899 = W. Chrest 361 = Lewis, P 182.

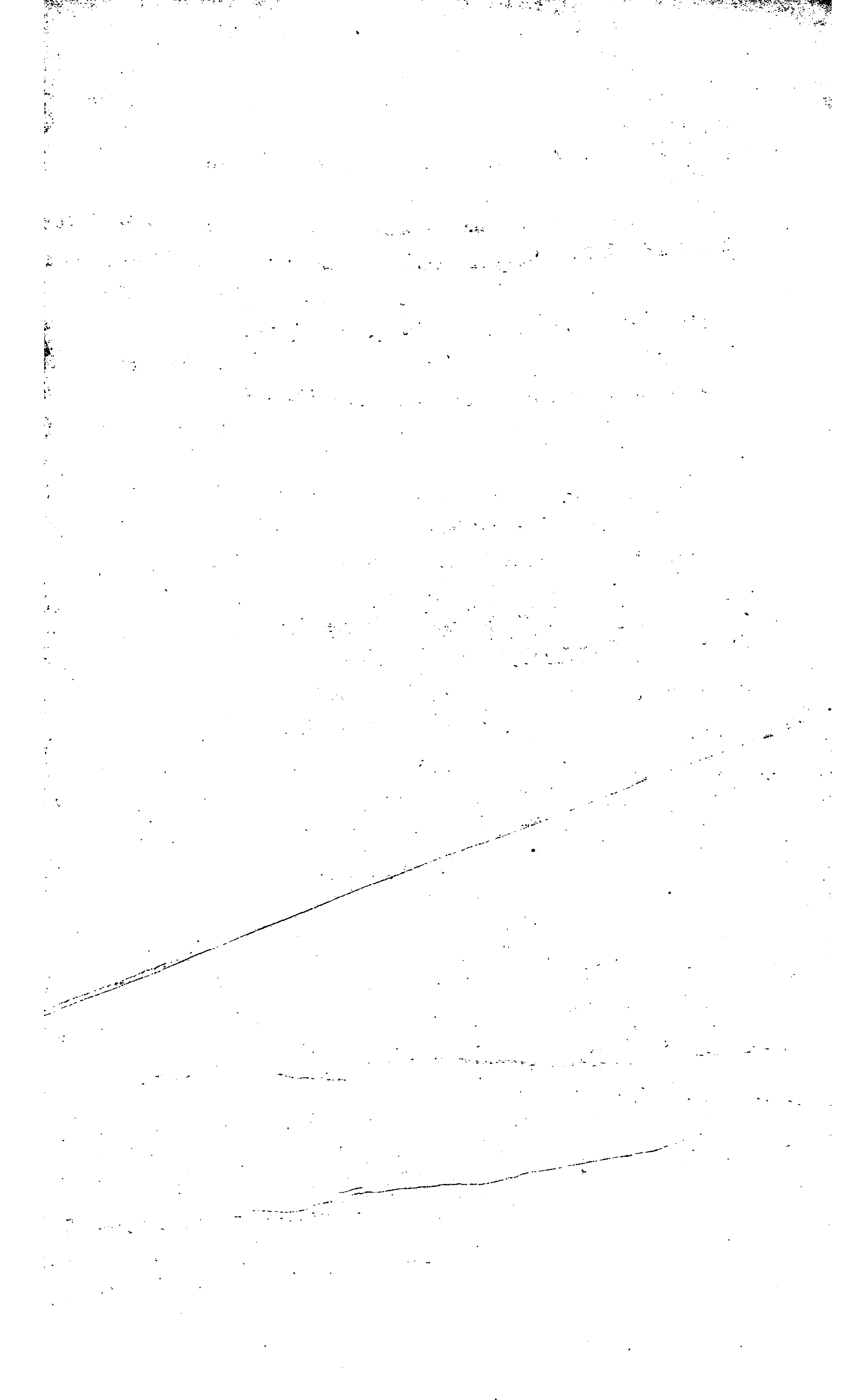
(55) P. Oxy. 1405 = Lewis, P 183.

(٥٧) عن ظاهرة هروب الفلاحين فى مصر فى عصر الرومان أنظر : ابو اليسر فرح : الدولة والفرد فى مصر (؟). عين للدراسات والبحوث الأنسانية والأجتماعية، ١٩٩٤ خاصة صفحات ١٦٠ ـ ١٦٤.

(58) B. G. U 372 = W. Chrest, 19, Lewis 183.

وهناك ترجمة لهذا الغرض فى :

N. Lewis and Reinhold, op cit, vol. II, PP 374 - 5.



الفصل الثامن
العدالة المتباطئة والبيروقراطية المتكاسلة

تقول الأساطير المصرية أن مينا موحد القطرين عندما فكر فى تأسيس الدولة المتحدة اهداه تحوت رب القوانين (والذى عادلة الاغريق بهرميس واضع القوانين فى الاساطيرالأغريقية) مجموعة القوانين التى هى اساس القانون المصرى. ولو تركنا جانب الاساطير، فهناك ادلة تاريخية واضحة أن مبادىء القانون والعدالة وضعت لبناتها الأولى مع تأسيس أول حكومة مركزية فى العالم القديم، فقد وضعت مجموعة من القوانين سجلت فى الواح، كما كان هناك نظام راسخ للقضاء قبل أن يعرف الرومان القانون. ولقد كان من بين الفراعنة من تفقة فى القانون حتى غطت شهرتة كمشرع على شهرتة كفرعون، وعلى راس هؤلاء الفراعنة ـ الفقهاء بوخوريس مؤسس الاسرة الرابعة والعشرين والذى حكم ست سنوات (من ٧١٨ ق.م ـ ٧١٢ ق.م) والذى اعتبره ديودوروس الصقلى واحد من اشهر فقهاء القانون فى العالم القديم والذى من قوانينه إستمد الأغريق قوانين التعاقد، ولقد إستمر الفراعنة المتأخرون فى تنقيح قوانين بوخوريس والاضافة إليها، فقد قام الفرعون أمرنوس أو آمرنوث (نفيريت بالمصرية) مؤسس الاسرة الثامنة والعشرين بأدخال تعديلات على موسوعة بوخوريس عام ٤٠٥ ق.م، ومن المعروف أن المشرع الأغريقى سولون استلهم من موسوعة بوخوريس قانونه الشهير الذى حظر فيه رهن البدن[١]. وبمرور الايام ازدادت موسوعة بوخوريس رسوخا حتى أصبحت أم القوانين فى الشرق والغرب على السواء، فمنها استلهم الأغريق قوانينهم، ومن قوانين الأغريق إستلهم الرومان القانون الذى برعوا وتفننوا فيه وتفوقوا فيه على أى شىء أخر على نحو ما ذكر أمير الشعراء الرومان فرجيل فى مستهل إنيادتة .... ولما ورث البطالمة عرش الفراعنة أبقوا على موسوعة قوانين بوخوريس لتطبق فى المحاكم المصرية ولقد استمر العمل بها حتى بعد الفتح الرومانى لمصر بزمن طويل ولم يلغ إلا فى عام ٢١٢ ميلادية عندما أصدر الأمبراطور كاراكالا قانونة

الذى منح فية الجنسية الرومانية لجميع سكان الأمبراطورية الرومانية، وبذلك أصبح القانون الرومانى هو سيد القوانين فى مصر .صحيح[٢] لم يصل الى أيدينا النصوص الكاملة لموسوعة بوخوريس القانونية ولكن امكن لفقهاء تاريخ القانون إستنباط بعض مواده من خلال ما كتبه المؤرخون القدامى من أمثال هيرودوت وديودوروس الصقلى ومن خلال ما اكتشف من برديات قانونية فى مصر . وقد شهد ديودوروس الصقلى ببراعة المصريين كفقهاء للقانون قبل مولد القانون الرومانى بزمن طويل [٣]

اننا لا ندرى عما اذا كان مؤرخ الرومان الأول تاكيتوس على علم بذلك أم أنة لم يكن يعرف شيئا عن تاريخ القانون المصرى إلا أنة بأسلوبة المستفز الذى عكس نظرة الأستعلاء العنصرى الرومانية والتى نظرت بأحتقار لمصر وشعبها وانكرت عليها مساهمتها فى وضع أساس القانون والشريعة اذ كتب يقول :

Aegyptum Copiasque quibus Coerceretur, iam inde: a divo Augusto equites Romani Obtinent loco regum :ita Visum expedire provinciam aditu difficilem, annonae Fecundam, Superstitione ac lascivia discordem et mobilem lnsciam Legum lgnaram magistratum domi retinere

« فمنذ ايام أغسطس المؤله تولى مصر والقوات اللازمة لأخضاعها، فرسان رومان فى منزلة الملوك وهكذا رأى من المصلحة أن يضع تحت سيطرته (المباشرة) ولاية عسيرة المدخل، وفيرة الغلال، متنافرة الأهواء، سريعة الهياج لايمانها بالخرافات، وميلها للفوضى، جاهلة بالقوانين ولادراية لها بالحكام[٤].

كان الأمبراطور الرومانى يتربع بحكم منصبه على رأس السلطة القضائية العليا فى الأمبراطورية الرومانية، فقد كان الأمبراطور هو ظل جوبتر- أن لم يكن تجسيداً له- على الأرض، بينما كان الوالى هو ظل الأمبراطور فى الولاية- وكان المواطنون الرومان فى كل أنحاء الأمبراطورية الرومانية يتمتعون بحق اللجوء الى الأمبراطور فى الحالات القضائية الكبرى خاصة القضايا الجنائية من الدرجة الأولى وبعض الحالات فى القضايا المدنية التى تزيد قيمة التقاضى فيها عن مبلغ معين، أما رعايا الأمبراطورية من الشعوب المقهورة فقد كان متاحاً لهم- الا فى حالات استثنائية قليلة- اللجوء الى الجهاز القضائى الذى أقامة الرومان فى كل ولاية من ولايات الأمبراطورية والذى كان يترأسه الوالى، غير أنه

كان يتوجب على الوالى أن يخطر السلطة القضائية العليا فى روما بالقضايا التى نظرها للأسترشاد برأى الأمبراطور .

وكما قلنا كان الوالى على راس الجهاز القضائى فى الولاية ، وكان يساعده ديوان القضاء الذى يعج بكبار موظفى الأدارة الذى كان لهم باع طويل فى نظر العديد من القضايا ويتمتعون بخيره طويلة فى تطبيق القوانين المدنية ، وقد أمكن التعرف على القاب هؤلاء الموظفين مثل اليوريديكوس Juridicus (أى الناطق بالقانون) ومثل الأرخيديكاستيس Archidikastes (كبير القضاة) ومثل الأكسيجيت Exegetes (المفسر او المستشار القانونى) والأديوس لوجوس Idios logos (مدير الحسابات الطارئة ومدير الأوقاف) والديويكيتيس Dioiketes (مراقب الحسابات العامة) ، غير أن معلوماتنا عن حدود اختصاصات كل منهم غير واضحة ، وفى أغلب الحالات متفرقة بحيث تتركنا فى حيره غير عارفين بالخط الفاصل بين إختصاصات كل منهم فى مجال القضاء . وعندما ينتقل الوالى كل عام فى جولته التفقدية للأقاليم وتراس جلسات المحكمة كان يصحبه واحد او اكثر من هؤلاء الموظفين الذين سبق ذكرهم . وفى خلال جولته التى لم تكن تتعدى منف أو إقليم ارسينوى كان على كبار موظفى الأقاليم ان يأتوا اليه ليقدموا اليه تقاريرهم ودفاترهم ، وقلما إتسع وقت الوالى لينظر فى القضايا التى يحيلها اليه رؤساء القطاعات الثلاث أى رؤساء الأبستراتيجيات - وهم من كبار الموظفين الرومان - مشفوعة بطلبات الأستئناف ، أنما نظراً لضيق الوقت كان ينظر فى أكثرها إلحاحاً وتعقيدا فقط ، وهذا يعنى أن شريحة ضئيلة من الناس هى التى أسعدها الحظ بالأتصال بالرجل الأول الذى يجلس على قمة الجهاز القضائى فى ولايته .

وخلاصة الأمر أن مفهوم التقاضى عند الناس كان هو اللجوء إلى محكمة حاكم الأقليم او الأستراتيجوس ، وإذا ما حدث وأن تقدم مظلوم بشكوى إلى الأمبراطور أو الوالى أو الأبستراتيجوس فأن كل واحد يحيلها الى السلطة الأدنى منه ومعها تأشيرة التحويل لتنتهى فى النهاية عند حاكم الأقليم . والذى كان فى حالات كثيرة نظراً لمشغولياته يحيلها بدورة الى نائبة الكاتب الملكى ، والذى كان بدوره يحيلها الى كاتب القرية أو المدينة مشفوعة بتأشيرة تفيد « النظر والأفادة » .

وفى تعليماته الى وزيرة يقول أحد الفراعنة : « احكم بالعدل ولا تفرق بين الرجل الذى تعرفه والرجل الذى لا تعرفه ، بين الرجل القريب منك والرجل

البعيد عنك[٥] فقد كان من حق اى موظف صغير او كبير ، سوء فى حكومة الأقاليم أم فى الحكومة المركزية أن يتحول الى قاضى وينظر فى شكوى المظلوم على الفور ، حتى يحس الفقير بأنه على قدم وساق مع القوى وصاحب الجاه . كان المصريون منذ ايام الدولة القديمة يطلقون على المحكمة إسم بيت الحقيقة (قن بيت) ولم يكن للقانون المصرى نصوص ثابته كالقانون الرومانى ، إنما يترك القاضى لضميره . وهنا تقع المرونة فى النظام القضائى المصرى وفى نفس الوقت توجد نقطة الضعف ، وذلك لإختلاف الحس والعاطفة بين قاضى وآخر ، كما أن ميزان العدالة كان يميل نحو الذى ينجح فى أثارة عاطفة القاضى سواء بالبلاغة والبيان أم بالا لآعيب والبهتان[٦] ، كما أن طريق التقاضى كان طويلا وملىء بالمصاعب والإجراءات . ففى أحد نقوش منف عرفنا أن أحدى قضايا الميراث التى عثر على وثائقها فى بردية ولبور Wilbour Papyrus والتى ترجع الى عصر الفرعون رمسيس الخامس (حوالى ١١٥٥ ق . م) كانت تنظر فى قضية رفعها رجل اسم نيشى منذ مائة سنة سبقت وحول ميراث يرجع أصوله الى اربع قرون مضت ، لكنها ظلت تتداول فى المحاكم من محكمة درجة أولى إلى محكمة أدنى الى المحكمة العليا فى عاصمة رمسيس الثانى بررعمسيس ، والورثة يتابعون القضية ويقدمون الشهود الذين كان من بينهم شخصيات بارزة وكهنة ، وسوقة ، ونسوة حتى حصل أحد الأحفاد واسمه موسى على حقه وسجله مفاخرا على جدران مقبرته فى سقارة كأحد إنجازته الكبرى فى الحياة الدنيا[٧] لأن « **العدالة هبه من الرب يعطيها لمن يسعى اليها** » ، وأنه لن يضيع حق مادام وراءه مطالب .

ومن خلال الوثائق القليلة نعرف أن أكبر العقوبات التى تصل الى حد الأعدام لا تنظرها إلا محكمة يرأسها الوزير ، وأن كبرى الجرائم هى التى كانت تمس أمن الدولة أو حرمة المعابد ، أما العقوبات فى الجرائم الأخرى فقد تدرجت من الجلد مائة جلدة وأحداث خمسة جروح بالجسم الى جدع الأنف وقطع الأذنين والنفى الى العريش (Tjel) ، وفى عصر حور محب دونت الجرائم ونوع العقوبة والتى تضمنت الى جانب العقوبات السابقة مصادرة الممتلكات والأشغال الشاقة المؤبدة فى المشروعات العامة أو المعابد ؛ وكان هذا بديلا عن الغرامة المالية فى بلد ظل يستخدم نظام المقايضة حتى فى عصر الرومان . وعموما عرفنا الكثير عن نظام التقاضى بين المصريين من نقوش مقبرة موسى ، وخرجنا بصورة واضحة

هى أن النظام القضائى كان متاحاً للجميع . حيث كان من حق اى مصرى ان يلجأ الى القضاء على أمل الحصول على حقه وإن خيب حكم المحكمة اماله . فقد كانت الثقة فى العدالة محفورة فى ضمائر المصريين لأن القاعدة الأساسية فى القانون المصرى كانت العدالة والنزاهة ولهذا جاءت تعليمات الوزير ييبى ناخت تقول : **إياك وان تصدر حكما مختلا لأن الرب يمقت السلوك المنحاز احكم بالعدل ولاتفرق بين الرجل الذى تعرفه والرجل الذى لاتعرفه ، بين الرجل القريب منك والرجل البعيد عنك**(٩) .

ولقد استفاد الأغريق قبل أز يستوطنوا مصر وبعد استيطانهم لها من هذه الخبرة القانونية العريقة ، كما استفاد المصريون من خبرة القانون الأغريقى خاصة فيما يختص بالإجراءات والمرافعات ، فاذا ما جاء زمن الرومان كان القانون واجراءات التقاضى ما هى إلا تطور الخبرة القانونية فى هذا البلد ، والتى كانت وليدة المزج بين الماضى العتيق والحاضر الحديث ، بين القانون المصرى والقانون الأغريقى ثم أضيف الى هذا المزيج القانون الرومانى باجراءاته ونصوصه المدونة مما أحدث أحيانا قضية «تنازع القوانين» إذ اعتبر القانون الرومانى أن مصطلح مصرى يعنى كل سكان مصر فيما عدا الموطنون الرومان ، ومواطنى المدن الأغريقية شبه المستقلة . كما كان لليهود وضع قانونى خاص فقد أستمر القانون الرومانى زمنا طويلا وهو ينظر الى الأجانب بأنهم أعداء الرومان ، ومن ثم حرمهم من الأستفادة من نظمه ، لأنهم كانوا يعتبرون هذا القانون خاصا بهم وحدهم حتى صدر دستور كاراكالا عام ٢١٢ ميلادية غير أنه منذ مجىء الرومان بدأت روح القانون الرومانى تظهر فى العقود والمعاملات كما سبق أن لاحظنا . ومن ثم قسم الرومان سكان مصر الى فئات ، وكل فئة تعيش فى ظل دستورها الذى إرتضته . وعندما تشير السلطة الرومانية الى القانون المصرى فأنها كانت تعنى مجموعة القوانين والأعراف المعمول بها بين المصريين ، بعضها متوارث عن الأجداد وبعضها حديث وفد مع الأغريق وهو الذى عرف فيما بعد بالقانون الأغريقو مصرى Graeco- Egyptian أو القانون السكندرى ، ثم ازداد هذا القانون اتساعا بأستيعاب روح القانون الرومانى وإجراءاته حتى أصبح أفضل القوانين والنموذج الأمثل لها(١٠) والذى استمد منه جستنيان موسوعته فى القرن السادس الميلادى .

وفى تصورهم لمملكتهم المقدونية فى مصر ، إستن الفراعنة - البطالمة أول الأمر قاعدة أرسو عليها نظامهم : هى جعل مصر ذات عنصرين سكانيين مختلفين : العنصر المقدونى - الأغريقى ، والعنصر المصرى ، وحرصوا على منع المزج بين العنصرين ولذلك وضعوا نظاما قضائيا يقوم على الفصل بين الجهاز القضائى المصرى . والجهاز القضائى الأغريقى وذلك بأنشاء محاكم مدنية منفصلة لكل عنصر من عنصرى الأمة . فالمحاكم المصرية - أو بيت الحق - كان يفصل فيها قضاة الشعب ، وتتم إجراءات إقامة الدعوى فيها ، والمرافعة والدفاع وشهادة الشهود وأخيرا منطوق الحكم - باللغه المصرية ، وتحفظ الأحكام فى سجلات مصرية خاصة . أما المحاكم الأغريقية فكانت متنقلة تنتقل من تجمع إغريقى الى تجمع آخر حسب تفرقهم فى البلاد . غير أن هذين الجهازين القضائيين لم يكونا مغلقين تماما فى وجه أى متقاضى من العنصرين ، فقد ترك للمتقاضى مصرياً كان أم إغريقيا حق اختيار نوع القضاء الذى يحتكم اليه ولم تكن لغة المتقاضى حائلا ، فقد كان هناك مترجمون متواجدون فى المحاكم على إستعداد لتقديم خدماتهم .

وعندما جاء الرومان عززوا مبدأ الفصل بين القوميات وذلك بجعل لغة العقد موضوع التقاضى هى التى تحدد نوع المحكمة التى يلجأ اليها المتقاضى ، فأذا كان الخلاف بين إغريق لجأوا الى المحكمة الأغريقية وطبقا للقوانين الأغريقية ، أما أذا كان الخلاف بين مصريين لجأوا إلى احدى بيوت الحقيقة وطبقا للقانون والاجراءات المصرية ، أما إذا حدث وكان الخلاف بين مصرى واغريقى أو أغريقى ومصرى فعلى المدعى أن يلجأ الى محكمة المدعى علية طبقا لقانون الاجراءات الرومانى Actor Sequitur Forum rei وبشرط لا يجوز رفع الدعوى مرتين فى محكمتين مختلفتين بشأن موضوع واحد عملا بالقاعدة الرومانية:[١١] bis de eadem re ne sit actio إلا إذا أتفق الطرفان على نوع القضاء التى يلجأون إليها عملا بالمبدأ الرومانى أن الدعوى لا تولد من الاتفاق البين وأن العقد ملزم للمتعاقدين بمجرد الاتفاق والتراضى[١٢] ex nudo pacto actio non nascitur .

وقرب منتصف القرن الأول الميلادى الغى الرومان القرار البطلمى بالفصل بين المتخاصمين بدمج المحكمتين فى محكمة مختلطة واحدة

يكون لغه المرافعات ومنطوق الحكم فيها باليونانية مع إحتفاظ المصريين بلغتهم القومية الأصلية . وبالتالى بدأ المصريون يتعودون على الأجراءات والمصطلحات القانونية الأغريقية سواء بالترجمة أو عن طريق المحامين مما ساعد على دمج النظامين القضائيين دون استيعاب أحدهما للآخر ، وكانت النتيجة مولد قانون قوى ينافس القانون الرومانى ذاته ، بل ان كثيرا من الرومان انفسهم هربوا من الأجراءات الرومانية وفضلوا بالتحايل رفع قضاياهم أمام محاكم سكندرية كما نلحظ فى الوثائق القانونية المصرية من العصر الرومانى خاصة فى قضايا الزواج والميراث(١٣) . أما الرومان فكانوا يلجأون الى القانون الرومانى واليهود الى الشريعة الموسوية(١٤) .

كان الجهاز القضائى فى الولاية أهم أجهزة السلطة الرومانية والذى يتمثل فى جهاز الأدعاء ، فأذا كان صاحب الدعوى فى القضية رجلا عاديا يترك له حق إقامة الدعوى من عدمه سواء يقيمها بنفسه أو من خلال وكيله القضائى ، وكانت الخطوة الأولى تبدأ بتقديم شكوى فى شكل خطاب الى إحدى أجهزة السلطة فى أغلب الأحوال الى الاستراتيجوس - حاكم الأقليم - أو إذا لزم الأمر إلى من هو أعلى منه مرتبة وهو حاكم القطاع أو الأبيستراتيجوس الرومانى ، إذ كان لكليهما سلطة قضائية بحكم المنصب ex officio تجيز لهما الفصل فى قضايا الأعتداء على النفس أو المال ، وكانت الطلبات عادة تشفع بعبارات الأستنجاد وطلب الأنصاف : «حتى استمتع بالعدل والأنصاف على يديكم» . والبعض الآخر يرجو إدراج القضية فى قائمة القضايا التى سوف ينظرها الوالى فى محكمته السنوية وكان ذلك أمل واه لأن الوالى كان فى الغالب لا ينظر إلا فى قضايا الدرجة الأولى وأمن الدولة ، والمسائل القانونية المعقدة . التى لم يسبق لها مثيل وفى حاجة الى فتوى قانونية تصبح سابقة فى المستقبل يسير على نهجها سائر القضاة . واغلب الظن أن الوالى لم يكن يطلع على كل الشكاوى إنما كان يقوم بذلك هيئة موظفى ديوانه فى الأسكندرية ، وبعد عدة إجراءات روتينية طويلة تحيل هيئة ديوان الوالى الى الشكوى إما إلى الوالى إذا كانت تستحق النظر أو إلى إحدى المحاكم الصغرى المختصة . وفى أحيان أخرى تحال الشكوى إلى حاكم الأقليم المختص مذيلة برجاء النظر

والأفادة ، وفى أحيان اخرى تحال إلى الأبيستراتجوس أو إلى محكمة الوالى ذاته إذا كان أصحابها من ذوى المراكز أو إذا كان موضوعها يتعلق بالصالح العام وهذا نموذج لهذا النوع من الألتماسات :

«إلى تيون المسمى ايضا سكو [....] حاكم قسمى ثمستيس وبوليمون فى إقليم ارسينوى من كرونيون بن باكبكس، ومارون بن كرونيون ومارون بن مارون وبانيسيس بن مارسيسوخوس وبانيسيس بن اونوفريس وبانيسيس بن [....] والستة جميعهم معفون [أى من ضريبة الرأس والخدمة **الالزامية] كحق من حقوقهم فهم كهنة المعبد الشهير فى تبتونيس فى قسم بوليمون . ان لنا** قضية **ضد كرونيون بن سابينوس للتعديات التى ارتكبها فى حقنا والتى سوف نعددها بالتفصيل فى الوقت المحدد . اننا نلتمس ان تخطره عن طريق احد مساعديك ليمثل امام المحكمة الميمونة والتى سوف يعقدها والينا عظيم المجد باكتوميوس ماجنوس . انا كرونيون بن باكبكس قدمت هذا ، انا مارون بن كرونيون اشتركت فى تقديمها . انا ـ بانيسيس بن مارسيسوخوس شاركت فى تقديمها ، انا بانيسيس بن اونوفريس، قد شاركت فى تقديمها ...**(١٥) .

كان على المتهم الذى ينتظر المحاكمة أن يقدم ضمانات مثل الكفالة فى النظام القضائى المعاصر لكى تضمن المحكمة ظهوره ومثوله أمامها عندما تحدد الجلسة لنظر القضية ، أما إذا تخلف المتهم عن دفع الكفالة أو عجز عن دفعها فأنه يبقى فى السجن رهن المحاكمة ، وكان من حق حاكم الأقليم أو من ينوب عنه أصدار أمر مثول أو إستدعاء أمام المحكمة . وهناك العديد طلبات الحضور والأستدعاء عبارة عن أوامر صادرة الى الشرطة المعينة بصيغة موجزة وفى أغلب الأحيان ثابتة حتى أننا نشك فى أنه كان لدى ديوان الوالى صيغ جاهزة وكل ما يفعله موظفو الديوان هو ملىء الطلبات ، على النحو التالى :

«الى رئيس الشرطة فى تامبيتى . ارسل هاتريس بن هاريويس وحوروس بن بلليس وبسن ـ آمونيس بن باوسيريس [ومحل إقامتهم] فى سيفو ، وذلك بناءً على الشكوى المقدمة من فيلينوس(١٦) . ١٨ أمشير [١٢ فبراير] .

وكما كان حاكم الأقليم فى مصر الفرعونية هو الذى يترأس المحكمة ، كان حاكم الأقليم (الاستراتيجوس) هو الذى يتراسها زمن الرومان ، ويمثل الخصوم ويدلى الشهود بأقوالهم وتقدم العقود الموثقة ، وتتلى بعض مواد القانون وتطبق سوابق قانونية ، وكل ذلك يدون فى محاضر الجلسة ، وبعد

ان يستمع حاكم الأقليم للمرافعة والدفاع ، يصدر فى النهاية حكمه وعلى نفس النظام سارت محكمة الوالى . اما إذا وجد حاكم الأقليم ان القضية معقدة وفوق قدرته فانه فى هذه الحالة يحيلها معها كل وثائقها إلى الأبستراتيجوس أو حاكم القطاع الذى اما يفصل فيها او يحيلها إلى الوالى . وفى بعض القضايا الهامة كان حاكم الأقليم يحيل القضية مباشرة إلى وإلى مصر دون المرور على حاكم القطاع فبعد أن أستمع الاستراتيجوس إلى أطراف النزاع فى إحدى القضايا جاء قراره كالتالى :

«إذا كنت تدعى ان صاحب العزة الابيستراتيجوس قد نظر قضية مماثلة فانى احيل هذا الموضوع برمته اليه لكى يفصل فيه بنفسه»[١٧] .

وفى نهاية محاكمة اخرى أصدر الاستراتيجوس أمراً إلى رئيس الشرطة فى إحدى القرى جاء فيه : **على المدعى عليها ان يودعا كفالة لديك حتى يمثلوا امام صاحب العزة الأبستراتيجوس عندما ينظر فى الأمر**[١٨] .

ولم يكن حكم محكمة الاستراتيجوس نهائياً لأنه كان قابلاً للطعن والنقض إذا ماثبت أن منطوق الحكم قد شابة الخطأ ولم يجانبه الصواب ومن ثم تحال القضية بكل أوراقها إلى المحكمة الأعلى التى يتراسها حاكم القطاع الرومانى ، ولقد كانت السلطة القضائية المخولة لحاكم القطاع (الأبستراتيجوس) والذى كان فى درجة نائب الوالى ، وهو رومانى ويتمتع بالأمبريوم الرومانى المستمد من الأمبريوم المؤقت الذى يحكم به الوالى وهذا الأخير مستمد من الأمبريوم الأمبراطورى مباشرة ، غير أن أحكام محكمة الأبستراتيجوس كانت هى الأخرى قابلة للطعن والنقض امام محكمة الوالى ، كما أن حاكم القطاع كان يحيل القضية المعقدة برمتها الى الوالى الذى هو على رأس الجهاز القضائى فى الولاية إذ ذكرت أحدى الوثائق مايلى :

«من محاضر جلسات محكمة صاحب العزة فيديوس فاستوس حاكم القطاع وبعد الأستجواب تداول فاوستوس مع مستشاريه على المنصة ووجه كلامه الى هاربوكراتيون إستراتيجوس قسمى ثمستيس وبوليمون قائلا : في ضوء تحقيقاتى وتعليمات والينا عظيم الشهرة فأن القرار يجب أن يصدر منه ، وله سوف أكشف كل الخطوات التى قمت بها[١٩] .

ولم يكن تحويل أى قضية الى محكمة الوالى يعنى أن الوالى سوف ينظرها فعلاً من بين آلاف القضايا ، انما يترك ذلك للظروف وللوساطة ، رغم ذلك

يبقى الأمل يراود خيال المتقاضى فقيرا كان أم غنيا ، وجيها كان أم مغمورا ، غير أن فرصة الرجل الثرى كانت احسن بكثير من فرصة الرجل المعدم ، فالغنى فى قدرته تحمل نفقات القضية وتكاليف السفر والاقامة فى الاسكندرية لمتابعة القضية ، وتحمل نفقات الوكيل القضائى الذى يساعده فى الجرى وراء القضية فى دهاليز ديوان الوالى ، كل هذا يعطيه فرصة اكبر فى عرض قضيته خلال الأيام القليلة المعدودة التى يقضيها الوالى كل عام ليعقد محكمته فى احد عواصم الأقاليم ، والتى تكون مكدسة بمئات القضايا وسعيد الحظ هو الذى يقترب من الوالى ويسلمه شكواه يداً بيد مثلما فعل كاتب ذلك النقش الذى يرجع الى نهاية القرن الأول الميلادى والذى تفاخر كاتبه بأنه قد تمكن من الأقتراب من الوالى ماركوس ميتيوس وهو يمر وناوله شكواه فقبلها منه وناولها بدوره الى كلاوديوس جيمينوس الأديوس لوجوس لكى يحقق فيها بنفسه[٢٠] وبالفعل نظر هذه القضية واصدر حكمه فيها بنفسه . وحالة مشابهة أخرى نجدها فى إحدى وثائق أو كسيرينخوس التى ترجع الى اواخر القرن الثالث الميلادى تحكى عن رجل كان له وكيل قضائى إسمه نمسيانوس ، ظل ينتظر الوالى فى جولته السنوية فى الأقاليم بما فى ذلك مدينة اوكسيرينخوس أسابيع قبل بدء انعقاد المحكمة .وذكر كيف أنه حاول عدة مرات أن يعرض قضيته وفشل ، فى المحاولة الأولى قيل له أن يأتى يوم نظر القضية ، ولما جاء فى ذلك اليوم وجده يوم عطله والمحكمة لا تنعقد أيام العطلات ، وفى اليوم التالى جلس فى قاعة المحكمة غير أن الحاجب أعلن أن الوالى سوف يخصص ذلك اليوم لأستقبال الوفود وللنظر فى بعض الأمور العاجلة ، غير أن نمسيانوس لم يفقد الأمل ففى ذات يوم لمح الوالى جالسا تحت أيكة فى حديقة قصره فدنا منه وتحدث اليه عن قضيته فطلب منه الوالى أن يقدم شكواه كتابة ففعل وسجلت الدعوى ، وتم الفصل فيها فى الوقت المناسب[٢١] .

لقد كانت فرصة الرجل الفقير - كما كان الحال أيام حكم الفراعنة - أقل بكثير من فرصة صاحب الجاه والمال فى عرض قضيته خاصة اذا كان يسكن أعماق ريف الصعيد ، فقد كان عليه أن ينتظر شهورا طويلة قبل أن يعلن عن عقد محكمة الوالى السنوية ومكانها . ففى كل عام ينتقل

الوالى وديوانه الى عاصمة اقليم سواء فى منف أو أرسينوى (ومرة اختار احد الولاة مدينة بعيدة فى أعماق صعيد مصر هى نفط Coptos) فيأواخر شهر يناير ومطلع فبراير وتستغرق زيارته التفقدية شهرين او ثلاثة حتى ينتهى من مراجعة الدفاتر الحسابية وحل المعضلات الادارية فى كافة اقاليم مصر العليا التى تمتد من منف حتى حدود مصر الجنوبية مع النوبة ، وينتهى من نظر القضايا المتراكمة ويصدر الفتاوى القانونية العاجلة . لأن موسم الصيف يأتى مبكرا فى الصعيد وكذلك موعد الاستعداد للحصاد فقد كان الوالى يحرص على الا تطول اقامته ، خاصة قبل شهر يونيو حيث يبدأ حظر ركوب النيل على الفرعون (أى الأمبراطور الرومانى) أو من يمثله حتى شهر اكتوبر (من بؤونه حتى بابه) فأن عدد القضايا التى يتمكن من الفصل فيها كان محدودا بالنسبة للحجم الكبير من القضايا التى كانت تنتظره للفصل فيها . فمثلا رفع رجل دعوى أمام محكمة الوالى نأعطيت رقم ١٠٠٩ وهناك وثيقة بردية محفوظة فى جامعة ييل Yale أن الوالى عندما كان يعقد فى شهر برمهات (مارس) عام ٢٠٩ ميلادية محكمته فى ارسينوى تم الفصل فى ١٨٠٤ قضية[٢٢] فى مدة لم تزد عن يومين فقط أى انه كان ينظر فى ما بين ٧٠٠ الى ٧٥٠ قضية فى اليوم الواحد ، ولو افترضنا جدلا أن ديوان الوالى كان يفتح طوال عشر ساعات فى اليوم وهو الحد الأقصى المسموح به لعقد جلسات المحكمة طبقا للوائح البلديات الرومانية وهذا يعنى أن كل قضية لم تكن تستغرق أكثر من دقيقة واحده ، ونكاد نتخيل طوابير المتقاضين وذوى الحاجات التى تمتد طويلا أمام باب محكمة الوالى من بزوغ الفجر حتى حلول الظلام أملاً فى الحصول على رقم فى سجل القضايا التى سوف تنظرها المحكمة دون أن يفقد أحد منهم الأمل ، فالحصول على العدل هو الأمل التى يتعلق به المظلوم لآخر دقيقة .

لقد كان المسئولون فى ديوان الوالى يعرفون حجم العمل الذى يقدرون عليه ، ولهذا فقد تعمدوا أن تمر الشكاوى بسلسلة طويلة من الأجراءات الروتينية المتباطئة بحيث لا يصل لمحكمة الوالى إلا النزر اليسير . وكانت أغلب هذه الأجراءات البيروقراطية يقوم بها كتبه متمرسون يفرزون هذه الشكاوى ويعزلون الحالات الاستثنائية التى يرون أنهاجديرة أن تعرض

على الوالى : وعندما تعرض هذه المفروزات على الوالى يقوم بتحويل بعضها إلى مساعديه او الى مجموعة من القضاة ، أو الى مجموعة من القضاة أو المحكمين الذين ينتدبهم لهذا العمل حسب طبيعة القضية ، فاذا كان طرفا القضية او احد اطرافها من الجنود فإن القاضى أو المحكم يكون احدى رتب الجيش العليا ، وأما اذا كان موضوع القضية يتعلق بالدين فيحول الأمر الى احد مساعديه الذين لهم خبرة بهذا الموضوع ، وهكذا دواليك . أما القضايا المستعصية أو ذات الوضع الفريد والتى ليس لها سوابق قانونية ، او القضايا التى تمس الأمن العام أو مصالح الأمبراطور وكانت فى العادة قليلة فأن الوالى كان ينظر فيها بنفسه لأنه كان يعلم أن أحكامه فيها سوف تسجل كسوابق قانونية يحتذى بها ولاة مصر فى المستقبل وتخلد إسمه كما يظهر فى كثير من أوراق البردى . ويحمل الوالى ملفات هذه القضايا التى بلغ بعضها الى رقم ١٨٠٤ معه الى الأسكندرية عند عودته حيث تعكف هيئة مكتبه وخبراء القانون الملحقين بديوانه على دراسة كل قضية وكتابه التوصية المقترحة التى كان كان غالبا يأخذ بها ، ويستغرق ذلك شهرين على الأقل حتى يفرغ من قضايا الموسم . وهناك عدد من القضايا التى نظرها الوالى بنفسه وسجلتها محاضر الجلسات كاملة أو مقتطفات منها خاصة منطوق الحكم الذى يحرص الوالى أن يكون بلغة بلاغية راقية منطقية ومعبرة ومقنعة .وتتنوع القضايا التى كان ينظرها الوالى لتشمل عدة جوانب منها : المنازعات بين المدنيين ورجال القوات الرومانية ، وشئون الجنود المسرحين الذين أصبحوا مواطنين رومان ، شئون الضرائب والمالية العامة ، المنازعات الخاصة بالاعفاء من الخدمة الالزامية المدنية ، حقوق الملكية ، مشروعات الدولة ، جرائم العنف والتدليس والتزوير . وهناك لفافة بردية محفوظة الآن فى المكتبة الوطنية البريطانية بلندن رغم أنها ناقصة ومهلهلة - لكنها تسجل حيثيات الحكم فى إحدى القضايا التى نظرها أحد الولاة عام ٢٥٠ ميلادية فى مدينة أرسينوى وتتكون نصوصها من خمسة أعمدة .بلغت فى مجموعها ١١٤ سطرا ، وتشمل منطوق حكم الوالى فى قضية أقامها أهل الريف ضد سكان عاصمة الاقليم الذين يريدون أن يشاركونهم فى تحمل الوظائف الشرفية وقد سبق الاشارة اليها(٢٤) ونعرض هنا نماذج من وقائع محكمة الوالى فى فترات مختلفة من عصر الرومان :

[الوالى سرفيوس سولبكيوس سيميليس]
العام الخامس عشر من حكم المؤله تراجان
٢٢ برمهات [٢١ مارس عام ١١٢] فى نقراطيس

تقدم ديوسكوروس بن ديوينسوس (من المنصة) وقال :

نحن شقيقان يقومان باداء الخدمة الالزامية ، وانا اطلب ان يعفى واحد منا حتى نستطيع الالتفات الى زرعنا .

- سولبكيوس سيبيليس : هل والدكما على قيد الحياة . وعندما اجابا بالنفى امر باعفاء واحد منهما (٢٥) .

من وقائع فلافيوس تيتيانوس الوالى السابق
العام الثانى عشر من حكم المؤله هادريان بؤونه ٨
[٢ يونيو عام ١٣٣ م] فى محكمة بالسوق العامة .

تقدم انطونيوس بن ابوللونيوس و اقر من خلال محاميه إيسيدوروس الاصغر ان صهره سمبرونيوس قد حرضوه ليختلق شجاراً معه حتى ياخذ إبنته على غير رغبتها . ولقد اصبحت مريضة بسبب الحزن ، وان حاكم القطاع باسوس تفهم حاله فاصدر قراراً بانه لايجوز منع انطونيوس [الزوج] من استردادها [أى زوجته] لو ارادا ان يعيشا معاً ، غير ان ذلك لم يغير من الموقف شيئا لأن سمبرونيوس تجاهل ذلك ، بل تقدم بشكوى متهما اياى بالعنف وقد تسلم طلب حضور للمثول [أمام المحكمة] ثم التمس أنطونيوس - اذا تكرم الوالى - الا يفرق بينه وبين زوجته التى تحبه . عندئذ رد ديديموس [محامى الخصم] ان تصرف سمبرونيوس لم يصدر عن هوى لأن انطونيوس سبق وان هدده باتهامه بالمعاشرة المحرمة بين الأب وابنته . وان سمبرونيوس لم يتحمل الأهانه فاستخدم سلطته (الأبوية) التى يمنحها له القانون واقام هذه الدعوى ضد انطونيوس .

واضاف بروباتيانوس نيابة عن انطونيوس قائلا مادام عقد الزواج لم يفسخ فليس للأب سلطة لا على المهر ولا على الأبنة التى اعطاها فى زواج . عندئذ قال تيتيانوس : إن العامل الفاصل هو مع من ترغب المراة المتزوجة ان تعيش ؟ لقد حكمت ووقعت (٢٦) .

هذه القضية مثال جيد لمشكلة تنازع القوانين فى بلد يطبق فية اكثر من قانون فصاحب الدعوى يونانى يطالب محامية تطبيق مواد القانون

الآثينى التى تجعل سلطة الأب على ابنتة أبدية ، حتى بعد زواجها وأن ذهابها لبيت زوجها هو مجرد الأعارة الدائمة التى تجدد مادام الأب لايرى مانعاً ، بينما القانون الرومانى يقر بأنه يمقتضى عقد الزواج تنقل الزوجه من عائلتها الأصلية الى عائلة زوجها وتعتبر فى حكم المية بالنسبه لعائلها الأصلى وتدخل تحت السلطة الأبوية patria potestas لوالد زوجها باعتبارها فى محل الأبنة Ioco Filiae mariti فمن جهة تنقطع كل صلتها برب اسرتها وعشيرتها ، بل تنفصل عن ديانة عائلها الأصلى ، ويترتب على انقطاع إلصلات المذكورة سقوط جميع حقوقها المترتبة على ذلك من إرث ووصاية وقوامة ، بل تصبح شقيقة لأبناء والد الزوج Ioco sorroris ، وبناء على هذا الأعتبار بحق لها أن ترث فى والدزوجها وزوجها ، فالزوج يملك سلطة الأب patria potestas ،ولذلك بحق له استرداد زوجته بل له الحق فى طلاقها وعقابها وبيعها(٢٧) ولقد تصرف الوالى بحكمة سليمان الحكيم فلم يناقض القانون اليونانى ولم يطلب تطبيق القانون الرومانى فى حالة تنازع القوانين ، إنما جعل القرار فى يد الزوجة وهو يعلم مدى رغبتها فى الرجوع الى بيت زوجها فكأنه طبق القانون الرومانى بطريقة ذكية .

* * * * * * * *

من وقائع محكمة موناتيوس [السعيد] العام الثالث عشر من حكم المؤله إيليوس انطونينوس برمودة ٢٢ [١٧أبريل عام ١٥٠ م] .

جلاوكون بن ديونيسوس ، وابو للونيوس بن جلاوكون مثلا امام المحكمة ، وبعد بضعة ملاحظات قال اخيلاءوس المحامى : ليس لدى جلاوكون اى مصادر ثروة[كافية للقيام بالوظائف الشرفية] .وهو يسلم ممتلكاته عندائذ قال موناتيوس : سوف نتحقق من ثروته وهناك قاعدة طالما طبقتها وهى تبدو لى عادلة بالنسبة لحالات الأفراد الذين يسلمون ثرواتهم وهى إذا كان ماقاموا به مقصود به خداع دائنيهم **فان تصرفهم يكون باطلا** (٢٨)

وفى بداية آخرى ترجع الى عصر الأمبراطور كومودوس(٢٩) سجلت وقائع أحدى الجلسات التى ترأسها الوالى ديكيموس فيتوريوس ماكرينوس (١٨١ - ١٨٣ . ميلادية) جاء فيها مايلى :

«قال ماكرينوس لبسائيس : هل انت مسجل فى التعداد ؟ فاجاب من خلال مترجم : لست كذلك . فقال ماكرينوس اين سجلت اسمك إذاً فرد معترفا ، انا لست مسجلا [أى ساقط قيد] لقد مات والداى وانا صغير ولم يكونا قد سجلا اسمى بعد . وبعد مناقشات اخرى قال ماكرينوس هذا امر خطير ، وبعد ان تدوال الأمر مع مستشاريه امر بالقبض على بسائيس [باقى الوثيقة مفقود] .

لقد كان الذين يسعدهم الحظ بالحصول على حكم من محكمة الوالى يتمتعون بعده مزايا ، فالى جانب سرعة التقاضى وتوفير الوقت والمال ، فأن احكام محكمة الوالى نافذة المفعول ولا يجوز الطعن فيها بأعتبار القضية منتهية res iudicata ، لكن من الناحية النظرية لا ينقض أحكام محكمة الوالى إلا محكمة الأمبراطور فى روما ، فلقد راينا انه فى بعض القضايا السياسية الهامة كان الوالى يحيل القضية الى محكمة الأمبراطور فى روما كما راينا فى حالات النزاع بين زعماء السكندريين وزعماء اليهود فى عهد كلاوديوس ، لكن الوصول الى محكمة الأمبراطور كان أمراً فى غاية الصعوبة لكن ليس محالاً ، ففى عهد تراجان تظلم الناس من احكام ومسلك الوالى فيبيوس ماكسيموس [من ١٠٣م الى ١٠٧م] ووصلت الشكوى الى الأمبراطور بطريقة ما فأمر بعزله وتقديمه للمحاكمة وبالتالى فأن جميع الأحكام التى أصدرها اعتبرت باطلة ، غير أن حالة هذا الوالى كانت حالة وحيدة ولم تتكرر . أما الذين لم يسعدهم الحظ بالوصول الى محكمة الوالى ،فقد كانوا يدخلون فى دوامة لا تنتهى ، فألى جانب التلكوء المعتاد من الأجهزة البيروقراطية القضائية فأن عليهم الأنتظار عشرة شهور لحين عقد محكمة الوالى القادمة ، وبعد عقد المحكمة ينتظر المتقاضى شهرين قبل أن يتلقى ردا من الهيئة القضائية عادة ما يكون ردا تقليديا يحيل الموضوع إلى جهة أدنى للنظر وهذا نموذج لأحد هذه الردود :

«فى حيدة تامة سوف ينظر حاكم القطاع [الابستراتيجوس] فى لب قضيتك»(٣٠) او : إذا كان لديك ادلة فقدمها الى الابستراتيجوس وهو سوف يتخذ الخطوات اللازمة(٣١).

وفى بعض الحالات تأتى التعليمات الى الأستراتيجوس [حاكم الأقليم] بأن يقوم بالتحرى والاستفسار، وهى مهمة يلقيها حاكم الأقليم على عاتق نائبه الكاتب الملكى للأقليم، والكاتب الملكى للأقليم يحيلها بدوره الى رئيس الشرطة، وعندما يتلقى حاكم الأقليم الرد يحيله الى رئيسه الابيستراتيجوس أو الى الوالى حسب الحالة قبل أن يحدد الرأى وهى دوامة بيروقراطية تؤدى الى تأخير صدور الحكم.

كان الوالى فى بعض الأحيان يحيل بعض القضايا الى نخبة من أصدقائه amici Praefecti على غرار أصدقاء الأمبراطور amici Principis الذين يثق فيهم للقيام بالفصل بين أطراف النزاع، والذى لاشك فيه أن هؤلاء الأصدقاء ساعدوا فى الأسراع بالاجراءات القضائية، غير أن ذلك لم يكن مضمونا إنما يتوقف على نية الوالى وحزمه وعزمه على عدم ترك قضايا الناس معلقة. ففى نهاية محكمة الوالى سولبكيوس سيميليس الذى عين على اثر عزل الوالى فيبيوس ماكسيموس والتى عقدها عام ١١١ م، علم أن هناك عدداً كثيراً من القضايا لم يفصل فيها فأصدر الأمر التالى:

«إذا كان القضاة الذين أوكلت اليهم ذلك هم المسؤلون فانى سوف أتحفظ عليهم هنا حتى ينتهوا من كل القضايا»(٣٢).

وفى بعض الأحيان يكون التعطيل مقصودا ومحسوباً وسببه المتقاضون أنفسهم كجزء من خطة الدفاع، أو لعذر مقبول مثل انتظار حالة المحصول أو بسبب التخلف عن حضور الجلسة ففى ٥ مسرى [٣ أغسطس] عام ٨٩ ميلادية إستن الوالى ماركوس ميتيوس روفوس قاعدة قانونية جديدة هى: **الأشخاص الذين يدرجون فى قائمة المحكمة ويتخلفون عن الحضور يعلنون بأنهم مطلوبون للحضور مرة أخرى، فأذا تكرر تغيبهم يحاكمون غيابيا**in absentia(٣٣)، غير أن مشكلة تغيب أحد أطراف النزاع عن حضور الجلسات لم تنته بصدور قاعدة روفوس إذ نجد أن الوالى تيتوس باكتوميوس ماجنوس فى عصر ماركوس اوريليوس يعبر عن قلقه وإستيائه وغضبه من استمرار هذه الظاهرة فأصدر حوالى عام ١٨٠ ميلادية قراراً مماثلا حول هذا الموضوع يقول فيه:

«رافعو الدعاوى الذين تلقوا أو يتلقون فيما بعد طلبات حضور أو اخطارات تحمل لهم عبارة هذا الأمر: أمثلوا أمامى فى محكمتى» يعلنون بأنهم

إذا لم يمثلوا خلال عشرة أيام من تسلم الأخطار أو الرد فانه لن ينظر فى طلبهم سواء بالنسبة للاجراءات القانونية او الفصل القضائى أما إذا استجابوا لهذه التعليمات وسجلوا [لدى كاتب الجلسة]. فسوف أنظر فى قضيتهم خلال الأيام العشرة المذكورة [باقى الوثيقة مهلهل][٣٤].

وفى وقائع جلسة عقدت فى عام ٢٥٠ م وردت هذه الملاحظة :

«لقد عرضت القضية أمام الأستراتيجوس وصدر الحكم ضدهم [غيابيا] بعد أن استدعوا ثلاث مرات وتخلفوا عن الحضور[٣٥].

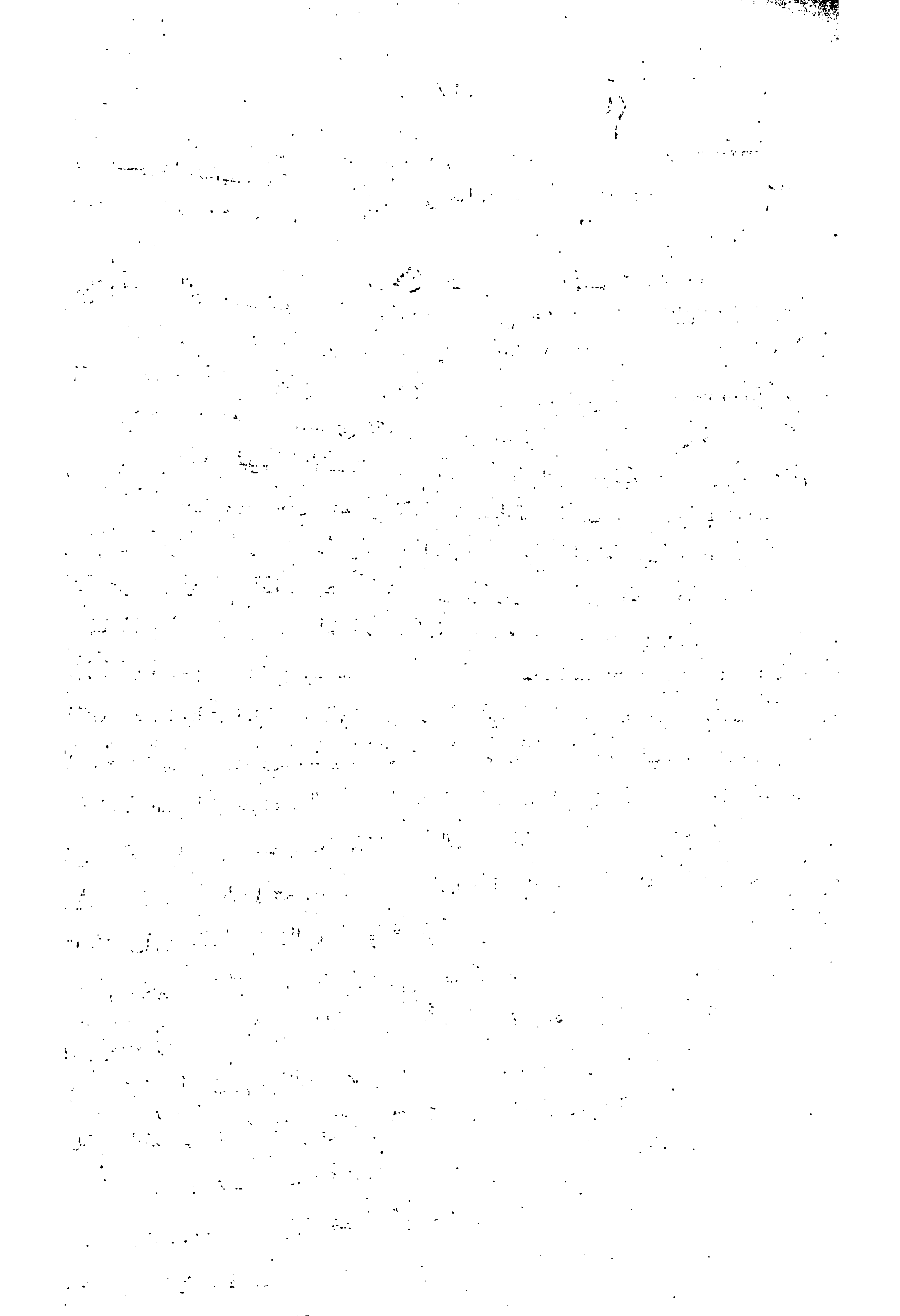
لقد كان حكام الأقاليم حريصين على توخى الدقة فى تنفيذ الأوامر الصادرة اليهم من جانب الوالى خاصة فيما يختص بالقضايا المحولة اليهم للفصل فيها، فهو رئيسهم الأعلى الذى يهابونه، وبقاؤهم فى مناصبهم مرهون برضاه عنهم، إلا أن المتقاضى الذى صدر الحكم لصالحه أو برىء فى ساحة محكمة حاكم الأقليم قد يواجه بمعضلة تعطل تنفيذ الحكم وهو تقاعس السلطات المخولة بتنفيذ الأحكام. فقد رفعت الأمبراطورية يدها تماما عن تحمل مغبة حكم البلاد وأدخلت نظام الخدمة الألزامية الجبرية على القانون لتولى كافة مناصب الأدارة وأصبح الجيش الرومانى متفرغا تماما لشئون الدفاع والحراسة، ولم يكن كتبة القرى الذين تقع عليهم فى النهاية مسئولية تنفيذ الأحكام حريصين على سرعة الأنجاز، فالوظيفة شرفية ويقوم هو بالأنفاق على منصبه من جيبه الخاص، كما أن تنفيذ الحكم يحتاج الى نفقات أضافية، ومن ثم لجأ هؤلاء الموظفون المطحونون الى سلاح المراوغة كما لم تكن تعوزهم الحجج والأعزار لتبرير تقاعسهم عن تنفيذ الأحكام خاصة إذا كان ذلك سوف يلحق بهم ضرراً مالياً، فمثلا إذا صدر حكم باعفاء رجل من الخدمة الالزامية لمنصب معين لأنه عين فيه أصلا من باب الخطأ ويقع اللوم على كاتب القرية، ففى هذه الحالة تقع مسئولية العثور على آخر بديل عليه فأن لم يجد مكانه يتحمل هو وزر هذا المنصب الى جانب وزر منصبه الأصلى، ولهذا كان يتهرب من تنفيذ الأحكام ويدور صاحب الحكم فى دائرة مفرغة. وفى إحدى القضايا صدر حكم محكمة حاكم الأقليم لصالح إمرأة، لكنها ظلت حتى بعد صدور الحكم بعامين تتوسل الى حاكم الأقليم لكى يجبر كاتب القرية على تنفيذ الحكم. وفى حالة ثالثة كان هناك نزاع قضائى

حول تركة ، ولما عرض الأمر على حاكم القطاع ، رأى ضرورة عرض القضية على محكمة الوالى لأن النزاع شمل توجيه تهمة القتل العمد لأم المدعية ، غير أن الأم المتهمة بالقتل ماتت وبقيت ابنتها المدعى عليها وحدها فى ساحة القضاء ، ولما تلقت اخطاراً بالمثول أمام محكمة الوالى فى الأسكندرية ، سافرت اليها ،غير أن المدعى لم يظهر ، وظلت تنتظر حتى ضاقت ذرعا بالبقاء بعيداً عن قريتها فتقدمت إلى الوالى بألتماس تطلب فيه الأذن بالعودة الى موطنها فى اوكسيرينخوس ، فوافق الوالى بشرط أن تعرض قضيتها على حاكم قطاع مصر الوسطى ، وبعد سنوات طويلة نجد حاكم القطاع يحيل القضية برمتها الى حاكم الأقليم لتبدأ الدوامة من جديد(٣٦) .

وبالرغم من وجود مئات من الأوراق البردية التى تتعلق بالمنازعات القضائية والتعديات على النفس وممتلكات الغير ، إلا أن الاوراق البردية الخاصة بالعقوبات على هذه الجنح والجنايات تكاد تكون نادرة . لقد كان الناس عطاشى للحصول على العدل والانصاف ورغم كل العوائق لم يفقدوا الأمل أبداً ، ونلحظ ذلك من عبارات الدعاوى أو الالتماسات التى تنتهى عادة بعبارات تكاد أن تكون ثابتة ، وقلما تغيرت مثل : « **نرفع شكوانا من أجل الحصول على العدل والأنصاف** » كما تكررت عبارات الأستعطاف وطلب الغوث خاصة إذا كانت الشكوى أو الدعوى موجهة الى والى البلاد ، وكان ذلك يطلب فى عبارات عامة غير محددة مثل لكى : « **ينال الجزاء المناسب** » ومن أجل « **إتخاذ اللازم** » . أما بالنسبة للجرائم الكبرى فأذا كان مرتكبوها من الرقيق أو من الاحرار من الطبقات الدنيا فى المجتمع فقد كان يحكم عليهم بالأشغال الشاقة، فى معسكرات الجيش الرومانى النائية ، أو فى المناجم والمحاجر فى صحراء مصر الشرقية وجبال البحر الأحمر . ولقد ترددت فى وثائق البردى كلمة « السجون » والخدمات الألزامية الخاصة بحراستها والضرائب الخاصة بها ، لكننا لا نعرف شيئا عن كيف كانت هذه السجون تدار ولا عن نزلائها . والى جانب عقوبة الأشغال الشاقة والسجن هناك ضريبة الجلد أو القرع بالعصا المتوارثة عن المصريين القدماء ، فهناك حالات أمر القاضى بعقاب المتهمين بالضرب لأثارتهم الفوضى فى المحكمة . وهناك أيضا الغرامات المالية ، لأن أغلب المنازعات التى

نقابلها فى اوراق البردى منازعات على الممتلكات والتى تنتهى عادة بطلب التعويض المناسب عن الخسائر التى حاقت بالمدعى نتيجة لظلم بين وقع عليه أو على ممتلكاته .

وأكثر الجرائم شيوعا هى غش الدولة أو إختلاس المال العام ، وهو أمر كان يغرى المدنيين والعسكريين على حد السواء ، وكان الحكم فى مثل هذه القضايا ينتهى بتغريم المتسبب عن ذلك بمبلغ كبير من المال ، ودفع مكافأة مجزية لمن يبلغ عن حالات الغش والاختلاس ففى إحدى الشكاوى التى رفعها كاهن مصرى كان يقطن سكونوبا يونيسوس حيث مركز الجمارك أبلغ فيها الابستراتيجوس الرومانى يوليوس بترونيانوس عام ١٣٩ ميلادية بأن مأمور نقطة الجمارك واسمه بوليديوكيس يختلس ويزور فى دفاتر الصادرات والواردات وأن لديه نسخة أصلية لهذه الدفاتر ، ويطلب لذلك إجراء فحص وتفتيش على دفاتر مأمور الجمرك لاكتشاف المبالغ التى اختلسها لنفسه مع شريك له . ويقول أنه تعرض للأذى والضرب على يد مأمور الجمرك وعصابته حتى يسلم ما لديه من دفاتر حسابات الواردات ويذكر فى نهاية الشكوى أنه على استعداد لتقديم الأدلة ضد المتهمين حتى « استمتع بكرمك[٣٧] إن هذه العبارة الأخيرة تلمح صراحة الى أن الهدف الذى يبغيه هذا الكاهن ليس سوى مكافأته المستحقة عن الأبلاغ عن جريمة إختلاس المال العام .. إن العدالة المتباطئة هى بمثابة العدالة الغائبة :Justice delayed, Justice ولو عندما يشعر المرء بأن العدالة غائبة فأنه يصاب باليأس والأحباط وعدم الأمان وفقدان الثقة فى السلطة التى تحكمه ، فأذا ما أضيف الى ذلك السخط العام الذى كان يشعر به الناس بسبب ثقل الضرائب وإجحاف الأعمال الألزامية المدنية المجانية التى تقع عليه ، وقيام بعض العناصر بفرض هيمنتها فيما يشبه ظاهرة « الفتوات » خلال العصر العثمانى والتى ترتكب أعمالاً منافية للقانون ومتحدية للسلطة غير القادرة على حماية الناس الذين يكدحون من أجلها بينما هى مشغولة عنهم بأشياء أخرى ، فان الوعاء يكون قد فاض بما فيه ، وعندئذ تبدأ النفوس فى الغليان بفعل الظلم المكبوت ، والذى كان ينفجر من آن لآخر فى شكل أعمال العنف والشغب والعصيان الذى يصل الى حد الثورة على هذه السلطة الغاشمة .



هوامش الفصل الثامن

(1) Diodorus Siculus I, Chapter 93 — 94.
صوفى حسن أبو طالب : مبادىء تاريخ القانون : دار النهضة العربية القاهرة ١٩٥٧ ص ١٨٢ - ١٨٣ ؛ سيد أحمد الناصرى : الأغريق تاريخهم وحضارتهم ، دار النهضة العربية عام ١٩٩٤ ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٢) صوفى أبو طالب : المراجع السابق ص ١٨٣ .

(3) Diodorus Siculus, ibid, 1, 39.

(4) Tacitus, Histories, Book 1, Chapter 11.

(5) T. G. H. James: Pharaoh's People University of Chicago Press (1984) Chapter 3. pp 73 — 97.

(6) op cit, p 78.

(7) ibid, p 94 — 96.

(8) ibid, p 84.

(9) ibid, p 97.

(١٠) عن الاجراءات القانونية فى مصر الرومانية أنظر :-
R. A. Coles: Reports of Proceedings in Papyri, **Papyrologica Bruxellensia**, 4, 1966.

(١١) محمد عبد المنعم بدر : القانون الرومانى ، دار النشر الحديثة ، القاهرة ١٩٣٧ ص ٢٤٨ .

(١٢) نفس المرجع ص ٢٩٥ .

(١٣) سيد أحمد الناصرى : الأمبراطورية الرومانية والعسكر ، الكتاب التذكارى لسعيد عاشور القاهرة ١٩٩٢ ص ٣١ وما بعدها .

(14) N. Lewis, op. cit, p 186 — 187.

(15) P. Tebtunis, 303 (A.D. 180) = Select Papyri, vol II, no 249 (P 174).

(16) P. Oxy, 3130.
لاحظ أن علامات ××× فى آخر الوثيقة ليست سوى تسديد الطلب بحيث لا تترك فرصة للتلاعب بأضافة آخرين الى طلب الحضور أنظر :
Lewis, op. cit p 188 note 3, Chapter 9, (p 227).

(17) S. B. 7601.

(18) P. Oslo, 7.

(19) P. S. I, 1100.

(20) S. E. G XVIII. no 646; N. Lewis, P. 189.

(21) P. Oxy 2343.

(22) P. Yale 61.

(23) cf Lewis, op cit, p 190.

(24) S. B. 7696.

(25) P. S. I 1326.

(26) P. Oxy. 237, col. vii, 19 —29 = Select Papyri, vol. II, no. 258, p 199 = cf N. Lewis, op. cit, P 191 — 192.

(٢٧) أنظر محمد عبد المنعم بدر : المرجع السابق، ص ٦٤ .

(28) P. Rylands, 75, ll, 1-2 = Select Papyri, vol, II. no. 259 (P 200).

(29) S. B. 9050 = Lewis, p 191.

(30) P. Oxy. 2131.

631) P. Wurzb, 9. = Lewis op cit, p 192.

(32) P. Oxy 2754.

(33) P. Hamb 29 = Juristic Papyri 85.

(34) P. Oxy. 3017.

(35) S. B. 7696 (lines 35 — 6).

(36) P. Oxy, 899 and 486 = W. Chrest 361.

(37) P. Amh. 77, II, 1 — 33 = Select Papyri, Vol II, No 282. p 268.

الفصل التاسع

الناس والسلطة الرومانية

وبأستثناء شريحة ضيئلة من أثرياء الأسكندرية وأعيان الأقاليم الذين حاباهم الرومان، فوقفوا الى جانبهم وأصدروا بيانات التأييد لهم خاصة أثناء معاركهم مع اليهود[1]، واجهت السلطة الرومانية - خاصة فى الصعيد - نفس المشكلة التى واجهها ملوك البطالمة من قبل وهى العداء والرفض، فعلى العكس من دلتا النيل المنفتحة كالمروحة على عالم البحر المتوسط، كان الصعيد الطويل الممتد كساق النخلة الباسق منغلقا على نفسه، فكان خزانا للحركات القومية والدينية وكراهية المحتل الأجنبى المتوارثة منذ أيام الهكسوس، كما أن وجود الجبال والصحارى الشاسعة على جانبيه شجعت على التمرد والمقاومة.

ولقد واجه كورنيليوس جاللوس - الوالى الرومانى الأول أول حركة مقاومة قامت فى مدينة هيرونوبوليس Heroonopolis بالقرب من خليج السويس[2]. وقد تمكن جاللوس بنفر قليل من رجاله من سحق هذا التمرد، غير أنه لم يكد عام واحد يمضي على الفتح الرومانى لمصر، حتى هبت طيبة - القلعة الدينية الوطنية الكبرى فى الصعيد - ترفع راية العصيان فى وجه الرومان، عندما وصل جباة الضرائب الجدد.. ولقد بلغ من خطورة هذه الثورة أن هددت الوجود الرومانى فى مصر، ولهذا قام الوالى الرومانى بنفسه بقيادة القوات الرومانية التى استخدمت شراسة غير معتادة لتلقين المصريين دراساً بأن الرومان غير البطالمة، وأنهم أمام امبراطورية جادة وصارمة لاترحم.

ولقد إشتبك الجيش الرومانى فى حرب غير متكافئة مع الثوار المصريين فى معركتين تمكن فيهما من سحق الثوار فى خمسة مناطق هى يوديسيس، (القرنة) وقفط، وطيبة أو ديوسبوليس ميجالى، وأوفيس وأفايون (الكرنك) وكيراميكي (البلات) والمدن الثلاث الأخيرة كانت فى الحقيقة ضواحى للمدينة الأم طيبة.

ولكى يقضوا نهائيا على أى حركة تمرد أو عصيان فى الجنوب عمل الرومان على قطع حبل السرة بين طيبة والنوبة التى كانت تقدم الدعم للثوار على عهد البطالمة، اذ كان النوبيون - أو أهل مروى - يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين لمجد الفراعنة، فضلا عن علاقاتهم الدينية الوطيدة مع كهنة معبد آمون بطيبة فقد كانوا من أشد أتباع هذا المعبود، وينظرون الى الكاهن الأكبر فى معبده نظرة الكاثوليك اليوم الى بابا الفاتيكان. وبنجاح الرومان فى خلق منطقة عازلة عرفت بمنطقة الثلاثين إسخونيوس Triakonta schonios (وهى تعنى بالحساب الحالى مساحة قدرها ٣٣٣ كليو مترا تفصل ما بين الشلال الأول وحتى حدود النوبة) وجعلها منطقة نفوذ لهم وخاضعة لحمايتهم، الى جانب الاجراءات الأخرى - تمكنوا من القضاء على الثورات فى مصر لزمن طويل، غير أن هذا الهدوء ظل كالنار المشتعلة تحت الرماد.

وبسبب كثرة ثوراتهم وتمردهم علي ملوكهم من البطالمة المتأخرين بعضهم نفوه من البلاد وبعضهم قتلوه، وتورط الرومان حينا فى هذا الصراع خاصة عندما واجه يوليوس قيصر ثورة السكندريين عليه عام ٤٨ ق.م وكادوا أن يفتكوا به، فقد اكتسب السكندريون سمعة سيئة في نظر الرومان كشعب مشاغب، هذه الصورة نلسمها في كتابات تاكيتوس مؤرخ الأمبراطورية الأول، بل نلمسها في أشعار فرجيل وهوراتيوس وبروبرتيوس التى تحمل النظرة الاستعلائية التى نظر بها الرومان الى المصريين عامة والى السكندريين خاصة والتى وصلت مداها فى هجائيات جوفينال التى سبق الاشارة اليها، حتى أصبحت هذه الصورة من الثوابت المتوارثة فى الأدب الرومانى، فقد صورت الرسالة التى وجهها ديون كوكيانوس Dio Cocceianus البروسي الملقب بصاحب «الفم الذهبى» Chrysostomus (٤٠ - ١٢٢ م) الى السكندريين بدقة نظرة الرومان الى شعب هذه المدينة المشاغب، فبينما أكال المديح لمجد هذه المدينة الثقافى وتربعها على عرش التجارة، إنهال بسيل من الأتهامات والشتائم التى وجهها الى السكندريين الذين إتهمهم بالطيش والتهور وحب المشاكسة والطموح الذي لا يعرف له حداً، والميل الى الفوضى وسرعة الهياج، وإستخدام العنف الجسدي والجرى وراء الملذات والشهوات وصغائر الأمور، وحب الهزل والبعد عن الجد، والحماقة والنذالة، وسوء الخلق، ويختتم رسالته قائلا «فلا عجب أنهكم مدعاة للأزدراء من جانب حكامكم»(٢).

أما المؤرخ ديون كاسيوس الذى كتب موسوعته التاريخية فى القرن الثالث الميلادي ، دون أن تطأ قدماه أرض مصر ، فقد خرج عن حياده المألوف وإندفع يكيل الاتهامات الى المصريين والى السكندريين على وجه الخصوص ، اذ وصفهم بأنهم متقبلون ومتمردون ومخربون ، يؤمنون بالشعوذة ، وأنهم صفقاء فوضويون لايحترمون النظام والقانون(٤).

ويقابل هذه الصورة المهينة للمصريين والسكندريين التى بثها الرومان . تلك الصورة المثالية التى صور بها الرومان أنفسهم ، والدور التاريخى الذى اختصه القدر بهم كمنقذين للسلام وللحضارة على الأرض . فقد غرس فرجيل - أمير الشعراء اللاتين - فكرة الدور التاريخى الذى يقوم به اكتافيوس أغسطس ، مبعوث الارادة الربانية لانقاذ البشرية بجعل الأمبراطورية الرومانية تحكم وتتحكم فى شعوب العالم المسكون من أجل صالح الكون ، فهى التى تفرض السلام على الأرض بقوة السلاح ، فتعفو عن المهزوم وتسحق المتمرد(٥). كما سخر اكتافيوس الفن من أجل التبشير لهذه الدعاية السياسية ، سواء النقود أو الآثار أو المهرجانات والأعياد التى تقام احتفاء بانتصاراته ، كلها تحولت الى أبواق تطلق صيحة واحدة متفق عليها أن الأمبراطور هو الراعى الصالح لأنه تجسيد للفضائل والمثل العليا والعدالة الأجتماعية ، ففيه تجتمع الشجاعة ، والقسوة والرحمة ، والأنسانية والعدل ، وأداء الواجب المنوط به ، فهو العين الساهرة التى لا تنام ، تدبر ، شئون الأمبراطورية وترعاها(٦) . هذه الدعاية المركزة التى بذل مايكيناس - وزير الثقافة والأعلام الرومانى مجهوداً كبيراً فى ارساء قواعدها خلقت شخصية الرومانى المتعالى المتكبر الذى يحتقر كل ما هو غير رومانى بينما يستمرئ خيرات هذه الشعوب المقهورة بحق الفتح أو الحربة pro - hasta ، وساعدت على خلق شعور مكبوت بالكراهية والحقد ازاء هذه الصلافة الرومانية ، فقد كان جنود قوات الاحتلال الرومانى فى مصر يتعالون على السكان مستبيحين أموالهم بحجة أنهم حماتهم والمدافعون عنهم .

ولقد تحمل الناس فى مصر - أكثر مما تحملته شعوب الولايات الأخرى - هيمنة الأمبراطورية وجشعها ، اذ لم يكن لهم لاحول ولا قوة غير الخضوع للسلطة الرومانية ، بينما يخفون سخطهم وكراهيتهم فى أعماق نفوسهم ، وكان يساعد على تنامى هذا السخط ، المعاملة الفظة المتعالية

التي كان ينظر بها رجال السلطة الرومانية الى سكان مصر ، والتي كانت بالرغم من الرقابة الصارمة للأمبراطورية تجد لها من حين لآخر منفذا ومتنفثا فى شكل العصيان وإطلاق الفكاهات التى تسخر من الأباطرة والأمبراطورية . فقد لاحظ الفيلسوف سينيكا الذى كان يعرف المصريين جيداً لأنه كان يمتلك ضيعة فى الفيوم أن لشعب مصر مقدرة فائقة فى ابتكار طرق للسخرية من الحكام الرومان(٧) . فقد كان لشعب الأسكندرية بما عرف عنه من السوقية و« طول اللسان » تاريخ طويل فى فن التشنيع على الحكام منذ أيام الملوك البطالمة . لكنهم كانوا يعرفون الحد الذى يجب أن يتوقفوا عنده حتى لا يجلبوا علي أنفسهم غضب الحاكم أو انتقامه ، ولما كان الوالى الرومانى وبطانته يعيشون بين ظهرانيهم ، وينزلون فى قصور البطالمة الغابرين ، فقد كانوا عرضة أيضا لسخرية ونكات شعب الأسكندرية .

كانت كراهية السكندريين للوجود الرومانى فى مصر تظهر حينا سافرة وحينا مستترة ، سواء فى الأدب أو الفن . ففى حجرة الدفن بمقبرة كوم الشقافة بالأسكندرية ظهر على الجانب الأيسر نحت بارز يصور جندى رومانى - رمز السلطة - وهو يمسك بيده اليسرى رمحا ويستند بيده اليمنى على درع ، بينما ينظر إليه أنوبيس اله الموتى برأس ابن آوى التى يعلوها قرص الشمس ، وهى ايحاءه لتمني الفناء والموت ، وعلى الجانب الآخر للباب يظهر رب الشر فى الأساطير المصرية ست - تيفون برأس الذئب ، مرتديا التاج الأزرق ، ويتدثر بعباءة جندى رومانى يرتدى الزى الرسمي للجنود الرومان تماما مثل أنوبيس ويستند بذراعه الأيمن على رمح قائم ، أما الجزء الأسفل فهو ملتف فى شكل تنين ضخم . بينما ينظر أنوبيس وست لبعضهما البعض في تناسق وإنسجام . ان هذا النحت تعبير صامت لنظرة السكندريين الى الأمبراطورية الممثلة فى هيئة الجندى الرومانى - بأنها مبعث الشرور وأن نهايتها سوف تكون على يد أنوبيس رب الموت .

عندما دخل اكتافيوس مصر ، كان يعلم أن شعب الأسكندرية الذى قابله بالنفاق والرياء هو نفس الشعب الذى كان بالأمس القريب من أشد أنصار خصومه الألداء . كليوباترا السابعة وزوجها ماركوس أنطونيوس ،

وربما ظلوا كذلك حتى بعد إنتحارهما ، ولهذا تقبل كلمات الترحيب والنفاق
بحذر شديد ، ومن ثم إستن قاعدة إلتزم بها خلفاؤه طوال قرنين من الزمان
وهو عدم الأستجابة لالحاح السكندريين بأعادة مجلس الشورى لمدينتهم .
وبالنسبة للأغريق كانت مجالس الشورى مفخرة المدن ورمز كبريائها
والجوهر الذى يقوم عليه نظامها ، فى حين أنه إستجاب لطلب الجالية
اليهودية بمنحهم الحق فى إنشاء مشيخية مستقلة لهم ينتخبون رئيسا لها
ولها شريعتها ومحكمتها الخاصة ، ولقد ترك ذلك جرحاً غائرا في كرامة
السكندريين ، وأدركوا أنها إهانة مقصودة ، وعقاب مستتر ، خاصة ان
المدينتين الأغريقيتين الأخريين وهما نقراطيس وبطلمية على ما يبدو.
إحتفظتا بمجالس الشورى فيهما وبحقهما فى الحكم الذاتى ، وكانتا فى
نظر السكندريين مدينتين إقليميتين ، ولهذا توارث السكندريون الحنق على
الرومان جيلا بعد جيل . صحيح أن سياسة الرومان حولت الاسكندرية الى
نقطة عبور دولية ومرور للتجارة بين الشرق والغرب مما أدى الى
ازدهارها ورخائها ، لكن من الناحية السياسية تضاءل مجدها ، فقد كانت
قديما عاصمة البلاد ومقر الملك ، ومصدر السلطة والنفوذ ، فأصبحت
مجرد مدينة إقليمية من مدن الأمبراطورية الرومانية ، تستقبل أوامرها من
روما ، ويحكمها والى وموظفون يعينهم الأمبراطور الرومانى ، وتقيم فيها
حامية رومانية فى حالة استنفار دائم لقمع أى تمرد يقومون به ، كما أن
روما الصاعدة حجبت الاسكندرية كمركز للحضارة والثقافة ، وأصبحت
قبلة الأنظار ووجهة الزوار ، ومركز النفوذ والسلطة ، بينما توارت مدينتهم
التى كانوا يفخرون بأنها سيدة البحر المتوسط الأولى الى المركز الثانى
بعد أن سلبتها روما - دون وجه حق - مجدها العريق والعتيق .

أما فى عواصم الأقاليم المصرية الأخرى ، فقد كان هناك سخط عام
على الرومان ، ليس بسبب مسلك جباة الضرائب ، بل لدفعهم ضريبة الأذلال
والمهانة وهى ضريبة الرأس التى ساوتهم بالمصريين ، وهم الذين كانوا
يدعون ، صدقا أم كذبا - أنهم سلالة الأغريق ، وورثة حضارتهم الغراء ،
لكن الرومان ادرجوهم تحت مصنف «المصريين» ، صحيح أن الرومان
ميزوهم قليلا عنهم بفرض ضريبة الرأس عليهم مخفضة ، لكن تخفيضها
لم يغير من الأمر شيئا . اذ أن ذلك جعلهم يشعرون أنهم رعايا من الدرجة

الثانية ، ومن ثم دفعهم ذلك إلى الحنين إلى أيام البطالمة الخوالي . ونلمس ذلك في إستمرار عبادة بعض ملوك البطالمة الأقوياء سرا وبناء المعابد بأسمائهم . رغم أن الرومان كانوا لا يطيقون سماع ذكرهم . بل طمسوا أسماءهم من على كافة المعابد والاثار . ولقد عبر اكتافيوس أغسطس عن ذلك عندما رفض أن يزور أضرحتهم أثناء تفقدة معالم مدينة الأسكندرية .

أما المصريون ، فهم الطبقة التي حرمت من كافة الأمتيازات بينما وقع على كاهلها العبء الأكبر المتمثل : ليس في ضريبة الرأس الكاملة بل في نظام السخرة الألزامية الجسديه ، والاستغلال الجشع لكي ينعم غوغاء العاصمة الرومانية بكد الفلاح وعرقة طوال العام ، غير أن المصريين منذ أن توارى مجد فراعنتهم العظام ، ووطئت أرض بلادهم أقدام الغزاة الاجانب ، تقوقعوا حول ذاتهم ، وتحولت مصر الماضي إلى احلام طوباوية تنتظر ظهور المخلص الذي يعيد الأمور الى نصابها ، هذا « الأنسحاب النفسي » واكبة « إنصياع آلى » للسلطة الرومانية ، وكأن ما يحدث لهم ليس إلا درساً يلقن لهم من لدن ألهتهم ، وأنه في يوم ما سوف تزول هذه النقمة ، وترضى عنهم ، وتعيد اليهم مجدهم السليب بعد أن تزول فترة العقوبة والشدة . ولهذا لم يفكروا في حمل السلاح ومقاومة الغاصب المحتل إلا فى أشد الظروف قسوة .

يتضح إذاً أن طبقات الشعب الثلاث : السكندريين وسكان عواصم الأقاليم والمصريين كانت تشترك في شيء واحد هو العداء للرومان وفى اثناء قوة روما وجبروتها لم يستطع أيا منهم مقاومتها علناً إلا بالدعاية والشعارات المعادية ، بالرغم من ذلك فقد تحولت هذه الكلمات في بعض الأحيان إلى تمرد علني ، وتحد سافر تحول إلي ثورة وعصيان ، وحينا كان السبب المحرك للتمرد جاداً ومقنعاً كأشتداد الأزمة الإقتصادية أو خذلان فيضان النيل لهم ، عندئذ تظهر « الشدة » أو المجاعة التى إستعاذ منها المقدسي ، وحينا كان الدافع للتمرد تافها كأحساس السكندريين أن كرامتهم قد جرحت من جراء تصرف مهين من قبل الرومان .

وخلال مائة عام من فتح من الرومان لمصر تمتع اليهود بمحاباة الأمبراطورية ، فقد كانوا عيونهم التي يرون بها وآذانهم التى بها

يسمعون ، ولهذا وجد السكندريون ضالتهم المنشودة فى الأنتقام من
الرومان فى شكل الهجوم على اليهود . وبدأت تلك الحرب الطائفية عام ٣٨
ميلادية ، وفى البداية إنحاز الرومان إلى جانب اليهود . غير أن الأمر إتخذ
منعطفاً جديداً منذ إعلان جايوس كاليجولا نفسه رباً ، ومطالبته جميع
شعوب ورعايا الأمبراطورية بوجوب عبادته جهراً ، وإدخال تماثيله فى
كافة المعابد بما فى ذلك معابد اليهود الذين رفضوا بشدة ، بل تحدوا بعناد
الجبروت الرومانى ، فهبوا فى ثورتهم الأولى في عهد نيرون وانتهت على
يد تيتوس بتدمير هيكل سليمان والقاء مقدساته فى نهر الأردن عام
٧٠ م . والثانية فى عصر تراجان وهادريان وأنتهت بطردهم من أورشليم
وتغيير أسمها إلى إسم رومانى هو الأسم الأول للأمبراطور هادريان وهو
ايلياء (الأسم الأول لهادريان هو إيليوس) وإلحاق الاذلال الأكبر بهم ببناء
معبد وثنى لرب الرومان الأكبر جوبتر الكابيتولينى ، وإجبارهم على دفع
ضريبة لهذا المعبد ، بالاضافة الى طردهم من فلسطين وتشتتهم فى
صحارى الجزيرة العربية وواحاتها ، وكان هذا أول ظهور لما أسماه
اليهود بعد ذلك بالشتات أو الدياسبورا (diaspora) . وبسحق الرومان
لليهود لم يعد لهم حول ولا قوة لا فى داخل مصر ولا فى خارجها .

ولقد حاولت الدعاية المعادية للرومان فى مصر ضرب عصفورين
بحجر واحد وهو الربط بين كراهية الناس لليهود وكراهيتهم للرومان
بتخيل وتداول أدب شعبى أطلق عليه الأستاذ موميليانو مصطلح[٨] . « أدب
المقاومة التحتية » literature of underground resistence ، بينما أطلق عليه
المؤرخون المحدثون مصطلح « أدب الشهداء الوثنيين »[٩] Acta Martyorum
Paganorum على غرار أدب الشهداء المسيحيين فيما بعد ، فعن طريق هذا
الأدب . الشعبى المتنامى ذاتيا كانوا ينفثون عما هو مكبوت فى نفوسهم ،
ويتداولونه سراً ، وقد حفظت لنا وثائق البردى مقتطفات منها . لقد كان
محور هذا الأدب هو تفشى شهوة الأستشهاد والأقبال على الموت من أجل
الخلود ، وأغلب موضوعات هذا الأدب عبارة عن حوار ساخن وعاصف
بين بطل قومى سكندرى أو مجموعة من الأبطال من ناحية ، وبين
الأمبراطور الرومانى المستبد من ناحية اخرى ، وذلك أثناء إنعقاد محكمة
القصر ، حيث يردون على الأتهامات الموجهة اليهم بلسان نارى سليط

وبوقاحة واحتقار يثير غضب الأمبراطور الذى هو أعظم وأقوى رجل فى المعمورة ، فيحكم بالموت عليهم ويقاد الابطال الى ساحة الأعدام رافعى الرؤس ، وعادة يلقون كلمات مؤثرة يزرف المستمعون لها الدموع ، لأنها تثير العواطف والأشجان كالتراجيديا الأغريقية القديمة تماما ، خاصة اذا كان الراوى شخصا متمرسا فى التمثيل وتهييج العواطف بحركاتة الدرامية . ولقد إستمر تداول هذا الأدب على مدى قرنين كاملين من عصر أغسطس حتى عصر كومودوس (١٨٠-١٩٢ ميلادية) وربما حتى عصر كاراكالا (٢١١-٢١٧ ميلادية) ولم يسلم إمبراطور واحد من التشنيع والتحقير حتى الأكثر عدلاًونزاهة ، وأظهرتهم جميعا بأنهم عملاء لليهود حتى أولئك الذين اشتبكوا مع اليهود فى معارك شرسة مثل تراجان وهادريان(١٠) .

وبالرغم من أن أغلب الشهداء كانوا سكندريين ، إلا أن قصاصات هذا الأدب وجدت في مناطق بعيدة فى أقاصى الصعيد ، ويعتبر بعض المؤرخين ذلك على أنه دليل على إتساع دائرة ذيوعه وإنتشاره وإكتسابه شعبية عارمة بين مدعى ورثه الحضارة والثقافة الأغريقية فى الريف والحضر ، على إعتبار أن مصدر هذا الأدب هو مدينة الأسكندرية ، إلا أنه بمقارنة هذا النوع من الأدب بالأدب المصرى القديم نجد تشابهاً كبيراً فى الملامح والصفات ، فالأدب المصرى عرف بحب المبالغة والتهويل(١١) ، وهى صفة نلمسها حتى فى أعمال الشهداء السكندريين ، كما أن الأدب الأغريقي القديم لم يعرف أدب المقاومة والأستشهاد ضد الغاصبين ، فبلاد اليونان لم تقع فريسة للاحتلال الأجنبى (اللهم أثناء حملة الفرس على بلاد اليونان فى مطلع القرن الخامس ق.م ، والتى لم تستمر سوى بضعة شهور تمكن فيها الأغريق من طرد الغزاة) مثلما وقعت مصر التى واجهت غزوات الهكسوس والفرس والأغريق . ولقد تغنى المصريون طويلاً ببسالتهم فى مقاومة الهكسوس الذين احتلوها لما يقرب من قرنين كاملين حتى قاد أبطال طيبة الكفاح ، ورفعوا السلاح ، وخلال هذا الكفاح طور المصريون نوعاً من أدب المقاومة التى يتسم بالمبالغة والتهويل مثل قصة ملك الهكسوس الذى أدعى أن أصوات فرس النهر فى طيبة تقلق نومه وهو فى عاصمته أواريس فى أقصى الشمال ، كما أن سكننرع أول شهيد سقط وهو

يقاتل لطرد المحتل الغاصب من أرض بلاده المقدسة ، ولهذا فإن طيبة ـ قلعة المقاومة المصرية . هى مركز الكفاح ومنها ربما خرج هذا النوع من أدب الدعاية والمقاومة ، وبأحتكاك المستوطنين الأغريق بجيرانهم المصريين تعلموا منهم هذا النوع من الأدب ، ولأن الأغريق كانوا يعيشون متفرقين فى جزر على طول الوادى وسط بحر من الحضارة المصرية ، فقد كانوا أشد تعصباً وأكثر تمسكاً بالتراث الأغريقى والذى كانت الأسكندرية بالنسبة لهم هى المنار والقلب لأنهم رأوها مدينة إغريقية خالصة ، ساعد وجودها على ساحل البحر المتوسط على بقائها على إتصال دائم بالعالم الأغريقى ، كما أن إنتصارها على الرومان يعنى إنتصار للحضارة الأغريقية التى يدعون أنهم ورثتها . ومن ثم ، فأن الرأى يميل إلى أن مصدر أدب الشهداء ليس الأسكندرية ولكن إحدى عواصم الأقاليم القريبة من طيبة ، بالأضافة إلى ذلك فأن أدب الشهداء الوثنيين لم يصور محاكمة واحدة جرت فى الأسكندرية ، إنما كلها جرت فى روما بعيداً عن مصر . وهذا يفسر سبب عثورنا على قصاصات هذا الأدب فى مدن الصعيد النائية وليس فى مدن الدلتا ، إذن فهذا الأدب هو هدية إغريق الريف ـ الذين إعتبرهم الرومان إغريقاً من الدرجة الثانية *declassé* ، إلى إغريق الأسكندرية إغريق الدرجة الأولى رمز المقاومة والبقاء .

إن تحليل محتوى وثائق أعمال الشهداء الوثنيين يكشف لنا عن الشعور بالأحباط والسخط تجاه جميع أباطرة الرومان بلا إستثناء ـ الصالح منهم والطالح ، وبالغرور والأنفة والكبرياء من جانب أبطال السكندريين ، والعداء والمرارة تجاه اليهود الذين وضعوهم مع الرومان فى سلة واحدة خاصة عندما يتحدث هذا الأدب عن النهم والجشع والأجحاف التى يتصف به مسلك ولاتهم فى حكمهم لمصر كما يتحدث عن جنوح أباطرتهم إلى الطغيان والسلوك المنافى للاخلاق والعرف والتقاليد ، ولذلك يجب الا يؤخذ به كوثائق تاريخية لأنه توليفة من الهلوسة الوطنية والأسقاطات النفسية التى تقوم على الخيال المحض . وإليك نموذجاً لحوار ورد فى إحدى وثائق هذا الأدب كما تخيله كاتبه بأنه قد حدث فى منتصف القرن الأول الميلادى .

« إستدعيت وفود السكندريين ، وأعلن الأمبراطور تأجيل جلسة الأستماع إلى قضيتهم إلى اليوم التالى الموافق السادس من بشنس [أول مايو] حيث

إستمع كلاوديوس قيصر إلى دعوى إيسيدوروس مدير جمنازيوم الأسكندرية ضد الملك اجريبا [ملك اليهود] في حدائق ستاتيليوس (او لوكوللوس في روما) وكان يجلس معه عشرون عضوا في مجلس الشيوخ وستة عشر قنصلا. كما حضر محاكمة إيسيدوروس ايضاً بعض سيدات البلاط [الأمبراطوري]. وإستهل إيسيدوروس الكلام :

إيسيدوروس : مولاي القيصر اني اجثو عند ركبتيك متوسلاً أن تصغى لما يعانيه مواطنو مسقط راس.

الأمبراطور : سأخصص لك هذا اليوم [عندئذ هز الشيوخ رءوسهم بالموافقة].

كلاوديوس قيصر : لقد جلبت يا إيسيدوروس- الموت على كثير من اصدقائي.

إيسيدوروس : كنت انفذ اوامر الأمبراطور [يقصد جايوس كاليجولا] التي كان يصدرها وقتذاك، وانت ايضاً سم لي من تريد مني أن أدينه وسانفذ لك ذلك !!.

كلاوديوس : هل انت حقاً إبن راقصة ياإيسيدوروس ؟.

إيسيدوروس : لست عبداً ولا ابنا لراقصة ولكني مدير جمنازيوم الأسكندرية الذائعة الصيت، اما انت فابن سفاح لسالومي اليهودية.

[لامبون لأيسيدوروس] : ليس بيدنا حيلة سوى الاستسلام لملك مجنون !.

كلاوديوس قيصر : على الذين سبق لي أن أمرتهم بأعدام ايسيدوروس ولامبون [سرعة التنفيذ](١٢).

[باقي الوثيقة مهلهل ..]

وكما صور الأدب الشعبي المصري الحديث الفتي مهران وهو يقاد مرفوع الرأس إلى المشنقة التي أقامها الأنجليز له في دانشواي، سار إيسيدوروس ولامبون إلي حتفهما غير آبهين بالموت.

وهذا نموذج لموقف آخر تخيله مؤلفه أنه حدث في عصر الأمبراطور كومودوس ١٩٠ م.

« ولما قيد أبيانوس بعيداً التفت فرأى هليودوروس فقال ياهليودوروس أليس لديك شيئاً تقوله وأنا أقاد إلى حتفي ؟ فرد هليودوروس : لمن يمكننا أن

نتحدث فليس لدينا أحد يسمع !! إذهب يابنى إلى الردى فان موتك من اجل مدينتك مسقط رأسك هو اعز شيء يعطيك المجد . لاتتألم فسوف اتبعك !
وإستدعى الأمبراطور . ابيانوس وقال الأمبراطور : انك تعرف الآن لمن تتحدث !

ابيانوس : أعرف . ابيانوس يتحدث إلى طاغية !

الأمبراطور : لا بل إلى إمبراطور !!

أبيانوس : إياك أن تقول ذلك !! لقد كان ابوك المؤله ماركوس [أوريليوس] جديراً أن يكون إمبراطوراً . أنظر أولاً كان فيلسوفاً ثانيا: لم يكن نابشاً ـ بحثاً عن المال ، وثالثاً : كان محباً للخير أما أنت ففيك نقيض هذه الصفات : الطغيان ، وعدم الأمانة ، والصلافة !! .

عندئذ أمر القيصر أن يقاد بعيداً للأعدام . وبينما كان يقاد بعيداً قال .

أبيانوس : تفضل على بهذه المكرمة الأخيرة يامولاى القيصر !! .

الأمبراطور : ماهى ؟ .

أبيانوس : اعط أمرك أن أقاد إلى حتفى وأنا أضع شارات التشريقة .

الأمبراطور : لك ذلك .

عندئذ أخذ أبيانوس عصابته ووضعها حول رأسه ثم وضع نعليه الأبيض فى قدميه ، وهتف وسط روما قائلاً : هلموا أيها الرومان تعالوا وشاهدوا هذا المنظر الذى لن يتكرر سوى مرة واحدة فى العمر رئيس جمنازيوم ومبعوث الاسكندرية وهو يقاد إلى حتفه[١٢] .

ومن الملاحظ أن هذا النوع من الأدب كان يهاجم أباطره الرومان ويحقرهم وينتقد مسلكهم ويدعي أنهم منحازون لليهود ، لكنه ليس أدباً ثورياً تحريضياً يدعو إلى الكفاح ورفع السلاح لطرد المحتلين الغزاة ، فهو لايتضمن أى دعوى للعمل ضدهم ولاحتى ينغمس فى النبوءات وكتابات الرؤيا كما فعل المصريون الخالصون ، واليهود المنغلقون على أنفسهم . والمسيحيون فيما بعد ، حيث راحوا يعزون أنفسهم بأن للظلم نهاية وأن الظالمين سوف يلقون الجزاء الذى يستحقونه ، إنما كان يمثل أدب مقاومة الأثرياء المثقفين فى الأسكندرية وعواصم الأقاليم فقد كانوا يتعاطونه سراً ، ويحتفظون به فى مكتباتهم ، ويرويها رواة محترفون فى الألقاء والتمثيل فى تجمعات السمر وحول المآدب . وبالرغم من أن الرومان سمحوا للسكندريين بأرسال وفود إلى روما مثل اليهود تماماً وحاولوا أن

يكونوا حكماً عدلاً بين الخصمين كما نلمس فى خطاب الأمبراطور كلاوديوس إلى السكندريين واليهود والتى هى وثيقة تاريخية دون شك إلا أن هذا الأدب تجنى على أباطرة الرومان، إذ أنهم كانوا يبتكرون مواقف ويصطنعون مواجهات ويختلقون محاورات عبارة عن إسقاطات نفسية كحالة الأحباط التى كانوا يعانون منها. أما فقراء السكندريين فقد إكتسبوا شهرة كشعب صعب المراس، هوائى ومتقلب المزاج وسليط اللسان وفوضوى يسهل إثارته(١٤)

وبعد أن سحق الرومان اليهود عقب ثورتهم الثانية التى إندلع لهيبها مابين أعوام ١١٥-١١٧، وتضاءل نفوذهم وعددهم، وسلبت منهم إمتيازاتهم، وإنزووا في «الجيتو» الخاص بهم، إستدار السكندريون لمهاجمة نظام الحكم الروماني نفسه، وأظهروا العداء السافر للاباطرة الرومان من قلب الأسكندرية مقر السلطة الرومانية، فكانوا يقومون علناً بالمظاهرات والتجمهر فى الأسواق وفي الشوارع وفي ملاعب الرياضة ضد الوالي، بل وضد الأمبراطور ذاته. وعندما تندلع أى حركة تمرد ضد الأمبراطورية فى مصر كانوا يسارعون إلي تأييدها ودعمها، والنفخ في نيرانها، فقد كان كافة المطالبين بعرش الأمبراطورية الذين رفعوا السلاح على الأمبراطور فى روما - بدءاً من القائد افيديوس كاسيوس عام ١٧٥م وحتى دوميتيوس دوميتيانوس قرب نهاية القرن الثالث الميلادى - يعتمدون على تأييد ودعم شعب الأسكندرية. وكان هنالك مغزى سياسى وراء ذلك التأييد، فقد كان فى إستطاعة أى مدع للعرش أن يهدد بقطع القمح عن روما مما يعني حدوث مجاعة تهيج الغوغاء فيحدث مالا يحمد عقباه. وعندما يفرغ الأمبراطور من قمع هذه الثورة يستدير لتأديب السكندريين بقسوة فيكون رد الفعل إزدياد الكراهية نحو الرومان. وأكثر أعمال الإنتقام التى حلت بالسكندريين ماقام به الأمبراطور كاراكالا عام ٢١٥م، وقد روى ذلك مؤرخان كلاهما معاد للأمبراطور ماركوس أوريليوس أنطونينوس الشهير بلقب كاراكالا هما: ديو كاسيوس النيقى، وهيروديانوس السورى، وكلاهما روى ماحدث من وجهة نظره، غير أن كليهما إتفقا على قسوة غدر كاراكالا ونذالته. إذ إنتقم من السكندريين - سليطي اللسان - لأنهم سخروا منه لأدعائه أنه صنو الأسكندر الأكبر فى المجد والشهرة، وعايروه بأنه قاتل أخية «جيتا» وسخروا من حجته

الخاوية بأنه قتل أخاه دفاعاً عن النفس ، ولقد آلم ذلك كاراكالا كثيراً خاصة أنه كان يستعد فى ذلك الوقت لشن حملته العسكرية الرومانسية لفتح الشرق وشن حرب مقدسة ضد البارثيين والانتقام لشرف الأمبراطورية الذى مرغه البارثيون فى الوحل عندما هزموا كراسوس عام ٥٢ ق.م. وكان كاراكالا يعرف أنها رحلة الموت أو النصر ، ومن تم فقد خاف أن تفسد عليه قيام أى ثورة فى الأسكندرية مشروعاته العسكرية ، وتهدد بقطع خطوط الأمدادات الخلفية لقواته ، فتكون كارثة فيها نهايته ، ولذلك جاء رده سريعاً وغادراً ونذلاً ، فعندما وصل إلى الأسكندرية تقدم وجهاء وأعيان المدينة لاستقباله والترحيب به جرياً على عادة إستقبال الأباطرة ، وفى البداية رحب بهم الأمبراطور ، لكنه فجأة وبدون سابق إنذار امر قواته بتطويقهم وقتلهم ليكونوا درساً لغيرهم ، ثم أطلق لقواته العنان للقتل والنهب عدة أيام ، وعندما قدم تقريرة إلى السناتو حول هذه الواقعة لم يعلن عن أسفه بل ذكر أنه ليس مهما ذكر عدد القتلى من السكندريين لأنهم يستحقون القتل[١٥] وفى أثناء تواجده فى الأسكندرية أصدر قراره الشهير بطرد الفلاحين المصريين الهاربين من الريف ليتسكعوا فى شوارع المدينة بحثاً عن عمل ، مستثنياً من ذلك تجار الخنازير والحطابين الذين يمدون الحمامات بالوقود ، والمراكبية والزوار للتفرج على معالم المدينة ، وطالبى العلم وذوى الحاجات ، وقد سبق الاشارة إلى ذلك القرار .

ان صدور مثل ذلك القرار الذى لا مثيل له يدعونا إلى التساؤل عن الدافع الذى جعل الفلاحين يهربون من قراهم فى الريف للتسكع فى شوارع العاصمة ، لقد كان كاراكالا يعرف السبب بلاشك ولكنه أغمض عيناه عنه لأنه لا يستطيع أن يغير من الأمر شيئاً ، أنها السياسة الخاطئة التى أنتهجتها الأمبراطورية الرومانية منذ أن وطأت أقدام جنودها أرض وادى النيل فمنذ ألاف السنين عاش الفلاح المصرى فى قريته التى كانت بالنسبة له عالمه الخاص ، فيها يولد وعلى خيرها يعيش وفى ترابها يدفن على أمل أن يبعث ليعيش فيها مرة أخرى من جديد ، ولذلك إرتبط الفلاح عاطفياً بالقرية رغم أن حياته فيها كانت بسيطة ، إنما كان يكفيه العيش فى الريف الناعس مع حيواناته وأهله وخلانه ، بلا طموح يقلق باله ، لكن أن يهرب الفلاح من قريته تاركاً بيته ، وأرضه وعرضه ، ليهيم على وجهة . على

أمل ألا يعود إليها أبداً فذلك هو الخسران المبين ، الذى إن دل على شيء إنما يدل على نفاذ صبره إلى الحد الذى لم يعد بعده يطيق العيش فى الريف بعد أن فقد كل أمل فى الوفاء بالإلتزامات المالية للأمبراطورية التى لا تنتهى والتى تطالبه بها سلطات الحكم الرومانى لمصر .

كان بعض الفلاحين الفارين كان يولون وجوههم شطر الاسكندرية أو غيرها من المراكز السكانية المزدحمة حتى يندسوا بين الناس دون أن يتعرف عليهم أحد ، والبعض الآخر كان يتسلل جنوباً إلى بلاد النوبة والسودان كما كان أجدادهم يفعلون كلما ضاق بهم الحال فى عصور الاضطهاد ، وفريق ثالث إنضم إلى عصابات قطاع الطرق التى كانت تغير على القوافل التجارية فتسلبها ماتحمل ، أو تختفى فى الأحراش والمستنقعات والزراعات والمغارات الجبلية لتقطع الطريق على المسافرين ، ومن ثم أصبحت القوافل التجارية التى تحمل البضائع - وكذلك السفن النيلية - فى حاجة إلى حراسة مشددة ، مما كان يرفع أسعار السلع لأن التاجر كان يضيف تكاليف الحراسة إلى سعر السلعة فيرتفع الثمن ، عندئذ يشعر الناس بالضائقة الأقتصادية وتفقد الأمبراطورية المزيد من مصادر الدخل فى وقت كانت فى أمس الحاجة إلى المال عصب الحروب التى كانت تخوضها مع قبائل الجرمان التى كانت قد بدأت تغير على حدود جبهتها الشمالية . وفى مواجهة هذا الخطر المتنامى كانت الأباطرة واحداً تلو الآخر حينا يصدرون القرارات التى كانوا يتوعدون فيها ويهددون هؤلاء الخارجين على القانون بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وحينا آخر يحاولون إغراءهم بالاعلان عن عفو شامل ، وإسقاط المتأخرات الضريبية إذا ما إستسلموا وألقو السلاح وعادوا إلى قراهم أمنين ، وكانت هذه القرارات الخاصة بالعفو والأعفاء تصدر عادة قبيل إجراء التعداد ، غير أن هذه القرارات المغرية كانت كالمهدئات أو المسكنات للألام دون القضاء عليه إذ لم تعالج أسباب هجرة الفلاحين لقراهم وتنامى ظاهرة إنتشار « الفلاتية » أو قطاع الطرق . فقد ورد فى إحدى الشكاوى التى رفعها العائدون إلى سوكنوبايونيسوس مايلى :

« عندما كان إمبراطورينا عظيماً القداسة سيفيروس وكاراكالا ينزلان بمصر ، كان من بين المكرمات الكثيرة التى أغدقا بها أنهما وافقاً أن الناس

الذين يقيمون فى مناطق اخرى ينبغى عليهم جميعاً العودة إلى بيوتهم وان يتخلوا عن أعمال العنف والخروج عن القانون وطبقاً لأوامرهم المقدسة رجعنا(١٦).

ومن ثم فأن بقاء المسببات يعنى بقاء الظاهرة، إذ إستمرت ظاهرة الهروب، وقطع الطرق أو «الحرابة»، بل إمتدت جذورها وتفرعت، وتعددت، وتشابكت حتى أصبحت إخطبوطاً، واصبحت الأمبراطورية الرومانية عاجزة تماماً عن القضاء عليها، فبعد مرور أكثر من عقد على صدور قرارات كاراكالا التى أغرت سكان قرية سوكنوبايونيسوس بالعودة إلى ديارهم، نجد والى مصر بابيبوس يونكيوس (٢١٠ - ٢١٤م) يصدر بعصبية ظاهرة هذا الأمر إلى حكام إقليم ارسينوى وإقليم القرى السبعة يقول فيه :

«لقد سبق وأن أمرتكم فى رسالة أن تقودوا تجريدة بحثاً عن قطاع الطرق، الأمر الذى حذرتكم انكم إذا أهملتموه سيعرضكم للخطر واليوم اؤكد قرارى بأصدار مرسوم حتى يعلم كل من فى مصر أننى لا إعتبر هذا العمل أمراً ذا أهمية ثانوية. أننى فى الحقيقة اقدم المكافآت لهؤلاء الذين يتعاوثون منكم، وانذر بالويل أى واحد يختار العصيان أننى أود أن يعلن مرسومى فى مكان ظاهر فى عواصم الأقاليم وفى أكثر الأماكن بروزاً فى اقاليمكم، انكم سوف تقعون تحت طائلة العقاب وكذلك المجازفة [يفقدان مناصبكم] لو أن أى مجرم ارتكب عملاً من أعمال العنف وفر دون أن يكتشف أمره. راجياً لكم موفور الصحة بوءونه ٢٨(١٧).

ولم تفلح سياسة إبحث ودمر «Seek amd destroy» لأن المشكلة كانت أعمق من قدرة السلطة الرومانية على حلها بالقوة. ففى عام ١٥٤ ميلادية أعلن والى مصر ماركوس سمبرونيوس ليبراليس Murcus Sempronius Liberalis عفواً شاملاً مدته ثلاثة شهور لكى يتمكن خلالها الهاربون من العودة إلى مواطنهم دون أى عقاب، إلا أن قرار العفو تضمن إنذاراً موجهاً إلى العصاة الرافضين أو المتمردين المترددين فى قبول هذا العفو، متبعاً فى ذلك سياسة «العصا والجزرة» إذا جاء فى هذا البيان مايلى:

«ليكن فى علمهم أن أصحاب السعادة حكام القطاعات، وكذلك حكام الأقاليم وكافة الجنود الذين بعثت بهم من أجل أمن وآمان مناطق الريف، قد صدرت لهم الأوامر بقمع الأغارات عند بدايتها بالوسائل الكفيلة وفى حينها، وان

يقوموا بالمطاردة الفورية عند حدوث إغارات ، وان يتعاملوا مع المجرمين الذين يضبطون متلبسين بصورة لاتختلف عن هؤلاء الذين إرتكبوا عملاً من أعمال اللصوصية(١٨) .

غير أننا عندما نقرأ محتوى هذه البيانات والأنذارات التي يصدرها الولاة يجب الانترك بلاغتهم اللغوية التى تميل إلى المبالغة وتضخيم الأمور لتوكيد أهميتها - أن تحجب بصيرتنا وتبعدنا عن الحقيقة ، اذ أن أغلب من توالوا على ولاية مصر كانوا أدباء ومتفقهين فى القانون يحرصون على تنميق ألفاظهم وعباراتهم بما يليق بمكانتهم ، فلم تكن ظاهرة قطع الطريق ظاهرة تنفرد بها مصر وحدها ، بل كانت ظاهرة عامة شملت كل ولايات الأمبراطورية الرومانية شرقاً وغرباً . وكان ذلك احد أسباب تدهورها وسقوطها . لقد كانت ظاهرة الأرهاب وقطع الطريق فى مصر محدودة ولاتقارن بما كان يحدث فى الولايات الأخرى خاصة آسيا الصغرى ، فالمصريون كانوا شعباً يميل بطبيعته إلى الهدوء والأستكانة ، ويؤثرون الخنوع والصبر على المكاره ، فقد تعود الفلاح على ذلك منذ أيام الفراعنة العتاه ، كما أن الفلاح كان يدرك أن حياة الخارج على القانون حياة شاقة قاسية وغليظة لايقدر عليها إلا ذوى العزم ، فهى من الناحية القانونية كانت تعنى « الموت المدنى » وفقدان الحيثيه ، ومن الناحية الإجتماعية كانت تعنى العزل الكامل عن الأهل والأسرة والخلان ، وعن البيت والحقل ، كما أن الوقوع فى يد السلطة كان يعني المهانة والتغذيب حتى الموت فقد وصف الأديب فيلوستراتوس الذى عاش فى القرن الثالث الميلادى منظراً عادياً شاهده وهو منظر الذين حكم عليهم بالموت بتهمة الحرابة ، أو قطع الطريق وهم يطاف بهم فى شوارع الأسكندرية فى طريقهم إلى موقع الأعدام حيث تقطع رقابهم(١٩) .

لقد كان الفلاح المصري يصبر على المكاره حتى يعجز الصبر عن صبره ، لكن إذا ما عضه الجوع بنابه ، وأطبقت عليه الدنيا ، وفتكت به الأوبئة ، فأنه يتحول الى وحش كاسر ، إذا إندلعت بعض الثورات وحركات التمرد التى سرعان ما عمت الريف والحضر ، وعجزت الحاميات الرومانية الموزعة على طول البلاد وعرضها عن قمع هذه الثورات فى حينها ، فأتسع نطاقها وإنضم اليها العصاة والفتوات ومثيرى الشغب وأعمال البلطجة

وقطاع الطرق . كتلك الثورة التى حدثت عام ١٥٢ ميلادية واستمرت لاكثر من عام ، ودفع والى مصر التعيس لوكيوس موناتيوس السعيد Lucius Munatius Felix حياته ثمنا لقمعها ، ولولا تدخل الأمبراطور أنطونينوس بيوس بنفسه وقيامه بقمعها بلا رحمة لحدث ما لا يحمد عقباه ولانفصلت مصر عن الأمبراطورية الرومانية(٢٠) .

ولم تكد تمضى عشرون عام على الثورة الأولى حتى هبت ثورة أشد وأعنف منها وذلك فى عام ١٧٢ - ١٧٣ ميلادية ، وهى التى تعرف بثورة البوكوليا ، وكان مركزها أحراش الدلتا الشمالية . وكما سكتت المصادر التاريخية الرومانية عن الثورة الأولى ، صمتت عن تسجيل وقائع هذه الثورة أو التحرى عن أسباب أندلاعها ، إلا أننا نعرف إسم قائدها وزعيمها الذى كان يدعى إيسيدوروس - أى عطية ايزيس - وهو إسم يدل على أن صاحبه مصرى متأغرق ما يعنى انتشار المد الوطنى للثورة ليشمل جميعا . بأختلاف عناصرهم ولعل من أسباب اندلاع ثورة البوكوليا إنتشار وباء الطاعون الذى إجتاح الأمبراطوية وقتذاك ، وفتك بالقوى البشرية عصب الأنتاج فيها والدفاع عنها ، وإضطرت سلطات الأمبراطوية ازاء هذه الكارثة الى تخفيف قبضتها علي البلاد ، فقدت السلطة سيطرتها خاصة أن الموت أصبح يحيط بالناس من كل جانب ، فلم يعد أحد يضمن العيش لغد ، وأن الموت في الأحراش فى مقاومة الرومان كان بالنسبة لهم أفضل من الموت على الفراش من هذا الوباء اللعين مما زاد من دائرة المشاركين فى هذه الثورة ، ومما ساعد على نجاحها أيضا أن إحدى الفرقتين اللتين كانتا تعسكران فى مصر وتقومان بحفظ النظام ، سحبت للمشاركة في الحرب التى كانت تدور رحاها بين الأمبراطورية والجرمان عند جبهة الدانوب . كل هذه الظروف كانت فى صالح الثوار ، ولذلك فقد نجحت حشود الفلاحين بأسلحتها البدائية : الحجارة والهراوات من إيقاع الهزيمة بالفرقة الرومانية المتبقية ، وإتجهت صوب الاسكندرية المعقل الرئيسى لسلطة الحكم الرومانى ، عندئذ إستدعى الأمبراطور ماركوس اوريليوس قائد قوات الشرق التى كانت تعسكر في الشام وهو القائد الذائع الصيت أفيديوس كاسيوس لقمعها ، غير أن أفيديوس كاسيوس وجحافلة وقفوا عاجزين أمامها لانها ثورة شعبية وحرب عصابات متفرقة ولولا أنه لجأ

الى سلاح الدهاء وهو إحداث الأنشقاق والوقيعة بين الثوار لما تمكن من القضاء عليها ، عندئذ تنفست الأمبراطورية الصعداء .

ولقد عبر المصريون كالأغريق - عن كراهيتهم لحكم الرومان بالسيف والقلم ، اذ تداولوا أدبا سريا كتبوه بالأغريقية وذلك بهدف توسيع نطاق دائرة توزيعه وانتشاره بين كافة سكان مصر ، ولأن اللغة الأغريقية كانت اللغة الرسمية للبلاد ، كما أن هذا الأدب أدب صوفي قريب الشبه من الأفكار الصوفية الأفلاطونية ، ومن ثم فأنه تأثر بروحه بالرغم من أن الأفكار الجوهرية الواردة فيه أفكار مصرية بحته . هذا الأدب هو أسفار الرؤيا وأدب النبوءات وهو عبارة عن تنبوءات بالكوارث التى سوف تحيق بالظالمين ، وتحل بالمعتدين ، حتى تأتى عليهم تماما ، بعدها يتحرر المصريون من الذل والهوان ، وترضى عنهم الآلهة ، وترفع عنهم مقتها وغضبها ، وتزيح عن كواهلهم كابوس القمع والأضطهاد ، وذلك عندما تبعث لهم بالبطل المخلص الذى يملأ الدنيا عدلا ونورا بعد ما كانت ظلما وجورا ، ويستعيدون على يديه المجد الضائع ، ويتحقق على يديه العصر الذهبي الجديد . وهذا الأدب يعرف أحيانا « بأدب المنتظرين » ولقد تأثر الفكر التوراتي العبراني كثيرا بهذا الفكر المصرى كما تأثرت به الأناجيل أو العهد الجديد . وأقدم بردية وصلت الينا تحمل بشائر هذا الأدب هى جزء من نبوءة شهيرة عرفت بأسم « نبوءة الفخرانى » إشارة الى الرب المصرى خنوم Khnum الذي خلق الأنسان من صلصال كالفخار وظهر مصورا وهو يشكل ملامحه قبل أن يبعث فيه الروح .

أن أدب الرؤيا المصرى أدب باطني غير محدد بنص أو رواية وإنما هو أدب متنامي مفتوح للأضافة ، ولذلك فقد ضم الكثير من الخرافات والتهوسات الصوفية والوطنية ، والأفكار والشعارات التى وفدت من الثقافات الأخرى خاصة الأغريقية ، والفارسية ووظفوها لخدمة الهدف العاطفي ، وهو الخلاص من الظلم وانقاذ البلاد من الجور والعجز والخوف ، أن فكرة الخلاص ولدت فى مصر فأوزوريس هو المخلص الأول لمصر ، وضحى بحياته من أجل هذا الخلاص فأستحق أن يعبد ويصبح ربا . ولقد تأثر اليهود الذين عاشوا فى مصر منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد بهذا الفكر فأستعاروها وبنوا عليها فكرة المسيح المنتظر لخلاص

بني إسرائيل . إن نبؤءة الفخرانى الأصلية تداولها المصريون فى عصور الأنحطاط التى عصفت بالبلاد بعد سقوط الأسرة العشرين (١٠٨٥ ق م) آخر الأسرات القوية ، لكن أعيدت صياغتها باللغة الأغريقية ، وظلت توزع وتتداول حتى القرن الثالث الميلادى ، والفكرة الأساسية فيه هو التنبؤ بما سيحل بالبلاد والعباد خلال الف سنة قادمة . ولقد عثر على بردية في اوكسيرينخوس تعتبر أطول بردية وصلت الينا حول هذا النوع من الأدب وهذه ترجمة لها :

« أما بالنسبة لعديمى التقوى فسوف يتسيدهم ملك من الشام وسوف يسلب من هذا الشعب ثرواته الكبيرة ، وسوف تذل عشيرتهم وسوف تموج بلادهم بالأضطراب مجرد شذرة من ذاتها السابقة وسوف تسير نحو النهاية ذاتها من أجل ذلك الواحد . وسوف يعصف الموت الكبير بالأماكن العالية . وسوف تهجر مدينة ذوى النطاق الحديدى (ويقصد روما) ، وسيتحرر الرقيق . وسيفقد سادتهم حياتهم ، وتهلك بناتهم العذراوات ، وسوف يحول الرجال أزواج بناتهم إلى خصيان ، ويرتكبون الفحشاء مع أمهاتهم ، وسوف يجبرون على تقديم ابنائهم الذكور قرابين ، وسوف يغادر ربهم الحامى لهم مدينتهم تاركاً اياها فى فقر ومذلة وسوف يرحل إلى منف موطن الرب . وسوف تنتهى محنتنا عندما ... تهجر مدينة ذوى النطاق الحديدى مثلما هجرت قمينى (أى قمين صانع الفخار) جزءاً للمعاصى التى إرتكبوها وسيعود [العدل] لينتقل إلى مصر ، وسوف تصبح المدينة الواقعة على البحر [يقصد الاسكندرية] مجرد مكان يجفف فيه الصيادون ما إصطادوا لأن كنيفيس [يقصد إمحتب] الرب الحامى سيكون قد رحل إلى منف حتى أن المارة من الناس سوف يقولون : هذه هى المدينة مطعمة الجميع والتى فيها عاشت كل أجناس البشر : [اشارة إلى أسطورة بناء الاسكندرية ونبوءة العرافين لها عند بنائها] ، وسوف تزداد مصر عدداً عندما ... موزعة النعم تأتى من الشمس وسوف تنصبها هناك الربه [إيزيس] ، شديدة العظمة ، حتى أن الذى يعيشون حتى ذلك الحين سوف يصلون ، وسينهض [من القبور] أولئك الذين كانوا قد رحلوا لينالوا حظهم من النعم بعد أن إنتهت الامنا(٢١) .

لم يسمع إدوارد جيبون عن نبوءة الفخرانى عندما كتب مؤلفه العظيم : تدهور وسقوط الأمبراطورية الرومانية Decline and Fall of the Roman Empire لأنه عندما إكتشفت بردية نبوءة الفخرانى كان قد مر على وفاته تسعه وتسعون عاماً ، ولو كان قد عاش ليقرأ وثائق البردى من مصر الرومانية لغير من أفكاره الفلسفية النظرية وملأها بالواقع التاريخى ، أذ أنه لم يذكر

مصر ولادورها إلا عند ذكره واقعة سقوطها فى إيدي العرب ، ولاندرى بما كان سيفسر حدوث الثورات فى مصر التى اصبحت غارفة فى الفوضى خلال عصرى أنطونينوس بيوس وماركوس أوريليوس آخر سلسلة الأباطرة الرومان الذين أشاد بعصرهم وقوتهم عندما بلغت الأمبراطورية أوج عظمتها على أيديهم وأسماهم بالصالحين ؟ « ربما رد علينا بطريقته الفلسفية » : مع اكتمال القوة تولد النهاية !.

هوامش الفصل التاسع

(1) P. Giss 27 == (عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ص ١٩٦ - ١٩٧)
W. Chrest, 17

(٢) مدينة هيروونوبوليس تعنى باليونانية مدينة الصقر رمز حورس الرب المحارب والحامى لأرض مصر ، أما أسمها بالمصرية فهو بينوم Phithom وهى مدينة وقاعدة عسكرية أسسها المصريون فى عصر الدولة الحديثة وبعد طرد الهكسوس ليبدأ منها طريق حورس الحربى المتجه إلى الشام انظر . سليم حسن - مصر القديمة - المجلد التاسع ص ١٦٩ كذلك .

Flinders Petrie: Phithom.

(3) Dio chrysostomos, orations, 32, section 31.

(4) Dion cassius, Histories. Loeb classical Library (translated by M. cary).

(5) Vergil, Aeneid, Book 6, Verse 851-3.

(٦) سيد أحمد الناصرى . تاريخ الأمبراطورية الرومانية ، ص ١٠٧ .

A Wallace - Hadrill, Historia, 30 (1981) pp 298-323.

(7) Seneca: Consolation addressed to Helvia, chapter 19

(8) Momigliano, Alien wisdom, p 4.

(9) H. Musurillo, Acts of the Pagan Martyrs, Oxford, 1954, and Acta Alexandrinorum, Leipzig 1961.

أنظر عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ص ١٢٦ ومابعدها .

(10) C.H Roberts, Journal of Roman Studies, 39, (1949) p 79.

(١١) سليم حسن الأدب المصرى القديم ، القاهرة ١٩٤٨ .

لويس بقطر تأملات فى الأدب المصرى القديم ، مكتبه الشباب (٢٨) (١٩٩٥) .

(12) W. Chresto 14 = Musurillo, Op cit, Text IV, A = N Lewis op cit, p 199-200.

كذلك أنظر ترجمة عبد اللطيف أحمد على المرجع السابق ، ص ١٢٧ - ١٢٩ .

(13) P. Oxy 33 = P. Yale, Inv 1536 [Published in Transactions of the

American Philolgical Associations 67, 1936.

(14) Tacitus, Histories, I, 11.

عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ص ١٧٨ .

(15) N Lewis, op cit, P 201-202; Milne, op cit, P 63-64.

(16) S.B. 4284 = Lewis, op cit, P 204.

(17) P. Oxy 1408 = Select Papyri , Vol II, no 224.

(18) B.G.U 372 = W chrest, 19.

(19) Philostratos: Life of Apollonius of Tayana, I, chapter 24.

(20) cf Milne, op cit., P 50.

(21) P Oxy, 2332 = Lewis, op cit, pp 206-207.

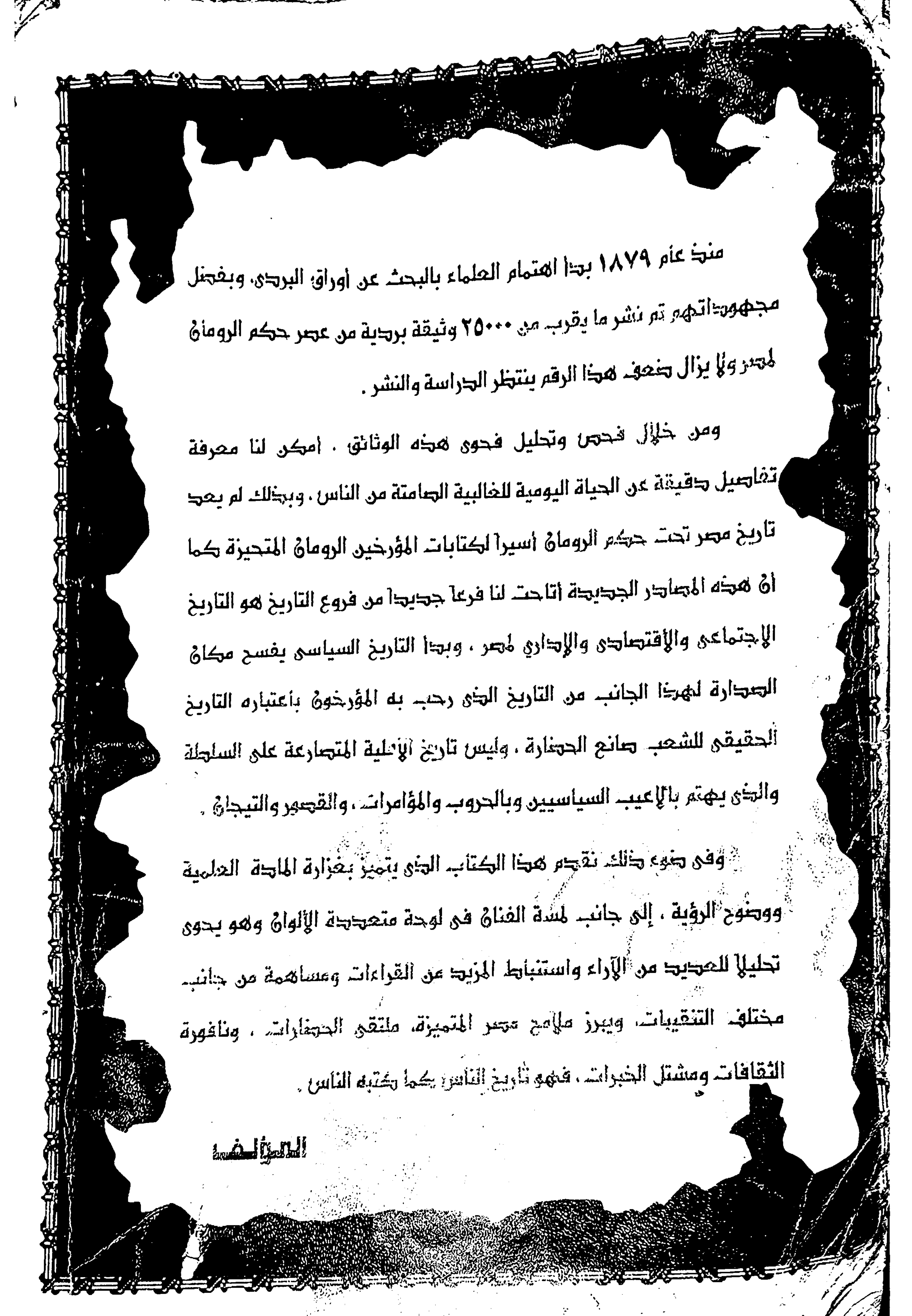
محتويات الكتاب

تم الطبع بمطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعى
المدير العام
البرنس حموده حسين عمر

رقم الايداع : ٨٢٤٤/ ١٩٩٥

الترقيم الدولي ٩٧٧ - ٠٤ - ١٤٨٢ - ٠

مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى ١٤٠٦/١٩٩٤/١٠٠٠



منذ عام ١٨٧٩ بدأ اهتمام العلماء بالبحث عن أوراق البردي، وبفضل مجهوداتهم تم نشر ما يقرب من ٢٥٠٠٠ وثيقة بردية من عصر حكم الرومان لمصر ولا يزال ضعف هذا الرقم ينتظر الدراسة والنشر .

ومن خلال فحص وتحليل فحوى هذه الوثائق ، أمكن لنا معرفة تفاصيل دقيقة عن الحياة اليومية للغالبية الصامتة من الناس ، وبذلك لم يعد تاريخ مصر تحت حكم الرومان أسيرا لكتابات المؤرخين الرومان المتحيزة كما أن هذه المصادر الجديدة أتاحت لنا فرعا جديدا من فروع التاريخ هو التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والإداري لمصر ، وبدأ التاريخ السياسي يفسح مكان الصدارة لهذا الجانب من التاريخ الذي رحب به المؤرخون باعتباره التاريخ الحقيقي للشعب صانع الحضارة ، وليس تاريخ الأخلية المتصارعة على السلطة والذي يهتم بالاعيب السياسيين وبالحروب والمؤامرات ، والقصور والتيجان .

وفي ضوء ذلك نقدم هذا الكتاب الذي يتميز بغزارة المادة العلمية ووضوح الرؤية ، إلى جانب لمسة الفنان في لوحة متعددة الألوان وهو يحوي تحليلا للعديد من الآراء واستنباط المزيد عن القراءات ومساهمة من جانب مختلف التنقيبات، ويبرز ملامح مصر المتميزة، ملتقى الحضارات ، ونافورة الثقافات ومشتل الخبرات ، فهو تاريخ الناس كما كتبه الناس .

المؤلف